المركز القومي للترجمة



المشروع القومي للترجمة

قاموس عاشق لمصر

تأليف
روبير سوليه

ترجمة
عادل أسعد الميري

1800

قاموس عاشق لمصر

المركز القومى للترجمة
إشـراف : جابر عصفور

- العدد : 1800
- قاموس عاشق لمصر
- روبير سوليه
- عادل أسعد الميرى
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب :

DICTIONNAIRE AMOUREUX DE L'EGYPTE

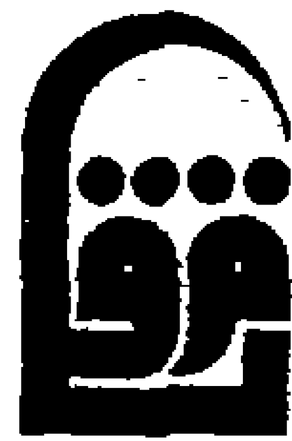
Par: Robert Solé

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

قاموس
عاشق لمصر

تأليف : روبير سوليه

ترجمة : عادل أسعد الميرى



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سوليه ، روبير.
قاموس عاشق لمصر / تأليف: روبير سوليه، ترجمة: عادل أسعد الميرى.
ط١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١١
٤٩٦ ص ، ٢٤ سم
١ - مصر - وصف ورحلات - معاجم .
٢ - اللغة العربية - معاجم .
(أ) الميرى ، عادل أسعد (مترجم)
(ب) العنوان ٩١٦.٢٠٣

رقم الإيداع ٢٥٠٨٦/ ٢٠١٠
الترقيم الدولى 978-977-704-431-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

مقدمة المترجم 13

مقدمة المؤلف حب من مرحلة الطفولة 19

١ – حى العباسية / ABBASSEYA 23

٢ – معبد أبوسمبل / ABOU SIMBEL 25

٣ – جريدة الأهرام / ALAHRAM 29

٤ – أوبرا عايدة / AïDA 32

٥ – الفرعون أخن آتون / AKHENATON 35

٦ – الإسكندرية / Alexandrie 38

٧ – أمريكا / AMERICA 44

٨ – الحمار المصرى / ANE 46

٩ – الأرمن / ARMENIENS 48

١٠ – الفن الفرعونى / ART PHARAONIQUE 51

١١ – أسوان / ASSOUAN 55

١٢ – الأزهر / AZHAR (AL-) 58

١٣ – البقشيش / BAKCHICH 60

١٤ – البوّاب / BAOUAB 63
١٥ – مكتبة الإسكندرية / BIBLIOTHEQUE D ALEXANDRIE 64
١٦ – البيرة / BIERE 67
١٧ – بطرس بطرس غالي / BOUTROS-GHALI 69
١٨ – مقاهى القاهرة / CAFES DU CAIRE 72
١٩ – قناة السويس / CANAL DE SUEZ 75
٢٠ – شم النسيم / CHAM EL-NESSIM 80
٢١ – شامبوليون / CHAMPOLLION (JEAN-FRANCOIS) 82
٢٢ – الشيشة / CHICHA 89
٢٣ – السينما المصرية / CINEMA 90
٢٤ – المرور / CIRCULATION 96
٢٥ – مدينة الموتى / CITE DES MORTS 101
٢٦ – الملكة كليوباترا / CLEOPATRE 103
٢٧ – القناصل تجار الآثار / CONSULS-ANTIQUAIRES 107
٢٨ – الأقباط / COPTES 111
٢٩ – القطن المصرى / COTON 116
٣٠ – التمساح المصرى / CROCODILE 119
٣١ – داليدا / DALIDA 121
٣٢ – الرقص الشرقى / DANSE DU VENTRE 123

٣٣ - سكان مصر / DEMOGRAPHIE 127
٣٤ - صحراء مصر / DESERT 131
٣٥ - الآلهة والأرباب / DIVINITES 135
٣٦ - الراية المصرية / DRAPEAU 139
٣٧ - حقوق الإنسان / DROITS DE L HOMME 141
٣٨ - الجمل ذو السنم الواحد / DROMADAIRE 144
٣٩ - لادى داف جوردن / DUFF-GORDON (LADY) 147
٤٠ - الكُتّاب الرحّالة / ECRIVAINS-VOYAGEURS 150
٤١ - معبد إدفو / EDFOU 155
٤٢ - علماء المصريات / EGYPTOLOGUES 160
٤٣ - جنون مصر القديمة / EGYPTOMANIE 165
٤٤ - المهاجرون المصريون / EMIGRES 169
٤٥ - الوعى البيئى / ENVIRONNEMENT 172
٤٦ - ختان البنات / EXCISION 176
٤٧ - الملك فاروق / FAROUK 179
٤٨ - الفاطميون / FATIMIDES 182
٤٩ - الفلاح / FELLAH 185
٥٠ - فلايك / FELOUQUES 188
٥١ - الحركة النسائية / FEMINISME 190

٥٢ – الموظفون / FONCTIONNAIRES 193
٥٣ – كرة القدم / FOOTBALL 196
٥٤ – الملك فؤاد الأول / FOUAD 1er 197
٥٥ – الفول المدمس / FOUL 200
٥٦ – الفرانكوفونية / FRANCOPHONIE 201
٥٧ – الجلابية أو الجلباب / GALLABEYA 209
٥٨ – الجاموسة / GAMOUSSE 210
٥٩ – فنون المطبخ المصرى / GASTRONOMIE 212
٦٠ – الإغريق / GRECS 215
٦١ – هليوبوليس – مصر الجديدة / HELIOPOLIS 218
٦٢ – الكتابة الهيروغليفية / HIEROGLYPHES 223
٦٣ – روح الدعابة والمرح / HUMOUR 227
٦٤ – طه حسين / HUSSEIN (TAHA) 230
٦٥ – إن شاء الله / INCHA ALLAH 235
٦٦ – التعليم / INSTRUCTION 237
٦٧ – إيزيس / ISIS 239
٦٨ – الإسلام / ISLAM 245
٦٩ – الأصوليون الإسلاميون / ISLAMISTES 248
٧٠ – الإيطاليون / ITALIENS 252

٧١ – اليسوعيون / JESUITES 256
٧٢ – يوميات نائب فى الأرياف / JOURNAL D UN SUBSTITUT DE CAMPAGNE ... 258
٧٣ – يهود مصريون / JUIFS 262
٧٤ – معبد الكرنك / KARNAK 268
٧٥ – رياح الخماسين / KHAMSIN 273
٧٦ – خواجة / KHAWAGA 276
٧٧ – الخديوى / KHEDIVE 277
٧٨ – إدوارد ويليام لين /LANE (EDWARD WILLIAM) 279
٧٩ – اللغة العربية / LANGUE ARABE 280
٨٠ – الأدب / LITTERATURE 282
٨١ – معلهش (ما عليه شيء) / MAALESH 287
٨٢ – نجيب محفوظ / MAHFOUZ (NAGUIB) 288
٨٣ – المماليك / MAMELOUKS 291
٨٤ – الزواج / MARIAGE 295
٨٥ – مارييت (أوجست) MARIETTE (AUGUSTE) 298
٨٦ – مزاج / MAZAG 301
٨٧ – مظبوط / MAZBOUT 303
٨٨ – البحر المتوسط / MEDITERRANEE 305
٨٩ – مآذن القاهرة / MINARETS DU CAIRE 308

٩٠ – محمد على / MOHAMMED ALI 311

٩١ – الرهبان / MOINES 315

٩٢ – المومياوات / MOMIES 321

٩٣ – حسنى مبارك / MOUBARAK (HOSNI) 327

٩٤ – المشربيات / MOUCHARABIEH 328

٩٥ – مولد / MOULED 331

٩٦ – المتاحف / MUSEES 334

٩٧ – الموسيقى / MUSIQUE 337

٩٨ – جمال عبد الناصر / NASSER (GAMAL ABDEL) 341

٩٩ – نفرتارى / NEFERTARI 348

١٠٠ – النيل / NIL 350

١٠١ – النوبة / NUBIE 355

١٠٢ – المسلات / OBELISQUES 358

١٠٣ – الاحتلال البريطانى لمصر/ OCCUPATION BRITANNIQUE 361

١٠٤ – الطيور / OISEAUX 364

١٠٥ – أم كلثوم / OUM KALSOUM 367

١٠٦ – الخبز / PAIN 371

١٠٧ – نخيل البلح / PALMIER 373

١٠٨ – البردى / PAPYRUS 376

١٠٩ – التراث القومى المصرى / PATRIMOINE 378

١١٠ – الحـجـاج / PELERINS 382

١١١ – فرعون / PHARAON 385

١١٢ – فنار الإسكندرية / PHARE D ALEXANDRI 388

١١٣ – معبد فيلا / PHILAE 391

١١٤ – حجر رشيد / PIERRE DE ROSETTE 395

١١٥ – الذوق والأخـلاق / POLITESSE 398

١١٦ – وجـوه الفـيّـوم / PORTRAITS DU FAYOUM 400

١١٧ – جريدة البروجريه المصرية / PROGRES EGYPTIEN (LE) 402

١١٨ – الأهرامات / PYRAMIDES 404

١١٩ – رباعية الإسكندرية / QUATUOR D ALEXANDRIE 408

١٢٠ – رمضان / RAMADAN 413

١٢١ – رمسيس الثانى / RAMSES 2 416

١٢٢ – أغنياء وفقراء / RICHES ET PAUVRES 420

١٢٣ – دافيد روبرتس / ROBERTS (DAVID) 423

١٢٤ – أنور السادات / SADATE (ANOUAR EL-) 425

١٢٥ – السان سيمونيون / SAINTS-SIMONIENS 428

١٢٦ – الساقية / SAQIA 432

١٢٧ – سقارة / SAQQARA 433

١٢٨ – علماء بونابارت / SAVANTS DE BONAPARTE 436
١٢٩ – الكاتب المصرى / SCRIBE 443
١٣٠ – عمر الشريف / SHARIF (OMAR) 445
١٣١ – فندق شبرد / SHEPHEARD 447
١٣٢ – العطش / SOIF 450
١٣٣ – أبو الهول / SPHINX 453
١٣٤ – الخرافات / SUPERSTITIONS 455
١٣٥ – شجرة الجمّيز / SYCOMORE 459
١٣٦ – السوريون فى مصر / SYRIENS 461
١٣٧ – رفاعة رافع الطهطاوى / TAHTAOUI (RIFAA-AL) 463
١٣٨ – الطربوش / TARBOUCHE 466
١٣٩ – توشكا / TOCHKA 468
١٤٠ – السياح / TOURISTES 469
١٤١ – الملك توت عنخ آمون / TOUTANKHAMON 472
١٤٢ – المدن المصرية الجديدة / VILLES NOUVELLES 476
١٤٣ – الحجاب / VOILE 477
١٤٤ – سعد زغلول / ZAGHLOUL (SAAD) 480

مقدمة المترجم

كنت قد تعرّفت على المؤلف لأول مرة عندما عرفت أن له رواية أقرب إلى السيرة الذاتية، يسمّيها حكاية (الانتماء الضائع)، أو(الطربوش)، عند ظهورها سنة ١٩٩٢ ، ثم حضر مؤلفها إلى القاهرة لإلقاء محاضرة تتعلق بموضوع الرواية، فى المركز الثقافى الفرنسى بالمنيرة. لم أكن قد بحثت عن النص الفرنسي، ولكنى بمجرد مشاهدة الترجمة العربية فى (دار المعارف)، حصلت عليها وانقطعت لقراءتها وتخيل أحداثها، وانتهيت من ذلك خلال يومين متتاليين رغم كون الرواية تقع فى ٣٤٠ صفحة.

تدور أحداث الرواية حول عائلة (بطرخانى)، تلك العائلة التى حضرت إلى دمياط (شمال الدلتا عند مصب نهر النيل)، التى كانت مدينة تجارية مهمة عند حضور العائلة إليها سنة ١٨٦٠، هربًا من أحداث دموية ومذابح وقعت فى مدينة دمشق، تحت الاحتلال العثمانى، وأدت إلى هروب مسيحيى سوريا أولاً إلى بيروت، ثم ثانيًا بالبحر إلى دمياط ومنها إلى القاهرة.

تستمر أحداث الرواية فى تتبع الأجيال المتتالية من أفراد تلك العائلة (بطرخانى) من سنة ١٨٦٠ إلى سنة ١٩٦٠، ثلاثة أجيال متتالية، أقامت فى القاهرة بين أحيائها المختلفة. أولاً فى حى شبرا، عندما كان شارع شبرا هادئًا وتحف به الأشجار من الجانبين فى أواخر القرن التاسع عشر. ثانيًا فى فيلا فى جاردن سيتى فى فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. ثالثًا فى منازل وفيلات ضاحية مصر الجديدة التى ازدهرت أحوالها جدًا فى ثلاثينيات القرن العشرين، فاجتذب جمالها وهواءها الجاف (لوقوعها على أطراف الصحراء) عشرات الآلاف من القاهريين.

سكن (سليم يارد) والد المؤلف فى ضاحية مصر الجديدة ، فيلا جميلة كان قد حلم ببنائها سنوات طويلة، ولكنه اضطر إلى تركها عائداً إلى بيروت فى أوائل الستينيات من القرن العشرين، عندما أممت حكومة مصر أمواله، وفى غالب الأمر فإن تلك الفيلا الجميلة قد ذهبت فيما بعد إلى أحد بارونات العهد الجديد، عميد فى الجيش (كولونيل) اسمه حسن صبرى.

كان المؤلف (روبير) قد ولد سنة ١٩٤٦ فى المستشفى الفرنسى بالعباسية، وهو الذى يعمل فيه عمه (روجيه) طبيباً. لم يعش المؤلف فى بيت شبرا قط، ولا حتى فى بيت جاردن سيتى ، لكنه يتذكر بوضوح ملامح فيلا مصر الجديدة التى عاش فيها حتى كان فى السادسة عشرة من عمره، عندما اضطر إلى السفر مع والده وبقية أفراد أسرته إلى بيروت، ثم ليستقر أخيراً فى فرنسا التى يبقى فيها حتى الآن، ليحصل على شهادات جامعية فى الأدب والصحافة، يعمل صحفيًا فى جريدة لوموند الفرنسية.

من ضمن الشخصيات الجميلة فى الرواية ، شخصية العرّاب (الأب الروحى) الحالم (ميشيل)، الذى كانت كراسات مذكراته وألبومات صوره وصور العائلة على مدار خمسين عامًا، هى المصدر الأساسى للمعلومات، التى مكنت المؤلف (روبير سوليه) من كتابة هذه الرواية. كما أن هناك شخصية الأب اليسوعى (أندريه) الذى كان قد وهب حياته تمامًا للدين والعلم والتدريس، وكان له هو كذلك تأثير كبير على تكوين المؤلف الأدبى. ثم إن هناك كذلك شخصية (ففيان) الشابة الجميلة التى كانت قد أحبت أباه (سليم يارد) ، وذلك قبل زواج الأب من أمه، وكانت مراتع هذا الحب هى سينما مترو، ومحل جروبى بالقاهرة، ثم شواطئ الإسكندرية فى سيدى بشر، ثم فى جليم والعجمى فى فترة منتصف الأربعينيات.

لا يزال المؤلف (روبير سوليه) يحضر إلى مصر كلما أمكنه ذلك، فهو يعتبر نفسه مواطنًا مصريًا، ولا ينسى أبدًا طفولته وبداية شبابه فى مصر، ويتذكر دائمًا بحنين

بالغ كل ما يتعلق بحياته فى مصر. وليست هذه الرواية (الطربوش) هى الدليل الوحيد على حبه العميق لمصر، ولكن هناك كذلك العمل الرائع الذى صدر له منذ سنوات تحت عنوان (مصر ولع فرنسى) فى حوالى ٤٠٠ صفحة ، ويحكى فيه قصة الحب المتبادل بين مصر وفرنسا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، بدقة أكثر منذ حملة بونابارت وحتى الوقت الحالى.

صدر الكتاب الذى نحن بصدده، للمؤلف روبير سوليه، ضمن سلسلة كتب شهيرة فى فرنسا، تتنوع موضوعاتها بشكل كبير، وتحمل السلسة (كتاب فى عشق كذا)، أو (قاموس فى حب كذا)، أو (قاموس عاشق لكذا)، والكلمة (كذا) يمكن أن تكون الموسيقى أو الشعر أو السمك أو الصيد أو الرحلات أو بلاد العالم، الشرط الوحيد الذى تفترضه السلسلة فى المؤلف الذى يتصدّى لموضوع، هو أن يكون المؤلف ملمًا تمامًا بالموضوع.

وكما يذكر المؤلف فى مقدمته، فإنه عاش فى مصر كل فترة طفولته، والجزء الأكبر من فترة مراهقته، حتى سن السابعة عشرة، ومن المعروف أن شخصية الإنسان والاهتمامات الأساسية فى حياته تتشكل فى تلك المرحلة من العمر. تتسرب إلى كيانه بشكل لا إرادى، كل الأشياء التى سيحبها خلال بقية حياته. أحب روبير الطفل والمراهق، كل تفاصيل حياته فى مصر، ليست لديه عن طفولته ومراهقته أية انطباعات سلبية على الإطلاق، عن مصر منذ ١٩٤٦ (سنة مولده) إلى ١٩٦٢ (السنة التى غادر فيها مصر)، ليس هناك إلا حنين جارف إلى كل شىء.

إلا أنه أثناء العمل فى الترجمة وجدت أن لى بعض الملاحظات على بعض المعلومات الواردة فى بعض الموضوعات، وحيث إن عملى مترجما لا يسمح لى بالتعليق داخل النص، بالتالى فقد وضعتها وحدها هنا، وسأضرب بعض الأمثلة:

١ – فى موضوع (سقارة)، ذكر المؤلف أن الكلمة مشتقة من الكلمة العربية (صخر)، والواقع أن كل النظريات العلمية تذكر أن الكلمة مشتقة من اسم الإله (سوكر)، أحد آلهة العالم الآخر فى مصر القديمة، وبعض النظريات الأخرى تذكر الصلة التى قد تكون بين الهرم المدرّج فى سقارة، والمبانى المدرجة فى العراق القديم والمعروفة باسم (زيجورات).

٢ – فى موضوع (اليهود)، ذكر المؤلف أن كلمة إسرائيل لم ترد فى أى مصدر مصرى قديم، وهذا غير صحيح، فهناك لوحة تذكار انتصارات مرنبتاح، والموجودة بالمتحف المصرى، وبها اسم إسرائيل كأحد الشعوب المهزومة أمام مرنبتاح.

٣ – فى موضوع (الموالد)، ذكر المؤلف أن مولد السيد البدوى بمدينة طنطا، يكون خلال شهر أغسطس، والواقع أن هذا المولد يأتى دائما فى الأسبوع الأول من شهر أكتوبر.

٤– فى موضوع (التراث الوطنى)، ذكر أن تجميد إيجارات المساكن حدث سنة ١٩٥٢، والواقع أنه كان ضمن القرارات الاشتراكية الصادرة سنة ١٩٦٢ .

٥– فى موضوع (محفوظ)، ذكر أن كل رواياته تدور أحداثها بالقاهرة، إلا رواية واحدة هى (ميرامار)، والواقع أن هناك رواية ثانية تدور أغلب أحداثها فى الإسكندرية، هى رواية (السمّان والخريف).

كما أن هناك بعض المشكلات الفنية، أعرضها عليكم هنا باختصار:

● ترجمة أسماء بعض الأفلام العربية بطريقة مختلفة فى فرنسا، مثلا حين يصبح اسم فيلم (باب الحديد) ليوسف شاهين هو (المحطة المركزية)، وهى مسألة يمكن تخمينها بسهولة.

● ترجمة عنوان المجموعة القصصية (عجين الفلاحة) للأديبة سلوى بكر، إلى عنوان فرنسى مختلف هو (قصص لا يمكن تصديقها)، مما استدعى البحث فى الإنتاج

الأدبى لهذه الأدبية، ومعرفة سنة الإنتاج، للعثور على الاسم الأصلى للمجموعة القصصية.

• ومشكلة من نوع آخر هى عند الحديث عن معلومات يعرفها القارئ الفرنسى العادى، ولا يعرفها فى مصر إلا القارئ المتخصص، عندما يذكر المؤلف مثلا أن أحداثا معيّنة كانت معاصرة للجمهورية الثالثة، أو أن الذى قام بهذا العمل هو شارل العاشر، أو أن الشخص الذى يتحدث عنه هو من إقليم الألزاس، أو من إقليم لونجدوك، أو من مدينة فيجاك، ففى مثل هذه الحالات وجدت أن أفضل حل هو وضع التاريخ الدال على الجمهورية الثالثة أو شارل العاشر، أو الموقع الجغرافى للإقليم الفرنسى، وإن كانت له دلالات، أضع هذه المعلومات بين قوسين من هذا النوع [ ]، فى حين تظل المعلومات الواردة على لسان المؤلف، أو الموجودة فى نص كتابه ولكن مستعارة من مؤلفين آخرين، داخل نوع مختلف من الأقواس، هى هذه الأقواس ( ).

• ثم هناك نوع آخر من المفردات يستعملها المؤلفون الأوروبيون، بالاستعارة من مؤلفات أوروبية شهيرة، لا تحتاج من القارئ الأوروبى إلى أى مجهود فى التعرف عليها، أما لدى القارئ المصرى فهذه الإحالات الثقافية قد لا تعنى أى شيء، وسأضرب لكم هنا مثلين اثنين فقط، الأول فى موضوع الفن الفرعونى، عندما يذكر المؤلف أن هذا يشبه سكان ليليبوت، من منكم يعرف أنها مدينة الأقزام فى رحلات جاليفر، والمثل الثانى هو عندما يستعمل فى موضوع أغنياء وفقراء، لوصف أوضاع المستشفيات الحكومية المصرية، اسم ميدان كان يتجمّع فيه السوقة والقتلة والمجانين، فى رواية أحدب نوتردام لفيكتور هوجو.

• ثم عندما يذكر كل الأسماء والكلمات التالية بدون أى شرح، على أساس معرفة القارئ الفرنسى بها، مثلا أشخاصاً مثل فلوبير أو بيير لوتى، وهما أديبان فرنسيان، أو كلمات مثل الكوزموبوليتانية أو الميتزو سوبرانو، وهما مصطلحان الأول فى علوم السياسة والاجتماع والثانى فى علوم الموسيقى، أو كلمات فى علوم الآثار مثل

أوستراكا أو أرابسك أو سيرابيوم أو هبتاستادويم، أو طراز فيكتورى أو طراز موريسك، ثم الدولة الفرعونية القديمة أو الوسطى أو الحديثة، أو الكنيسة المونوفيزيتية، أو أن مدينة العمارنة هى كاليفورنيا الجديدة، لكل هذا قررت وضع تعريف موجز لأغلب هذه الكلمات داخل الأقواس الدالة على المترجم [ ]، فى أقل عدد من الكلمات، بدون إعاقة انسياب النص الأصلى.

● وحيث إن بعض هذه المفردات الثقافية أو التاريخية أو أسماء الأعلام، قد تتكرر فى موضوعات مختلفة، فبدلا من أن يأتى التعريف فى كل مرة بين أقواس [ ]، وجدت أنه من اللازم الاستعانة بوضع معجم أو ثبت فى نهاية الكتاب، للكلمات والمصطلحات وأسماء الأعلام والأماكن، المتكررة داخل موضوعات الكتاب المختلفة، للكلمة أو المصطلح بالعربية وبالفرنسية، ولأسماء الأعلام والأماكن بالحروف اللاتينية، مع تعريف أكثر إسهابا من ذلك الموجود داخل النصوص، وسيجد القارئ هذه العلامة(*) فى النص، إلى جوار كل الكلمات الموجودة بالمعجم أو ثبت المصطلحات.

● ملحوظة أخيرة تتعلق بترقيم المقالات، وهو غير موجود فى النص الفرنسى، وإضافة الأرقام الدالة على المقالات المرجعية، التى يشير إليها المؤلف فى نهاية أغلب مقالاته، وهى الموضوعات المترابطة بشكل أو بآخر بعضها بعضا، وجدت من الضرورى أن أضيف إلى جوار كل مقال رقمه فى القائمة الكلية للمقالات، وذلك لأن ترتيب المقالات فى النسخة العربية، يتبع ترتيب وجودها فى النسخة الفرنسية، التى ترتب المقالات بدون ترقيم ووفقا للأبجدية الفرنسية.

عادل أسعد الميرى

ملاحظة :

القوسان (   ) من وضع المؤلف .

القوسان [   ] من وضع المترجم .

(*) تحيل إلى ثبت المصطلحات بنهاية الكتاب .

مقدّمة المؤلف

حبّ من مرحلة الطفولة

إن شجرة العائلة تنمو أحيانا بشكل غريب، كما لو أنها كانت ثمار أشواقنا، فأنا الشرقى الذى لا توجد قطرة دمّ فرنسية واحدة فى دمائه، انتهيت عندما كنت تلميذا فى مدرستى بالقاهرة، إلى الاعتقاد بأن أسلافى كانوا من أصول جالية [بلاد الجال هو اسم فرنسا القديم، والجولوا هم أهل فرنسا القدماء]. اليوم وأنا أعيش فى أوروبا، أقابل أوروبيين احتلت مصر القديمة الجزء الأكبر من تفكيرهم، إلى درجة أنهم أحيانا ما يكونون ليسوا بعيدين عن الاعتقاد، أنهم فى الأصل كانوا أطفالا لفراعنة.

إن ما نطلق عليه بفظاظة (جنون مصر القديمة)، ليس مرضا وليس موضة (صرعة)، ولكنه انجذاب عميق يصل إلى حد الوله والافتتان. لقد سقط اليونانيون والرومانيون القدماء صرعى هذا الجنون، ولم تتوقف الحضارة الفرعونية منذ ذلك العصر اليونانى الرومانى، عن الاغواء والإثارة، بآثارها ومومياواتها وعلاماتها الهيروغليفية، وبكل تلك الأسرار الغامضة المفترضة، يضاف إلى ذلك سحر شمس المنظر الطبيعى المصرى، وسحر تلك الصحراء الهائلة التى تعبرها حديقة. وبما أن مصر كانت قد أصبحت أحد مصابيح الإنارة فى الشرق المسلم، فقد أضيف سحر جديد يخرج عن المألوف، إلى سحرها القديم، وقد استمرا معا فى تنشيط الأحلام والخيالات.

هناك طرق متعددة للسقوط فى حب هذا البلد، ليس من بينها بالنسبة إلىّ، الحب من أول نظرة، وذلك بصفتي ولدت فى مصر، وعشت فيها حتى سن السابعة عشرة، وبالتالى لا يمكن أيضًا أن أكون، من بين أولئك الذين تستولى عليهم مصر بغتة وتسحرهم. إنها حب فى مرحلة الطفولة، حتى لو أننى أراها بعيون أخرى، منذ أن عدنا إلى التلاقى بعد فراق طويل. ولأكن أكثر دقة، أنا أنتمى إلى أسرة مسيحية، من أصول سورية لبنانية، كانت عند مولدى، قد استقرت فى مصر منذ عدة أجيال، أسرة أصبحت مصرية، ولكنها استمرت تسبح فى مياه الكوزموبوليتانية [التعددية العرقية واللغوية] التى كانت سائدة وقتها فى مصر.

كانت مصر كونا بلا حدود، ممتلئة بالحماسة وخلو البال، حيث تعلم أناس من انتماءات مختلفة، كيف يعيشون سويا، مسلمون وأقباط ويهود، أرمن ويونانيون وإيطاليون وفرنسيون وشوام، لكن اضطرتهم تقلبات التاريخ أن يديروا هذه الصفحة، وحتى أن يغادروا مصر، فاخترت من جهتى الذهاب إلى فرنسا، والاندماج فيها، دون رغبة فى النظر إلى الخلف. ثم حدث أنه أثناء بحثى فى الماضى، بهدف كتابة روايتى الأولى (الطربوش)، بدأت أدرك حجم مصريتى، ومنذ ذلك الوقت لم تغادرنى مصر.

تتبعت الماضى خطوة خطوة، مكتشفا على التوالى، فترة ما بين الحربين العظميين، ثم الفترة الخديوية، ثم محمد على وحملة بونابارت، ثم المماليك، وهكذا حتى وصلت طبعا إلى مصر القديمة. يجب أن أعترف، أن مصر القديمة لم تكن حتى ذلك الوقت، قد أثارت لدىّ أدنى اهتمام على الإطلاق، كانت لدينا فى القاهرة الأهرامات، وكان هذا كافيا إلى حد بعيد، إذ كنا نعتبر أن الذهاب إلى مصر العليا لاكتشاف المعابد، هى مسألة تخصّ السياح، لأننا كنا نتّجه بأبصارنا إلى الشمال، إلى البحر المتوسط.

اليوم لا يصيبنى أبدا أى كلل أو ملل، من اكتشاف المزيد عن الحضارة الفرعونية، ولكن مصر القديمة لم تتوقف عند كليوباترا، أنا لم أعد بقادر على التوقف عند

كليوباترا، وفصل مصر القديمة عن بقية العصور التالية، وكل عصر منها شيق وجذاب بطريقته، وكلها تخص بلدا أشعر به اليوم بلدى حقيقة. لكنى أقول لنفسى أحيانا أننى لا أعرف هذا البلد، ولكن من يستطيع أن يدّعى أنه يعرفه؟ فنحن لا يمكن أبدا أن ننتهى من مصر.

مصر بالنسبة إلىّ لغز كبير، وكل قطعة جديدة من المعرفة، تأتى لتضىء بعض الشىء، تاريخا طوله ستون قرنا، ومجتمعا سكانه أكثر من سبعين مليونا، والقاموس الذى بين يديك هو خلاصة هذا البحث، فهو ينتقل ببساطة من أبو سمبل إلى جريدة الأهرام، ومن جمال عبد الناصر إلى الملكة نفرتارى، ومن هرم خوفو إلى رباعية الإسكندرية، إنها الوجوه الألف لنفس البلد. طبعا إن الاستيعاب الكامل لهذه الموضوعات مستبعد وغير مقصود. لقد اخترت بعض الشخصيات والأماكن، أو بعض الموضوعات التى من وجهة نظرى بدونها لا تكون مصر هى مصر.

فأنا لا أتخيلها فى الواقع بدون مآذنها وأديرتها، بدون رجل فكر مثل طه حسين، أو مدينة مثل هليوبوليس، أو وجبة مثل الفول، أو حيوان مثل الجاموسة، أو بدون عبارة معلهش. فلو أن كلمات مثل القاهرة، لا توجد ضمن العناوين المائة أربعة وأربعين، لمقالات ومداخل هذا القاموس، فذلك لأن القاهرة موجودة بطول الكتاب فى عشرات المقالات. سيجد القارئ فى هذا القاموس الألف بائى، بعض المناسبات للتسكع خارج نطاق الطرق المألوفة، مع بعض الكتّاب أو الفنانين أو العلماء، أو صنّاع التاريخ، الذين حاولوا على مر الزمان، تفهّم هذا البلد والاحتفاء به وتمثّله، من هيرودوت إلى بيير لوتى، ومن شامبوليون إلى نجيب محفوظ، مرورًا بدافيد روبرتس وأم كلثوم أو عمر الشريف.

إن العقاب ليس طبعًا هو الهدف من قاموس (عاشق)، ولكن كيف يمكننا تجاهل الوجه الآخر للصورة؟ هل يمكن أن أصمت؟ هذا فى نظرى يضعف ويشوّه ويسىء إلى

هذا البلد الذى جئت منه. فبسبب حبى لمصر، واحترامى للمصريين، فإن صفحات القاموس ليست كلها إعجاباً، وإنما بها أيضًا أشياء تدعو إلى القلق، مثل موضوع اتلاف وتبديد تراث البلاد وثرواته الطبيعية، وهناك موضوعات قد تغضب البعض، مثل التعصّب الدينى والتعدّى على الحريات، وموضوعات محرّمة مثل ختان البنات.

إن هذا البلد يفتننى ويعذبنى، وأشعر أكثر بقوة ارتباطى به عندما يعذبنى، فتذهب أفكارى بشكل طبيعى نحو مدافن الروم الكاثوليك الهادئة فى القاهرة، حيث ترقد رفات العديد من أسلافى، إلى جوار بعض شخصيات رواياتى، تحت أشجار يبلغ عمرها مئات السنين.

روبير سوليه

١ - عبّاسية / Abbasseya

لا تبحثوا عن هذا الاسم فى كتب الرحلات وأدلة السفر، فنادرا ما تخصص هذه الكتب لهذا الاسم أكثر من سطر واحد. نحن نفهم دوافع تلك الكتب، ففى العباسية ليس هناك ما يمكن رؤيته، لا شىء على أى الأحوال يمكن أن يثير اهتمام السائح. ورغم ذلك فإن هذا الجزء من القاهرة الكبرى، الذى نعبره للذهاب إلى هليوبوليس، به رجال ونساء وأطفال وشيوخ، يعيشون ويعملون ويحبون ويضحكون ويبكون. فإذا كنت قد توقفت عند هذا الحىّ لأبدأ به كتابى، فإنها صدفة بحتة فرضتها الأبجدية الألف بائيّة، ثم إن هذا التوقف هنا هو بسبب أن هذه الكلمة تتبعنى منذ مدة طويلة حيثما ذهبت، على أوراق إثبات الشخصية وفى كل البطاقات، فأنا لم أولد فى القاهرة، وإنما ولدت فى العباسية، فى عمق أعماق مصر إلى حد ما.

هذا التفرّد يعود إلى حقيقة أننى ولدت فى المستشفى الإيطالى، الكائن فى حىّ العباسية بالقاهرة، وهذه المعلومات ترد بدقة ووضوح على شهادة ميلادى، وهذا هو ما دعا، فى فترة لاحقة من عمرى وأنا مغترب، أحد المترجمين المعتمدين المدققين فى أعمالهم، إلى كتابة ترجمة كلمة العباسية وحدها دون إضافة كلمة القاهرة، ولا شك فى أن هذا كان قد حدث منه فى لحظة من لحظات شروده الذهنى. وهكذا وجدت نفسى منذ ذلك الحين، فى كل مرة أكتب فيها أن مكان ميلادى هو العباسية، مضطرا إلى أن أضيف إلى جوارها كلمة بمصر.

لو كان بإمكانى لكنت اخترت أن يكتب اسم حىّ (هليوبوليس)، وهو الحىّ الممتع الذى ترعرعت فيه، وهذا بالإضافة إلى ارتباط حىّ العباسية فى أذهان المصريين، بمستشفى الأمراض العقلية الموجود بالحىّ منذ عقود طويلة، ولهذا فعندما يقال عن شخص إنه ذاهب إلى العباسية، أو أنه يصلح للعباسية، فإن المعنى فى اللغة الدراجة هو أن هذا الشخص مختل العقل بعض الشىء.

ثم إن الحيّ يستمد اسمه من اسم عباس الأول، الذى تحكم فى مصائر البلاد منذ سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٥٤، الذى كان حفيداً لمحمد على، مؤسس الدولة الحديثة فى مصر، وهكذا أصبح خليفة له. إلا أن عباس لم تكن له رجاحة عقل جده، ولا كان له تفتح ذهنه، باختصار لم تكن له قامة جده. كان عباس محتقرا من الأوروبيين فى عصره، بل يمكن القول إن صورته لديهم كانت خبيثة وكريهة. فى إحدى رسائله كتب فلوبير(*) [أديب فرنسى] أثناء رحلته إلى مصر قائلا للدكتور كلوكيه (لا أخفى عليك سرا إن قلت لك إن عباس أبله، ويجوز كذلك أن نقول إنه معتوه، وهو غير قادر على فهم أى شىء، ولا على فعل أى شىء). وماكسيم دى كامب(*) هو أيضًا فعل نفس الشىء، إذ إنه لم يكن أكثر رحمة بذلك (الرجل الضخم البطين ذى الكرش المنتفخ والوجه الشاحب اللون المتورّم بسبب الإفراط فى الفسق والفجور).

وواقع الأمر أن عباس كان منطويًا على ذاته وشكّاكًا، إلى درجة استشارة جيش من المنجّمين فى كل المجالات التى يتحرك فيها. ومع أن عباس كان قد رفض أن يفتح أبواب مصر أمام العالم الخارجى (كما فعل محمد على)، فإننا ندين له بإقامة أول خط سكك حديد مصرية، بين الإسكندرية والقاهرة، وهو الخط الذى كان قد تم تنفيذه بواسطة مهندسين إنجليز. بالإضافة إلى مجهوداته فى إنشاء حى فى الجزء الشمالى الشرقى من العاصمة، وهو الذى نحن بصدد الحديث عنه، والذى كان مقدرا له أن يحمل اسمه، ولم يكن حتى ذلك الوقت إلا مساحة من الصحراء الجرداء. بدأ عباس ببناء قصر ثم ثكنات عسكرية.

ورغم أنف المنجمّين فإن عباس لم يستطع الفكاك من مصيره المحتوم، ففى ليلة من ليالى شهر يوليو سنة ١٨٥٤، تم اغتياله فى قصره بمدينة بنها، على يد شابين من المماليك، تمكنا لاحقا من الفرار. وحيث إنه كانت هناك محاولات لمنع سعيد باشا، الوريث الرسمى لعرش مصر، من ارتقاء العرش، فقد ظلّ أتباع عباس يتنقلون بجثمانه الموجود داخل تابوته، لمدة ٤٨ ساعة، من قصر إلى آخر، بواسطة الحناطير. ولم تفض

هذه المحاولات إلى أية نتيجة، إذ كان سعيد باشا فى ذلك الوقت قد طلب من الباب العالى الإذن بإجراء مراسم التنصيب، وقد حصل عليه بسهولة. وهكذا دخلت مصر فى مرحلة جديدة، مرحلة عظيمة تتميز بالتوجّه إلى الغرب، وبالكوزموبوليتانية×[حرفيا المدينة الكونية]، أى بالتوجه إلى كل شعوب العالم، وهى المرحلة التى ستدوم خلال حوالى قرن من الزمان. هأنذا أبتعد عن موضوعى الأصلى، ولكنها ليست غلطتى وإنما هى غلطة العباسية.

٢ - أبو سمبل / Abou simbel

كنت مفتونًا تماما بالمنظر. كنت مفعم المشاعر ولكن مع قدر من الإحساس بالعار، لكونى من تلك القلة المميزة، أولئك الذين يستطيعون قضاء الليلة هنا، فقط على بعد بضعة عشرات الأمتار من المعبد. كنا نقف على السطح العلوى للمركب، نتابع عرض الصوت والضوء فى معبد (أبو سمبل)، ورغم أننى لا أتحمس عادة لهذا النوع من العروض، بسبب العبارات الطنّانة المصاحبة للعروض، والتى أجدها عادة مبالغًا فيها، ثم أننى أفضل الزيارات النهارية حين تداعب أشعة الشمس هذه الأحجار. لكننى اكتشفت أن هذا العرض الجديد أقل ابتذالا من غيره. ثم عندما انتهى العرض وأطفئت الأنوار وأشعة الليزر المتعددة الألوان، اكتشفنا أن مرشدنا السياحى النوبى المحبوب فكرى كاشف، الذى كان قد أصبح صديقا شخصيا لى فى ساعات قليلة، يبحر بنا فى تلك الليلة الحالكة السواد، عبر بحار أغانيه النوبية.

فى الصباح المبكر من اليوم التالى، تدبّ الحياة من جديد فى تلك التماثيل العملاقة التى تنظر باتجاه الشمس المشرقة. إن الملك يستيقظ. إن الملك يبتسم. تساءلت هل هو ملك أم إله؟ يبدو أن الجواب هو: إنه الاثنان معا. إن معابد (أبو سمبل) المحفورة فى الصخر، لتمجيد الإله رع والإلهة حتحور، كان ينبغى لها كذلك أن تسمح

لرمسيس الثانى ولزوجته نفرتارى هما أيضاً، بالحصول على قدر من التمجيد والعبادة أثناء حياتهما. لا ينبغى لنا أن نتخيل فى هذا المكان، أن الرجال والنساء هنا يعاملان على قدم المساواة.

إن التماثيل العملاقة للفرعون، على واجهة المعبد الكبير، تسحق كل الشخصيات الملكية الأخرى الموجودة إلى جوارها. وحتى على واجهة المعبد الصغير المخصص لنفرتارى، فإن السيدة المفترضة للمكان، تحظى بعدد تماثيل أقل من نصف تلك المخصصة لزوجها، رغم كون المعبد معبدها هى. ومع ذلك فإن هناك ما يجمع بين هذين الزوجين، وهو قدر كبير من الشجاعة والتمازج، فى اقترابهما من بعضهما إلى هذا الحد، وكذلك فى التشابه بين ملامحهما، وهما محفوران إلى الأبد، فى هذا الصخر الرملى.

إن معابد (أبوسمبل) الواقعة على بعد ٢٨٠ كيلو متراً إلى الجنوب من أسوان، عند المدخل الجنوبى لمصر، كان ينبغى لها أن تثير، فى الشعوب النوبية المحتلة حديثًا، خليطًا من أحاسيس الرهبة والاحترام. إن العماليق الأربعة يبدون كما لو كانوا حراسا مخيفين، قادرين على التطلع إلى خط الأفق ورؤية ما وراءه، ومستعدّين كذلك لإعطاء إشارات التنبيه والتحذير. أو كأنهم قضاة قساة القلوب بلا رحمة، قادرين على توقيع أقصى العقوبة، على من تسوّل له نفسه الاقتراب من هذا الملك الجالس على عرشه، أو هو فى الواقع يظهر أربع مرّات جالسا على عرشه، كما لو كنا هنا أمامه، نقف أمام منصة قضاء يجلس إليها أربعة قضاة.

وبعد تلك المنصة البوابة، نصل إلى داخل المعبد، حيث نجد أن حوائطه الداخلية لا تنتهى أبدا من الاحتفال بانتصارات الفرعون العسكرية، ضد الحيثيين والليبيين والنوبيين، بالإضافة إلى وجود تصوير رائع لمعركة قادش. أما فى المعبد الصغير، فعلى الحائط الذى يمثل ظهر الواجهة، نرى الملك رمسيس من جديد وهو يضرب العدو، ولكن نفرتارى الجميلة الممتلئة رحمة، بيدها اليمنى المرفوعة احتجاجا، تدعوه إلى العفو عن

الأعداء. إن المعبد الصغير يحرك عواطفى أكثر مما يفعل المعبد الكبير، وذلك حتى لو لم يكن للصغير عظمة الكبير واكتماله.

كان المستكشف والمستشرق السويسرى يوهان لودفيج بروكهارت، متنكرا فى شكل تاجر عربى، هو أول أوروبى يعيد اكتشاف (أبو سمبل)، فى ٢٢ مارس , ١٨١٤ فى ذلك الوقت كانت واجهة المعبد الكبير مغطاة تماماً بالرمال، إلى درجة أنه لم يعرف إن كانت تماثيل الملك الضخمة المنحوتة تمثله واقفا أم جالسا؟ سنة ١٨١٧ نجح الإيطالى چيوڤانى بلزونى، بعد فشل مرات عديدة، فى حفر فتحة صغيرة أعلى البوابة، وفى التزحلق منزلقا إلى داخل الأثر، وفى مشاهدة قدس أقداس المعبد. فى يناير ١٨٢٩، كتب چان فرنسوا شامبوليون إلى أخيه رسالة قال فيها (يكفى المعبد الكبير فى إبسامبول، وحده فقط، ليكون هدفا للرحلة إلى النوبة، إنه تحفة).

كانت حوالى ثلاثة أرباع كل من المعبدين (الكبير والصغير) حتى ذلك الوقت مغطاة بالرمال، ولن ترفع الرمال تماما عن هذين المعبدين إلا بعد ذلك بثمانين عاما (أى فى أوائل القرن العشرين). ثم إن من كان عليه الذهاب إلى هناك لفك شفرة العلامات الهيروغليفية، أو لأخذ بيانات – فى هذا الفرن القائظ الحرارة – كان يكتفى بارتداء سروال قصير فقط لا غير، ثم يدخل المعبد ممسكا بشمعة فى يده، وإن كان هذا لا يمنع فقدانه لكمية كبيرة من العرق. وقد اكتفى بعض الرحّالة الأوروبيين، بحفر أسمائهم على الأحجار. وهكذا فإن واجهة المعبد ما زالت تحمل فضيحة وجود اسم (ديليسبس)، بحروفه الكبيرة، وكذلك اسم برناردين دروڤتى قنصل فرنسا على زمن محمد على، الذى لم يتصرّف بشكل أفضل عندما ترك اسمه على أحد الحوائط الداخلية، ومما زاد الطين بلّة أنه نقش اسمه داخل أحد الخراطيش.

فى وادى النيل ليس هناك موقعٌ آخر مثل (أبو سمبل)، يمكن أن يعبّر عن تلاقى الأزمنة عبر القرون، فهنا يتمثل على أفضل وجه الالتقاء المستمر بين الماضى والحاضر، وذلك لأن (أبو سمبل) يجسّد نموذجين اثنين للجرأة التكنولوجية بينهما أكثر من ثلاثة

آلاف عام. الأول هو أن هذه المعابد كانت تحفة معمارية مذهلة تتخطى كل مقاييس عصرها، ومن بين مئات التفاصيل الصغيرة، يمكننا أن نشير فقط إلى بعض التفاصيل التي تسمح لنا حاليًا بإدراك حجم الإتقان الهائل، في تنفيذ هذه المعابد، على زمن رمسيس الثاني.

فإن شعاع الشمس المشرقة، يتسلّل عبر بوّابة المعبد الكبير، عابراً ظلمات صالتيْ الأعمدة، واصلا إلى قدس الأقداس، ليمسح برفق على وجوه تماثيل هارماكيس ورمسيس وآمون رع، وهو - أي شعاع الشمس - يفعل ذلك في يومين محددين من العام، هما يوما الاعتدالان الربيعي والخريفي، كما لو أنه كان يريد بذلك المسح على الوجه، أن ينفخ في هذه الكائنات من جديد قدرا من الطاقة الإلهية. فقط بتاح، الإله الخالق لما عداه من الإلهة، يظل في الظل، لا تصله أشعة الشمس في هذين اليومين، لأنه بصفته موجودا قبل خلق الشمس، فهو ليس في احتياج إلى أشعتها. طبعا اليوم لم تعد هذه الوسيلة مؤثرة قدر التأثيرالذى كان لها في الزمن القديم، إذ أصبح المعبد مضاء بالكهرباء طول الوقت طوال العام لخدمة السياح.

الإنجاز الثاني تم في ستينيات القرن العشرين، إذ تم نقل المعبدين من موقعهما القديم، تحت إشراف اليونسكو، قبيل بدء تشغيل السد العالي في أسوان، وذلك لتجنّب أن تبتلعهما مياه البحيرة المتكوّنة في النيل بسبب السد. فبعد أن كان قد تمّ استبعاد مشروعات طموحة، مثل ذلك الذى أراد تعويم المعبدين داخل صندوقين هائليْ الضخامة، تقرر رفع المعبدين إلى مسافة ستين مترًا فوق مستواهما الأصليّ، ووضعهما على تلّ يقع بالقرب من موقع التلّ الأصليّ.

هكذا تمّ تقطيع المعبدين إلى أكثر من ألف قطعة، ثمّ تقوية هذه القطع بحقنها براتنجات صناعية حتى لا تتحطم، ثمّ تمّ نقلها. ولغرض إعادة البناء، أقيمت قبتان هائلتان من الإسمنت المسلّح، تظهران خلف المعبدين، وقد غطيّت هاتان القبتان بكساء صخريّ، شبيه بالصخور التي كانت تقع خلف المعبدين وحولهما في الموقع القديم.

وهكذا فإن المعبدين اللذين كانا يقعان سابقا على ضفاف النيل، أصبحا يقعان من الآن فصاعدا على ضفة بحيرة، عبارة عن مسطح مائى هائل، يختفى خلف الضباب الصباحى.

إن عملية إعادة البناء المذهلة تلك، سمحت ليس فقط بإنقاذ المعبدين من الغرق، بل كذلك بأن يصبحا قبلة السائحين، إذ عرفهما العالم كله، وأن يصبحا كذلك بشكل ما غير قابلين للتدمير. دعونا ننسى هذه المجموعات المضغوطة من السائحين، الذين ينحدرون مسرعين من التلّ، ثم يرحلون جريا حتى لا تفوتهم الطائرة، فنحن جميعا بمعنى أو بآخر سائحون.

أما أنا فقد كان لدىّ على الأقل الحظ، فى أن أصل إلى (أبو سمبل) بالباخرة، التى رست عند أقدام المعبدين، حتى أتمكن من رؤيتهما فور الوصول، ثم أعود إلى رؤيتهما مرة ثانية بعد فترة من الراحة، ثم رؤيتهما مرة ثالثة من جديد، قبل أن تبحر المركب، لأتركهما يذوبان ببطء فى ظلام الليل.

انظر مقالات نفرتارى(رقم ٩٩)/النوبة (رقم ١٠١)/رمسيس الثانى (رقم١٢١).

٣ - الأهرام (الجريدة) / Al ahram

دون شك كان مؤسسو الأهرام (الجريدة)، بإطلاقهم هذا الاسم عليها، يقصدون أن يعنى ذلك الاسم القمة أو الأبدية، وهو الهدف الذى تحقق تقريبا، فالأهرام هو أقدم الجرائد اليومية وأكثرها توزيعا ونفوذا، ليس فقط فى مصر، وإنما كذلك فى العالم العربى. تأسّست الأهرام سنة ١٨٧٦ على يد الأخوين بشارة وسليم تكلا، وهما من طائفة الروم الكاثوليك القادمة من سوريا، وقد أسهمت هذه الجريدة مع غيرها من جرائد تلك الفترة، فى تقديم طريقة جديدة للكتابة باللغة العربية، أقلّ تكلّفا، وأكثر تحررا من قيود أساليب الفصاحة اللغوية التى يعيد الكتاب ويزيدون فيها. أطلق على هذه المدرسة الجديدة فى الكتابة اسم الكتابة الصحفية.

كان المؤسسان قد تشجّعا بهذا النجاح، فقررا سنة ١٩٠٠ إصدار النسخة الفرنسية من جريدتهم، ولكنها وجدت صعوبة فى فرض نفسها فى مواجهة المنافسة مع أسماء لجرائد عديدة، كان قد طال بها الاستقرار فى عالم الصحافة، فاختفت هذه النسخة الفرنسية فى بداية الحرب العالمية الأولى. خلال ذلك الوقت كانت الجريدة قد دخلت فى نزاع مع الاحتلال البريطانى، بسبب ميل المؤسسين إلى فرنسا، التى كانت تعتبر المنافس التقليدى لإنجلترا فى مصر، وكانت فرنسا تساندهما كلما أمكن، وبالتالى بدأ الإنجليز بدورهم فى تمويل جريدة منافسة، هى جريدة المقطم، التى كانت تدار هى كذلك بواسطة سوريين.

فى نهاية خمسينيات القرن العشرين، حوّل ناصر الأهرام إلى جريدة شبه رسمية للدولة، وكنا نتسارع كل أسبوع لقراءة الافتتاحية الدسمة الفيّاضة، لمحمد حسنين هيكل، رئيس التحرير، وهو الموجّه الخفىّ لسياسات عبد الناصر وموضع ثقته، وقد أصبح فيما بعد الناطق الرسمى باسمه، لمعرفة كيفية فكّ شفرة الرئيس. وفى طابق كان يعتبر أكثر طوابق الجريدة مقاما، تجاورت مكاتب عديدة تمّ تخصيصها لمجموعة من الكتّاب المرموقين: توفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، ولويس عوض. هى مجموعة مدهشة من الأقلام، ربما كانت السلطات تأمل فى وضعها فى خدمة الفكر الواحد.

أمّا اليوم فإن عميدة الإعلام المصرى لديها من حرية التصرّف مساحة أكبر مما كان لها على زمن عبد الناصر، وذلك حتى مع تبعيتها، هى والأخبار والجمهورية، للصحافة الحكومية. وفى التعليق على الأحداث الكبرى، فى اليوم التالى على خطاب رئاسى مثلا، يتخذ الأهرام تلقائيا، صوت الجريد الرسمية. وبشكل عام تكون الأولويّة المطلقة على كل ما عداها من معلومات، لأفعال الرئيس وإشاراته التى تحكى بكل تفاصيلها الدقيقة، وبدون أى انتقاد على الإطلاق.

إن مطالعة الأهرام تفرض نفسها على كل شخص يمارس العمل العام فى مصر وذلك لأن الأهرام هى ما يمكن تسميته بالجريدة المرجعية، ولكنها بعكس الجرائد المرجعية فى أوروبا التى يقرأها أساساً خريجو الجامعات، فإن الأهرام تتميز بجمهور كبير من الطبقات الشعبية، ونجد فيها كذلك مقالات متفاوتة الجودة، يمكنها أن ترضى كل الأذواق. بالإضافة إلى تشكيلة متنوعة جداً من وجهات النظر المختلفة، من الإسلاميين إلى أكثر دعاة العولمة حماسا. ثم إن الأهرام هو فريق صحافى ناجح، ولا يحتاج إلى أى دعم حكومى، وهذا الازدهار يعود إلى معدّل توزيع يومى، يصل إلى حوالى ٩٠٠ ألف نسخة، ويصل إلى حوالى مليون ونصف مليون نسخة يوم الجمعة، وكذلك إلى حصيلة إعلانات معتبرة.

إن إعلانات الوفيات مثلا قد تشغل عدة صفحات كل يوم، وطبيعة تلك الإعلانات المفصّلة جداً، تجعل منها مصدرا استثنائيا للمعلومات، حول تكوين العائلات، وحول الشبكات الاجتماعية. ويقال فى مصر إن المتوفى لا يموت تماماً، إلا بعد أن يدفن فى الأهرام. فى الحقيقة كان تشرشل يقول الشىء نفسه عن جريدة التايمز البريطانية. وحيث إن جريدة الأهرام قد تمّ تزويدها بمركز للأبحاث وبدار للنشر، فهى أول جريدة عربية يصبح لها العديد من المكاتب فى الخارج، أحدها فى باريس.

إلا أن انفتاحها على العالم الخارجى لم يمنع عنها الشيخوخة والجمود، فى مقابل جرائد المعارضة التى تتميز بالجرأة، بل بالوقاحة، دون أن نضع فى اعتبارنا صحافة الفضائح التى تزدهر رغم عدم احترامها لأية قواعد. وقد نجحت الأهرام فى تطبيق فكرة نيّرة، ألا وهى تقديم جريدتين أسبوعيتين إحداهما بالإنجليزية (الأهرام ويكلى) والأخرى بالفرنسية (الأهرام إبدو)، وهما تتميّزان بنبرة أكثر تحررا من القيادة الأم، قائدة الأسطول، وبالتالى فهما تعطيان لمحة ممتازة عن المجتمع المصرى.

انظر مقال السوريين رقم (١٣٦).

٤ - عايدة / Aïda

إن هذه الأوبرا لا يمكن تذوقها بسهولة، إذ إنها إلى حد ما ذات ذوق فجّ مزيّف، وإنما الذى يثير اهتمامى هنا فى الواقع هو تاريخ هذه الأوبرا، وكذلك وضعها وموقف الناس منها فى بلد عربى، قليل الاهتمام بفن الغناء حسب التقاليد الإيطالية للقرن ١٩ . لكنها أفضل مثال لما يمكن تسميته بالأوبرا القومية، فقد ولد هذا العمل على ضفاف النيل، مستلهما التاريخ المصرى، ثمّ تبنتها مصر، وهكذا فإن أوبرا عايدة يمكن أن تنتمى، وبدون أى اعتراض، إلى ما يمكن تسميته بالتراث القومى المصرى.

تعود فكرة تلك الأوبرا إلى الخديوى إسماعيل، وهو ذلك الحاكم الطموح الذى كان ذوقه يميل إلى حب الفخامة باهظة التكاليف، الذى رغب فى أن يكون حفل افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩، مميزًا جداً، بل مبهراً. بالتالى فقد ظهرت من بين مشروعاته لتحقيق هذا الهدف، فكرة بناء دار أوبرا فى القاهرة، والتى ينبغى لها أن تفتتح بعمل يكون مصرياً صميما. توجّه إسماعيل برغبته تلك إلى أحد خاصته، وهو عالم المصريات الفرنسى أوجست مارييت، الذى كان قادراً على كل شىء، وكان فى ذلك الوقت يشغل منصب مدير مصلحة الآثار المصرية. وخلال وقت قصير وجد مارييت نفسه، ولدهشته هو شخصيا، فى سبيله إلى تأليف سيناريو للعمل الأوبرالى، وإلى رسم الخطوط الأولية لأزياء العمل وديكوراته، وهكذا ولدت عايدة، بطلة فرعونية تحمل اسما عربيا مصبوغا بصبغة إيطالية.

يضع مارييت ثقته فى كامى دولوكل، مدير دار أوبرا باريس، ويسلمه السيناريو، وذلك حتى يضيف إليه ما يثريه، ليتحول سيناريو مارييت إلى بناء مسرحى من أربعة فصول. الخطوة التالية هى أن يترجم النص الفرنسى إلى الإيطالية، ثم يحوّل من نص نثرى إلى أبيات شعرية. بعد ذلك يوكل أمر تلحينه إلى الموسيقى الإيطالى چوزيبى ڤردى، الذى كان فى ذلك الوقت فى قمة مجده الفنى. رفض المايسترو أولا، ولم يقبل أن

يحول عايدة إلى أوبرا خالدة، إلا بعد توسلات وتضرعات والتماسات عديدة، بالإضافة إلى المقابل المادى المجزى جداً. وكان تهديده بالالتجاء إلى أحد منافسيه، إما ڤاجنر أو جونو، ذا تأثير قوى على رضوخه، وبالتالى فقد بدأ عندئذ فى تنفيذ المهمة المكلف بها. إلا أنه قبل انتهائه من عمله كانت قناة السويس قد افتتحت للملاحة، وهكذا حلت أوبرا أخرى لفردى وهى ريجوليتو، محل أوبرا عايدة فى حفل افتتاح قناة السويس، وأوبرا القاهرة.

أما القصة التى تخيّلها مارييت، فهى لم تحدث قط بهذا التحديد، لا فى الزمان ولا فى المكان اللذين اختارهما. (إن الحدث يقع على ضفاف النيل، فى عصر الفراعنة)، هكذا يقول كتيب العرض، وبدون أية تفاصيل إضافية. البطلة (عايدة) هى أميرة إثيوبية، تقع أسيرة وتصبح سجينة فى مصر، لتتحول فيما بعد إلى جارية لدى أمينرديس ابنة الفرعون. وبالصدفة تصبح السيدتان، الأسيرة والأميرة، عشيقتين لنفس الرجل، وهو الضابط اللامع راداميس، كان قد تم تعيينه على رأس الجيش المصرى أثناء حرب إثيوبيا. كان انتصاره فى تلك الحرب قد أتاح له فرصة التقدم لطلب يد الأميرة ابنة الفرعون، ولكن عينيه لم تعودا تريان إلا عايدة، وبالتالى فهو يختار أن يهربا معًا. عند القبض عليه، يحكم عليه بالسجن، حيث تقدّم إليه حبيبته، وذلك قبل أن يموتا معًا.

وضع ڤيردى كل مواهبه، فى محاولة إحياء أجواء عالم الفراعنة، بواسطة استعمال أصوات رنانة، غريبة على الأذن الغربية، ومستوحاة من ألحان ميلودية فرعونية. إن دقة ورهافة هذه المدونات الصوتية والأوركسترالية، تعبر عن نفسها أفضل تعبير خاصة فى بداية الفصل الرابع، حين تدرك أمينيرديس أن حبيبها يهرب منها، وهى المقطوعة الموسيقية التى ستصبح بالنسبة لكل أصوات النساء الميتزو سوبرانو [كلمة إيطالية تصنف بها أصوات النساء فى الغناء]، إحدى أكثر المقطوعات الموسيقية شهرة، فى برنامج المسرح الغنائى الشعرى. ثم يصل العمل إلى قمته فى مقطوعة

(أيتها الأرض وداعًا)، حين يقرر كل من راداميس وعايدة، وضع نهاية لوجودهما فى دنيا الأحياء.

ولا يتنازل ڤيردى ويتكرّم بالحضور إلى القاهرة، حين تلعب أوبرا عايدة للمرة الأولى، فى ٢٤ ديسمبر ١٨٧١، حيث كتب لها النجاح، رغم المظهر المثير للسخرية للفنانين الأوروبيين، الذين رفضوا أن تحلق لهم لحاهم وشواربهم، كما تطلبت مقتضيات أدوارهم. فى العام التالى، فى أوبرا لاسكالا بميلانو، حصلت عايدة على ٣٢ استعادة أثناء العرض، وهو ما يدل على نجاح منقطع النظير، وبعد ذلك عرضت فى نيويورك وباريس، ودائما كانت تعود إلى القاهرة، حيث لا نملّ أبدا من إعادة وضع هذا اللحن الفرعونى فى البرنامج. فى أثناء الحرب العالمية الثانية، كان اللحن العظيم لأوبرا عايدة، هو لحن الختام لكل السهرات الإذاعية من راديو القاهرة، صوت القاهرة باللغة الإنجليزية.

إن مبنى دار الأوبرا الذى كان الخديوى إسماعيل قد بناه (سنة ١٨٦٩)، كان قد تم تدميره بالكامل فى حريق مروّع (سنة ١٩٧١)، وهكذا فإن مبنى آخر، قدّمه الشعب اليابانى هدية إلى الشعب المصرى، افتتح فى الجزيرة (بالزمالك) سنة ١٩٨٨، وهو مبنى مستوحى من أساليب البناء الإسلامية، ولكن المجردة من زخارفها، وهو ذو لون ترابى أحمر ولا ينقصه السحر. ثم إن الإدارة الفنية للمبنى قد أوكلت إلى التينور [كلمة إيطالية تصنف بها أصوات الرجال فى الغناء] حسن كامى، وهو أول من أدى دور راداميس من بين المصريين، ويدين بنزعته الفنية إلى اكتشافه لهذا العمل لفيردى، عندما كان فى الحادية عشرة من العمر.

فى أكتوبر ١٩٩٧، واحتفالا بالعيد رقم ١٢٥، لميلاد أوبرا عايدة، قدمت الأوبرا فى معبد حتشبسوت بالأقصر، وبعد هذا الاحتفال بعدة أيام، وفى نفس مكان الاحتفال، تم الاعتداء بوحشية على السيّاح، بواسطة كتيبة انتحارية متأسلمة، قتلت ستين سائحًا.

ذهول تام وسخط عام، مصر أصبحت أرض خطرة، وهكذا تم إفراغها فى طرفة عين من كل سيّاحها الأجانب. بعد أيام من الحادث، عاد فنانو الأوبرا إلى المكان للمشاركة فى عرض لتأبين وتبجيل ذكرى الضحايا. هذه المرة أمام معبد حتشبسوت، اختلط غناء منشدى عايدة، بالموسيقى التقليدية المصرية، فى حضور الرئيس مبارك، ومجلس وزرائه، فى أوبرا قومية....

انظر المقال عن ماربييت رقم (٨٥).

٥ – أخن آتون / Akhenaton

لا أعرف ماذا أعتقد فى هذا المهرطق. فإذا كانت له جاذبية المتمرد وهالة المبتكر، فإنه هو أيضًا الذى حطم الصورة المستقرة المطمئنة، لحضارة عمرها أربعين قرنًا. معه وبسببه انقطع الزمن. توقفت مصر عن أن تكون أبدية. إن التاريخ المحدد لاعتلائه العرش غير معروف، ولكنه حول العام ١٣٧٢ قبل زمننا، حسب تقديرات العلماء. الشاب أمن حوتب الرابع يرث عن أبيه، بلدا فى قمة مجده يستمتع بالرخاء الاقتصادى، ويحقق فى عمارته المثالية والاكتمال.

إن أباه أمن حوتب الثالث هو الذى شيّد معبد الأقصر، وأضاف توسيعات إلى معبد الكرنك. أما وريث العرش أمن حوتب الرابع، فقد بدأ أولا بتغيير اسمه، الذى أصبح أخن آتون، ومعناه (من هو فى خدمة قرص الشمس)، وكان اسم آتون يطلق على قرص الشمس، وكان معروفا كأحد أرباب مصر فى عهود فراعنة سابقين، لكن الجديد فى موضوع أخن آتون، هو أن آتون سيصبح إلهه الوحيد.

يغادر أخن آتون طيبة عاصمة دولة والده، ويذهب ٣٧٥ كيلومترًا إلى الشمال ليؤسس عاصمته الجديدة، التى يسميها أخت آتون (أى أفق آتون)، وهى تل العمارنة

الحالية وتقع على الضفة اليمنى (الشرقية) للنيل، وهى المدينة المقدسة فى عصر أخن آتون؛ حيث أمكنه أن يجدّد على هواه، وحسب طريقته، بعيداً عن النظرات الغاضبة لكهنة طيبة التقليديين. ولم تكن زوجته نفرتيتى، التى ستلد له ست فتيات، بعيدة عن تأثيره، فقد وقعت هى الأخرى فى فتنة ممارساته ومعتقداته.

إن ديانة العمارنة الجديدة، تقوم على عبادة ثالوث مقدّس، يتكون من الشمس آتون، بالإضافة إلى الملك والملكة، ولكن الواقع يقول إن العبادة كانت لرب واحد فقط، هو قرص الشمس. هكذا قطع أخن آتون صلته تماماً بتعدد الأرباب، بعد أن استبدل بهم جميعا، النجم الأوحد، قرص الشمس. هو الرب الذى يمكن لكل شعوب الأرض أن تصل إليه بسهولة، ومع ذلك - أى مع سهولة الوصول إليه - فهو رب متفرّد، ذو أبعاد كونية.

بالإضافة إلى ذلك، لم تعد هناك حاجة إلى نقل تماثيله ورموزه ورسوماته، على مراكب أو منصات، إلى أماكن الاحتفال به، كما كان الحال مع غيره من الأرباب، فهو موجود فى كل مكان. ثم إنه لا يظهر فى صورة أشكال آدمية أو حيوانية، كما كان الحال مع غيره، فالشكل الوحيد الذى يظهر فيه ويصوَّر به، هو شكل قرص ذهبى، يشع حزما ضوئية، تنتهى كل منها عند طرفها بيد بشرية.

لهذه الأسباب أمكننا أن نرى فى أخن آتون، مؤسسا لعبادة الرب الواحد، لأنه كان قد اقترب جدا من فكرة الديانات السماوية عن وجود إله واحد، ولكن الحقيقة هى أن أرباب مصر القديمة كلهم كانوا لدى أخن آتون، قد اندمجوا فى قرص الشمس، وكانت تلك الفكرة قد بدأت قبل أخن آتون بمئات السنين، على زمن الدولة الوسطى(*) [القرن التاسع عشر قبل الميلاد]، وتطورت بالتدريج لدى عدد من ملوك الفراعنة، حتى وصلت إلى صورتها الأخيرة لدى أخن آتون، عندما يصبح قرص الشمس هو الشكل الوحيد للظهور الإلهى. إنه يختلف عن صورة الإله الخالق لدى اليهود والمسيحيين

والمسلمين، فى أنه فى حالة خلق دائمة للعالم، وفى حالة حفظ دائمة للحياة فى هذا العالم، طالما استمر فى إمداد العالم بالحرارة والضوء.

إنه إله مبهر، إذا نظرت إليه طويلا أصبت بالعمى، وهو موجود فى كل مكان، يجسده ابنه الحبيب أخن آتون، الذى يتولى مسؤولية تصريف أمور البشرية. إن الترنيمة الكبرى المهداة إلى آتون، والتى ربما ألفها أخن آتون بنفسه، تعطى لهذه الديانة صورة، بقدر ما هى شاعرية، هى أيضًا صورة دقيقة ومحددة:

(كم هو جميل ظهورك فى أفق السماء/ يا آتون الحىّ الموجود منذ الأزل/ لكن بمجرد ذهابك إلى النوم فى أفقك الغربى/ تغرق البلاد فى الظلمات والموات/ ويبقى الناس ممدّدين فى الحجرات ورؤوسهم مغطاة/ لا يستطيع أىٌ منهم أن يرى الآخر/ فإذا سُرِقت منهم أمتعتهم/ الموجودة تحت رؤوسهم/ ما استطاعوا إدراك ذلك/ وكل أسد يخرج من عرينه/ وكل الحيّات تلدغ/ الظلمات فى كل مكان/ والبلاد فى صمت تام/ كل هذا يحدث عندما يكون الخالق نائمًا فى أفقه/ أما فى الفجر وبمجرد أن تهمّ بالقيام عند الأفق/ لتلمع كنجم النهار/ تدفع أمامك الظلمات بعيداً/ حتى تتمكن أشعتك من الانطلاق/ فتصبح الأرض المزدوجة مصر الشمال والجنوب فى فرح/ ويستيقظ الكل ليقفوا على أقدامهم/ لأنك أنت أقمتهم واقفين/ أجسادهم مغسولة وملابسهم جاهزة/ وأذرعهم مرفوعة إلى أعلى لعبادتك/ فيقوم كل البشر إلى أعمالهم/ وتكون كل الحيوانات راضية بمراعيها).

إن فترة حكم أخن آتون، بقدر ما هى ثورة دينية، هى كذلك ثورة فنية، انظروا إلى التمثال النصفى الضخم للفرعون المعروض فى اللوفر، وكانت مصر قد قدمته هدية إلى فرنسا، لتشكرها على مساهمتها فى إنقاذ آثار النوبة، وجه مستطيل/عينان لوزيتان/ جفنان ثقيلان/ شفتان غليظتان/ ذقن بارز، ثم إن غياب الأذنين والكتفين يبرز الطابع الطولى للتمثال. بالإضافة إلى الملامح المخنثة الواضحة لهذا الملك، وهى الملامح التى

تؤثر بطابعها على كل تماثيل بقية أفراد الأسرة الملكية، الذين يبدون كما لو كانوا قد خلقوا على صورته ومثاله. فى هذا الفن تظهر كذلك اتجاهات واقعية مدهشة، خاصة بظهور الشخصيات الملكية بأجسام عارية، وبطون منتفخة، وثنيات حول الرقبة، وهو ما يمكن أن يؤدى إلى أن تفقد تقاليد الفن المصرى اتزانها، فى الواقع فإن فن العمارنة هذا المعذب، يتذبذب طويلا بين الواقعية، وبين السخرية الكاريكاتيرية. إن إتيان دريوتون، رجل الدين الذى كان ذات يوم مديراً لمصلحة الآثار المصرية، قد قال عن هذا الفن (إنها مدرسة أكاديمية كابوسية).

ينزل الفرعون من عليائه، فنراه مصوراً وهو يأكل، أو وهو يلعب مع بناته، ثم إننا نرى حتى الجميلة نفرتيتى جالسة على ركبتيه. كيف يمكن ألا نقع فى حب وأسر مثل هذه الشخصية؟ إن أخن آتون يظهر رجلا عصريا بشكل مدهش. ورغم أنه يوصف عادة بأنه صاحب أول نزعة إلى توحيد الأديان، أو بأنه كان ضد الكهنوت، لكن يجب ألا ننسى أنه كان صاحب سلطة مطلقة، لم يكن يشاركه فيها أحداً، وأنه كان قد أصيب بهوس تحطيم كل الآلهة الأخرى. يسرع الفراعنة اللاحقون إلى محو آثار تلك الهرطقة، التى لم تدم إلا خلال فترة حكم مدتها ١٧ سنة، واقتصرت فقط على داخل حدود العاصمة العمارنة، وهى المدينة التى ستحطم فيما بعد، ليعود بعد ذلك الأرباب القدامى إلى أماكنهم فى مجمع الأرباب المصريين.

انظر المقالين عن الآلهة رقم (٣٥) وكذلك عن الفن الفرعونى رقم (١٠).

٦ - الإسكندرية / Alexandrie

إنه مرسى مرسوم بدقة متناهية بالمسطرة والفرجار، ثم إنه رائع الجمال رغم عدم وجود مرتفعات صخرية، مثل تلك التى تعطى السحر والجاذبية للأماكن الأخرى، فى

نابولى وجنوا ومارسيليا، وليست هناك حتى آثار قديمة، يمكن التعويل عليها، فى هذا الساحل الأبيض المسطح، باستثناء عمود بومبى، القائم مرتفعا وحده فى السماء. إنها حقا مدينة للذكريات، أو عاصمة للذاكرة، ولكن أين هى بقايا الآثار؟ ما الذى يتبقى من الفنار؟ ومن المكتبة؟ ومن قصور البطالمة؟ أين هى تلك المدينة التى كانت تفخر بكونها مدينة لكل أجناس الأرض، مدينة كوزموبوليتانية(*)؟ تلك العاصفة المتفجّرة التى خلدها لورانس داريل؟

يمكننا بكل بساطة أن نرد قائلين: إن الإسكندرية تبذل كل ما فى وسعها لتمحو آثار ماضيها. إن الزائر لهذه المدينة غالبًا ما يصاب بالإحباط، بسبب هذا الديكور (التجميل المظهرى السطحى)، ويكون مضطراً إلى محاولة البحث فى مكان آخر عن السر فى سحر وجاذبية تلك المدينة، التى كان يحتفى بها كثيراً. لكن على هذا الزائر الاستعانة بقدر كبير من الخيال. ولماذا لا؟ ألم تكن الإسكندرية فى الأصل فكرة؟ ألم تكن مجرد حالة روحية أو عقلية؟ ها هو ذا الزائر المسكين يتوه شارداً فى شوارع المدينة، أو بين صفحات الكتب، محاولا اقتناص ما لا يمكن اقتناصه.

عن أية إسكندرية نتحدث هنا؟ ذلك لأن هناك على الأقل ثلاث إسكندريات. أولاً المدينة المنارة التى قادت العالم القديم. ثانيا مدينة كل أجناس الأرض الكوزموبوليتانية بين ١٨٦٠ و ١٩٦٠ . ثالثًا المدينة الضخمة التى هى الإسكندرية الحالية. أود أن أقول لكم إنها المدينة الثانية فقط التى حقًا تهز مشاعرى، إذ كان لدىّ الحظ، أن أعيش قبسات من أضوائها الأخيرة، وأن أسمع وأقرأ شهادات لا حصر لها عن وهجها ذلك القديم وعن نزواتها.

طوال العصر الفرعونى، كانت مصر تتجاهل البحر المتوسط، وتدير له ظهرها، إذ كانت موانيها تقع داخل أراضيها، على ضفاف نهر النيل. وعندما غزاها الإسكندر سنة ٣٣١ ق. م.، غيرت مصر طريقتها فى النظر إلى العالم، وغيرت بالتالى مجال

حركتها؛ وذلك لأن المقدونى كان يريد عاصمة مفتوحة على البحار. ولكن لماذا اختار هذا المكان لإقامة عاصمته؟ لماذا اختار هذا اللسان من الأرض القاحلة غير المضيافة، هذا اللسان المزنوق بين البحر وبحيرة مريوط، تلك البحيرة التى لا تتصل حتى بأى نهر؟ الإجابة هى أن هذا المكان يسهل الدفاع عنه، وأنه كان فى تكوينه أقرب إلى ميناء طبيعى، يمكن تحويله لاحقا إلى ميناء مزدوج – أى إلى ميناءين – وذلك بربط جزيرة فاروس بالشاطئ، بواسطة بناء طريق ممهد مرتفع، يسمّى هبتاستاديوم(*) [وحدة قياس]. فيما بعد سيتم بناء الفنار المشهور على جزيرة فاروس.

إن المدينة الجديدة ستكون فى الأساس مخصصة للإغريق، فمنذ مولدها وهى تقع على الحافة بين مصر والعالم الإغريقى، وكانت توصف فى الكتب والخرائط القديمة بهذه العبارة (الإسكندرية القريبة من مصر)، أو (الإسكندرية المتاخمة لمصر)، أو(الإسكندرية المضافة إلى مصر) [العبارة باللاتينية هى Alexandrea ad Aegyptum]، وبأوامر من الإسكندر، بزغت فكرة خطة المدينة فى عقل المهندس المعمارى الشهير دينوكراتيس، فى شكل مربعات متناسقة، بما يسمح للهواء بحرية الحركة بدون عوائق، فى شوارع ذات خطوط مستقيمة. ثم إنه يمكن تزويدها بالماء العذب، عن طريق صهاريج مياه ضخمة، يمكن تغذيتها بالماء العذب، بربطها بشبكة قنوات تسير تحت الأرض.

فجأة أصبحت الإسكندرية هى كل شىء فى مصر، فهى أولاً تصبح مقراً للإدارة، وذلك لأن اثنى عشر ملكًا من أسرة البطالمة اللاچيديين(*) سيقيمون فيها. ثانيًا تتحول المدينة إلى مركز للصناعات الحرفية، وكذلك إلى سوق تجارى من الطراز الأول. ثالثًا تتحول المدينة كذلك، إلى عاصمة المعرفة فى العالم، بفضل مكتبتها ومتحفها. بالإضافة إلى أن عدد سكانها سوف يصل بسرعة إلى عدة مئات من الآلاف. إنها المدنية والحضارة فى أبهى معانيها، مما جعلها مدينة أساطير.

بعد ذلك جاء القديس مرقص الإنجيلى إلى الإسكندرية، حوالى سنة ٤٣ ميلادية، ليؤسس فيها كنيسة مصر، وقد كان المسيحيون ضحايا الاضطهادات الدينية، لهذا ردّوا على ذلك لاحقا بتدمير الإسكندرية الوثنية، التى لم يعد هناك مبرراً لوجودها، بعد دخول المسيحية إلى مصر. وبدورهم فإن المسلمين الذين يحتلون [يفتحون] مصر سنة ٦٤٠ ميلادية، ينشغلون بإخفاء ما قد يكون متبقيًا من الوثنية، ثمّ يقيمون عاصمة جديدة.

هذا بالإضافة إلى سلسلة الكوارث الطبيعية التى أصابت المدينة، من هزات أرضية، إلى موجات من المدّ البحرى، وهو ما أكمل عملية اجتثاث المدينة واقتلاعها من جذورها. وهكذا فعندما يحطّ بونابرت الرحال، ويهبط إلى شواطئ الإسكندرية، فى يوم من أيام يوليو ١٧٩٨، كانت تلك المدينة قد تحولت إلى ظلّ باهت لما كانت عليه سابقًا، إذ لم تعد إلا قرية صغيرة من ستة آلاف نسمة، بحواريها الضيقة وأكواخها المتداعية.

ستولد المدينة من جديد بعد أقل من عقدين من الزمان، بمبادرة من محمد على، الحاكم الجديد لمصر، وهو الآخر من مقدونيا، الذى سيحولها أولا إلى موقع للاستحكامات العسكرية، ثم بعد ذلك إلى حوض لبناء السفن، ثم جاء الأوروبيون ليستقروا فيها، ومنهم اليونانيون الذين نشطوا فى تعميرها، وكأنهم لم يتركوها قط، وهكذا استردّت الإسكندرية روحها وعادت إليها الحياة، لتتحوّل بالتدريج إلى مركز تجارى ومالى، ولتجذب رجال أعمال، ومغامرين، بالإضافة إلى المهاجرين البسطاء، من كل بلاد حوض البحر المتوسط. إنها كاليفورنيا جديدة، كاليفورنيا جديدة فى أقصى الشرق(*).

كان ميدان القناصل فى ذلك الوقت [المنشية حاليًا]، يعبّر بدقة عن وجود الأوروبيين فى المدينة، ويجسّد تعاليهم وصلفهم المقيت، وهو المكان الذى كانت تتجمّع فيه كل المفوضيات الأجنبية المهمة، إلى جوار مكاتب شركات النقل البحرى، والفنادق

الكبرى، والمطاعم والمتاجر. فى سنة ١٨٨٢، أدّت مشاجرة تافهة بين شخصين، أحدهما مصرى والآخر ملطى، إلى اشتعال النيران فى الإسكندرية، وقد لجأ الخديوى توفيق، إلى الغربيين لإنقاذ الموقف، بسبب خلاف مع الضبّاط الوطنيين، ولم تكن إنجلترا فى انتظار فرصة أفضل من تلك لاحتلال البلاد. تمّ قصف المدينة بالمدافع، فاندلعت الحرائق فى كل مكان، وساد النهب والسلب، وتحوّل ميدان القناصل إلى حطام. تكلفت إعادة بنائه الملايين.

أصبحت الإسكندرية من جديد بعيدة عن باقى المدن المصرية، كما كان الحال عند إنشائها فى الزمن القديم، وقد بدأت تتباعد عن تلك المدن، وتشعر بقدر من التعالى عليها. لكنها مع ذلك لن تصبح مدينة إنجليزية، وذلك لأن اللغة الفرنسية، على الأخص، تشغل فيها مكانًا مختارًا. فى سنة ١٨٩٠ تجمّع وجهاء مختلف الطوائف الدينية والعرقية، لوضع أسس نظام إدارة مدنية للشؤون البلدية للمدينة، التى أصبحت تدار بواسطة رجال من جنسيات مختلفة، وبذلك تحولت الكوزموبوليتانية إلى واقع رسمى، وهو ما أدّى إلى وجود اختلاط فى أسماء الشواطئ المختلفة للبحر المتوسط، وكذلك فى أسماء محطات الترام، فمنها العربية (الشاطبى/سيدى بشر)، والفرعونية (سوتير)، واليونانية (جليمونوبولو)، والسورية اللبنانية (باكوس)، والإيطالية (سان ستيفانو)، والإنجليزية (ستانلى)، والفرنسية (لوران). ومع موجات الحر الأولى من كل عام، ينتقل البلاط الملكى إلى مقرّه الصيفى، فى العاصمة الثانية لمصر، وتأتى خلفه حكومة البلاد، بإدارتها العليا، ثم تأتى الطبقة البرجوازية(*) القاهرية، فتصبح الإسكندرية باريسا مصغرة. كانت فترة ما بين الحربين العالميتين، هى الفترة التى تكونت خلالها الصالونات الأدبية، التى نشأت حول بعض الكتاب ذوى الأصول الأجنبية، مثل كفافى أو أونجاريتى.

إن الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ إلى حد ما، ثم بالأخص أزمة قناة السويس سنة ١٩٥٦ إلى حد أبعد، سوف تضعان نهاية لهذا الوضع، إذ إن المقيمين الإنجليز

والفرنسيين سيطردون من مصر، وسيتغير الجو العام، ففى الأعوام التالية سوف تخلو الإسكندرية بالتدريج، من الجزء الأغلب من سكانها متعددى الجنسيات، مثل اليونانيين والإيطاليين والسوريين واللبنانيين والأرمن واليهود، الذين يأخذون جميعهم الطريق إلى المنافى. منذ ذلك الوقت فصاعدا تصبح الإسكندرية مدينة مصرية. إنها الآن مدينة صناعية وتجارية ضخمة، بها أربعة ملايين نسمة، صحيح أنها أكثر هدوءا من القاهرة، ولكنها تغيّر إيقاعها وتغيّر وجهها، كلما جاءها المصطافون يتدفقون كل صيف.

هذه المدينة التى تغار على تفرّدها، وقعت خلال العقود الأخيرة، ضحية مذبحة حقيقية؛ حيث إن مبانيها الجميلة من قصور وڤيللات، التى كانت من بين أسرار فتنتها وسحرها، تمّت إزالة عدد كبير منها وتسويتها بالأرض، لتترك المكان لبنايات دون روح، أما كورنيش البحر الممتد بطول شواطئ المدينة، فقد حوصر بجدار خرسانى على طول امتداده. لكن لحسن الحظ فإن محافظ المدينة الجديد، المعيّن سنة ١٩٩٦، وهو محمد عبد السلام المحجوب، يحاول جاهداً إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

ظلت الإسكندرية مدة طويلة البوابة الوحيدة لدخول مصر، إنها أول مدينة تقع عليها عين الرحّالة عند وصوله، بعد عبوره البحر المتوسط، إنها أوّل ما يكتشفه، إلا أن النقل الجوّى جعلها تخرج بالتدريج من دائرة الحركة، فنحن نصل الآن إلى مصر عن طريق السماء، ونصل إلى القاهرة. الإسكندرية الآن هى مدينة محلية إقليمية، قد تتجاهلها السلطات المركزية، حتى إن عدداً كبيراً من المصطافين المصريين، أصبحوا الآن يتجاهلونها، بالاتجاه مباشرة إلى شواطئ الساحل الشمالى، إلى الغرب من الإسكندرية، بواسطة الطريق السريع ودون المرور بها.

ورغم كل شىء فإن العاصمة الثانية لا تفتقر إلى مؤهلات النجاح، فهى تضيف إلى أهميتها مكتبة جديدة يمكنها أن تجذب الباحثين من العالم أجمع، بالإضافة إلى أن آثارها اليونانية الرومانية هى ثروة لا تقدر بمال، وهى آثار موجودة فى كل مكان، ليس فقط فى متحف المدينة اليونانى الرومانى اللطيف والعجوز، وإنما كذلك تحت

الأرض، وتحت مياه البحر. ولن يتوقف أبداً اسم الإسكندرية السحرى، عن جعل الناس يحلمون.

انظر مقالات: مكتبة الإسكندرية رقم (١٥)/ البحر المتوسط رقم (٨٨)/ فنار الإسكندرية رقم (١١٢)/ رباعية الإسكندرية رقم (١١٩).

٧ - أمريكا / America

عندما كنا أطفالا، كنا نجمع الصور والرسومات الصغيرة، التى كانوا يضعونها لنا داخل علب لبان المضغ الأمريكى، إذ كانت تلك الصور تمثل أبطالنا الحقيقيين: چون وين/ روبرت ميتشوم/ روك هدسون/ إستر ويليامز. أولئك الذين كنا نلتقى بهم مساء السبت فى الأفلام التكنيكولور (بالألوان الطبيعية)، وهكذا تمت فى أذهاننا الصغيرة، عملية الارتباط بين السينما وكلوروفيل اللبان، بطريقة لا يمكن فصم عراها. كذلك كنا نتدافع على شراء زجاجات الكوكاكولا، التى كانت تحمل حرفًا مطبوعًا، تحت كل غطاء من أغطيتها، عندما كان ينبغى العثور على حرف L لكسب الجائزة الكبرى فى اليانصيب. أو هل كانت تلك الزجاجات على الأصح لمشروب البيبسى كولا؟ إن ذكرياتى تختلط وتغيب فى ضباب. فى تلك المرحلة من عمرى، كانت تلك المشروبات المتنافسة قد دخلت منذ فترة لا بأس بها، ضمن العادات المحلية المصرية.

أما اليوم فإن أمركة مصر تظهر فى عشرة أشكال أخرى: الهامبورجر/ البنطلون الچينز/ الأحذية الرياضية/ التليفون المحمول/ الإنترنت/ .... الشىء ذو المغزى فى القاهرة الآن، ليس هو تكاثر محلات الماكدونالد، حيث يمكننا أن نطلب، ضمن أشياء أخرى، ماك الفلافل المصنوع من الطعمية، بل هو أمركة المطاعم المحلية الصغيرة، التى تقلد مطاعم الوجبات السريعة فى كل تفاصيلها.

هناك شريحة من البرجوازية المصرية، تحرص على تسجيل أبنائها فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وقد تأسست تلك الجامعة سنة ١٩١٩، وتعتبر أفضل مؤسسات التعليم العالى فى مصر، ولا تستطيع الالتحاق بها إلا بالحصول على درجات مرتفعة فى امتحان الثانوية العامة، وتتخرّج منها وقد اكتسبت عادة التحدّث بالإنجليزية الممزوجة بالعربية، مثلما كان الحال فى فترات سابقة عندما كانت الفرنسية تمتزج بالعربية، وقد أصبح الوضع الآن فى مصر، أن كل ما هو مرتبط بالمال والحداثة والمصداقية والحماسة، يستعمل الإنجليزية فى التعبير عن نفسه، وهو ما لاحظه الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى، إن أمريكا تمثل كل ما هو جديد أفضل تمثيل، ثم نبدأ فى استهلاك هذا الجديد، حتى لو لم نكن بالضرورة نحبه. إن أمريكا تساهم كذلك فى زيادة الفجوة الاجتماعية بين الطبقات، فإن بعض القاهريين المتفرنجين المنقادين إلى الغرب، يحتفلون سنويا بأعياد مثل عيد كل القديسين (الهالويين/Halloween)، وحتى عيد الشكر.

وبعد أن أعادت مصر علاقاتها السياسية بالولايات المتحدة الأمريكية، أصبحت، بعد إسرائيل، ثانى أكبر المستفيدين بالمعونة الأمريكية فى العالم. لكن المصريين يحتفظون مع بلاد العم سام بعلاقات غامضة، تجمع بين الإعجاب إلى حد الافتتان، والاستعاذة بالله من الشيطان، بالإضافة إلى مماحكات سفسطائية جدلية لفظية مضادة لأمريكا، حلت محل الصراع القديم ضد الاستعمار البريطانى. ثم هناك مشاكل وصعوبات داخل مصر، تعزى بطريقة تلقائية إلى النفوذ السيئ للأمريكيين، مثل ظاهرة انحراف الشباب وإدمان المخدّرات.

وقد قدّم المخرج السينمائى يوسف شاهين، فيلمه (الآخر) سنة ١٩٩٩، ليعبّر فيه عن هذه الحالة النفسية والعقلية، ولكن بطريقة فجّة وغليظة إلى حد ما، إذ إن أكثر شخصيات الفيلم حقارة، والتى تجسدها الممثلة نبيلة عبيد، هى شخصية امرأة بورجوازية متأمركة، قادرة على فعل أحقر الأشياء، لتحتفظ بسيطرتها على ابنها. وإن كان هذا لم يمنع الجمهور المصرى، تقريبا فى نفس الوقت، من إظهار حماسه لإنتاج هوليوودى ضخم، هو فيلم (تايتانيك) للمخرج جيمس كامرون.

إن ازدواج المعايير فيما يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية، ظهر بوضوح بعد الاعتداء المأساوى يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فى نيويورك واشنطن، ففى حين أدانت السلطات السياسية والدينية بحزم، الفعل المجنون لهذه المجموعة الانتحارية، فإن رجل الشارع لم يكن بعيدا عن رؤية هذا الحادث، باعتباره عملا يدعو إلى الفخر، أو نوعا من ردّ الفعل العادى على مجريات الأمور.

٨ - الحمار / Ane

كيف يكون حال الريف المصرى من دون الحمار الصغير؟ متبخترا على الطرق الزراعية المتربة بأذنيه الكبيرين؟ فمنذ أزمان سحيقة يقدّم رفيق الطريق هذا، ذو العينين الحزينتين، خدمات كبيرة للفلاح. فهو أحيانًا يسرح تحت ثقل حمل يتعدّى حدود طاقته الجسمانية، وهو يضطر إلى ذلك مدركا أن أية محاولة للاستراحة، يحاول أن يحصل عليها، تساوى عدداً من الضربات بالعصا. أو هو على العكس، عندما يعدو مسرعًا خفيفًا كالهواء، سعيداً بحمل طفل صغير وخفيف، يمتطيه دون سرج. لكن هو يسير غالبًا بخطوات معتدلة متعقلة، قائمًا طول الوقت بالمهام المكلف بها، باجتهاد وهدوء، مثلما هو حال الحياة الريفية فى وادى النيل.

حسب إحصائيات لا يمكن التحقق من دقّتها، يوجد فى مصر ستة ملايين حمار، أى يوجد حمار واحد لكل حوالى عشرة من السكان، وهو ما يمكن اعتباره رقمًا قياسيًا على مستوى العالم. وفى حين يكون حمار الدلتا ضخم الجثة قويًا أسود اللون، فإن ابن عمه فى مصر العليا يكون أكثر رشاقة رماديًا أو أبيض اللون، وقد يبلغ ارتفاع الحمار عن الأرض ١٢٠ سنتيمتراً.

ومن المؤكد أنك إذا أردت أن تجامل شخصًا، فلن تقول له (يا حمار)، ففى مصر كما فى غيرها من بلاد العالم، كلمة حمار هى مرادف للجهل والغباء. لكن على أى

الأحوال، إن الحمار هو نموذج للعمل الشاق، ويضرب به المثل في الصبر وقوة التحمل، ثم إن رفساته المفاجئة لا يقصد بها غالبًا إلا طرد الذباب الذى يضايقه. أما نهيقه المؤلم، تلك الحيحا التي لا مثيل لها، فهي لا تعبّر عن السأم أو الضجر أو الرغبة في التمرّد، بقدر ما تعبّر عن إحساسه بالجوع، وهو إحساس مشروع بعد ساعات من العمل الشاق والمستمر، يكفيه قليل من البرسيم المحَلّى، وها هو ذا يعود إلى العمل. ويبدو أن التأوهات الشهوانية الشبقية لهذا الحيوان، خلال مواسم التزاوج، يمكن لها أن تسمع على بعد عشرة أو خمسة عشر كيلومتراً.

نحن نعرف الآن كذلك، أن الحمار في شكله الوحشي غير المستأنس، كان موجودا في وادى النيل، منذ العصر الحجرى القديم (الباليوليتيك)، أما الحمار المستأنس الداجن، فلم يظهر في وادى النيل إلا حوالي ٣٦٠٠ ق. م.، وفي ذلك الوقت، كان الحمار نادرا ما يمتطى، لأنه كان يستعمل أساسًا في نقل منتجات متنوعة إلى حد بعيد، وفي القيام بمهام مختلفة، سيستأثر الجمل بها فيما بعد.

ومع ذلك فإن فوائده العظيمة، لم تمنع من اعتباره نجسًا وشريراً، خاصة لو كان وبره أحمر اللون، ففي تلك الحالة يتشابه مع (ست) إله الشر لدى المصريين القدماء، وقاتل أخيه أوزيريس، مما كان يسمح بتقديمه في صورته تلك عن طيب خاطر، تقدمة يضحى بها على مذبح الآلهة، أو رقية لإبطال أعمال الشر. وفي بعض العلامات الهيروغليفية من العصر المتأخر(*)، لا تظهر صورة هذا الحيوان التعس، إلا ومعه سكين مرشوق في جسده، لإبطال شرّه. إلا أن ساعة مجده الحقيقية، هي رحلة العائلة المقدسة إلى مصر، وهناك أسطورة انتشرت في وادى النيل تقول، إن أحفاد الحمار الذى حظى بامتياز نقل يسوع طفلا، يحملون جميعهم علامة صليب منقوشة على ظهورهم.

وحتى وقت اختراع الدراجة والسيارة، كان الحمار هو وسيلة المواصلات المفضلة لدى المصريين، ليس فقط حصان للفقراء كما نقول في الغرب، بل كذلك لأفنديّات على

قدر من الرشاقة، أو لوجهاء على قدر من السمنة، فهم يمتطون الحمار عن طيب خاطر على سروج مزينة. وفى السنوات ١٨٩٠- ١٩٠٠ كانت السيدات الإنجليزيات، قد أصبحن العدوات اللدودات لمؤجرى الحمير فى القاهرة، وذلك لأن جمعية حماية الحيوانات التى كنّ قد قمن بتأسيسها، كانت قد بدأت فى جمع كل الحيوانات ضحايا سوء المعاملة فى شوارع القاهرة، إلا أن هذا المشروع سرعان ما توقف، إذ إنه كان مبالغًا فيه إلى حد ما.

كان الحمار موجوداً كذلك فى القصص والحكايات، فهو كان مع جحا فى ديوان النثر المصرى، وكان روسينانت [حصان دون كيشوت] مع صاحبه فى ديوان النثر الغربى. إن الحياة الحقيقية تعطى أحيانا للحمار، الفرصة المناسبة لإنجاز مهام، ولتحقيق اكتشافات غير متوقعة، ففى سنة ١٩٩٩، تعثر حافر حمار فى شق أرضى، وهو ما أدّى إلى اكتشاف جبّانة يونانية رومانية فى الواحات البحرية.

انظر مقال الفلاح رقم (٤٩).

٩ - الأرمن / Arméniens

كانت جدّتى لأمى من أصل أرمينى، وحيث إنها لم تكن تتحدث إلا بالفرنسية أو بالعربية، فكيف كان يمكننا أن نعرف أصلها؟ وقد قامت العائلة بعد زواج جدى من جدتى، بإلغاء الحرفين الأخيرين من اسم عائلة جدتىّ [مثلا يعقوبيان يتحول إلى يعقوب]، لمساعدة جدتى فى تسهيل اندماجها بشكل أفضل فى المشهد العام. وكان جيراننا اللطفاء فى السكن هم كذلك من الأرمن. وحيث إنه لم تكن لديهم حاجة لتغيير أى شىء، فقد كانوا أرمن، وظلوا أرمن. السؤال هو إلى أى زمن يرجع وصول الأرمن إلى مصر؟ أنا لا أعرف الإجابة، فإن وادى النيل كان قد عرف موجات عديدة من الهجرات، خلال القرن التاسع عشر، ولكن بعض عائلات الأرمن كانت موجودة فى مصر منذ قبل ذلك التاريخ بكثير.

ففى سنة ١٠٧٤ ميلادية، عندما واجهت السلطات الفاطمية بعض الصعاب، استعانت بأرمينى يعرف باسم بدر الجمالى، ليصبح وزيراً على مصر، وكان فى الأصل عبداً تم عتقه عند تحوّله إلى الإسلام، فأمسك بالبلاد بيد من حديد، وأعاد من جديد، الهدوء والرخاء إليها. وبمبادرة منه بنيت ثلاث بوابات ضخمة للقاهرة، النصر والفتوح وزويلة، فإذا بها ثلاث تحف معمارية.

عاد الأرمن إلى الظهور من جديد على السطح، فى بداية القرن التاسع عشر، عندما وصل محمد على إلى السلطة فى مصر. كان نائب الملك (وهو لقب محمد على فى المصادر الأجنبية بدلا من قول نائب السلطان العثمانى) قد اتخذ مجموعة من المعاونين الأساسيين، كان من بينهم أرمينى اسمه بوغوص يوسوفيان، وهو من رجال الأعمال والمصارف، الذى اتخذ بدوره ابن أخيه سكرتيراً له، واسمه نوبار نوباريان، الذى كان شاباً موهوباً بشكل غير عادى، وكان مدعوا إلى الدخول فى كتب التاريخ المدرسى.

ولد نوبار سنة ١٨٢٥، فى مدينة أزمير التركية (سميرنا)، ثم حصل على دراسة جيدة فى باريس وسويسرا، وحيث إنه لم يكن يعرف العربية، فإنه كان يتعامل بالفرنسية والتركية اللتين كان يجيدهما، وعند موت عمه بوغوص، حلّ محلّه ليصبح وهو فى التاسعة عشرة من عمره، سكرتيرا ومترجما للباشا محمد على، وقد استمر موضع ثقة كل أبناء وأحفاد محمد على الذين شغلوا كرسى نائب الملك، وبالتالى فقد شغل مجموعة من الوظائف، كانت تزداد فى أهميتها مع مرور الزمن، فحصل أولاً على لقب بك ثم على لقب باشا.

شغل أولاً وظيفة مدير السكك الحديدية المصرية، ثم أصبح وزيراً، ثم رئيساً للوزراء، وهو المنصب الذى شغله فى عدة حكومات متتالية، قبل وبعد الاحتلال الإنجليزى (١٨٨٢). هذا غير أننا ندين له بإصلاح القضاء سنة ١٨٧٥، وكذلك بإنشاء المحاكم المختلطة. اقرأوا مذكرات نوبار، فستجدون فيها رجل دولة حقيقى، يجمع بين المهارة والثقافة والقدرة على فك شفرة التاريخ وعلى حلّ طلاسمه. وكان حتى قادراً

أحياناً على إعادة كتابة التاريخ، ليعطى لنفسه فيه بعض الأدوار الجميلة (السهلة). قامت مدينة الإسكندرية بتكريمه بما يليق به، فقط على عتبة الألفية الثالثة، وذلك بوضع تمثال له، فى أحد أجمل أماكنها، وهو الميدان الصغير المواجه لمسرح سيد درويش (مسرح محمد على سابقاً). بعد نوبار لم يشغل أرمينى آخر مكاناً مثل الذى شغله.

فيما بعد ستؤدى الاضطهادات التى وقعت فى تركيا، إلى موجتين من الهجرة الجماعية إلى مصر، الأولى بين عامىْ ١٨٩٤ و ١٨٩٦، والثانية سنة ١٩١٥ . وسيتبع وصول هذه الألوف من اللاجئين الأرمن، تنمية الكثير من الهيئات والمنظمات الخاصة بالطائفة، مثل الجمعيات الخيرية، والمدارس، والأندية الرياضية، والجرائد، فى القاهرة والإسكندرية. وقد تميّز الأرمن فى مجالات عديدة ومتنوّعة، مثل صياغة الحلى، والطباعة والتصوير الفوتوغرافى، وقد كان والداى من بين العديد الذين وقفوا، فى استوديو المصور الشهير ألبان، فى مناسبة الزفاف. وهناك مثلا ماتوسيان، صاحب مصانع السجائر، الذى امتلك ذات يوم واحدة من أكبر الثروات فى مصر.

بعد الحرب العالمية لثانية، غادر مصر حوالى ٤٠٠٠ أرمينى، للعودة إلى الاستقرار فى أرمينيا السوفيتية، ثم مرة أخرى خلال خمسينيات وستينيات القرن العشرين؛ أى خلال فترة قوّة الحقبة الناصرية، نشهد رحيل عدد كبير من الأرمن، إلى كندا والولايات المتحدة وأستراليا. أما الآن فإن الطائفة الأرمينية الصغيرة، التى لا زالت تعيش فى مصر، قد أصبحت متداخلة تماماً فى نسيج المجتمع المصرى، وإن كان هذا لا يمنعها من الاحتفاظ بشخصيتها، فظهر من ضمن أفضل عناصرها المتميّزة، أحد أكبر رسّامى الكاريكاتير فى الصحافة المصرية، وهو صاروخان الذى عاش فى مصر حتى موته سنة ١٩٧٧، ويعيش أغلب أرمن مصر فى ضاحية هليوبوليس، حيث كان يعيش كذلك جيراننا اللطفاء، الذين أسفت على فقد أثرهم.

١٠ - الفن الفرعونى / Art pharaonique

عندما زار شامبوليون معبد الكرنك لأول مرة سنة ١٨٢٨، كتب قائلا (نحن فى أوروبا لسنا إلا سكان (ليليبوت) [وهى مدينة الأقزام فى رواية رحلات ج اليفر]، فلم يتمكن أى شعب قديم أو حديث، من إنتاج فن معمارى بهذه المقاييس المهيبة السامية، وبهذا القدر من الضخامة والعظمة، قدر ما فعل المصريون القدماء، فإن عموداً واحداً من أعمدة الكرنك، يعتبر وحده وفى حد ذاته، أثراً أعظم من الواجهات الأربع للفناء المربع بقصر اللوفر).

على أى الأحوال فليست هناك أية حضارة أخرى، تركت كل هذا القدر من العجائب، وليست هناك أية حضارة أخرى، يمكن أن تتفوق على الحضارة المصرية، فيما يتعلق بالقدرة على إنتاج آثار معمارية بهذه الضخامة، وفى نفس الوقت إنتاج قطع فنية على قدر كبير من ضآلة الحجم. فإن الشعب الذى نجح فى بناء معبد الكرنك، هو الشعب نفسه الذى نجح فى حفر نقوش وكتابات هيروغليفية دقيقة، على قطع ضئيلة الحجم جداً، من الأحجار الكريمة، كحجر الأميتيست.

إن الشعب الذى عرف كيف يبنى الأهرامات، هو الشعب نفسه الذى صنع أحد فنانيه، تمثالاً صغيراً من العاج لفتاة صغيرة عارية، يبلغ طوله بالكاد عشرة سنتيمترات، ويحظى بإعجاب كل زائرى اللوفر. إن الفن المصرى يجعل أفكارنا مضطربة، بسبب رهافته ودقته، ثم إذا به يسحقنا بضخامته، وهو بهذا المنظور يكون على غرار طبيعة البلد، بين وادى النيل دقيق الحجم، الذى تكتنفه على الجانبين صحراء لا نهاية لها، كأن الطبيعة حبلى فى نفس الوقت بهذين النقيضين، الضخم والمترفع.

لم يعد متبقيا أى شىء من قصور العصر الفرعونى ومنازله؛ وذلك لأنها كانت مبنية بالطوب النىّ، أما مساكن الآلهة والموتى، والمقدّر لها أن تبقى إلى الأبد، فكانت فى المقابل تحتّم استعمال مواد تصلح لمقاومة أفعال الدهر. فبعد أن استعمل المصريون

طمى النيل والخشب وحزم سيقان نبات البردى، تحولوا إلى استعمال الحجر، وعرفوا كيف ينحتونه بطريقة تدعو إلى الإعجاب، رغم استعمالهم أدوات بدائية. وهكذا بقيت المعابد والمقابر على قيد الحياة قرونًا طويلة، وفى حالة حفظ جيدة، بفضل مساعدة الرمال الجافة، التى حمتها من غدر الطبيعة.

فى هذا الفن الفرعونى، الذى هو فى الأساس فن دينى، لا توجد أية قطعة فنية، من دون أن يكون هناك المبرر الكافى لوجودها. وهكذا فإن التمثال الذى يجسّد شخصًا أو إلهًا، هو أيضًا فى نفس الوقت يمكن أن يستعمله هذا الشخص أو ذاك الإله باعتباره جسدًا بديلاً، يمكن أن تحل فيه الروح عند اللزوم. وهناك اعتناء كبير بالرسوم الجدارية التى تزيّن المقابر، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أنه بقدر إتقان الرسم واقترابه من الشكل الطبيعى للأشياء، بقدر ما تكون هناك فرصة للأشياء المرسومة أن تتحول إلى أشياء حقيقية، ذات وجود حقيقى فى الحياة. ويمكن زيادة كفاءة هذه الرسوم، بإضافة كتابات محفورة بالنقش البارز على الحجر. ولهذا السبب كان الاهتمام بالإتقان. أما مسألة أن كل الشخصيات المصرية القديمة هى شخصيات جميلة، وهو ما قد يجعلنا نعتقد أن الدمامة أو التشوهات الجسدية لم تكن معروفة فى مصر القديمة، فالسبب الحقيقى فى ذلك هو أنه لم يكن لديهم ما يمنع، من تغيير ملامح وجه الشخصية، حتى تبدو أكثر جمالا.

وكثيرا ما تظهر الوجوه متشابهة، على تلك الجدران المملوءة بالنقوش الغائرة، فنحن لا نجد فى هذه الوجوه، ملامح الشخص المصوّر، ولا حتى حالته المزاجية العابرة عند تصويره فى هذه الرسوم، وذلك لأن الغرض من هذه الرسوم لم يكن عرض وجه الشخص المصوّر، ولا عرض اللحظة العابرة، وإنما الموضوع هنا يتعلق بعرض الأشياء الأساسية، غير الزائلة، التى تتعدى هذا الفرد وتلك اللحظة. ثم إننا نجهل طريقة إضاءة اللحظة التى يتم فيها تصوير الموضوع؛ وذلك لأن الأشكال تظهر بوضوح تام، دون التأثيرات المعتادة للظل والضوء، تلك التى نجدها فى الفنون الأوروبية.

إن الذى ينبغى إدراكه هو فقط الصورة الإجمالية للحقيقة، تلك الحقيقة التى لا تظهر كما نراها فى الطبيعة، ولكنها تظهر كما يتم تصويرها على جدار المقبرة أو المعبد. وهكذا فإن الفن المصرى يمكن التعرف عليه فوراً حال رؤيته، وذلك لأنه يحترم أعرافًا وقوانين خاصة به وحده، فالأشخاص مثلا يمكن تمثيلهم أو تصويرهم، فى نفس الصورة وفى نفس اللحظة، فى وضعين مختلفين، وهما وضع المواجهة، والوضع الجانبى (البروفيل). كما لو أن الفنان يريد إظهار كل ملامح الشخصية المصوَّرة، أو كما لو أنه لا ينبغى إخفاء أى شىء فيها. ففى كل من هذه الشخصيات المصوَّرة، نحن نلمح فى نفس الوقت، كتفيها الاثنين، وذراعيها الاثنين، وساقيها الاثنين، وكل أصابع يديها مصفوفة بعضها إلى جوار بعض، ثم إن الإبهام يكون عادة فى وضع خاطئ فى إحدى اليدين، كما لو أن هذه الشخصية لها نفس اليد (اليمنى أو اليسرى) فى نهاية ذراعيها. وطبعاً لم يكن الفنان المصرى يعرف قواعد المنظور فى فن الرسم(*).

وبالإضافة إلى كل ما سبق، فإن أحد ملامح الفن المصرى هو أنه يمكننا أن نرى عبر الأشياء، وكأن هذه الأشياء شفّافة، مثلا يمكننا أن نرى الإناء، وفى نفس الوقت المحتويات الموضوعة داخله، وكأن هذا الإناء شفاف. وفى نفس المنظر يمكننا أن نجد أن الأشياء ممثلة بمقاييس رسم مختلفة، وذلك لأن حجم الشخصيات والأشياء الممثلة فى الصورة، لا يرتبط بحجمها الحقيقى فى الطبيعة، وإنما يرتبط بأهميتها فى نظر الفنان. فالملك مثلا أكبر حجماً من موظف كبير، وهذا الموظف الكبير بدوره أكبر حجماً من جندى بسيط، وهكذا. كذلك الألوان هى الأخرى التى تتبع قواعد، فى أحيان كثيرة تكون، لا علاقة لها بالواقع، فبشرة الرجال حمراء اللون، بلون التربة الحمراء (المغرّة)، فى حين تكون بشرة النساء صفراء اللون.

وفيما يتعلق بفن النحت، ربما لا يتساوى المصريون مع الإغريق، فتماثيل المصريين على قدر كبير من السكون، بل من انعدام الحركة، مع وقفة متكلفة أو وضع متصنع إلى حد ما، وبذراعين ملتصقين بالجذع. بالإضافة إلى أن تماثيل كثيرة تحمل

علامات الكتل الحجرية الأصلية التى صنعت منها، وهى التماثيل المكعبة الشكل، أو تلك المزوّدة بقاعدة تمثال تقف عليها الشخصية، وبعمود يمتد بارتفاع التمثال، تسند عليه الشخصية ظهرها، ففى تلك التماثيل يحدث أن يكون البشر المنحوت، والحجر المستعمل فى النحت، شيئًا واحدًا.

ورغم أن أوضاع تلك التماثيل غالبا تكون مجمّدة الحركة، فإن الوجوه تكون غالبًا آسرة الجمال، والنظرات غالبًا محيّرة. وهناك نماذج رائعة الجمال على ما أقول، حيث يوجد فى القسم المصرى بمتحف اللوفر، تمثال الكاتب الجالس القرفصاء، أو تمثال الجرانيت الوردى لسخمكا، بل انظروا إلى الحنان المنبعث من تمثال الزوجين من الحجر الجيرى الملوّن من الدولة القديمة، لاحظوا تلك الإيماءة فى وجه مرس عنخ، المنكمشة خلف زوجها والمتعلقة بذراعه ومحتضنة كتفه.

سبق أن قلت إنه ليست هناك اعتباطية أو عشوائية فى الفن المصرى، كما أنه لم يكن هناك أى مجال لنظرية الفن للفن، ولكن ليس هناك ما يمنع من الاعتقاد، بأن القصور والمنازل، كانت تحتوى أيضًا تحفا وأعمالا فنية، لمجرد متعة الأعين. إن الأجزاء المحطمة من الأرضيات الملوّنة، التى عثر عليها فى ركام رديم تل العمارنة تشهد بذلك، بالإضافة إلى العديد من قطع أوانى الطعام والمصوغات، التى وصلت إلينا.

وفيما عدا استثناءات نادرة، فإن أعمالا قليلة جدًا يترك أصحابها توقيعاتهم عليها، فنحن غالبا نعرف اسم الشخص الذى يكلف الفنان بأداء العمل، ولا نعرف اسم الفنان نفسه. يجوز أنه ينبغى استعمال كلمة الحرفى بدلا من كلمة الفنان؛ وذلك لأن كل تلك الأعمال الفنية، حتى التماثيل البسيطة منها، كانت النتيجة النهائية لأداء فريق عمل، فريق يتكون من عدد من الفنيين الذين يتشاركون فى إنتاج عمل فنى واحد.

وليس هناك ما هو أكثر إثارة، من المسودّات والتخطيطات الأولية لتلك الأعمال الفنية، التى تركها أصحابها المجهولون، والتى نجدها فى المقابر، على الجدران، أو فى موقع حفر غائر لم يتم إنجازه، أو على شقافة (أوستراكا)(*) من الطين المحروق. إن هؤلاء الحرفيين كانوا قد طبّقوا بدقة، مجموعة من القواعد الفنية الثابتة، التى كانت مستقرّة لمدة حوالى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد [من القرن الثلاثين قبل الميلاد إلى القرن الثالث قبل الميلاد]، وستظل هذه القواعد سائدة، مع إدخال بعض التعديلات، حتى نهاية العصر الرومانى [القرن السادس الميلادى]. كان الفن الملكى يزدهر عندما يكون النظام مستقراً، وكان هذا الفن يبلغ القمة، عندما يكون الفرعون فى عنفوان قوته.

انظر المقالات عن :أبو سمبل رقم (٢)/ إدفو رقم (٤١)/ كرنك رقم (٧٤)/ نفرتارى رقم (٩٩)/ مسلات رقم (١٠٢)/أهرامات رقم (١١٨).

١١ - أسوان / Assouan

إن هذه المدينة لا تكون غالبا الوجهة النهائية، وإنما هى محطة فى طريق الوصول إلى الوجهة النهائية، إذ إننا نمر بأسوان بين فترتين، الأولى هى فترة إقامة فى الأقصر، والثانية هى فترة زيارة لأبى سمبل. يقول المرشدون السياحيون (لزيارة أسوان يكفى يومان لرؤية كل شىء). فى الواقع أن لا شىء فى هذه المدينة يمكن أن ينافس المواقع السياحية الأخرى فى مصر العليا، ولعل هذا هو أحد عناصر سحر وجاذبية مدينة أسوان، هذا النقص بالمقارنة بالمدن الأخرى، إذ إننا يمكننا هنا أن نريح أعيننا وعقولنا، بعد أن أسكرتنا خمر كنوز الحجر. هنا يمكن أن نترك أنفسنا للحياة، فى حلاوة مناخها الشتوى، أن نسبح ونستحم كل يوم فى شمسها الشتوية، فى مواجهة هذا النيل، الإله كلى الوجود، خاصة أن جزر نيل أسوان تعطى الانطباع بأنها طافية فوقه، وتتحرك معه.

وبغض النظر عن اسم هذه المدينة، سواء كان سونت في العصر الفرعوني، أو سيان في العصر البطلمي، أو سوان في العصر القبطي، أو أسوان في العصر العربي، فإن هذه المدينة شبه الاستوائية، كانت في كل هذه العصور، البوابة الجنوبية لمصر، التي تفصلها عن النوبة، ثم عن السودان، ولهذا كانت في أسوان دائماً حامية عسكرية. لكنها كانت أيضاً سوقاً مهماً لمنتجات الجنوب، حيث كان يمكن مبادلة منتجات البحر المتوسط. بمنتجات أفريقيا.

إن السوق الحالي في الشارع الممتد بمحاذاة شارع كورنيش النيل، يمكنه أن يعطينا فكرة صغيرة، عما كانه سوق أسوان في الأزمنة القديمة، أزمنة قوافل أفريقيا القادمة بمعروضاتها من العاج والأبنوس والتوابل والصمغ والمصوغات والحلي وجلود الغزلان والتماسيح. في هذا السوق يتجوّل السائحون في هدوء، وأحياناً يتجوّلون حتى وقت متاخر من الليل، وهم يستمتعون بهذا التجول الهادئ، بفضل طباع البائعين الذين لا يلحّون ولا يتوسّلون كعادة بائعي بعض المدن الأخرى، ولكن إلى متى يمكن أن يستمر طبعهم هذا المحمود؟

طبعا يستحق المتحف النوبي زيارة. ومن بين الآثار الأخرى التي ينبغي التوقف عندها في هذه المدينة ونواحيها، توجد المسلة الناقصة، والتي يبلغ طولها ٤٢ متراً، وهي ممددة على الأرض الصخرية، ولم تنفصل عنها قط. إلا أن أكثر آثار أسوان وقوعا خارج الإطار الزمني لمصر القديمة، هو لا شك ضريح الأغا خان، الذي كان رئيساً لإحدى الطوائف الإسماعيلية، التي لا توجد لها أية جذور أو وشائج مع مسلمي وادي النيل، ومع ذلك تمكن هذا الضريح، من الاندماج في محيطه الطبيعي، محيط وادي النيل.

وليس بعيداً عن الضريح، يقع دير القديس سمعان، الذي يشبه حصناً مهجوراً، في حين أن مقابر الأشراف التي تعود إلى زمن الدولتين القديمة والوسطى، هي تقريباً

فى حالة دمار شامل. سؤال: من هو المجرم العتيد فى الإجرام، الذى سمح ببناء فندق ضخم على جزيرة إليفانتين فشوّهها تمامًا؟ يا لها من جريمة نكراء، إن عشاق أسوان يسألون أنفسهم هذا السؤال فى كل رحلة إلى جزيرة النباتات القريبة، حيث يذهبون ظنًا منهم أنهم قد يجدون فيها العزاء.

يعود الفضل فى وجودها إلى الجنرال البريطانى كتشنر، الذى كان يوما ما قائدا للجيش المصرى، وحاكمًا عسكريًا لأسوان، وقد خطرت فى باله تلك الفكرة النيّرة المستنيرة، فكرة تحويل جزيرة مهجورة، إلى حديقة للنباتات الاستوائية، خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر. وفى يوم الجمعة من كل أسبوع، وهو يوم الإجازة الرسمية فى مصر، تغزو الجزيرة عائلات من الطبقة الأسوانية المتوسطة، وأزواج من العشاق الشباب، حيث يمكنك الذهاب للتعرف على سكان أسوان.

ثم هناك كذلك فندق كاتاراكت القديم، الذى يعود إلى نفس الفترة التى أقيمت خلالها حديقة النباتات، أى إلى نهاية القرن ١٩ . إن هذا الفندق يشبه، فيما يتعلق بواجهاته قصرًا من العصر الفيكتورى [طراز عصر الملكة فيكتوريا، وهو طراز بريطانى من منتصف القرن ١٩]، مع ملاحظة أن أجزاءه الداخلية عربية الطراز، وقد تحوّل هذا الفندق الآن إلى محطة سياحية، من الضرورى أن يتوقف عندها السياح. لا شك فى أن كل ما ينبغى أن يقال عن هذا الفندق، قد قيل فعلا من قبل، ولا شك كذلك فى أن شرفاته المشهورة بعقودها الموريسكية [طراز عربى أندلسى فى البناء]، والتى تشرف على نهر النيل، قد بولغ تماما فى وصف جمالها. هذه الشرفات هى المكان الذى ينبغى أن تحتسى فيه الشاى عند غروب الشمس، ولو مرة واحدة فى حياتك.

إن أسوان لصيقة الصلة بفندقها الكاتاراكت القديم، ويمكن لبيار لوتى(*) [أديب ورحّالة فرنسى] أن يتقلب فى قبره، ففى كتابه عن رحلته إلى مصر سنة ١٩٠٧، وبين فقرتين شديدتىْ الهجوم على وكالة توماس كوك للسفريات، وعلى

تابعيهـا (أى سيّاحها)، اتهـم الفنـدق، الذى كان وقتهـا جديداً تماماً، بتشـويه المدينة الصغيره (سابقًا)، بمنازلها البيضاء المدهونة بالجير، وبمئذنة مسجدها الطفولية البريئة.

١٢ - الأزهر / Azhar (Al-)

بالنسبة للكثيرين من مسلمى العالم، فإن مصر والأزهر (منارة الإسلام) هما نفس الشيء، فمصر هى الأزهر، والأزهر هو مصر. إن الأزهر يمثل الإسلام السنى، وذلك رغم أن هذا الجامع/الجامعة، كان قد تأسس على يد أسرة فاطمية شيعية، فى القرن العاشر الميلادى. يأتى الطلاب أحياناً من أماكن بعيدة جداً للدراسة فى الأزهر، لدراسة قواعد ديانة الإسلام، وسُنّة النبى محمد عليه الصلاة والسلام، ليس هذا فقط، وذلك لأنه منذ حوالى نصف قرن، أصبح من المتاح كذلك فى الأزهر، دراسة العلوم الحديثة، مثل الطب والزراعة. إن فى جامعة الأزهر اليوم حوالى ١٤٠ ألفا من الطلاب والطالبات، منهم حوالى عشرة بالمائة من غير المصريين.

إن أى شخص يمكنه أن يدخل الجامع الأزهر، رجلاً كان أم امرأة، وذلك بشرط أن يخلع حذاءه، بعدها يسعد باكتشاف فناء المسجد الأوسط (الصحن)، والأروقة المحيطة به، والتى تتكون من حوالى ٣٠٠ عمود من الرخام. يمكن للشخص إذا أراد أن يتجول بعد ذلك فى بيت الصلاة، ليصل إلى محراب الجامع الشهير، الذى (خلافًا للقاعدة) لا يستند إلى حائط. وليس هناك ما يمنع هذا الزائر من الاقتراب من شيخ، يجلس على الأرض محاطا بمريديه، لمتابعة دروس هذا الشيخ مع مريديه. هنا يتولد لدينا انطباع محبب، بأننا لسنا فى هذا القرن، وأننا قد عدنا فى الزمان إلى قرن آخر.

إنها فكرة خيالية ممتعة، تنبع منها إيحاءات ومشاعر محببة، فكرة أن منزلاً مفتوحًا لكل البشر، يوجد في قلب القاهرة الإسلامية، يمكن لأى إنسان أن يدخله، بمجرد اجتياز عتبة باب... لكم أحببت لو كنت قد تعرّفت، على هذا المكان في العصر الذى كانت فيه الثقافة العربية، والعلوم العربية، تشع ببريقها فى ألف مكان، وتسود نصف العالم. لكن للأسف أن هذه المؤسسة الثقافية الأكثر شهرة فى الإسلام، بعد فترة ازدهارها الأولى، جاء ليل طويل لم تقم لها قائمة بعده.

لكن فى واقع الحال، فإن الأزهر هو أيضًا صرح الحفاظ على التقاليد، وكل محظوراته ومحاذيره تثقل كاهل المجتمع المصرى. ثم إن هناك عددًا من المثقفين المصريين، كانوا قد وقعوا فى نزاعات مع الأزهر، خلال عقود طويلة. ففى نهاية القرن التاسع عشر، حاول المصلح الاجتماعى الشيخ محمد عبده، إصلاح أوضاع الأزهر، ليجعله منتميًا إلى العصر الحديث، ولكن دون جدوى. إن الوظيفة الرسمية للأزهر، هى الحفاظ على التراث الثقافى الإسلامى، وتفسير مبادئ العقيدة ونشرها، وقد أراد عبد الناصر أن يسخّر الأزهر لخدمة سياساته، فحوّل العلماء إلى موظفين مهذبين ومطيعين، تحت سيطرة الدولة.

ولكنه بفعلته تلك، قد ساعد على خلق مؤسسة دينية كهنوتية، لديها الوسائل الإدارية والمالية، التى تسمح لها فى الواقع، بالالتفاف حول السلطة ومواجهتها. وهكذا لم يتأخر الأزهر فى الحصول على دور سياسى، ليصبح أحد اللاعبين فى المسرح السياسى، مستفيدا من التمويل، الذى يحصل عليه من المملكة العربية السعودية، أو من دولة الإمارات العربية المتحدة. الآن تحاول هذه المؤسسة باستمرار، أن تزيد من سطوتها على المجتمع المصرى، ومن فرض سيطرتها عليه، بممارسات تتحكّم حتى فى الأفكار.

مثلا فى ربيع سنة ٢٠٠٠، حدث أن طالب الأزهر بمنع نشر رواية للكاتب السورى حيدر حيدر، وأصدر عليها الحكم النهائى، بأنها تجديف وتطاول على الذات الإلهية.

وفى نفس الوقت تجد إدارة الأزهر نفسها دائما، فى مواجهة مستمرة مع مجموعة من علماء الأزهر، الذين يعارضون الانصياع للدولة (الكافرة)، وأسلوب خطاب هذه المجموعة من العلماء، لا يختلف أبداً عن أسلوب خطاب المتشددين الإسلاميين. إن ما يحدث الآن هو قريب الشبه بلعبة شديدة التعقيد، إذ إن الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر، القريب من السلطة، يساق قسراً إلى إصدار فتاوى، فى مسائل حساسة ودقيقة جداً، كمسألة ختان البنات، ومسألة الإجهاض، ومسألة فوائد البنوك، وفيما بعد يقوم كل شخص بتفسير هذه الفتاوى على طريقته.

انظر مقالات: طه حسين رقم (٦٤)/ الإسلام رقم (٦٨)/ الطهطاوى رقم (١٣٧).

١٣ - بقشيش / Bakchich

إن أفراد المجتمع الفرنسى فى القاهرة، يستعملون بتلقائية غريبة الفعل المشتق من هذه الكلمة، ويصرفونه فى جميع الأزمنة، الماضى والمضارع والمستقبل، بقشش ويبقشش وسيبقشش، وذلك لأن هذا الفعل أصبح نوعاً من النشاط الذى يمارسونه كل يوم، بشكل ضرورى ومستمر، إذ إن ورقة النقد تنزلق بشكل تلقائى فى يد الخادم، أو فى يد البوّاب، أو فى يد الساعى، وأحياناً حتى فى يد رجل الشرطة أثناء قيامه بعمله. فى القاهرة وجدت متحفاً واحداً على الأقل، يقوم حارسه بإطفاء إضاءة فتارين العرض، بمجرد رؤيته لك تدخل القاعة، وذلك حتى يعيد إضاءتها لك عندما تقترب منها، كنوع من التكريم الخاص بشخصك الكريم، ليستحق عن ذلك العمل الكريم بقشيشا.

يكتب چان كوكتو فى كتابه (ثمانين يوماً حول العالم) قائلاً (إن البقشيش يبدأ فى مصر ثم يتبعنا بعد ذلك إلى الهند). فى الواقع فإن وادى النيل لا يحتكر هذه الكلمة له وحده، فإن الكلمة ذات الأصل الفارسى (بخسيس)(*)، استعملها الأتراك (باقسيس)،

ثم أصبحت فيما بعد عالمية الانتشار. وفى الأصل كانت هذه الكلمة، تشير إلى العمل الصالح التقىّ، بإعطاء الفقراء من المتصوفين الزاهدين المتبتلين فى الحياة، منحة أو هبة تمكنهم من استئناف حياة الزهد، وتكريس كل وقتهم للصلاة. استعملت كذلك باعتباره مبادرة ترحيب بالضيف، فى صورة هدية صغيرة تقدّم للضيف، علامة على حسن الاستقبال.

من تلك المعانى الأولى، اشتقت، حسب الملابسات، المعانى الجديدة. فقد تعنى هذه الكلمة حاليًا، الرشوة أو الإكرامية أو الصدقة. ففى الكثير من البلاد النامية، تكون المرتبات أحيانًا منخفضة جداً، وتكون الفروق الاجتماعية صارخة جداً، لدرجة أن البقشيش فى مثل هذه الحالات، يكون أمراً مفروغًا منه. عندما نعرف ماذا يعنى الدولار لهؤلاء الناس البسطاء، فليس من المستغرب أن يمدّوا أيديهم، خاصة أمام الأجانب. ومنذ أن فتحت أوروبا الغربية أبوابها لأوروبا الشرقية، وغزت الشحاذة مدن أوروبا الغربية، أصبح الأوروبيون الغربيون أقل شكوى، وأقل رغبة فى التهكم أو السخرية، مما كان عليه الحال قبل ذلك، وأصبحوا كذلك أقل إحساسًا بالحرج من هذه الممارسات.

أحيانًا لا تشتمل الفواتير والإيصالات وكشوف الحسابات فى مصر على بند الخدمة، ثم يقوم المستخدمون فى الفنادق مثلا بخدمتك بشكل جماعى، كأن يقوم اثنان منهم أو ثلاثة معا بنقل حقائبك، بطريقة وديّة لطيفة، ولذلك ينبغى أن تحتفظ بقدر من الفكّة فى جيبك، حتى تتمكن من دفع بقشيشين أو ثلاثة بقاشيش. ثم إنها أحيانًا خطوة واحدة تلك التى تفصل بين الإكرامية والرشوة، عندما يكون بعض المال هو وسيلتك أحيانًا لتسهيل بعض الإجراءات، أو لفتح باب كان، حتى لحظة دفع الرشوة، مغلقا بتعنت. منذ بضعة أعوام قام مدحت حسنين، وهو أستاذ اقتصاد فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، بتقديم اقتراح بإنشاء ما أسماه (الصندوق القومى للبقشيش)، وذلك لضمان عدالة توزيع، حوالى خمسة مليارات من الجنيهات المصرية من

الإكراميات، على موظفى الدولة المصرية، وهو المبلغ الذى يقدمه لهم سنوياً، المواطنون المصريون المتعاملون معهم.

وتختلط كذلك فكرة البقشيش بفكرة الصدقة، إذ قد يعتقد من يعطى البقشيش، أن السماء سوف تكافئه بكل البركات السماوية، هو ووالديه وذريته، حتى الجيل الخامس. فى المناطق السياحية، يحدث أن أطفالا لا يزيد طولهم عن ثلاثة أشبار، يتتبعون الزائر دون كلل أو ملل، بعبارات (هاللو بقشيش). فى سنة ١٨٦٩ كان الفرنسى أوچين فرومونتان، قد طاف بمصر كلها، ثم كتب بقدر كبير من الاحتقار واصفا سكان مصر بهذه الكلمات:

(إن كلمة بقشيش تلخص كل قاموس مفرداتهم اليومية المعتادة، وذلك لأنهم شحاذون بالفطرة، ثم إن حركة مدّ اليد، تلخص كل فنون تمثيلهم الصامت (بانتومايم)، إنه الطلب ثم الإلحاح ثم الملاحقة الدءوب، مع تكرار كلمات من نوع بقشيش، ثم بعدها تأتى بقشيش كثير، ثم انتظار أن تعطيهم، ثم إذا أعطيتهم مرة أولى ينتظرون المرة الثانية، ويطلبون من جديد، بإلحاح وبصبر غير عادى، وبتطفّل لا حدود له، ويبدو لك أنهم دون أى إحساس، ودون أى احترام لذواتهم البشرية).

أما ليدى دف جوردن، السيدة الإنجليزية التى عاشت سنوات طويلة، بين الفلاحين الفقراء، فى مصر العليا، خاصة فى الأقصر، كتبت فى إحدى رسائلها (المشهورة والمنشورة فى كتاب لاحقا) قائلة (أمر غريب حقا، أن يصرخ الأوروبيون يشتكون من البقشيش، وذلك لأنهم ينسون أن كل الخدمات التى يحصلون عليها فى مصر مجانا، ودون أن يفكر بعض من يقدمونها لهم فى طلب البقشيش، هى غالبا خدمات مدفوعة الثمن فى أوروبا).

انظر مقالات: موظفين رقم (٥٢)/ أغنياء وفقراء رقم (١٢٢).

١٤ - البواب / Baouab

يحرس البوّاب المنزل أو العمارة، جاساً أمام الباب، أداته الرئيسية هي مقعده، فقد تحوّلت دكة الماضي إلى كرسي، غالبًا ما يكون كرسيا مريحًا بظهر مرتفع ومسندين للمرفقين. ثم إن البوّاب لا يجلس كيفما اتفق، بل إن له طريقة معينة في الجلوس، فهو إما أن يضع إحدى ساقيه ثانيا إياها تحت مؤخرته، أو أنه يسترخي تمامًا، في وضع أقرب ما يكون إلى وضع التمدد في الفراش، فارداً جسمه كله أمامه إلى أبعد حد ممكن، وبالتالي تتدلى بطنه أمامه إذا كان سمينًا. بعد ذلك يتخذ سمت التأمل، فنراه يمرر حبّات مسبحته بين أصابع يديه، أو نراه يلعب في أصابع قدميه.

إلا إننا لا يجب أن ننخدع بهذا المظهر، فهو رغم كل شيء، يقوم من مكانه بشكل منتظم، لأداء وظائفه المتعددة المختلفة، في طوابق العمارة المتعددة المختلفة. فإذا كان هذا البواب صغيراً في السن وواسع الحيلة، أمكنه أن يضيف إلى مهامه المتعددة مهنًا أخرى، كأن يصبح مثلا الجنايني المسئول عن حديقة العمارة، أو سايسًا في جاراج العمارة، أو حارسًا للسيارات أمام العمارة، أو سمسارًا للعقارات، أو مقاولاً لأعمال البناء من الباطن، أو.... إلخ. إلا أنه في آخر المطاف، إن آجلا أو عاجلا، يعود إلى الشيء الأساسي في مهنته،أي إلى مقعده الأثير الوثير، منهوك القوى.

من موقعه ذاك على مقعده، هو يرى كل شيء، ويعرف كل شيء، حتى إن سكان العمارة يشعرون أحيانًا بأنهم مراقبون، حتى إن بعض الأمهات، يطلبن من بناتهن، العودة مبكرًا إلى المنزل، لتجنب ما يمكن أن تقوله، هيئة القضاء، الجالسة على الباب. ثم إن البوّاب يراقب كذلك حركة الشارع، ويتكفّل بإعطاء المعلومات التي يطلبها منه العابرون أمامه، يمكنه كذلك أن يعطي معلوماته للشرطة، في حالة احتياج الشرطة لخدماته، ثم إنه بعد ذلك كله يدخن ويتأمل الحياة، حتى وقت متأخر من الليل. عند ذلك

الحد، يغادر مكانه، ليذهب إلى مخدعه، الذى يقع غالبًا فى ركن صغير منعزل من نفس العمارة. بفضل هذا الجندى المجهول، يستمر الناس فى الإقبال على السكن فى العمارات.

هى رغم ذلك مهنة ليست على هذه الدرجة من الانعزالية، فالبوّاب يكون على اتصال دائم بنظرائه من البوّابين فى العمارات المجاورة، وهو لا يتردد فى الاستعانة بهم، مثلا لنقل قطعة ثقيلة من الأثاث. وفى ليالى الصيف تتقارب المقاعد، ليتم تبادل الآراء فى مسألة الساعات التى تمر، وكل منهم جالسًا أمام عمارته، فى مرمى بصر الآخرين. ولكنها مهنة بلا حراك، فإن البوّاب الجيِّد يشيخ على مقعده، وحيث إنها مهنة بلا سن إحالة إلى التقاعد، فإن البوّاب الحقيقى يموت جالسًا.

١٥ - مكتبة الإسكندرية / Bibliothéque d'Alexandrie

(جمع كل معارف العالم فى مكان واحد)، تلك هى الفكرة الطموح الرائعة لمؤسسى مكتبة الإسكندرية. كل معارف العالم؟ مستحيل. لكن الحقيقة هى أنه ضمن أشياء أخرى كثيرة، ظهر فيها كل الأدب الإغريقى، وهو ما جعلها أكبر مكتبات العالم القديم. ولم يكن مديروها أو أمناء المكتبة، يهتمون بالمصادر التى يحصلون منها على التموين اللازم من الكتب، فكل الطرق مشروعة. مثلاً، السفن التى كانت ترسو فى مرفأ المدينة، كان عليها أن تعلن عن الكتب الموجودة على متنها، ثم تسلمها إلى نسّاخ المكتبة، ليقوموا بعمل نسخ منها تحتفظ بها المكتبة، قبل أن تسترد السفن كتبها لتبحر من جديد. فى بعض الأحيان كانوا يحتفظون بالأصل ويرسلون النسخة التى صنعوها. كانت هذه الكتب هى ذخائر السفن، أو مدخراتها ورأسمالها المتنقل معها.

ثم أضيف المتحف (الموزيون)(*) إلى المكتبة، إذ يمكن اعتباره توأمًا لها، ومكمّلاً لدورها، بالإضافة إلى الدور الذى لعبته المكتبة باعتبارها مركزًا للأبحاث له سمعة

عالمية، وكمجمع علمي يستضيف علماء دول حوض البحر المتوسط، بل أبعد من ذلك، علماء دول العالم أجمع، في الإسكندرية، حيث يشاركون علماءها (إقليدس مثلا) أبحاثهم . وهكذا ازدهرت وسط كتابات ومؤلفات علماء المكتبة، ذهنية كوزموبوليتانية(*)، لم يكن لها مثيل.

وكان من بين أمناء المكتبة، الكثير من الأسماء الكبيرة، في مجالات معرفية مختلفة، مثل إيراتوستينيس وأريستوفانوس وكاليماخوس، اشتركوا جميعًا في محاولة تحقيق حلم انضمام كل دول العالم إلى فكر واحد. هم لم يكونوا فقط أرشيفيين مسئولين عن تسجيل الفهارس والقوائم، ومهتمّين فقط بتصنيف وتحقيق اللفائف، التي لا يمكن حصرها، بل كانوا علماء في كل التخصصات، من فقهاء في اللغات، إلى فلاسفة وشعراء وجغرافيين وفلكيين وعلماء في الرياضيات.

عندما جاء كاليماخوس الشاعر من مسقط رأسه قيروان [مدينة ليبيّة]، مارس في الإسكندرية أولاً مهنة التدريس، وكان معروفًا من قبل مجيئه بمؤلفه الضخم (الأسباب)، وهو في صورة قصيدة شعرية باليونانية من سبعة آلاف بيت، موضوعها يدور حول أصل الأشياء. أما إيراتوستينيس، وهو كذلك من مواطني القيروان، فهو أحد أكبر جغرافيّ عصره، وقد تمكن من حساب محيط الكرة الأرضية، بالاعتماد على طريقة حساب الفرق بين زاويتيْ ميل سقوط أشعة الشمس العمودية، أي عند منتصف النهار، في مدينتين مصريتين تقعان على نفس خط الطول، هما الإسكندرية وأسوان. المقصود بالقول، هو أن علماء المكتبة، كانوا بعيدين كل البعد، عن الانزواء في مكاتبهم في أقسام تخصصاتهم، وإنما كانوا يشاركون بطريقة إيجابية، في الحياة الذهنية والعلمية لمدينتهم.

لم يتبق أي أثر على الإطلاق لهذه المكتبة غير المسبوقة، فنحن حتى لا نعرف أين كانت تقع بالضبط. حتى تاريخ مولدها يثير جدلاً، وإن كان ذلك تقريبًا حوالي ٣٠٠ ق.م.، تحت حكم بطلميوس الأول (سوتير)(*). أما تاريخ اختفائها فهو اللغز الكبير.

فمن المحتمل أن يكون ذلك قد حدث سنة ٤٨ ق.م.، في حريق ضخم بعد استيلاء يوليوس قيصر على المدينة. إن المباني الملحقة بالمكتبة هي فقط التي ظلت على قيد الحياة، وهو ما سيطلق عليه لاحقا المكتبة الابنة، والتي ستختفي بدورها سنة ٣٩١ ميلادية، عند تدمير سيرابيوم(*) الإسكندرية. وقد اعتقد الأوروبيون لفترة طويلة، أن العرب كانوا مسئولين عن تدمير المكتبة، عند فتحهم لمصر في القرن السابع الميلادي، وأن عمرو بن العاص كان قد أعطى الأوامر، باستعمال الكتب وقودا للحمّامات العامة في المدينة، وأن حرق تلك الكتب كلها قد استغرق ستة أشهر. هي حكاية خرافية، وهناك العديد من الخرافات غيرها.

ثم ... وبرعاية اليونسكو، وبدعم دولي كبير من جهات مختلفة، وخلال سبعينيات القرن العشرين، تم تبنّي الفكرة من جديد، تلك الفكرة المغوية والمحفوفة بالمخاطر، فكرة إعادة بناء مكتبة الإسكندرية. وقد تحققت الفكرة، وولد الحلم من جديد من رحم الأمل. إن اسمها الجديد هو ألكسندرينا، ومبناها الذي أبدعه معماريو مكتب (سنوهيتا) النرويجي، يتكوّن من أحد عشر طابقا، منها أربعة طوابق تحت مستوى سطح البحر، وهو مبنى يمتلئ بالرموز، فمثلا قاعة المطالعة فيه تتكون من سبعة مستويات، أو سبعة طوابق، للدلالة على مجالات المعرفة السبعة، وهي حاليًا أكبر قاعة مطالعة في العالم.

أما السقف الزجاجي فهو يبدو على شكل قرص شمس، وكأنه يخرج من مياه البحر، إذ يميل جهة الماء، في موقع لسان السلسلة، في المكان الذي كانت تقع فيه غالبًا، مكتبة الزمن القديم. من ضمن أهم رموز المكتبة، جدارها الذي يحيط بها، والمكسو بجرانيت أسوان، إذ تمت زخرفته بالحفر البارز، بحروف من كل لغات العالم. وبالإضافة إلى المبنى الرئيسي هناك مبنيان آخران، قاعة مؤتمرات وقبة سماوية، وبهما يكتمل المجمع.

كان من المفروض لألكسندرينا أن تتخذ محوراً تتخصص فيه، ولكن المسئولين عنها اختاروا لها أهدافًا أكثر اتساعًا وتنوعًا، وبالتالى أكثر إبهامًا وغموضًا. إن الذخيرة الأساسية من الكتب، والتى تم تجميعها من هنا وهناك كيفما اتفق، تجعلنا نخشى بعض العواقب. ثم هل يمكن لمكتبة ورقية جديدة أن تفرض وجودها فى عصر الإنترنت؟

يتوقف الرد عن هذا السؤال على عنصرين مختلفين، أولهما المادة التى يمكن أن نوفرها لها، وثانيهما طريقتنا فى تنظيمها. حيث إنه قد تمّ تزويدها بالتكنولوجيا الحديثة، فإن ألكسندرينا يمكن أن تصبح مركزًا للإنتاج والنشر الرقمى (الديجيتال). لكنها لن تتمكن من أداء الدور المتوقع منها، إلا إذا نجحت مثل جدتها العظيمة، فى أن تصبح مركزاً للتلاقى بين الدول. عليها كذلك أن تؤكد على مبدأ حرية الثقافة، فى بلد لديه عادة الرقابة على الكتب، وهى عادة سيئة.

هناك عنصر إيجابى، ترك انطباعًا جيداً لدى المتشككين، وهو تعيين مثقف مصرى لامع فى منصب المدير العام، وهو إسماعيل سراج الدين، الذى يمتلك إلى حد الإتقان، ناصية اللغات الرسمية الثلاث للمكتبة، العربية والإنجليزية والفرنسية، وكان قد طالب بضرورة تخليص المكتبة من الأعباء الروتينية الحكومية المعتادة فى مصر، والأثقال الإدارية، ونجح فى الحصول على ما ابتغاه، وبالتالى فهو غير مطالب بتقديم أية حسابات إلا لشخص رئيس الجمهورية نفسه، وهى بداية طيبة.

١٦ - بيرة / Bière

شرفة مقهى بالميرا فى هليوبوليس، كنا فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر، صديقى فوزى وأنا. قلت للنادل العجوز المرتدى جلابية (اثنين ستيللا)، قلتها

بطريقة من لديه السطوة والنفوذ، فرمقني بنظرة من عينه الزجاجية، ثم قال بصوت رتيب (نحن لا نقدّم بيرة للأطفال)، بلعنا خزينا وعارنا، وتنازلنا عن طلبنا، لنحصل فقط على زجاجتين من المياه الغازية المثلجة. تمرّ السنوات، وتتغيّر الأنظمة، وتظل البيرة ستيللا على الموائد، تقدم فى نفس الزجاجات القديمة الكبيرة، والبالية إلى حد ما، حاملة نجمتها الزرقاء، على خلفيتها الصفراء، وتقاوم كل التغييرات المزاجية. كانت تلك العلامة التجارية قد ظهرت إلى الوجود سنة ١٨٩٧، بواسطة شركة مسجلة فى بلجيكا، كان اسمها كراون باورى كومباني.

يمكن للبيرة أن تدّعى انتسابها إلى الفراعنة، وذلك لأنها فى وقتهم كانت مشروبهم اليومى، وذلك بدلا من أن نقول مشروبهم القومى، وكانوا يستهلكونها فى كل مكان، فى المنزل والحقل والملهى، لدرجة أنها كانت موجودة حتى فى المقابر، ضمن محتويات ذخيرة المتوفى فى أثناء رحلته إلى العالم الآخر، ليتمكن من إرواء ظمأه فى أثناء الرحلة. وفى اللغة، كان التعبير عن الأكل والشرب، تستعمل له الكلمتان (الخبز والجعة). كانت جعة ذلك الوقت، تصنع من عجين الشعير أو الحنطة، الممزوج غالبا بعصير البلح وببعض التوابل، ويرجّ ذلك المزيج جيدا، حتى يحدث أفضل امتزاج ممكن لهذه العناصر، ثم ينقى المزيج من الشوائب، بتمريره عبر المصافى والمرشحات، ثم يوضع فى الأوانى والجرار الخزفية لإمكان نقله.

هذه الوصفة عبرت القرون، لتصبح الآن المشروب المعروف باسم البوظة، أو جعة الفقراء المصنوعة من الخبز المتعفّن، وهو المشروب الذى كان شعبيًا جداً، خلال أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين. أما البيرة ستيللا فقد حققت أرقاماً قياسيّة فى المبيعات، فى أثناء الحرب العالمية الثانية، عندما كانت الوقود الرئيسى، الذى لا غنى عنه، لأكثر من مليون جندى من جنود الحلفاء، الذين كانوا يعانون من العطش، والذين كان على بعضهم، ملاقاة الجيش الألمانى بقيادة روميل، فى قلب الصحراء الغربية عند موقعة العلمين.

وبعد وقت قليل من إنشائها، تحولت شركة كراون البلجيكية إلى شركة مصرية، قررت أن تتمصّر، وتصبح شركة الأهرام لصنع الجعة، قبل تعريب اسمها سنة ١٩٥٢، لتصبح شركة الأهرام للمشروبات، وإن كان هذا لم يمنع وقوعها تحت طائلة التأميم، سنة ١٩٦٣, ثم يأتى الوقت الحالى، وإذا بها تتحمل تبعات موجات الأسلمة والتأسلم، فتصبح أكثر حذرا، خاصة خلال شهر رمضان، بعد أن هاجمتها مجموعات الأصوليين. وهكذا بدأت فى إنتاج مشروبات غير كحولية، دفعت بها إلى الأسواق، مثل البيريل والفيروز، ثم حديثًا اليوسفينو (خلاصة اليوسفى)، والسترينو (خلاصة الليمون الأخضر).

كانت شركة الأهرام للمشروبات فى مقدمة الشركات المصرية، عند بداية سياسة الخصخصة، خلال العقد الأخير من القرن العشرين، ثم إن دخولها الناجح إلى سوق الأوراق المالية، أعطى الستيلا شبابًا جديداً. ولكن انطلاق مشروب منافس، معزز بحملة دعائية ضخمة، هو مشروب سقارة، أفقد الستيلا ربع السوق، لصالح المنافس، ولكن الوضع تغير من جديد لصالح المشروب الذى تعدى عمره المائة عام، والذى أثبت أنه خارج المنافسة. وللتكيّف مع أذواق السياح الأجانب، تمَ ابتكار نوعين من البيرة، واحدة أكثر شدة وتأثيراً هى (الإكسبورت)، والأخرى هى من نوع البيرة السمراء (بريميوم). لكن بالنسبة الىّ، كما هو الحال مع الكثيرين، تظل البيرة الأصلية هى ستيلا القديمة، الخفيفة المثلجة، والتى تشرب كما لو كانت لبنا رايبا، تلك التى رفض النادل العجوز تقديمها لى، ذلك اليوم البعيد فى مقهى بالميرا.

انظر مقال : العطش رقم (١٣٢).

١٧ - بطرس بطرس غالى / Boutros-Ghali (Boutros)

فيما يتعلق بهذا الشخص، نحن لا نستطيع أن نقول إنه قد جاء من حيث لا ندرى، وذلك لأن بطرس غالى يجسّد عالمًا بأكمله، بانتمائه إلى واحدة من أكبر العائلات

القبطية المرموقة، فى الطبقة البرجوازية(*) المصرية. كان جده، الذى يحمل نفس الاسم، رئيسًا لمجلس الوزراء المصرى، عندما اغتيل سنة ١٩١٠ . ثم كان أحد أعمامه قد شغل أربع مرات منصب وزير خارجية مصر، وهو واصف غالى، الذى كان بالإضافة إلى ذلك كاتبًا وشاعراً. بطرس غالى نفسه، هو فى الوقت نفسه قانونى، وصحفى، وأستاذ جامعى، ثم دبلوماسى أدار السياسة الخارجية لبلاده خلال أربعة عشر عامًا، قبل أن يتم انتخابه سكرتيراً عامًا للأمم المتحدة.

كان هذا الشاب المولود سنة ١٩٢٢، المتمتّع بالثراء والرشاقة والجاذبية، قادرا على اختيار حياة أكثر سهولة من تلك التى عاشها. تربّى وتهذب على يد مربيات ألمانيات، ثم ألحق بمدرسة الليسيه الفرنسية فى القاهرة، حصل بعد ذلك على ليسانس فى القانون المصرى، قبل أن ينال الدكتوراه فى القانون الدولى من باريس. فيما بعد عرف كيف يخرج عن الدروب المطروقة، وعن السبل المألوفة، وكيف يجازف، على الأقل فى مناسبتين مختلفتين من حياته. المناسبة الأولى كانت عند زواجه الثانى، الذى كان من اليهودية ليا نادلر، المنتمية أسرتها إلى المجتمع السكندرى الراقى، فى الوقت الذى كانت فيه مصر فى حالة حرب مع إسرائيل. والمناسبة الثانية كانت، عندما حلّ بشكل مرتجل محلّ وزير خارجية، كان يرتجف خوفًا، عندما طلب منه الرئيس أنور السادات، مصاحبته فى رحلته التاريخية إلى القدس، فى نوفمبر سنة ١٩٧٧ .

وهكذا فإن أستاذ الجامعة، الذى قذف به بشكل مفاجئ على المسرح الدولى، استطاع أن يحافظ على توازنه، وأن يلعب، بعد عام ونصف (أى فى مارس ١٩٧٩)، دوراً لا غنى عنه، فى إتمام الاتفاقيات المصرية الإسرائيلية فى كامب داڤيد. فى رحلة إسرائيل المدهشة، عندما نزل بطرس غالى من الطائرة، وجد نفسه فى سيارة واحدة مع موشيه دايان. ثم مفاجأة أخرى فى أثناء إنصاته إلى خطاب الرئيس أنور السادات، اليوم التالى فى الكنيست، وجد أنها مختلفة عن تلك التى كان قد أعدّها له

بناء على طلبه. إنها فاتحة شهية صغيرة، للإهانات التي يجب أن يتعلم كيف يبتلعها بكياسة، في عالم السياسة.

يحكى بطرس غالى فى مذكراته (لاحظ بيجين أن السادات كان أحياناً ينادينى ببطرس، وأحياناً أخرى ينادينى ببيتر، فأخذنى جانباً وسألنى: لماذا اسمان؟ أجبت بأن السادات يستعمل بيتر عندما تكون مشاعره طيبة نحوى، وبطرس عندما يغضب منّى. هذه اللعبة الصغيرة أعجبت بيجين، وقرر أن يستعملها بطريقته الخاصة. وحيث إن الكلمة فى أصلها اللاتينى بتروس تعنى صخرة، بدأ بيجين ينادينى (بيتر)، عندما يكون متضايقا من الحواجز والعقبات/الصخور التى أضعها فى طريق دبلوماسيته، و(بطرس) عندما أكون عاقلاً مهاوداً. أى عكس استعمال السادات للاسمين، وقد لاحظ السادات ذلك، وبدأ يلعب معه نفس اللعبة، وهكذا استمرت تلك الدعابة بينهما حول اسمى) هذه الفقرة من كتاب لبطرس غالى، بعنوان (الطريق إلى القدس)، والنسخة الفرنسية طبعت لدى دار نشر فايار بباريس سنة ١٩٩٧ .

فى سنة ١٩٩٢، نجحت فرنسا، فى جعل بطرس غالى يحصل على منصب السكرتير العام للأمم المتحدة، رغم أنف وذقن الولايات المتحدة، التى كانت ترغب فى مرشح آخر. وقد ضايق واشنطن فيما بعد، ميل بطرس غالى إلى العمل لصالح دول العالم الثالث، رغم أنه كان معتدلا جداً فى ذلك الميل. لهذا فقد عارض الأمريكيون بعد خمس سنوات، إعادة انتخاب بطرس غالى. ورغبة منهم فى الإنقاص من قيمته، كانوا قد أطلقوا عليه اسم (الأرستقراطى الفرنسى العجوز).

بعد ذلك بقليل، ورغم سنواته الخمس والسبعين، وبمبادرة من باريس، حصل على قدر من الترضية، بتعيينه فى منصب السكرتير العام للفرانكوفونية. وحيث إنه يجيد الفرنسية، قدر إجادته للإنجليزية والعربية، يؤكد قائلا (إن معركة الدفاع عن اللغة الفرنسية، ليست معركة عسكرية قليلة الأهمية، تدور فى مؤخرة الجيش، ولكنها معركة

سياسية للدفاع عن العالم، ضد خطر سيطرة لغة واحدة وحيدة، وضد ارتداء كل البشر زيًا ثقافيًا موحدًا).

رغم ذلك شعر بطرس غالى بأن تلك المعركة تفتقد إلى الوسائل المساعدة على تحقيق الهدف، بالإضافة إلى الأهم وهو افتقاد الإرادة السياسية. (من الصعب أن تكون أكثر ملكية من الملك). إن المصرى بطرس غالى، الذى كانت ثقافته الفرنسية جزءا أصيلا فى تكوينه، بل هى جزء من الأديم الذى خلقت منه ثقافته الواسعة، أدرك أن الفرنسيين لم يعودوا مهتمّين بالدفاع عن لغتهم، بعكس الشعوب الأخرى الناطقة بالفرنسية، مثل شعب كيبيك فى كندا، وشعوب بلجيكا وسويسرا والمغرب ولبنان.

انظر مقالات: الأقباط رقم (٢٨)/ الفرنكوفونية رقم (٥٦)/ السادات رقم (١٢٤).

١٨ - مقاهى القاهرة / Cafés du Caire

لا تسألونى كم يبلغ عدد مقاهى القاهرة، فلا أحد يعرف إن كانوا خمسة آلاف أو عشرة آلاف مقهى، إن الإحصائيات فى مصر خيالية. كل شىء يتوقف على تعريفك لكلمة مقهى، أى على ما يمكن تسميته مقهى. فإلى جانب المقاهى التقليدية، يمكن إضافة كازينوهات شاطئ النيل، والكافيتريات التى يمكن أن تكون متفرنجة إلى حد ما، ومقاهى الإنترنت، والبوفيهات. ثم هناك محلات صغيرة فى زوايا البنايات، أو فى الشوارع إلى جوار الحوائط، ولا تحتوى إلا على دولاب وموقد صغير، ثم بعض المقاعد الصغيرة بلا ظهر ولا ذراعين. هل هذه مقاه؟ ثم إن الكلمة العربية قهوة، تعنى فى مصر المكان والمشروب فى نفس الوقت، كما فى اللغة الفرنسية.

والقهاوى ليست فقط أماكن استرخاء وتسلية، ولكنها لا غنى عنها للحياة الاجتماعية، مثلما لا غنى عن الإسمنت للبناء، فنحن نلتقى فيها بمجموعات من

الأصدقاء، أو يلتقى فيها أناس يتشاركون فى نفس الاهتمامات الوظيفية، كما إنها تستعمل أحيانًا باعتبارها مقار لاتحادات طوائف الحرف، التى ليست لها مقار، ومن هنا يأتى لقب النادى، الذى ما زالت بعض مقاهى القاهرة تحتفظ به. حتى الصمّ والبكم لهم ناد خاص بهم. وإلى اليوم فإن الكتبة العموميين، يستقرون فى المقاهى القريبة من قاعات المحاكم، أو من بعض الإدارات الحكومية، حيث يمكنهم استقبال زبائنهم.

وإلى وقت قريب، لم تكن المقاهى الصغيرة تطبق قاعدة كرسى لكل زبون، ولكن قاعدة دكة خشبية واحدة لكل عدد من الزبائن، وفى داخل هذا النوع من المقاهى، كان يمكننا العثور على حكّائين، تصاحبهم أحيانًا آلة موسيقية وترية، يترددون على تلك المقاهى لإمتاع زبائنها، بحكاياتهم الشعبية الأسطورية، وبنصوصهم المحفوظة عن ظهر قلب، والتى تدور حول أعمال الفروسية، المختلطة ببعض القصص الخيالية. فقد الحكّاؤون عرشهم بظهور المذياع، ثم اختفوا تمامًا بظهور التليفزيون، الذى يسمح بمشاهدة مباريات كرة القدم للكل معًا.

وكانت القهوة هى كذلك المكان المختار للقاءات المثقفين، فكم من مجادلات سياسية جرت فيها خلال القرن المنصرم، بشرط عدم الوجود المكثف للشرطة. وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى، كان لهنرى جايار مندوب فرنسا فى مصر، عادة التنكر فى ملابس الأفندية، ووضع الطربوش على رأسه بنفس طريقتهم فى وضعه، للذهاب إلى جس نبض الرأى العام، فى المسائل العامة، على موائد المقاهى فى الموسكى.

وفى خان الخليلى حاليًا، يجذب مقهى الفيشاوى انتباه السيّاح، وهو نفس المقهى المرتبط باسم نجيب محفوظ، لتردده عليه، وقد أعاده ألبير قصيرى إلى الحياة، بصورته التى كان عليها قديمًا، فى عمله الروائى (شحّاذون ونبلاء)، وهو نفس مقهى المرايا المضاء بمصابيح غاز الأسيتيلين، حيث المذياع الأبدى يضخ سيلا من الموسيقى

الصاخبة المضخمة الصوت، مما يغرق الصيحات والضحكات والنقاشات المملة التى لا تنتهى، فى نفس البلبلة والاضطراب.

إن المقهى التقليدى، يعدّ لزبائنه موائد خارجية، أغلب فترات السنة، وفى فصل الصيف ترش الأرضية بالماء، عدة مرات فى اليوم، لكبح جماح الأتربة، ولإنعاش الجو. أما فى داخل المقهى، فتغطى الجدران بمربعات السيراميك، أو بالمرايا التى تنعكس عليها الإضاءة بلمبات النيون. ثم هناك المراوح الهوائية المعلقة فى السقف، تكنس الهواء بأجنحتها الكبيرة، فى حين يقوم لاعبو الدومينو والطاولة بضرب القشاط، بلذة حسية وسط دخان الشيشة. إلا أن هواة لعبة الشطرنج، يجب عليهم أن يبحثوا عن أماكن أكثر هدوءا، بعيدا عن الضحكات وفرقعات الأصوات.

أما العشاق الشباب، الراغبون فى التخلص من ملاحقة النظرات العائلية، فهم يلجأون إلى كازينوهات كورنيش النيل، حيث يكون القائمون بالخدمة على قدر من الحذر والفطنة، وحيث تكون الموائد أكثر تباعداً بعضها عن بعض، بالمقارنة بغيرها من الأماكن.

غالبًا ما يقتصر ارتياد المقاهى الحقيقية فقط على الرجال، فهم لا يأكلون فيها، ولا يشربون مشروبات كحولية فيها، ففيما عدا القهوة التركى والشاى والمشروبات الغازية، يشرب الزبائن منقوع الكركديه الساخن، والقرفة والينسون. ومن بين الاستثناءات القليلة، هناك مقهى الحرية، وهو مقهى كبير فى باب اللوق، حيث تسيل البيرة مدرارا.

كان نجيب محفوظ يعقد لقاءاته الأدبية، خلال أربعينيات القرن العشرين، فى مقهى الأوبرا، ثم خلال ستينيات نفس القرن، فى مقهى ريش بشارع سليمان باشا، وهو الحى الأوروبى بالقاهرة، وقد افتتح ريش مؤخرا من جديد، بعد تجديدات دامت طويلا، وأحسن صاحبه التقدير، عندما أعاد افتتاحه بنفس الصورة التى كان عليها سابقًا.

هناك حانات (بارات) أكثر تواضعا، لكنها ما زالت تحتفظ بالجاذبية والسحر القديم الذى كان لها، مثل (الكاب دور) بشارع عبد الخالق ثروت، أو (شي نو) بشارع الألفى بيه، والتى تعيد إلى الذاكرة القاهرة الكوزموبوليتانية(*)، قاهرة الزمن القديم. تلك الأجواء التى تكتنف بعض الأماكن ولا تتركها، ما زال يمكننا أن نعثر عليها أيضًا وبشكل أفضل، فى حانة (الإستوريل)، فى حارة صغيرة، قريبة جدًا من ميدان طلعت حرب.

أما (جروبى) فمن الأفضل أن ننساه، جروبى الذى كان ولمدة طويلة أفضل صالونات الشاى، فمنذ أول نسمات ونغمات الربيع، كانت شرفات فرعه بشارع عدلى (المناخ سابقا)، تعجّ بأفراد المجتمع القاهرى الراقى المرح. أذكر أنه لم تكن لمخبوزاته ولا لمثلجاته أى نظير. نعم انسوا جروبى فهو لم يعد، ولا حتى مجرد ظل لجروبى الذى كان، جروبى الأسطورة، وذلك فى حين أن أمثاله فى الإسكندرية، من المحلات المشهورة مثل أتينيوس أو بودرو أو ديليس أو تريانون، قد استطاعت أن تحتفظ ببعض السحر القديم أفضل منه.

انظر مقالات: شيشة رقم (٢٢)/ محفوظ رقم (٨٢)/ مظبوط رقم (٨٧).

١٩ - قناة السويس / Canal de Suez

إن فرديناند ديليسبس لم يخترع قناة السويس. فى الواقع ليس هناك من يمكنه أن يدّعى اختراع هذا المشروع الضخم، الذى اختصر نصف الطريق من أوروبا إلى الهند. فمنذ بداية القرن التاسع عشر وهذا المشروع يراود كل العقول. كان الكل يحلم بطريقة تسمح بربط مياه البحر الأحمر، بمياه البحر المتوسط. وكان الكل يدرك، أن الأزمنة القديمة كانت قد شهدت انجاز وصلة جزئية وغير مباشرة.

كان بونابرت باحتلاله لمصر سنة ١٧٩٨، أول من درس مسألة شق قناة. ألم تكن حكومة الإدارة فى فرنسا [حكومة الديريكتوار بعد الثورة الفرنسية] هى المسئولة بالتحديد عن مشروع حفر برزخ السويس؟ ألم يكن الهدف هو مطاردة الإنجليز فى الشرق؟ وضمان حرية الملاحة فى البحر الأحمر؟ بل حتى أن تكون ملكية هذا البحر للجمهورية الفرنسية الوليدة وحدها؟ لكن مهندسى بونابرت كانوا، بسبب العمل فى ظروف صعبة وبإمكانيات مختزلة، قد وصلوا إلى نتيجة خاطئة مؤدّاها، أن مستوى الماء فى البحر الأحمر، أعلى من مستوى الماء فى البحر المتوسط بعشرة أمتار، وهكذا قرروا أنه ينبغى أن تكون هناك أهوسة عديدة، على القناة المحفورة بين البحرين، حتى لا تتعرض مصر للغرق.

بالإضافة إلى أن بونابرت المنتصر فى موقعة الأهرامات، لم يكن لديه الوقت الكافى، للتفرغ لهذا المشروع، الذى كان مقدّرًا له أن يظل مشروعًا فى الخرائط فقط وعلى الورق، فترة أخرى من الزمن. بعد بونابرت جاء فرنسيون آخرون، كانوا هم أيضًا مغرمين بمحاولة تحقيق هذه الفكرة، خاصة جماعة السان سيمونيين، التى لم ينجح أفرادها هم أيضًا فى تنفيذ أى شىء. أما فرديناند ديليسبس فقد نجح فى تحقيق هذا الحلم القديم، لأنه اختار التوقيت المناسب والأسلوب المناسب.

فبمجرّد وصول الخديوى سعيد إلى السلطة، سنة ١٨٥٤، أخذ فرديناند أول مركب إلى مصر، البلد الذى كان قد شغل فيه قبل عشرين عامًا، منصب قنصل فرنسا العام. ثم إن سعيد باشا يعتبره صديقا. وقد دافع فرديناند عن فكرة حفر قناة دون تلك الأهوسة، التى كان مهندسو بونابرت والسان سيمونيون يصرّون عليها، وذلك لأن تطور العلم خلال ذلك الوقت القصير بين بداية ومنتصف القرن التاسع عشر، سمح للعلماء بإدراك أن البحرين الأحمر والمتوسط، يقعان فى مستوى واحد، مع كل بحار العالم الأخرى.

تمكنّت الفكرة تماماً من رأس سعيد باشا، وخاصة لأنه كان يودّ أن يبدأ فترة حكمه، بتنفيذ مشروع ضخم من الحجم الكبير، مثل مشروعات الفراعنة، وكان حفر القناة هو الحل. طريق مائى بطول ١٦٠ كيلومتراً فى قلب الصحراء. وهكذا فإن هذين الرجلين وحدهما، قررا تغيير خريطة العالم. هذا على الرغم من أنهما لم يكونا يملكان الإمكانيات الكافية لتنفيذ فكرتهما، فديليسبس مثلاً لم يكن مهندساً أو رجل أعمال وبنوك، وإنما مجرد رجل دبلوماسى من دون فاعلية، كما أن الباشا سعيد لم يكن أكثر من تابع للقسطنطينية أو نائب سلطنة، تأتيه الأوامر من الباب العالى فى اسطمبول.

إن مقاولة حفر القناة، بدأت بمبادرة من شركة مساهمة دولية، تحت السيطرة الكاملة للحكومة المصرية، لم تبحث عن الحصول على الموافقة المسبّقة للقوى العظمى أو السلطات العثمانية، وسوف يجد أولئك أنفسهم فى مواجهة الأمر الواقع. لكن المشروع يصطدم فورا بمعارضة الباب العالى، فهو قد اعتبر هذه القناة، جرحاً كبيراً نافذاً نازفاً فى جسد إمبراطوريته، وقد شعر كذلك بأن هذه القناة، ستحوّل مصر إلى دولة أكثر استقلالا، وستسمح لفرنسا بإقامة مستعمرة فرنسية فى برزخ السويس، وستغضب إنجلترا. تلك الأخيرة تسرع من جهتها بإدانة المشروع، وذلك بالترويج لأحد البراهين المخادعة.

قالت لندن إن هذه القناة لا يمكن تنفيذها من الناحية العلمية، بسبب صعوبة الملاحة فى المدخلين المتوقعين من جهة البحرين الأحمر والمتوسّط، وإنه حتى لو تمّ تنفيذها، فإنها ستكون مهددة دائما بترسيبات الرمال على مدخليها، مما سيؤدى إلى تخصيص مبالغ مالية طائلة، لصيانة المدخلين واستمرار الملاحة. وقد أضافت لندن إنه من الناحية المالية، فإن هذا المشروع لن تكون له عوائد مجزية، وإنه ليس إلا عملية سياسية موجهة ضد إنجلترا، ليسلب منها الطريق إلى الهند، ويحوّل مصر إلى مستعمرة فرنسية. وقد اختار سعيد باشا وديليسبس، أن يتجاهلا هذه العوائق السياسية، رغم ارتعاد نابوليون الثالث الذى كان يخاف من ردّ الفعل البريطانى.

المشكلة الحقيقية التى واجهت الرجلين هى مشكلة التمويل. ولم يكن ذلك سهلاً. إن الاكتتاب المفتوح لتأسيس الشركة العالمية لقناة السويس، يعطى نتائج مخيّبة للآمال، إذ كان المساهمون الفرنسيون وحدهم، الذين تحمسّوا للمشروع، وقرروا المخاطرة باستثمار أموالهم فى الرمال، من أجل مشروع افتراضى. ذلك هو الوضع الذى دفع ديليسبس إلى الضغط على سعيد باشا، ليجد الباشا نفسه مضطراً إلى شراء ٤٤ فى المائة من أسهم رأس المال، مخاطراً بزيادة الدين المصرى العام.

لإنشاء الميناء الجديد على البحر المتوسط ، ميناء سعيد [بالفرنسية بور سعيد]، فى منطقة جدباء تضربها الرياح، كان من الضرورى توفر قدر كبير من الشجاعة والإرادة لدى المؤسسين. ثم إن حفر القناة استلزم كذلك توفر الكثير من الأيدى العاملة، مما ألجأ السلطات المصرية إلى السُخرة، التى كانت تمارس فى مصر منذ قرون، وهى نوع من التعبئة العامة، لحشد الآلاف من الفلاحين، المنتزعين من أراضيهم، للمشاركة فى أعمال ذات منفعة عامة. إن عمّال قناة السويس، سواء أكانوا بالغين أو أطفالاً، ستكون معاملتهم أفضل، من تلك التى كانت لأقرانهم فى مشروعات أخرى، وإن كان هذا لم يمنع الجدل القوى، الذى سيؤدّى سنة ١٨٦٤، أى بعد خمس سنوات من بداية العمل، إلى إلغاء نظام السخرة. تمّ فى ذلك الوقت توظيف عمّال أجانب قادمين من دول البحر المتوسط، ثم كذلك تمّت الاستعانة بآلات حديثة، مصممة خصيصاً للتشغيل فى الظروف الخاصة بالمشروع.

كان افتتاح القناة، فى يوم ١٧ نوفمبر ١٨٦٩، حدثًا عالميًا، وقد حضرته الإمبراطورة أوچنى زوجة نابوليون الثالث، بالإضافة إلى حوالى ألف مدعو من بلاد عديدة. ثم اعترفت بريطانيا العظمى وأقرّت بخطئها، وإذا بها تصبح المستخدم الرئيسى لهذا الطريق المائى الجديد، ثمّ كذلك تصبح المساهم الرئيسى فى أسهم شركة القناة، حين تشترى سنة ١٨٧٥، رغم أنف وذقن الفرنسيين، الأسهم التى كان الخديوى إسماعيل، نائب السلطان العثمانى، قد عرضها للبيع. إن المنطق الذى قاد

بريطانيا إلى شراء تلك الأسهم، هو نفس المنطق الذى سيقودها بعد سبع سنوات، أى فى سنة ١٨٨٢، إلى احتلال مصر، وهو المنطق الخاص بالتحكم فى الطريق إلى الهند. ورغم ذلك فقد احتفظت فرنسا بالسيطرة على مجلس إدارة الشركة، وذلك حسب شروط تأسيس هذه الشركة، التى كانت تمنع أن يستولى أحد المساهمين، مهما كبر حجم مساهمته، من السيطرة على مجلس الإدارة.

كان نجاح قناة السويس متوقفا على رهان، هو رهان تطوّر السفن البخارية. فعند تأسيس الشركة، كان ٩٥ بالمائة من سفن الأساطيل الفرنسية والإنجليزية شراعيًا، يسير بقوة الرياح، لا بقوة الآلة البخارية. وقد كسبت الشركة الرهان، فبداية من الأعوام ١٨٧٠–١٨٨٠ نشاهد تطوّراً سريعًا فى النقل البحرى. ورغم البدايات الصعبة لهذا الطريق المائى الجديد، شهد بعد ذلك أعداداً متزايدة من العملاء. وكان صغار المساهمين قد بدأوا يفركون أياديهم، بعد أن كان قد أصابهم فى البداية خوف قاتل، إذ إن قيمة السهم كانت قد انهارت بشدة أثناء أعمال الحفر، إلا أنها بعد ذلك تضاعفت مرتين ثم ثلاث مرات ثم أربع مرات، لتصل فى النهاية إلى عشرة أضعاف قيمتها الأصلية خلال السنوات ١٩٢٠- ١٩٣٠ . إن أسهم شركة قناة السويس، تصبح من الآن فصاعدا، رمزاً للرأسمالية المنتصرة، وأحد أهم أعمدة ثروات العائلات الفرنسية المساهمة، والتى يؤدّى امتلاكها إلى عقد زيجات موفقة للأبناء.

كانت القناة مشروعًا سلميًا، مقدّرا له أن يساعد فى تنمية التجارة الدولية، إلا أنها بدت أداة استراتيجية مهمة خلال الحربين العالميتين. وعندما قرر عبد الناصر تأميم الشركة فى يوليو سنة ١٩٥٦، رداً على الإهانة التى تلقاها من الولايات المتحدة، التى لم تعد راغبة فى تمويل مشروع السد العالى فى أسوان، جاءت القوات المسلحة البريطانية والفرنسية والإسرائيلية إلى مصر. وفى مرتين تاليتين خلال الصراع العربى الإسرائيلى، فى السنتين ١٩٦٧ و١٩٧٣، يتحوّل برزخ السويس إلى ميدان قتال، ومسرح للعمليات الحربية.

وعندما أغلقت القناة أمام الملاحة البحرية الدولية، هل تذكرنا نبوءة (رينان)؟ هو الذى عندما استقبل ديليسبس فى الأكاديمية الفرنسية قال له (كان بوسفوراً واحداً كافيًا حتى الآن لإرباك العالم، وأنت قد صنعت الآن بوسفوراً ثانيًا أكثر أهمية من الأول، لأنه لا يقوم فقط بوصل جزئين من بحر داخلى، بل يمكن أن يُستعمل باعتباره ممراً بين كل بحار العالم الكبيرة، وقد حدّدت بقناتك تلك، المكان الذى ستدور فيه، معارك العالم الكبرى فى المستقبل).

أعيد افتتاح قناة السويس فى يونيو ١٩٧٥، فعادت إلى سيرتها الأولى باعتبارها ممرًا مائيًا هادئًا، حيث يتتابع سير السفن القادمة من كل بلاد العالم. وقد أضافت إليها مصر نفقا يمر تحتها، وكوبرى يعبر فوقها، ثم إن مصر كانت قد وسّعت القناة وعمّقت مجراها، فى اثنتى عشرة مرة متتالية، حتى تتمكن من الاستمرار فى استقبال السفن التى يزيد حجمها مع مرور السنوات، خاصة ناقلات البترول. ولهذا تجد مصر فى قناتها، مصدراً مهمًا من مصادر العملة الصعبة، بدخل سنوى يتعدّى المليارين من الدولارات. ومع ذلك يظل مستقبل القناة غامضًا، فلا أحد يعرف كيف ستتطور طرق النقل، ووسائل استهلاك الطاقة، خلال الألفية الثالثة.

انظر المقالات: خديوى رقم (٧٧)/ ناصر رقم (٩٨)/ أتباع سان سيمون رقم (١٢٥)

٢٠ - شم النسيم / Cham el-nessim

رغم أن هذا العيد يأتى كل عام، فى يوم الاثنين التالى لعيد الفصح المسيحى لأقباط مصر، فإنه عيد لكل المصريين دون أى اعتبار للمسائل الدينية، إنه عيد قومى للاحتفال بالربيع، يرتبط به كل المصريين، من كل الأعمار ومن كل الطبقات

الاجتماعية، ويبدو أن أصوله تعود إلى مصر القديمة. إن التقاليد المتبعة للاحتفال بهذا العيد، تدعونا بمجرد الاستيقاظ إلى أن نشم بصلة خضراء مدعوكة فى الخل. ها هى ذى وصفة طبية قديمة، أو نوع من التعزيم أو الرقية، يبدو أنها كانت ضد الأوبئة.

يستعمل الأطفال المفرقعات إيذانا بالاحتفال، فتتكوّم الأسر المتواضعة فى عربات الكارو، للذهاب إلى الفضاءات الخضراء، وتلك الأماكن الخضراء فى القاهرة هى غالبًا، إما حديقة الحيوانات بالجيزة، أو الحدائق المحيطة بقناطر الدلتا (الخيرية)، حيث تتناول تلك الأسر، الوجبات الخفيفة المكوّنة أساسًا من السمك الجاف المملح (الفسيخ)، والفول الأخضر والبصل، بالإضافة إلى البيض الملوّن. وهى نفس الوجبة التى تتناولها العائلات البرجوازية(*)، الأكثر ثراء، فيتجمع أفرادها فى الفيلات، أو فى الأندية الرياضية، أو على حواف حمامات السباحة فى الفنادق الكبرى.

حتى فى زمن الفراعنة كان المصريون يستهلكون كميات كبيرة من البصل، وكذلك من الثوم والخص، للاحتفال السنوى بالميلاد المتجدد للطبيعة فى مواسم الحصاد. لكن شم النسيم بشكله الحالى موجود فقط منذ بداية القرن التاسع عشر. إدوارد ويليام لين فى كتابه الشهير (أخلاق وعادات المصريين المحدثين)، يذكر أنه فى احتفال عيد سنة ١٨٤٣، كانت الرياح الساخنة المحمّلة بالأتربة، قد تركت أثرها فيه، وإن كان هذا لم يمنع سكان القاهرة من الاحتفال بالعيد، والذهاب إلى الحدائق لشم النسيم. قبل لين ببضع سنوات، كان الفرنسى جيرار دى نرڤال(*) [أديب فرنسى]، قد أثار غضب جاريته ونوبة من جنونها وفزعها، صباح يوم شم النسيم، عندما نزع من دون تروّ وبقدر من التهوّر، حزمة من البصل كانت قد علقتها أعلى سريره.

٢١ - چان فرنسوا شامبوليون / Champollion (Jean-François)

لماذا يعتقد الكثير من الفرنسيين أن شامبوليون كان مصاحبًا لبونابرت فى رحلته إلى مصر؟ فى حين أن چان فرنسوا كان فى الثامنة من عمره عندما جاء بونابرت إلى مصر سنة ١٧٩٨ . ومع ذلك يمكن أن نعتبره ابنا للحملة الفرنسية على مصر، لأن الكتابات عن هذه الحملة المغامرة، والتى تحولت فيما بعد إلى ملحمة أسطورية، كانت ذات تأثير عميق على طفولة شامبوليون. وبفضل أخيه الأكبر چاك چوزيف، الذى كان كذلك معلمه وأباه الروحى، استطاع شامبوليون أن يتصل بالعديد من علماء الحملة على مصر، ومنهم عالم الرياضيات چوزيف فورييه، الذى عين واليًا على مقاطعة إيزار الفرنسية، كما تمّ تكليفه بكتابة المقدمة التاريخية لموسوعة وصف مصر.

إن الأسطورة التى نسجت حول شامبوليون الطفل، تعزو إليه إنجازًا أوليًا، هو القدرة على حفظ كتاب صلوات عن ظهر قلب، حين كان فى السادسة من العمر، وحسب الأقاويل كان قد تمكن كذلك، ومن دون أية مساعدة، من فك شفرته اللغوية وتحليله. يمكننا أن نقر ونعترف بأن هذا الصبى، المولود لصاحب مكتبة فى فيچاك من مقاطعة كيرسى، يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٧٩٠، كانت لديه مواهب وملكات ذهنية نادرة، وسيتمكن لاحقا من إعطاء المحيطين به فكرة عن الحجم الحقيقى لمواهبه، حين ينضم إلى أخيه الأكبر فى جرينوبل؛ حيث نراه يتعلم اللغات اليونانية والعبرية والسريانية والكلدانية والعربية، فى نفس الوقت. إنه يسبح فى بحور الكلمات، إذ إن علم دراسة جذور الكلمات واشتقاقها (الإيتيمولوجى) يفتنه.

لكن سريعًا جدًا تتحوّل كل اهتماماته إلى الحضارة الفرعونية، ففى يناير ١٨٠٦، وكان بالكاد قد أكمل عامه الخامس عشر، أعلن بترفع وخيلاء (سوف أجعل من هذا البلد القديم دراسة متعمّقة وعلمًا متصلاً، فمن بين كل الشعوب التى أحبها، يتفوّق

الشعب المصرى عليهم جميعًا فى قلبى). إن مزايا الشاب شامبوليون عديدة، فهو مجتهد عنيد، وهو مؤرّخ جيد، وعالم سيشار إليه بالبنان فى مجال علوم دراسة مقارنة اللغات، وهو شخص يمتلك حسًا فنيًا عاليًا، وهو بخلاف أغلب منافسيه المستقبليين، عاشق حقيقى لمصر، معشوقته التى لم يعرفها ويحبّها إلا عن بعد.

عندما يصعد إلى باريس للاستزادة من العلم، ينغمس بجنون فى دراسة اللغة القبطية، إذ إنه مقتنع بأن هذه اللغة القديمة، التى ما زالت باقية على قيد الحياة، هى من اللغة الشعبية للمصريين القدماء، رغم اقتصار استعمالها على الطقوس الدينية الكنسية، ورغم أنها مكتوبة بحروف أغلبها من الأبجدية اليونانية، وأن هذه اللغة هى التى ستقوده إلى فك شفرة العلامات الهيروغليفية. كتب سنة ١٨١٢ (سلمت نفسى بالكامل إلى اللغة القبطية، لقد أصبحت قبطيًا إلى درجة أن تسليتى الوحيدة الآن، هى ترجمة كل ما يخطر على بالى إلى اللغة القبطية، ثم إنى أتحدث إلى نفسى بالقبطية، وقد تمكنت من هذه اللغة إلى درجة أننى قادر أن أعلم قواعدها لأى شخص خلال يوم واحد)، ثم يضيف (لقد تتبعت تمامًا تسلسل الروابط التركيبية لهذه اللغة، والعلاقات التى لا يمكن ملاحظتها، ثم حللت كل شىء تحليلاً كاملاً، وهو ما سيعطينى دون أدنى شك، المفتاح اللازم لحل اللغز وفك شفرة نظام العلامات الهيروغليفية، المفتاح الذى حتما سأعثر عليه).

أثناء عمله فى نسخة من نص حجر رشيد، مستعينا بدراسات الباحثين الآخرين من أمثال، الفرنسى سيلفستر دو ساسى، والسويدى يوهان داڤيد آكربلاد، والإنجليزى توماس يونج، كان شامبوليون يتقدم خطوة بخطوة، وكان كل إنجاز يحرزه يثير فى الآخرين الحسد والغضاء. (وجدتها)(*) التى أطلقها كانت فى يوم ١٤ سبتمبر ١٨٢٢، ففى ذلك اليوم فى باريس، ظهر چان فرنسوا فجأة مندفعًا، فى مكتب أخيه الأكبر، ليصيح فى وجهه لاهثا (لقد وصلت إلى حل المسألة)، ويقال إنه فقد الوعى بعد ذلك. لقد اكتشف مفتاح الكتابة الهيروغليفية، (التى ترسم علاماتها أحيانًا الفكرة، وأحيانًا

أخرى الأصوات التى تنطق بها هذه الفكرة)، أو بشكل أوضح كما ستصاغ هذه العبارة لاحقا (إنها كتابة تكون فى نفس الوقت، معبّرة عن الأشكال والرموز والأصوات المنطوقة، فى نفس النص، وفى نفس الجملة، بل أحيانًا حتى فى نفس الكلمة).

والغريب أن رسالته المشهورة إلى مسيو داسييه، السكرتير الدائم لأكاديمية اللغات والكتابات والآداب، المؤرّخة فى ٢٧ سبتمبر من نفس العام، لا تفصح عن كل ما يعرفه ويشعر به، فهو لن يعرض المبادئ العامة لاكتشافه إلا بعد عامين، فى ما أسماه (موجز نظام العلامات الهيروغليفية للمصريين القدماء)، ومن المؤكد أن ذلك التأخير فى عرض نتائجه، كان بهدف التدقيق فيها، بالإضافة إلى الشك الذى هو شيمة كل العلماء. فهو يريد أولا أن يتحقق من النتائج التى يقدّمها. وهو موقف متحفّظ غريب، من طرف رجل قادم من جنوب فرنسا، (متحمّس مندفع محتدّ نزق)، على عادة طباع أهل الجنوب.

هذه هى بعض ملاحظات چاك لاكوتير كاتب سيرته (هناك فى تلك المواربة المتفاخرة الأريبة، نوع من الوفاء للشرق المحتجب، الشرق الذى يحافظ على أسراره زمنًا طويلاً، نوع من الاحتفاء بالكتمان، الذى تحدث عنه ماسينيون، إن هذه المواربة الشرقية هى مثل لغز الموتى، مواراة وطمر جثث الملوك الآلهة، تحت أضخم أكداس أكوام من الحجر، جرؤ الإنسان على بنائها، ثم إغلاقها إلى الأبد. وكذلك الزائر، الذى يحافظ على مفتاح السر، بنوع من التواطؤ، إنها علاقة رائقة مع العالم السرى الذى انتهكه) (النص من كتاب بعنوان: شامبوليون/ حياة من نور- من مطبوعات جراسيه فى باريس - ١٩٨٨).

عندما تم تعيينه أمينًا لمتحف المصريات المزمع إقامته فى اللوڤر، فى ١٥ مايو ١٨٢٦، أدخل شامبوليون تصورًا جديداً إلى فن المتاحف، فالمتحف لن يكون فقط معرضا للتحف الفنية، ولكنه سيكون أيضًا عرضًا لقطع من الحياة اليومية. ولتحقيق

هدفه من المتحف المصرى كان ينبغى الحصول على منحة مالية. وقد رفض لويس الثامن عشر شراء المجموعة الرائعة للآثار المصرية، التى كان قنصل فرنسا برناردين دروڤيتى قد جمعها فى مصر وعرضها للبيع، فذهبت إلى متحف تورينو فى إيطاليا، ورآها شامبوليون هناك فسقط مغشيا عليه من صدمة فقدها. بعد ذلك كان عليه أن يضغط على شارل العاشر، خليفة لويس الثامن عشر، قدر المستطاع، لينجح فى الحصول على المجموعة الثانية من آثار دروڤيتى، بالإضافة كذلك إلى المجموعة التى باعها هنرى صولت قنصل بريطانيا. هكذا استطاع أن يفتتح القسم المصرى بمتحف اللوڤر، بمجموعة تصل إلى حوالى خمسة آلاف قطعة.

بعد عودته من زيارة إيطاليا، يستعد أخيرا لرحلته الكبرى إلى مصر، حيث لم يكن قد ذهب بعد قط. وقد وافق كل من شارل العاشر ودوق توسكانيا الكبير، على تمويل بعثة مكوّنة من اثنى عشر فردا، يديرها شامبوليون، بمساعدة المستشرق إيبوليتو روزيلينى، وكانت هذه الرحلة لمن فك شفرة الكتابة المصرية القديمة، أقرب إلى رحلة العودة إلى الوطن الأم. وعندما تصل مركبه إلى شواطئ الإسكندرية، يوم ١٨ أغسطس ١٨٢٨، كان شامبوليون، البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً، يلتقى أخيراً بعشقه وأحلامه ومادة دراسته. كل ما يراه يفتنه ويحمّسه.

كتب إلى أخيه (إنى أتحمّل حرارة الجو على أحسن حال، كأنى ولدت فى هذا البلد، ثم إن الأجانب الذين يعيشون فى مصر، يجدون أن لى كل الصفات الجسمانية والشكلية للأقباط، شاربى الذى هو لحسن الحظ أسود اللون، يجد الكثير من الاحترام، يساهم بشكل كبير فى تحويل ملامح وجهى إلى الملامح الشرقية، بالإضافة إلى أنى قد تطبّعت بطباع أهل البلاد، وهى الكثير من القهوة وثلاث جلسات شيشة كل يوم).

إن حماسه والنشوة التى يكتب بها لا تفارقانه أبداً، مما يضفى الكثير من الحيوية على اليوميات التى يكتبها أثناء الرحلة، إذ إنه يقدّم إلى قارئ المذكرات بلداً حيّا، بكل

ضوضائه وروائحه وألوانه. إن المسألة لا تتعلق هنا بالنظرة البريئة المحايدة للسائح العادى، ولكن بالملاحظة العميقة لمتخصص يعرف مادته، جاء ليتحقق من معارفه على أرض الواقع، عن طريق المواجهة بين المعارف النظرية والواقع الحى. ويمتلئ نص اليوميات بالكلمات اليونانية والعربية، وبالعلامات الهيروغليفية، وبرسومات صغيرة مأخوذة من الواقع. ومن وادى حلفا فى أقصى جنوب البلاد، يرسل يوم ١ يناير ١٨٢٩، برسالته الثانية إلى مسيو داسييه، إنها صيحة انتصار، للرد على الذين يغتابونه وينتقصون من قدره (إن أبجديتنا بخير، ويمكن تطبيقها بنفس النجاح، على الآثار المصرية من عصر اليونان البطالمة والرومان، وكذلك وهو الأهم، على كل الكتابات المحفورة على المعابد والقصور والقبور، لكل الحقب الفرعونية).

إن هذه البعثة الفرنسية التوسكانية، تعسكر لمدة أسابيع طويلة فى وادى الملوك؛ حيث يفقد شامبوليون الوعى، عدة مرات خلال تلك الإقامة المنهكة فى قلب الصحراء، وتحت أشعة شمس حارقة ساحقة. ثم يسكن بعض الوقت فى مقبرة رمسيس الرابع، التى تتميز بقدر من طراوة الهواء، وكذلك بقدر من الإضاءة الطبيعية. وهو إذ لا يتمكن من مقاومة الرغبة فى الحصول على تذكار، يقوم بخلع قطعتين من النحت الغائر، من جدران مقبرة سيتى الأول، تصل إحداهما إلى متحف اللوفر، والأخرى إلى متحف فلورنسا. إن هذا الفعل المتسق مع أخلاقيات تلك الفترة، يتناقض مع الدفاع عن التراث المصرى، الذى التزم به هذا القادم من جنوب فرنسا، وهو ما يقوده فى نهاية رحلته، إلى أن يسلم إلى محمد على، مذكرة بخصوص الحفاظ على آثار مصر.

إن نصّ المذكرة المتشدد جداً، يعدّد كل مواقع الآثار القديمة التى كانت، فى ذلك الوقت المبكر من القرن التاسع عشر، قد تعرّضت فعلا للتدمير، وكذلك كل المواقع المعرّضة للتدمير، والتى ينبغى الحفاظ عليها، بأن يقوم نائب الخليفة العثمانى، نائب السلطنة، بإصدار أوامره بألا يرفع منها حجر واحد، ولا حتى طوبة واحدة، تحت أى ظرف من الظروف، أو بسبب أى حجة من الحجج، وبصرف النظر عن كون تلك القطع

مزيّنة بنقوش أو غير منقوشة. كانت هناك فكرتان تتنازعان عقل شامبوليون وقلبه، الأولى هى الرغبة فى الدفاع عن التراث القومى المصرى، والثانية هى تعريف أوروبا بهذا التراث.

حصل من محمد علىّ على الحق فى نقل مسلتىْ معبد الأقصر إلى باريس، ثم اشترى فى القاهرة بعض القطع الفخمة، التى ستذهب لاحقا إلى متحف اللوفر لتزيده ثراء، مثل التمثال البرونزى المكفت بالذهب لكارو ماما. وحيث إن مهمة هذه البعثة الفرانكو توسكانية، لم تكن هى البحث عن الآثار، ولم يكن لديها المال الكافى لشراء الآثار، فإنها فى الواقع ستعود بالقليل من الآثار إلى أوروبا. لكن مع ذلك كان إنجاز البعثة هائلا وهو العودة بأكبر قدر ممكن من الملاحظات العلمية والرسومات الفنية.

بعد العودة إلى فرنسا، يستمر شامبوليون فى الإساءة إلى صحته بالإرهاق الشديد. ومن لازاريه فى مدينة طولون الفرنسية، يكتب يوم ٢٧ ديسمبر ١٨٢٩، إلى أحد أصدقائه دائمى التراسل معه (يمكن أن يقال إننى جرّدت كل آثار مصر والنوبة، من الأهرامات إلى الشلال الثانى، من كل المعلومات والأفكار التاريخية المنحوتة على جدرانها، ثم إن الكتاب الذى حرّرته، عن كل النقوش الغائرة التى تزيّن كل أثر، خاصة الآثار الأكثر أهمية، التى تمّ نسخ كل نقوشها بأمانة تامة وإخلاص، كل هذا يؤكد لى أننى لم أترك خلفى أى شىء مهم، لقد جمعت من المادة العلمية ما يكفى عمراً بأكمله). عندما كتب هذا الكلام لم يكن يعلم أنه لم يعد متبقيا له فى الحياة أكثر من ستة وعشرين شهراً.

وفى كلية فرنسا (كولاج دو فرانس)، خلق كرسى لعلوم الآثار المصرية خصيصا له، وهكذا تقدّمت علوم المصريات رسمياً، إلى مصاف العلوم المكرّمة المبجّلة الجديرة بالدراسة. ويلقى شامبوليون محاضرته الافتتاحية يوم ١٠ مايو ١٨٣١، فى حضور أحد أبناء لوى فيليب [ملك فرنسا]، وقد ملأ القاعة عدد كبير من السفراء. لكن المرض يمنعه من متابعة إلقاء دروسه، فهو يعانى من النقرس دائماً، ثم بدأت كذلك الرئتان تتسببان

له فى التهاب شعبى مزمن، ثم معاناته مع الكبد المتآكل بسبب طفيليات نهر النيل. يذهب شامبوليون للراحة فى فيجاك مسقط رأسه.

يعود إلى محاولة التدريس مرة أخرى فى ديسمبر من نفس العام، ولكنها محاولة لا تستمر طويلا. ثم يقرر بسبب المرض، ألا يغادر شقته الباريسية. فى ١٢ يناير ١٨٣٢ ينهار جسمه، ويصاب بشلل نصفى، لكن العناية التى يلقاها تنقذه، ليعاود من جديد محاولة العمل على إنهاء مؤلفاته، لكن هذه الصحوة المزيفة تنتهى سريعًا، ليتغلب عليه المرض تمامًا ويموت فى ٤ مارس ١٨٣٢، وهو فى سن الواحد والأربعين. تقام عليه مراسم الجنازة فى كنيسة سان روش بباريس، حيث كان قد تعلم اللغة القبطية سابقًا، وطبقا لوصيته فقد تم دفنه فى مقابر بار لاشاز الباريسية، إلى جوار فورييه.

وهكذا لن يحضر شامبوليون سنة ١٨٣٦، إقامة إحدى مسلتىْ الأقصر، فى قلب ميدان الكونكورد بباريس، وهما المسلتان اللتان كان محمد علىّ قد أهداهما إليه، ولن يوضع اسمه على القاعدة الحجرية للمسلة، إذ فضل المسئولون وضع اسم المهندس لوبا، الذى حقق هذا الإنجاز التقنى، فك المسلة ونقلها وإعادة إقامتها. لم يتمكن شامبوليون من الحصول على العمر الكافى لإتمام عمله.

إن چاك چوزيف أخاه الأكبر، هو الذى سيقوم بإنهاء عمله، إذ إنه سينشر لاحقا كتابه فى قواعد العلامات المصرية، ثم قاموس العلامات المصرية، ثم أربعة أجزاء خاصة برسومات رحلته إلى مصر تحت عنوان (آثار مصر والنوبة)، مضيفًا إلى الرسومات ملحوظاته الوصفية. إن اختفاءه السابق لأوانه يترك فراغًا كبيرًا، فعندما سمع العالم الإنجليزى چون جاردنر ويلكنسون بخبر وفاته صاح (سقطت الشعلة على الأرض، ولا أحد يستطيع أن يأخذها).

رغم أن جاردنر نفسه سيحقق خلال السنوات اللاحقة، إنجازا ضخما بتأسيس علم المصريات البريطاني. وفي نفس الوقت كان البروسّى كارل ريتشارد ليبسيوس، يؤسس هو الآخر علم المصريات الألماني، وقد ألف بعد ذلك في منتصف القرن التاسع عشر، كتابا ضخما سيمنح ليبسيوس مكانا مهما في هذا العلم الوليد. ولن يتوقف علم المصريات عن تحقيق الإنجاز تلو الآخر، فإن مصر القديمة التي أخرجها شامبوليون عن صمتها الطويل، لن تتوقف بعد ذلك أبدا عن الكلام.

انظر المقالات: علماء المصريات رقم (٤٢)/ الكتابة الهيروغليفية رقم (٦٢)/ حجر رشيد (١١٤).

٢٢ - الشيشة / Chicha

بالتركية نقول نرجيلة، وفي مصر نقول الشيشة. إنها لم تصبح بعد صرعة (موضة) قديمة، بل على العكس إنها تشهد ازدهاراً، وشغفًا جديداً بها، في الأوساط المصرية الثرية، خاصة منذ اختراع المبسم البلاستيكي، الذي يستعمل مرة واحدة فقط، وهو اختراع ذكيّ، لمراعاة المقاييس الصحية. وهكذا عندما تذهب إلى المقاهي، يحضر إليك النادل الشيشة، ومعها يقدّم إليك بتلقائية، هذا الشيء الصغير داخل عبوّته المغلقة.

إن سمعة بعض المقاهي الجيدة، ترتبط بنوعية الشيشة التي تقدمها، إذ هم يقدّمون لك خلطة، من وريقات تبغ ممزقة إلى قطع صغيرة، ومفرومة مع عسل أسود سميك القوام، ويضاف إلى هذه الخلطة بعض التوابل أو البهارات، ثم يعطّر الكل بالتفاح أو بالورد البلدي أو بالبلح. ثم عندما يأخذ الزبون طرف الشيشة، ينبغي له أن يسحب نفسًا عميقًا شديداً، فتعبر سحابات الدخان أولاً، الإناء الزجاجي الشفاف، فتلوّن المياه بداخله، وتصدر عن الشيشة أصوات بقبقة أثناء ذلك. وبين وقت وآخر يأتي

النادل، ومعه مسّاك به قطعة فحم متوهّجة، ليضعها على قمة الجزء المشتعل من الشيشة حيث عجينة التبغ. إن هذه الطقطقة التى تسمع من وهج النار، هى جزء من متعة تدخين الشيشة.

وليس هناك ما يمنع من الاحتفاظ بشيشة فى المنزل، أو حتى بعدد منها من أجل متعة الأصدقاء، فإنها ترتبط الآن بالأجواء الاجتماعية والمحادثات الودودة. وقد ارتبطت الشيشة لزمن طويل باستهلاك الحشيش، وذلك لأنها تسمح بحدوث امتصاص بطىء للمادة المخدّرة، وبالتالى تطيل مدة الغياب التام عن الوعى. لكن من المفروض أن أحداً فى مصر، لم يعد قادراً على تدخين هذه المادة المخدّرة، إذ إن تداولها يعتبر من الناحية القانونية، عملا يستحق صاحبه عقوبة الإعدام.

وقد بدأت فتيات وسيدات صغيرات فى استعمال الشيشة، كما كانت جدّات جدّاتهن يفعلن باستمتاع، فى المناطق المخصصة للحريم. ربما أن فتيات العصر الحالى بهذه الطريقة، قد عثرن على الأسلوب الماهر الذكى، لأن يجدن لأنفسهن مكاناً بين الرجال فى المقاهى. إن استهلاك الشيشة يزداد باطراد بين الشباب الصغير، وهو السبب الذى أدّى بمحافظ القاهرة، فى إطار حملة ضد التدخين، إلى اتخاذ قرار مدهش فى يونيو ٢٠٠١، ألا وهو منع الشباب دون الثامنة عشرة من دخول المقاهى. منذ شهرين استدعى سائق سيارة نقل ثقيل للمثول أمام القضاء، بسبب تجاوزه السرعة المقررة على الطريق السريع بين القاهرة والإسكندرية، وكان رجال الشرطة قد ذهلوا عندما أوقفوه على الطريق، ووجدوا معه شيشة يخرج منها الدخان، موضوعة أمام مقود السيارة.

٢٣ - سينما / Cinema

منذ عشرينيات القرن العشرين، جاء إلى الحياة فى مصر، أكثر من ثلاثة آلاف فيلم روائى مصرى طويل، الكثير منها ليست له قيمة حقيقية، والكثير منها أفلام فكاهية

هزلية على درجة من الفظاظة، وكذلك كانت هناك أفلام البكائيات العنيفة الميلودرامية بكميات كبيرة، وأفلام ذات مواضيع أثقلتها الاستعارات البلاغية ثقيلة الظل. ومن ضمن ملامح تلك السينما في بداياتها، لوحات إعلانات عملاقة للأفلام، بألوان زاعقة وأحبار تسيل على الرسومات، بحيث تصبح شخصيات الفيلم المصوّرة على تلك الإعلانات، أقرب إلى الشخصيات الكاريكاتيرية، وكان المقصود بهذه الحملات الإعلانية جذب الجمهور إلى صالات العرض. كل هذا لا ينبغي له أن يجعلنا ننسى نوعًا آخر من السينما المصرية الجيدة، والتحف الفنية التى أنتجتها .

لا يمكن أن نذكر هنا كل الأفلام وكل المخرجين وكل الممثلين، الذين يستحقون أن يذكروا . يمكننى أن أقترح للقارئ الفرنسي كتاب (١٠٠ عام من السينما فى مصر)، الصادر سنة ١٩٩٥ من معهد العالم العربي بباريس، تحت إشراف السيدة ماجدة واصف. كذلك هناك كتاب (نظرات على السينما المصرية)، الصادر سنة ١٩٩٦، من درا نشر لارماتان، للمؤلف إيف توراڤال، وكتاب (سينما الشرق الأوسط)، الصادر سنة ٢٠٠٠، من دار نشر سيجبيه، لنفس المؤلف.

كنا لمدة طويلة ننسب أول فيلم روائي مصرى طويل إلى امرأة، لنكتشف أخيرا أن فيلم (ليلى)، من إنتاج وتمثيل عزيزة أمير سنة ١٩٢٧، قد سبقته بضعة أفلام روائية بتوقيع محمد بيّومي، ولا عزاء للسيّدات، إذ يعود الشرف إذن إلى ذلك الرائد الأول، ذلك رغم أن السيدات ما زلن يشغلن حتى الآن، مكانًا فريداً فى هولى وود الشرق. فإيناس الدغيدى مثلا، تسمح لنفسها بتفجير شبّاك التذاكر، بأفلام سهلة إلى حد ما، فى حين أنه على الطرف الآخر، نجد أسماء البكرى التى تختار موضوعات روائية صعبة، تتطلب الكثير من الجهد، مثل (شحاذون ونبلاء) وكذلك (كونشرتو فى درب سعادة)، ثم أفلام وثائقية ذات طابع ثقافى، لا يقدم على إنتاجها وتمويلها، إلا قلة من المنتجين الشجعان المغامرين.

١٩٣٥ هى سنة مهمة فى تاريخ السينما المصرية، فهى السنة التى شهدت مولد استوديو مصر، بمبادرة من رجل أعمال لا مثيل له، هو طلعت حرب، وهو الرجل الذى حلّ تمثاله محلّ تمثال سليمان باشا الفرنساوى، فى قلب الميدان الذى يحمل الآن اسم طلعت حرب. إن هذا الرجل، وهو مؤسس بنك مصر، لم يكتف فقط بإنشاء الاستوديوهات السينمائية، بل أضاف إلى ذلك فضله على العديد من المخرجين والفنيين الناشئين، الذين أرسلهم على نفقته إلى أوروبا، لدراسة الفن السابع. رغم أن أغلب هؤلاء بعد عودتهم من أوروبا إلى مصر، لن ينتجوا لنا غالبًا إلا أفلامًا ميلودرامية فاقعة، تتبع كلها نفس الخط الذى لا يتغيّر، ويدور حول قصة رجل شاب، من أصول متواضعة، ينجح فى اجتياز ألف عقبة وعقبة، ليصل أخيراً إلى الزواج من الفتاة التى يحبّها. صحيح أن هذه القصة فى حد ذاتها، كانت نوعًا من التمرّد على مجتمع، كانت العائلات فيه هى التى تتخذ قرارات التزويج.

إن نهاية السينما الصامتة فى الثلاثينيات، يفتح الباب أمام الأفلام الموسيقية، فيحقق فيلم (الوردة البيضاء/سنة ١٩٣٣) للمخرج محمد كريم نجاحًا ساحقًا، مما فتح الطريق أمام عقدين من الإنتاج السينمائى، لأفلام يمكن اعتبار أن كل الأحداث فيها، هى فقط لتبرير تقديم وصلات غنائية، فى ديكورات أقرب ما تكون إلى جو الملاهى الليلية. يعلق الناقد الشهير سمير فريد على هذه الظاهرة قائلا (يبدو الأمر كما لو أن السينما المصرية لم تصبح ناطقة، إلا لتتمكن من الغناء). نعم لتتمكن من الغناء، ولكن كذلك لتتمكن من الرقص، فإن تحيّة كاريوكا وسامية جمال، وبعض الراقصات الشرقيات الأخريات، سيفرضن وجودهن على الشاشة إلى جوار (بلابل النيل)، محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ، وأم كلثوم. وتحتفظ ليلى مراد بمكان خاص، فهى تجمع بنفس الجودة بين موهبتىْ الغناء والتمثيل.

فى ذلك العصر الذهبى، تمكنت الأفلام الموسيقية من اكتساح كل ما عداها من أفلام، باستثناء بعض المسرحيات الهزلية التى تم تصويرها فى قوالب سينمائية، والتى

نجحت فى اجتذاب نفس القدر من الجمهور، فبعد نجيب الريحانى فى (كش كش بك/١٩٢٩)، الذى ضحك له العالم العربى كله، ظهر إسماعيل ياسين. ثم جاءت ثورة ١٩٥٢ لتشجع المخرجين على ترك الملاهى الليلية والصالونات، والنزول إلى الشارع لمقابلة الناس، فى ذلك الوقت ابتكر صلاح أبو سيف الواقعية المصرية. كان فيلمه (ريا وسكينة/١٩٥٣) المستوحى من جريمة حقيقية، يحكى قصة امرأتين تقومان بخطف سيدات من الطبقة المتوسطة، لتجريدهن من مصاغهن ثم قتلهن. يحمل سيناريو هذا الفيلم توقيع رجل، سيحصل مستقبلا على جائزة نوبل فى الآداب، هو نجيب محفوظ، وهو الذى سيكتب فى العام التالى ولنفس المخرج، عملاً مرموقًا آخر هو (الوحش).

يؤدى النظام الناصرى إلى هرب مؤقت لبعض المخرجين إلى خارج مصر، مثل يوسف شاهين مخرج الفيلم الرائع (باب الحديد/١٩٥٨)، الذى أقام مؤقتا فى لبنان، ثم عاد بعد ذلك إلى مصر. ورغم رقابة الدولة، ووجود الكثير من المحظورات السياسية، مقارنة بأى وقت آخر، فإن الدولة الاشتراكية قدمت خدمة كبيرة إلى الفن السابع، عندما سيطرت على إنتاج الأفلام وتوزيعها، بإنشاء المؤسسة المصرية العامة للسينما، هكذا تمكن مخرجون مجيدون من الحصول على مساعدات من الدولة، والتخلص من الشروط التى كان السوق يمليها عليهم. فإلى جوار الأفلام الوطنية التى كان الغرض منها غالبا تقريع الاستعمار والنظام الملكى، هناك أفلام مؤثرة تظهر إلى الوجود خلال تلك السنوات المحمومة، وبها يتأكد حضور بعض الأسماء الكبيرة فى تاريخ السينما المصرية، مثل كمال الشيخ وهنرى بركات، بالإضافة إلى الحضور الجلىّ على الشاشة للممثلين والممثلات، فاتن حمامة وسعاد حسنى وعمر الشريف وفريد شوقى.

ثم يظهر فى تلك الفترة فيلم وحيد من نوعه، فهو لا ينتمى إلى أى أسلوب أو إلى أية موجة، ثم إنه من تأليف مخرجه، وهو فيلم (المومياء/١٩٦٩)، للمخرج شادى عبد السلام. إنه الفيلم الذى يضع المصريين لأول مرة، فى مواجهة مع ماضيهم

الفرعونى، وفيه تتواجه مصران، الأولى هى مصر نابشى القبور الفرعونية، الذين يعيشون فى الأقصر، والثانية هى مصر علماء الآثار المطربشين، الذين يصلون إلى الأقصر على ظهر مراكبهم البخارية، ليجسدوا التقدّم العلمى والمدنية التى تلتهم التقاليد. هذا الفيلم تتوّجه جائزة جورج سادول، ثم يحدث أن يموت شادى عبد السلام مبكراً جداً، تاركاً للسينما العربية فيلمه الروائى الطويل الوحيد.

خلال ذلك الوقت أدت الهزيمة العسكرية فى يونيو ١٩٦٧ - فى مواجهة مع إسرائيل - إلى الاضطراب داخل مصر، وقد استمر الإحباط وخيبة الأمل يصاحبان المصريين خلال بداية سياسة الانفتاح لأنور السادات، ثم حلت المؤسسة المصرية العامة للسينما، فعادت السينما من جديد إلى قوانين السوق. بالإضافة إلى أن النفوذ الذى بدأت تلعبه المملكة العربية السعودية، وبقية الدول العربية المستوردة للأفلام المصرية، لم يكن فى صالح الجرأة والجودة، بل العكس صحيح فإن تزايد الأصولية الدينية، يشجع نوعاً آخر من السينما هى سينما التهكم والسخرية. وفى حين أن بعض الممثلات قد قبلن وضع الحجاب، فى مقابل أن يعشن فى سلام، أو يحصلن على تعويض مادى، فإن ممثلاً له شعبية هائلة مثل عادل إمام، يقدّم أفلاماً من نوعية فيلم (الإرهاب والكباب/١٩٩٢)، للمخرج شريف عرفة، وفيلم (الإرهابى١٩٩٤/)، للمخرج نادر جلال، وهما فيلمان يسخران من المتأسلمين.

يترك يوسف شاهين علامته على نهاية القرن، فهو بعد أن جرّب ومزج كل الأنواع السينمائية، فاز بجائزة خاصة فى مهرجان "كان" السينمائى سنة ١٩٩٧ عن مجمل أعماله. أما مساعده القديم يسرى نصرالله، فقد أصبح مخرجاً مبتكراً مرموقاً، ندين له ضمن أفلام أخرى، بالأفلام التالية، (مرسيدس/١٩٩٣) و(المدينة/١٩٩٩). أما الفيلم الذى ترك بصمة على هذه الفترة، فهو للمخرج الشاب عاطف حتاتة، فيلم (الأبواب المغلقة/١٩٩٩)، وفيه يحكى عن الارتباك العاطفى، لمراهق يقع فى قبضة الفقر، وضعف النظام المدرسى، وضغط الأصولية الدينية.

إن عاشقى السينما المتقدّمين فى السن، يتذكرون بالكثير من العواطف الجياشة، صالات سينما طفولتهم، حين كانت تلك الصالات فى القاهرة والإسكندرية، معابد مقدسة مكرسة للفن السابع، وكانت لها أسماء آلهة مثل ديانا وأوديون وميامى. فما زالت فى ذاكرتهم سجادة سينما مترو الحمراء، وستارة سينما ريفولى القطيفة المكونة من ثلاث طبقات. فى فصل الصيف كنا نذهب إلى السينما، ليس فقط من أجل متعة مشاهدة الأفلام واستثارة العواطف، بل أيضًا من أجل طراوة الجو والهواء المنعش، وذلك لأن دور السينما فى طفولتى، كانت من الأماكن النادرة المكيّفة الهواء بالأجهزة الحديثة.

وكان يمكننا كذلك الحصول على المزيد من الاسترخاء، وذلك بالذهاب إلى دور السينما الصيفية ذات الحدائق، التى كانت تبدأ برنامجها فى بداية الليلة بالجريدة السينمائية، ثم تأتى أفلام الرسوم المتحركة، وذلك قبل أن يبدأ عرض الأفلام. كنت أحسد ساكنى العمارات المجاورة للسينما والمطلة على شاشة العرض، الذين كانوا يستطيعون كل مساء متابعة الأفلام مجانًا. فى الشتاء كانت تلك الصالات عديمة الأسقف، تتحول إلى ساحات للتزحلق على البلاط، باستعمال قباقيب مركب بها عجل صغير، وقد عرفت هذه اللعبة فى مصر باسمها الفرنسى (باتيناچ).

فيما بعد سيتم تحويل أغلب هذه الصالات الصيفية إلى مخازن أو أماكن لمبيت السيارات، وستهدم الدور ذات الحدائق الكبيرة لتبنى عليها عمارات سكنية، بسبب الارتفاع الفاحش فى أسعار أراضى البناء. أما الدور الباقية أصبحت فى حالة مزرية محزنة، ولم يتوقف التدهور العام، رغم محاولات إصلاح بعض الدور خلال الوقت الحالى (١٩٩٩/٢٠٠٠)، مثل ديانا وميامى وريفولى. تقول الأرقام أن ٣١٥ دار عرض سينمائى سنة ١٩٥٢، قد انخفضت إلى ١٦٥ دارًا فقط، فى نهاية القرن العشرين، أى إلى حوالى النصف، مع ملاحظة أن عدد السكان قد تضاعف ثلاث مرات خلال نفس المدة.

تستمر بعض دور العرض فى الأحياء الشعبية، وذلك لأن السينما التى كانت تسلية الطبقة المتوسطة، أصبحت الآن تسلية الطبقات الشعبية، حيث يمكننا أن نلاحظ التدافع أمام شباك التذاكر، ونقاشات حادة أثناء العرض، قد تنقلب إلى عراك بالأيدى، وقد تحول الجمهور من كونه جمهوراً عائلياً، كما كان الحال فى الزمن السابق، إلى جمهور ذكورى شاب، تجذبه غالباً موضوعات الإثارة الجنسية الرخيصة، فى أفلام غثة تافهة، منها ما هو مصرى، ومنها ما هو أجنبى، خاصة أفلام الكاراتيه.

ومع ذلك فقد حدث مؤخراً تطور جديد هو عودة الطبقة المتوسطة إلى التردد على دور العرض السينمائى، ولكن الدور الجديدة الفخمة، فى الأحياء الجديدة الراقية قد أنشئت لأغراض تجارية بحتة، إن ثمن تذاكرها يتعدى القوة الشرائية لأغلبية الشعب المصرى، وهى الدور التى تعرض فى الأساس، الأفلام الأمريكية الحديثة، المتفوّقة تقنياً، على الأقل من جهة الصوت والصورة، على الأفلام المصرية.

وتظل السينما المصرية رغم نواقصها، على رأس كل الإنتاج السينمائى، فى هذه المنطقة من العالم، التى ليس من بين دولها ، الجزائر أو تونس أو المغرب، أو سوريا أو لبنان، من ينتج عشر إنتاج مصر من الأفلام السينمائية، فليس هناك حتى الآن، إلا سينما عربية كبيرة واحدة، عاصمتها اسمها القاهرة.

انظر مقالات: الموسيقى رقم (٩٧)/ أم كلثوم رقم (١٠٥)/ عمر الشريف رقم (١٣٠)

٢٤ - المرور / Circulation

ليس هناك مثل المرور المصرى لإفساد رحلة إلى مصر، فإن طريقة قيادة السيارات فى الشوارع المصرية هى محنة حقيقية ومعاناة شديدة، لم أتمكن من أن أجد لها حلاً، ولم أتمكن حتى من أن أنساها أو أتناساها، فليست هناك سيارة واحدة

تبقى فى القناة (الخانة من الطريق) المخصصة لها، وهذا لا يحدث فقط فى المدن المصرية، وإنما يحدث كذلك على الطرق السريعة المصرية، وذلك لأن القيادة الثعبانية المتعرّجة هى الأسلوب الدائم والوحيد للقيادة فى مصر، وقد وصل بى الحال أحيانًا إلى تمنّى الاختناقات المرورية، لأتمكن من رؤية قادة السيارات أولئك المجانين المهتاجين وقد هدءوا قليلاً.

يجوز أن ردود أفعالى كانت قد اختلفت، لو كنت قد أقمت فى مصر، معتاداً على ما يسمّيه قاهرى حقيقى مثل ألكسندر بوتشانتى، وهو صحفى فرنسى يقيم فى القاهرة، (القيادة النفسية)، عندما يقول (المهم هو ملاحظة السائق الآخر، والقدرة على إصدار حكم سريع على حالته النفسية، من مجرّد نظرة واحدة، لتعرف إن كنت تترك له أولوية العبور، أو أن تعبر أنت أولاً، وغالبًا ما يتم عبور أحد الطرفين، قبل أن يكونا قد توصلا عبر النظرات إلى اتفاق ما، وقد يمر الأمر بسلام، ولكن بشرط ألا يعيد أحدهما النظر فى عين الآخر).

ولقادة السيارات المصريين عادة سيئة أخرى، وهى عادة الضغط القصير المستمر على آلة التنبيه، بطريقة آلية وبدون سبب واضح. قد تكون تلك هى إحدى وصفات الطب الشعبى، لعلاج القيادة الفوضوية، لا أدرى. هذه السيارات تتماس وتكاد تتلامس طول الوقت، دون أن تحتك أحدها بالأخرى. إذن فإن هذه الصيحات الصغيرة من آلات التنبيه هى جزء من اللعبة. ورغم أن استعمال آلة التنبيه ممنوع من حيث المبدأ، فإن رفعها من السيارات يمكن أن يؤدى إلى تغيير قانون الشارع.

فى نهاية أربعينيات القرن العشرين، جاء جان كوكتو [شاعر ومسرحى فرنسى] إلى القاهرة، وهو مخرج ومؤلف فرنسى، وكان قد ذكر بروح من الدعابة، أن سائقى القاهرة يستعملون آلات التنبيه، لأنهم يعتقدون أنها قادرة على إطفاء إشارة المرور الحمراء، ويبدو أنهم كانوا حتى فى ذلك الوقت المبكر يستعملونها بكثرة، رغم أن عدد

سيارات القاهرة حينذاك كان قطعا أقل بكثير من عددها حاليًا، وكان السائقون يحترمون إشارات المرور إلى حد ما.

ثم إن المسئول عن مراقبة تقاطعات الطرق، هو مجنّد شرطة صغير السن يسمونه شاويش، وفى الحقيقة هو لا يتمتع بالصفات الجسمانية اللازمة لأداء هذا العمل، فهو فى نهاية مراهقته، ونحيف القوام إلى حد بعيد، لدرجة أنه يعوم فى الزىّ الرسمى الذى يلبسونه إياه، مما يجعل منظره داعيًا إلى السخرية، أضف إلى ذلك أنه يتركه رباط حذائه مفكوكًا، يعطى الانطباع بأنه كان قد أخرج للتو قسرًا من قريته، ليلقى به عنوة فى هذه المعمعة المدينية، مدّعين أنه موجود فى هذا المكان لينظم المرور.

وعندما تتحول الإشارة إلى اللون الأصفر، يستعمل الشاويش صافرته، رافعًا ذراعه وفى طرفها العصا، معتقدًا أن هذا هو ما ينبغى عليه أن يفعل، حتى يكون له التأثير المطلوب فى السائقين. ورغم حركاته تلك، وكذلك رغم تحوّل الإشارة من اللون الأصفر إلى اللون الأحمر، إلا أن سيارات عديدة تستمر فى المرور رغم أنفه. ماذا يفعل هذا المسكين؟ إن البطولة فى مثل هذا الموقف غير مجدية، إذ عرفت أن جنودًا كثيرين من أصحاب الضمائر اليقظة، كانوا قد وجدوا أنفسهم، بُعَيْد مواقف شبيهة، فوق الأجزاء الأمامية للسيارات وبعظام مهشمة.

إن هذا الشاويش المسكين يجسّد كل إعياء العالم وملله وحزنه، فهو مع بعض الابتسامات المتحفظة من بعض قادة السيارات، يحدث أن يتبادل معهم، أو مع بعض المشاة، بعض الجمل القصيرة، التى قد تكون جملاً مشجعة أو داعية إلى اليأس. إن سلطة هذا الشاويش الحقيقية قد تظهر أحيانًا، عندما يسمح لأحد قادة السيارات اللحوحين بارتكاب مخالفات، من نوع السماح له بالدوران فى الشارع لاتخاذ الاتجاه المعاكس، رغم أن الشارع هو اتجاه واحد، وذلك بشرط ألا يكون بالقرب منه شرطىّ حقيقىّ.

فى الواقع فإن هناك فرقًا هائلاً بين هذا الشاويش والشرطى الحقيقى، مثل ذلك الذى يتنقل باستعمال دراجة بخارية واضعًا على رأسه خوذة. أما بين هذا الشاويش والضابط، فهناك هوة سحيقة بلا قاع تفصل بينهما، فالضابط هو السلطة المطلقة والغطرسة، وهو الزىّ الرسمى الذى يناسب تمامًا مقاسات جسمه، وهو كذلك المنظار الأسود على عينيه.

أما فيما يتعلق بالمشاة التعساء، فإن عبور بعض الشوارع الكبيرة فى القاهرة هو الجحيم بعينه، فيجب على هذا البائس أن ينطلق بين السيارات بعزم وتصميم حديديين، ويقلب جسور ميّت يقبل كل التحديّات والمخاطر، فإن هذا المسلك الجدير فقط بالمحاربين الشجعان قد يؤدّى إلى التهلكة، خاصة عند عبور بعض المحاور السريعة مثل شارع رمسيس، أو طريق كورنيش النيل. فى رواية ألبير قصيرى [أديب مصرى كتب رواياته بالفرنسية] الأخيرة (ألوان العار)، تخترع إحدى شخصيات الرواية مهنة جديدة، هى مهنة مساعدة السيدات على عبور الشارع إلى الجهة الأخرى.

رسميا يقدر عدد ضحايا حوادث الطرق بستة آلاف قتيل سنويا، وهذا عدد كبير بالمقارنة بعدد السيارات فى مصر، وبعدد الكيلومترات التى تقطعها هذه السيارات على الطرق المصرية. بالإضافة إلى أن هذا العدد ينبغى أن يصل إلى الضعف، إذا أدخلنا فى حساباتنا عدد الجرحى الذين سيموتون فى الشهر التالى على الحادثة، ويدخلون فقط فى أرقام موتى المستشفيات.

إلا أن الألفية الجديدة قد شهدت، إدخال تعديل إجرائى فى قانون المرور لم يكن أحد يتوقعه، وهو أن استعمال حزام الأمان قد أصبح إجباريًا. واعتقد الناس فى البداية أنها مزحة، إلا أن فيضان المخالفات، وإيقاف الترخيصات، أكدا عزم السلطات، على تطبيق القانون. عندها تم تجهيز عدد كبير من سيارات الأجرة بأحزمة أمان مزيفة، كانت غالبًا فى الأصل أحزمة حقائب مدرسية، وأحيانًا كانت مجرد شرائط بلاستيكية. إلا أن إصرار السلطات على المتابعة، أدى بالتدريج وبمزيد من الدهشة،

إلى إجبار الناس على استعمال أحزمة أمان حقيقية، تحولّت إلى جزء من أخلاقيات القيادة.

يتبقى أن نفرض الخوذة على قائدى الدراجات البخارية، وقد يتعارض هذا فى المناطق الريفية، مع عادة استعمال العمامة أو الشال الملفوف فوق الرأس. أما المشكلة الثانية فهى أن أفراد الأسرة الريفية الواحدة، قد يتكدّس ستة منهم فوق دراجة بخارية واحدة، عند الخروج للنزهة يوم الجمعة، هل ينبغى تزويد هذه العائلة بنصف دستة خوذ رأس؟

الحمد لله أننا لم نعد نرى فى القاهرة، تلك العناقيد البشرية التى كانت تتدلى من سيارات النقل العام، متعلقة بأبوابها، بسبب أن تلك السيارات كانت أعداد الركاب التى تتكدّس داخلها فوق طاقتها الاستيعابية، والفضل فى ذلك يعود إلى ظهور وسائل مواصلات جديدة، مثل المينى باص، الذى قد يستعمل أحيانًا كتاكسيات جماعية، فالسائق يتوقف فى أى مكان عندما يشير إليه أحد الركاب. إن النقلة الحقيقية كانت بظهور الخط الأول لمترو الأنفاق الذى يمر تحت الأرض، وقد ساعد الفرنسيون فى بنائه.

وقد قلت الاختناقات المرورية كذلك، بفضل الطرق العلوية المعلقة، التى تتكاثر فى العاصمة، ولكنها تشوّه مظهرها، ولكن مع تزايد أعداد السيارات بعشرات الآلاف كل عام، تتضح محدودية هذا الحل. ثم إن تعطل سيارة واحدة يؤدى إلى اختناق الكوبرى، لأنه ليست لهذه الكبارى الطرق الجانبية التى يمكنها أن تخفف الضغط عليها عند اللزوم. مع ملاحظة كثرة أعطال السيارات، لو وضعنا فى الاعتبار استمرار استعمال سيارات قديمة لسنوات عديدة، فبعض سيارات الأجرة مثلا يمكن أن تستعمل لمدة أربعين عامًا، وهى سيارات لا يمكنها أن تخفى تجاعيد وجهها، إذ يعاد رتقها مائة مرة مثل القماش الممزق، ويعاد طلاؤها مائة مرة، باللونين الأزرق الداكن والأبيض فى القاهرة، وباللونين البرتقالى والأسود فى الإسكندرية.

وللعدادات قصة طويلة، فإذا كانت لا تعمل، فما الداعى للإبقاء عليها؟ كانت هذه العدادات تستعمل عندما كانت أسعار الوقود منخفضة جدًا، أما الآن فإن الالتزام بها يمكن أن يؤدى بالسائقين إلى الإفلاس، خاصة لو علمنا أن أغلب هؤلاء السائقين لا يملكون السيارات التى يعملون عليها، وبالتالى فهم يعيشون فى ضنك شديد مما قد يضطرهم إلى نقل عدد من العملاء المختلفين فى نفس الوقت. لماذا لا تجدَّد هذه العدادات بحيث تصبح مسايرة للأوضاع الاقتصادية؟

وهكذا فإن ثمن المشوار يتحدد على أساس شكل رأس الزبون، ومن الطبيعى فى هذه الحالة أن يدفع الزبون الأجنبى مبلغًا أكبر، خاصة لو أنه أخذ السيارة من أمام فندق. يحاول السائق أحيانًا أن يفاوض الزبون بطريقة وديّة فى أول الأمر وقبل التحرّك، ولكن واقع الحال أنه من الأفضل عدم التفاوض، لأن الزبون الحقيقى هو الذى يحدد وحده ، الثمن الذى ينبغى دفعه، وفى نهاية المشوار يخرج من السيارة، ويمدّ يده عبر النافذة ليعطى السائق أجرته، قائلا له (مع السلامة)، وليذهب السائق بعد ذلك مع السلامة، فى تلك المعمعة من الضوضاء والزحام.

٢٥ – مدينة الموتى / Cité des morts

كما كانت الحال على زمن المصريين القدماء، فإن المصريين المعاصرين كثيرًا ما يذهبون لزيارة موتاهم، وقد تطول تلك الزيارات أحيانًا، وقد يسكن الأحياء إلى جوار الموتى، ولو لليلة واحدة أو ليلتين، فى إجازات نهاية الأسبوع، أو فى بعض مناسبات الأعياد. يحدث هذا رغم أن بعض العلماء المدققين يؤكدون، أن هذه الممارسات ليست من الإسلام فى شىء، بل إنهم حتى يعتبرونها نوعًا من انتهاك حرمة الموتى. لكن كيف يمكن محاربة عادة عمرها آلاف السنين؟

فى رواية (حكايات حارتنا) لنجيب محفوظ، والتى صدرت ترجمتها الفرنسية سنة ١٩٨٩ من دار سندباد، يتذكر هذه الزيارات إلى المقابر بقدر من الحنين إلى الماضى، يقول (كانت الأيام التى نذهب فيها لزيارة الموتى، هى بالنسبة إلىّ من أكثر أيام طفولتى مرحًا، ففى مساء اليوم السابق على الزيارة، كنا نعدّ القرص والبلح الذى سنحمله معنا، ثم فى الصباح الباكر نأخذ الطريق إلى المقابر، وكنت أمشى بين أمى وابى حاملاً سعف النخيل وأعواد الريحان، تسبقنا الخادمة وهى تحمل سلة الرحمة.

كنت أحب منظر التدفقات البشرية عندما تتقاطع محاورها، والعربات التى تجرّها الدواب وهى تمتدّ فى صفوف طويلة على حدود الجبّانات، ومن بعيد كنت أستطيع تمييز بوابة حيازتنا الجنائزية المسوّرة، كما لو أننى كنت أميّز صديقًا قديمًا. وعند اختراقنا الفناء، تغوينى عظمة المقبرة التى تقف وحيدة، بشاهد قبر جسيم على كل من طرفيها، وتجذبنى بالغموض الذى يغلفها، وبالافتتان الذى يحمله لها أبى، بدون أن أنسى شجرة التين القزمة، التى تنمو ليس بعيدًا عن هنا، فى هذه المساحة المفتوحة على السماء. كل هذا كان يجعلنى أشعر بالانتشاء، إلى درجة أننى لا أعود أسيطر على نفسى من مشاعر الفرح).

منذ العصر الفاطمى، أى منذ القرن العاشر الميلادى، توجد فى شرق القاهرة مساكن داخل القبور، حيث نجد أفنية داخلية، وغرف عديدة لاستقبال العائلات، فحسب بعض المعتقدات الشعبية، تهبط روح المتوفى يوم الخميس لتقابل أقرباءها، وتبقى معهم فى المكان حتى بعد صلاة عشاء يوم الجمعة. إن جبّانة شمال القاهرة، المسمّاة مقابر الخلفاء، تحتوى ضريح قايتباى الرائع الفخامة، بقبته المحفورة بالنقش البارز، بنماذج من الأرابسك(*). أما جبانة جنوب القاهرة الأكثر اتساعًا، فيعلو ضريح الإمام الشافعى منظرها العام، وهو أحد أماكن الحج المهمة فى الإسلام، ناهيك عن عشرات المبانى الأثرية التى تقوم وسط المقابر، ويمكن اعتبارها تحفا معمارية.

بشكل عام فإن هذه الأماكن التى كانت مخصصة للدفن، غيَّرت من شكلها وطبيعتها بالتدريج، فإلى جانب اللحادين، وحافرى القبور، وقاطعى الأحجار، وحراس المقابر، ظهر أهل المدينة الباحثون عن سكن، وهكذا ومنذ نهاية القرن التاسع عشر، تحوّلت بعض المقابر إلى أماكن دائمة للسكن، وظهرت مبان عشوائية وسط المقابر، مثل المتاجر الصغيرة وورش الحرف اليدوية، وظهر أطفال يلعبون كرة القدم، وتحوّل كل ذلك إلى مدينة حقيقية، لم تتوقف أبداً عن الامتداد والتمدّد عبر القرن العشرين، فتحوّل الحفارون واللحادون إلى سماسرة عقارات.

منذ وقت مبكر اختارت الدولة أن تساعد فى تنمية هذه الأحياء، مثلا بإضافة خط ترام إلى منطقة البساتين، لربطه بوسط المدينة، ثم أضافت المدارس ومركز الشرطة، حتى الحزب الحكومى الذى أضاف مقراً له داخل الحىّ. إن الحياة فى بعض مناطق المقابر، أفضل من حيث نوعيتها، من الحياة داخل بعض أحياء القاهرة، فقد حدث بعض التطور فى الفترة الأخيرة، حين حوّلت الدولة بعض أماكن الفضاء إلى حدائق عامة، وأنشأت إلى جوار الحىّ بعض الطرق المحورية. لكن من المتوقع حاليًا نقل مائة ألف مقبرة إلى خارج العاصمة، وقد اصطدم هذا المشروع بمعارضة عائلات الموتى، وكذلك بمعارضة ساكنى قبور مدينة الموتى، الذين يصرخون مستغيثين (بعد أن طُرِدنا من عند الأحياء، ها أنتم تطردونا من عند الموتى).

٢٦ – كليوباترا / Cléopatre

قيل عنها كل شىء، وقيل عنها الشىء وعكسه، امرأة ذكية أم مغوية؟ جميلة أم قبيحة؟ ضحية أم شهيدة؟ على كل حال فإن كليوباترا شغلت العقول والقلوب لمدة عشرين قرناً، وليست هناك أية امرأة أخرى، فى أى بلد آخر استطاعت مثلها، أن

تجعلنا نحلم بها. فلنتحدّث عنها وعن مصيرها الاستثنائى، محاولين أن نتخفف من وقع الحقائق التاريخية. هى كانت ملكة فى الثامنة عشرة من عمرها، ثم إنها تزوجت على التوالى باثنين من إخوتها، وأحبّت يوليوس قيصر، ثم تزوّجت من سيد روما الجديد مارك أنطوان، وذلك قبل أن تهزمها جيوش القيصر أوكتافيوس، فتقرر أن تنهى حياتها بيدها.

هى الملكة رقم سبعة فيمن حملن اسم كليوباترا بين ملكات البطالمة، حدث أن ورثت مملكة متهاوية سنة ٥١ ق.م.، مملكة عرفت الفوضى والمؤامرات والمذابح والثورات من كل نوع، حتى المجاعة عرفتها تلك المملكة المتهاوية، وهى نفس المملكة التى ظلت عاصمتها الإسكندرية أكثر مدن العالم بريقًا، رغم الانهيار. وخلافًا لأسلافها كانت كليوباترا تحب مصر، وتتحدّث اللغة المصرية، وتعتنق مذاهب مصر وتمارس طقوسها، وسيشبهها شعبها بإيزيس، وسيصبح قيصرون ابنها هو حورس الجديد، وهو ابنها الوحيد، وقد أنجبته من تلك العلاقة الغرامية العابرة مع يوليوس قيصر.

كليوباترا هى سلطانة نصف فرعونية، تميّزت بالجرأة والخيال الجامح، والقدرة على أن تحلم بإعادة مملكة أجدادها البطالمة اللاچيديين(*)، وإعادتها إلى مجدها الغابر وانطلاقها القديم، وذلك بواسطة التحالف مع روما، بشرط عدم تحويل مصر إلى ولاية رومانية. ستجعل كليوباترا العالم كله يظن أنها نجحت فى تحقيق حلمها، وذلك قبل أن تنتزع منها السلطة، وتساق إلى الموت.

إن الإمبراطور المنتصر أوكتافيوس، لحظة تحققه من انتصاره، يبدأ فورًا ما يمكن تسميته حاليًا، سياسة تشويه السمعة، بالاستعانة بالتضليل المعلوماتى، فيتم تصوير كليوباترا على أنها أسوأ نساء الأرض قاطبة. متآمرة منحرفة الميول، متحررة من كل القيود الأخلاقية، عاهرة من طراز رفيع، مسممة للأجواء. ثم إن بعض الأسماء الكبيرة فى عالم الأدب، مثل ڤيرچيل وهوراس وسينيك، سيعيرون أقلامهم إلى هذه الحملة المغرضة، للمساهمة فى التحطيم المقصود والتشويه، الذى سينتهى بتحقيق أغراضه.

ولن يعـاد اكتـشـاف كليـوباترا إلا فى عـصـر النهضـة، بفـضل واحـدة من ترجـمـات بلوتارخـوس، التى أكدت أن آخر ملكة بطلمـيـة على مصـر، قـد انتـحرت بواسطة لدغة ثعبان.

وقـد أوحت هذه القصـة إلى شكسـبيـر عـمله الرائع (أنطونيـو وكليـوباترا)، فـفى الفـصل الأخـيـر تعلن البطلة إلى مـبـعـوث قـيـصـر (كـمـا جـاء فى ترجـمـة إيف بونفـوا الفرنسية للأشعار الإنجليزية):

(لن أتناول أبدا بعد ذلك الطعام أيها السيد/ لن أشرب أبدا أى شىء/ إن النطق ببعض الكلمات فى الهواء يمكن أن يكون له رغم ذلك بعض المعنى/ فـأنا لن أنام مطلقًا بعد ذلك/ ثم إنى سأحطم هذا الجسد الذى أسكنه/ مهما حاول قيصر أن يفعل/ وذلك لأنك يجب أن تعلم أننى لم أعد راغبة فى هذه الحياة/ بأجنحة منزوعة ممزقة فى ظل سيدك/ فأنا لا أنوى أن أتحمّل هذا العقاب/ عقاب رؤية العينين الكنيبتين لأوكتافيوس الشـاحب اللون/ هل يريدون رفـعى على منصّـة/ لعرضـى على شـعب رومـا الصـارخ بالاهانات والسباب؟/ من الأفضل إذن أن تكون حفرة فى مصر هى مقبرتى الجميلة/ وبدلا من أن أكون عارية تمامًا/ فمن الأفضل أن يمدّد جسدى على مستنقعات النيل/ حتى لو تورّم هذا الجسد تمامًا إلى حد مفزع/ فى تلك المستنقعات بجروح بعوض النيل/ ومن الأفـضل أن تكون الأهرامـات العـاليـة فى بلادى/ هى المشنقـة التى أشنق عليها مكبّلة بالسلاسل).

وخلال هوجة (دعسة) شكسبير، استحوذ الكثيرون على تلك الملحمة الأسطورية، فأكثر من ٢٠٠ مسرحية، و٤٥ عملاً أوبراليًا، وخمسة أعمال للباليه، ستخصص خلال السنوات ١٥٤٠-١٩٠٥، لتلك (الغجرية العاشقة المتحفزة للجماع)، (مُهرة الشيطان)، (الفرسة الفالتة العيار)، التى تظهر فى تلك الأعمال كما لو كانت، النموذج الأول (البروتوتيب) القديم الأثرى، للمرأة المغوية المهلكة. إيرين فران، وهى أفضل من كتب

سيرة كليوباترا، فى كتابها المطبوع سنة ١٩٩٨، لدى دار نشر فايار، تحت عنوان (المتفرِّدة، التى لا مثيل لها)، لاحظت أن هذا الزواج المشئوم مع الثعبان، جعل كليوباترا تلحق بحواء الأزمنة التوراتية، فهى قد أهلكت سادة روما، مثلما فعلت المرأة الأولى، عندما انزلق العالم بسببها إلى طريق الشر، بعد إنصاتها إلى الثعبان وانصياعها له.

وبالإضافة إلى المسرحيات والأوبرات والباليه، فإن الرسّامين والنحّاتين لم يقفوا مكتوفى الأيدى، فالرسّامون مثلا أنتجوا عدداً لا حصر له من اللوحات؛ حيث تمتزج الإثارة الجنسية بسحر الشرق، وحيث تدور أحداث اللوحات فى أزمنة غير محددة تمامًا، أى خارج الأطر الزمنية المعروفة، ففيها يمكننا مثلاً أن نرى كليوباترا فى صورة شقراء ممتلئة القوام، تمارس إغواءها وأفعالها الشريرة، فى قاعات الحريم بقصور ملكية، حيث يخلط الديكور بين علامات هيروغليفية، مع مناظر من ألف ليلة وليلة، وبعض عناصر زخرفية من العصور الحديثة.

أمثلة أخرى. هناك لوحات للفنانَيْن تيبولو وريجنولت، تظهر فيها كليوباترا بصدر لونه أبيض كالحليب، على نسق لوحات أوروبا فى القرن ١٨ . وفى تمثال من البرونز، للنحّات شيبارى سنة ١٩٢٥، تظهر كليوباترا بملابس قصيرة، وبقصّة شعر (آلا جارسون) مثل قصة شعر الصبيان، وهى موضة ذلك العام. وفى لوحة لألكسندر كابانال سنة ١٨٨٧، معروضة فى المتحف الملكى للفنون الجميلة بمدينة أنفار، تجلس سيدة فرعونية على أريكة، تبدو بسحنة مستاءة غاضبة، مع بعض الوهن وفتور الهمّة، وتنشغل بتجربة أصناف السموم، على بعض المحكوم عليهم بالإعدام. وفى متحف الأوجستان فى مدينة تولوز، توجد اللوحة الشهيرة للفنان جان أندريه ريكسان سنة ١٨٧٤، حيث تظهر كليوباترا عارية على فراش الموت، فى معبد فرعونى غامض، وهناك عند قدميها نرى خادمة تلفظ أنفاسها الأخيرة.

أما الشعراء فإنهم طبعًا يغنون الملحمة، فالشاعر أحمد شوقى (وهو المقابل المصرى للشاعر فيكتور هوجو الفرنسى)، يهدى على ضفاف النيل، وفى ثلاثينيات القرن العشرين، أنشودة شعرية وطنية، إلى آخر ملكات البطالمة. وهناك ارتباط كليوباترا بإحدى أغنيات أكبر ملحن مصرى وهو محمد عبد الوهاب، وكذلك ترتبط بماركة سجائر شعبية جداً.

ولم تسمح السينما العالمية أن تحرم من هذا الموضوع، فمن ميلياس إلى مانكيفيتش، مرورا بسيسيل دى ميل، الذين استعان كل منهم فى تمثيل الدور بكليوباترا خاصة به، من بين أجمل نساء العالم، مثل إليزابيث تايلور وصوفيا لورين، وذلك رغم أن صورها الوحيدة المتاحة لنا، وهى ميداليات تحمل وجهها بمنظر جانبى (بروفيل)، لا تسمح لنا بتخيلها جميلة، بسبب ذلك الأنف الشهير البارز قليلا إلى الأمام، والذى أبرزه أكثر وأكثر رسّام الكاريكاتير الفرنسى أودرسو، فى سلسلة قصصه المصورة عن بطله أستريكس.

هل كانت كليوباترا قبيحة؟ إن جدلا مضحكا قد ارتبط بهذا الموضوع فى ربيع ٢٠٠١، أثناء إقامة المتحف البريطانى معرضاً لها، رغم أن بلوتارخوس كان قد أجاب عن هذا السؤال منذ مدة طويلة، عندما كتب (إن جمالها فى حد ذاته، لم يكن من النوع الذى لا يقبل مقارنته بجمال غيره، ولم يكن من أنواع الجمال التى تدهش الناظر إليها). لكن مجرد الوجود فى حضرتها، والحوار معها، والإطار العام الذى تظهر به، هو ما جعل منها شخصية لا تقاوم.

٢٧ - القناصل تجار الآثار / Consuls-antiquaires

خلال كل النصف الأول من القرن ١٩، نهبت مصر بدون ذرة حياء، حين قام الأوروبيون بفرز المواقع الأثرية وأخذ أفضل ما فيها، وذلك لتزيين حجرات مكاتبهم

بأشياء مثيرة للفضول، أو لإعادة بيع بعض القطع فى أسواق شمال المتوسط. هكذا غادر مصر عدد لا حصر له من الكنوز. لكن ينبغى القول أن هذا الفعل كان أحيانًا فى صالح تراث مصر الحضارى، لأن تلك الآثار المسروقة كانت معرضة لأخطار منها أن تدمَّر، أو أن يعاد استعمال الحجر كمواد بناء.

وللحصول على التصريح بالتنقيب عن الآثار، كان قناصل البلاد الأجنبية، المقيمون فى الإسكندرية، مميزين عن غيرهم، باستغلال نفوذهم لدى نائب سلطان الآستانة. كان يمكنهم كذلك تفويض مندوب خاص للذهاب بدلا منهم إلى أماكن التنقيب، ويمكنهم بسهولة توظيف عمّال للحفر، ثم ينهبون كل ما يعثرون عليه، مع تفضيل القطع الكبيرة الحجم. كان أكثر أولئك القناصل تجار الآثار نشاطًا، هو الفرنسى برناردين دروفتى (١٧٧٦-١٨٥٢)، والإنجليزى هنرى صولت (١٧٨٠-١٨٢٧)، وهما اللذان كانا كثيرىْ التفاخر بمعارفهما الضئيلة فى علم المصريات. فيما بعد ستسمح المجموعتان الشخصيتان لهما بإنشاء العديد من المتاحف الكبيرة فى العالم الغربى.

نشأ برناردين دروفتى فى منطقة بيمون الفرنسية، ثم التحق بجيش بونابارت عند ذهابه فى حملته إلى إيطاليا. بعد ذلك سيصبح نائبًا لقنصل فرنسا فى مصر، ثم قنصلاً لفرنسا فى مصر، خلال إمبراطورية نابليون الأولى، ثم كذلك أثناء عودة الملكية إلى فرنسا، ويمنتهى البراعة ينجح فى اكتساب ثقة محمد على، ويحثه على الاهتمام بباريس وعلى الاتجاه إليها، فيصبح أحد أكثر الرجال الذين ينصت إليهم محمد على.

وقد عيّن دروفيتى وكيلاً عنه فى المواقع الأثرية، رجلاً فرنسيًا هو چان چاك ريفو، الذى كان قد أصيب فى فرنسا بفيروس حب مصر، عندما كان يعمل فى ورش تصنيع الأثاث المتأثر بطراز فنون مصر القديمة، فى زمن عودة حملة بونابارت، ثم بعد ذلك فى أثناء طبع الأعداد المتتالية من موسوعة وصف مصر. نراه فى مواقع الحفائر مسلحًا بسوط، يسب العمال بالفرنسية، باللهجة الريفية لأهل جنوب فرنسا، وبدون أى ذمة أو

ضمير، يأمر باستخدام المنشار فى قطع نقوش الحفر الغائر، ويستعمل المتفجّرات فى نزع الأحجار، ثم إنه لم يتورّع عن حفر اسمه بالفرنسية على العديد من التماثيل الكبيرة.

أصبحت القنصلية العامة لفرنسا بالإسكندرية، قريبة الشبه بمغارة على بابا. الكونت دى فربان، مدير المتاحف فى فرنسا، أقام فى الإسكندرية لمدة قصيرة، حيث ذهب لزيارة قنصلية بلاده، فأصابه الذهول من حجم الآثار بداخلها، يقول (إن هذا المكان الغريب، وما به من معروضات مرتبة ترتيبًا تاريخيًا بطريقة مثالية، يمكننا أن نتعلم تاريخ مصر فى ساعات قليلة، وبشكل دقيق وممتع، وقد لاحظت أن المصريين يحاصرون طول الوقت، الخان الذى يقيم فيه دروفتى، وقد أحضروا له مومياوات، أو تماثيل برونزية، أو قطع من العملة، أو قطع حلىّ من العقيق المجزّع المنقوش).

ذهب دروفتى بمجموعة أولى من مقتنياته إلى أوروبا، وحاول بيعها إلى ملك فرنسا فى ذلك الوقت وهو لويس الثامن عشر [ملك فرنسا بين ١٨١٥ و١٨٢٤]، إلا أن الملك اعتقد أن المجموعة غالية الثمن فرفض شراءها، فذهب بها القنصل إلى سردينيا حيث باعها لملكها. كانت تلك المجموعة تشتمل على أكثر من ألف قطعة، من بينها التماثيل العملاقة لأمنحتب الأول، ولرمسيس الثانى جالسا، ولتحوتمس الثالث، وهى المجموعة الموجودة حاليا فى متحف تورينو بشمال إيطاليا. وبإصرار ومثابرة من شامبوليون، تمكن من إقناع ملك فرنسا شارل العاشر [ملك فرنسا بين ١٨٢٤ و ١٨٣٠] وريث لويس ١٨، بشراء المجموعة الثانية من مقتنيات دروفتى، وهى التى ستكون نواة القسم المصرى بمتحف اللوفر. ستذهب المجموعة الثالثة إلى ملك بروسيا.

أما هنرى صولت، وهو القرين الإنجليزى لدروفتى، فقد كان فى بدايته رسامًا مصورًا للشخصيات وللوجوه، وكان قد بدأ بالسفر فى رحلات، إلى الهند ثم إلى الحبشة، وذلك قبل أن يقع فى هوى مصر. وفى الوقت الذى كان فيه شامبوليون ويونج

يحاولان فك شفرة الكتابة المصرية الهيروغليفية القديمة، كان صولت هو الآخر يحاول نفس الشيء، وسينشر فعلاً لاحقًا دراسة عن هذه المسألة. وقد حصل هو الآخر لنفسه على ثلاث مجموعات من المقتنيات الأثرية المصرية الرائعة، سيقتنى المتحف البريطانى واحدة منها، واللوفر المجموعة الثانية، التى كانت تشمل تابوت رمسيس الثالث، وقدس أقداس (محراب) معبد فيله. ستذهب المجموعة الثالثة إلى قاعة سوذبى فى لندن، لتباع بالقطعة فى المزادات.

كان صولت قد استعان بشخصية مدهشة مبهرة، ليعمل وكيلا عنه فى المواقع الأثرية، هو الإيطالى جيوفانى باتيستا بلزونى (١٧٧٨-١٨٢٣)، وهو الذى كان يطلق عليه اسم جبّار بادوا، وهى منطقة إيطالية. كان ابنا لأحد حلاقى بادوا، قبل أن يقرر أن يصبح راهبًا، إلا أن حجم جسمه الهائل، جعله يقرر أن يذهب إلى روما ليجرب حظه فيها. من هناك يذهب إلى لندن، ليعمل فى سيرك متجوّل كبهلوان، يقدّم فقرة يستعرض فيها قوته العضلية الهرقلية، فى ساحات الأعياد الشعبية. فى لندن يتزوج فتاة بريطانية، ويقرران الذهاب إلى مصر، حيث يقدم نفسه للباشا الوالى محمد على، بصفته مخترعًا لآلة تدور بالطاقة المائية، يقول إنها يمكنها أن تحدث ثورة فى نظام الريّ المصرى.

يرفض محمد على اختراع بلزونى، هنا يتدخل القدر إذ يعينه صولت وكيلا له، ويرسله إلى منطقة طيبة غرب الأقصر، للبحث فى معبد الرامسيوم عن رأس عملاق لملك فرعونى. كانت قطعة حجرية ثقيلة الوزن جداً، لدرجة أن أحداً - حتى وقت ذهاب بلزونى - لم يستطع تحريكها من مكانها. أما عملاقنا البشرى فقد وجد أخيراً الفرصة، التى يمكن أن يبرر بها سبب إطلاق لقب (جبّار بادوا) عليه.

كانت الرأس الحجرية لرمسيس الثانى بكتفيه، مستقرة على الأرض وسط حطام المعبد. يشير بلزونى فى كتابه (رحلات إلى مصر وبلاد النوبة)، إلى أن (الرأس كان متجها إلى السماء، يمكننا القول إنه كان يبتسم سعيداً بفكرة نقله إلى إنجلترا، كان

جمال الرأس وليس حجمه هو ما فاق كل توقعاتى). ابتكر بلزونى نوعًا من النقالة الزحافة، فى صورة محفة تتدحرج على جنوع الأشجار، وبمساعدة ثمانين من عمّاله اليدويين المستأجرين فى الموقع، نجح فى نقل التمثال الضخم حتى النيل، ومن هناك انتهى به المطاف إلى المتحف البريطانى.

حصل بلزونى على حصاد معتبر، خلال سنوات إقامته الأربع فى مصر (١٨١٥-١٨١٩)، عدا اكتشافه لست مقابر ملكية فى المنطقة الطيبية، من بينها تلك الخاصة بسيتى الأول. عند عودته إلى أوروبا، نظم المعارض، ونشر النصوص حول رحلته، مزودة بالرسومات. ثم إنه وبصفته مغامرًا مثاليًا، يذهب بعد ذلك إلى أعماق أفريقيا، حيث يموت أثناء بحثه عن منابع نهر النيجر. يصبح بلزونى بعد ذلك شخصية أسطورية، تحكى للأطفال كنموذج يحتذى به، وخلال وقت طويل ستوزّع كتبه فى فرنسا وبلجيكا، باعتبارها هدايا على تلاميذ المدارس المجتهدين، أثناء توزيع جوائز نهاية العام الدراسى.

انظر مقالات: متاحف رقم (٩٦)/ وتراث وطنى رقم (١٠٩).

٢٨ - الأقباط / Coptes

خلال زمن طويل انتقدت الكنيسة الكاثوليكية (فى روما) أقباط مصر، لاعتناقهم مذهب الطبيعة الواحدة (المونو فيزيت)(*)، بما يمكن تفسيره أنهم يعتقدون أن المسيح كانت له طبيعة واحدة، أى أنه كان إلهًا فقط، وينكرون طبيعته البشرية. كان هذا هو السبب الرسمى للقطيعة بين الكنيسة الكاثوليكية وأقباط مصر، أثناء انعقاد المجمع المسكونى(*) فى خلقيدونيا(*) سنة ٤٦١ ميلادية. لكن التاريخ يقول لنا أن أقباط مصر كانوا بمذهبهم ذلك، المختلف عن مذهب روما وبيزنطة، يريدون إعلان استقلالهم

السياسى عن هيمنة روما وبيزنطة، وكان هذا الصراع اللاهوتى مجرد ذريعة. فى الوقت الحالى يبدو هذا الصراع كما لو أنه كان فقط نوعًا من سوء الفهم.

إذن لم يعد أحد يعتقد فى هرطقة أقباط مصر، ولم تعد هناك أية شكوك فى صدق إيمانهم المسيحى، إذ إن نصوصهم الشعائرية تعبر بوضوح عن إيمانهم. يحدد القدّاس الباسيلى بدقة هذا الإيمان عندما يقول (إن طبيعة المسيح الجسدية لم تنفصل عن ذاته الإلاهية لحظة واحدة). وهل هناك إيمان مسيحى أكثر اعتقاداً فى التجسد من إيمان أقباط مصر؟ إن المصرى القبطى يصلى بكل جسده، ويتلقى بجسده رذاذ الماء المقدس الذى ينثره الكاهن فى نهاية القدّاس، وينغمر جسده وهو طفل وليد فى الماء المقدّس، أثناء طقس المعمودية، ثم إنه يقبل الأيقونات(*) ويتحسّسها.

تأسست كنيسة مصر، على يد القديس مرقص الإنجيلى، خلال القرن الأول الميلادى، وبالتالى فإنها ليست فقط أكبر كنيسة فى العالم العربى، ولكنها كذلك أقدم كنيسة فى هذه المنطقة. ثم إن بطريارك(*) هذه الكنيسة يحمل لقب (البابا). ولكن بالإضافة إلى الأقباط الأورثوذكس(*) المصريين، هناك طائفتان أخريان فى مصر، تمثلان أقليتين دينيتين، انفصلتا فى كنيستين مستقلتين عن الكنيسة الأورثوذكسية، وقد حدث هذا الانقسام خلال القرن التاسع عشر، وبتحفيز من المبشرين الأوروبيين الكاثوليك(*)، ومن المبشرين الأمريكيين البروتستانت(*)، وهما طائفتا الأقباط الكاثوليك والأقباط البروتستانت.

حسب الإحصاءات الرسمية يمثل أقباط مصر ستة بالمائة من السكان، أى حوالى أربعة ملايين شخص تقريبًا، ولكن حسب أقباط مصر فإن هذا الرقم هو على الأقل ثمانية ملايين. على أى الأحوال فإن المسألة تتعلق هنا بأقلية قوية، وهى أقلية لا صلة لها على الإطلاق بأية أقليات أخرى مجلوبة إلى مصر، فإن مسيحيى مصر لديهم دائمًا الاعتقاد بأنهم أكثر مصرية من غيرهم، وذلك حيث إن كنيستهم موجودة فى مصر منذ عصر ما قبل الإسلام، عصر ما قبل الفتح الإسلامى.

إن كلمة أقباط تعنى مصريين، إذ إنها فى الأصل كانت اختصاراً للكلمة اليونانية إيجيبتوس، المأخوذة فى الأصل من العبارة المصرية القديمة حت كا بتاح، والتى تعنى منزل روح الإله بتاح. فيما بعد الفتح العربى، ستستعمل هذه الكلمة فقط للإشارة إلى المصريين الذين لم يتحوّلوا إلى الإسلام.، عند هذا الحد أصبح لهذه الكلمة مدلولها الدينى الحالى، فالأقباط الآن هم الأقلية المسيحية من المصريين الذين أبقوا على انتمائهم الدينى.

يستمر عدد من الأقباط فى دق وشم صليب أزرق صغير على رسغ اليد، عدا ذلك فإنهم لا يختلفون فى أى شىء عن مواطنيهم من المسلمين، ويشاركونهم كل مجالات الحياة. ثم إنك تجد الأقباط فى كل الطبقات الاجتماعية، من الأكثر فقراً إلى الأكثر غنى. وهم يتحدّثون باللغة العربية، حيث أن اللغة القبطية لم تعد، منذ مدة طويلة، تستعمل إلا فى الطقوس والشعائر.

فى أكتوبر ١٩٩٧، اصطحبت مجموعة من قرّاء جريدة لوموند الفرنسية، فى زيارة إلى الشيخ طنطاوى، شيخ الجامع الأزهر، الذى أكد لنا (إن كل المصريين متساوون). ثم دخلنا معه فى مناقشة قصيرة، فسألناه (أليس هناك قدر من التناقض، ولو على الأقل بشكل ظاهرى، بين هذه المساواة التى يؤكد عليها، وبين الحقيقة التى يؤكد عليها الدستور، من أن الإسلام هو دين الدولة؟). ظهر على وجهه اندهاش صادق، وقال (أنا لا أستطيع أن أفهم أين هى المشكلة، ففى مصر توجد أغلبية كبيرة من المسلمين، ولهذا فإن الإسلام هو دين الدولة، وفى فرنسا توجد أغلبية من المسيحيين، ولهذا فإن المسيحية هى دين الدولة فى فرنسا). لم نعترض. هل كان ينبغى علينا الاعتراض، والتأكيد على علمانية الجمهورية الفرنسية؟ والتأكيد على مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة؟ لكننا توقفنا عند هذا الحد.

إن عصر الاستشهاد، الذى اكتوى بناره أسلافهم، خلال الاحتلال الرومانى لمصر، ترك أثره واضحاً عليهم، حتى إنهم اتخذوه بداية لتقويمهم، الذى لا يبدأ بميلاد المسيح

كما فعل الغرب الأوروبى، وإنما يبدأ سنة ٢٨٤ ميلادية، وهو العام الذى تولى فيه الإمبراطور دقلديانوس سفاك الدماء، حكم الإمبراطورية البيزنطية، أى الإمبراطورية الرومانية الشرقية. ثم إنهم لم ينسوا كذلك الإهانات التى تعرضوا لها وكانوا ضحاياها، فى عصور لاحقة، تحت حكم الإسلام.

وهم يتذكرون بسعادة كبيرة، واحدة من أسعد لحظات تاريخهم الحديث، غداة الحرب العالمية الأولى، عندما طالب مسلمو ومسيحيو مصر معا باستقلال البلاد. كانت أياما حماسية، بقدر ما كانت محمومة ومضطربة، تحققت خلالها أسطورة، إلقاء القس سرجيوس خطبة فى بعض المساجد، وإلقاء بعض الشيوخ خطبهم فى بعض الكنائس. وخلال مظاهراتهم معًا ضد الاحتلال البريطانى، رأينا العلم المصرى، الذى كان يحمل فى ذلك الوقت شكل الهلال، وقد ظهر إلى جواره شكل الصليب. اليوم يشكو الأقباط من التمييز.

لماذا لا يحصلون على المناصب العليا، فى الإدارة والشرطة والجيش؟ ولماذا لا نجد منهم محافظا واحدا أو رئيس جامعة؟ ولماذا لا يدرس إلا القليل جداً من تاريخهم فى المناهج المدرسية؟ ولماذا يصطدم بناء الكنائس بكل هذا القدر من الصعوبات؟ ولماذا يكون الزواج بين المسلمة والمسيحى ممنوعًا فى حين أن العكس جائز؟ ورغم ذلك فقد حدث منذ العام ٢٠٠٠ تغير أسعد الأقباط، وهى إمكانية أن يقوم المدرسون المسيحيون بتدريس اللغة العربية، لغة القرآن، فى المدارس الثانوية.

إن الطائفة القبطية ممثلة تمثيلاً متواضعًا فى الحكومة، فخلال تلك السنوات الأخيرة، يشغل يوسف بطرس غالى، منصب وزير الاقتصاد، وتشغل نادية مكرم عبيد منصب وزيرة البيئة. هاتان الشخصيتان تنتميان، إلى أسرتين مسيحيتين كبيرتين، زودتا مصر دائماً برجال دولة. ثم هناك أحد زملاء دراستى السابقين، وقد أصبح رجل صناعة لامع، هو منير عبد النور، بالإضافة إلى أنه كان قد تم انتخابه عضواً فى مجلس الشعب، ثم أصبح الناطق الرسمى لحزب الوفد، أحد أحزاب المعارضة فى

مصر. ولكن من النادر أن ينشغل المسيحيون بأمور السياسة، فإنهم بدلا منها يختارون مجال الأعمال، مثل أعضاء أسرة ساويرس الأثرياء، أو أنهم يقررون أن يتميّزوا فى مهنهم كمهندسين ومحامين وأطباء وأساتذة جامعات.

الجديد فى الموضوع الآن أن عدداً من الأقباط يهاجرون إلى خارج البلاد، وبالتالى وجدت الكنيسة أنه يجب عليها أن تنظم المسألة، بتعيين بعض القسس فى البلاد التى يهاجر إليها الأقباط، وبإنشاء أماكن للعبادة، حتى إنه يوجد دير قبطى فى صحراء كاليفورنيا. وفى الولايات المتحدة الأمريكية بالذات، يكوِّن هؤلاء جماعات ضغط قوية ونشيطة، وأحياناً تكون قوية لدرجة إزعاج الحكومة المصرية أو إحراجها، أو إحراج بعض أعضاء الجالية من المصريين الآخرين.

وبمناسبة مأساة أحداث قرية الكشح فى صعيد مصر، يوم ٣١ ديسمبر ١٩٩٩ حيث توجد غالبية مسيحية، قامت مشاجرة بين مسيحيين ومسلمين، تحوّلت إلى معركة عنيفة، أدّت إلى مقتل ٢٢ شخصاً، كان من بينهم ٢١ قبطياً، ورغم أنه كان قد تم إلقاء القبض على المتسببين المفترضين فى هذا الحادث، وأدينوا فى محاكمة، إلا أن الأحكام الرحيمة التى حصلوا عليها، أثارت الكثير من الاحتجاجات.

أدت حادثة الكشح إلى إثارة موضوع شائك، ووضعه فى الصورة، رغم أنه محظور الحديث فيه أو الإشارة إليه. وخلال شهر رمضان بعد شهور قليلة، تمّ عرض مسلسل تلفزيونى يدور لأول مرة حول العلاقات بين عنصرى الأمة، عبر تاريخ أسرة، يختلط فيها هذان العنصران. ربما كان إنتاج هذا المسلسل، قد توفرت له النوايا الحسنة، إلا أنه أغضب الأقباط.

يبدو أن شرارة صغيرة تكون أحياناً كافية لإشعال حريق. حدث هذا فى يونيو ٢٠٠١، عندما قامت جريدة الأنباء المشهورة باهتمامها بالفضائح، بنشر ملف كامل بالصور، عن المغامرات الجنسية المزعومة، لأحد رهبان دير المحرّق المشلوحين، أى

المنزوع عنهم ثوب الرهبنة، وهذا الدير هو من أهم أديرة الصعيد ويقع إلى جوار أسيوط، وعلى الفور نزل الآلاف من الأقباط إلى الشوارع للتعبير عن غضبهم، وقد أدّت مصادمات لم يسبق لها مثيل، مع قوات الأمن المركزى، أمام كاتدرائية القاهرة بالعباسية، إلى وقوع عشرات الجرحى. حاولت الحكومة جاهدة تهدئة النفوس، مع البحث فى نفس الوقت عن جذور المسألة. أتساءل إن لم تكن تلك المسألة، من تدبير بعض المتطرفين الإسلاميين، لمهاجمة الدولة وإحراج الحكومة، التى كانت وزارة سياحتها فى هذا الوقت نفسه، تعلن عن برنامجها للاحتفال بذكرى مرور ٢٠٠٠ عام على رحلة العائلة المقدسة إلى مصر، والتى كان دير المحرّق هو محطتها الأخيرة.

انظر مقالات: بطرس غالى رقم (١٧)/ إسلام رقم (٦٨)/ رهبان رقم (٩١).

٢٩ - القطن / Coton

كانت شجيرة القطن معروفة فى مصر منذ العصر الرومانى. كتب المؤرخ بلين (هذا النبات صغير الحجم، ويحمل ثمرة قريبة الشبه بثمرة اللوز ذات الذقن، وبداخلها مادة مكتسية بزغب مخملى دقيق، يمكن تحويلها إلى خيوط، ليست هناك مادة أخرى تنتج أقمشة أفضل من حيث اللون الأبيض الشاهق والليونة). ومع ذلك فإن القطن المصرى لن يظهر فى الأسواق العالمية إلا مع بداية القرن ١٩، بفضل اكتشاف القطن طويل التيلة، أى قطن بألياف طويلة، الذى ندين به إلى العالم الفرنسى لويس ألكسيس چيميل الذى كان يعمل مديرا لأحد مصانع الغزل بمدينة آنس فى فرنسا، قبل أن يذهب إلى مصر سنة ١٨١٧، ليستقر على ضفاف نيلها، فى محاولة البحث عن عزاء من خيانة زوجته الشابة.

فى الحقيقة إن چيميل لم يكتشف شيئًا، كانت لديه فقط فكرة تحسين وتطوير إنتاج نوع معين من شجيرات القطن، تتميز بألياف أكثر طولا، من طول ألياف

شجيرات القطن البلدى، المعروفة والمستعملة حتى ذلك الوقت. كان نجاحه فورياً، ففى مارسيليا ومنذ سنة ١٨٢١، أصبح قطن چيميل يباع بأربعة أضعاف سعر أفضل الأقطان الموجودة فى الأسواق. ثم قرر محمد على نائب السلطان العثمانى، أن يزرع هذا القطن فى مصر، على مجال واسع، وتحت سيطرة الدولة. ولتحقيق هدفه انشغل فى أعمال توسيع المجارى المائية، وذلك حتى يتمكن من زيادة مساحة الأرض الزراعية القابلة للاستصلاح. هكذا أصبح القطن طويل التيلة المخصص للتصدير، عماد التجارة الخارجية المصرية، فى انتظار أن يأتى الوقت الذى ستصبح فيه صناعة الغزل والنسج الصناعة الأولى فى البلاد.

كانت الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦٠-١٨٦٥) نعمة على مصر، بما فرضته من حصار على القطن الأمريكى وقيود على تصديره، فبدأ التجار يتنازعون القطن المصرى، ذلك الذهب الأبيض الذى بلغت أسعاره أرقاماً فاحشة، وقد عرف ذلك القطن كيف يحتفظ بمكانته حتى بعد نهاية تلك الحرب، وهبوط الأسعار فى الأسواق إلى مستويات طبيعية. منذ ذلك الوقت يتربّع القطن على عرش المحاصيل الزراعية فى وادى النيل، وأصبح الناس فى مصر يقسمون به، وأصبح المضاربون فى سوق الأوراق المالية (البورصة) لا يهتمّون إلا به، وباتت قيمة الأرض الزراعية تعتمد على حجم غلتها من القطن، وأضحت الإدارة الزراعية للبلاد تدور كلها حول هذا المنتج المعجزة، مما أدّى فى بعض الأحيان إلى معاقبة غيره من المحاصيل لصالحه، وأدّى فى أحيان أخرى إلى فقد الاتزان الاقتصادى، وسينبغى لاحقا تحديد أقصى مساحة زراعية مسموح بزراعتها قطنا، حتى لا تموت البلاد من الجوع بسبب إهمال بقية المحاصيل الغذائية.

إن غياب المطر فى مصر، هو أحد العناصر المشجِّعة على زراعة القطن، لأن رى القطن بماء الترع، يسمح بالتحكم فى كمية الماء المطلوب وحساب الجرعة اللازمة له بدقة. إنه يبقى فى الأرض ثمانية أشهر، يكون خلالها محطّ اهتمام الجميع، فالكل

يراقب نموه طول الوقت، والكل يهتم به عن طريق العديد من العمليات الدقيقة. إن جنى القطن هو لحظة مهمة فى حياة المصريين، وقد وصفها الأب هنرى عيروط فى كتابه عن فلاحى مصر، الصادر فى أربعينيات القرن العشرين، حيث قال:

(فى الفترة بين نهاية أغسطس وبداية أكتوبر، تنقسم القرية كلها إلى فرق متعددة، تحت الإشراف المرهق لرئيس عمّال، وذلك استعدادا لجنى القطن، الذى يتم عن طريق نزع القطع القطنية البيضاء من شجيراتها بمهارة، وذلك مع استمرار الجميع فى الردّ على مقاطع الأغنية، التى تقود الغناء فيها مغنية محترفة؛ أى أن هذه هى مهنتها، الغناء فى مواسم الحصاد، ويلاحظ جميع العاملين عدم نسيان أو إهمال أية قطعة قطن، وكذلك عدم جلب أية أوراق خضراء.

وعندما يمتلىء الجيب، الذى صنعه العامل الزراعى جانى القطن، من جلابيته المرفوعة والمطويّة حتى مستوى وسطه، يذهب به لتفريغه فى منطقة تفريغ، تقع وسط الحقل، ثم يعود من جديد إلى صفه. ومن منطقة تفريغ القطن، يحمله تتابع لا ينقطع من الفلاحين، إلى مخازن مالك الأرض، أو إلى مخازن البنك، ومن هناك يذهب القطن على ظهور الجمال والحمير، إلى مصانع الحلج والكبس، حيث نجد عشرات الآلاف من العمال، من بينهم عدد كبير من الأطفال المجلوبين بواسطة سماسرة ومقاولى أنفار، يقومون كلهم بتهذيب وتشذيب القطن، وينظفونه وينزعون حبوبه، ثم يقذفون به إلى الآلات، ثم يخرجونه من الآلات، وسط كمية ضخمة من الغبار الذى لا يسمح بالتنفس).

إن دودة القطن تمثل وباء حقيقيًا، ومع الوقت تزداد قدرتها على مقاومة المبيدات الحشرية، مما قد يؤدّى إلى تلف المحصول فى قطعة أرض، لا يمكنها أن تزرع فى العام التالى قطنًا، وذلك لأن زراعة نفس قطعة الأرض بالقطن، فى عامين متتاليين، يرهق قطعة الأرض جداً. ومنذ أن ألغى ناصر بورصة القطن الشهيرة فى الإسكندرية، أصبح الذهب الأبيض احتكارًا للدولة، فهى التى تحدد أسعاره، وهى التى تفرض على

كل مزارع أن يزوّدها بكمية محددة منه، فإذا تمكن الفلاح من زراعة وإنتاج كمية أكبر من القطن، عن تلك الكمية التى يسلمها إلى الدولة، فإنه يميل إلى إخفاء الكميّة الزائدة، إما لبيعها فى السوق السوداء، أو لتظل فى مخزنه حتى العام التالى.

تحدّد الحكومة المصرية كل عام، أنواع وكميّات القطن التى ينبغى إنتاجها، على ضوء الطلب فى الأسواق العالمية، وبالتالى ففى مساحة النصف مليون هكتار المخصصة لزراعة القطن كل عام (الهكتار يساوى عشرة آلاف متراً مربعًا، والفدان ٤٤٢٠ متراً مربعًا)، فى هذه المساحة لا يشغل نوع القطن المعروف باسم جيزة ٤٥، إلا حيّزاً ضئيلا، وذلك لأن سعره مرتفع، إذ إنه أفضل أنواع القطن على الإطلاق، أى أنه النوع الذى يجمع بين كل مزايا بقية الأنواع، أليافه طويلة، مخمليّة ناعمة الملمس، وبيضاء تماماً بدون أية شوائب، إنه تحفة حقيقية.

انظر مقال: الفلاح رقم (٤٩).

٣٠ - التمساح / Crocodile

من العبث أن تنتظر، ظهور هذا الحيوان من فصيلة الزواحف، الآن على ضفاف النيل، حيت اعتاد على النوم نهاراً فى ضوء الشمس، فلقد اختفى منذ وقت طويل جداً، بعد أن كانوا يصطادونه دائماً، ويدفعونه دائماً إلى الهروب، متخذاً اتجاه الجنوب. إنه لم يعد يظهر حتى فى صور النوبة، تلك الصور الفوتوغرافية التى كان رحّالة الجنوب يحرصون على التقاطها معه، وهم يشعرون بسعادة بالغة. قد تقابل الآن بعض التماسيح الأخيرة، فوق الأراضى المصرية، فقط فى مياه بحيرة ناصر، التى لا يسكنها أحد، باستثناء بعض صيّادى الأسماك، الذين ما زالوا يحتفظون ببعض علاقات الجيرة الطيبة مع التماسيح.

هذا الحيوان المخيف الذى يمكن أن يبلغ طوله ستة أمتار، يكون ويا للعجب صغير الحجم جداً عند مولده، وبالتالى فإن طريقته فى التغذية تتغير مع تضخم حجمه، فهو يبدأ أولاً بأكل الحشرات وهو صغير، ثم يأكل بعد ذلك الأسماك، ثم يصل إلى مرحلة أكل الثدييات الكبيرة مثل الحمير أو الجاموس. هو يتمكن من أكل إنسان بالغ كاملاً بسهولة، إذا شعر أن هذا الإنسان قد يهدده. حتى وقت قريب كان النوبيون يعتادون قتله، للمتاجرة بجلده ولأكل لحمه، خاصة لحم الذيل الذى كان يعتبر أفضل أنواع اللحوم بالنسبة إليهم بالإضافة إلى استخراج مادة من غدد فى فكه، كانوا يصنعون منها رائحة عطرية.

ومع ذلك فإن تمساح النيل المخيف هذا أبٌ طيب، فهو لا يحتفظ إلا بزوجة واحدة، يتعاون معها عند إنجاب الأولاد، فنراه يساعدها بنفسه فى تحطيم طبقة البيض الجيرية لمساعدة الصغار على الخروج. وهو كذلك حيوانٌ اجتماعى، إذ يتعاون مع زملائه وأخوانه من التماسيح، لمساعدتهم فى نقل جثث الحيوانات الضخمة.

أما قدماء المصريون، فإنهم كانوا أحيانًا يعتبرونه كائنًا شريرًا، وأحيانًا أخرى يعتبرونه إلاهًا خيّرا. يذكر هيرودوت [مؤرّخ من القرن الخامس ق. م.]، أنه لإيقاع التمساح فى الأسر، فإنهم كانوا يعلقون قطعة من لحم الخنزير فى صنارة، وبالتالى ينجذب اهتمام التمساح إليها، ويكونون قد أحضروا خنزيراً صغيراً يجعلونه يصرخ، حتى يصدّق التمساح الحيلة. عندما يأسرونه ويرفعونه إلى ضفة النهر، يقذفون بالطين على عينيه حتى لا يتمكن من الرؤية، ويسهل تكبيله.

أما فى منطقة بحيرة موريس (قارون) بالفيوم، فإن التمساح كان يعتبر إلاهًا مقدسًا، فهو يخرج فجأة من بين الأمواج والأحراش، مثلما تبزغ الشمس فجأة من بين الغيوم. كان هناك طقس يمارس فى معبد الإله التمساح فى الفيوم، فهم يبدؤون أولا باختيار أحد التماسيح، ثم ينجحون فى ترويضه، أى فى أن يظل مستأنسًا، ثم يضعون على جسمه بعض الحلىّ، مثل الأقراط فى أذنيه، والأساور حول أطرافه الأربعة، ثم

يدربّونه على المشاركة فى الطقوس. كان كهنة معبده يرددون حوله بالغناء والترنيم (تحية لك أيها التمساح سوبك/ أنت رع وأنت حورس وأنت كل إله قوى/ تحية لك يا من رفعت نفسك من المياه الأزلية/ الكائن الذكرى العظيم/ ثور الثيران/ سيّد مصر حورس/ سيّد الجزر الطافية/.....). عند موته كان يتم تحنيطه.

٣١ - داليدا / Dalida

فى بداية ستينيات القرن العشرين، أصبحت داليدا هى المغنية المفضلة لدى الجمهور الفرنسى، ولم يكن أحد يعرف إذا كان الجمهور المصرى قد أحبها، وماذا كانت تعنى له؟ أذكر إن أغنياتها مثل بامبينو أو بورتوفينو أو جوندوليبه، التى كانت تغنّيها بصوتها ذاك الذى يصعب تقليده، كانت تبعث بموجات من الدفء فى الأبدان، بالإضافة إلى لكنتها المصرية فى نطق اللغة الفرنسية، التى كانت تصيب مذياعى النقال (ترانزيستور) بالجنون، نعم كانت لكنتها مصرية وليست كما ادعوا لكنة إيطالية. لم نكن فى تلك السنوات المبكرة نتوقف عن طلب أغنياتها من المحطات الإذاعية، خاصة فى برنامج (ركن المستمعين)، صباح الأحد فى البرنامج الفرنسى بإذاعة القاهرة.

وأورلاندو! من منكم ما زال يتذكره؟ كان هذا هو اسم الشهرة لأخيها الشقيق، الذى كان يغنى هو الآخر، الذى غنى (يا مصطفى) بالفرانكو آراب، فى نسخة كانت أكثر تأثيراً على الشباب، وأكثر تعبيراً عن اللون المحلّى، من نسخة بوب عزّام (وهو كذلك أحد قدامى المصريين)، التى اشتهرت جداً بعد ذلك. لكن لم يعد أحد يهتم الآن كثيراً بمثل تلك التفاصيل.

داليدا، واسمها الأصلى يولاندا چيليوتى، مولودة فى مصر سنة ١٩٣٣ من أبوين إيطاليين، وكان والدها قد جاء من إيطاليا ليعمل عازف كمان فى أوبرا القاهرة، وأقام

فى أحد أحياء القاهرة الشعبية، وهو حى شبرا. أما هى فعملت منذ سن الخامسة عشرة فى محل لخياطة الملابس النسائية، ولم تكن قد حصلت إلا على ما يساوى الآن الشهادة الإعدادية، ولكنها استطاعت سنة ١٩٥٤، أن تحصل على لقب ملكة جمال مصر، وكانت فى الحادية والعشرين من عمرها، وذلك رغم وجود حول خفيف فى عينيها قد يبدو أحيانًا فى نظرتها. قدّمت لها بعض الأدوار الصغيرة فى السينما، فى أفلام متواضعة المستوى يستحسن أن ننساها، وكان اسمها الفنى فى ذلك الوقت هو دليلة، ولكن هذه الزهرة الباسقة لم تتفتح إلا فى باريس، حين عرفت باسم داليدا.

كان لقاؤها مع لوسيان موريس مصيريًا، إذ كان يشغل فى ذلك الوقت منصب المدير الفنى لقناة أوروبا واحد، بمساعدة لوسيان وإيدى باركلى [موسيقى] تحولت إلى نجمة غناء. لم تكن أغنيتها بامبينو إلا بداية سلسلة طويلة من النجاحات المتصلة، ومع تراكم أسطواناتها الذهبية [وهى التى بيعت من كل منها أكثر من مليون نسخة]، أصبحت داليدا تغنى وترقص بشكل أفضل.

سنة ١٩٧٦، تقرر داليدا أن تعود فى زيارة إلى بلدها مصر لأول مرة، وكانت فى قمّة مجدها الفنى. قدّمت حفلات غنائية فى مصر، غنت فيها (سالمة يا سلامة روحنا وجينا بالسلامة)، فاهتزت لها كل الجماهير العربية. فى ١٩ نوفمبر من العام التالى، عندما تهبط طائرة أنور السادات فى مطار بن جوريون بإسرائيل، لم يجد مستقبلوه أفضل من (سالمة يا سلامة) ليستقبلوه بها. تذهب داليدا إلى أبعد من ذلك، فى رحلة البحث عن جذورها ومنابعها الأولى، عندما تعود مرة ثانية سنة ١٩٨٦، وإذا بها تلعب دور فلاحة مصرية، فى فيلم (اليوم السادس) ليوسف شاهين، المأخوذ من رواية لأندريه شديد (مصرية أخرى تقيم فى باريس). أدت الدور بلكنة أوروبية خفيفة، أفقدتها جزءًا من مصداقيتها. وقبل أن تغادر مصر للمرة الأخيرة، تذهب إلى شبرا فى سيارة مكشوفة، فيستقبلها الناس بحفاوة كبيرة.

نحن نعرف أن داليدا كانت تمر بمرحلة من الإحباطات العاطفية، كما أن قصص انتحار بعض عشاقها السابقين هي أيضًا معروفة، ولكن من منا كان يستطيع أن يتخيل أن تلك الإيطاليــة الجميـــلة، المغمـــورة بالمجد والثروة، والمنتمية إلى طبقـة حكام باريس، كانت تشعر باليأس والتعاسة إلى حد الانتحار؟ أنهت داليدا حياتها فى الرابعة والخمسين من عمرها، يوم ٣ مايو ١٩٨٧، بابتلاع كمية من الأقراص المهدّئة، بعد أن كانت قد تركت رسالة أخيرة إلى محبّيها: (أصبحت الحياة لا تطاق، سامحونى).

سامحها الجمهور ولم ينسها أبدًا، فأوصل مبيعات أغانيها إلى ١٢٠ مليون أسطوانة، وتستمر محطات الإذاعة فى العالم أجمع، بناء على رغبة الجماهير فى إذاعتها بشكل مستمر، على موجاتها المختلفة، وبسبع لغات مختلفة. نلاحظ الآن كيف أنها كانت قد مرّت بكل أساليب الغناء الحديثة، وبنفس القدر من النجاح، من التويست إلى الديسكو، والآن تستعمل أغانيها مع موجة التكنو. وفى مونمارتر حيث كان منزلها الباريسى، هناك الآن ميدان يحمل اسمها. وقد تفعل القاهرة مدينة مولدها يوما ما نفس الشىء، فالوقت لم يتأخر بعد.

انظر مقالات: الفرانكوفونية رقم (٥٦)/ الإيطاليون رقم (٧٠).

٣٢ - الرقص الشرقى (بالفرنسية رقص البطن) / Danse du ventre

لماذا البطن فقط إذا كان الذى يرقص هو الجسم كله؟ هكذا تتساءل المتخصصات فى هذا الفن، المولود على ضفاف النيل منذ زمن بعيد، وذلك لأننا فى مصر لا نستعمل مصطلح رقص البطن، بل نستعمل مصطلح الرقص الشرقى لأن رقص البطن يختزل الجسم كله فى هذا الجزء من الجسم وحده. كان بعض الرحالة الأوروبيين فى القرن التاسع عشر المسئولين عن نشر مصطلح هز البطن فى أوروبا، بعد أن كانوا قد جاؤوا

إلى مصر فى الوقت الذى كانت فيه الراقصات ببطون عارية، مما ألهب عيون ومشاعر الرحالة الأوروبيين، خاصة أن الراقصات كن مستعدات لارتكاب أى حماقات مقابل نقود قليلة.

كانت الراقصة المخضرمة تحصل على لقب (العالمة)، وهى كلمة مشتقة من نفس جذر الكلمة التى تعنى العلم والمعرفة، وقد أدّى الشبق ببعض الرحالة إلى الاعتقاد، بأن المقصود هو أنهن عالمات فى فنون الغواية والإغراء، ولكن الأغلب هو أن الكلمة تعنى أن الراقصة الخبيرة، قادرة على تلقين الراقصات المبتدئات، فنون الرقص وأسرار المهنة.

فى سنة ١٨٩٨ أصدر أدوار شيريه كتابه (محاريب الشرق)، الذى أدان فيه (هذه الظاهرة المرضية، التى يمارسها نوع بشرى منحل ومتفسّخ الأخلاق)، هذه هى كلماته التى وصف بها الرقص الشرقى، ثم يضيف (إن هذا الرقص هو صورة مخيفة لتصدّع الشخصية البشرية، التى تتحكم فيها غرائزها)، ثم يبدأ بعد ذلك ويا للعجب، فى تصوير دقيق مفصّل لما تقوم به الراقصة، مما يمكن اعتباره بمثابة إغواء للقارئ:

(إنها تقف مستقيمة الجسد، وتبدأ فى تحريك أجزاء هذا الجسد، الرأس والصدر والذراعين والحوض والخاصرتين والردفين، كل جزء على حدة، يتحرك كل جزء وحده بشكل غريب، وكأنه قد انفصل عن غيره من الأجزاء، فأولاً يتحرّك الرأس وحده أفقيا بطريقة شبه آلية، حركة سريعة إلى اليمين وإلى اليسار، مثل رأس ثعبان يستيقظ من النوم، ثم ثانيًا يتحرك الثديان وحدهما، إذ تدبّ فيهما نفس الحركة الاهتزازية الارتعاشية، بدون أن يهتز باقى الجسم، لنصل بعد ذلك إلى الخاصرتين والردفين، وهى الأجزاء التى تتحرّك بنوع من الحركة لا يمكن تسميته اهتزازًا أو ارتعاشًا، وإنما هو أقرب إلى الارتجاف، كما لو كان الجسد، بسبب الإصابة بالبرد، ترتجف عضلاته

لا إراديا لتعيد إلى الجسد حرارته المفقودة، ثم تنتهى الرقصة بحركات دائرية للمؤخرة).

ذهبت اليوم إلى ملهى ليلى قاهرى، ملهى من ملاهى الدرجة الثانية وسط البلد بالقرب من شارع قصر النيل، حيث وجدت ثمانية موسيقيين رجال، يقومون بإصدار مجموعة من الأصوات غير الموسيقية، التى بسبب شدتها يمكن أن يُصاب الإنسان بالصمم، وكان عدد الزبائن فى الملهى بالكاد هو نفس عدد الموسيقيين، وكل الزبائن من الذكور. ظهرت فجأة أول راقصة، وتمكنت فوراً من أن تلمح أهم زبائن الليلة، اثنين من الفلاحين الأثرياء، اللذين كانا جالسين إلى إحدى الموائد، يشربان زجاجتى كوكاكولا، وإذا بها تقترب منهما فى دلال وغنج، وهى مادة ذراعيها باسطة أصابع يديها، جاعلة ثوبها الملتصق بجسدها، يتموّج كل سنتيمتر منه مع أجزاء جسدها.

وإذا بأحدهما يعطيها ورقة نقدية، وإذا بالآخر الأكثر جرأة، يضع لها ورقة نقدية أخرى فى مشد صدرها، تسألهما الفنانة (انتوا منين؟)، فنعرف أنهما من منطقة بالقرب من أسيوط، وفى الحال يعزف الموسيقيون مقطوعة تحيّة للأسايطة، فيعيد أحد الرجلين فتح حافظة نقوده، ليعطيها ورقة نقدية أخرى، فإذا بها تقوده من جلبابه إلى حلبة الرقص، حيث بدأ يهتز فى تثاقل. عندما تترك هذه الراقصة مكانها لإحدى زميلاتها، يترك الزبونان الطيبان مكانهما بدورهما، آملين لا شك فى استئناف هذا التمرين الفنى على الرقص بطريقة أكثر خصوصية.

إلا أن ملكات الرقص الشرقى لا يرقصن فى مثل هذه الأماكن، وإنما ينبغى الذهاب للبحث عنهن فى الملاهى الليلية الفخمة، أو فى فنادق الخمسة نجوم. الراقصة تعرّى أجزاء من جسمها بشكل أو بآخر، وتغطى أجزاء أخرى ببريق الترتر الذهبى المتناثر. ولكل راقصة أسلوبها الخاص، وذلك لأنه رغم وجود قواعد خاصة بهذا الرقص، فهو يفترض فى الراقصة القدرة على الابتكار، بل وأحيانًا القدرة على

الارتجال. إن أشهر الراقصات هن فيفي عبده ولوسي ودينا، وهن يمثلن الجيل التالي على جيل نجوى فؤاد وزيزي مصطفى وسهير زكي، وهو الجيل الذي كان قد حمل الشعلة بعد الراقصتين الشهيرتين تحيّة كاريوكا وسامية جمال.

كانت تحية، بدون أدنى شك أو اعتراض، هي نجمة الثلاثينيات والأربعينيات، وكانت ذات جمال ورشاقة لا مثيل لهما، إلا أنها في نهاية حياتها كانت لها آراء قاسية في مسألة تطوّر الرقص الشرقي، إذ قالت (إنه لم يعد رقصًا، بل إن الراقصة تتلوّى بسبب إصابتها بالمغص). ويمكن قياس الأزمة الحالية بالأرقام، فإن عدد الراقصات الشرقيات المسجلات حاليا سنة ٢٠٠٠، هو ٢٣٠٠ راقصة، في حين أن هذا العدد سنة ١٩٩٠ كان ٥٢٠٠ راقصة. ثم إن ثلث اللائي يمارسن هذه المهنة حاليا لسن مصريات، وإنما هن من روسيا أو من أمريكا اللاتينية، أو من بلاد أخرى، وهذا الوضع ليس غريبًا في الوقت الحالي، بسبب الضغط الإسلامي. إن فنانات كثيرات قبلن ترك هذا الفن، إما بسبب تعرضهن للتهديد بالعقاب، أو مقابل الحصول على مبلغ من المال يسمح بالاعتزال، ثم ظهر بعضهن بعد ذلك بالحجاب، كما أن أولئك اللائي يستمر عملهن كراقصات، يزداد ميلهن أكثر من قبل، إلى تغطية المزيد من أجسامهن، بقماش على شكل شبكة.

إلا إن الفتوى بتكفير الممارسات لهذا الفن، لا يمكن أن تلغيه من الوجود، فهو من الفنون التقليدية المتغلغلة في الطبيعة المصرية، فالطفلة الصغيرة منذ أن تتعلم المشي، تبدأ في تحريك جسمها على إيقاع تصفيق والديها، لكن طبعًا هذه مسألة أخرى، أن يتحول هذا الرقص المنزلي إلى مهنة، فحتى لو أن النظرة إلى الرقص قد تغيرت، وأننا نعتبره الآن نوعا من الفنون، إلا أن الناس ما زالوا يميلون إلى الاعتقاد في مسألة، أن الراقصة هي امرأة سهلة مشكوك في فضيلتها. ورغم لعنات المتأسلمين، فإن الراقصات ما زلن يُدْعَوْن إلى الرقص في حفلات الزفاف، لإضافة لمسات من المرح

والسعادة، ويقال كذلك لإثارة حماس وحميّة العريس قبل ليلة الدخلة، وما زالت عادة وضع العريسيْن لأيديهما على بطن الراقصة، طقسا رمزيا قد يحصلان به على الخصوبة المطلوبة.

٣٣ - سكان مصر / Démographie

فى روايتى (الطربوش)، كان إدمون توتا مصابًا بصداع فى رأسه إلى درجة الخبل، إذ لم يكن فى رأسه ذاك إلا هاجسًا واحدًا، منذ بداية ثلاثينات القرن العشرين، ألا وهو أن زيادة عدد سكان شعب مصر بمعدّلاتها السنوية المعروفة، كانت حرفيًا تجعله يشعر بالرعب، إلى درجة أنه كان معتادًا على الذهاب، ولو مرة كل سنة، إلى مدخل كوبرى قصر النيل بالقاهرة، ليحصى بنفسه،إذ لم تكن لديه ثقة فى الإحصاءات الرسمية، عدد الأشخاص الذين يعبرونه. رغم كل شىء فإن العزيز إدمون لم يكن مجنونًا تمامًا إلى هذه الدرجة، بل يمكن لنا حتى أن نقول أنه كان يسبق عصره.

خلال قرون طويلة لم يكن من السهل إحصاء عدد السكان فى وادى النيل، خاصة أن الفلاحين، والذين كانوا يمثلون غالبية السكان، كانوا يخافون من الإفصاح عن الحجم الحقيقى لعائلاتهم، إما بسبب خوفهم من الضرائب، أو من التجنيد الإجبارى، أو من العمل فى السخرة، أو .... خوفًا من الحسد.

حتى علماء حملة بونابارت، رغم أنهم كانوا فى منتهى الدقة فى مسائل أخرى، فإنهم فى مسألة تعداد سكان مصر، كانوا قد وقعوا فى بعض الأخطاء الحسابية، وذلك لأن رقم مليونين ونصف مليون من السكان، والذى برر به علماء الحملة قولهم، أن مصر ليس لديها العدد الكافى من الأيدى العاملة، اللازمة لاستثمار ثرواتها الكامنة، وهو الرقم الذى يحتفظ لنا به كتاب (وصف مصر)، كان أقل بكثير من الرقم الحقيقى،

الذى كان أقرب فى ذلك الوقت إلى رقم ٤ مليون، وهو الرقم شبه الثابت منذ العصور القديمة، وذلك لتعادل التأثير السلبى للمجاعات والأوبئة وارتفاع وفيات الأطفال من جهة، مع التأثير الإيجابى لزيادة المواليد من جهة أخرى.

إلا أن النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وبعد الحملات الأولى للتطعيم ضد الأمراض الوبائية، يشهد تغير شكل منحنى عدد سكان مصر، وذلك لانخفاض وفيات الأطفال، واستمرار ارتفاع معدل المواليد، مما سمح لمصر بالوصول إلى رقم ١٠ مليون نسمة سنة ١٩٠٠ . ومنذ ذلك الوقت يتسارع النمو السكانى جداً، ليصل عدد السكان إلى ١٨ مليون نسمة سنة ١٩٤٧، ثم إلى ٢٢ مليون نسمة سنة ١٩٥٤، ثم إلى أكثر من ٧٠ مليون نسمة سنة ٢٠٠١ .

إلا أنه يمكن القول أن مصر فى نفس الوقت هى خالية من السكان ومزدحمة بالسكان، وذلك لأن شعبها يتركز تقريباً بالكامل، فى دلتا النيل ووداديه، وهو ما يمثل بالكاد ٥٪ من مساحة مصر الكلية. وهناك كذلك حقيقة أن هذا البلد عجوز جداً وشاب جداً فى نفس الوقت، وذلك لأن ثلثى سكانه تحت سن الثلاثين. وعن الشكل الهرمى للفئات السنية فى الشعب المصرى، والذى كان يمكننا أن نقول عنه أنه أكثر أهرامات مصر اكتمالاً وإحكامًا، فإن هذا الكلام لم يعد حقيقياً، وذلك لأن القاعدة تتآكل، بقدر تباطؤ معدّل النمو السكانى الحالى، الذى يبلغ حالياً (سنة ٢٠٠١)، ٢,١ بالمائة سنوياً، وقد انخفض متوسط عدد الأطفال المولودين لكل امرأة فى سن الإنجاب، من ٥,٠٦ مولود لكل امرأة سنة ١٩٨٠، إلى ٣,٠٣ مولود لكل امرأة سنة ٢٠٠٠ وإن كان كل هذا لا يمنع من القول بأن العدد الكلى للسكان فى مصر، فى زيادة مستمرة تقدّر بحوالى ١,٣ مليوناً كل عام، وأن هذا المعدّل سيصل بسكان مصر إلى ١٢٣ مليوناً سنة ٢٠٢٩ .

إن تنظيم الأسرة الاختيارى، والذى تأسس بمساندة متأخرة ومحدودة من السلطات الدينية، لا يعطى دائمًا النتائج المرجوّة منه. بالإضافة إلى أن الحملات

الإعلامية الضخمة، عبر وسائل الإعلام المختلفة، يكون تأثيرها أقل من التأثير الذى يلعبه الكلام المنقول من فم إلى فم، لشخص يتنقل من باب إلى باب. إن الفضل يعود بشكل خاص إلى المقابلات الشخصية، فى زيادة عدد السيدات المستعملات لوسائل منع الحمل إلى الضعف، خلال الخمسة عشر عامًا الأخيرة من القرن المنصرم. فاليوم نصف السيدات المصريات فى سن الإنجاب، أى فى المرحلة السنية بين ١٨ سنة و٤٥ سنة، يلجأن إلى استعمال وسائل منع الحمل، إما الحبوب أو الوسائل الميكانيكية مثل اللوالب.

ولكن منع الحمل يظل مسألة نسائية، فإن كل العبء يقع على النساء، وكل المسئولية هى من نصيبهن وحدهن لأن الرجال عامة لا يريدون أن يعرفوا، ويغضبون عادة عندما يعرفون مثلا، بتدخل مستشارة شئون أسرة فى مشاكلهم مع زوجاتهم، أو بوجود طبيبة توليد فى منازلهم. فى القرى لا تزال المولدات الشعبيات (الدايات/القابلات) هنّ صاحبات النفوذ الأقوى فيما يتعلق بالشئون الإنجابية، ولذلك تحاول السلطات الصحية، بدلاً من الصراع معهن، أن تتعاون معهن فى تطبيق سياسة التقليل من المواليد، وكذلك قدر الإمكان فى محاولة تجنّب الحوادث المحزنة، التى تقع أثناء الوضع، حين تتعرض مصريات كثيراًت للموت.

فى الدلتا منذ بضع سنوات، وبفضل اليونيسيف [المنظمة الدولية لرعاية الطفولة]، تمكنت من لقاء بعض الدايات، وكانت السلطات الصحية فى ذلك الوقت قد قررت أن يصبحن موظفات صحيّات، وتمّ التوصل معهن إلى اتفاق، فبدلا من العمل غير القانونى، ومن التعرض لمتاعب جمّة، حصلت القابلات على دورات تدريبية، وعلى شهادات دبلوم، وكذلك على حقائب صغيرة بها كل المستلزمات الضرورية لممارسة المهنة. كانت تلك الدورات التدريبية لمدة عشرة أيام هى الصيغة المناسبة لسيدات كنّ فى بعض الأحيان أميّات تمامًا، مع تسليمهن فى نهاية الدورة كتابًا ليس به إلا الصور

الملونة، أما التطبيق العملى فى الحصص فكان على تماثيل مصنوعة من البلاستيك لجسم المرأة، يمكن فك أعضائها وإعادة تركيبها، وقد تمت هذه التمارين العملية فى وجود طبيبة أو مولدة مؤهلة علميا.

هكذا تعلمت الدايات الشعبيات، فى زمن قياسى، عدم الخوف من الأجهزة الرسمية، وعدم اعتبار الطب الحكومى منافسًا لهن. وقد تعلمن كذلك أنه يمكنهن، فى حالات الطوارىء، وفى الولادات العسرة، أن يتصلن تلفونيًا بأقرب عيادة طبية. وبكل هذه التسهيلات والتحسينات فى وضعهن، زادت سلطتهن لدى العائلات اللائى يترددّن عليها، وكذلك زادت دخولهن. وقد يدفع لهن نقدا، وإن استمرت بعض العائلات الريفية كذلك فى الدفع عينا، أى الدفع فى صورة هدايا عينية. وهكذا فعلى امتداد العام تحصل الداية على نصيبها من منتجات الحقول، فمع حصاد الأرز مثلا، تحصل على نصيبها منه، وغنى عن القول أن ما تحصل عليه الداية يكون أكثر، لو كان المولود ذكرا.

أخيرا فإن التحكم فى عدد المواليد، لا يمنع من الاهتمام بتطوير الوسائل العلمية الجديدة للتغلب على العقم، وهكذا فإن التلقيح الخارجى يمارس فى مصر منذ ١٩٨٥، ويلقى استحسانا متزايدا. وكانت الدكتورة رجاء منصور هى صاحبة المبادرة فى مصر، بعد حصولها على الدراسات اللازمة فى الولايات المتحدة الأمريكية، وافتتاحها لمركزها الطبى فى حىّ المعادى ويشغل هناك بناية مستقلة بأكملها. كانت العقبة الوحيدة التى واجهتها، هى الحصول على تصريح أو فتوى من السلطات الدينية، بممارسة هذا التلقيح الخارجى، ولكن بشرط أن تأتى الحيوانات المنوية المستعملة، من زوج السيدة التى تستعملها.

انظر مقالات: مدينة الموتى رقم (٢٥)/ المدن الجديدة رقم (١٤٢).

٣٤ - الصحراء / Désert

عندما تنظر إلى خريطة مصر الجغرافية، أو تنظر إليها وأنت فى طائرة تعبر الأجواء المصرية، يكون شكل مصر ببساطة هو عبارة عن شريط رفيع من اللون الأخضر، يجرى من الجنوب فى اتجاه الشمال، بين بحرين شاسعين من الرمال إلى الشرق وإلى الغرب من الشريط الأخضر. فى المدرسة كنا نرسمها بثلاثة ألوان، الأخضر لنهر النيل والأرض الزراعية، الأصفر للصحراء، والأزرق للبحرين، رغم ما كان يقال لنا من أن أحد البحرين أحمر اللون.

ولكنى أعتقد الآن أن الدقة كانت تقتضى، إضافة بعض اللون البنى، فى صحراء سيناء، لرسم جبال سيناء، وكذلك وضع بعض البقع الداكنة فى الصحراء الغربية، فهذه الصحراء ليست مسطحة تمامًا كما كنا نعتقد، وإنما هى عبارة عن مساحة شاسعة بها ارتفاعات تتراوح بين ٢٠٠ مترًا و٣٠٠ مترًا فوق مستوى سطح البحر، ولكنها متدرّجة فى الارتفاع كلما بعدنا عن البحر المتوسط، وهى على درجة قصوى من الجفاف والقحط، باستثناء بعض الواحات. أما الصحراء الشرقية فتتمتع بقدر أكبر من الماء والإرواء، وكذلك بقدر أكبر من المناطق الجبلية الناتئة، وبها بعض الوديان المحددة الملامح، التى تقع بين جبال قد يرتفع بعضها إلى ٢٠٠٠ متر.

ها هو ذا إذن بلد يتركز حول نهره، وتحميه صحراوات شاسعة، فاصلة إيّاه عن العالم الخارجى. إن هذا الوضع الجغرافى المتفرّد، يفسّر لنا النزعة الدائمة لدى المصريين إلى الاكتفاء الذاتى، بل الانطواء على النفس. مع ذلك لنكن حريصين على ألا نعطى لجغرافية البلد، أهمية أكبر مما تستحقه، عندما ننسى أن هذه الصحراء كانت أقلّ جفافًا ويبوسة منذ ٣٠٠٠ عام، فحتى نهاية عصر الدولة الحديثة فى مصر القديمة (١٥٧٠ق.م -١٠٥٠ق.م)، كنا نصطاد فيها الأسود. الواقع أن وادى النيل قد حوصر

الآن بالصحراء، فى حركة كمّاشة إلى حد الاختناق، بين الصحراء شرق النيل، والصحراء غرب النيل، والصحراء بالنسبة للمصريين هى عالم عدائى.

فى مصر القديمة جسّد الإله ست الأرض الحمراء (الصحراوية)، وهو إله مخيف كريه، كان قد شن حربه على أخيه وضحيته أوزوريس، الذى كان يجسّد الأرض السوداء (الزراعية التى يغمرها طمى النيل). فى الصحراء تخيّل المصرى القديم، وجود كل أشكال الوحوش الخيالية والكائنات المخيفة، وكذلك تخيل وجود الوحوش الحقيقية ممتزجة ببعض الآلهة، التى تمّ اختيارها بدقة، فهناك الإله أنوبيس برأس كلب، وحورس برأس صقر، وسخمت برأس أنثى الأسد.

وحتى يومنا الحاضر، عندما يبتعد الفلاح المصرى عن أرضه السمراء الخصبة، يعلن لذويه أنه سيصعد (حاطلع) إلى الصحراء، التى يسميها الجبل، والبدوى الذى يعيش فى الصحراء يذكر أنه سينزل إلى الوادى. ومنذ عقود طويلة تعلم بدو الصحراء، الاستقرار تدريجيا فى وادى النيل، وذلك بسبب أن القوافل التجارية، مصدر رزقهم، قد توقفت. إن البدو الرحّل الحقيقيين، الذين ما زالوا يسكنون الصحراء، لا يتعدّى عددهم بضعة آلاف، أما الأغلبية منهم فقد فضلوا السيارة نصف النقل اليابانية الصغيرة على الجمل، والمنزل المبنى بالطوب والأسمنت على الخيمة. ورغم احتفاظهم بقدر من عاداتهم وتقاليدهم، إلا أنهم يتحوّلون تدريجيًا إلى زراعة الأرض، أو حتى إلى قبول العمل فى بعض المهن بمرتبات شهرية.

ولكن وادى النيل لم يكن أبدًا بمعزل عن الصحراء، فهو يحمل فى كل مكان أثرها، فانظروا مثلاً إلى تلك السماء المشبّعة بالأتربة، وإلى تلك البنايات القاهرية التى تكسوها طبقة من الرمال. هنا نحن نشعر بالوجود الدائم للصحراء القريبة، الصحراء التى تهدّد بالاجتياح. إنها صحراء خاوية تلك التى كتب عنها بيار لوتى(*) [مؤلف فرنسى] محتفيًا بها إذ يقول (أنت تعبر الصحراء فلا ترى إلا القفر بعد القفر، والخواء بعد الخواء، تعدّ أذنيك لتسمع ولو حتى صوت الصمت فلا تسمعه، ولا حتى أغنية

عصفور، ولا حتى طنين ذبابة، وذلك لأنه لا توجد هنا أية حياة على الإطلاق فى أى مكان). من كتابه (الصحراء) طبعة ١٨٩٥ .

لم يشعر الكاتب الرحالة بيار لوتى إلا بصفع الرياح القوية لوجهه، رياح لم ير لها مثيلاً إذ يقول (إنها رياح قوية تلك التى تمر عبر القفار، إنها كما لو كانت تدفعنا، لنتقدّم جرياً بعيداً إلى الأمام، كما لو أننا أسكرتنا خمر هذا الخواء حتى الانتشاء). من كتاب (المذكرات الخاصة). لكن هل هذه الصحراء خاوية فعلاً إلى هذا الحد؟ على أى الأحوال أنا لا أنصح بقول هذا الكلام، أمام عشاق الصحراء، أولئك الذين يقطعونها طيلة الوقت، جيئة وذهاباً بلا كلل أو ملل، الذين يقومون بعمل اكتشافات جديدة فى كل رحلة جديدة، فهم يتحدّثون معك عن أغانى التلال الرملية، الكائنة فى بحر الرمال العظيم، تلك الأغانى التى تصدر عن التلال، أحياناً بأصوات حادة، لتردّ عليها أصوات أخرى غليظة غامضة، كما لو كانت تلك التلال تبث شكواها المؤلمة إلى بحر الرمال، فيرد عليها إما مواسياً أو معنّفاً إياها.

لم يكن لدى بيار لوتى الوقت الكافى، للذهاب إلى الصحراء الغربية وإلى واحاتها التى تبدو كما لو كانت، سلسلة من الجزر السعيدة، فى بحر من الرمال عظيم، سلسلة تتفتت على امتداد كبير، يقع إلى الغرب من وادى النيل موازياً له، على بعد حوالى ٢٠٠ كيلومتراً منه. إن الواحات هى منخفضات متسعة، تقع تحت مستوى سطح البحر، وبالتالى تستفيد كثيراً من مخزون المياه الجوفية، لقربها منه.

ورغم التشابه العام، إلا إن كل واحة منها تتميّز بخصوصية ما، تجعلها مختلفة عن الأخريات. مثلاً واحة سيوة البعيدة، تتميّز باحتفاظها بعدد كبير من سكانها البربر الأصليين، وواحة الداخلة تتكدّس بالسكان، كما لو كنا لم نغادر دلتا النيل، على العكس من واحة الفرافرة البيضاء شبه الخاوية، أما الواحات البحرية فتتميّز بكونها محاطة بعدد من المنحدرات الصخرية. هذه الواحات هى وارثة حضارة الرمال، ورغم ذلك فهى

جزء من مصر، تنتشر فيها نفس العادات والتقاليد الموجودة فى قرى وادى النيل ودلتاه.

إن الصحراء المصرية، حتى بعيداً عن الواحات، تعجّ بالحياة البرية والحيوانية، من أبناء آوى إلى الثعابين والسحالى والنسور والصقور. ثم كذلك تحتوى على عدد من الأديرة المأهولة، وعدد من القلاع الرومانية القديمة، بالإضافة إلى بقايا معابد بطلمية، وجبّانات مصرية قديمة من عصر الفراعنة، لم يتوقف علماء الآثار المصرية عن الاهتمام بها، وعن اكتشاف المزيد من كنوزها. وعدا علماء المصريات، هناك المهندسون وعلماء الجيولوجيا، وذلك لأن الصحراء المصرية هى منجم لا ينضب، فإذا كان المصريون القدماء قد استخرجوا منها الذهب والبورفير، فإننا الآن نستخرج منها الحديد والبترول والغاز والمنجنيز والفوسفات.

الهدف الآن، وأكثر من أى وقت مضى، هو أن نزيد مساحة الأرض القابلة للاستصلاح والزراعة والسكن، على حساب الصحراء، وأن ينجح المصريون فى إنبات أشجار الفاكهة والخضروات، باستعمال طريقة حفر الآبار العميقة والرىّ بالتنقيط. ولقد تغيرت طبيعة الطريق الصحراوى الشهير، الذى كانت شركة شل للبترول قد أنشأته، فى ثلاثينيات القرن العشرين، لربط الإسكندرية بالقاهرة، فهو الآن حقا طريق سريع لسيارات تحف به الشجيرات، وفى تقاطعاته تقودنا الطرق الجانبية إلى المدن المنشأة حديثًا.

فى طفولتى كانت هذه الرحلة، التى يبلغ طولها ٢٠٠ كيلومتراً، لا تزال نوعًا من المغامرة الصغيرة. لكم أشتاق إلى ذلك الشريط الأسفلتى الضيق، الذى كانت تغمره الرمال باستمرار، والذى لم تكن تحدّه إلا براميل قديمة صدئة على جانبيه. لكن لا زالت هناك سيارات نقل أكل عليها الدهر وشرب، تتسكع على الطريق الصحراوى، وهى تكح وتعطس وتبصق. وفى منتصف الطريق لا زال الرست هاوس الشهير، يظهر كما لو

كان سرابا. أتذكر أنه فى الماضى كان يستقبلنا فيه موظفو خدمة يونانيون، بخطوة بطيئة منتظمة يقودوننا إلى موائدنا، والمناشف مثنية فوق الأذرع.

كانت الاستراحة فى منتصف الطريق الصحراوى، هى وقفة لا غنى عنها، وسعادة إضافية نحصل عليها، نحن الأطفال، خلال هذه الرحلة. كنا نجلس إلى جوار كوّة زجاجية كبيرة، نراقب السيارات التى تستريح هى الأخرى، وأغطية محركاتها الأمامية مفتوحة، مما يسمح لهذه المحركات المرهقة، والتى تخرج منها أدخنة مختلفة، أن تلتقط أنفاسها. فى خلفية تلك الصور، كانت هناك دائمًا، وفى كل مكان، تلك الصحراء الشاسعة، التى كانت تبدو لى كما لو كانت بلا نهاية.

انظر مقالات: الجمل الهجين رقم (٣٨)/ الخماسين رقم (٧٥)/ رهبان رقم (٩١)/ توشكا رقم (١٣٩)/ المدن الجديدة رقم (١٤٢).

٣٥ – الآلهة والأرباب / Divinités

فى البدء كان المحيط الأزلى موجوداً، فى صورة كتلة سائلة خاملة، لكن عندما استيقظ الخالق، وضع نهاية للفوضى والظلام. بالنسبة للاهوتيين المقيمين فى هليوبوليس، كان هذا الخالق هو آتوم/الشمس فى تمامها. وحسب نظرية الخلق فى هليوبوليس، أعطى هذا الرب حيواناته المنوية، لخلق عدد آخر من الآلهة والأرباب، أولاً هناك رب ذكر هو شو إله الهواء، وهناك ربّة أنثى هى تفنوت إلهة الماء والرطوبة، هذان الاثنان أنجبا بدورهما، جب إله الأرض ونوت إلهة السماء، وقد أنجبا أربعة آلهة هم إيزيس وأوزوريس وست ونفتيس. هكذا وُجد تاسوع هليوبوليس، المكون من تسعة أرباب.

ذات يوم شعر إله الآلهة الشمس باليأس والملل، فصعد إلى السماء تاركًا الأرض تحت مسئولية الفراعنة، وهكذا أصبح على الإنسان استئناف عمل الإله، معرَّضًا دائمًا

لهجوم وعدوان قوى الفوضى ما لم يطع الإله. إن عصيان أحد الآلهة يمكن أن تكون له نتائج جسيمة، مثلاً يمكن للشمس أن تهدد بعدم الظهور، ويمكن للنيل فى موعده السنوى فى بداية موسم الفيضان، أن يهدّد بعدم الحضور. ليس هناك شىء ثابت ومقرّر سلفًا، فعلى الإنسان أن يبدأ من جديد، كل يوم، وكل سنة.

فى هذا العالم المشبّع تمامًا بفكرة الآلهة، تقبّل البشر فكرة ظهور الآلهة فى صورة مخلوقاتها من الكائنات الحيوانية والنباتية. إن أرباب المصريين لا يعيشون فى قمّة جبل الأوليمب، كما كان يفعل أرباب الإغريق، وإنما هم يعيشون مع البشر، إذ إن لكل رب مصرى منطقته المصرية التى يعيش فيها مع المصريين. كذلك ارتبط كل رب مصرى بكائن من الكائنات، أو بنوع من المحظورات والممنوعات، أو بالاثنين معًا فى نفس الوقت، مثلا إذا كان هدف الآلهة هو حماية القطة أو منع صيدها، أخذ أحد الآلهة شكل القطة، وأصبح من المحظور الاعتداء عليها، وارتبطت بعبادة القطة المقدّسة، وهكذا.

إن أرباب المصريين موجودون معهم فى كل مكان، ويستمعون إليهم فى كل وقت، ويمكن الوصول إليهم بسهولة إذا أراد الإنسان، ولكنهم متقلبو المزاج، وبالتالى قد يغضبون من الإنسان، الذى يحتاج إلى الحصول على رضاهم عنه، وحمايتهم له، بتقديم هدايا عينية فى صورة تقدمات فى المعابد. إلا أن الوضع قد تطوّر إلى إمكانية التعامل مع الرموز التى تمثل الآلهة، أو العلامات الدالة عليهم، ويمكن للإنسان حتى أن يتناولها باليد، ويتبادلها مع غيره من البشر، بل حتى أن يهددها ويحاول أن يبتزّها بالأعمال السحرية.

كان كل ملوك الفراعنة يتحوّلون إلى آلهة عند تنصيبهم، ليس هم فقط بل كذلك قلة من البشر المتميّزين، تحولوا هم أيضًا إلى شخصيات مقدّسة، ولكن بعد موتهم. كانت تلك هى حالة إيم حوتب، الوزير المثقف رفيع المستوى، والمعمارى الاستثنائى الذى تدين له البشرية ببناء أول مقبرة هرمية الشكل للملك زوسر، هى الهرم المدرّج فى منطقة

سقارة. إيم حوتب كان بالإضافة إلى كل ذلك طبيبًا مرموقًا، وقد تحوّل إلى رب الشفاء الذى يحتفل به فى مصر كلها.

كانت الربّة إيزيس، فى مجمع الأرباب المصريين (البانتيون(*) المصرى) هى صاحبة أكبر شعبية، أى صاحبة أكبر عدد من المؤمنين بها بين أفراد الشعب المصرى. كانت قصتها أكثر القصص الشعبية انتشارًا. قصة شجاعتها فى مواجهة الشرير ست، وإقدامها على مغامرات خطيرة لاسترداد جسد زوجها وحبيبها وأخيها أوزوريس، وإعادته إلى الحياة، بعد أن كان الأخ الشرير ست، قد قتله بالحيلة الماكرة. ثم كيف لنا ألا نقع فى أسر فتنة وسحر حاتحور؟ ربّة المرح والحب والجمال، حامية النساء والرحّالة. ومع ذلك علينا أن نكون حذرين منها، فرغم أنها قد تتخذ صورة بقرة معطاءة، إلا أنها قد تتخذ أحيانًا شكل الربّة سخمت إلهة لشر، وتتخذ صورة اللبؤة على شكلها ومثالها، وتخرج عن السيطرة، وتذهب إلى البشر لتنتقم منهم.

احتفت مصر القديمة بمئات الآلهة، حيث كان لكل إقليم جغرافى آلهته، التى يمكن أن تكون فقط آلهة محلية، أو يمكنها أن تصبح آلهة قومية، لا تعبد فقط فى إقليم محدّد، وإنما تعبد فى مصر كلها، وتضاف إلى قائمة الأرباب القوميين. وسواء أكان هؤلاء الآلهة برؤوس آدمية، أو برؤوس حيوانية، فإن الشىء الذى يميّز حقًا بعضهم عن بعض، هو ما يضعونه فوق رؤوسهم، التاج المزدوج للشمال والجنوب (البشنت)، أو تاج الشمال وحده، أو تاج الجنوب وحده، أو قرص الشمس، أو هلال القمر. أو قد نجد فوق رأس الإله، رمزه الدال عليه، البطة أو العقرب أو ريشة النعامة. أو قد نستدل على الإله بنوع الصولجان الذى يمسكه بيده.

ثم إن التعايش بين الآلهة كان مثاليًا، إذ لم تحدث بينهم أية مشكلة، بل كان يمكننا أن نجد مجموعة منهم تعبد معًا فى نفس المكان، أو قد نجد بعضهم مرتبطًا بعلاقات قوية مع بعضهم الآخر، مثل العلاقات القوية التى كانت بين هذه المجموعة من الأرباب، آمون رع/ وخنوم شو/ وهارماخيس/ وخبرى رع آتوم. كانت هناك كذلك

احتفالات زفاف سنوية، تجمع بين عدد من الأرباب، برباط الزواج مع عدد من الربّات. يقول بيار مونتيه [أثرى فرنسى]، فى كتابه (مصر الخالدة) الصادر سنة ١٩٧٠، من دار نشر فايار بباريس:

(دون أدنى شك، ليس هناك شعب آخر فى تاريخ البشرية، قد أنتج أو ابتكر، كل هذا الحشد من الآلهة، وكل هذا العدد من الأرباب والربّات، والكائنات المقدّسة، بل والأشياء المقدّسة. ليس هناك أى شعب آخر شيّد لأربابه، معابد بهذه الروعة، وسخر لخدمتهم كل هذا العدد من الكهنة والمنشدين والموسيقيين، واخترع لهم كل هذا القدر من الطقوس والمراسم الاحتفالية. إلا أن هذه الوفرة من الآلهة هى ظاهرة خادعة. إنهم يبدون لنا هكذا فقط لأننا ننظر إليهم نظرة أحادية الأبعاد، نظرة ذات بعد واحد، هو مفهومنا الحالى، بدون النظر إلى اختلاف العصور تاريخيًا، واختلاف المناطق جغرافيا.

إن المصريين القدماء لم يكونوا أبدًا مشتتين، ومبددة جهودهم بهذه الطريقة التى قد تبدو لنا، إذ إن طريقتهم فى التوفيق بين المذاهب المتعارضة، يمكن أن تقودنا فى الحقيقة، إلى معرفة أنهم كانوا يعبدون إلهًا واحدًا، أو قوّة مقدّسة واحدة، عبادة راسخة عميقة الجذور لديهم، هذا الإله الواحد، أو هذه القوة المقدّسة الواحدة، كانوا يطلقون عليها اسم (نترِ)، هذه القوة المجرّدة كانت تظهر فى صور متعدّدة، أى أن كل ربّ من أرباب مصر القديمة كان يطلق عليه هذا الاسم (نترِ)، ومجموع الآلهة كلّهم معا كان يطلق عليهم كذلك نفس الاسم. إنه موضوع صعب الفهم إلى حد ما، ولكننا لا يمكن أن نفهم الكثير عن مصر القديمة، لو تجاهلنا هذا التمازج بين الواحد والكل، وهو الأساس الذى قامت عليه، كل عناصر التخيّل فى حضارة مصر القديمة).

انظر المقالات عن: إدفو رقم (٤١)/ إيزيس رقم (٦٧).

٣٦ - الراية المصرية / Drapeau

تغيّر رمز مصر القومى عدة مرات عبر القرون، حسب نوعية دول الاحتلال الأجنبى المختلفة المتتالية، ووفقا لتغير الأنظمة السياسية، والظروف السياسية. إن متابعة هذه التغيّرات اللونية، يمكن اعتبارها إحدى وسائل تصفح التاريخ. وبدلا من البدء بسنة طوفان سيدنا نوح، يمكننا أن نبدأ من نهاية العصر القبطى، لحظة انفصال مصر عن الإمبراطورية الرومانية البيزنطية. إذا كنت قد قرأت جيداً دراسة ناصر الأنصارى، الرئيس السابق للبروتوكولات فى رئاسة الجمهورية، والتى تحمل العنوان التالى (التتابع الزمنى لحكام مصر)، والمنشورة فى باريس سنة ٢٠٠١، فستعرف أن مصر قد حصلت على اثنتى عشرة راية مختلفة، منذ بداية العصر الإسلامى، وحتى يومنا الحالى، فلنتابعها معًا.

عندما أصبحت مصر دولة عربية، بعد الفتح العربى سنة ٦٤٠ ميلادية، فإن وطن الرعامسة، يستعمل على التوالى العلم الأبيض للأمويين، ثم العلم الأسود للعبّاسيين والطولونيين، وذلك قبل أن يستعمل العلم الأخضر للفاطميين، حكام البلاد خلال قرنين من الزمان (٩٦٩/١١٧٠)، ثم تعود البلاد إلى العلم الأسود فى العصر الأيوبى (١١٧٠/١٢٥٠)، وعندما يصبح المماليك فى السلطة سنة ١٢٥٠ تتخذ مصر علمهم الأصفر راية لها، رغم أن الواقع يقول إنه خلال عصر المماليك، كان لكل مملوك علمه المختلف اللون، مما كان يؤدى فى أحيان كثيرة إلى حيرة الشعب الطيب، وإلى حيرتنا نحن كذلك، ولكن فلنستمر.

بعد الغزو العثمانى سنة ١٥١٧، تتخذ مصر علم الإمبراطورية العثمانية، والذى يتكوّن من هلال أبيض، يحتضن نجمة بيضاء سداسية الأركان (أو الأذرع)، فوق أرضية حمراء. يظل هذا العلم هو علم مصر لمدة ثلاثة قرون، إذ عندما يأتى محمد على إلى السلطة (١٨٠٥/١٨٤٩)، ورغم أن مصر كانت لا تزال ولاية عثمانية، إلا أنه بسبب رغبته فى إعلان الاستقلال عن الإمبراطورية، فقد أدخل تعديلاً على نجمة العلم

العثمانى سداسية الأركان، لتصبح بخمسة أذرع فقط. بعد ذلك دفع الخديوى إسماعيل بالرغبة فى الاستقلال، إلى أقصى مدى ممكن، عندما وضع على علم مصر ثلاثة أهلة، يحتضن كل منها نجمة خماسية، ولكن على نفس الأرضية الحمراء.

ثم تتعقد المسائل بعض الشيء، إذ تعلن مصر مملكة مستقلة سنة ١٩٢٢، فتتخذ لنفسها علماً أخضر بهلال أبيض بداخله ثلاثة نجوم، وتظل مصر تحتفظ به حتى بعد ثورة ١٩٥٢، حين يظهر إلى الوجود ما سُمِّيَ وقتها علم التحرير، الذى كان مختلفًا تمامًا عن كل الأعلام السابقة، إذ إنه يحمل ثلاث أشرطة أفقية، بالألوان الأحمر والأبيض والأسود، من أعلى إلى أسفل، الأحمر يرمز إلى الصراع ضد الاحتلال البريطانى، الأبيض يرمز إلى ثورة ١٩٥٢، التى لم ترق فيها ولا حتى قطرة دم واحدة، والأسود يرمز إلى نهاية عصر الاستبداد وكبت الحريّات.

لكن عندما قامت الوحدة بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨، تتخلى مصر نهائيًا عن العلم الأخضر، وتتخذ الجمهورية العربية المتحدة من علم التحرير علمًا رسميًا لها، مع ظهور نجمتين خضراوين على الشريط الأبيض، اثنتين فقط كبداية، فمن المفهوم طبعا أنه كان من المأمول، زيادة عدد هذه النجمات، مع كل إضافة جديدة إلى بلد الوحدة. وقد انتهى منذ ذلك التاريخ أمر الهلال، وأصبح علم مصر أكثر علمانية وأقل شاعرية. وبعد زواج مضطرب يحدث الطلاق بين مصر وسوريا سنة ١٩٦١، ويعود السؤال إلى طرح نفسه من جديد، فيما يتعلق بالراية والشعار والرمز القومى، هل نعود إلى العلم الأخضر القديم؟

يفضل نظام جمال عبد الناصر أن يتمسّك بالحلم، لا بل أن يتمسّك بالوهم، ويحتفظ بالعلم الجديد بنجمتيه، كأن شيئًا لم يكن، فيظل علم الجمهورية العربية غير المتحدة، هو نفسه بعد الانفصال بدون تغيير. عندما يصبح أنور السادات رئيسًا لمصر، يسرع إلى محاولة وضع نهاية لهذه الفترة، ففى سنة ١٩٧٢ تختفى النجمتان، ويظهر بدلاً منهما صقر ذهبى مطرّز، ولكن مع الاحتفاظ بنفس الأشرطة الثلاثة الملوّنة، الأحمر

والأبيض والأسود، التى ما زالت تحتفظ بنفس معانيها القديمة. ثم يأتى حسنى مبارك ليحاول بدوره أن يترك بصمته على العلم، ففى سنة ١٩٨٤ يختفى الصقر، ليظهر بدلا منه نسر صلاح الدين. هل يكتب لهذا العلم الجديد الدوام؟ يبدو أن مصر الخالدة يمكنها أحياناً أن تظهر جد متقلبة.

٣٧ - حقوق الإنسان / Droits de l'homme

على الورق...كله تمام، فقد وقّعت مصر، ضمن غيرها من البلاد، على إعلان بارشلونة سنة ١٩٩٥، والذى يحتّم عليها احترام حقوق الإنسان، ويقضى بضمان حريات التفكير والتعبير عن الأفكار، والانتماء الدينى، وحقوق الاجتماع مع الغير، والانضمام إلى الجمعيات ... إلخ، إلا أن الأوضاع فى الحقيقة، أقل وردية من الأوضاع على الورق. فقانون الطوارئ ما زال معمولاً به منذ سنة ١٩٨١، وهو القانون الذى كان مقدّراً له محاربة الإرهاب، ولكنه يبيح للسلطات الكثير من التجاوزات. وإلى الرقابة السياسية التى تظل متشدّدة، يمكن أن نضيف الرقابة الدينية.

فى سنة ١٩٩٦، كان الصحفيون المصريون قد نجحوا فى تخفيف قانون الرقابة على الصحف، الذى كان فى السابق، يعاقب بشدّة الكتابات التى كان يعتبرها مخرّبة، ويهدّد كاتبيها بالحجز المؤقت فى أقسام الشرطة. ورغم التخفيف فإن الصحفيين مستمرون فى المراقبة الذاتية لما يكتبون، خوفاً من الملاحقة القضائية. والكتاب كذلك، ليس الصحفيون فقط. ففى فبراير ٢٠٠١، أصدرت محكمة أمن الدولة العليا، حكماً بالسجن ثلاث سنوات، على روائى أدانته بتهمة (احتقار الإسلام وازدراء الأديان). وفى يناير من نفس العام، كانت قد تمّت إقالة أحد كبار الموظفين بوزارة الثقافة المصرية، بسبب أنه كان قد صرّح بطبع ثلاثة أعمال روائية ضمن سلاسل الوزارة، اعتبرت أنها أعمال إباحية.

ويظل جهاز أمن الدولة موجوداً فى كل مكان بالبلاد، خاصة فى الإدارات الحكومية. قد يكون قضاء بعض الوقت فى أقسام الشرطة محنة مخيفة، تترك آثارها على الجسم، بسبب ضربات باليد أو بالقدم، أو تترك آثارها على الروح، بمجرد بعض التهديدات الشفهية. يبيح القانون المصرى الحالى، الإبقاء على المحجوزين فى أقسام الشرطة أو فى السجون، لمدة ٤٥ يوماً قبل عرضهم على القضاء. عدا أن هناك قضايا تعرض أمام القضاء الخاص، أو أمام المحاكم العسكرية. إن المسجونين فى قضايا الرأى فى مصر قد يعدّون بالآلاف، ولكن لا أحد يعرف عددهم بدقة.

كان الكاتب صنع الله إبراهيم، قد سُجن فى سن العشرين مع بعض مجاهدى اليسار، فى سجون الحقبة الناصرية، وخصص لهذه التجربة فيما بعد صفحات مؤلمة ومروِّعة، لم يحكها إلا بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً، فى كتابه (أوراق الواحات) حيث يقول (كان زميلى فى الزنزانة، وهو أحد مسئولى الحزب، قد مات أمام عينىّ، بسبب العذاب الذى كنا نتجرّعه يومياً، ثم طلبت منى السلطات فى السجن، أن أذكر أنه قد مات بسبب أزمة قلبية. كنت مرتاعاً إلى حد الشلل التام، ولم أعرف ماذا أقول، فى تلك اللحظة، قررت أن أكرّس عمرى كله للكتابة، وذلك حتى أتمكن فقط من كتابة شهادتى، عما كان يحدث لنا فى سجن الواحات، حتى أتمكن من قول ما كان الأدب والصحافة لا يجرؤان على قوله، مثل مسألة العنف الشديد الذى كان سائداً فى ذلك الوقت فى السجون المصرية، فمثلاً كان الحرّاس يحضرون كل مساء إلى الزنانين، بحثاً عن صغار السن أو المراهقين من المساجين، ليصحبوهم إلى زنازين عتاة المجرمين، حيث يتم اغتصابهم). كانوا يسجنون الشيوعيين والأخوان المسلمين معاً، ويعاملونهم جميعاً بنفس الوحشية.

إذا كنا سنصدق تقارير منظمة العفو الدولية (أمنستى إنترناشيونال)، فإن الموقف الحالى لم يتغير كثيراً عن الموقف السابق، إذ تستمر نفس السمعة السيئة، لسجون مصر فى طرة وأبى زعبل بضواحى القاهرة، عبر عشرات السنوات من الأنظمة

السياسية المختلفة، وفى بعض تلك السجون الخاصة، يمكن للسجين الجديد أن يتوقع أسوأ معاملة، خلال ما يسمى مراسم الترحيب، والتى تتكوّن من مجموعة من الأفعال المعتادة المحزنة، والتى تكون عادة على درجة كبيرة من العنف، مثل الركل بالقدم، أو الشحنات الكهربائية، أو تعليق الأجساد من معصم اليد أو من كاحل القدم لمدد طويلة، أو الاعتداءات الجنسية، أو تمثيل عملية تهديد بقتل السجين.

ومع ذلك فهناك تحسّن طفيف تمّ تسجيله، كان ذلك فى سنة ٢٠٠٠، حين صدر قرار بالمنع الرسمى، لاستعمال السياط والعصىّ فى الضرب. ولكن رغم هذا القرار، وبعد صدوره ببضعة أشهر، تمّ القبض على ستة من الحراس والمسئولين عن سجن وادى النطرون، وحُكِمَ عليهم حكمًا نهائيًا لا استئناف فيه، بالسجن لمدد متفاوتة، وذلك لأن أحد المحتجزين كان قد مات بسبب التعذيب.

إن المنظمة المصرية لحقوق الإنسان لا تيأس ولا تتوقف عن المحاولة، رغم التهديدات التى يتلقاها أعضاؤها، ورغم حملات بعض الصحف التى تحاول تشويه سمعة المسئولين عنها. هذه المنظمة تسعى دائمًا إلى تأكيد الطابع الدولى لأنشطتها، والإشارة إلى صراعها مع قوى الظلام فى العالم أجمع، وإلى محاولاتها الدؤوب لتطبيق مبادئها، فى الأوطان العربية والإسلامية، مع الاستعانة ببعض الأقوال المرجعية، لشخصيات مهمة فى تاريخ الفكر الإسلامى، مثل الفيلسوف العربى الأندلسى ابن رشد.

فى سنة ١٩٩٨، تمّ القبض على السكرتير العام للمنظمة المصرية لحقوق الإنسان، ولمدة ١٥ يومًا، لم يكن بمستطاع أحد أن يقابله، أو حتى أن يراه، وقد قضى الرجل هذه المدّة فى ظروف مهينة، وكان الاتهام الموجّه إليه، هو الحصول على دعم مالى، من جهات أجنبية، وترويج أخبار غير صحيحة، تدين الأوضاع فى مصر.

ثمّ كانت هناك قضية فى ربيع ٢٠٠١، أثارت ضجّة كبيرة هى الأخرى، وهى قضية الدكتور سعد الدين إبراهيم، أستاذ علم الاجتماع بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ومدير مركز ابن خلدون لحقوق الإنسان، الذى كان قد تمّ الحكم عليه بالسجن لسبع سنوات، بتهم من نوع، ترويج معلومات مضللة خارج البلاد، عن ادّعاءات بتزييف الانتخابات، ومزاعم حول تعرّض الأقلية القبطية للاضطهاد والتمييز الدينى.

وفى وقت لاحق من نفس العام، تمّ القبض على ٥٢ من روّاد أحد الملاهى الليلية القاهرية، على ظهر أحد المراكب السياحية، وهو مركب (كوين بوت)، بعد اتهامهم بممارسة الجنسية المثلية، والفجور، والإساءة إلى الإسلام، وبعد سجنهم لمدة ثلاثة شهور، أحيلوا إلى محكمة أمن الدولة العليا. إنها قضية تفضح دولة تدّعى أنها دولة قانون.

ولكن رغم كل شىء يمكننا أن نلاحظ بعض التقدّم المتواضع، فقد أصبح من الممكن الآن التحدّث علنا، جهاراً نهاراً، للدفاع عن قضايا الاعتداء على الحريّات الخاصة. هذا شىء جديد تماماً فى مصر. ثم إن القضاة أصبحوا يشغلون حيّزاً متزايداً فى الحياة العامة، حتى لو أنهم ما زالوا غير مستقلين تماماً عن السلطة السياسية فى مصر. وأخيراً فإن موضوع حقوق الإنسان أصبح مذكوراً فى بعض الكتب المدرسية. وبدون الوقوع فى مبالغات ساذجة، فمن الممكن أن نسمح لأنفسنا ببعض الأمل، فى أن بعض المدرسين، قد يتمكنون يومًا ما من شرح هذا الموضوع لبعض تلاميذهم.

٣٨ – الجمل ذو السنم الواحد / Dromadaire

إن اسمه الهجين، لأنه بسنم واحد، ولكنهم فى مصر يسمونه الجمل، رغم أن ذلك الأخير يكون بسنمين. هذا الحيوان رغم أنه لا يتمتع لا برشاقة الغزال ولا بعظمة

الحصان، وإذا أردتم أن أذكر هنا كل ما أريد قوله، إنه حيوان قبيح المنظر إلى حد بعيد، برأسه المفلطح وعنقه الطويل وأقدامه العريضة، بالإضافة كذلك إلى أن جسمه غير متناسق، أى أن النسب بين أجزاء جسمه المختلفة ليست متناسقة. كل هذا بدون ذكر مسألة الصوت المزعج الذى يصدر عنه فى كل مكان حيثما حلّ.

ورغم هذا فإن للجمل مزاياه العديدة، إذ إنه يستطيع أن ينقل أحمالاً ثقيلة، تصل إلى ٢٥٠ كيلوجراماً، والجرى بها على الرمال بخطوة منتظمة، بسرعة قد تصل إلى ٤٠ كيلومتراً فى الساعة،ثم بعد ذلك يكتفى فى غذائه بأقل القليل، مثل الفول والعليق بل حتى شجيرات الشوك فى الأحراش الصحراوية. وفوق كل ذلك فهو يستطيع أن يستغنى عن شرب الماء لمدد قد تصل إلى عشرة أيام. وقد اكتشف أن مخزونه من الماء لا يوجد فى سنمه، الذى يمثل احتياطى طاقة من الدهون والعضلات، ولا يوجد حتى فى معدته الخامسة، التى كنا نعتقد قديمًا بوجود الماء داخلها، ولكن مخزونه المائى يوجد فى دمه، بفضل وجود كريّات دم حمراء ذات مرونة عالية.

إن الهجين كان قد تمّ تهجينه واستئناسه فى مصر منذ أكثر من ألفىْ عام، قادمًا من فارس، وكان يستعمل منذ العصر الرومانى فى بعض الأعمال الزراعية، إلى أن اكتشف أن مكانه الحقيقى هو الصحراء، بعيداً عن النهر، حيث تغوص الأقدام فى الرمال. كان بونابارت قد أدرك أهميته عندما أنشأ فيلق الهجّانة من أفضل عناصر الجيش، والمكلف بمصاحبة الفرق الأخرى من المشاة، فى مهامها القتالية مروراً بالصحراء، لمراقبة العدو وللنقل السريع للرسائل. كان الاسم الذى أطلق على جندى هذا الفيلق، هو نفس الاسم الذى أطلق على الحيوان الذى استعمله، وهو اسم (الهجين)، ومنه جاءت كلمة (الهجّانة).

كان جنود هذا الفيلق قد ألبسوا فى البداية، زيًا غريبًا موحّدًا، يبدون به كما لو كانوا فى حفل غناء أوبرالى، تزيّنهم العمائم والرماح، ولكنهم فيما بعد اتخذوا زيًا أكثر بساطة وأكثر عملية. وقد تخلوا كذلك لاحقا عن الوضع الغريب الذى كانوا يتخذونه،

وهو وضع امتطاء اثنين من الجنود للحيوان الواحد، حيث يعطى كلٌ منهما ظهره للآخر، فينظر أحدهما للأمام، وينظر الآخر للخلف.

كان لارى رئيس جرّاحى الجيش الفرنسى، قد استعان بالهجين ليصنع منه سيارة إسعاف. كان المرضى والجرحى يوضعون فوق نقالات، مصنوعة من أغصان نوع معين من أشجار الصفصاف، مثبتة إلى سنم الهجين بواسطة أحزمة، وبالتالى تكون مرتفعة لمسافة مترين عن سطح الأرض. لم يكن الفرنسيون أثناء الحملة الفرنسية على مصر، يستخفون بالجمل، ابن عم الهجين، بل على العكس إذ إنه كان أحيانًا معينًا لهم بشكل غير متوقع. وقد نجح أحد صغار علماء الحملة، وهو فيليبه دو تيراج، بمساعدة الجمل، فى تحديد طول الطريق بين القاهرة والسويس، عبر وادى التيه، بتتبع طريقة سير الجمال فى إحدى القوافل.

كتب يقول (مسألة تحديد الزوايا والاتجاهات، استعملت فيها البوصلة، أما قياس المسافة، فقد تمّ بواسطة تحديد الزمن الذى يستغرقه الجمل فى قطع المسافة، بين محطتين من المحطات على طريق القوافل، وحيث إننا نعرف عدد هذه المحطات، فقد اعتمد حساب المسافة على حقيقة أن الجمل يسير بخطوة منتظمة تمامًا، إنه مثل آلة قياس زمن حيوانية، أو مثل بندول ساعة حيوانية، فبمعرفة المدة الزمنية بين محطتين، وقياس المسافة التى يقطعها الجمل فى هذه المدة الزمنية، نكون متأكدين من الوصول إلى حساب المسافة الكلية بين المدينتين).

أما فيما يتعلق بفيفان دينان [أحد علماء الحملة الفرنسية]، فقد حكى لنا كيف كانت مقابلته الأولى مع هذا الحيوان الغريب أثناء الحملة على مصر، كتب (إن من الممتع جداً مراقبة طريقة وضع السرج، على ظهر هذا الحيوان بدقة كبيرة، ثم الأوضاع المتخذة لامتطائه، وذلك حيث إن الجمل البطىء جداً فى حركاته عند القيام، يدفع بطريقة فجائية جداً قائمتيه الخلفيتين، بمجرد أن يمتطيه فارسه، دافعًا به أولاً إلى الأمام، ثم ثانيًا إلى الخلف، ثم فى الحركة الأخيرة يقف منتصبًا على قوائمه

الأربع، عندها فقط يشعر راكبه بالثقة فى توازنه العمودى. لم يستطع أىٌ منا أبداً أن يقاوم الهزّة الأولى عند الامتطاء، وكان كلٌ منا يسخر من زميله، وفى كل رحيل جديد، كان نفس الشىء يتكرر بنفس الطريقة).

٣٩ – لادى دف جوردن / Duff-Gordon (lady)

إنها لم تكن سائحة، ولم تكن مستشرقة، وإنما كانت امرأة عادية، عرفت كيف تعيش لمدة سبع سنوات، بين المصريين فى أعماق صعيد مصر، ففى سنة ١٨٦٢، وعندما كانت فى الواحدة والأربعين من عمرها، وعملا بنصيحة طبيبها، قررت لوسى دف جوردن، أن تستقر فى الأقصر، حتى تتحسن صحتها لأنها كانت تعانى من الدرن. قبل أن تأتى إلى مصر، كانت لوسى قد سافرت إلى بلاد كثيرة، كما أنها كانت صاحبة صالون أدبى فى لندن استقبلت فيه عدداً كبيراً من كتاب ذلك الوقت وفنانيه.

كانت قد ترجمت بعض المؤلفات من اللغة الألمانية، ونشرت عدداً من الكتب من تأليفها، كان آخرها قبل المجىء إلى مصر، هو كتاب (رسائل من الكيب)، وصفت فيه رحلتها الأفريقية، وصولاً إلى ميناء كيب تاون بجنوب أفريقيا. ولكن العمل الذى حوّلها إلى شخصية مشهورة، هو كتاب (رسائل من مصر)، وهى الرسائل الحقيقية التى كانت قد أرسلت أغلبها إلى زوجها فى إنجلترا، الذى بقى فى إنجلترا للاعتناء بأولادهما.

كانت لوسى تسكن فوق مساحة الأرض، التى كانت لا زالت حتى ذلك الوقت تغطى الجزء الأكبر من معبد الأقصر، المغمور تحت الرمال، وهو نفس المنزل الذى شغله قبل ثلاثين عاماً، المهندسون والبحّارة الفرنسيون، الذين كانوا مسئولين عن نقل

إحدى مسلتيْ معبد الأقصر إلى باريس، وهما المسلتان اللتان كان محمد على، قد قدّمهما هدية إلى الشعب الفرنسى، بعد زيارة شامبوليون له سنة ١٨٢٩ .

تعاطف سكان الأقصر سريعًا مع تلك الأجنبية غير العادية، فهى تتعلم اللغة العربية، وتشاركهم طرائقهم فى الحياة، وتعتنى بمرضاهم. أطلقوا عليها اسم (الست)، كما أسماها بعضهم (الست الحكيمة) أى الطبيبة، ثم فى النهاية أطلقوا عليها اسم (الست نور)، بعد أن أعزوا إليها قدرات خاصة، ليس فقط فى شفاء المرضى، بل قيل إن نظرتها الباسمة تجلب حسن الحظ. كان كل الناس يدعونها إلى منازلهم لسبب أو لآخر، إما لزيارة الزوجات الجديدات الصغيرات لنصحهن، أو لمعرفة رأيها فى سبب مرض الماشية، أو فقط لمجرد مباركة منزل أثناء بنائه. حتى الرجال كانوا يلجأون اليها، بطريقة تلقائية مدهشة، بحثًا عن مشورتها.

فى ٧ فبراير ١٨٦٤، تكتب لوسى إلى زوجها قائلة (وضعت بعض الأغطية إلى جوار الحائط، ثم وضعت يدى خلف ظهر الشيخ محمد لأساعده فى إراحة جسمه، عندما كان الآخرون مشغولين، بوضع كمادات باردة على جبهته، ثم حدث أن أراح رأسه المغطى بعمامته الخضراء على كتفى، ثم رفع رأسه وقبّلنى، كما لو كان طفلاً صغيراً، ممتلئًا حنانًا، فرددت على قبلته بقبلة أخرى منى، فصاح فى الحال شيخ عجوز آخر تقىّ عدة مرّات: باسم الله، وهو يحنى رأسه دليلا على رضاه عمّا يحدث).

تشير لادى جوردن عن طيبة خاطر، إلى جمال محدّثيها المحيطين بها، وإلى حسن سلوكهم، فإن الاهتمام الذى يحيطونها به، ليست وراءه أية أهداف مادية. إنها تؤكد قائلة (أنا لا أعطيهم أية نقود، إنما أنا أعطيهم أحيانًا بعض الأدوية، وكذلك بعض الحب والحنان والذوق). كان أغلب شيوخ المدينة لا يملون ترديد عبارات مدح اللادى والثناء عليها، هذه المسيحية الأنجلو ساكسونية، التى تحترم معتقداتهم الدينية. من

الغريب أنها كانت تجد صعوبة فى التعامل مع الأقباط، من رجال الدين المسيحى، الذين ترسم لهم فى رسائلها صورة قاسية جافة عنيفة.

إن رسائلها تقدّم لنا شهادة استثنائية، على أحوال مصر، فى ستينيات القرن التاسع عشر، فعلى عكس الرحالة الأوروبيين الآخرين، هى لا تختزل المصريين إلى عنصر من عناصر المنظر الطبيعى، وذلك لأنها تشعر بهم باعتبارهم بشراً، بل إنها تحس بالغليان داخلها، احتجاجا على العذابات التى يتحملّها الفلاحون، الذين كانوا كثيراً ما يستدعون لأداء الخدمة العسكرية الإجبارية، أو للعمل فى السخرة، عدا أنهم مكبّلون بالضرائب، وأنهم يعاملون معاملة سيئة جداً، عند أقل تعبير عن المقاومة أو حتى المعارضة.

تقول (لا أستطيع أن أصف لكم البؤس السائد هنا، إذ إن النفس تشعر باليأس لمجرّد التفكير فى هذا البؤس، فكل يوم ضريبة جديدة، إن كل حيوان أصبح الآن خاضعًا للضريبة، من الجمل إلى البقرة إلى الخروف إلى الحصان وإلى الحمار، ولم يعد الفلاحون يستطيعون تناول ولا حتى الخبز الجاف فى طعامهم، وأنا أرى حولى كل يوم المزيد من الأثواب الرثة والأسمال البالية والخرق، وأرى المزيد من القلق والتوتر). وتقول (أصابنى اليأس والملل من تكرار نفس الحكايات كل يوم، عن ظلم الفقراء وقهرهم وسرقتهم، فإذا كان الفلاح يمتلك خروفا، جاء المدير وأكله، وإذا كان الفلاح يمتلك شجرة، جاء الناظر وقطعها لتحمية نار فرن مطبخه، كيف لنا بعد ذلك أن نندهش، إذا أراد أصدقائى الفلاحون أن يكذبوا، أو أن يحاولوا إخفاء أموالهم).

لاحظوا أنها كتبت (أصدقائى الفلاحون)، ومع مرور السنوات تصبح أكثر توحّداً معهم، مع أولئك المعذبين الملعونين فى الأرض، فهى تقول مثلاً فى إحدى رسائلها (أخى يوسف)، وهى تتحدّث عن أحد الفلاحين، ثم تقول (إن شعبنا ....)، وهى لا تقصد الشعب الإنجليزى، وإنما تقصد الشعب المصرى، ثم تذهب إلى أبعد من ذلك

عندما تقول فى إحدى رسائلها (نحن الفلاحون الفقراء...) و(أنتم الأوروبيون...). خلال صيف العام ١٨٦٩، كانت مضطرة إلى الإقامة فى بولاق من ضواحى القاهرة، كانت تشعر كما لو أنها كانت فى منفى، ولا تحلم إلا بالعودة إلى مصر العليا، قالت (لا أريد أن أموت فى بولاق، أفضل أن أموت وسط شعبى، فى الصعيد الذى أحببته) هكذا أشارت إلى المحيطين بها، وهى تفقد قواها، يوم ١٥ يونيو ١٨٦٩ . ستموت لادى دف جوردن بعد هذا التاريخ بشهر، ولن تجد الوقت الكافى للعودة إلى الصعيد، وستدفن فى مدافن الإنجليز بالقاهرة.

انظر مقال: الفلاح رقم (٤٩).

٤٠ - الكُتَّاب الرحَّالة / Ecrivains-voyageurs

إن كتاب رحلة سترابون إلى مصر، والتى وقعت أحداثها فى العام العشرين قبل ميلاد المسيح، يمكن اعتباره كتاب رحلات ممتع، بالإضافة إلى كونه كتاب إرشادات للمسافرين إلى مصر. قبل ذلك بحوالى خمسة قرون، كان هيرودوت قد جاء إلى مصر، وهو مؤلف إغريقى مشهور، وقدّم لنا عرضًا لرحلته فى كتاب، كان أقل دقة بكثير من ذلك الذى قدّمه سترابون، ورغم ذلك فإن كتاب هيرودوت يدلّ على أن المؤلف كان كاتبًا ماهرًا، فقد صاغ جملا عبرت القرون، مثل عبارة (مصر هبة النيل)، التى ما زالت متداولة حتى الآن، وهى من العبارات الأكثر تكرارًا بالمقاييس العالمية.

لكن هناك كذلك الكثير من الأقلام، الأقرب زمنيًا إلى عصرنا، كان وادى النيل قد اجتذبها إليه، وألهمها كتابات عديدة. ففى القاهرة سنة ١٩٣٣، صدر بالفرنسية فى جزأين كتاب (رحَّالة وكُتَّاب فرنسيون فى مصر)، وهو للمؤلف چان مارى كاريه، وقد أصبح هذا الكتاب الجميل جدًا من كلاسيكيات موضوعنا. كان المؤلف قد انكبّ على

كل الكتابات والنصوص، التى صدرت فى فرنسا منذ القرن السادس عشر، فى موضوع الرحلة إلى مصر.

كانت تلك الكتابات والنصوص فى الأساس متعلقة، برحلة الحجّاج المسيحيين، الذين يمرّون على مصر فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين، أو فى طريق عودتهم منها، وهى فى مجموعها كتابات تقريبية تخيّلية تفتقر إلى الدقة، وغير محكمة السرد، ومصحوبة أحيانًا ببعض الرسومات الخيالية المبتكرة، والتى كان يتم تداولها من دير إلى آخر، ومن قصر إلى قصر. كان المؤلفون يستلهمون الحكايات من بعضهم البعض، ويعيدون استنساخ نفس الأخطاء.

مثلاً فى سنة ١٥٥٤، كتب الطبيب الباريسى بيار بولون دى مان، يصف أبا الهول فى الجيزة قائلا (إنه مثل وحش منحوت فى الصخر، له مقدمة عذراء ومؤخرة أسد). فى حين كتب الراهب أندريه تيفيه من أنجولام [مدينة فرنسية] قائلاً (إنه برأس مستدير، محاط بخصلات من الشعر، فوقها حقل من الزهور). ولكننا خلال القرن السابع عشر نشاهد مولد الرحالة المحترفين، الذين كانت رحلاتهم غالبًا بدافع من الفضول العلمي، والنهم إلى كل ما هو غريب مخالف للطبيعة التى عرفوها فى أوروبا. كان ملوك أوروبا يكلفون هؤلاء الرحّالة، بالسفر إلى مصر، لجمع كل ما يمكن جمعه من الميداليات التذكارية، والعملات المعدنية، والمخطوطات العربية.

من بين أولئك الرحّالة، الدنمركى فردريك نوردن، والإنجليزى ريتشارد بوكوك، والأب الدومنيكان چان فانسليب الألمانى الأصل، الذى عمل لحساب كولبير [وزير لويس الرابع عشر ملك فرنسا]. كان هؤلاء هم أوائل المستكشفين المغامرين بالذهاب إلى مصر العليا، وقد ترجمت حكايات رحلاتهم إلى لغات عديدة. كان الفرنسى كونستانتان فرنسوا دى شاسبوف، كاتبًا حقيقيًا موهوبًا، لكنه اتخذ لنفسه اسم ڤولنى تكريمًا لفولتير. بدأت رحلة ڤولنى إلى مصر قبيل الثورة الفرنسية، بعد أن كان إعداده لهذه

الرحلة قد استغرق منه عامًا كاملاً، تعلّم خلاله أشياء مختلفة منها مثلاً، طريقة ركوب الخيل بدون سرج أو لجام، ومحاولة التعوّد على النوم فى العراء.

وإذا كانت رحلة ڤولنى قد اقتصرت على القاهرة، فإن حكاياته كانت دقيقة إلى حد كبير، ورواياته ممتعة إلى حد الوقوع فى أسر هواها، حيث إن قرّاء كتابه (الرحلة إلى سوريا ومصر)، يمكنهم أن يعرفوا كل شىء عن عمارة المنازل، وعن تحصينات ميناء الإسكندرية، وعن طريقة عمل الجمارك، وعن طريقة تحصيل الضرائب. أكثر الأشياء وضوحًا فى هذا الكتاب، هو بؤس الفلاح المصرى، فى بلد تعمّه الفوضى.

أما رحلة دومينيك فيفان دينان، التى قام بها بين عامى ٩٨-١٧٩٩، فى معيّة بونابارت، فهى رحلة مختلفة جدًا عن كل ما عداها؛ وذلك لأن هذا الرجل كان يعرف كيف يتذوّق الجمال فى كل ما حوله، فقد حكى ورسم كل شىء رآه بأسلوب سلس مزج فيه بين كل الأنواع الأدبية. فهو فى كتابه (الرحلة إلى مصر السفلى والعليا)، يكون أحيانًا مراسلاً حربيًا، وأحيانًا مؤرخًا للوقائع والأحداث، ومحللاً دارسًا للأجناس البشرية. هذا الكتاب يلاقى فى فرنسا النجاح الهائل الذى يستحقه. فى هذا الكتاب السهل القراءة، الزاخر بالموضوعات وبالصور والألوان، ننتقل بسلاسة من وصف منظر معركة حربية، إلى منظر اكتشاف عجائب الفن الفرعونى المبهرة. إن دينان يعرف بموهبة حقيقية، كيف يجعلنا بين طلقتى مدفع أو بندقية، نشاركه مشاعره وانفعالاته.

ولنحاول أن ننسى شاتوبريان [دبلوماسى ومؤلف وشاعر فرنسى]، الذى يأتى إلى مصر بعد أعوام قليلة من رحلة دينان، ليعبر دلتا مصر بأسرع مما ينبغى، بحيث لا يتمكن من إدراك كنه هذا البلد، رغم أنه كتب بعض الصفحات الممتعة. فى نفس هذا السياق يمكننا أن نأسف، أن ڤيكتور هوجو لم يتمكن من عبور البحر المتوسّط، وإنما اكتفى من مكتبه فى باريس، بتخيّل منظر بونابارت مع الباشا المصرى، فى قصائده

المعروفة باسم الشرقيات، إذ يكتب (إنه المنتصر المتحمّس الممتلئ هيبة/ المعجِز الذى يدهش أرض المعجزات/ فالشيوخ متقدمو السن يبجّلونه/ إنه الأمير الشاب الحذر/ والشعوب تخشى أسلحته غير المسبوقة/ وفى الأعين المنبهرة لرجال القبائل/ يظهر كرجل رفيع المقام/ مثل نبيّ أو رسول قادم من الغرب).

أما تيوفيل جوتييه [مؤلف فرنسى]، فإنه يبدأ فى الاحتفاء بمصر قبل السفر إليها، إذ إن أرض الفراعنة تؤجج روحه إلى درجة التوحد معها. يقول (نحن لا نكون دائمًا مواطنى البلد الذى نولد فيه)، ويقول إنه يشعر كما لو كان (تركيا فى مصر). قام تيوفيل بجمع وثائق مهمة ومتعددة عن مصر، ثم بدأ فى كتابة مسوّدات مطوّلة ومخطوطات أولى، وذلك قبل أن ينشر سنة ١٨٥٨ (رواية المومياء)، التى ستجعل أجيالاً متتالية من الفرنسيين يحلمون بالسفر إلى مصر، بالإضافة إلى أنها ستلهم الكثير من المؤلفين رواياتهم عن مصر. لن يكتشف تيوفيل البلد الذى يحبّه قلبه إلا سنة ١٨٦٩، عندما يذهب إلى مصر لحضور حفلات افتتاح قناة السويس، فيصف البلد لقرّاء جريدة الشرق الفرنسية.

أما جيرار دو نرفال(*) فهو حالة خاصة جداً. ففى سنة ١٨٤٣ عندما يقرر الاستقرار فى القاهرة، فإنه لا يهتم بالآثار ومدن الموتى التى يهتم بها المستكشفون الفضوليون، ولكنه يفضّل عليها مدن الأحياء، ويعيش فيها الحياة التى يعيشها المصريون المعاصرون يومًا بيوم. أولاً استأجر منزلاً، ثم ارتدى الملابس العربية، وحلق شعر رأسه الطويل ليتمكن من وضع الطاقية أو الطربوش، ووصل به الأمر إلى شراء جارية شابة، عملا بنصيحة قنصل فرنسا، لتظل معه فى منزله كزوجة له، وبذلك تجنّب أن تؤدى حقيقة كونه أعزب، إلى إثارة قلق جيرانه الرجال على نسائهم. سنة ١٨٥١ عندما يعود إلى باريس، يسجل تجاربه تلك فى كتاب ممتع بعنوان (رحلة إلى الشرق)، حيث يصف بأسلوب روائى، فترة إقامته فى القاهرة، التى لم تستمر إلا لبضعة أشهر.

أما جوستاف فلوبير(*) وصديقه الذى لحق به ماكسيم دى كامب(*)، فقد اختارا أن يقطعا مصر جيئة وذهابًا، الأول باعتباره شاعرًا متسكعًا حالمًا، والثانى باعتباره مراقبًا مدققًا مجتهدًا، يحاول أن يستكمل مؤلفه عن خط سير الرحلة، بالتقاط بعض الصور الفوتوغرافية [سنة ١٨٤٩ كان التصوير الفوتوغرافى فى بداياته]. أما فلوبير فهو لم يكتب إلا بعض الملاحظات المتعجِّلة الشديدة الواقعية عن مصر وسكانها، والتى قد تصل أحيانًا إلى حدّ السخرية الوقحة التى تشوّه الواقع. وقد نجح أثناء زيارته للقاهرة، فى كتابة بعض الجمل الخاطفة اللامعة، عن المومسات، والرهبان الأقباط، وأوروبيى القاهرة. وقد تكفلت إحدى بنات أخوته لاحقا، فى طبعة الكتاب الأولى، بحذف تلك الجمل الفجّة الصريحة، من نص (الرحلة إلى مصر)، وهى الجمل التى لن نكتشفها إلا سنة ١٩٩١، عندما طبع الكتاب بدون حذف.

ثم إن هناك نساء أديبات، كنّ قد جئن فى رحلة إلى مصر بصحبة أزواجهن، مثل السويسرية فاليرى دى جاسباران، وأخريات فضّلن الإقامة والاستقرار فى مصر، والقيام بهذه المغامرة وحدهن دون أزواجهن، مثل الإيطالية أماليا نيتزولى، بلا خوف من ملاقاة الصعوبات العملية، أو من الاجتراء على المحاذير والممنوعات المحلية. وقد تميّزت النساء على الرجال، بقدرتهن على الدخول إلى الأماكن المخصصة للحريم، وهكذا تمكنت الفرنسية أوليمب أودوارد من سنة ١٨٦٥، من تأليف كتابها (رفع الحجاب عن ألغاز مصر) الذى وصفت فيه أخلاقيات الطبقات الحاكمة، ولكن بقدر من العنف والشراسة.

بعد أربعين عامًا، يكتب مؤلف آخر بنفس القدر من العنف والشراسة، ولكن بقدر أكبر من الموهبة الأدبية، هو الفرنسى بيار لوتى(*)، الذى ينتقد توجّه البلاد المصرية إلى تقليد الغرب، ويدين كذلك الاحتلال الإنجليزى لمصر. وخلال النصف الأول من القرن العشرين، يذهب إلى مصر عدد من كبار الكتاب، لمحاولة استكشافها والكتابة عنها، أمثال موريس باريه/ وهنرى بوردو/ ورولان دورجوليه/ وجان كوكتو، ورغم تميّز

قدراتهم الكتابية، إلا أنهم لم يستطيعوا أحيانًا إخفاء تفاهة حكاياتهم. وهكذا لم يظهر أىٌ منهم فى الكتاب الذى أشرت إليه فى بداية هذا المقال، كتاب جان مارى كاريه، الذى كان قد توقف فيه عند تاريخ افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩، وذلك لأنه يعتقد أن من ذهبوا إلى مصر بعد هذا التاريخ، لم يكونوا رحّالة مستكشفين مغامرين، وإنما هم فقط سيّاح. وهو رأى يتّسم إلى حدٍ ما بالقسوة.

٤١ - إدفو / Edfou

للتعرف على الحياة الدينية فى مصر القديمة، عليك بزيارة معبد إدفو، فهو الحل المثالى لتحقيق هذا الهدف هذا عدا أنه يتميّز عن غيره من المعابد، بكونه يحتفظ بحالته كما هى، منذ العصر البطلمى، بالإضافة إلى كونه نموذجًا للمعبد التقليدى الكلاسيكى كما ينبغى أن يكون، بدون أية إضافات أو نواقص. إنه ليس محفوراً فى الصخر مثل معبد أبى سمبل، وليس مختل البناء والتكوين مثل معبد جزيرة فيلة، ولن يؤدى بك إلى الشعور بالدوار والضياع مثل معابد الكرنك. هو معبد نموذجى طبّق مشيّدوه فى بنائه، بدقة متناهية، كل قوانين وقواعد البناء الخاصة بالمعبد المصرى القديم. لكننا قد نشعر فقط ببعض الحسرة لأنه مشيّد فى العصر البطلمى، وذلك بسبب أن الأشكال الآدمية فى هذا العصر، كانت قد فقدت الملامح الرقيقة والجميلة التى كانت لها فى العصور الأقدم.

تقع مدينة إدفو على الضفة الغربية للنيل، فى منتصف المسافة تماماً بين الأقصر وأسوان. وقد بدأ بناء المعبد الحالى للمدينة سنة ٢٣٧ ق.م فى زمن حكم بطلميوس الثالث، المعروف باسم يو إرجتيس [معناها باليونانية صانع الخيرات]، ولم ينته بناؤه إلا بعد ذلك بحوالى ١٨٠ عامًا، فى زمن حكم بطلميوس الثانى عشر، المعروف باسم نيوس ديونيسوس [معناها باليونانية إله الخمر الجديد]، وهو الذى صوّر نفسه على

البرجين الأماميين للصرح الأول، عند مدخل المعبد، فى المناظر التقليدية المنحوتة فى الأحجار، والتى نرى فيها الفرعون سيّد مصر، ممسكًا بالعشرات من الأعداء من شعور رؤوسهم، ليمسح بهم أرض المعبد ويدهسهم بقدميه.

يبدو لنا هذا المعبد كما لو كان حصنًا أو قلعة حربية، بسبب بوابته الضخمة والأسوار العالية السميكة التى تحيط به، وتمتد حوله مئات الأمتار (بطول ١٣٧ مترًا وعرض ٧٩ مترًا). إن وجود هذا السور هو الاحتياط المطلوب، لضمان الأمن والأمان، للمعبد وللعبّاد، من أوساخ العالم الخارجى المحيط به. نحن هنا فى منطقة نفوذ الإله حورس، المعروف باسم بحدت، وتعنى بالمصرية القديمة المنتسب إلى إدفو، وهو الذى يصوّر عادة فى شكل قرص شمس بجناحى صقر. وقد اعتقد المصريون القدماء، أن انتظام عمل الكون، يتوقف على عبادة هذا الإله، ثلاث مرات فى اليوم. هذا بالإضافة إلى ضرورة خروج الإله فى احتفالات مختلفة، وفى رحلات بمركبه المقدّس.

ولكى يكون هذا المعبد مثاليًا فى بنائه، كان ينبغى أن يكون له طريق كباش، يقود الزائر من مرسى المعبد النيلى، إلى بوابته الضخمة، حيث ينبغى أن يكون المدخل الرئيسى، محاطًا على كل جانب من جانبيه الاثنين بمسلة ضخمة، لم تعد حاليًا موجودة. وكذلك البحيرة المقدّسة هى الأخرى لا وجود لها، ويبدو أنها كانت موجودة هنا فعلا ذات يوم، ولكنها اختفت منذ قرون طويلة تحت بيوت سكان المدينة. ولكن لا يجب أن تكون مطالبنا مبالغًا فيها إلى هذا الحد، ولنحمد الله الذى أرسل لنا الرمال، التى غطت أغلب أجزاء هذا المعبد، ليظل محفوظًا تحتها حتى السنوات ١٨٦٠/١٨٧٠ وهو ما حفظ لنا هذا المعبد من اعتداءات الطبيعة والبشر عليه.

إن المعبد المصرى لا يتشابه فى شىء مع الكنيسة أو المسجد أو المعبد اليهودى، فهو مثلاً لم يكن مكانًا لاجتماع المؤمنين للصلاة، أو لحضور إحدى المناسبات الدينية. حتى الكاهن المصرى القديم، يختلف عن رجال الدين فى هذه الديانات، فهو لم يكن

يتحدّث إلى الشعب عن حقائق إلهية أوحى بها إليه الإله، ولكنه كان أقرب فى الشكل والمضمون إلى الموظف التى توكل إليه مهام محددة، ليحلّ محل ملك البلاد، أو ليقوم بدلا منه، بتنفيذ وإنجاز الطقوس الضرورية، اللازمة لانتظام الكون فى الدوران.

وحتى يسمح للكاهن بدخول المعبد، وهو ما كان يعتبر بمثابة تدنيس لحرمة المعبد وقدسيته، كان ينبغى أولاً على هذا الكاهن ممارسة طقوس التطهّر، بنثر الماء على الجسم كله، وغسل الفم من الداخل (المضمضة)، وذلك بعد أن يكون المتطهر قد حلق شعر جسمه كله، بما فى ذلك شعر الحاجبين. هذا هو الشخص الوحيد المصرّح له بدخول المعبد. أما بقية جمهور الشعب من عامة الناس، فغير مسموح لهم بالدخول، بل يظلون خارج المعبد، ولا يستطيعون أبداً الحصول على إذن بالدخول. كان هناك تمثالان ضخمان من الجرانيت، على جانبى البوّابة، يمثلأن الإله حورس بشكل صقر، ويقومان بحراسة المعبد.

يظل أفراد الشعب واقفين فى الفناء أمام الصرح الأمامى للمعبد، يتأملون المناظر المنحوتة على جداره الخارجى، والتى تمثل الانتصارات العسكرية للفرعون، ويفرحون بمنظر الرايات، التى تعلو برجى الصرح الأمامى، والتى يلعب بها الهواء. هذا الشعب لم يكن حتى يعرف بوجود الأربعة عشر طابقًا من الحجرات، الموجودة داخل الصرح. فقط قد يتركهم الكهنة يلمحون من على بعد، عبر البوابة نصف المفتوحة، منظر جزء من فناء المعبد.

أما نحن الآن فنستطيع لحسن الحظ، أن ندخل إلى المعبد عبر بوابته، إلى فنائه الأمامى التى تحيط به الأعمدة من ثلاث جهات، ويمكننا كذلك أن نكتشف حوائط المعبد الداخلية، التى تشبه قصة ضخمة من القصص المصوّرة للأطفال، فلحسن الحظ لم يتمكن مناهضو الوثنية خلال العصر المسيحى الأول، من تحطيم كل الوجوه المحفورة على الحوائط بهراواتهم، كما لو أن أياديهم كانت قد ارتعشت أمام كل تلك التحف الفنية الجميلة، قبل أن يأتوا عليها كلها. هل هم أيضًا المسئولون عن وجود كل تلك

الثقوب المحفورة فى جدران المعبد؟ لقد لجأت إليها العصافير الصغيرة، وصنعت منها أعشاشًا لها، فأصبحت تلك العصافير كما لو كانت علامات هيروغليفية حيّة متحركة، يمكن أن يخلط بينها الزائر، وبين العصافير الصغيرة الأخرى المحفورة على الجدران الحجرية.

وككل المعابد الكبيرة كان معبد إدفو مؤسسة حقيقية ضخمة، تستخدم آلاف العمّال وتوظف آلاف الأشخاص، وقد وضع سيرچ سونرون، وهو أحد أفضل علماء المصريات الفرنسيين، كتابًا جميلاً خلابًا، بعنوان (كهنة مصر القديمة)، طبعته له دار سوى الفرنسية سنة ١٩٥٧، يتخيل فيه حياة الكهنة اليومية، داخل المعابد المصرية القديمة. انظروا كيف يصف بداية النهار

(مصر ما زالت نائمة، إذ يسود الصمت فوق كل شىء، فى المدن والأرياف والنيل والصحراء، وفى نفس الوقت، وخلف الجدران العالية للمعبد المقدّس، وفوق سطحه، هناك رجل يسهر، لأنه مكلف بمراقبة المجموعات النجمية، وقبيل اختفاء النجوم وقرب بزوغ النهار، يبدأ فى تدوين تسرّب ساعات الليل فى دفاتره، لقد آن الأوان... فبإشارة منه يستيقظ جزء كبير من سكان المعبد المقدّس، فتشعل النيران وتظهر الأضواء، وتستأنف الحياة، فبعد ساعات قليلة تبدأ الخدمة المقدّسة، وعلى كل فرد أن يكون مستعداً لأداء عمله.

تبدأ ورش ومعامل الحرف اليدوية فى الحركة، وكذلك المخازن والمخابز، ويقدّم كتبة المعبد إلى رؤساء العمّال، قائمة التقدمات والقرابين الخاصة باليوم الذى يبدأ، والتى ينبغى أن تجهّز.... يجب الإسراع، فحين تكون الأفران قد أشعلت نيرانها، والمخبوزات من فطائر وخبز فى طور الإعداد، والفواكه والخضروات قد أحضرت من الحقول، وتمّ وضعها فى أكوام على الصوانى، يكون الجزارون منشغلين بإعداد حيوان الذبيحة، الذى كان الكاهن البيطار قد كشف عليه وأقر بصلاحيته، وبكونه مطابقًا لشروط

الطهارة، ويكون المحاسبون منشغلين بتسجيل أعداد المنتجات، المفترض أن تستعمل في التقدمة، وصغار الكهنة منشغلين بتطهير قطع اللحم، في ماء البئر المقدّس.

هكذا تمرّ الساعات حتى تبيَض السماء في الشرق، فتدبّ الحياة في جزء آخر من أجزاء المدينة المقدّسة داخل نطاق المعبد، ها هم كبار الكهنة يغادرون منازلهم ومقارهم، وها هم يكونون مجموعات صغيرة، تتوجّه إلى البحيرة المقدّسة، ويمكن رؤيتهم بسهولة حتى في الأماكن المعتمة، وذلك بفضل بياض ملابسهم الكتانية الشاهق، ثم ينزلون إلى مياه البحيرة، التي ما زالت تطفو فوقها سحابة خفيفة من ضباب الصباح، باستعمال السلالم الموجودة في كل ركن من أركان البحيرة الأربعة. وبممارسة طقس الاغتسال والتطهر بالماء، هم لا يطهرون فقط أجسادهم، وإنما كذلك أرواحهم، إذ تتخللهم بالتدريج أرواح الآلهة).

توجد إلى جوار قاعة الأعمدة الأولى حجرة صغيرة، تسمى منزل الصباح، يتطهر فيها الكهنة من جديد، قبل الاقتراب من قدس الأقداس، حيث المحراب المقدّس أو مقصورة الإله. أما قاعة الأعمدة الثانية، فهي تؤدّي إلى معمل كيميائي، حيث يتمّ تحضير كل العطور المستعملة، في الطقوس والمراسم المختلفة، وقد كتبت طرق تحضير تلك العطور بالعلامات الهيروغليفية على جدران المعمل. كلما تقدّمنا في المعبد باتجاه قدس الأقداس، كلما انخفض سقف الحجرات المتتابعة وانكمشت أحجامها ومساحاتها، وانخفضت إضاءتها. نحن الآن في قاعة التقدمات والقرابين، حيث تقدّم الصحائف والأطباق المتخمة بالأطعمة والمؤن، وسط موكب طقسي مرسوم، محدد الخطوات مسبقا، وكل ذلك حتى ترضى الآلهة عن القرابين، وتنفتح شهيتها لها.

لا يتبقى لنا الآن إلا اكتشاف قدس الأقداس، الذي تشغل منتصفه كتلة ضخمة ثقيلة من الجرانيت الرمادي، هي مقصورة الإله أو هيكله المقدّس، والتي يبلغ ارتفاعها أربعة أمتار، والتي كان يوجد بداخلها ذات يوم تمثال الإله الصقر حورس، كانوا يعتقدون أن إلههم يتجسّد في تلك المنحوتة، المغطاة بالذهب والأحجار الكريمة. كان

الوصول إلى تمثال الإله، مسموحًا به لشخصين اثنين فقط لا غير هما الملك وكبير كهنة المعبد. كان من المعروف أن الإله يخرج من مقصورته ثلاث مرّات فى اليوم، فى الصباح وعند الظهر وفى المساء، أولاً لتجدّد له القرابين، ثانيًا ليتلقى حمّامه اليومى، فيغسل وتقدم له ملابس جديدة ويحصل كذلك على زينته.

بالإضافة إلى هذه الخدمة اليومية، كان تمثال الإله الصقر حورس، يخرج من مكمنه بانتظام، للذهاب مثلاً فى جولة على مياه البحيرة المقدّسة. ثم مرة واحدة فى العام، يذهب خلال فصل الربيع، لعمل رحلة طويلة على مياه النيل، مبحرًا فى اتجاه الشمال، للقاء حاتحور إلهة الحب والمتعة، القادمة من معبدها فى دندرة، فيصحبها عائدًا بها إلى إدفو، حيث تقضى الليل معه. كان هذا هو اللقاء السنوى بينهما، الذى يتحدان فيه، ثم تزور حاتحور قدس أقداس المعبد عدة مرات، قبل أن تعود إلى مقرها فى دندرة، على بعد ١٥٠ كيلومترًا إلى الشمال من إدفو. هكذا تستمر الحياة.

انظر مقالات: الآلهة رقم (٣٥)/ روبرتس رقم (١٢٣).

٤٢ – علماء المصريات / Egyptologues

أنا لست عالم مصريات. هذه الكلمة تعنى (الباحث المتخصص فى علوم متعلقة بمصر القديمة، القادر على فكّ شفرة المصادر المكتوبة، والذى قام بعمل دراسات جامعية معترف بها، وحصل على شهادة بذلك، ثم شغل منصبًا تدريسيًا، أو وظيفة بحثية متصلة بهذا العلم، ويقوم بانتظام بنشر نتائج أبحاثه العلمية). إن هذا التعريف يمكن أن ينطبق مثلاً على دومينيك فالبيل، رئيسة الجمعية الفرنسية لعلم المصريات، والأستاذة حاليًا بجامعة السوربون، بعد أن كانت قد شغلت منصب مديرة معهد البرديات والمصريات، فى مدينة ليل بشمال فرنسا، والتى شاركتنى متعة تأليف كتاب (حجر رشيد)، وقد قدّم كل منا لهذا الكتاب، كل إمكانياته وكفاءاته، التى تكاملت داخل

الفصول دون أن تختلط. وعلى عكس ما يمكن أن يعتقده الكثيرون، فإن علماء المصريات لا ينغلقون على تخصصاتهم الدقيقة.

هؤلاء العشاق لمصر، عادة ما يعيشون سنوات طويلة، فى الأماكن التى أحبوها، أى فى مصر. وهم عادة ما يعودون إلى تلك الأماكن بشكل منتظم، للعمل فى مواقع الحفائر الأثرية. ومثل شامبوليون وماسبيرو وغيرهما من الأجداد النابهين، تهتم الأجيال الحالية من علماء المصريات بالمصريين من اللحم والدم، أى بالمصريين المعاصرين لهم، مثل أولئك الذين يعيشون معهم حاليًا فى مصر. إن معرفة اللغة المصرية القديمة لا تمنع علماء المصريات الفرنسيين، من تعلم اللغة العربية المعاصرة ومحاولة التحدّث بها.

هناك كتاب يعرفه علماء المصريات باسم الكتاب ذى الغلاف الأحمر، وهو مثل الكتاب المقدّس لهم، وهو قاموس علماء المصريات، والذى يصدر فى لندن ويعاد فحص محتوياته كل بضعة سنوات، لتضاف إليه المعلومات الجديدة. يحرص المسئولون فى هذا القاموس، على عدم ظهور أية أسماء لأى علماء فيه، إلا بعد انتقالهم إلى الرفيق الأعلى، وهذا هو سبب عدم ظهور أسماء العلماء المعاصرين فيه، حتى أكثرهم شهرة، طالما ظلوا على قيد الحياة.

هناك أجيال متلاحقة من أولئك العلماء، فمنذ الجيل الأول وعلى رأسه شامبوليون، جاء خلفاء كثيرون، تخرجوا من كولاچ دو فرانس (كلية فرنسا)، من أمثال چان لوكلان وچان يويوت ونيكولا جريمال، ثم الجيل الحالى وعلى رأسه كرستيان دو روش نوبلكور، الأمينة العامة الفخرية لمتحف اللوڤر، وباسكال ڤرنو الحاصل على لقب أستاذ كرسى اللغويات (الفيلولوجيا)، فى الكلية العملية للدراسات العليا. هذان الأخيران لن يحصلا على المكان الذى يستحقانه فى مجمع الآلهة ذى الغلاف الأحمر، إلا بعد أن يكونا قد عبرا إلى الجهة الأخرى من نهر الحياة.

إن علماء المصريات يشكلون حالياً جماعة دولية، تتحد وتتسع يوماً بعد يوم. تأتى ألمانيا دائمًا فى المقدّمة، بفضل أبحاث جامعية من الطراز الأول، وكذلك إمكانيات ضخمة ينظمها ويديرها بكفاءة معهد الآثار فى برلين. أما البريطانيون فهم بلا نظير فى مجالين اثنين، أولهما الدراسات الأثرية الخاصة بالمدن القديمة، وثانيهما هو تبسيط وتعميم العلوم المتخصصة، أى مساعدة القارئ العادى على القراءة فى المصريات. أما فيما يتعلق بالفرنسيين الموجودين بكثرة فى مواقع الحفائر الأثرية، فإن عملهم يرتكن إلى مؤسسات علمية راسخة قوية، مثل المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة.

ولكن هناك قادمين جددا يؤكدون وجودهم فى علم المصريات، فبعد الأمريكيين والبلجيكيين والإسبانيين والإيطاليين والبولنديين، نحن نشاهد الآن مثلاً مولد علم مصريات يابانى. وذلك طبعًا مع وضع المصريين أصحاب البلد فى الاعتبار، فهم يشرفون على قطاع الآثار فى وزارة الثقافة، ويشاركون فى أعمال التنقيب الأثرى على امتداد طول البلاد وعرضها، وقد ينظمون هم أنفسهم بعض أعمال التنقيب، فى محاولة للإسراع بتعويض تأخرهم، واللحاق بغيرهم فى مجالات التدريس والبحث.

توجد فى مصر الآن حوالى ٢٢٠ بعثة أثرية أجنبية، يصل إجمالى عدد أفرادها إلى حوالى ١٠٠٠ شخص. إنهم يشبهون تجمعًا دوليًا كبيراً لعلماء المصريات، وهم يعقدون دائمًا فيما بينهم المؤتمرات بشكل منتظم، إلى جانب إصدار المجلات العلمية المحترمة باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، بالإضافة إلى أحدث تكنولوجيات المواقع الإلكترونية على شبكة المعلومات الدولية العنكبوتية (الإنترنت)، التى غالبًا ما تقدّمها الجامعات، مثل موقع جامعة أوتريشت الهولندية.

إن أعمال التنقيب فى مصر يمكن أن تكون مرهقة جداً، بسبب ارتفاع حرارة الجو، وبسبب الإزعاج الذى يمكن أن تسببه بعض المشاكل الإدارية، وبعض صعوبات التمويل. ثم إن هذه المهنة تحتّم أن يكون للشخص الذى يمارسها، بعض المواصفات

الجسمانية الخاصة. فمثلاً خلال العقد الأخير من القرن العشرين، حدث أن اضطر اثنان من علماء الآثار المصرية إلى التحوّل إلى ضفادع بشرية، لاكتشاف أعماق البحر أمام مدينة الإسكندرية، وهما الفرنسيان چان إيف أمبور وچان بيار كورتجياني.

وحيث إن علم المصريات يغطى فترة زمنية تصل إلى بضعة آلاف من السنوات، ويشتمل على مجالات بحث متنوّعة جداً، فقد أصبح هذا العلم يميل مع الوقت أكثر فأكثر إلى التخصص. فالمرء يبدأ بأن يكون عالم مصريات، ولكنه بعد ذلك يتخصص فى الخطوط والكتابات أو فى اللغات أو فى البرديات أو فى تاريخ الفن أو فى تاريخ الديانة. ثم إن كل هذه العلوم تستفيد حاليًا، من أحدث تقنيات استعمال برامج الحاسب الآلى، التى تساعد العالم مثلاً على تخيّل إعادة بناء المعبد. إلا أن هناك كذلك مجهود شاق، ووسائل معقدة، مثلاً فى دراسة أساسات المبانى الأثرية، وطرق ترميم المجموعات المعمارية المبنية من الطوب النىّ، وطرق معالجة اللوحات الجدارية الملونة.

كل هذا العمل يحتاج إلى جانب التقنيات الحديثة، والمجهود الشاق بلا كلل أو ملل إلى الكثير من الصبر، والقدرة على الحدس والتخمين، والقدرة على استعمال البديهة، بالإضافة أحيانًا إلى .... الحظ. الحظ الذى سمح لبيار مونتيه، فى تانيس بالدلتا سنة ١٩٣٩، باكتشاف المقابر والكنوز الملكية الخاصة بالأسرتين ٢٢ و٢٣ . إنه اكتشاف ضخم مذهل، تم إنجازه بوسائل مادية محدودة جداً، تتفق مع إمكانيات تلك الفترة، فى موقع أثرى كان مهملاً تمامًا من طرف علماء الآثار حتى ذلك التاريخ. يجب أن نقرأ كتاب (رسائل من تانيس) لبيار مونتيه، الصادر من دار نشر دى روشيه سنة ١٩٩٨ والتى قدمها وعلق عليها كل من، ابنته كامى مونتيه بوكور، وكذلك خليفة مونتيه فى تانيس العالم الأثرى چان يويوت.

هناك عدد قليل من الوثائق التى أمكنها أن تعبّر بهذه الدقة، عن العمل المنهك الذى يقوم به العالم الأثرى، خاصة فى صراعه مع طبيعة مكانية قاسية صعبة، ومع

نقص فى التمويل، ومع مصاعب من كل نوع. كان مونتيه يعمل فى حقل التنقيب الخاص به للموسم العاشر على التوالى، وهى مواسم شتوية لتجنب اشتداد الحرارة فى فصل الصيف، كان يعمل مع فريق مختزل لضغط المصروفات. ثم كانت المفاجأة الإلهية يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٩، كما أشار فى تلغراف سريع إلى زوجته فى فرنسا (مقبرة ملكية رائعة الجمال/ بيار).

ثم فى ١٧ مارس، يترك الفنان العنان لحماسه فى خطاب فيكتب (اليوم هو يوم رائع، جدير بليلة من ألف ليلة وليلة، أمس قمنا باكتشاف بئر المقبرة وتفريغه من محتوياته، فى القاعة ذات البلاطات البيضاء الجميلة، ثم فتحنا اليوم الباب الذى كان مسدوداً بحائط، ثم دخلت ... هل يمكنك أن تحذرى إلى أين دخلت؟ دخلت إلى مقبرة الملك بسوسنس من الأسرة ٢٢ لأجد تابوته الذهبى المزدوج، وهو تحفة من تحف فنون صياغة المعادن فى الزمن القديم، وجدت التابوت مرتكنًا إلى حائط صغير، بين مومياوين تكسوهما وتلفّهما شرائط الأقمشة الكتانية، وتزينهما قطع المصاغ. وفى النصف الآخر من المقبرة، وجدنا تماثيل الأوشابتى(*) [الذين يردّون على طلبات الملك المتوفى]، والكثير من الكؤوس، بالإضافة إلى وعاء فخارى ضخم، مغلق ومختوم، لا شك فى أنه يحتوى على برديات. ثم إن كل حوائط المقبرة مزخرفة. من المؤكد أن أحداً لم يدخل إلى هذا المكان منذ دفن الملك). ثم قبل أن يرسل الخطاب إلى زوجته يضيف ملحوظة أخيرة (النقوش الرائعة فى حجرة الدفن كلها من الحفر الغائر، والمومياء الملكية موضوعة داخل تابوت ذهبى، موضوع بدوره داخل تابوت آخر من الفضة، له رأس صقر).

ما زال هناك الكثير من الآثار، المدفونة فى باطن الأرض فى مصر، تنتظر من يكتشفها، فى وادى النيل وفى الواحات. إن علم الآثار لم يطفىء بعد شعلة التنقيب فى أرض مصر. ثم إن الاكتشافات الجديدة، مئات الآلاف من القطع المكتشفة، تجعلنا نستأنف البحث فى علوم اللغة، وفى الفنون والديانات. إن الاكتشافات التى تلفت

وسائل الإعلام الانتباه إليها، ليست هى دائمًا أهم الاكتشافات. إن عدم الانتباه أحيانًا إلى الاكتشافات الجادة، يثير الضيق لدى الباحثين الجادين، الذين يعملون بصمت فى موضوعات جافة. يقول أحد الذين قدّمت لهم الآلهة هدايا جميلة، وهو عالم الآثار الفرنسى آلان زيفى، كما لو أنه كان يدافع عن نفسه (نحن لا نبحث عن كنوز، فالكنز الحقيقى هو المعرفة فى حد ذاتها).

إن تواتر الاكتشافات فى مجال علم الآثار المصرية، يبقى جذوة الحب والافتتان مشتعلة، فى قلب الجمهور الفرنسى، تجاه أرض الفراعنة. ليسعد علماء المصريات، فهم على عكس غيرهم من العلماء، يمكنهم أن يتأكدوا من استمرار اهتمام الجمهور بهم، واستمرار تصفيقه لهم.

انظر مقالات: شامبوليون رقم (٢١)/ وماربيت رقم (٨٥).

٤٣ - جنون مصر القديمة / Egyptomanie

احترس من هذه الكلمة فإنها قد تعنى أشياء جد مختلفة، فهى أولا بالمعنى الدارج تعنى الافتتان والشغف بكل ما هو مصرى قديم، ومن هؤلاء المفتونين الشغوفين هناك هواة جمع العلامات الهيروغليفية، وهواة قراءة روايات كريستيان چاك المستوحاة من تاريخ مصر القديمة، وكل الذين ذهبوا إلى مصر لعمل رحلات نيلية بين الأقصر وأسوان، ثم عادوا إلى أوروبا ليتحدثوا طويلا عن رحلتهم، كل هؤلاء يشعرون قليلا أنهم من بين مجانين مصر القديمة.

ولكن يحدث أحيانًا، أن يتخذ هذا الانجذاب إلى مصر القديمة، أشكالاً أكثر غموضًا واضطرابًا، فإن تعلّم أحد المشار إليهم أعلاه قراءة العلامات الهيروغليفية، تولد لديه الإحساس باختراق الأسوار، وبالانتماء إلى عالم الملهمين، المدعوين سرا إلى مواصلة البحث. تصبح مصر فى تلك الحالات، مثل المطعم الإسبانى، الذى يمكن لكل

شخص أن يجد فيه كل طلباته، كل ما يخطر على باله من رغبات، مهما كانت خيالية أو شاذة.

وقد استعملت هذه الكلمة لأول مرة، عند عودة جيش بونابارت من مصر، لتدلّ على التحوير الذى أدخل على بعض أشياء الحياة العادية، بتأثير من اكتشاف العناصر الفنية المصرية القديمة، مثلاً استعمال مبراة أقلام رصاص بشكل رأس الملكة نفرتيتى. هناك مثل آخر هو المبنى التذكارى الجنائزى، الذى بناه سكان مدينة بولونى سير مار لابن بلدتهم، الأثرى الفرنسى أوجست مارييت، معتقدين أن هذا هو ما ينبغى عليهم أن يبنوه له، وكان ذلك سنة ١٨٨٢، حيث إن تمثال الرجل الذى أسس متحف القاهرة، يقف فى بلدة مسقط رأسه، على قاعدة هرمية الشكل، واضعا يده على رأس فرعونى.

طبعًا لاس فيجاس فى الولايات المتحدة قد صنعت أكثر من هذا، عندما وجد سكانها ومستثمروها، بدون جهد كبير، فى رموز مصر القديمة، عناصر فنية نافعة لأذواقهم التى تتعدى كل الحدود. مثلاً الفندق الذى يسمى الأقصر، يتخذ شكلاً هرميًا مكونًا من ثلاثين طابقًا. يقع إلى جواره تمثال لأبى الهول، أكبر حجمًا من تمثال أبى الهول الأصلى على هضبة الجيزة، وتشع من عينيه أضواء ليزر. هذا الجنون بمصر القديمة ذو الألف وجه، كان مادة لدراسات جادة، قام بها من بين العديدين الذين قاموا بها، الفرنسى چان مارسيل إمبار، الذى أجرى حصراً دقيقًا، لكل ما وجد أو يوجد متأثرًا بمصر القديمة، فى معمار باريس وإعلاناتها.

وقد اكتشفنا أن الولع بمصر الفرعونية وبحضارتها، يعود إلى أزمنة قديمة جداً. مثلاً فى روما القديمة، كان الرومان قد نقلوا معهم من مصر عدداً من المسلات المصرية. وقد اتضح كذلك أن روما قد اعتنقت بعض المعتقدات الدينية المصرية الأصل بعد إدخال بعض التعديلات عليها. ثم فى عصر النهضة الأوروبية بداية من القرن

الخامس عشر الميلادى، يظهر من جديد الولع بفنون مصر القديمة، وتحصل فرنسا بدورها على نصيبها منه.

كانت مسألة لغز العلامات الهيروغليفية، تلك الرموز الكتابية المبهمة والغامضة، التى لن تفك شفرتها إلا سنة ١٨٢٢، تحيّر الكثيرين وتلهب خيالهم، فرأى فيها أفراد طائفة البناءون الأحرار (الماسونيون)، مصدراً لحكمة مغلقة أسرارها، وسيكتب أحد أفراد تلك الطائفة رواية بعنوان (سيتوس)، وهو اسم مستوحى من اسم الإله ست، ستلهم فيما بعد الموسيقى موتسارت تأليف أوبرا (الناى السحرى). وكانت الملكة مارى أنطوانيت، زوجة ملك فرنسا لويس السادس عشر، قد أحبّت تماثيل أبى الهول إلى حد الهوس، لدرجة أنها طلبت من مثاليها نحت تماثيل أبى الهول، حتى فى حجرة نومها بقصر فيرساى.

وقد استمر هذا الولع حتى أثناء الثورة الفرنسية، حين أظهر بعض قادتها نفس الجنون، بكل ما هو مصرى قديم، حتى قبل حملة بونابارت، ففى كل احتفالاتهم، كانوا يقيمون المسلات والأهرامات، من عجينة الورق المقوّى (الكارتون)، فى كل ميادين باريس. حتى إنهم كانوا قد أقاموا، فى وسط ميدان الباستيل، يوم ١٠ أغسطس ١٧٩٣، نافورة مياه من الجص الملوّن بلون برونزى، يظهر فيها تمثال لإيزيس جالسة بين أسدين، مرتدية مئزرة (تنورة) مصرية، واضعة التاج الملكى المصرى المعروف باسم النمس على رأسها، وهى تضغط على ثدييها الخصبين، ليخرج منهما السائل الطاهر الشافى الذى يجدد الحياة. كما لو أنهم بعد تخلصهم من سطوة الكنيسة الكاثوليكية ومعتقداتها بعد الثورة، وجدوا رموزا بديلة عند الملوك الآلهة فى مصر القديمة، منبع المعارف.

إلا أن الرقم القياسى لعدد مرات استعمال الرموز والعناصر الفنية من مصر القديمة، كان عندما أصبح نابليون إمبراطوراً، إذ ظهر فى عالم الفنون وقتها، الاتجاه الفنى الذى سُمِّىَ طراز (العودة من مصر)، وقد ازدهر فى فرنسا كلها خلال

القرن التاسع عشر، فظهر في المباني العامة، ونافورات الميادين، وفي تصميم قطع الأثاث المنزلي، وفي الفخار المزجّج المطلي الذي تنتجه مدينة سيفر، وفي أوراق الحائط الملوّنة. وكان فيفان دينان المستشار الثقافي للإمبراطور نابوليون، أو وزير ثقافته بشكل ما، هو أحد علماء الحملة الفرنسية، وهو كذلك قائد أوركسترا تلك المسرحية، أو الملحمة النابوليونية، كان قد قال (إن هذه الملحمة ترضع من لبن الفراعنة، وتتغذى من لحمهم).

إن فكّ شفرة العلامات الهيروغليفية سنة ١٨٢٢، بعد نهاية الملحمة النابوليونية بسنوات قليلة، لم يضع حداً لظاهرة الجنون بكل ما هو مصري قديم، بل على العكس، فقد ساهمت كل الاكتشافات المهمة خلال القرن التاسع عشر، وحتى أوائل القرن العشرين في الحفائر الأثرية في وادي النيل، في موجات متتالية من ازدياد هذا الجنون. مثلاً كان اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون سنة ١٩٢٢، قد أفسح المجال في أوروبا وأمريكا، إلى موجة من ازدهار صناعة الحليّ والمصاغ والعطور والديكورات المصرية، المستوحاة من القطع الأثرية المستكشفة في المجموعة الجنائزية للفرعون الشاب. حتى السينما كانت قد استفادت من هذا الاكتشاف، في إنتاج أفلام ضخمة مستوحاة من تاريخ الفراعنة.

هكذا كانت هذه الظاهرة، الجنون بكل ما هو مصري قديم، قد أصبحت ظاهرة شبه عالمية، فإن المؤشرات والشهادات والنماذج، التي تدل على قوة تأثير مصر القديمة وحضارتها، في العمارة والديكور والموسيقى والأدب والرسم والإعلانات، لا تعدّ ولا تحصى في أغلب بلاد العالم، لدرجة أن هناك نماذج وصلت إلى روسيا وأستراليا. حتى في مصر تركت هذه الظاهرة آثارها الواضحة، في بزوغ النزعة القومية المصرية خلال السنوات ١٩٢٠/١٩٣٠، وكذلك في العديد من النماذج المعمارية لعديد من المعماريين، الذين استوحوا من مصر القديمة بعض طرز البناء. وحتى الآن (٢٠٠١) ما

زال بعض المعماريين المصريين يلجأون إلى مصر القديمة، برغبة حقيقية فى الاستفادة من تراث مصر الوطنى، ولكن بدرجات متفاوتة من النجاح والتوفيق.

انظر المقـــالات: عـــايدة رقم (٤)/ كليـــوباترا رقـم (٢٦)/ إيزيس رقـم (٦٧)/ مومياوات رقم (٩٢)/ توت عنخ آمون (١٤١).

٤٤ - المهاجرون / Emigrés

هناك عدد كبير من أعز المصريين إلى قلبى، لم يعودوا يقيمون فى مصر، ولكنهم يقيمون فى فرنسا وكندا ولبنان... وهم ينتمون إلى الموجة الأولى من الهجرات، التى كانت قد واكبت بعض التغيرات السياسية فى أوائل ستينيات القرن العشرين، ودفعت أولئك الذين كانوا يجيدون اللغات الأجنبية، وكانوا حاصلين على شهادات جامعية، إلى مغادرة مصر بصفة نهائية وبدون رجعة، لأنهم كانوا قد بدأوا يشعرون بتضييق الخناق عليهم. أما الموجة الثانية من الهجرة، فقد بدأت سنة ١٩٧٥، وفيها هاجر المصريون الأقل طموحًا والأكثر تواضعًا (من مهاجرى الموجة الأولى)، إلى بلاد البترول العربية الخليجية، بحثًا عن الثروة التى تهبط من السماء، وكانوا مضطرين فى أغلب الأحوال، إلى السفر وحدهم تاركين عائلاتهم فى مصر، لفترة محدودة، طالت أو قصرت.

قبل هاتين الموجتين كان الشعب المصرى، أو على الأقل كان يعتقد فيه، أنه من أكثر الشعوب استقرارًا وارتباطًا بأرضه. لم تكن هناك أية قوّة تستطيع إبعاد الشعب المصرى عن وادى النيل الجميل. كان ارتباط هذا الشعب بوطنه أقرب إلى الارتباط العضوى، أى أن انتزاع المصرى من أرضه، أشبه بانتزاع جزء من جسده منه. وكان تفسير هذا الارتباط قائما على أسباب تاريخية وجغرافية، منها مثلاً الخوف من الصحراء، التى يشجّع وجودها حول وادى النيل على الانكفاء على الذات، أو حتى

اتجاه الرياح فى البحر المتوسط، التى تهب من الشمال فى اتجاه الجنوب، فتمنع بذلك المصريين لأمد طويل، من محاولة عبور هذا البحر.

منذ سنة ١٩٧٥ يزداد عدد المصريين العاملين فى البلاد العربية، ففى ذلك العام قُدِّر العدد بنصف مليون مصرى، كانوا بشكل أساسى فى السعودية والعراق وإمارات الخليج، وسيصل هذا العدد إلى حوالى مليون مصرى سنة ١٩٨٠، وإلى مليونين من المصريين سنة ١٩٨٢، وإلى ثلاثة ملايين سنة ١٩٨٣، معدّل تزايد سنوى مرتفع جداً. إن مليارات الدولارات المدّخرة والمحمولة إلى مصر كل عام، تمثل أحد المصادر الرئيسية للعملة الصعبة فى البلاد. هكذا ظهر الأغنياء الجدد، الذين يوجد بينهم فلاحون سابقون، قاموا عند عودتهم إلى مصر، بشراء سيارات باص صغيرة، وتركوا الأرض الزراعية ليتحوّلوا إلى مهنة النقل الجماعى.

إن النتائج الاجتماعية لهذه الهجرات إلى بلاد النفط، متضاربة إلى حد بعيد، فرغم أن الزوجات الباقيات وحدهن فى مصر لرعاية الأولاد، وليلعبن بشكل مؤقت دور ربّ الأسرة، يساعدهن ذلك فى الحصول على قدر من التحرر الاجتماعى، لكن فى المقابل، فإن النماذج الاجتماعية المحافظة فى بلاد الخليج، تنعكس على سلوك بعض العائدين من تلك الهجرات، وبالتالى تنعكس على أسرهم. فإذا كان المهاجر دائمًا ما يتأثر بالبلد الذى هاجر إليه، فإن هذا التأثر يتضاعف إذا كان البلد والمهاجر يتحدّثان نفس اللغة، ويعتنقان نفس الديانة، خاصة إذا كان هذا البلد يمر بفترة ازدهار اقتصادى، تتميّز بالثراء الفاحش، كيف يمكن لأحد أن يشك إذن، فى أن إسلام هذا البلد المحافظ جداً، لابد وأن يكون أفضل إسلام.

ومع ذلك كان هناك المزيد من المفاجآت السيئة، ففى حالة العراق الذى كان قد استقبل العمّال المصريين بالأحضان وبالأذرع المفتوحة، وبالحصول على الكثير من الامتيازات، حين حلوا محل العراقيين الذين كانوا قد أرسلوا إلى جبهة القتال، أثناء الصراع مع إيران خلال حرب ١٩٨٠/١٩٨٨، فقد تغيّر الوضع تماماً فى نهاية الحرب،

حين أصبح هؤلاء المصريين مزعجين وغير مرغوب فيهم، فى نظر السلطات العراقية، فحتى تحويلاتهم المالية إلى ذويهم فى مصر، كان قد تمّ تجميدها . ثم عندما دخلت مصر ضمن قوات التحالف الدولى، إلى الكويت لتحريرها من قوّات صدّام حسين، فإن المصريين الذين لم يكونوا قد غادروا العراق بعد، وجدوا أنفسهم فى موقف بالغ الصعوبة.

ثم مثال آخر، هذه المرة من ليبيا، فبعد أن كان الكولونيل القذافى سنة ١٩٩٠، قد وعد العمال المصريين المهاجرين إلى ليبيا، بأشياء عجيبة بل مستحيلة، وأعلن أنه مستعد لاستقبال مليون منهم، حدث بعد مرور خمس سنوات أن قام بطردهم طرداً جماعياً من ليبيا، مصحوبين بمعاملة سيئة مهينة. أما فيما يتعلق بالكويت فإنها تطبّق مثل السعودية، النظام المعروف باسم نظام الكفيل، ومعناه أن الغريب الأجنبى عن البلاد، لا يستطيع أن يقوم وحده بأى نشاط اقتصادى، بل يجب أن يجد بين أبناء البلاد، من يضمنه أمام السلطات، ويكون مسئولاً عنه أمام السلطات، مما يجعل المحلى الضامن يتحكم تماماً فى مصير الأجنبى الوافد.

إن العمال المصريين الذين كانت تقدّر أعدادهم فى الكويت، قبل حرب التحرير فى يناير ١٩٩١ بحوالى مليون عامل، تبدأ أعدادهم بعد ذلك فى التناقص التدريجى بشكل ملموس، حيث أصبح الكويتيون يفضلون العمالة المستوردة من آسيا عن تلك المستوردة من مصر. إن المعاملة المهينة التى تعرّض لها العمّال المصريون فى الكويت، أدت إلى نوع من التمرّد الحقيقى، فى أكتوبر ٢٠٠١ فى الحىّ الذى يسكنوه إلى جنوب المدينة، حين كبتت السلطات الكويتية جماح هذا التمرّد، باستعمال القوة العسكرية، مما أدّى إلى سقوط العديد من الجرحى. فى ذلك العام قدّر عدد المصريين العاملين فى كل البلاد العربية بنحو مليونين، وهو أقل بكثير من تقديرات ١٩٨٣، نصفهم فى السعودية، والباقون فى ليبيا والأردن والكويت.

وقد بدأ مصريون كثيرون فى محاولة عبور البحر المتوسط، وقد يجدون فى أوروبا بعض الأعمال البسيطة المتواضعة، فى المطاعم بشكل خاص، وذلك قبل أن يتمكن عدد منهم، من الوصول إلى إدارة مؤسسات صغيرة خاصة بهم، ففى محلات البيتزا الباريسية مثلاً، نستمع طول الوقت إلى المزيد من العامية القاهرية. أما الحاصلون على تخصصات جامعية رفيعة، فإنهم يذهبون إلى أمريكا وإلى كندا. لاحظوا معى أن مصر التى كانت قد فقدت الكثير من العقول المستنيرة، بهجرة الجنسيات المختلفة فى أوائل الستينيات، تتعرّض الآن مثل الكثير من الدول النامية، إلى نزيف عقول خطير يحرمها من أفضل أبنائها.

الدكتور أحمد زويل مثلاً الحاصل على جائزة نوبل فى الكيمياء سنة ١٩٩٩، والتابع حاليًا لجامعة بيركلى فى كاليفورنيا، لم يكن قد وجد فى سن الشباب الدافع الكافى للبقاء فى مصر. والأمثلة كثيرة، هناك الدكتور محمود المنزلاوى، وهو مواطن سكندرى، شغل كرسى اللغة الإنجليزية القديمة فى جامعة فانكوفر بكندا. لاحظوا أن المصريين فى الولايات المتحدة، يعتبرون من أكثر الأقليات الأجنبية حصولاً على شهادات جامعية. ومع ذلك يظل بعض المصريين فى خدمة بلدهم إلى النهاية، فهذه مثلاً هى حالة الدكتور مجدى يعقوب، جرّاح القلب الشهير، والحاصل على لقب سير من إنجلترا، حيث يقيم ويعمل، إذ يعود كل عام إلى مستشفى قصر العينى بالقاهرة، لإجراء جراحات مجانية للأطفال الصغار الذين يعانون من تشوّهات خلقية فى القلب.

٤٥ - الوعى البيئى / Environnement

لقد ظهرت السحابة السوداء لأول مرة فى سماء القاهرة فى نوفمبر ١٩٩٩، وأثارت قدراً من التساؤلات، ثم عادت إلى الظهور فى العام التالى فى نفس التوقيت، لتثير نفس التساؤلات، مما أدّى فى ذلك الوقت بالخبراء الزراعيين، إلى اتهام فلاحى

منطقة القاهرة. أليسوا هم الذين يحرقون كل عام فى هذا الوقت من الخريف، كميّات هائلة من قش الأرز فى حقولهم؟ ثم أعلن عن اتخاذ بعض التدابير، لمنع تكرار هذه النيران المتهمة. ومع هذا لم يتمكن أحد بعد من علاج رئات القاهرة المريضة المزمنة، وإحدى أكثر مدن العالم تلوّثا.

ها هى ذى بعض الحقائق. إن ثلثىْ مسابك المعادن المصرية موجودة فى محيط القاهرة الكبرى. إن هذه المسابك موجودة بشكل أساسى فى المناطق السكنية. إن القاهرة جغرافيًا، تقع بين فكىْ كمّاشة، أو بين المطرقة والسندان، أى أنه لا مفر لها ولا منفذ، فالمطرقة هى مصانع شبرا الخيمة فى الشمال، والسندان هى مصانع حلوان فى الجنوب. (نعم حلوان تلك المدينة التى كانت فى طفولتى مدينة جميلة، بها عيون مياه طبيعية، ومناطق أشجار كثيفة تسمح بالظلال، التى كنا نذهب إليها لنضرب خيامنا ونعسكر عندها). ويضاف إلى تلك المصانع بمداخنها التى لا تحتوى على مرشّحات، كل الغازات المنبعثة من عوادم السيارات التى يزداد عددها عامًا بعد عام، وكل الحرائق التى تنبعث فى كل مكان للتخلص من القمامة بحرقها، لأنها (أى القمامة) تظل وقتًا طويلاً دون أن يهتم أحد بجمعها.

إن الثمانية آلاف عامل نظافة المعينين فى القاهرة، لا يكفون إطلاقًا للمهمة الموكلة إليهم، فإن عدداً من أحياء القاهرة لا تستفيد أبداً من خدماتهم. يقدّر حجم القمامة التى تترك مهملة فى شوارع القاهرة، بحوالى ٢٠٪ من إجمالى حجم القمامة، أى حوالى ١٦٠٠ طن يوميًا. أما الزبّالين التقليديين، الذين يعملون لحسابهم الخاص، فيقومون بجمع القمامة بواسطة عربات كارو صغيرة تجرّها الحمير، ونقلها إلى المقالب العشوائية عند سفح جبل المقطّم. فيستعمل جزء منها فى تسمين الخنازير، وكذلك فى تسمين الفئران التى تسكن تلك القمامة التى تتراكم فى شكل جبال، وبامتداد اليوم تعمل النساء ويعمل الأطفال فى تلك الجبال، لاستخراج كل ما يصلح للبيع أو للتدوير

وإعادة التشغيل، مثل قطع الحديد والورق المقوّى والورق والنسيج والزجاج والبلاستيك. كانت الراهبة الفرنسية، الأخت إيمانويل، خلال السنوات ١٩٨٠/١٩٩٠ قد عاشت فى وسط تلك العائلات ذات الأغلبية المسيحية، لتساهم فى مساعدتهم اجتماعياً.

إن التلوّث يكلف الكثير من البشر حياتهم، ويثقل كاهل ميزانية الصحة العامة. وقد صدر أخيرا قانون لمواجهة التلوث عام ١٩٩٤، كان من المفروض أن يبدأ سريانه بعد أربعة أعوام، وأنشئت من أجله وزارة للبيئة فى يوليو سنة ١٩٩٧، ولكنها بدون إمكانيات حقيقية، وهى مضطرة إلى مواجهة الكثير من الخصوم الأقوياء. إن إصدار قانون شىء، وتطبيقه شىء آخر. أما فيما يتعلق بحزب الخضر الصغير الذى خرج إلى الوجود ومعه شعاره الطموح (الله/الإنسان/البيئة) فيبدو أنه لا يثير لا قلق الحكام ولا حتى حماس الجمهور.

تمّ إحراز بعض التقدّم خلال السنوات الأخيرة، فمن ناحية هناك انتشار استعمال البنزين الخالى من الرصاص، ثم هناك كذلك تحويل بعض أتوبيسات النقل العام من البنزين إلى الغاز الطبيعى. ثم إن القاهرة التى لم يكن يوجد بها إلا ٤٠ سنتيمتراً مربعاً من المساحات الخضراء للساكن فيها سنة ١٩٩٧، تحاول أن تزيد المساحات الخضراء، وذلك بتحويل الكثير من مقالب القمامة إلى حدائق عامة. ومن جهة أخرى هناك حزام أخضر، يجرى إعداده ليحيط بالقاهرة، ويكون مصداً للرياح، يحمى القاهرة من التلوّث بالأتربة.

نأتى إلى مشكلة المجارى فى قرى صعيد مصر، والتى يتمّ التخلص منها مباشرة فى النيل، بسبب عدم وجود قنوات كافية للصرف الصحّى. لكن المصدر الأول لتلوّث النهر فى الصعيد هو مخلفات المصانع، والتى تقدّر بحوالى ٤٥٠ مليوناً من الأمتار المكعّبة فى العام الواحد. هذه المصانع تتحرك ببطء شديد، نحو اتخاذ الإجراءات اللازمة لتنقية مخلفاتها أو لإعادة تدويرها.

وهناك كذلك بحيرات مصر، التى يمكن اعتبارها نقطة أخرى سوداء فى جبين الوطن، فمساحة تلك البحيرات تنكمش عامًا بعد عام، بسبب مشروعات زراعية أو صناعية، مما أدّى إلى تلوّث المحتوى المائى لهذه البحيرات إلى درجة خطيرة، بالمبيدات الحشرية وبالرصاص والزئبق. إنها حلقة مفرّغة يدورون فيها، إذ تتناقص أعداد الأسماك الكبيرة، فيستعمل الصيّادون شباكًا ذات فتحات ضيقة، فتقع الأسماك الصغيرة فى الفخ قبل أن تتكاثر، فيستمر ويستفحل تناقص الأسماك.

إن التغيّرات التى تحدث فى الوسط الطبيعى فى مصر تقلق المصريين. إن أكبر المشكلات المتعلقة بهذه المسألة هى:

أولاً – يؤدّى ارتفاع درجة الحرارة إلى زيادة معدّل تبخّر الماء، وبالتالى يزيد معدّل ملوحة المياه فى التربة المصرية.

ثانيًا – إن استمرار ارتفاع مستوى مياه البحر المتوسّط، بمعدّل ٢,٥ ملليمتر سنويًا، سيؤدى يومًا ما إلى تآكل ساحل البحر بشكل خطير.

ثالثًا – هناك مشكلة تناقص الغرين فى مياه النيل، والغرين أو الطمى هى المادة التى كانت فى الماضى، تتعلق بالمياه لتصل إلى الدلتا، فتثرى خصوبة أرضها، بمعدّل كان يصل إلى ٨٥ ألفًا من الأمتار المكعّبة فى العام الواحد، الآن ومنذ إنشاء السد العالى، تحرم الأرض الزراعية فى الدلتا والصعيد من هذا الغرين، الذى يحجز أمام السد العالى فى بحيرة ناصر، فتقل خصوبة الأرض وتقل إنتاجيتها، بل إن الأرض الزراعية تتآكل عامًا بعد عام.

إن مصر الآن أصبحت فى حالة وعىّ تام بكل هذه التهديدات. مثلاً تمّ إنشاء سبع عشرة محمية طبيعية، تشغل فى مجملها حوالى ٧,٤٪ من مساحة مصر الكلية، لحماية الحيوانات والنباتات والتكوينات الجيولوجية ذات الأهمية الخاصة، وهناك احتمال أن تزيد مساحة المحميّات الطبيعية فى مصر، إلى ضعف مساحتها الحالية، قبل عام

٢٠١٧ . ثم إن العقـــول والأذهان تتطوّر بفضل حـمـلات التوعية، ورغم البطء إلا أن هناك تطوّرًا. مثلاً أقامت بعض المكتبات العامة، التابعة لبلديات بعض المدن أركانًا خضراء، حيث يمكن للأطفال أن يجدوا كتبًا مصوّرة تتحدث بلغة بسيطة عن حماية البيئة.

إن أحد أنظف أماكن القاهرة لاشك هو رصيف مترو الأنفاق، فمنذ افتتاح الخط الأول سنة ١٩٨٧ وشـرطة المترو تطارد كل من يلقى بأوراق مستعملة على الأرض، وتكلفه بدفع غرامة مالية كبيرة نسبيًا. وقد فوجئت عندما وجدت أن رجال الشرطة مستمرّون فى أداء مهمتهم بدون تكاسل. إذا كان النظام قد استتب فى مترو أنفاق أحشاء المدينة، فهناك أمل من هذا المثل يظهر بوضوح، أنه مع استعمال بعض الإرادة والحزم فإن كل المعارك مجدية.

انظر مقالة: ثروات الوطن رقم (١٠٩).

٤٦ - ختان البنات / Excision

إن هذا الفعل الذى ينتمى إلى عصور أخرى، تعتبر ممارسته جريمة فى أوروبا، أما فى مصر فإن أغلبية المصريين يعتقدون أن ممارسته طبيعية، بل ضرورية. تمّ الكشف عن حجم هذه الظاهرة سنة ١٩٩٥، بواسطة استقصاء أجراه المجلس القومى للسكان، على عينة تقدّر بحوالى ١٥ ألف امرأة متزوّجة، فى الفئة العمريّة بين ١٥ و٥٠ سنة. طبقًا لهذا الاستقصاء، فإن ٩٧٪ من نساء العينة، كان قد مورس عليهن طقس الختان، وقد حدث هذا بشكل عام قبل سن البلوغ، وبطرق مختلفة.

استئصال البظر وحده فى ١٩٪ من الحالات. استئصال الشفرين الصغيرين وحدهما فى ٨٪ من الحالات. استئصال (البظر + الشفرين الصغيرين) فى ٦٤٪ من

الحالات. الاستئصال الفرعوني وهو استئصال (البظر + الشفرين الصغيرين + جزء من الشفرين الكبيرين) في ٩٪ من الحالات. هذه هي المتوسّطات، إلا أنه من الملاحظ أن المعدّلات كانت أقل في المناطق الحضرية عنها في المناطق الريفية، وأن أغلب النساء اللائي أجرى عليهن الاستقصاء، سواء من المسلمات أو من المسيحيات، كن يقبلن هذا الإجراء، بل هذا التشويه لأجسادهن. ورغم هذا القبول الذى أبدته الأغلبية، فإن هناك نسبة من المعارضات، فحوالي ٣٠ ٪ من المقيمات في الحضر، و٤٤٪ من الحاصلات على شهادة الثانوية العامة، أو على المؤهل الجامعي اعترضن على هذه الممارسات، رغم أنهن كن قد قبلن ممارستها على أجسادهن، مرغمات عليها.

إن المدافعين عن الختان يشيرون إلى ضرورة التقليل من المتعة الحسيّة لدى المرأة، أو حتى إلى ضرورة المنع التام للمتعة الحسّية لدى المرأة، وذلك للحفاظ على العفّة لدى الشابة الصغيرة، وضمان إخلاص المرأة المتزوّجة. وقد تغير اسم عملية الختان، من استئصال أو بتر إلى طهارة. هكذا تسمى هذه العملية. نفس الكلمة تستعمل في حالة ختان الذكور، رغم الاختلاف الواضح بينهما، ففي حالة الذكور هذه العملية لا تؤثر إطلاقاً على الحالة الجنسية للذكر، ولا على كفاءته الجنسية. أما التشويه الواقع على الأعضاء التناسلية للأنثى، فله تأثيرات ونتائج خطيرة، من الناحيتين الجنسية والطبية، لأن ختان الإناث غالباً ما يمارس بواسطة سيدات العائلة المتقدمات في السن، اللائي يستعملن أية أدوات تقع تحت أيديهن بالصدفة.

عندما عقد المؤتمر الدولي للسكان في القاهرة سنة ١٩٩٤، بثت قناة سي إن إن التلفزيونية، فيلماً وثائقياً عن ختان بنت صغيرة بواسطة حلاق، كان على قدر كبير من القسوة والهمجية. بعده أعلن الشيخ طنطاوي شيخ الأزهر، أن هذه العادة ليست من الممارسات التي يحتّمها الإسلام، وإنما هي عادة تمارس منذ قرون طويلة، وأضاف بكلمات محسوبة بدقة (رغم كل شيء فإن لهذه العادة تأثيرات إيجابية مفيدة على

الاستقرار الأسرى). فى يوليو ١٩٩٦ صدر مرسوم حكومى يمنع هذه الممارسات فى المستشفيات الحكومية، بدون أن يكون هناك (سبب طبّى). هذا الاستثناء سيسمح بالالتفاف بخفة حول مرسوم القانون.

نحن نعلم أن مصر الفرعونية كانت تمارس ختان الذكور، رغم أنه لم يكن القاعدة العامة، لكن ليس هناك ما يدل على ممارسة ختان الإناث، الذى يعود فى الغالب إلى شعوب أفريقية سكنت وادى النيل، خلال العصر الفرعونى، أما الشعوب العربية والإسلامية فكانت تجهل هذه الممارسة تماماً. من المؤسف ملاحظة أن المجتمعات البدوية المصرية، التى استقرت فى وادى النيل، بعد أن كانت تتجوّل فى الصحراوات، بدأت منذ استقرارها، فى ممارسة ختان البنات، حتى تتمكن فتياتهم من العثور على أزواج.

إن بعض الجمعيات النسائية المصرية، التى تطالب بحقوق المرأة، تكافح العادات السيئة فى المجتمع باستعمال أسلوب الصدمات، فهى تستعمل حججاً من نوع (إن مركز الأحاسيس الجنسية فى المخ وليس فى الأعضاء التناسلية، فإذا أردت أن تمنع ابنتك من التفكير فى الجنس، فاقطع لها مخها لا أعضاءها التناسلية). لكن حملات الإقناع من هذا النوع تحتاج إلى الكثير من الصبر، حتى تستطيع الارتقاء بالعقليات. يمكننا هنا أن نورد نموذج قرية مسيحية من جنوب المنيا، هى قرية دير البرشا، حيث تكافح بعثة مسيحية إنجيلية منذ سنوات، من أجل تنظيم الأسرة ومحو الأمية. وقد تمّ إجراء استفتاء شعبى، بخصوص ميثاق شرف ضد ختان البنات، بمساعدة البلدية، أو المجلس القروى. كان القس القبطى الأب دانيال، قد وقف أمام شعب كنيسته ليقول (أنا بناتى لم يختنوا).

انظر مقال الزواج رقم (٨٤).

٤٧ - فاروق / Farouk

عندما يأتى اسمه إلى ذهنى، فإن أول صورة له تمرّ فى ذاكرتى، ليست هى صورة ذلك الرجل البدين العربيد، المحاط بمجموعة من مصوّرى الصحف والمجلات الفضائحية الأوروبية عندما كان فى سن الثلاثين، رغم أنه كان يبدو أكبر سنا بكثير، وإنما هى صورة ذلك الأمير الشاب الرشيق الخفيف الذكى، الذى هتفت له مصر بحماس فى ربيع ١٩٣٦، عندما تمّ تنصيبه ملكًا على عرش مصر. هل نحن نتحدّث هنا عن نفس الرجل؟ من الصعب تصديق ذلك، إذ إن انحرافات هذا الملك ثم سقوطه عن العرش، هى بلا شك أكثر الصفحات حزنًا، فى كتاب تاريخ أسرة محمد على.

كان لابن الملك فؤاد كل الإمكانيات حتى يحصل على الإعجاب، فهو طويل رشيق وبقوام رياضى، وهو كذلك جميل الوجه، ثم إنه يتحدّث عدة لغات أجنبية، كانت له مربيات إنجليزيات تعلم منهن آداب اللياقة وحسن السلوك، بعدها ذهب لقضاء بضعة سنوات فى الأكاديمية العسكرية فى وول ويتش بالقرب من لندن. يكفى أن نعرف أنه الوحيد بين أفراد أسرة محمد على، وبين كل ملوكها السابقين، خلال حوالى قرن ونصف من الزمان، الذى كان يتحدّث اللغة العربية بطلاقة.

كذلك هناك تطوّران مهمان ارتبطا بفترة بداية حكمه، كانا قد حدثا بفضل جهود سياسيين مصريين مختلفين، وكان لفاروق أن يستفيد منهما. الأول هو الوضع الجديد فى مصر على ضوء المعاهدة الجديدة بين إنجلترا ومصر سنة ١٩٣٦، والثانى هو اتفاق مونترو الذى وضع نهاية للامتيازات الأجنبية فى مصر. تزوّج فاروق سنة ١٩٣٨، من فتاة جميلة اسمها صافيناز، ستغير اسمها إلى فريدة، وفقا لقاعدة حرف الفاء كبقية أفراد العائلة. وقد زادت شعبية فاروق أثناء احتفال المصريين بهذا الزفاف. كل شىء كان يبتسم لهذا الشاب الذى أصبح ملكًا فى السادسة عشرة، وزوجًا فى الثامنة عشرة، والذى كان يبدو للمصريين أكثر نضجًا من سنه.

في الواقع، ورغم هذه الصورة الزاهية لبداياته، فإنه منذ أول يوم له في القصر، وقع تحت تأثير ثلاث قوى متعارضة تتنازع السلطة، وجد نفسه سجيناً لها، المندوب السامي البريطاني، ورجال حزب الوفد، ورجال حاشية القصر. في ٤ فبراير ١٩٤٢ اضطر فاروق وهو يشعر بالمهانة، تحت تهديد الدبّابات البريطانية، التي حاصرت القصر الملكي بعابدين، إلى تقديم منصب رئيس البرلمان (مجلس الأمة)، إلى رجل كان يكرهه، هو النحّاس باشا زعيم حزب الوفد. [كان ذلك التحالف بين الإنجليز وحزب الأغلبية المصرية، بسبب خوف الإنجليز من غزو الألمان لمصر].

وجد فاروق نفسه وهو الملك، غير قادر على اختيار رئيس حكومته، وكانت تلك هي اللحظة المحورية في حياته. قرر بعدها ألا ينشغل بأمور الحكم بل باللذات والسهرات والمزاح. سأل فتاة (أين تسكنين؟) قالت (بين مبنى السفارة البريطانية في جاردن سيتي، ومنزل النحاس باشا) قال (آنستي إنك تسكنين حيًّا رديئًا جداً). يصبح فاروق بسرعة، ومنذ منتصف الأربعينيات أحد الأعمدة التي تقوم عليها ملاهي القاهرة الليلية، وكان الناس كلهم يتابعون يومًا بيوم، أخبار خليلاته ومحظيّاته وغزواته الليلية المتعدّدة.

كان يقود بنفسه سيارته الكاديلاك، أو واحدة من سياراته الرياضية الحمراء، اللون الذي اقتصر استعماله على الجاراچات والإسطبلات الملكية، ويخترق ليلاً شوارع القاهرة بأقصى سرعة، ليذهب إلى حفل بوكر poker لدى صديق، وهذه الحفلات كانت لا تنتهي قبل الصباح. ثم شهيته للطعام وإصابته باضطراب هورموني أديا إلى سمنة مفرطة. من وقت لآخر كان يهرب متخفيًا إلى أوروبا، مما أوقعه مرات عديدة فريسة لصحافة الفضائح الأوروبية. في صيف ١٩٥٠ استأجر ٢٥ حجرة، في فندق الجولف بمدينة دوفيل الفرنسية، على ساحل بحر المانش، إحدى الغرف كانت لسامية جمال، أكثر راقصات مصر جاذبية في ذلك الوقت. أشيع عنه كذلك أنه كان مصاباً بداء السرقة (كليفتو مانيا).

وحيث إن فريدة لم تنجب ولداً، تزوج فاروق من زوجته الثانية ناريمان. تصادف مولد الأمير أحمد فؤاد في يناير ١٩٥٢، مع ثورة مصرية ضد الإنجليز، وكان المصريون في حالة غليان. وقد أدى تطور الأحداث بشكل ما إلى اندلاع الحرائق في عشرات الأماكن بالقاهرة في نفس الوقت. بعد ستة أشهر استولى الضباط الأحرار على السلطة، بدون إراقة قطرة دم واحدة، وطولب فاروق بالتنازل عن العرش لابنه، ثم أبحر هو وعائلته على اليخت الملكي المحروسة، إلى كابري بإيطاليا.

أثناء إقامته في كابري يسخر من نفسه بإطلاق نكات من نوع النكتة التالية (قريبا لن يكون في العالم إلا خمسة ملوك، وهم ملوك الكوتشينة الأربعة، البستوني والديناري المربّع وورقة الشجر الثلاثية والقلب، بالإضافة إلى ملك إنجلترا). كما لو أنه كان يريد أن يحتفظ لنفسه حتى النهاية بصورته الكاريكاتيرية. عندما استقر فاروق في روما تركته ناريمان التي فضلت العودة إلى مصر. تردّد لبعض الوقت على بعض ملاهي روما الليلية، بصحبة فتاة ليل، ثم أعلنت حكومة مصر في منتصف العام ١٩٥٣ سقوط الملكية وقيام الجمهورية.

كانت وفاة فاروق في يوم ١٨ مارس ١٩٦٥ وهو في الخامسة والأربعين من العمر، هي المناسبة الوحيدة التي عادت فيها بعض صوره إلى الجرائد مرة أخرى منذ خروجه من مصر، وإذا بنا نرى أمامنا صور رجل منتفخ الجسم، بشكل يدعو إلى السخرية، يضع نظارات شمس صغيرة مستديرة على عينيه. كانت تلك هي آخر صورة أخذت له. هو منذ مدة طويلة لم يعد يخيف أحداً، خاصة جمال عبد الناصر الذي سمح باستقبال جثمانه في مصر، بهدوء وسريّة، حيث دفن دون أية إجراءات رسمية. صورة حزينة لنهاية رجل، كان قد وصل صغيراً جداً إلى قمة السلطة، وكان يستحق مصيراً أفضل من ذلك.

يدهشني التشابه بين مصير فاروق [حكم بين ١٩٣٦ و١٩٥٢] ومصير الخديوي عباس حلمي الثاني [حكم بين ١٨٩٢ و ١٩١٤] وهو الذي كان يشغل نفس القصور

الملكيـة قبل فـاروق بنحـو أربعين عـامـا. هـل هناك مؤرّخ مـصـرى مـسـتـعـد لـبحث هذه المسـألة؟ فـقد وصل عبـاس حلمى إلى السلطة تقريبًا فى نفس السن التى وصل فـيـها فاروق إليها، وكان قد أثار هو أيضًا لدى الوطنيين المصريين نفس الآمال الكبيرة التى كان قد أثارها فاروق، مما جعله هو أيضًا يصطدم مبكرًا بالإنجليز، ممثلين فى المندوب السامى البريطانى اللورد كرومر، الذى كان يحاول دائمًا تقليص سلطة ملك مصر، مما دفع بعبـاس حلمى إلى أن ينأى بنفسـه، ويخـرج من دائرة اللعبـة ثم ينشـغل بأمـوره الخاصة مهملاً تمامًا أمور الدولة. عندما خلع عن العرش فى ١٩١٤، سافر ليقضى بقية حياته فى المنفى. ويقال إن التاريخ لا يعيد نفسه....

انظر مقال: فؤاد الأول رقم (٥٤).

٤٨ – الفاطميون / Fatimides

إنها غزوة غريبة وفتح يدعو إلى التساؤل، ذلك لأن غزو الفاطميين المقيمين فى المغرب لمصر سنة ٩٦٩ ميلادية، كان أقرب إلى الحملة الدعائية الدينية منه إلى الغزو العسكرى. إن مـصـر التى كانت تعانـى فى ذلك الوقت من المجاعات والأوبئة واختلال الأمن، سقطت فى أيديهم مثل الثمرة الناضجة التى آن أوان قطافها.

كان الفاطميون يؤكدون على كونهم من سلالة النبى محمد عليه الصلاة والسلام، عن طريق ابنته فاطمة، ثم يؤكدون كذلك على انتمائهم إلى الفرع الإسماعيلى. ولكونهم شيعة فهم لم يكونوا يعترفون بخليفة بغداد العبّاسى، الذى كانت مصر تابعة له رسمياً. لكنهم فى مصر تمكنوا بمهارة، من تجنّب الاصطدام بالإسلام السنى. ثم إن تسامحهم الدينى مع الأقليات المسيحية واليهودية، لم يكن بالقطع غريبًا على وضعهم الخاص جداً، باعتبارهم غزاة يبحثون عن السيادة على بلد، دون أن يحاولوا بالضرورة تغيير معتقدات شعب هذا البلد.

وبالقرب من العاصمة القديمة الفسطاط، خلقوا مدينة ملكية سميت عند مولدها القاهرة، بنوا داخلها قصرين جميلين إلى حد الروعة، بأبّهة وفخامة لم تر مصر مثيلاً لها من قبل، وقد طبّق الفاطميون حرفيًا وصيّة خليفتهم المنصور، التى قال لهم فيها (إن تراكم الكنوز وتكديس الثروات لا معنى لهما، إذا لم يلعبا دورًا فى الإعلان عن العظمة، وفى التنافس مع الخصوم فى الفخامة). فى القصرين الملكيين شغلت كنوز الفاطميين عشرات القاعات، وكانت تعرض على الضيوف فى الاستقبالات الرسمية، وتخرج للشعب فى المواكب الأوانى الذهبية المستعملة فى الطعام، وأسلحة العروض العسكرية والسروج المطعّمة بالأحجار الكريمة. بعض هذه القطع كانت من مغانم الحروب، وبعضها الآخر كان من هدايا الحلفاء من الملوك، إلا أن أغلبها كان قد تمّ تصنيعه فى ورش ومعامل بلاط الملوك الفاطميين.

إن المسجد الأزهر، الجامع الجامعة، كان قد انبثق من الأرض، فى نفس الوقت مع غيره من المبانى الجنائزية وأماكن العبادة، كما بنيت بعض المساكن متعدّدة الطوابق. استطاع أحد الزوّار الأوائل المنبهرين بالقاهرة، أن يعدّ عشرين ألف دكانًا فى العاصمة الجديدة. لم يعد هناك ما يدعو عاصمة الفاطميين إلى أن تحسد بغداد. ثم إن القاهرة أصبحت تمتلك أكبر مكتبة فى العالم الإسلامى، كما أصبحت تنتج عددًا لا يمكن حصره من المخطوطات. كان الخلفاء الفاطميون المحبّون للمعرفة، يدعون العلماء فى كل المجالات بإلحاح، من الفلك إلى الرياضيات إلى الطب، كى يأتوا إلى القاهرة، لعرض معارفهم. حتى الخليفة المخيف، الحاكم بأمر الله (٩٢٦/١٠٢٠) الذى يضطهد غير المؤمنين، ويرهب المسلمين الذين يختلفون معه فى المذهب، كان قد أنشأ بيتًا للمعرفة، وألف بعض المقطوعات الشعرية.

ثم ازدهرت الفنون الزخرفية فى كل المجالات، فالحفر على الخشب مثلاً يصل إلى درجة رفيعة من الدقة والتركيبات المعقدّة، التى ليس لها مثيل، والنموذجان الدالان على ذلك هما بابان متشابهان بحشواتهما، أحدهما فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة،

والآخر في متحف مترو بوليتان بنيويورك، ففى هذه القطع الرائعة، نرى كيف أن رأسين مسرّجين لحصانين، قد نحتا بحيث يبرزان عن خلفية القطعة، بطريقة اللعب بالنور والظل، أما جسد كل من الحصانين فقد تحوّل إلى تشابك بين أفرع نباتات، بطريقة زخارف الأرابسك.

وقد لوحظ أن فنّانى العصر الفاطمى لم يتردّدوا فى تصوير الكائنات البشرية، فى مناظر تصوّر حياة الأمراء، مثل رحلات الصيد وحفلات الموسيقى، وقد تحررت هذه المناظر مما عرف باتجاه الإسلام نحو منع تصوير البشر. هذا الخلق الفنى الخاص بتصوير البشر، يمكننا أن نجده كذلك فى نماذج من الحفر على الرخام، وفى الأطباق الخزفية ذات البريق المعدنى، وفى حلقان الأذن التى تتخذ شكل الأهلة، وفى الصناديق الصغيرة المصنوعة من العاج، وفى الأوانى الخفيفة إلى حد لا يصدّق والمصنوعة من البللور الصخرى.

إن الفن الرفيع موجود، حتى فى نموذج مصفاة قلل المياه [الفلتر] الفخارية التى تستمد زخرفتها من عناصر هندسية وكتابية، فتشبه بذلك إلى حد بعيد أسلوب نقوش الدانتلا فى نسيج فرنسا. وإذا تحدثنا عن الأنسجة فلا ننسى الطراز الشهير وهو نوع من الأنسجة الكتانية الرقيقة، التى تحمل أشرطة من الحرير، عليها زخارف مطرّزة [من هنا يأتى الاسم] أو زخارف مطبوعة أو ملوّنة، تتخللها الخيوط الذهبية أو الفضيّة.

أدّى الإتجار مع نصف بلاد الدنيا، بمصر الفاطمية إلى الرخاء، وإلى محاولة أن تمدّ إمبراطوريتها، ولكن بقدر متفاوت من التوفيق، فهى تنجح خلال فترة فى احتلال سوريا، وفى غزو مكة والمدينة، بل حتى فى جعل الخليفة العبّاسى يضطر مؤقتًا إلى مغادرة بغداد. يأتى هذا النصر على بغداد أثناء خلافة المستنصر (١٠٣٦/١٠٩٤)، وهى أطول فترة حكم لخليفة فاطمى فى مصر، ورغم تلك الانتصارات الحربية، فإن تلك

السنوات هى نفسها السنوات التى شهدت فيها مصر أسوأ المجاعات والأوبئة والاضطرابات الكبيرة.

يجد الملك [المستنصر] نفسه مضطراً إلى ترك القيادة إلى وزير ذى قبضة حديدية، من أصول أرمينية، هو بدر الجمالى، الذى يطبق أنظمة ديكتاتورية عسكرية، حتى تستتب الأمور مؤقتًا، لكن من جديد وبعد حوالى نصف قرن، تقع البلاد فريسة للمنافسات الدموية، فى وضع إقليمى صعب جداً، إذ كان الصليبيون قد استولوا على القدس، فى حين كان الأتراك السلاجقة يهددون المنطقة كلها. وقد أمسك آخر وزراء الدولة الفاطمية بزمام الأمور سنة ١١٧١، وكان من أصول كردية واسمه صلاح الدين، وهكذا تسقط الخلافة الفاطمية فى مصر، لتبدأ فترة الدولة الأيوبية، فتعود مصر بذلك إلى حضن الإسلام السنى، بعد فترة انتقالية شيعية دامت قرنين من الزمان، ويعود أئمة المساجد فى مصر، إلى ذكر اسم الخليفة العباسى فى بداية الصلوات.

٤٩ - الفلاح / Fellah

لنعترف أننا نريد أن يظل الفلاح المصرى كما هو بدون أى تغيير، بمظهره المسالم، وقدميه الحافيتين، أليس هذا صحيحا؟ لقد صمد هذا الفلاح ستة آلاف سنة، وظل على قيد الحياة، أمام كل الغزاة وكل المظالم وكل الإهانات، لأنه فقط كان قد ارتبط عضويا بهذه الأرض السمراء، كأنه منها وكأنها منه، لقد امتزج بها تماماً، ولذلك فقد أصبح خالداً خلودها، إذ إنه يجسّد الدوام والثبات والخلود.

حتى سنة ١٩٧٠ كان الريف المصرى يبدو كما لو أنه لم يتغير البتة خلال آلاف السنوات، كان الزمن فى الريف المصرى يبدو متوقفاً. سلوك الفلاح فى حياته اليومية، والأدوات التى يستعملها، ومعتقداته الشعبية، بل حتى ملامح وجهه، تعود كلها إلى العصر الفرعونى. المنازل المبنية بالطين المجفف، تبدو من على بعد كما لو كانت

مصنوعة من الفخار. القرية المصرية حتى السبعينيات من القرن العشرين، كانت تبدو مندمجة فى عناصر الطبيعة البكر المحيطة بها.

لاحظ إميل لودفيج، صاحب كتاب (النيل: حياة نهر) الذى صدر سنة ١٩٣٦، فى دار طباعة بلون (إن الرحّالة الذى يعبر أمام قرية مصرية، يتولد لديه الانطبا ع، بأن هناك فى هذه القرية حياة عضوية غريزية حيوانية، فنحن نشمّ ونسمع القرية المصرية، بل حتى نحسّ مذاقها على اللسان، قبل الدخول إليها. إنها الجلبة والضوضاء التى تصدر عن هذه المساحة المحدودة من الأرض، بكل تلك الأصوات الحادة والرنانة للبشر والماشية، وبدون أى صوت لصرير آلة. إن القرية هى تلك الرائحة الطيبة لروث البقر، الذى يجففونه بالنار فى كل مكان).

كان الوصف التقليدى للفلاح المصرى، يشتمل كذلك على جانب كاريكاتورى به قدر من السخرية، فهو كائن صبور إلى أقصى درجة عل كل ما يبتلى به، ثم إنه مسالم إلى أقصى درجة، ورغم أنه يعمل باجتهاد، إلا أنه يفتقر إلى القدرة على تخيّل حلول جديدة لمشاكله، وهو كذلك لا يأخذ أبدًا بزمام المبادرة، إذ هو يستسلم فقط للأقدار، وهو يعيد منذ قرون طويلة نفس الحركات، دون أن يسأل نفسه سؤالاً واحداً، إنه لا يملك من أمر نفسه شيئًا، ويعيش فقط اللحظة الآنية، إنه طفلٌ كبير.

هذا الكلام لا يلغى إطلاقًا الدور المهم الذى لعبه الفلاح المصرى على امتداد التاريخ، لكونه يكرّس كل حياته ومجهوده للزراعة. قال الأب هنرى عيروط، فى كتابه عن الفلاح المصرى، الصادر سنة ١٩٤٠ (إذا كانت مصر هى هبة النيل فهى أيضًا هبة الفلاح المصرى). فى وقت كتابة الأب عيروط لكتابه، كان أغلب الشعب المصرى لا زال يعمل بالزراعة، ويسكن القرى الريفية، أما الآن فقد تغيرت الصورة تمامًا. كانت قوانين الإصلاح الزراعى خلال سنوات الخمسينيات والستينيات، قد سمحت للفلاح بأن يرفع رأسه قليلا، بعد أن كان قد حصل على الفدادين الخمسة، أو تمكن من استئجار

الأرض بسعر زهيد تحدده الدولة، إلا أنه منذ السبعينيات بدأت اتجاهات جديدة تهدّد اتزان حياته، الذى استمر لآلاف السنين.

ظهرت كلمات جديدة فى قاموس الفلاح، مثل الميكنة والتصنيع والتعمير، ثم بدأ انتقال الفلاحين من الريف إلى المدينة، مما أدّى إلى تضخم المدن على حساب الريف، وابتلعت بعض المدن القرى المحيطة بها. حتى القرى نفسها تغيرت صورتها، فإن الإقامة فى قرية الآن، قد تعنى الإقامة فى مكان يتجمّع فيه عشرون ألف ساكنًا. وقد أصبح أغلب سكان المناطق الريفية، من الشباب فى سن العمل، يعملون فى مجالات أخرى لا صلة لها بالزراعة. وقد تحولّت أغلب بيوت القرى من الطين الجاف، إلى الطوب والأسمنت المسلح، ويتم أولاً بأول توصيل خطوط شبكة الكهرباء إلى المنازل الجديدة، التى نجد فيها أجهزة التلفزيون.

إلا أن الصورة ليست على هذا الشكل فى كل القرى، ففى بعض البيوت الريفية، لا زالت الحيوانات من حمير وجواميس، تشارك أصحابها حجرات منازلهم المظلمة العارية، ولا زالت أرضيات بعض البيوت من الطين المحروق، ولا زالت هناك بعض القرى بدون مياه جارية صالحة للشرب، ونساء مستمرّات فى غسيل الملابس وأوانى الطعام، فى مياه النيل أو الترع أو فى مياه راكدة غير موثوق فى نظافتها.

وبعد فترة طويلة من تدليل السلطة للفلاح، وتملق الأفلام السينمائية، وحماية القوانين له، عاد الفلاح الآن ليجد نفسه، ضحية لنظام اقتصادى جديد يتحرر ليتبع قانون السوق، خاصة الفلاح التعيس الذى لم تكن له ملكية زراعية، فالإيجارات الزراعية لم تعد ثابتة القيمة كما ظلت خلال عشرات السنين، والعقود التى كانت تمتد إلى نهاية العمر، ثم يرثها أولاد الفلاح من بعده، أصبحت منذ ١٩٩٧ موضع بحث وتساؤل، ثم أصبح من حق الملاك القدامى للأراضى الزراعية، الاستعانة بالشرطة لطرد المستأجرين العصاة المتمردّين الذين يرفضون مغادرة الأرض. وطبقًا لمثل ريفى قديم،

يقول (الصبر يهد الجبال)، كان الفلاح فى الماضى معتاداً على الصبر والتحمّل وإحناء الرأس، أما اليوم فإن الشاب الريفى يدير ظهره للقرية ويذهب إلى المدينة. إنها إحدى نتائج العولمة.

انظر مقالات: حمار رقم (٨)/ قطن رقم (٢٩)/ دوف جوردون رقم (٣٩)/ جاموس رقم (٥٨).

٥٠ – فلايك / Felouques

هل يمكنك تصوّر منظر النيل بدون وجود تلك العصافير البيضاء الكبيرة الراسية فوق مياهه؟ إنها موجودة هنا تجوب المياه منذ أزمنة لا يمكن أن تعود إليها الذاكرة. فتلك المراكب ذات القاع شبه المسطّح المفلطح، وبأشرعتها الضخمة، تمكنت من مقاومة كل هجمات التكنولوجيا الشرسة، فهى كما كان يحدث فى الماضى، ما زالت تعرف كيف تتجاوب مع نزوات الريح، مهما استغرقت تلك المحاولات من وقت.

والكلمتان، الفرنسية (فلوكة) والإسبانية (فالوكة)، مأخوذتان من أصل واحد هو الكلمة العربية فُلك بمعنى مركب، وهى تختلف عن (الدهبية) التى هى أقرب إلى منزل عائم، وغالبا ما تتكوّن من طابقين. وكلمة (دهبية) مأخوذة هى الأخرى من اللغة العربية على احتمالين، الأول أن تكون مأخوذة من كلمة (ذهاب)، أى سفر ورحيل، والاحتمال الثانى أن تكون مأخوذة من كلمة (ذهب) وذلك لأنه حسب عادة ملاك الذهبيات فى أوائل القرن العشرين، كانوا يطلون جدرانها من الخارج بلون ذهبى.

تهبّ الريح فى مصر دائمًا من الشمال إلى الجنوب، فى حين تجرى مياه النيل من الجنوب إلى الشمال، وهكذا فإننا للإبحار جنوباً نترك الأشرعة مفرودة لتدفعنا الرياح، أما للإبحار من الجنوب إلى الشمال، فإننا نطوى الأشرعة، ونترك المركب لتدفعها التيارات المائية. المشكلة هى فى وجود بعض المنحنيات فى مجرى النهر، يجب

على ربّان المركب أن يعرف كيف يتعامل معها، لهذا الغرض يكون عليه فى بعض الأحيان، أن يستعمل الدفع بالمجاديف للخروج بالمركب من المنحنيات. أحيانًا يكون من الضرورى جرّ المركب بالحبال.

يصف لنا ماكسيم دى كامب(*) (رحالة ومصور فرنسى)، الواقعة التى كان شاهدًا عليها، أثناء رحلته مع فلوبير(*) إلى مصر سنة ١٨٤٩، يقول (يقفز البحارة إلى الماء، وفى أسنانهم الحبال السميكة، التى تكون متصلة بالمركب، ويسبحون حتى ضفة النهر حيث يتجمّعون، ويبدأون فى جذب المركب، وهم يدفعون بأجسامهم، ويجذبون الحبال إلى الأمام، فى شكل طابور يمشون فيه متتابعين، كما لو كانوا قطارًا بشريًا، فنتحرك هكذا ببطء حتى لو كنا ضد تيارات مائية أو رياح). هكذا كان تصرف البحارة للخروج من المأزق، خلال قرون طويلة، وبصرف النظر عن كون الشراع ثلاثيًا كما هو الحال الآن، أو رباعيا كما كان الحال فى مصر الفرعونية.

فى ذلك الزمن الفرعونى، كانت هذه المراكب الشراعية البسيطة قد نجحت فى نقل أحمال هائلة. أما الأخشاب المستعملة فى صناعة هذه المراكب فهى لم تخرج عن نوعين اثنين، السنط المحلى أو الأرز اللبنانى، وكان الإبحار فى النهر أسهل ما يكون بين أكتوبر ومارس، حين يكون مستوى ارتفاع الماء فى المجرى مناسبًا للإبحار، وذلك لأن من أبريل إلى يونيو هو موسم التحاريق، ومن يوليو إلى سبتمبر هو موسم الفيضان. وقد تغير الوضع تمامًا فى الوقت الحالى بعد بناء السد العالى.

وكما كان الوضع قديمًا، فإن مياه النيل خلال الشهور المناسبة للملاحة النهرية، تكون مغطاة بعدد لا حصر له من المراكب الشراعية التى تنقل كل شىء، من المسافرين العاديين إلى الحجاج إلى كل أنواع البضائع. اليوم كذلك لا تزال الفلايك واحدة من أرخص وسائل المواصلات فى مصر، لكن عيبها هو بطؤها الشديد، مقارنة بوسائل النقل الحديثة. انظروا إليها فى النيل وهى تترك نفسها للرياح تدفعها، وقد حُمِّلت حتى

أقصى طاقة لها، بما لا يترك مكانًا لأى شىء آخر، رجال ونساء وأطفال وماعز وخراف ودجاج وأكياس قمح وكتل حجرية...

إن المنظر المصرى الصميم، هو منظر الفلايك على صفحة النيل، بأشرعتها التى ينفخ فيها الهواء، والشمس التى تترك بقعًا ضوئية عليها، أو عندما تعند الرياح، فنرى الفلايك تتسكع وسط النهر باستسلام تام للأقدار، وهذا كذلك هو طبع مصرى صميم، الاستسلام للأقدار.

انظر مقال النيل رقم (١٠٠).

٥١ - الحركة النسائية / Féminisme

كان أول من اهتم بالدفاع عن حقوق المرأة فى مصر سنة ١٨٩٩، رجلاً قانونيًا مطربشًا من أصول كردية، اسمه قاسم أمين، عندما كان عمره ستة وثلاثين عاما. أدّى نشر كتابه (تحرير المرأة) ذلك العام، إلى إثارة ضجّة كبرى، رغم أنه لم يكن أكثر من مرافعة قانونية، دفاعًا عن حق المرأة فى الذهاب إلى المدرسة. كتب يقول (نحن ما زلنا نربّى بناتنا، كما كان أجدادنا يفعلون منذ ألف عام، ونحن نرفض أن نرى أن كل شىء حولنا يتغيّر، لقد اختزلتم المرأة إلى مجرّد أداة تكون دائمًا فى خدمة الرجل، فلم يعد لديها إلا أن تختار بين أن تكون زوجة أو أن تكون امرأة تبيع جسدها).

فور صدور الكتاب أدانه علماء الأزهر، وكذلك فعل الخديوى عباس حلمى والعديد من قادة البلاد الوطنيين، حتى مصطفى كامل، ولم يعضّد المؤلف ويسانده إلا سعد زغلول، وهو الرجل الذى ستصل به الانتفاضة الشعبية سنة ١٩١٩، إلى رئاسة مجلس الأمة. تلك السنة ١٩١٩ هى التى ستشهد التحوّل الجذرى فى الموقف من المرأة، وذلك لأن سيدات الطبقة البورجوازية(*)، ستنزلن إلى الشوارع، وستندمجن رغم حجابهن فى الثورة الشعبية، وستختلطن من فوق الحناطير بالمتظاهرين، حين طالب الجميع بجلاء

المستعمر الإنجليزى عن مصر. تنبغى الإشارة إلى أنه قبل هذا التاريخ بثمانية أعوام، أى فى سنة ١٩١١، كان قد عقد فى ضاحية هليوبوليس بالقاهرة، أول مؤتمر قومى للنساء المصريات، طالبت فيه المؤتمرات ببعض الحقوق الأساسية للمرأة.

ثم ظهرت هدى شعراوى (١٨٧٩/١٩٤٧) على المسرح النسائى، هذه المرأة العظيمة، التى تنتمى إلى البورجوازية المصرية، ستقطع شوطًا طويلاً جداً. كانوا قد زوّجوها فى سن الثالثة عشرة، ولكن لحسن حظها كان زوجها رجلاً متفتحاً. حكت بعد ذلك (لم أكن أعرف أى شىء، ولا حتى قراءة القرآن الكريم، وعانيت كثيراً من إحساسى بالدونية، عندئذ طلبت من زوجى الانفصال، أو بالأحرى طلبت منه أن يتركنى لبعض الوقت، وقد وافق على طلبى.

ذهبت إلى أملاكنا الزراعية فى الصعيد، حيث لاحظت كم هى تعيسة الفلاحة المصرية، أكثر تعاسة حتى من زميلتها التى تعيش فى المدينة، هناك تفرّغت لقراءة مكتبة أبى، التى تحتوى على كتب المؤلفين الأوروبيين، التهمتها كلها، وعندما لم أجد المزيد بدأت أطلب الكتب من دور النشر الأوروبية، من فرنسا وإنجلترا، بل حتى من أمريكا، واستمر ذلك حتى سن العشرين، القراءة والمذاكرة والمقارنة والتفكير، وذات يوم كتبت خطاباً إلى الباشا زوجى، قلت له فيه، أننى أخيراً أشعر أننى جديرة بأن أكون زوجته، عندها عدنا إلى الحياة الزوجية، على الطريقة الإسلامية).

ظهر الاتحاد النسائى المصرى إلى الوجود فى مارس سنة ١٩٢٣، ثم ظهرت مجلة (المصرية) المطبوعة أولاً بالفرنسية، التى بدأت فى الدفاع عن حقوق النساء، وعن أفكار الناشطات النسائيات، وكانت باكورة أنشطتهن افتتاح مستوصف لعلاج الأمراض، ومشغل لتعليم الحرف اليدوية. سنة ١٩٢٧ تسافر هدى شعراوى إلى روما لحضور المؤتمر العالمى لنساء الأرض، وعند عودتها تقوم بعمل عظيم، إذ ترفع الحجاب الذى كان يغطى وجهها، أمام الجمع الذى كان فى استقبالها.

سنة ١٩٢٨، تسمح جامعة القاهرة لأول مرة، للطالبات بالالتحاق بها، وبعد سبع سنوات تتخرّج طبيبات عديدات من كلية الطب. حدث ذلك بعد حوالى قرن من الزمان على محاولات، الطبيب الفرنسى كلوت بك، الاستعانة بمجموعة سرية من القابلات الصحيّات، حسب التكليف الذى كان قد تلقاه من محمد على باشا. من الجدير بالذكر أن الفرنسى لم يجد نساء مصريات مستعدات للقيام بهذا العمل، مما اضطره إلى قبول مجموعة من النساء الأفريقيات الزنجيات، بدعوى أنهن لسن نساء حقيقيات!

عندما تقوم ثورة ١٩٥٢ تشعر رائدات الحركة النسائية المصرية، بالمزيد من الأمل فى تحسن أوضاعهن، وقد جسّدت دريّة شفيق آمال ذلك الجيل. كانت أول امرأة مصرية تحصل على درجة دكتوراه الفلسفة من جامعة السوربون، وعندما عادت إلى مصر أسست مجلة (بنت النيل). بعد الثورة كان الهدف قد تحوّل من تحرير البلاد من الاستعمار البريطانى، إلى تحرير المرأة من القيود التى كبّلتها. عقدت جلسة أمام مجلس الأمة المصرى لمناقشة حق المرأة فى التصويت فى الانتخابات. عندما لم يوافق المجلس أعلنت دريّة وزميلاتها الإضراب عن الطعام. حصلت المرأة على حق التصويت فى الانتخابات فى دستور ١٩٥٦ .

شجّعت المرحلة الناصرية بوضوح، مبدأ تحرير المرأة، هكذا بدأت نساء كثيرات فى الدخول إلى الحياة العامة، الوظيفية والمهنية، بل حتى إلى الحياة السياسية، فدخلت أول نائبة مصرية إلى البرلمان سنة ١٩٥٧، وأول وزيرة مصرية إلى الحكومة سنة ١٩٦٢، وقد حصلت بعض النساء من أعضاء الأحزاب الشيوعية المصرية، على تميّزهن بطريقة مؤلمة حزينة عندما دخلن السجن، مع ملاحظة أن معاملتهن فيه كانت أفضل بكثير من المعاملة التى حصل عليها زملاؤهن الرجال.

دخلت نوال السعداوى السجن ثلاثة أشهر فى نهاية حكم أنور السادات، ضمن أزمة سبتمبر ١٩٨١، وقد نشرت قبل ذلك وبعده العديد من الأعمال النارية، بسبب

طبعها المندفع المتحمّس، كذلك بصفتها طبيبة أمراض نفسية. فى فترة سجنها، لم تجد ما تكتب عليه إلا المناديل الورقية، بأقلام الماكياج التى كانت قد استعارتها من فتاة ليل. نوال السعداوى هى العدو رقم واحد للأصوليين الدينيين، وقد حاول أحدهم فى ربيع ٢٠٠١ أن يلغى زواجها بدعوى ارتدادها عن الإسلام. إن موجة التأسلم التى تجتاح المجتمع المصرى فى الوقت الحالى لا تقف عقبة فى وجه الناشطات النسائيات، اللائى يجدن المعاونة من سيدة مصر الأولى سوزان مبارك، مثلما كان حالهن كذلك مع جيهان السادات.

إن المجلس القومى للمرأة، الذى ظهر إلى الوجود فى يناير سنة ٢٠٠٠، كان يمكنه أن يلعب دوراً أكثر أهمية، لو لم يكن التمثيل النسائى على هذا القدر من الضآلة، فى كل من الحكومة المصرية، ومجلس الشعب المصرى. إن تطوّر وضع المرأة المصرية حاليًا، يعانى من تغيّرات حادة ومفاجئة، فى حدة وعنف أسنان المنشار، وهناك مسافة كبيرة جداً تفصل بين إصدار القوانين وتطبيقها.

انظر مقالات: الختان رقم (٤٦)/ الزواج رقم (٨٤)/ الحجاب رقم (١٤٣).

٥٢ – الموظفون / Fonctionnaires

عندما ذهبت إلى المكتبة العامة فى القاهرة لعدة أيام متتالية، بغرض البحث عن بعض الوثائق، قيل لى إنه لعمل صورة ضوئية من إحدى الوثائق، ينبغى الحصول على توقيعات ثلاثة من الموظفين، الأول هو مدير صالة المطالعة، والثانى هو رئيسه المباشر، والثالث هو أحد كبار المديرين. لاحظت سريعًا أن أحد الأفراد الثلاثة، كان غائبًا دائمًا عن عمله، وعرفت أن له وظيفة أخرى فى مكان آخر، وذلك لأن المرتب المتواضع لوظيفة واحدة لا يكفيه، ورغم غيابه فقد قام أحد زملائه بالتوقيع بدلا منه، وبدون حتى أن يطلب أية إكرامية أو بقشيش. فى مصر هناك دائمًا حلول أخرى للمشاكل.

ما زال المصريون يتمسكون بالوظائف الحكومية، لا من أجل مرتباتها البائسة، ولكن أولاً من أجل الإحساس بالأمان، فقليل دائم خير من كثير متقطع كما يقول المثل، وثانيًا من أجل الوضع الاجتماعى الذى تسمح به، وثالثًا لأن عدد ساعات العمل فيها محدود، وهو ما يسمح بالبحث عن عمل آخر. فيما يتعلق بالوضع الاجتماعى، فإن كلمة موظف حكومى، كانت فى كل الأزمان، وفى كل الحضارات، توحى للآخرين بالاحترام ، بل حتى تثير غيرتهم.

كتب أوجين دانجلار، فى سنة ١٨٦٧ ، عندما تردد على بعض المصالح الحكومية فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ الإدارة المصرية، قائلاً (لاحظت أن عدداً كبيراً من البشر يتجمهر منذ ساعات الصباح المبكر، أمام المبنى الخاص بالإدارة، كان الجمهور العادى من فقراء المصريين أصحاب الحاجات، يأتون على أقدامهم ويقفون ينتظرون، أما الأشخاص المتميّزون الذين يأتون على ظهور الحمير فهم الموظفون، بالعمائم على رؤوسهم والقفاطين على أجسامهم، والمحابر النحاسية الطويلة معلقة بفخر تتدلى من أحزمة الوسط).

فى سنة ١٩٣٦ عندما كان عدد سكان مصر حوالى ١٤ مليونًا، كان عدد موظفيها ٢٠٠ ألف. كانوا فى ذلك الوقت الفئة الوحيدة من المجتمع المصرى، التى تتميّز بالحصول على رعاية صحية مجانية. فى زمن عبد الناصر الذى كان قد وعد كل خريج جامعى بالحصول على وظيفة، فتضاعفت أعداد موظفى الحكومة المصرية أربع مرّات، خلال عشر سنوات فقط لا غير. فى منتصف ثمانينيات القرن العشرين تراجعت مصر عن هذه السياسة، الخاصة بضمان الوظائف الحكومية لكل الخريجين، بعد أن كان عدد الموظفين قد وصل إلى رقم ثلاثة ملايين ونصف المليون، تمتص مرتباتهم الشهرية، نصف ميزانية الدولة المصرية. المشكلة هى أن الشباب الذى لم توظفه الدولة، لم تتكفل أية جهة أخرى بتوظيفه، هؤلاء الشباب ما زال أغلبهم بدون وظيفة وبدون عمل.

والبيروقراطية(*) [أى حكم المكتبيين] المصرية يرمز إليها مبنى ضخم فى وسط القاهرة، هو مبنى المجمّع، الذى يعتبر أبرز ملامح ميدان التحرير، ويقع إلى الجهة الأخرى من الميدان فى مقابل المتحف المصرى. فى فيلم (الإرهاب والكباب) الذى نجح نجاحًا ساحقًا، يلعب الممثل (عادل إمام) دور مواطن فقد طريقه تمامًا داخل متاهة مجمّع التحرير، فالموظفون يقذفون به من مكتب إلى آخر لمجرّد رغبتهم فى التخلص منه، فيفقد أعصابه ويلتقط سلاحًا ناريًا من أقرب شرطى، وهكذا وجد نفسه إرهابيًا محاطًا بإرهابيين آخرين هم كذلك من ضحايا الإدارة المصرية فى مجمّع التحرير، وعندما تحيط قوى الشرطة بالمجمّع، يطالب محتلوه بالكباب أولاً قبل التفاوض.

وقد عالج الكاتب (أحمد بهجت) نفس الموضوع بخفة دمّ واضحة فى كتاب مضحك جدًا، هو كتاب (مذكرات صائم)، وترجمته له دار (لارماتان) الباريسية سنة ١٩٩١ تحت عنوان (مذكرات رمضانية) قال فيه (أعمل فى الحكومة موظفًا على الدرجة الثالثة، وأشعر كأنى جعران مصرى قديم، ذلك لأن ثمنى يزداد مع مرور الزمن، وقد اختزل عملى الآن إلى مجرّد التوقيع على بعض الأوراق، كل عملى فى المصلحة ينحصر فقط فى التوقيع على بعض الأوراق، وهى أوراق تتقدّم من مكتب إلى مكتب، عبر طريق طويل ترصّعه التوقيعات على جانبيه، ثم تعود هذه التوقيعات إلىّ من جديد، لأوقع من جديد، لأثبت أننى رأيت كل هذه التوقيعات وأننى أوافق عليها).

أليست كلمة الولع بالأمور المكتبية والورقية (بالفرنسية: بابراس) هى من أصل مصرى قديم (بابيروس: بردى)؟ لقد عرفت مصر القديمة نشاطًا إداريًا مكثفا، وكان الكتبة دائمًا هم أقرب الناس إلى السلطان، ودائمًا فى معيّته، وكانوا لا يتوقفون عن كتابة القرارات والحسابات. فى ذلك الزمن القديم، كانت تلك الآلة الإدارية القوية المؤثرة، قادرة على إدارة البلاد بكفاءة ملحوظة، أما الآلة الإدارية الحالية، فتبدو عليها

ملامح الفوضى. ثم إن هناك ١٢٠ ألف شكوى يرفعها الجمهور المصرى كل عام، ضد الإدارة العليا فى البلاد، يتعلق نصفها على الأقل بالرشاوى والفساد.

مقالات: بقشيش رقم (١٣)/ يوميات نائب فى الأرياف رقم (٧٢)/ الكاتب المصرى رقم (١٢٩).

٥٣ - كرة القدم / Football

على أيام طفولتى، فى ضاحية هليوبوليس، كنا نسكن شارعًا هادئًا، فى ذلك الوقت كان لاعبو الكرة الشراب، يوقفون اللعب لحظات كلما مرّت سيارة. أما اليوم، فرغم أن الكرة الحقيقية، لا الكرة الشراب، أصبحت فى متناول عدد أكبر من الشباب، إلا أن الكثافة المرورية الحالية، تمنع لعب الكرة فى الشوارع. لكن الانقسام الثنائى الكروى ما زال سائدا فى المجتمع المصرى، ليس فقط فى المجتمعات القاهرية، بل كذلك حتى فى المجتمعات القروية، مهما كانت انتماءات المجتمعات الريفية لأنديتها المحلية. يمكننا القول بضمير مرتاح، إن كل مصرى إما أن يكون أهلاويًا أو أن يكون زملكاويًا، إما الفانلة الحمراء أو الفانلة البيضاء، وليس هناك أى شىء آخر فيما بينهما. هذا الوضع لم يتغيّر منذ عشرات السنين.

كان النادى الأهلى يدافع دائمًا، عن صورته باعتباره من أهم الأندية الشعبية فى مصر، إذ كان أول رئيس له هو القائد الوطنى سعد زغلول، خلال السنوات ١٩١٠/١٩٢٠ . أما نادى الزمالك والذى يحمل حاليًا اسم أحد الأحياء الراقية بالقاهرة، فقد كان فى بدايته النادى المفضل للطبقات البرجوازية(*). وإن كان هذا لم يمنع النادى الأهلى من أن يكون هو أيضًا فى نفس الحىّ الراقى الزمالك.

إن كل لقاء كروى بين هذين الناديين هو بشكل ما حرب أهلية، فمن الأفضل عدم ترك أهلاوية وزملكاوية أمام نفس جهاز التلفزيون، فإن أى قرار من حكم اللقاء

سيعترض عليه أحد الفريقين. فى أبريل ١٩٩٩ شاهدنا فريق الزمالك يغادر كله أرض الملعب، بعد خمس دقائق فقط من بداية المباراة، بسبب كارت أحمر. ولتفادى الوقوع فى كل أشكال الالتباس والجدل، أصبح الناديان يستعينان عادة بحكم أجنبى للقاءاتهما. الحكم المصرى الوحيد الذى قد يستطيع التحكيم فى مباراة بين الأهلى والزمالك، هو الحكم الدولى جمال الغندور، فقد أحاطت به هالة من التقدير، منذ أن اختير كأول حكم غير أوروبى، للتحكيم فى مباريات كأس الأمم الأوروبية.

إلا أن سجل النادى الأهلى لا يضاهيه سجل أى من أندية مصر الأخرى، ففى سنة ٢٠٠٠ حصل على بطولة مصر للعام السابع على التوالى، وهى عودة إلى مجده التليد فى سنوات الخمسينيات. ولكن الزمالك يقتفى دائمًا أثر الأهلى، فالناديان معًا يكوّنان ثلثى الفريق القومى المسمّى فريق الفراعنة. هناك بعض فرق كرة القدم النسائية، بمبادرة من كابتن سحر الهوارى، وهى سيدة تتخطى كل العقبات فى طريقها، ولا تلق بالاً لمعارضيها، الذين يدّعون أن لعب الفتيات لكرة القدم يصيبهن بفقد العذرية وبالعقم.

٥٤ – الملك فؤاد الأول / Fouad 1er

قبل أن يتم تنصيبه ملكًا على مصر بسنوات قليلة، كان قد عُرض عليه عرش ألبانيا. أولم يكن جدّه محمد على ذو الأصول الألبانية من مقدونيا، ثم أصبح بعد ذلك فرعونًا مصريًا بمصادفة تاريخية؟ كان فؤاد قد حصل على لقب (سلطان مصر) سنة ١٩١٧ وهو فى التاسعة والأربعين من عمره، ثم حصل على لقب (ملك مصر) فى ١٥ مارس ١٩٢٢ بعد إقامة النظام الملكى فى مصر، المستقلة اسميًا والواقعة فعليًا تحت الإدارة الخانقة للاحتلال الإنجليزى. كان فؤاد قد تلقى تعليمًا أوروبيًا فى چنيف بسويسرا، ثم التحق بالأكاديمية العسكرية فى تورينو بإيطاليا، ولهذا فهو يجيد

الفرنسية والإيطالية إلى درجة الإتقان التام، ثم تعلم الألمانية أثناء شغله لمنصب الملحق العسكرى العثمانى فى فينا بالنمسا، ولكنه فى المقابل لم يهتم أبداً بتعلم العربية.

فيما يتعلق بمظهره كان فؤاد، على عادة رجال طبقته فى ذلك الجيل، يستعمل مشداً لمنطقة البطن والحوض، ليخفى به بدانته، وكان يضع طربوشاً على رأسه، ويعلق عصا على ساعده، يستكمل بها أناقته، أما شواربه التى كانت تتخذ شكلا مقوّسا كمقود الدراجة، فكانت تظهره فى صوره الرسمية، فى شكل أقرب إلى شكل أعيان وإقطاعيى أرياف جنوب فرنسا. وعندما كان يستقبل زوّاراً فى قصره، كان شماشرجيته يلفتون انتباه الزوّار، إلى نوبات الكحّة الخشنة الشبيهة بنباح كلب، التى تصيبه أحياناً.

هذه الكحّة كانت نتيجة حادثة مضحكة ومبكية فى نفس الوقت. فعندما كان الملك فؤاد فى سن الثلاثين، وأثناء زواجه الأول، جاءه أخو زوجته غاضباً، يطالبه بسداد الأموال، التى كان فؤاد قد خسرها أمامه، فى المقامرة على لعبة بلياردو، اعتذر فؤاد بعدم وجود نقود كافية، فتهوّر عليه الرجل وأطلق من مسدسه رصاصتين على فؤاد، أصابته إحداهما فى مؤخرته والأخرى فى صدره، وكانت فى مكان حرج لم يجرؤ الأطباء على الاقتراب منه، وهى السبب فى تلك الكحة الشبيهة بنباح كلب.

كان الملك يشعر بالغيرة من حزب الوفد، الذى أسسه الزعيم الوطنى سعد زغلول، والذى كانت له شعبية كبيرة، مما أدّى إلى منافسته فى السلطة مع الملك. ومن الأشياء الملفتة للانتباه، أنه كان قد تمّ تغيير رئيس مجلس الأمة (البرلمان) عشرين مرة، خلال مدة حكم الملك فؤاد (١٩٢٢/١٩٣٦) كان السبب فى هذا الوضع القلق، هو نظام الحكم المؤقت وتعليق الدستور.

رغم أن شعبيته لدى المصريين كانت منخفضة، وأن سمعته لديهم كانت سيِّئة، بسبب أن الثروة التى كوَّنها قبل تنصيبه مشكوك فيها وفى مصادرها، إلا أنه حاول محاولات جادة لتحسين صورته، منها مثلاً تأسيس جامعة القاهرة، وهو شىء يدعو إلى الاحترام، بالإضافة إلى أن الغربيين كانوا يقدِّرون له مساندته للعديد من الهيئات العلمية فى مصر. هناك أيضًا حقيقة أن بعض الكتب المهمة، كان قد تم تأليفها بطلب شخصى منه، مثل كتاب (تاريخ الأمّة المصرية) فى سبعة أجزاء، تحت إشراف جابريال هانوتو من الأكاديمية الفرنسية.

ويذكر له أنه كان يحسن استقبال مندوبى الأقليات ذوى الحاجات فى قصره، سواء كانوا من الشوام أو من اليهود. وبشكل عام تميَّزت مصر فى عصره بازدهار التعددية العرقية والدينية (الكوزموبوليتانية(*)) فى مدن مصر الكبرى، من الإسكندرية إلى القاهرة إلى منطقة قناة السويس. ورغم أن سنوات حكمه فى مجملها كانت سنوات غليان فى العالم وفى مصر، إلا أنه نجح فى الاحتفاظ لمصر بقدر كبير من الاستقرار النسبى.

يموت الملك فؤاد يوم ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦، بدون أن يحصل على الوقت الكافى، اللازم لإعداد ابنه الوحيد، ووريثه على العرش، لخلافته. بعد أسابيع قليلة من الوفاة، تحدث تغيُّرات مهمة فى مصر، منها أن بريطانيا تقبل أن تمنح مصر قدرا أكبر من الاستقلالية. ثم فى العام التالى، وطبقا للاتفاقيات الدولية الموقعة فى مونترو بسويسرا، وضعت نهاية لشروط الإذعان، التى كانت تسمح للأجانب فى مصر، بعدم الوقوف أمام محاكم القضاء المحلى، بل أمام محاكم خاصة بالأجانب، وبعدم دفع الضرائب، وهو ما كان يعرف باسم الامتيازات الأجنبية. لقد انتهت الامتيازات التى كان يحصل عليها الأجانب بدون وجه حق.

٥٥ - الفول المدمّس / Foul

(مدامس .... مدامس)، هكذا يصيح البائع الجائل الذى يدفع أمامه، عربة خشبية صغيرة، عليها قدر نحاسى كبير، يوجد تحته لهب صغير، يبقى الفول المدمّس داخل القدر ساخنًا، ثم مغرفة كبيرة يقدّم بها الفول لزبائنه، ولكن على الزبون أن يكون قد أحضر معه إناء نحاسيًا صغيرًا يحصل فيه على الفول. ولكن هناك الكثير من العائلات المصرية التى تعدّ الفول فى المنازل، فهو الأكلة الشعبية رقم واحد فى مصر، ويستهلك منه المصريون كميّات كبيرة، فالمصرى المتوسّط يأكله مرة واحدة على الأقل كلّ اليوم. هناك مثل يقول عن الفول إنه (إفطار الأمير وغذاء الفقير وعشاء الحمير).

الطريقة هى: خذ حبيبات فول مستديرة وكبيرة، على أن يكون لونها أحمر داكنا، واغمرها فى الماء البارد لمدة ساعة، ضعها بعد ذلك فى إناء محكم الغلق، مع حفنة عدس أصفر، وبعض شرائح البصل، مع غمر الكل بماء يغلى، واترك الإناء المحكم الغلق على نار هادئة خفيفة حبّذا طول الليل. بعد الاستواء يتحوّل الخليط إلى سائل سميك القوام لونه أسمر، لا يبقى بعد ذلك إلا إضافة التتبيل المناسب، حسب أذواق الطاعمين، من بين عدد لا نهاية له من الاختيارات، زيت/ زبدة/ ليمون/ خلّ/ ملح/ فلفل/ ثوم/ كمّون/ ....، مع إمكانية إضافة البصل والطماطم والبقدونس والبيض والسلطة البلدية الخضراء. إنها وجبة كاملة شهية ومغذية.

بعض المحلات تبيع الفول فى شكل سندوتشات، حيث يعرض المُكملّ الطبيعى للفول وهى الطعمية، وقد تكون الكلمة مشتقة من معنى الطعم الطيب، وهو نفس الطعام الذى يسميه أهل الإسكندرية الفلافل. إن وصفة صنع الفلافل أكثر تعقيداً من وصفة صنع الفول، إذ نبدأ بصنع عجينة من حبيبات الفول المنزوعة القشرة المدهوسة، ثم نضيف إليها البصل والثوم والبقدونس والفلفل الأحمر والشبت (نوع من البقول) والكسبرة الخضراء والكمّون والملح...، نترك هذه العجينة تتخمّر لمدة ساعتين، ثم نصنع

منها كريّات مفلطحة الجانبين، مزودة بحبيبات السمسم، ثم تقلى هذه الكريّات فى الزيت المغلى.

من مزايا الفول أنه أكلة رخيصة تملأ المعدة، فلو أكلنا كميّة منه صباحًا، يمكن أن نكتفى بها طول النهار، ولكن الأطبّاء يقولون إن المبالغة فى تسوية الفول تفقده قيمته الغذائية. يمكنكم أن تجرّبوا الفول على الطريقة المصرية ولو مرّة واحدة [طبعا الكلام موجّه هنا للجمهور الفرنسى]، مع ملاحظة أنه صعب الهضم لمن لم يألفه، ويؤدى غالبًا إلى تكوين غازات فى المعدة، ولكن يصعب إقناع المصريين بنسيان الفول.

٥٦ – الفرانكوفونية / Francophonie

بالعربية يمكن لهذه الكلمة أن تعنى (فرنسية الهوية واللغة والثقافة لمن هو فى الأصل ليس فرنسيا)، وهى تتكوّن من كلمتين، الأولى (فرانكو) وتعنى فرنسى، والثانية (فونى) وتعنى صوت. وليس لموضوع آخر أن يكون أقرب إلى نفسى وأكثر تأثيراً، من هذا الموضوع، فأنا واحد من أولئك الشرقيين، الذين كانت وما زالت اللغة الفرنسية بالنسبة إليهم أقرب إلى كونها هوية ووطن منها إلى كونها مجرّد لغة. ورغم أن اللغة الفرنسية لم تكن أبداً لغة الجماهير فى مصر، فإنها كانت تشغل فى مصر، وخلال ما يقرب من قرن ونصف من الزمان، أى حتى أوائل خمسينيات القرن العشرين، مكانًا مدهشًا. هى لم تكن فقط لغة الصالونات، بل كانت كذلك لغة رجال الأعمال والقضاء والبلاط الملكى. كان وضعها غير عادى، خاصة لو عرفنا أن مصر خلال ثلاثة أرباع القرن [1952/1882]، كانت تحت الاحتلال البريطانى.

تعود بداية استعمال اللغة الفرنسية فى مصر إلى أوائل القرن التاسع عشر، عندما كان الحاكم الجديد لمصر، محمد على، قد استعان بفرنسيين لمساعدته فى بناء

دولة حديثة. من بين هؤلاء كان هناك ضبّاط سابقون فى جيوش نابليون، مثل الكولونيل سيف، الذى أطلق عليه لاحقا اسم سليمان باشا، وكان قد جاء من فرنسا إلى مصر للمعاونة فى تكوين قادة الجيش المصرى الجديد. كان هناك كذلك أطباء بشريون من أمثال (كلوت بيه)، وأطباء بيطريون وصيادلة. كان هؤلاء وراء تحديث الطب المصرى. فى نفس الوقت الذى كان فيه عدد كبير من المهندسين الفرنسيين يقومون بتأسيس مشروعات ضخمة فى مصر، نذكر منهم بلفون/ وشارل لامبار/ وباسكال كوست/ وألكسيس چوميل. بالإضافة إلى بداية إرسال بعثات دراسية إلى فرنسا، تكوّنت من أفضل شباب البلد، الذين بمجرّد عودتهم إلى مصر بدأوا فى تأسيس المدارس المصرية وفقا للنموذج الفرنسى.

ثم لعب علم المصريات دوراً مهمًا فى زيادة اهتمام المصريين باللغة الفرنسية، فللاطلاع على منجزات هذا العلم التى كانت بالفرنسية، اقتضى الأمر دراسة الفرنسية، فهناك مؤلفات شامبوليون الذى فكّ شفرة الكتابة المصرية القديمة، وهناك كذلك كتابات ماريبت الذى أسس أول متحف للآثار المصرية، بعد أن كان سعيد باشا قد أوكل إليه مهمة، قيادة وإدارة الحفائر الأثرية فى عموم مصر. وقد ظلّ هذا المنصب فى أيدى فرنسيين خلال حوالى قرن من الزمان، وحتى قيام ثورة ١٩٥٢ هذا أقل ما ينبغى أن يقال فى هذا المجال. إلا أن المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، الكائن بحى المنيرة بالقاهرة، ما زال يلعب حتى اليوم، دوراً مهمًا جداً فى مجال البحوث الميدانية فى علوم الآثار المصرية، إذ يعتمد الباحثون كثيراً على كل من مكتبته ومطبعته الاستثنائيتين. سينتهى بنا الأمر إلى الاعتقاد، بأن علم المصريات هو علم فرنسى.

هناك عنصر آخر لعب دوراً أكثر حسمًا فى مسألة اهتمام المصريين بتعلم الفرنسية، وهو وجود رجال الدين المسيحى الكاثوليك، الذين افتتحوا منذ منتصف القرن التاسع عشر، فى القاهرة والإسكندرية، ثم فى بعض عواصم الأقاليم، عدداً من

المدارس والمؤسسات التعليمية، مثل مدارس الآباء اليسوعيين [الجيزويت] والأخوة [الفرير] للأولاد، ومدارس الراعى الصالح [بون باستور] ووالدة الإله [مار دوديو] وسيدة القلب المقدّس [ساكريه كور] للبنات.

استقبلت هذه المدارس التلاميذ من كل الديانات والجنسيات بدون أى تمييز. وقد فرضت هذه المدارس نفسها فوراً كأفضل مدارس فى البلاد المصرية. تكوّن الجزء الأكبر من طبقة البورجوازية المصرية، خلال نهاية القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠، فى هذه المدارس، بالإضافة إلى عدد من أفراد الطبقات المتواضعة. هكذا نجحت فرنسا فى أن يصبح لها أصدقاء خلصاء أوفياء، بين المصريين المسلمين والمصريين المسيحيين والسوريين واللبنانيين واليونانيين والإيطاليين واليهود والأرمن. تعدّى بذلك نفوذ فرنسا فى وادى النيل كل التوقعات، رغم قلة عدد مواطنيها فى البلد.

سنة ١٩٠٨ وصل عدد تلاميذ هذه المدارس الفرنسية حوالى ٢٥ ألفًا، وهو ما كان يمثل حوالى ١٧٪ من إجمالى عدد تلاميذ مصر فى ذلك الوقت، وكانت هناك بضعة آلاف أخرى من التلاميذ يدرسون الفرنسية، ولكن فى مدارس ليست فرنسيه مثل مدارس الطائفة الإسرائيلية. فى عام ١٩٠٩ تضاف مدارس ليسيه فرنسية علمانية لا دينية، يقوم على إدارتها رجال علمانيون لادينيون، فى القاهرة ومصر الجديدة والإسكندرية وبورسعيد.

إن الجدل الدائر حول العلمانية، فى فرنسا فى بداية القرن العشرين، لم يؤثر على المدارس الدينية فى مصر، بل استمرت تقوم بعملها تمامًا كما كان الحال فى السابق. كانت حكومة الجمهورية الثالثة فى فرنسا [1870/1914] قد أدركت حكمة الإبقاء على المدارس الدينية فى مصر، فعند افتتاح كنيسة اليسوعيين فى الإسكندرية، يوم ٣١ مارس ١٨٨٦، قال قنصل فرنسا (إن كل مدرسة دينية فرنسية، ترتفع مبانيها فوق ضفاف النيل، هى قلعة للمعارف، ينبعث منها حب واحترام لفرنسا).

مع ظهور المحاكم المختلطة فى مصر سنة ١٨٧٥، أصبحت اللغة الفرنسية هى لغة القانون الدولى. كانت الفرنسية كذلك هى لغة المعاملات فى سوق الأوراق المالية، ولغة التعاقدات بين الدولة المصرية وشركات الأعمال، حتى لو كانت تلك الشركات إنجليزية الجنسية. كانت المداولات بالفرنسية فى الجمعية الجغرافية الملكية، حتى مضابط جلسات مجلس الوزراء المصرى كانت بالفرنسية.

وكانت الأسر المتفرنجة تتحدّث بالفرنسية فى المنازل، ولكن بلكنة غنائية مصرية، وبمفردات مستوحاة وتراكيب مستقاة من العامية المصرية. سأضرب لكم بعض الأمثلة، كنا فى منزلنا نكتب (مبروك) بحروف فرنسية بدلا من الكلمة الفرنسية (تهانينا)، أو نقول بالفرنسية (الساعة خمسة ونص وخمسة) على الطريقة المصرية، بدلا من أن نقول (الساعة خمسة وخمسة وثلاثين) على الطريقة الفرنسية. فى العربية يقولون (أنا أشتغل محاسب)، أما فى الفرنسية فتركيب الجملة مختلف إذ يقولون (أنا أشتغل كمحاسب) وكنا نأكل الكاف. وهكذا...

خلال السنوات ١٨٩٠/١٩٠٠ كان الموظفون البريطانيون مضطرين أحيانًا، لاستعمال اللغة الفرنسية فى تبادل بعض الملحوظات، هذا هو ما ذكره ألفريد ميلنر مساعد وزير الدولة البريطانى للشؤون المالية. فى ذلك الوقت، لم تكن هناك إلا جريدة يومية واحدة فى مصر تصدر باللغة الإنجليزية، إيجيبشان جازيت، وكانت مضطرة إلى طبع نصف عدد صفحاتها باللغة الفرنسية، وذلك لعدم وجود عدد كاف من القراء بالإنجليزية.

وعلى مقاعد الدراسة فى المؤسسات التعليمية الكاثوليكية، تربّت أجيال متتالية من مسؤولى الإدارة المصرية. يوم ١٣ مايو ١٩١٦، قام الجالس على العرش، السلطان حسين كامل، بزيارة مدرسة الآباء اليسوعيين فى الفجّالة بالقاهرة، مصحوبًا باثنين من قدامى خريجى المدرسة، أحدهما هو صديقه الأمير إسماعيل داود، والآخر هو حاجبه وأمين سرّه محمود بك فخرى. أثناء الزيارة ذكر السلطان أمام التلاميذ، أنه لا

يزال يحفظ عن ظهر قلب، أربعين قطعة شعرية من مؤلفات الشاعر الفرنسى لافونتين، والتى تصوّر قصصاً خيالية تدور على لسان الحيوانات.

عندما كان هذا السلطان مراهقًا صغيراً، كان والده الخديوى إسماعيل قد أرسله إلى فرنسا ليتعلم، حيث تشبّع تماما بالثقافة الفرنسية، وقد حدث نفس الشىء مع الكثيرين غيره من أفراد الطبقة الثرية فى مصر. ألقى السلطان كلمة أمام التلاميذ شعر منها الجميع، أنه ليس على سجيّته تماما لا فى العربية ولا فى الإنجليزية وإنما فقط فى الفرنسية. فى نهاية الزيارة قال (ليبارك لنا الله فى مدارسكم وفى ثمارها الطيبة). وكان خريجو مدارس الأخوة (الفرير) هم كذلك مصدر فخر للبلاد، خلال أجيال متتالية، فمن بينهم سنرى ثلاثة من رؤساء الوزارات، أحمد زيور وإسماعيل صدقى وتوفيق نسيم.

ومن الغريب ألا تفكر إنجلترا فى احتواء صفوة المصريين، بإنشاء مدرسة إنجليزية على غرار المدارس الفرنسية، إلا سنة ١٩٠٨ بالإسكندرية، وهى المدرسة التى حملت اسم ملكة إنجلترا فيكتوريا. إلا أن الإدارة الإنجليزية للمدرسة، كانت مضطرة إلى الاهتمام باللغة الفرنسية بناء على طلب أغلبية زبائنها. لكن هذه المدرسة هى التجربة الإنجليزية الوحيدة فى هذا المجال. لم يهتم الإنجليز بتعليم الشعب المصرى. وقد أدّت رعونتهم تلك إلى ارتكاب أخطاء جسيمة فى حق اللغة الإنجليزية، فقد جعلت القوميين المصريين يعتقدون جازمين، أنه رغم مزاعم التحضر التى تدّعيها بريطانيا، إلا أن واقع الأمر أنها أساءت إلى نظام التعليم المصرى لفترة طويلة.

وسيلجأ القوميون المصريون إلى فرنسا لتساعدهم فى التخلص من المحتل الإنجليزى. هناك مثلاً مصطفى كامل، الذى حصل على ليسانس حقوق من تولوز بفرنسا، واستمر مدة طويلة فى مراسلات مع الصحفيين الفرنسيين، وقد استفاد منهم تماما فى مساندة القضية المصرية [فى مسألة قضية دنشواى ١٩٠٦]، ومنهم الصحفية الباريسية مدام جولييت آدم، والأديب الفرنسى بيار لوتى.

وفى مقابل ولع الفرنسيين بمصر، فهناك كذلك ولع المصريين بفرنسا. وقد شهدت بذلك الأنشطة الأدبية والفنية، فى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، فى مدن مصر الكبرى، خاصة فى القاهرة والإسكندرية. كيف لى أن أذكر كل الشعراء والروائيين وكتاب المقالات، من المسلمين والمسيحيين المصريين (الأقباط) والمسيحيين الشرقيين (من الشوام) واليهود، الذين استعملوا اللغة الفرنسية فى التعبير عن أنفسهم. سأذكر فقط جورج حنين، وألبير قصيرى، وإدمون جابيس، وجوزيبى أونجاريتى، الذى كان يكتب كذلك بالإيطالية، وأجوستينو سينادينو، والأرمينى أرسين يرجات، والشاعر اليونانى الشهير كونسانتين كافافى، الذى كتب أشعاره باليونانية، لكنه كان ضمن أفراد ذلك النادى الأدبى الثقافى الكوزموبوليتى(*) [المتعدد الجنسيات]، الذى كانت باريس بالنسبة إليه هى عاصمة العالم.

فى تلك الفترة من نهاية ثلاثينيات القرن العشرين، كان شعراء مصر الفرنسيو الثقافة يعبّرون عن كل الاتجاهات الشعرية الموجودة فى العالم فى ذلك الوقت، فهناك البارناسيون، والرومانتيكيون، والرمزيون، والسيرياليون. وكانت الصحافة المحلية باللغة الفرنسية، تعتمد على جمهور كبير يفكر ويبحث عن المعلومات بالفرنسية. فى سنة ١٩٣٧ ومن بين ٦٥ كتاباً مطبوعاً بلغات أجنبية فى القاهرة، كان هناك ٤٥ كتاباً بالفرنسية، وخمسة كتب فقط بالإنجليزية. كانت لافتات الشوارع فى المدن المصرية بالعربية والفرنسية.

كانت أول لطمة تلقتها الفرنكوفونية فى مصر، على يد الضباط الأحرار فى يوليو ١٩٥٢، فإن الحكام الجدد لمصر يخرجون من الطبقة المتوسطة التى لم تكن تعرف الفرنسية، ولم يتعلموا فى مدارس الحكومة وفى معسكرات الجيش إلا الإنجليزية، فبدت لهم الفرنسية كما لو كانت لغة الماضى، لغة النظام القديم. ثم جاءت أزمة تأميم قناة السويس سنة ١٩٥٦، لتصبح نقطة التحوّل فى تاريخ اللغة الفرنسية فى مصر، نقطة التحوّل التى ستكون بلا رجعة. أخطأت فرنسا بالانضمام إلى المحتل السابق لمصر

(إنجلترا)، وإلى العدو اللدود (إسرائيل)، فى محاولة استرداد السيطرة على قناة السويس بقوة السلاح. دفعت فرنسا فيما بعد ثمن الاشتراك فى هذا التحالف الثلاثى غاليًا.

تمّ تأميم مدارس الليسيه الفرنسية لتبعيتها المباشرة للحكومة الفرنسية، أما المدارس الكاثوليكية فقد ادّعت تبعيتها للفاتيكان، وبذلك نجت من ذات المصير، ولكنها تقبل رغم ذلك أن تخضع لإشراف وزارة التربية والتعليم المصرية، التى تبدأ فى تعريب كل المناهج التى كانت تدّرس حتى ذلك الوقت بالفرنسية [التاريخ والجغرافيا والعلوم ..]. يعود المدرسون الفرنسيون إلى بلادهم، ثم يعود كل الفرنسيين إلى بلادهم، ثم تبدأ هجرة كل فرنسيى الثقافة من السوريين واللبنانيين [عائلة المؤلف نفسه]، ومن الأرمن والإيطاليين واليونانيين. بمرور السنوات تنكمش الثقافة الفرنسية فى مصر، تنكمش بالتدريج حتى تختفى.

فى الحكومة المصرية الحالية (٢٠٠١) يوجد عدد من الفرانكوفونيين، منهم مثلاً وزير الخارجية أحمد ماهر السيد، وهو أحد قدامى خريجى ليسيه مصر الجديدة، ولكنه حالة استثنائية. ومن الأوضاع المتناقضة أنه عندما كانت مصر تحت الاحتلال الإنجليزى، كانت الصفوة الإدارية والثقافية تتحدث الفرنسية، أما الآن وقد تحررت مصر من هذا الاحتلال منذ أكثر من نصف قرن، فإنها تتحدث الإنجليزية، بلكنة أمريكية.

وقد انضمت مصر رسميًا إلى الوكالة الدولية للفرانكوفونية سنة ١٩٨٣، ثم ساهمت فيها سنة ١٩٩٧ بمنصب السكرتير العام، الدكتور بطرس بطرس غالى. لكن المتابعين لهذا الموضوع سيلاحظون أنه فى مهرجانات الألعاب الرياضية للدول الفرنكوفونية، يجد أفراد الوفود المصرية صعوبة كبيرة فى التفاهم مع أفراد غيرهم من وفود الدول الناطقة بالفرنسية. ولكن ألا يتعلم المصريون اللغة الفرنسية باعتبارها لغة أجنبية ثانية فى التعليم الثانوى؟ الإجابة بنعم، هناك ٢ مليون تلميذ مصرى يدرسون

الفرنسية لمدة ثلاثة أعوام، إلا أن النتيجة التى شاهدتها بنفسى مخيّبة جداً للآمال، فهم بالكاد يقرأون جملها البسيطة، إلا أنهم يكتبونها بطريقة سيئة جداً، وتقريبًا لا يتحدثون بها إطلاقًا.

إن التعليم العالى باللغة الفرنسية فى مصر فى الوقت الحالى، لا يجمع إلا عدداً قليلاً جداً من الطلاب. إلا أن جنود الفرنكوفونية الحقيقيين ما زالوا هم مدرسو وتلاميذ المدارس الكاثوليكية التى كانت تابعة لفرنسا حتى الخمسينيات، ثم أصبحت تابعة للفاتيكان، والتى أصبحت حاليا تسمى مدارس اللغات. هى مدارس تدرّس فيها أغلب المواد العلمية باللغة الفرنسية، ويقدّر العدد الإجمالى لتلاميذها فى مصر، بـ٤٥ ألفًا من التلاميذ والتلميذات. ومع ذلك فمن الملاحظ أن مستوى خريجى هذا العام (٢٠٠١) يقل عن مستوى خريجى التسعينيات.

إلا أنه من المؤسف ملاحظة أن أفضل تلاميذ تلك المدارس الفرنسية، يذهبون إلى الجامعة الأمريكية فى القاهرة، إذا كان المستوى المادى لأسرهم يسمح بذلك. لماذا لا تكون هناك جامعة فرنسية على نفس مستوى الجامعة الأمريكية؟ هناك مشروع مثير للاهتمام، بمبادرة من مجموعة من قدامى تلاميذ اليسوعيين والأخوة، بإنشاء جامعة فرنسية، يمكن أن تكون مخرجاً طبيعياً لخريجى مدارس اللغات، وقد يشجّعهم وجود هذه الجامعة فى مصر على الاستمرار فى محاولة تحسين مستواهم فى اللغة الفرنسية، وبالتالى يجدون أنفسهم يجيدون ثلاث لغات مطلوبة فى سوق عمل الشركات الأجنبية فى مصر، العربية والإنجليزية والفرنسية. سيكون هذا الحدث تطوّراً مهمًا فى تاريخ الفرنكوفونية المصرية. [تحققت رغبة المؤلف وبدأت الدراسة فى الجامعة الفرنسية فى العام الدراسى ٢٠٠٣/٢٠٠٤].

انظر مقالات: بطرس غالى رقم ١٦ / اليسوعيون رقم ٧١ / جريدة البروجريه المصرية رقم ١١٧ / طهطاوى رقم ١٣٧ .

٥٧ - جلابية - جلباب / Gallabeya

لا يستطيع أى موظف أن يذهب إلى عمله بالجلابية، فإن هذا الزىّ لا يرتديه إلا رجال الدين والريفيون والعمّال أو الخدم. الجلابية هى قميص قطنى طويل، يصل إلى القدمين، وبدون رقبة مرتفعة، ولكن بأكمام طويلة واسعة. ويمكن أن تحلى الجلابية ببعض التطريز، وغالبًا ما يكون لونها أبيض أو أزرق. أمّا جلابية الشتاء فهى من قماش سميك، وبلون قاتم. ويمكن أن تستعمل مع الجلابية طاقية رأس، تكون غالبًا من نفس لون أو حتى من نفس خامة قماشها، وغالبًا ما يحيط الشيوخ والأعيان هذه الطاقية بالشال. أما الخف الجلدى الأصفر القديم، فقد ترك مكانه للأحذية والصنادل.

إلا أن الواقع يقول، إن هذا الرداء ليس عمليًا تمامًا لأداء بعض المهام. فعندما يصف الكاتب يحيى حقى أحد أسواق القاهرة، يتحدّث عن أولئك الرجال الذين يعملون فى حمل أثقال على ظهورهم، التى تتقوّس من ثقل الأحمال، فيضطرون إلى أخذ ذيل الجلباب فى أسنانهم، بينما تلمع جباههم من العرق، ويزفرون الأنفاس مجهدين. (من كتابه مصرى فى باريس طبعة ١٩٧٣). وفى المقابل فإن خدم المطاعم الذين يرتدون زيًا موحّدًا بشكل جلباب ناصع البياض، وحول الوسط حزام أحمر، يكون منظرهم لطيفًا. عندما يزور الكاتب الفرنسى ألكساندر فيالات مصر سنة ١٩٣٨، يصف الجلاليب/الجلابيب هكذا (عندما يقف العمال مرتدو الجلاليب، فى سيارات النقل الكاميون الكبيرة، التى تنقلهم إلى الصحراء، يتعلقون فى ثنائيات أو ثلاثيات خلف كابينة قيادة السائق، فتخفق جلاليبهم فى الهواء بسبب اندفاع السيارة، ويبدون من بعيد كالرايات التى تخفق فى الهواء).

أما عندما ترتدى النساء الجلابيات، فيمكن بسهولة أن نخلط بينها، وبين الأثواب النسائية، التى اعتادت النساء المصريات على ارتدائها. يمكننا فى الريف أن نرى الجلابية فى كل مكان، حيث لم تتحول القرويات أبدًا إلى الفساتين القصيرة

(الجونلات) أو إلى السراويل (البنطلونات). ويرتبط لون الجلابية الأسود بالعجائز والأرامل، أما صغيرات السن فيرتدين جلابيات بألوان زاهية، وبمقاسات ضيقة تكاد تلتصق بالجسم. أما أكثر تلك الجلابيات جمالاً فهى التى تكون مزدوجة، النسيج العلوى شفاف والسفلى ملوّن. إلا أن الهجرة إلى الخليج أدت إلى ظهور نوع آخر من الثياب هو العباءة، وهى قميص طويل قريب الشبه بالكيمونو اليابانى، وغالبًا ما يصنع للنساء من الحرير، ومعه حجاب من نفس النسيج.

٥٨ – الجاموسة / Gamousse

فى كتابه الجميل عن نهر النيل، يقول إميل لودفيج (فى هذا البلد الفريد من نوعه، حيث تمارس الأرض المصرية نفوذها الذى لا راد له، تصبح كل الأجناس البشرية والحيوانية أجناسًا مصرية). مثلاً الجاموسة المصرية – والموجود منها كذلك فى بلد مثل الهند – هى نموذج مناسب لتطبيق الكلام السابق، فهى منذ أن جاءت إلى مصر من الهند مع العرب فى العصور الوسطى، أصبحت تتخذ طابعًا مصريًا، وأضحت عنصراً لا غنى عنه فى الماشية المحلية.

ليس للفلاح المصرى عادة إخصاء ذكور هذا الحيوان، إنه يبيع الذكور أولاً بأول فى المجازر، ولا يحتفظ لديه إلا بذكر واحد يكون قادراً على تخصيب عدد كبير من الإناث، اللائى يمثلن الثروة الأكثر أهمية للفلاح. تنتشر الجاموسة فى الدلتا، فى حين يقل وجودها فى الصعيد. هل صحيح أنها تفضل الدلتا على الصعيد، لأنها تحب أن تمرّغ جسمها فى الطين، الذى يوجد بوفرة فى الدلتا ويقل فى الصعيد؟ يقال إنها أقوى جسمانيا من ذكرها، وأقدر منه على العمل. بالإضافة إلى أنها تعطى كميات كبيرة من اللبن المتميّز بدسامته غير العادية، أكثر بمراحل من البقرة التى لها نفس

السن. عندما يغلي لبن الجاموسة على النار، تخرج منه طبقة سميكة من القشطة، لها طعم لذيذ لا مثيل له، الذى كنت أعتبره يومًا ما إحدى أهم لذات مرحلة طفولتى.

لا يتعامل الفلاح المصرى بنفس الطريقة، مع كل حيواناته بفصائلها المختلفة. فالفلاح يطلق صيحة معينة لحث جاموسته على شرب الماء، وهى شبيهة بالصيحة التى يطلقها لحث الماعز على الشرب، أما الثور فله صيحة مختلفة. أما امتطاء الحيوان كدابة نقل فإن الصيحة التى يطلقها الفلاح إذا أراد امتطاء جاموسته كوسيلة ركوب، تجعل الجاموسة تحنى رأسها ثم جسمها كله بمجرّد سماعها للصيحة، فيجلس الفلاح بين قرنيها، ويترك نفسه بعد ذلك ينزلق على ظهرها، عندما تعود إلى رفع رأسها وجسمها.

عندما جاء فرنان لوبريت إلى مصر سنة ١٩٣٩، وهو مراقب وملاحظ جيد، فى كتابه (مصر أرض النيل)، قال (إن الجاموسة ليست حيوانًا رشيقًا، بسبب شكل عمودها الفقرى بفقراته البارزة المقوّسة، وبطنها المنتفخة، ورأسها المنخفضة. ثم إنها تميل إلى الامتلاء ويبدو أنها غير قادرة على التحكم فى وزنها. هذا بالإضافة إلى شكل قرنيها المنسحبين بطريقة حلزونية إلى الخلف. أما لون جلدها الذى يشبه لون الأسفلت، فيتحوّل إلى لون وردى أسفل البطن، وحول المنخارين) .

هذا هو الجانب السلبى فى تعليق الكاتب الفرنسى، أما التعليق الإيجابى فيقول (لمدة طويلة كنت أرى أن نظرتها دائمًا غاضبة، بل حتى منذرة ماكرة، ولكنى غيرت رأيى ربما لكثرة ما رأيت من أطفال صغار جداً، وهم يقودونها دون خوف، أو وهم يمتطون ظهرها صائحين بأعلى صوت، كنت انظر فى تلك الحالات إلى نظرة عينيها السوداوين الواسعتين، لتبدو لى غالبًا على عكس ما كنت أعتقده، نظرة خائفة أحيانًا، حنونة أحيانًا، لا مبالية غالبًا).

٥٩ - فنون المطبخ المصرى / Gastronomie

فلنكن عـادلين، إذ لا المطبخ المصـرى ولا وصـفـاته، هو مـا يعطى مـصـر خصوصيتها. إن هذا المطبخ الذى يستلهم مطابخ كل البلاد المجاورة، تركيا وسوريا ولبنان، ينقصه التنوّع، بل ينقصه الخيال. وبشكل عام تتميّز فنون المطبخ المصرى بالمبالغة. مثلاً إساءة استعمال السمن (وهو نوع من الزبد المذاب) [لا تنسوا أبداً أن هذا الكتاب موجّه إلى قرّاء فرنسيين سيسألون المؤلف حتمًا: يعنى إيه سمن؟] هذا السمن يؤدى إلى دسامة مبالغ فيها. إن أحد أكثر الأطباق شعبية فى مصر هو الكشرى، ويباع فى كل مكان فى مطاعم شعبية، بل حتى على نواصى الشوارع، يتكوّن من خليط لا يمكن هضمه، من الأرز والمكرونة والعدس والبصل المقلى، مضافًا إليه صلصة الطماطم والتوابل الحرّيفة.

لكن مع أطباق الخضراوات المحشية، فنحن نتعامل هنا مع نوعية مختلفة من الأطعمة، وقائمة أخرى من الأصناف. فلفل أخضر/باذنجان/ورق عنب، كلها بالأسلوب المحشى تعتبر أكلات لذيذة جداً. كما أن لدىّ نقطة ضعف، ألا وهى البامية، والتى نسمّيها فى فرنسا القرون اليونانية الصغيرة، والتى عندما تطبخ مع لحم الخروف، وتقدّم مع الصلصة المصحوبة بالأرز والشعرية، فهى أكلة لا يمكن مقاومتها.

أما طبق الملوك فهو الملوكية/الملوخية، التى يمكنها للوهلة الأولى أن تدهشنا، ولكن الفمّ المدرّب جيداً على تناولها، يتذوّقها دائمًا بنفس الشهية. يصنع هذا الحساء من أوراق نبات بقلى أخضر، وهذه الأوراق هى المكوّن الرئيسى للحساء، ويجب أن تقطع أوراق هذا النبات بطريقة يدوية خاصة جداً، ثم تهرس، ثم توضع الأوراق المهروسة فى إناء على النار به ماء يغلى، ثم يضاف إليه الثوم والكسبرة الجافة المهروسة هى أيضاً، وكذلك بعض الزبد أو السمن. هذا الحساء الأخضر الداكن يقدّم مع الأرز واللحم، أو مع الأرز والفراخ. ويمكن إضافة البصل الأخضر والخبز والخل، ولكن ليس كيفما

اتفق، وإنما يترك لكل ضيف على المائدة، أن يضيف من هذه المكوّنات الأخيرة حسب ذوقه.

يرتبط أكل الملوخية بقصة، قد تكون أسطورية خيالية، فعلى ما يبدو أن الخليفة الفاطمى (الحاكم بأمر الله)، الذى حكم بين ٩٩٦ و١٠٢١ ميلادية، كان قد منع أكل الملوخية خلال مدة حكمه! هل كان قريبًا جداً من الجنون إلى هذا الحد؟ الجنون أم الغباء؟ فنحن لم نعرف فى التاريخ المصرى كله، حاكمًا آخر على هذا القدر من الغباء، ليحرم شعبه من الطبق الذى يحبّه، دون أن يكون هناك أى مبرر لذلك. أدّى تصرفه هذا ضمن غيره من التصرفات الشاذة إلى أن كرهه الشعب.

بين أطباق الحلوى يجب أن نذكر (أم على)، التى تتكوّن من وريقات من عجين تسوّى على النار أثناء تشبّعها باللبن والسكر، وتضاف إليها المكسرات المختلفة، من فستق ولوز وجوز. إنها وصفة لذيذة ولكنها صعبة الهضم إلى حد ما. يمكننى أن أكتفى بالمهلبية، وهى قشطة اللبن التى تضاف إليها نكهات مختلفة للفاكهة أو الحبوب الغذائية، وهى أسهل هضماً.

إن أكل اللحم كل يوم، هى رفاهية لا يقدر عليها إلا قلة من المصريين، فأثناء زياراتى للصعيد اكتشفت وجود العديد من القرى بدون محل جزارة واحد. ثم إن قلة من المصريين تدرك كذلك معنى التغذية الصحية، وهذا رغم أن نصف الأسر المصرية تخصص ثلاثة أرباع الدخل الشهرى للطعام. فى الطبقة الوسطى لا يشعر الرجل أنه متزوّج، إلا إذا استقبلته زوجته كل مساء بطبقه المفضل، خضروات مطبوخة بالكثير من الملح كما نسميها فى فرنسا اليخنة المتبّلة. إن الزوجات المصريات يعملن بالمثل القائل (إن أقصر طريق إلى قلب الرجل هو معدته).

إن خبراء التغذية الصحية فى مصر يشدّون شعر رؤوسهم، لأن السمنة أصبحت من الأمراض المزمنة، التى تحصد ضحايا كثيرين من بين السكان، بسبب ارتفاع

استهلاك النشويات والدهنيات والسكريات. السكر مثلاً تتم إضافته بكمية كبيرة، وبدون أى تفكير إلى كوب الشاى. إلا أن هناك أمثلة كثيرة من التقليد الشفاهى الشعبى فى مصر تدل على أهمية السكر لهذا الشعب. فإذا وصف أحدٌ مثلاً بأنه (سكر) أو (عسل) أو (شربات)، فإنها طريقة شعبية للتعبير عن الإعجاب بخصال الشخص أو صفاته أو جماله. إنه نوع من أدب التعامل، الذى يرتبط بتفضيل السكر أو كل ما له صلة بالسكر، أو باستعماله فى المشروبات أو الأطعمة، خاصة بين الأزواج من الشباب، كدليل على السعادة الزوجية.

فى صيف ١٩٩٧ هُدِّدَت عشرون مذيعة ومقدّمة برامج فى تلفزيون الدولة، بالمنع من الظهور على الشاشة الصغيرة، إذا لم يتمكنّ من تقليل أوزانهنّ. إن الوسواس المنتشر فى الغرب باستعمال الأطعمة ذات السعرات الحرارية القليلة، أو الاهتمام بتتبع نظام لتخفيف الوزن، قد نجح أخيراً فى الوصول إلى جزء كبير من الشعب المصرى الذى لم يعد يعتقد، كما كان الحال فى منتصف القرن العشرين، إن الأجسام الممتلئة هى مرادف للجمال والثروة. على الأقل فيما يتعلق بالنساء، حيث إن المجتمع الذى يهتم برشاقة الإناث، يبدو قليل الاهتمام بنفس الشىء لدى الرجال. وقد ظهرت فى الآونة الأخيرة الكثير من العيادات الطبية (المتخصصة) التى تدعو إلى تخفيف الوزن بدون عناء، باستعمال أحدث المستحضرات الطبية، التى يقولون أنها تصنع المعجزات، لنتساءل أحياناً إن كان أطباء تلك العيادات حقيقيين أو مزيفين.

هل يمكن أن أتحدّث عن الذوق المصرى فى الأطعمة دون أن أتحدث عن التسالى؟ وخاصة قزقزة اللب؟ أنا أعتقد أنه ليست هناك عادة أكثر ارتباطاً بالاستغراق فى أحلام اليقظة من عادة قزقزة اللب، سواء أكان لب البطيخ الأسمر أو لب القرع الأبيض. وهو اللب الذى يتم إعداده بتجفيفه فى الشمس، ثم يسخن فى الفرن ويضاف إليه الملح. طريقة الاستعمال:

١ – ضع اللبة فى الفم، بحيث تقع حافتاها بين قواطعك العلوية والسفلية.

٢ – اضغط ضغطة خفيفة بأسنانك فتنفتح اللبة.

٣ – استقبل ما بداخل قشرة اللبة على لسانك.

٤ – استمتع بمضغ محتوى اللبة وابتلاعها.

٥ – أما القشر فلو كنت إنسانًا مهذبًا احتفظ به فى يدك أو فى جيبك، أما إذا كنت إنسانًا غير مهذّب، يمكنك أن تبصق القشر فى أى اتجاه كيفما شئت، حتى لو جاء القشر على ظهر الجالس أمامك فى مقاعد دور السينما.

انظر مقالات: البيرة رقم (١٦)/ الفول رقم (٥٥)/ مظبوط رقم (٨٧)/ خبز رقم (١٠٦)/ عطش رقم (١٣٢).

٦٠ – الإغريق / Grecs

فليسامحنى جريج (إغريق/يونانيين) مصر، فكلما تذكرتهم، جاءت إلى أنفى روائح الزيتون والجبن واللحوم الباردة، ففى طفولتى كان محل البقالة الحقيقى، الجدير بهذا الاسم هو محل البقال اليونانى، فى الوقت الذى كانت فيه تلك المحلات تنبض بالحياة وتنبعث منها ألف رائحة. كان اللورد كرومر المندوب السامى البريطانى، قد قال ذات مرّة (كلما رفعت فى مصر حجرًا وجدت تحته يونانيين) يبدو أنه لم يكن يحمل فى قلبه كبير حبٍّ لأحفاد الإسكندر.

يوم احتلال بريطانيا لمصر سنة ١٨٨٢، كان عددهم قد وصل إلى ٣٧ ألفًا. وقد وصل الرقم إلى ضعف هذا العدد فى بداية الحرب العالمية الثانية. وكان لليونانيين فى مصر نصف دستة جرائد يومية، تصدر باللغة اليونانية، بالإضافة إلى الجريدة

الأسبوعية (الأسبوع المصرى)، التى كان يصدرها ستافرو ستافرينوس باللغة الفرنسية.

كانت بداية توافدهم بكثافة على مصر، مع بداية القرن التاسع عشر، وقد ظهرت فوراً وبوضوح مواهبهم التجارية، إذ كانوا يمارسون جميع أنواع التجارة، ويديرون جميع أنواع المحلات التجارية، ويمتلكون أفضل المطاعم فى جميع أقاليم مصر، وكانوا قد انتشروا فى عموم البلاد بما فى ذلك أرياف الصعيد. إلا أن مستعمرتهم الأكثر أهمية هى الإسكندرية، بما كان لهم فيها من مدارس ومستشفيات وأندية رياضية اجتماعية وجرائد يومية وأسبوعية. وحتى يومنا هذا ما زالت الإسكندرية تحمل ذكراهم، وعلامات وجودهم السابق بها، فى أسماء مثل حدائق أنطونيادس، ومحطة ترام زيزينيا، وشاطىء جليمونوبولو، ومحلات الشاى والحلويات أتينيوس وباستيرودس.

وفى مصر تميّز عدد كبير من الأطباء اليونانيين بالمهارة، منهم مثلاً الدكتور كومانوس باشا الطبيب الخاص بالخديوى توفيق. وفى الهندسة والصناعة تميّز بعض اليونانيين بالسمعة الطيبة، مثل نستور جاناكليس صاحب مصانع التبغ والنبيذ، ونيكولاس سباتس الذى كانت مياهه الغازية فى مصر لا تقل شهرة عن الكوكاكولا.

خلال الحرب العالمية الثانية كانت مصر ملجأ للعائلة الملكية اليونانية، وكذلك حتى لرجال الحكومة اليونانية عندما كان النازى يهدد بغزو اليونان، وقد جاء بعد ذلك عدد كبير من الجنود ورجال المقاومة اليونانية، عندما وقعت اليونان فى قبضة النازى. وقد أدّى هذا الوضع الجديد إلى هزة عنيفة فى الجالية اليونانية بمصر، أدّت فيما بعد إلى انقسام الجالية على نفسها.

وقد ترك لنا عدد من الأدباء اليونانيين، ذكرى هذه الفترة المضطربة فى بعض أعمالهم الأدبية، مثل الكاتب ستراتيس تسيركاس المولود بالقاهرة (١٩١١/ ١٩٨٠) فى ثلاثيته (مدن تسير متخبّطة على غير هدى)، بالإضافة طبعًا إلى الشاعر كونستانتين كافافى (١٨٦٣/١٩٣٣) الذى كان قد تربّع على عرش الآداب اليونانية بالإسكندرية بنشره لعدد ١٥٤ قصيدة، تعدّ من أجمل ما كتب فى الآداب اليونانية الحديثة، فليس هناك من أدباء جيله من استطاع أن يعبّر أفضل منه عن الامتزاج بين الماضى اليونانى الرومانى والصراعات التى شهدتها العصور الحديثة.

هناك مثل آخر عن العلاقة الوثيقة بين الشعبين المصرى واليونانى، ففى سنة ١٩٥٦ عندما أمم جمال عبد الناصر قناة السويس، وامتنع القباطنة الضباط الفرنسيون والإنجليز عن القيام بعملهم فى إرشاد السفن عبر القناة، وافق القباطنة اليونانيون على أن يحلوا محلهم فوراً وبدون تردد، ولم تتوقف الحركة فى القناة، لحين تمّ إعداد القباطنة المصريين.

ومع ذلك حدثت موجة من الهجرة لليونانيين المصريين منذ نهاية الخمسينيات، باتجاه العودة إلى اليونان، التى عاد إليها جزء منهم ليستقروا فى أثينا، حيث أسسوا حيًا أسموه الإسكندرية الجديدة، وجزء آخر منهم هاجر إلى العالم الجديد، فى أمريكا وأستراليا، وحتى إلى أوروبا أو إلى أفريقيا السوداء. ومنهم كان جورج موستاكى وهو ابن لصاحب مكتبة فى الإسكندرية، ظهرت موهبته كمؤلف موسيقى فى فرنسا، قبل أن يتحوّل هو نفسه إلى الغناء وتشتهر أغنيته الجميلة التى يقول فيها (ملامح وجهى الغريب الدخيل/المستأمن فى غير بلده/ المستوطن فى غير بلده/ مثل راع إغريقى أو يهودى تائه).

لم يعد فى الإسكندرية الآن إلا حوالى ٨٠٠ يونانى، من أجلهم ومن أجل غيرهم من أفراد الطائفة المؤمنين بالأرثوذكسية حسب العقيدة اليونانية، تقوم البطرياركية(*)

اليونانية بفتح أبوابها فى الإسكندرية التى تتخذها مقراً لها، وإليها ينتمى كل أفراد تلك الطائفة فى أفريقيا. ثم إن هذه البطرياركية هى التى تزوّد دير سانت كاترين فى سيناء، بالرهبان من الشباب اليونانى، الذين يقومون بإحياء الدير واستمرار نشاطه، وهو موقع أثرى مهم لزيارة يقوم بها سياح مصر.

٦١ - مصر الجديدة - هليوبوليس / Héliopolis

أى مدينة أخرى فى العالم يمكنها أن تهزّ مشاعرى، مثلما تفعلين أنت يا هليوبوليس؟ عشت فيك حتى سن السابعة عشرة، أجمل سنوات العمر، وجريت فى شوارعك فى كل الاتجاهات، على القدمين أو بالدرّاجة، آلاف المرّات. كل شارع من شوارعك يرتبط فى ذهنى بصور، لا يزال بعضها واضحًا تمامًا، ولكن بعضها الآخر بهتت ملامحه ثم زالت. لقد توسّعت جداً يا مدينة طفولتى ومراهقتى بشكل غير معقول. لقد تحمّلت الكثير من الاعتداءات التى وقعت عليك، وفقدت الكثير من أصدقائك، حتى إنك أصبحت غير تلك التى كنت أعرفها، تلك التى أكاد لا أميّزها.

يمرّ إلى جوارها الزوّار الأجانب دون أن يروها، فبعد خروجهم من المطار يقودونهم عبر طريق مزدحم، يذهب بهم مباشرة إلى القاهرة. قد يلمحون بصعوبة بعض الفيلات والمنازل الجميلة، على جانبى الطريق، وقد يلمحون معبد هندوسى مهجور، مزروع وسط أرض مبهمة غامضة. نعم، هليوبوليس تستحق العودة فقط من أجلها، لزيارتها على مهل، ولكن الحقيقة هى أنها كانت تستحق الزيارة أكثر عشر مرات، عندما كانت كما عرفتها منذ نصف قرن. عندما كانت الصحراء لا تزال تحيط بها. عندما كانت واحة خضراء مسالمة. عندما كانت حقًا كوزموبوليتانية(*) تسكنها الجنسيات المتعدّدة.

تعود فكرة إنشاء هليوبوليس إلى رجل بلجيكى، هو البارون إدوار أمبان، كان رجلاً صغير الحجم، لا تظهر سطوته إلا فى صوته. كان مخترعًا فذا ومبدعًا، وكذلك شرهًا وطمّاعًا إلى حد بعيد، وبدأ مشروعه من الصفر. كان والده مدرسًا متواضعًا فى أحد أقاليم بلجيكا الواقعة على الحدود مع فرنسا. كيف كان له أن ينجح بالتدريج فى بناء إمبراطورية، دون أن يكون شخصًا استثنائيًا؟ الطريقة التى نجح بها لا يمكن تصديقها، فقد بدأ بشراء شركات صناعية ومالية صغيرة متعددة، ثم أدخل هذه الشركات بعضها داخل بعض، أو جعل بعضها يتولد من بعض.

سأضرب لكم مثلاً على ذلك بما حدث هنا فى هليوبوليس، فقد بدأ أمبان فى القاهرة سنة ١٨٩٦ عندما حصل من بلدية القاهرة على عقد احتكار بناء خطوط الترام الكهربائى، وهو ما حفّزه على استمرار مدّ الخطوط فى كل اتجاه. وبعد عشر سنوات من النجاح المتواصل، اصطدم برفض الإدارة الإنجليزية مدّ الخطوط إلى جنوب القاهرة! فما كان منه إلا أن اتجه إلى شمال القاهرة، إذ إن التراجع والاستسلام ليسا من طباعه. ومن شمال القاهرة إلى شمالها الشرقى، وصل ذات يوم إلى حافة الصحراء، فى منطقة ذات هواء معتدل أوحت إليه ببناء حىّ سكنى جديد، ليستمر فى مدّ خط الترام إليه.

يحكى لنا مهندسه المعمارى جاسبار، الذى كان شابًا يافعًا وقت بداية المشروع، عن قدرة أمبان فى تحويل الأحلام إلى حقائق. يقول إنهما كانا يتنزهان على ظهور الخيول، فى ذلك الموقع الصحراوى، عندما سمعه يقول لمن حوله (سأبنى هنا مدينة عظيمة، وسيكون اسمها هليوبوليس، ولكنى سأبدأ أولاً بأن أبنى لى فيها قصرًا ضخمًا لا مثيل له). إنّ مدينة الشمس فى الأزمنة الفرعونية، كانت مركزًا دينيًا عظيم الأهمية، لعبادة الإله رع قرص الشمس، على مدار قرون طويلة، إلا أنها اختفت تمامًا من الوجود، بعد مجىء البطالمة وبناء الإسكندرية التى نقلوا إليها كل ما استطاعوا نقله من

آثار هليوبوليس، ولم يتركوا إلا مسلة واحدة هى دليلنا على وجود هذه المدينة. ولكن هل حقًا كانت هنا تلك المدينة القديمة على هذه الهضبة الصحراوية؟

من ضمن ملامح العبقرية، أن أدخل أمبان معه شركاء من رجال الأعمال محليين، كان أهمهم الأرمينى بوغوص نوبار باشا، الذى كان قويًا ماهرًا ولبقًا. تم شراء ٢٥٠٠ هكتارًا من الأرض الصحراوية (الهكتار ١٠ آلاف مترًا مربعًا)، بسعر بخس جدًا، ثم تمّ الحصول على عقد مدّ خط الترام إلى هذه الضاحية الجديدة بعد إنشائها. بعد إنشاء شركة هليوبوليس، تحصل الشركة من الحكومة على حق إدارة هذه الضاحية الجديدة كما لو كانت هذه الشركة هى الإدارة البلدية لأحد أحياء القاهرة. إلا أن العقد يشترط أن تكون مدينة حدائق (جاردن سيتى)، يغلب على شوارعها اللون الأخضر، وسيكون اسمها العربى هو (مصر الجديدة).

إن عرض بعض شوارع الضاحية يصل إلى ٤٠ مترًا، وقد اتخذ المعمار نفس هذه المقاييس الضخمة لمبانيه، حتى تكون مناسبة لعرض الشوارع، والمثال على ذلك مبنى مقر الشركة فى شارع عباس. ثم ابتكر معماريو الشركة طرازًا معماريًا خاصًا بها، لا يمكن تحديد هويته بسهولة، يجمع بين عناصر أوروبية وعربية، وهو ما سمح بوجود هذه العقود والشرفات والقباب والمنارات والممرات المسقوفة والبواكى جنبًا إلى جنب [يسمى هذا الطراز النيوموريسك(*) وهو مأخوذ من طراز المعمار العربى الأندلسى فى جنوب إسبانيا]. كما أن المساكن تخضع كلها لنظام واحد، لا تسمح الشركة فيه بأى تلاعب، حتى إن الشركة قررت أن يكون اللون المستعمل فى كل المبانى واحدًا، وهو لون الصحراء الأصفر الفاتح.

الاستثناء المعمارى الوحيد فى حالتنا هو القصر الهندوسى العجيب، الذى بناه البارون بعيدًا لحسن الحظ عن نواة المدينة الجديدة، وخصّصه لاستعماله الشخصى. وفى المقابل فإن الكنيسة الكاثوليكية البازيليكية(*) [طراز كنائس بيزنطة القرون الأولى للمسيحية]، لقد بناها المعمارى ألكسندر مارسيل، تقليدًا لكنيسة القديسة صوفيا [والدة

الإمبراطور قسطنطين] فى إسطنبول، هى فى الواقع نسخة مصغرة منها، وتندمج بشكل جيد فى المنظر الطبيعى للضاحية الجديدة. بعد موته سنة ١٩٣١ سيدفن البارون فى كهف هذه الكنيسة.

سيكون فندق هليوبوليس بالاس بعد بنائه، أكبر فنادق الشرق الأوسط، بواجهته التى يبلغ طولها ١٥٠ متراً، وبحجراته المئات، ومصاعده العملاقة، وحماماته وصالات البلياردو. كان الفنان جورج لويس كلود قد أظهر كل مواهبه فى الديكور، ونجح فى صنع آيات من الجمال الفنى، مستعملاً نفس فكرة المزج بين عناصر فنية زخرفية من أصول مختلفة. ستقام فى هذا الفندق حفلات استقبال، جديرة بقصور الأحلام والخيال. نذكر هنا أن الناس فى بداية هذا المشروع، كانوا قد اعتبروا هذا البارون مجنوناً، وسخروا منه عندما واجه الأزمة الاقتصادية العابرة سنة ١٩٠٧ بزيادة عناصر الجذب فى مدينته الجديدة، بإضافة مضمار سباق خيل [حالياً حديقة المريلاند] ومدينة ملاهى (لونابارك) ومسابقات للطيران، وقد أثبتت الأيام بعد نظره.

كان مقدّراً لهليوبوليس أن تجذب كل الطبقات الاجتماعية فى القاهرة، وبالتالى فقد اجتذبت كذلك الكثير من الشوام فرنسيي الثقافة. وهكذا قامت أفضل المدارس الفرنسية الكاثوليكية بافتتاح أفرع لها فى الضاحية الجديدة، مثل اليسوعيين والأخوة والقلب المقدّس، إلى جوار الليسيه المصرى الفرنسى والمدرسة الإنجليزية. هكذا زاد عدد السكان ليصبح ٢٥ ألفاً سنة ١٩٣٠، وليصبح ٥٠ ألفاً سنة ١٩٤٥ . ومن الملاحظ أن التعايش كان مثالياً بين أبراج الكنائس ومآذن المساجد فى هذه المدينة المسالمة، التى تنتشر بها كل أنواع الأشجار، خاصة فى الأندية الرياضية الاجتماعية الجميلة، بحشائشها الخضراء المقصوصة بعناية، وهو ما جلب إلى هذه الهضبة الصحراوية، المزيد من بقع اللون الأخضر. أصبح الجو هنا صحياً جداً بعيداً عن دخان وغبار القاهرة.

فى بداية الستينيات، غادر هليوبوليس عدد كبير من غير المصريين، غادروا الحىّ وغادروا مصر كلها، فحرمت منهم هليوبوليس، بل حرمت منهم مصر كلها، وقد حلّ محل السكان القدامى سكان جدد، ما زال عددهم يتزايد عاما بعد عام، وبالتالى لا تتوقف هذه المدينة/الضاحية عن النمو، فى كل الاتجاهات وبكل المعانى، ولكن للأسف على حساب تشويه بعض المبانى الجميلة فى قلب الحىّ القديم، ببناء طوابق إضافية أعلاها من الأسمنت المسلح، أما الشوارع التى كانت فى الزمن القديم هادئة، أصبحت الآن تعجّ بالسيارات الصاخبة، التى تسدّ الشوارع كيفما اتفق، لأنها لا تجد الأماكن الكافية لتركن فيها. كما أن محلات عديدة تضع الآن بضائعها على الأرصفة، بحيث إنه لم يعد هناك مجال، لأن يحسد أصحاب محلات مصر الجديدة، زملاءهم من أصحاب محلات وسط البلد، فكلنا فى الهم سواء.

ومع ذلك فإن مدينة الحدائق القديمة (جاردن سيتى هليوبوليس)، ما زالت تحتفظ ببعض بقاياها الجميلة، ففندق هليوبوليس بالاس ما زال يحتفظ برونقه وجماله، رغم تحويله ليصبح مقراً لرئاسة الجمهورية، وعلى الرصيف المقابل، ما زال المقرّ القديم لشركة هليوبوليس/مصر الجديدة للإنشاء والتعمير، يحتفظ بواجهته الجميلة ذات الطراز الأندلسى التى تشبه فى نفس الوقت المسجد والقصر، تلك الواجهة التى ترتفع فوق البواكى [الممرات التى تعلوها وتحف بها العقود المعمارية].

ما زال النادى الرياضى الاجتماعى المعتنى به جيداً، يحتفظ بتقاليده، وما زالت شرفات المقاهى/المطاعم القديمة، مثل الأمفيتريون، تحتفظ بسحرها القديم كله لم تفقد منه شيئًا. ما زالت الحياة فى مصر الجديدة، تتميّز بشىء لا يمكن تحديده بدقة، أو حتى لا يمكن إدراك كنهه. هكذا يستمر المترو الكهربائى، ذو اللونين الأبيض والأزرق، فى مشاويره التى لا تنتهى جيئة وذهابًا، بلا كسل أو ملل، بين القاهرة وواحة البارون البلجيكى.

٦٢ - الكتابة الهيروغليفية / Hiéroglyphes

بشكل ما يمكن اعتبار الكتابة الهيروغليفية هي أسهل طريقة كتابة في العالم، فالعلامات الهيروغليفية هي حمار وثعبان وبومة وسيقان ورجل جالس، وبهذا الشكل يمكنها أن تحمل المعنى واضحًا، إلى أي طفل في أي مكان في العالم، بصرف النظر عن الحضارة التي ينتمي إليها واللغة التي يتكلمها، ولكن فهم العلامات المركّبة هو شيء آخر، ليس على هذا القدر من البساطة.

فبعد أن تحولّت مصر رسميًا إلى الديانة المسيحية منذ القرن الخامس الميلادي، منع استعمال الكتابة الهيروغليفية، بدعوى محاربة الوثنية، وحتى أوائل القرن التاسع عشر، عندما تمّ فكّ الشفرة بواسطة شامبوليون، كانت أسرار هذه الكتابة قد ضاعت تمامًا. في الوقت الحالي، تستغرق دراسة الكتابة الهيروغليفية سنوات عديدة، قبل أن يتمكن الدارس من قراءة النصوص المصرية القديمة بقدر من السهولة. مع ملاحظة أنه لا تزال هناك أسرار لم نتمكن بعد من حلّ ألغازها. مثلاً يظل نطق الكلمات مسألة يصعب التحقق منها تمامًا.

الذي نعرفه بفضل شامبوليون، هو أن العلامة الهيروغليفية، قد تدل في بعض المواضع على قيم صوتية منطوقة، وفي بعض المواضع الأخرى تدل نفس العلامة على قيم رمزية غير منطوقة. بشكل آخر يمكن القول، أن العلامة قد تعبّر داخل نص عن صوت منطوق، وداخل نص آخر قد تعبّر نفس العلامة عن فكرة غير منطوقة.

في الواقع إن الكتابة الهيروغليفية تحتوي، لا على نوعين فقط من العلامات، بل على ثلاثة أنواع من العلامات:

النوع الأول هو حيث تدل كل علامة على قيمة صوتية محدّدة، حرف الباء مثلاً هو شكل مربّع، وحرف النون هو خط متموّج، وحرف الواو مثلاً هو في شكل عصفور صغير، وحرف ألف المدّ (أي حرف الحركة) هو في شكل نسر.

النوع الثانى هى العلامات الدالة على أشكال أو أفكار، أى أن العلامة تشير إلى شكل الشىء المقصود فى النص، فنحن نرسم حماراً لنقصد به أن نقول حماراً، ونرسم منزلاً لنقصد به أن نقول منزلاً، ونرسم الفم لنقصد به أن نقول الفم، هذا الجزء من الوجه. هناك علامات تعبّر عن المعانى المجرّدة، بطريق غير مباشر، فمثلاً للتعبير عن الريح، يرسم الكاتب شراعًا لمركب منفوخًا بالهواء.

وهذا النوع الثانى من العلامات الدالة على أفكار، هو الذى أدّى إلى ظهور النوع الثالث من العلامات. فنحن قد نرسم الفم ولا نقصد به أن نقول الفم، وإنما نقصد الكلمة التى خرجت منطوقة من هذا الفم. وشكل قرص الشمس قد يعنى الشمس فعلاً، ذلك القرص المضىء فى السماء، ولكنه قد يعنى كذلك نور النهار، أو ضوء الشمس.

وهكذا فإن النوع الثالث هى العلامات المحدِّدة [وقد اتفق على تسميتها مخصِّصات]، التى تأتى بعد بعض العلامات لتحدّد نوعها، فإذا قلنا إن علامة شكل الفم يقصد أن يشار بها فعلاً إلى الفم، ففى هذه الحالة لا تتبعها علامة مخصّص، فشكل الفم مقصود به فعلاً الفم.

أما إذا جاءت علامة مخصّص بعد شكل الفم فإن المعنى يتحدّد بشكل آخر، فتصبح الكلمة إما فعلاً أو فاعلاً أو مفعولاً به أو مصدراً، فعلامة المخصّص التى تتبع شكل الفم، يمكن أن تدلّ أو تحدّد، إذا كان معنى شكل الفم هو الفعل يتكلم، أو الفاعل المتكلم، أو المفعول به أى الكلمة المنطوقة نفسها، أو المصدر بمعنى حالة الكلام، وهو معنى مجرّد.

وللإشارة إلى أن العلامة تقصد معنى علميًا أو شيئًا مجرّداً، تأتى علامة المخصّص دائمًا فى شكل ورقة بردى مطوية، أى أن العلم فى الكرّاس.

وقد لاحظ المصريون القدماء، رغم وجود مئات العلامات، أن كتابتهم غير قادرة أحيانًا على التعبير عن بعض المعانى، مثل الشجاعة أو الإخلاص والتفانى أو الشر.

وكانت هذه الحاجة هى الدافع إلى اختراع العلامات الصوتية، التى تعبّر بالصوت فقط، عن معنى مجرّد، ولا علاقة للعلامة شكليًا بالمعنى المقصود [مثلاً كلمة حاع التى كان ينطقها الغفر فى الماضى ويتبعها بمين هناك، هى الكلمة المصرية المنطوقة التى تعنى المحارب وتكتب بعلامة يد تمسك بالسلاح].

وفى أغلب الكلمات المصرية القديمة تجد عدداً من الحروف السواكن، تأتى متتابعة دون أن تفصل بينها حروف متحركة، فاسم الإله بتح [بتاح/ فتاح عليم] مثلاً يكتب بتتابع ثلاثة سواكن، الباء بالشكل المربّع الدال على الأرض، والتاء بالشكل نصف المستدير الدال على قبة السماء، ثم علامة المخصّص وهى لرجل يقف رافعاً ذراعيه نحو السماء، كأنه يصلى.

والمسائل تزداد تعقيداً إذا أدركنا أن الكتابة المصرية القديمة كانت قد عرفت كل موضوعات النحو كما فى اللغات الحديثة، فهناك المذكر والمؤنث والمفرد والجمع والضمائر والصفات، التى تتفق مع الموصوف فى الجنس والنوع والعدد... إلى آخره، وذلك دون الدخول فى متاهة الأرقام التى عبّروا عنها باستعمال سبع علامات خاصة.

إن اللغة المصرية هى أقدم لغة فى العالم بعد السومرية، التى سبقتها بقليل. إن أقدم وثيقة معروفة حتى الآن، ومكتوبة بالخط المصرى هى لوح نارمر، المحفوظ بمتحف القاهرة، ويرجع إلى حوالى سنة ٣١٠٠ قبل الميلاد. أما فيما يتعلق بآخر نص مكتوب بهذا الخط، تم اكتشافه حتى يومنا هذا، فهو نص موجود فى معبد فيلة، ويرجع إلى سنة ٣٩٤ بعد الميلاد. ورغم احتفاظ هذه اللغة بمبادئها العامة خلال كل هذه القرون الخمسة والثلاثين، إلا أنه حدث لها تطور كبير فى التفاصيل.

فقد حدد الخبراء مراحل تطور هذه اللغة كما يلى، عصر الدولة القديمة/ عصر الدولة الوسطى/ عصر الدولة الحديثة/ عصر البطالمة. ومن ٧٠٠ علامة هيروغليفية فى

البداية، وصل العدد إلى بضعة آلاف علامة في المرحلة النهائية. وخلال تلك القرون الطويلة، تولدت من الكتابة الهيروغليفية، طريقتان جديدتان في كتابة اللغة المصرية، بأسلوب موجز مبسّط سريع، لاستعمالهما في أغراض الحياة العامة، الأولى هي الهيراطيقية [هيرا بمعنى مقدّس] وقد اقتصر استعمالها في البداية على النصوص الدينية، والثانية هي الديموطيقية [ديمو بمعنى شعب]، وخرجت هذه الكتابة إلى الشعب، ليستعملها في كل أغراضه.

وقد تحوّلت صور العلامات الهيروغليفية، في هاتين الطريقتين الجديدتين في الكتابة المصرية، من أصلها التصويري الواضح، إلى أشكال مختصرة يمكن تخمينها في سياق الكلام، أكثر مما يمكن رؤيتها. نجد علامات هاتين الكتابتين الجديدتين، مرسومة بالأسود والأحمر على أوراق البردي، وكذلك على شقافة الحجر الجيري والفخار التي كانت تستعمل أحيانًا كمادة للكتابة عليها. [يسمّيها العلماء أوستراكا من الأصل اليوناني للكلمة].

ومن الغريب أن العلامات الهيروغليفية، يمكن أن تكتب أفقيًا من اليسار إلى اليمين، أو من اليمين إلى اليسار، ويمكنها كذلك أن تكتب رأسيًا من أعلى إلى أسفل، ولكنها لا تكتب أبدًا من أسفل إلى أعلى. إن المؤشر الذي يمكن أن يدلنا في حالة السطر الأفقي، على اتجاه الكتابة إن كان من اليمين إلى اليسار أو العكس، هو وجوه الكائنات الحية، الإنسان والحيوان والطير، الموجودة في النص، فهي تنظر كلها إلى اتجاه بداية القراءة، فلو أن الرؤوس تتجه نظراتها إلى اليمين، تكون بداية قراءة السطر الأفقي من اليمين، أما إذا كانت هذه الرؤوس تتجه بنظرتها إلى اليسار، تكون بداية القراءة من اليسار.

كانت العلامات الهيروغليفية قد استعملت كذلك، باعتبارها عناصر زخرفية في العمارة المصرية، موزّعة بطريقة وأشكال متناسقة، في مجموعات تتخذ في الإجمالي أشكالاً مربّعة، أي أن كل مجموعة من العلامات توجد معًا داخل إطار تخيّلي يتخذ

شكلاً مربعًا، إلا أنه لأسباب فنية، فإن النسب بين أحجام الكائنات والأشياء، الممثلة بهذه العلامات داخل هذه الأطر المربعة، تكون نسبًا مختلة تمامًا، أى أن الثعبان يمكن أن يكون أكبر حجمًا من مسلة. إن هذه التكوينات المرسومة بالألوان على الجدران، أو المحفورة بالبارز أو بالغائر على الكتل الحجرية، تكون أحيانًا تحفًا فنيًا عالية المستوى.

إن اللغة المصرية لم تتوقف عند حدّ كونها عملاً فنيًا أو أداة للتواصل، فقد كان لها قبل كل شيء بعدها الدينى، فالكلمة سواء منطوقة أو مرسومة أو منحوتة، كانت ذات سطوة وقدرة خاصة، إذ إن القيمة الدينية لقراءة صيغة معينة، مكوّنة من مجموعة من الكلمات، أثناء تقديم القرابين مثلاً، لا تقل أهميّة عن القرابين نفسها. ثم إن رسمنا شكل أسد مقطوع الذيل، فهو تعويذة يمكنها أن تمنع أذى الأسد عنا، وإن محونا اسم عدو أو منافس، ولو حتى كان منحوتًا على الحجر، فيمكن أن ينتهى وجود هذا العدو تمامًا من حياتنا. [هنا نجد الأصل فى عادة استعمال الأحجبة].

أما المنظر الذى لا يغيب أبدًا عن أى مقبرة مصرية قديمة، فهو منظر خط أفق السماء وقد ظهرت معه الشمس لحظة شروقها. إن هذا المنظر لا غنى عنه إطلاقا، لأنه هو الذى سيسمح للمتوفى، بالتوحّد مع شروق الشمس، وهذا معناه العودة إلى الحياة، والدخول مع الشمس إلى عالم الخلود، والقدرة على التجدد المستمر بلا نهاية. لم يخطىء الإغريق إذن بإطلاق اسم العلامات (غليفوس) المقدّسة (هيرو) على الكتابة المصرية القديمة.

انظر مقالات: شامبوليون رقم (٢١)/ حجر رشيد رقم (١١٤).

٦٣ - روح الدعابة والمرح / Humour

عندما زار أوجين فرومونتان مصر سنة ١٨٦٩، كتب بقدر من العجرفة والخيلاء (إن هذا المصرى طيب ومتساهل إلى حد بعيد، ويبدو أنه سهل الانقياد، ورغم ملامح

البؤس على وجهه، وواقع العبودية الذى يعيش فيه، إلا أنه ذو مزاج رائق أغلب الوقت، ويتمتع بروح مرحة إلى درجة لا يمكن تصديقها، فهو مستعد دائمًا أن يضحك من كل شىء، ويبدو كأنه لا يغضب أبدًا، حتى لو رفع صوته أو صاح أو شوّح بيديه، فنعتقد أنه غاضب، لنفاجأ بعد ذلك فورًا بأنه يضحك).

إن ملامح وجه المصرى قد خلقها له الله خصيصًا لتساعده على المرح، ولتساعده فى أداء كل حركات الوجه اللازمة للضحك، ففمه الكبير نصف المفتوح دائمًا، وأسنانه الجميلة، وفتحتا أنفه المنفعلتان سريعتا التأثر، وعيناه المغوليتان المائلتان المشدودتا الأطراف، كل هذا كأنه قناع من أقنعة المرح والفكاهة، فى أحد الكرنفالات.

هل يمكننا القول إن المصريين هم بشكل عام أطفال، تقدّموا فى السن لكنهم ظلوا أطفالاً؟ وهو القول الذى يحلو لبعض الرحّالة الأوروبيين تكراره. يكتب طه حسين شارحًا لنا (إن المصرى يستمد هذه الطباع المصرية من طبيعة بلاده، من أرض مصر ومن سمائها، من نيلها وصحرائها، هذه هى عناصر الطبيعة المؤثرة فى طباع المصريين، وهى كما ترون يمكن أن تكون متقلبة المزاج، أو تجمع بين صفات متناقضة، فطيبة القلب وسماحة النفس هى من الأرض المنبسطة التى تثمر الخيرات، ثم إن الحلم والزهد والتقوى هى من الصحراء، إلا أن تقلب المزاج هو من النيل الهادىء حينًا الصاخب حينًا، والسخرية هى من مجموع هذا، لكن يمكننى أن أضيف إن السخرية تبدو أحيانًا فى الواقع طريقة لتجنب البكاء، حين يبدو الحزن وكأنه بلا نهاية).

كنت فى سيارة أجرة، عندما سدّت الاختناقات المرورية قلب القاهرة، فاضطر السائق إلى اتخاذ الطريق الدائرى، ثم قال ساخرًا (طريق رأس الرجاء الصالح). إن المصريين قادرون على تحويل الصعوبات والإحباطات والعذابات اليومية، إلى قصص مضحكة، إنهم مشهورون بإطلاق النكات، التى يسخرون فيها من أنفسهم، ثم يسمعها بعضهم لبعضهم بلذة كبيرة. ورغم أن بعض هذه النكات يحكى فى السر، إلا أنها

تنتقل بسرعة كبيرة، من مدينة إلى أخرى لتغطى مصر كلها فى أيام. إنها أفضل طريقة لمقاومة الاكتئاب العام الذى يخيّم على البلد.

سنة ١٩٦٧ وبعد حرب الأيام الستة، والهزيمة المهينة التى تكبّدها جيش مصر أمام جيش إسرائيل، شاهدنا ازدهاراً غير مسبوق للنكتة السياسية، حتى إن عبد الناصر كان قد قال ذات مرة علناً فى إحدى خطبه (يجب أن نكون أكثر حذراً، فأعداؤنا يمكنهم أن يستفيدوا من هذه النكت). ويؤكد المحيطون بالرئاسة، أن خليفته أنور السادات، كان يطلب أن تقدّم إليه بشكل منتظم، التقارير التى تتضمّن النكات التى يطلقها الشعب المصرى عليه.

تلاحظ عالمة الاجتماع جيسلان أللوم، أن النكتة هى (رواية التاريخ بأسلوب فكاهى)، أو أنها (الإجابة التى تردّ بها الفكاهة على التاريخ)، أو حسب ما قاله برتو فرحى (النكتة هى صراع الضعفاء ضد الكبت والاستبداد الذى يقوم به الأقوياء)، ثم إن داخل النكتة هناك تعبير عن رأى سياسى، بطريقة متخفية متنكرة، ضد تهاون السلطة فى بعض المسائل، وضد مبالغة السلطة فى مسائل أخرى.

يميل المصريون إلى السخرية من أنفسهم، لكنهم نادراً ما يسخرون من غيرهم من الشعوب، فإن النكتة مثلاً التى تتضمّن عدداً من رؤساء الدول المختلفين، يكون دائماً فرعون مصر هو الذى يدعو إلى السخرية. ولكنهم يهاجمون بقدر من الدعابة المبالغ فيها أحياناً، مواطنيهم الصعايدة ساكنى جنوب مصر، كما يفعل الفرنسيون عادة مع جيرانهم من قاطنى بلجيكا.

كان كل ملوك مصر ورؤسائها ، هدفاً لسخرية صانعى النكت فى كل الأزمنة، على أن يتفق صانعو النكتة على الملمح الخاص فى الشخصية الجالب للسخرية، ففى حالة فاروق كان هذا الملمح هو المجون والتهتك على النساء، وفى حالة عبد الناصر كانت السياسات التى فرضها على الشعب، وفى حالة أنور السادات كان أسلوب شخصيته

وكلامه ومفرداته. فى الآخرة وجد عبد الناصر نفسه مع كينيدى فى النار، عندما تحدّث كينيدى تلفونيًا مع أهله فى الولايات المتحدة، جاءته فاتورة المكالمة مرتفعة السعر جدًا، أما بعد محادثة عبد الناصر مع نويه، جاءته فاتورة بخمسة قروش صاغ فقط، فسأل الشيطان الواقف على باب النار، فقال (أصل مصر مكالمة محلية).

آلاف من النكات تعطى لهذا الشعب قدرًا من العزاء، ثم إن المصرى الحقيقى لا يحتار فى فهم النكتة بل (يفهمها وهى طايرة). الآن تعطى شبكة الإنترنت بعدًا جديدًا للنكتة المصرية، لسهولة تداولها وانتشارها، إذ أصبحت المسألة الآن أسهل بكثير مما كانت عليه الأحوال فى الماضى. هكذا أصبحت النكتة ملكية جماعية.

٦٤ - طه حسين / Hussein (Taha)

إنه رجل حرم نعمة البصر، لكنه رغم ذلك قاد شعبًا بأكمله إلى بداية الطريق الذى ينبغى على الشعب أن يسير فيه. إنه رجل حرم نعمة البصر، لكنه لم يتوقف لحظة واحدة عن محاربة الظلاميين. هكذا يمكن وصف الحياة النموذجية لطه حسين (١٨٨٩/١٨٧٣) التى لا يمكن فصلها عن عمله الإبداعى. لم يكن هناك على الإطلاق ما يدل، على أن هذا الصبىّ، ابن هذا الموظف البسيط فى أحد مصانع السكر بالمنيا، سيكون له كل هذا المستقبل الزاهر، إذ سيصبح أحد أهم مفكرى مصر الحديثة.

ولد فى الريف، فى أسرة بسيطة لديها ثلاثة عشر طفلاً، فى قرية تقع على بعد حوالى ٣٠٠ كيلومترًا إلى الجنوب من القاهرة، ليفقد البصر مبكرًا جدًا، حتى قبل أن يذهب إلى الكتاب فى مدرسة القرية، غالبًا بسبب حلاق القرية، الذى استعمل سائلاً كاويًا، لعلاج التهاب رمدى فى عينىْ الطفل. فى سن التاسعة كان الطفل طه قادرًا على تلاوة القرآن الكريم كله. ثم كان قادرًا كذلك على إدراك، بعض الحقائق المادية للبيئة

المحيطة به، بواسطة الأصوات والروائح والملمس، إذ تمكن من تدريب حواس السمع والشمّ واللمس. استطاع الطفل الأعمى أن يكتشف قناة الماء وأعواد البوص، وأن يشعر بالغيرة من الأرانب. يستيقظ الطفل أثناء الليل، بينما يظل كل الآخرين نائمين، وهو ما يحكيه لنا فيما بعد بضمير المفرد الغائب (هو)، فى كتابه (الأيّام) [من ص ٧ إلى ص ٩ نسخة دار المعارف المصرية فى نهاية الستينيات].

(كان كثيراً ما يستيقظ فيسمع تجاوب الديكة وتصايح الدجاج، ويجتهد فى أن يميز بين هذه الأصوات المختلفة. فأما بعضها فكانت أصوات ديكة حقًا، وأما بعضها الآخر فكانت أصوات عفاريت تتشكل بأشكال الديكة وتقلدها عبثًا وكيداً. ولم يكن يحفل بهذه الأصوات ولا يهابها، لأنها كانت تصل إليه من بعيد، إنما كان يخاف الخوف كله أصواتًا أخرى لم يكن يتبينها إلا بمشقة وجهد. كانت تنبعث من زوايا الحجرة نحيفة ضئيلة، يمثل بعضها أزيز المرجل يغلى على النار، ويمثل بعضها الآخر حركة متاع خفيف ينقل من مكان إلى مكان، ويمثل بعضها خشبًا ينقصم أو عوداً ينحطم.

وكان يخاف أشد الخوف أشخاصا يتمثلها قد وقفت على باب الحجرة فسدّته سدّا وأخذت تأتى بحركات مختلفة أشبه شيء بحركات المتصوّفة فى حلقات الذكر. وكان يعتقد أن ليس له حصن من كل هذه الأشباح المخوفة والأصوات المنكرة، إلا أن يلتف فى لحافه من الرأس إلى القدم، دون أن يدع بينه وبين الهواء منفذاً أو ثغرة. وكان واثقًا أنه إن ترك ثغرة فى لحافه فلا بدّ من أن تمتدّ منها يد عفريت إلى جسمه فتناله بالغمز والعبث.

لذلك كان يقضى ليله خائفًا مضطربًا إلا حين يغلبه النوم، وما كان يغلبه النوم إلا قليلاً. كان يستيقظ مبكرًا، أو قل كان يستيقظ فى السحر، ويقضى شطرًا طويلاً من الليل فى هذه الأهوال والأوجال والخوف من العفاريت، حتى إذا وصلت إلى سمعه أصوات النساء يعدن إلى بيوتهنّ وقد ملأن جرارهنّ من القناة وهنّ يتغنّين الله يا ليل

الله، عرف أن قد بزغ الفجر، وأن قد هبطت العفاريت إلى مستقرّها منّ الأرض السفلى).

في سن الثالثة عشرة ترسله أسرته إلى القاهرة، لاستكمال دراسته في الأزهر، جامعة العلوم الدينية، إنها حياة جديدة ولكنها أيضًا صدمة مروّعة. إن الأعمى المحاصر في كل مكان بعوائق وحواجز واضطراب القاهرة، لا يتحمّل قيود التعليم الخانق الذي لا يترك له أي مكان للأحلام، ويصطدم بأساتذته الذين يتهمونه بالكفر. كان إنشاء الجامعة الأهلية بالقاهرة سنة ١٩٠٨، والتي سجّل فيها اسمه بالتوازي مع الدراسة في الأزهر، بمثابة نسمة من الهواء النقي تردّ إليه روحه التي كاد أن يفقدها. تصبح هذه الجامعة الأهلية بالنسبة إلى طه، بداية حياة جديدة.

في هذه الجامعة يدرس طه حسين شاعراً سورياً، من القرن الحادي عشر الميلادي، هو أبو العلاء المعرّي. كان قد جمع بينهما فقد البصر وخيبة الأمل، فيتوحّد معه طه ويرى فيه نفسه. يختار طه هذا الشاعر لتدور حوله رسالة الدكتوراه الأولى التي يحصل عليها من مصر. هذه الرسالة تسمح لطه بالحصول على منحة دراسية في فرنسا. يذهب أولاً إلى مونبلييه، حيث يقضي عامًا دراسيًا، ثم يصل إلى باريس مع بداية الحرب العالمية الأولى. يجب عليه أولاً أن يحصل على معادل لشهادة انهاء الدراسة الثانوية العامة (البكالوريا الفرنسية)، ثم أن يحصل بعد ذلك على ليسانس في الآداب الكلاسيكية (اليونانية اللاتينية)، ثم أن يسجّل لرسالة الدكتوراه في السوربون. اختار أن تكون رسالته عن الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون، تحت إشراف إميل دوركايم.

سنة ١٩١٨ يتزوج سوزان بريسسو، التي كانت قبل زواجهما تقرأ عليه دروسه بالفرنسية، وهي ابنة عم ميشيل تورنييه [مؤلف فرنسي]. تعود سوزان مع طه إلى القاهرة في العام التالي، وتظل معه حتى وفاته، في حياة زوجية استمرت لمدة خمسة

وخمسين عاماً. رغم الظلاميين إلا أن عائلة طه الريفية، تحسن استقبال زوجته الشابة في صعيد مصر، بقدر من التعاطف والتسامح. يبدأ طه عمله بالتدريس في جامعة القاهرة، بدأ أولا بتدريس مادة التاريخ الأدبي لليونان القديمة. درّس بعد ذلك مادة تاريخ الأدب العربي. أصبح سريعًا عميداً لكلية الآداب.

سنة ١٩٢٦ تتسبب دراسة له عن الشعر الجاهلي في عاصفة من الهجوم عليه. كان قد أشار فيها إلى أن أغلب تلك النصوص المنقولة عبر التقاليد الشفاهية، يمكن الشك في صحتها وصدقها وأصالتها. هل يؤدي هذا الكلام إلى إثارة الشك حول بعض النصوص الدينية؟ وجهوا إليه تهمة الإساءة إلى القرآن الكريم، والهرطقة بل والكفر، لكنه دافع عن نفسه بصلابة وجرأة، وأثبت وجوده. إلا أن هذه المعركة لم تكن إلا أولى معاركه.

كتب طه حسين العديد من المقالات التاريخية والاجتماعية والدينية والتربوية، وكذلك بعض الروايات مثل (أديب) و(شجرة البؤس)، إلا أن عمله الأكثر شهرة، والأكثر إثارة للمشاعر، هو دون شك سيرته الذاتية (الأيّام)، الذي ترجم إلى الفرنسية تحت عنوان (كتاب الأيّام)، وكتب المقدّمة لنسخته الفرنسية أندريه جيد [أديب فرنسي معروف]، قائلاً (لم يحدث من قبل أن كشف كاتب عربي عن دواخل نفسه، كما فعل طه حسين في هذا الكتاب).

قام طه حسين بترجمة فولتير وراسين [وهما اثنان من شعراء فرنسا في القرن ١٧]، وكذلك ترجمة سوفوكليس [مسرحي يوناني قديم]. وكان يملي نصوصه المترجمة إلى العربية على اثنين من مساعديه، هما توفيق شحاتة وفريد شحاتة، وهما أخوان قبطيان. كانت ترجماته تلك تتميّز بفصاحة من نوع جديد، وببلاغة من نوع جديد، ليتمكن من إظهار ما في هذه النصوص من تجديد.

يمكننا أن نرى فيه ساحراً للأدب العربى، فهو يكتب أدباً ذا أسلوب موسيقى خاص به تماماً، لا يشبه فيه أحداً. أما فيما يتعلق بأفكاره، فقد سببت له المتاعب، بسبب سوء الفهم. اتهموه بأنه يميل إلى الغرب، ولكنه كان يدعو إلى التكامل بين الشرق والغرب. واتهموه بأنه يبتعد عن مبادىء الإسلام، ولكنه فى واقع الأمر كان يدافع عن الإسلام المتعقّل. كانت حياته الشخصية هى أفضل نموذج لما كان يدعو إليه.

وفقا لطه حسين فإن مصر تستمدّ منابعها من مصادر ثلاثة، الحضارة الفرعونية والتراث العربى الإسلامى والثقافة الأوروبية. إن كتابه الرائد (مستقبل الثقافة فى مصر)، ترك أثراً واضحاً على جيل كامل من المثقفين المصريين، وهو فى هذا الكتاب يدعو إلى زيادة انتماء مصر إلى دائرة دول حوض البحر المتوسّط. وقد أثار جدلاً كبيراً بدعوته تلك. وكتب شارحاً وجهة نظره (لماذا كل هذا الهلع فى كل مرّة يذكر فيها اسم البحر المتوسط؟ إنه بحرنا بقدر ما هو بحرهم، أم هل ما زلتم تعتقدون أنه بحيرة رومانية؟ هذا البحر بدلاً من أن يكون حاجزاً بيننا وبينهم، لماذا لا يكون جسرا؟ إن التأثير بيننا وبين اليونان وإيطاليا وفرنسا، كان تأثيراً متبادلاً، فمن الطبيعى أن نظل على علاقة بهم).

استمر طه حسين محتفظاً بعلاقات قوية مع أوروبا، عن طريق رحلاته السنوية إليها، وعلاقاته القوية مع المثقفين الأوروبيين. وقد دفع ثمن حريته ودعوته إلى الانفتاح على الغرب غالياً، إذ بسببها فقد عمادة كلية الآداب. سنة ١٩٤٩ أثناء جولة چان كوكتو [كاتب وفنان فرنسى] فى مصر، قابل طه حسين، وكتب عند عودته إلى فرنسا مؤلفاً بعنوان (معلهش)، قال فيه (إن طه حسين يضرب مثلاً نادراً، فرغم أنه غير مبصر، إلا أنه يرى إلى مسافات أبعد بكثير، من تلك المسموح برؤيتها فى مصر، إنه روح ثائرة متمرّدة من الصعب جداً أن تنكسر، وأنا أخشى عليه كثيراً من محاولات إقصائه. هل هم يحبونه فى مصر؟ هل يكرهونه؟ هل يخافون منه؟ على الأقل هم

يستشيرونه، لكنهم فى مواجهة عويناته السوداء، التى تنظر إليك، بدا لى كما لو أن آثار مصر القديمة قد عادت لتجد لها معنى).

ورغم معارضيه إلا أنه نجح فى تأسيس جامعة الإسكندرية خلال فترة الحرب العالمية الثانية، وأصبح أول رئيس لها، ثم حصل سنة ١٩٥٠ على منصب وزير التعليم، وكان أول من طبّق نظام المجانية، قال (إن التعليم مثل الماء والهواء)، وقد امتن له الكثير من المصريين ذوى الأصول المتواضعة، وشعروا نحوه بالعرفان بالجميل، حين وصلوا إلى الجامعة، وهو ما سيجعله لاحقًا يشعر بالعزاء، رغم كثرة معارضيه ومهاجميه. حصل خلال الفترة الناصرية على لقب (عميد الأدب العربى) بعد أن كان قد أحيل إلى التقاعد. عاش فى شبه عزلة بمنزله فى ضاحية الأهرام. مات بعد معركة أكتوبر ١٩٧٣ بأيام قلائل، ووضع جثمانه بشكل رمزى فى قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، قبل أن يستأنف الطريق إلى المقابر. الآن تحوّل منزل الأهرام إلى مركز ثقافى.

٦٥ - إن شاء الله / Incha Allah

يؤمن المصرى بالمثل القائل (ينبغى أن تؤجّل عمل اليوم إلى الغد)، أو (إذا كان هناك عمل يمكنك أن تؤجله إلى الغد فلماذا العجلة؟ إنها من الشيطان)، ويستطيع المصرى أن يرد دائمًا ببساطة على كل من يطلب منه أداء خدمة ما قائلاً (بكرة)، وهو يقصد طبعًا (فى المشمش) أو (إلى أجل غير مسمى)، أو حتى قد يقصد (أبدًا على جثتى). أما عبارة (إن شاء الله) فهى ذات طبيعة مختلفة. فالمصرى يقصد بها أن يقول أن هناك دائمًا قدرًا من الشك وقدرًا من اليقين، (كل شىء فى الدنيا هو حسب إرادة الرحمن)، وطبعًا لن يختلف معه أى مصرى آخر فى ذلك، لكن هذه العبارة مضللة تمامًا لو قيلت لأجنبى.

ذهبت إلى محطة قطار باب الحديد فى القاهرة وسألت (هل يذهب هذا القطار إلى الإسكندرية؟)، فردّ علىّ الموظف الذى يرتدى اليونيفورم الرسمى قائلاً (إن شاء الله)، أردت أن أتأكد فسألته من جديد (متى يصل هذا القطار إلى الإسكندرية؟)، فردّ (إن شاء الله سيصل ٦ مساء). إن العبارة تأتى من النصوص الدينية، التى تؤكد أن الله هو المتحكم في كل شيء والمسيطر على كل شيء. مصائر البشر والأحداث التى تقع لهم، كلها بعلمه.

ولكن يثار الجدل حول إمكانية استعمالها فى القضاء، أو فى مجال عقود التصرفات العامة. يرى بعض رجال القضاء، أنها قد تكون أحيانًا، طريقة ملتوية للتهرب من الالتزامات، فى حين يرى البعض الآخر عكس ذلك، عندما يؤكدون أن العناية الإلهية وحدها، هى التى يمكنها أن تساعد البشر، على الوفاء بوعودهم.

حتى طريقة النطق بشهادة (أن لا إله إلا الله)، يمكن أن تختلف عليها التيارات الإسلامية المختلفة، هل ينبغى أن يقال (أؤمن بالله إن شاء الله)؟، يرد البعض (أبدًا، فلا ينبغى أن يكون هناك أدنى شك فيما يتعلق بالإيمان)، فى حين يقول آخرون، إن المسألة هنا لا تتعلق بالإيمان أو بالشك، بقدر ما تتعلق بالاتضاع والانسحاق أمام إرادة الله.

أما رجل الشارع فإنه لا يسأل نفسه كل هذه الأسئلة، إن عبارة (إن شاء الله) هى ردّ آلى لا تفكير فيه. ولكن حتى وراء هذه الآلية، توجد رغبة الإنسان المؤمن فى التخلص من تبعات ومسئوليات اختياراته بإلقائها على قدرة علوية. يمكننا كذلك أن نرى فى هذه العبارة قدرا من التفاؤل، بل ومن الحكمة، ومحاولة لتفسير حسن حظ البعض، وسوء حظ البعض الآخر، بقول (إنها إرادة الله).

نراهم يسيرون هادئين، وهم يمسكون بأيدى بعضهم البعض فى ثنائيات، أو وهم يجرون فى كل الاتجاهات، يلعب بحقائبهم الهواء. هذه القطعان من الأطفال ذوى الأزياء الموّحدة، بألوانها الصفراء البنيّة أو الزرقاء الرمادية، تشع فى أرياف مصر بالنور والأمل فى مستقبل أفضل. إن حق كل فرد من أفراد الشعب فى الذهاب إلى المدرسة، أصبح حقيقة واقعة ملموسة.، لا يمكن مناقشتها أو الرجوع عنها. إنها فرصة فى حياة أفضل، رغم الفصول المكدّسة بالتلاميذ، والمناهج المتواضعة المحتوى. إلا أن وجود مليونى طفل دون سن الخامسة عشرة، متسربين من التعليم إلى سوق العمل، يجعلنا نشك تماماً فى جديّة القوانين، التى تحتم أن يتعلم الطفل إجبارياً حتى هذا السن.

إن مقياس جديّة التعليم العام الإجبارى، هو الانخفاض المستمر فى نسبة الأميّة، على مستوى الشعب كله. تقول الإحصائيات الرسمية للحكومة المصرية، إن نسبة الأمية فى المصريين فى سن العشرين، هى ١٠٪ للرجال، و٢٠٪ للنساء، وهو مؤشر إن صدق يدل على الجدية. وقد انتشرت مؤخراً فى الأوساط الريفية، جمعيات نسائية تساعد النساء المتزوّجات على تعلم القراءة والكتابة، ليحصلن بعد ذلك على شهادة محو الأمية.

وإذا عدنا إلى التاريخ، سنجد أن مصر كانت أول بلد عربى يطبق نظام التعليم العام (لا التعليم الدينى) سنة ١٨٣٠، عندما بدأ محمد على فى إنشاء مدارس ثانوية (عليا)، على غرار النموذج الفرنسى الذى استوحاه المبعوثون المصريون، بعد عودتهم من بعثاتهم فى فرنسا، وذلك بهدف تخريج الموظفين اللازمين لجهازه الإدارى ولقواته المسلحة. فى بداية حكمه كان قد ترك إدارة المدارس الأولية (الابتدائية) للسلطات الدينية، فالكتاتيب فى مدارس القرى، كانت تجمع الأطفال حول مدرس (غالباً غير

مبصر)، لتعليم الأطفال مبادىء قراءة القرآن، مقابل قروش قليلة أو بعض أرغفة الخبز، تدفعها عائلة الطفل. حتى فى المدن، كانت المدرسة توجد إلى جوار المسجد، واقتصرت على تعليم القراءة والكتابة.

اليوم، ورغم مرور أكثر من نصف قرن على مجانية التعليم، إلا أن الواقع يشير إلى غياب مبدأ تكافؤ الفرص، وذلك لأن التعليم الجيّد والدروس الخصوصية، لا يحصل عليها إلا من يستطيع دفع الثمن، وقد أصبحت هذه الدروس الخصوصية من العادات والتقاليد القومية التى لا يمكن التفكير فى الاستغناء عنها. ماذا يفعل المدرّسون بمرتباتهم الضعيفة؟ وتجاهل الحكومات المتتالية لهذه المسالة؟ إن الدروس الخصوصية هى الحل الوحيد الموجود أمامهم، لمضاعفة مرتباتهم. وهذه الدروس الخصوصية تنظمها مراكز تعليمية، قريبة الشبه جداً بالمدارس، ولذلك يمكننا أن نقول إنها نوع من التعليم الموازى لتعليم الحكومة الرسمى. وقد فسد نظام التعليم المصرى الحالى بسبب هذه الازدواجية، التى عمّت جميع مستويات التعليم، من مستوى الحضانة ما قبل المدرسة الابتدائية ، إلى مستوى الدراسات العليا فى الجامعات.

إن دخول الجامعة يتوقف على مجموع درجات الطالب فى امتحان الثانوية العامة، وهكذا يذهب الطلاب الحاصلون على أفضل المجاميع، إلى كليات الطب والهندسة فى جامعات القاهرة، أما الآخرون فعليهم الاكتفاء بكليات التجارة والزراعة والآداب، فى الجامعات الاقليمية فى أسيوط والمنصورة. ورغم أن هذا النظام قد يذهب بطالب إلى نوع دراسة لا يميل اليه، ولكن يقال أن نظام مكتب التنسيق هذا، هو النظام المصرى الوحيد الذى لا يسمح للعلاقات والمجاملات بالتدخل.

إن مظاهر القصور والعجز فى مستوى أداء الكثير من الجامعات المصرية، تثير الكثير من الجدل الذى لا ينتهى. فمن هذه المظاهر الاقتصار على الدراسات النظرية، فى بعض الكليات العملية، لعدم وجود إمكانيات تسمح بشراء الأجهزة اللازمة لإجراء التجارب. ثم مشكلة الاهتمام المبالغ فيه بمسألة استظهار الدروس، أى حفظ الفقرات

دون فهم لها، وذلك بسبب أن أغلب نظم الامتحانات تقيس قدرات الحفظ لدى الطلاب، بسبب تمسكها بأسلوب الامتحانات بطريقة كتابة مقال. يضاف إلى ذلك هروب الأساتذة المؤهلين للعملية التعليمية، من التدريس إلى جهات عمل أخرى، بحثًا عن مرتبات أفضل.

إن العدد المتزايد من حملة الشهادات الجامعية فى مصر، الذى كان فخرًا وطنيًا فى الماضى، أصبح الآن عبئًا متزايدًا على الحكومة والقطاع الخاص. ففى بلد يصل عدد سكانه تحت سن الثلاثين إلى حوالى ثلثى العدد الكلى للسكان، يدخل سنويًا إلى سوق العمل أكثر من نصف مليون شاب يحملون شهادات جامعية، ولا يستطيع السوق استيعاب كل هؤلاء. أثناء زياراتى للقاهرة قابلت عددًا كبيرًا من سائقى السيارات الأجرة، الذين كانوا يومًا ما قد حصلوا على شهادات جامعية، وانتهى بهم المطاف إلى مقود سيارة أجرة.

انظر مقالات: طه حسين رقم (٦٤)/ أغنياء وفقراء رقم (١٢٢)/ طهطاوى رقم (١٣٧).

٦٧ - إيزيس Isis

إنها نجمة نجوم العصر العتيق، رغم أنها كانت قد بدأت حياتها بداية متواضعة، كإحدى الآلهة المحلية فى دلتا النيل، ثم امتدّت عبادتها إلى كل أطراف مصر، ثم تعدّت حدود مصر ووصلت إلى البلاد الأجنبية. فإذا أردت أن أقص عليكم الحكاية الكاملة لإيزيس، بكل التفاصيل والتنويعات والتفريعات والإضافات التى دخلت عليها عبر العصور، فإنها وحدها ستحتاج فى تلك الحالة، إلى كتاب كامل مستقل. يمكننا إذن الاكتفاء بذكر النقاط الرئيسية.

إيزيس قبل كل شيء هي أخت أوزوريس، ثم بعد ذلك أصبحت زوجته. تقول الأسطورة إن أوزوريس كان أهم آلهة عصره، حتى إنه أصبح أهم إله في مصر، مما أدّى إلى غيرة أخيه (ست) منه، وهو ما قاد (ست) في النهاية إلى قتل أخيه. وقد حقق (ست) مراده ومبتغاه بالحيلة والاحتيال، بعد أن نظم مأدبة على شرف أوزوريس، ثم عرض صندوقًا خشبيًا جميل الصنعة على كل ضيوفه، واعدا بإعطائه هدية لمن تتفق مقاييس جسمه مع أبعاد الصندوق، ليستعمل فيما بعد كتابوت. كان الخبيث قد صنع الصندوق بمقاييس جسم أوزوريس.

بمجرّد دخول أوزوريس إلى الصندوق، أغلقه (ست) عليه، وأضاف المسامير إلى الغطاء، وقذف بالصندوق في مياه النيل. اختفى أوزوريس، وعلمت إيزيس بأمر المأدبة، وأدركت الحيلة التي لجأ إليها الخسيس الخبيث، هنا تبدأ ملحمة إيزيس الحقيقية، ملحمة البحث عن الجثة لدفنها، الاستقصاء بسؤال ضيوف المأدبة؟ اقتفاء أثر الجثة في مياه النيل؟ ماذا تفعل المسكينة؟ لم تجد حلاً إلا التحول إلى عصفورة لتتمكن من الطيران جيئة وذهابًا فوق مياه النيل، بحثًا عن الصندوق بمواصفاته المعروفة، لعله ما زال طافيًا فوق سطح الماء.

لم تستدل على شيء. إلا أنها ذات صباح تأتيها رائحة عطر جسد زوجها التي كانت قد اعتادت عليها. كان ذلك أثناء طيرانها على الحدود الشرقية لصحراء دلتا النيل. تابعت طيرانها مستدلة فقط باقتراب رائحة الجسد العطر أو بابتعادها. وإذا بها تعبر صحراء سيناء، وتصل إلى بيبلوس (شمال بيروت)، كانت مياه النيل قد دفعت الجثة إلى البحر المتوسط، ودفعت أمواج البحر الجثة إلى بيبلوس. وصلت إلى المكان الذي تتركز فيه الرائحة لتجد الصندوق قد دخل بين جذوع شجرة ضخمة على ساحل البحر.

تخرج الصندوق من الشجرة، وتخرج الجثة من الصندوق. (يا ربي إنها ما زالت كما هي بدون أي تلف!) تضمه إلى صدرها، وتبكي بكاء حارًا وتتساقط قطرات الدمع

على الجثمان. (يا ربى ما هذا؟ إنى أشعر وكأن الدفء قد حل فى الجسد!) بدأ أوزوريس يحرك أعضاءه ويسترد قدرته على النظر والشم واللمس والسمع والكلام، إنه يعود إلى الحياة. وفجأة تدب الحياة فى عضوه الذكرى. وهنا يلتحمان معًا فى عناق حار. يعودان سويًا إلى دلتا النيل. وحيث إن أوزوريس لم يكن قد استرد عافيته بعد، فقد قررا إخفاء الأمر عن الآخرين. وهكذا استمر أوزوريس فى إخفاء نفسه فى أحراش الدلتا.

إلا أن النذل الخسيس الذى كان يصطاد فى الأحراش، يكتشف وجود أخيه نائمًا، فيقطع رأسه، ثم حتى يحيل مهمة إيزيس التالية إلى طريق مسدود، يقوم بتقطيع الجسد إلى ستة عشر قطعة. ويبدأ السير فى الطريق الطويل، من شمال دلتا النيل، إلى جنوب وادى النيل، بطول حوالى ٨٠٠ كيلومترًا، ليلقى بالقطع كل خمسين كيلومترًا، مرة إلى اليسار ومرة أخرى إلى اليمين، وهكذا توزّع الجسد على ستة عشر موضعًا.

تقع أغلب تلك القطع على شاطىء النيل مرة على ضفّته الشرقية، ومرة أخرى على ضفته الغربية. إلا قطعة واحدة، هى آخر قطعة وأهم قطعة، القطعة رقم ستة عشر، العضو الذكرى، إذ يسقط أثناء مرور (ست) بين ضفتىْ النيل عند موقع مدينة إسنا الحالية، ٦٠ كيلومترًا إلى الجنوب من الأقصر الحالية، هل أسقطه الشرير عمدًا، أم أنه القدر؟ تسقط القطعة فى الماء وتأكلها سمكة اسمها اللاتينى هو(لاتوس)، وهذا هو السبب فى أن اسم إسنا فى العصر اليونانى الرومانى هو (لاتوبوليس)، أى مدينة السمكة لاتوس.

تبدأ من جديد المسكينة إيزيس بحثها، وتستدل من جديد برائحة الجسد العطر لزوجها، إلا أنها تدرك أن الجسد قد تمّ تمزيقه بوحشية، فكانت كلما عثرت على قطعة، دفنتها فى مكان عثورها عليها، وأقامت ضريحًا لهذا الجزء من الجسم، ويقال إنها قد عثرت على الرأس فى أبيدوس (بالقرب من مدينة البلينا الحالية)، وهذا هو السبب فى

أن أبيدوس قد أصبحت فيما بعد، مركز عبادة أوزوريس، لاحتوائها على الرأس مدفونة في مكان ما تحت أساسات المعبد الحالي.

هذا هو السبب في وجود خمسة عشر ضريحًا لأوزوريس في مصر القديمة، وهذا هو نفسه السبب في وجود خمس عشرة مدينة أو قرية مصرية حالية، تحمل في اسمها الحالي أثر اسم أوزوريس، في مقطع من الاسم، غالبًا يكون أبو صير، أو أبو زير. (الاسم الأصلي لأوزوريس هو أوزير وقد أضاف اليونانيون الياء والسين إليه، حسب عاداتهم اللغوية). أما معبد مدينة إسنا (لاتوبوليس) فكان قد أقيم في هذا الموقع، على أمل أن تقبل السمكة، الاكتفاء بهذا المعبد، مقابل إعادة القطعة المفقودة، إلا أن هذا لم يحدث.

بعد اكتشاف إيزيس لحقيقة أنها تحمل بذرة ابن أوزوريس في أحشائها، منذ لقائهما في بيبلوس، ومنذ عودتهما سويًا إلى أحراش الدلتا، تكرّس نفسها لتربية ابنها، الذي سيحمل اسم حورس، وستكون مهمته هي حراسة الخير من سطوة الشر. ينمو كل يوم في الجسم والعقل، وهو لا يفكر إلا في هدف واحد لحياته، الانتقام لمقتل أبيه من عمه (ست). تأتي اللحظة الموعودة عندما يكون حورس شابًا في الثلاثين من عمره، وقد عثر على عمه نائما في معبد إدفو، فيقطع من جسم عمه عضوه الذكري، في حين يستيقظ العم من الألم، ليضع إصبعه في عين حورس فيفقأها. إلا أن حورس يسترد عرش مصر.

إلا أن القصة لا تنتهي عند هذا الحد، فالشر لا نهاية له، إذ يدّعي (ست) أن حورس لا حق له في عرش مصر، لأنه ليس الابن الشرعي لأوزوريس. وهكذا تبدأ مرافعة قضائية طويلة، تدوم ٨٠ عامًا حسب أحد النصوص، للتفريق بين هذين الإلهين المتنافسين، إله الخير وإله الشر. ومن الطبيعي أن تقف إيزيس إلى جوار ابنها، ضد مناورات ومؤامرات ذلك الذي قتل زوجها، مستعينة بكل طاقاتها السحرية. إلا أن

النصر يكلل جهود الأم وابنها، ويصبح أوزوريس إلهًا للآخرة، فى حين يطرد (ست) إلى مملكة الصحراء.

منذ ذلك الوقت الذى يحدد بحوالى الألف الخامس قبل الميلاد، فكل ملك حكم مصر، وكل فرعون بعد ذلك فى العصر التاريخى، يكون أثناء حياته تجسيداً لحورس، ابنا لإيزيس وأوزوريس، ويكون بعد موته إلهًا للعالم الآخر على صورة أبيه. عندما قامت أول ثورة شعبية فى البلاد، فى نهاية الأسرة السادسة فى القرن ٢٤ قبل الميلاد، طالب المصريون المتظاهرون بالديمقراطية، وبالفرص المتساوية فى العالم الآخر، فوافق الكهنة، على أن يصبح كل مصرى أوزوريسًا فى الآخرة، أى أن يصبح له هو الآخر الحق فى الحياة الأبدية، وهو الحق الذى كان يقتصر حتى ذلك الوقت، فقط على الفرعون وعلى أفراد أسرته.

أما إيزيس فإلى جانب كونها الأم المثالية، أصبحت حامية الطفولة وجالبة البركة للنساء الحوامل، وضامنة خصوبة النساء المتزوجات، وقد شملت مهامها كذلك ضمان خصوبة الأرض الزراعية. وحيث إنها كانت قد أعادت زوجها إلى الحياة، وسمحت له بذلك بالوصول إلى ما وصل إليه من خلود فى عالم ما بعد الموت، فقد أصبحت فى العصور اللاحقة الشفيعة بين البشر والآلهة، من أجل الحصول على الحياة فى عالم ما بعد الموت.

فى العصر اليونانى الرومانى، تم تخصيص معبد جزيرة فيلة لعبادة سيّدة الآلهة والأرباب، حيث نجد على جدار أحد صروح هذا المعبد، نصًا محفوراً يقول (إلى الإلهة العظيمة أم الرب، أنت منبع الحياة، يا من تسودين على جزيرتك فيلة وعلى الجزر المجاورة، وعلى الجزء من الأرض الذى لا يستطيع أحد الولوج إليه، يا من تعيشين فى حداد دائم ولا تتقبلين أبداً العزاء، حتى تعيدين جمع شمل أجزاء الجسد المقدّس الذى دنّسه الشرير، أيتها الساحرة العظيمة الخيّرة، يا من تطاردين الشيطان وتطردينه فقط بكلمة من شفتيك، لا شىء يتم إلا بإرادتك على هذه الأرض وكذلك فى السماء).

ظل كهنة فيلة يقاومون تحوّل مصر إلى الديانة المسيحية، حتى أواخر القرن الرابع الميلادى، وكان معبد فيلة هو آخر معاقل الديانة القديمة. ومن سخرية الأقدار، تحوّلت العذراء مريم فى الضمير الجمعى للشعب المصرى المسيحى، وللشعوب المسيحية فى العديد من دول العالم، إلى صورة طبق الأصل من صورة الإلهة إيزيس. وسيظل أفراد الشعب المصرى المسيحى يخلطون بين الصورتين قرونًا طويلة، فهاتان الأمّان المقدّستان، اللتان حصلت كل منهما بطريقتها على طفل مقدّس بدون زرع بشر، ستتخذان فى التصوير الفنى نفس الشكل، وهو شكل الأم التى تقوم بإرضاع الملك الإله.

عندما نبحث عن عدد المحاريب المقدّسة التى أقيمت لإيزيس، فى دول حوض البحر المتوسط، خلال قرون عديدة، بين نهاية الحضارة المصرية القديمة فى القرن الرابع قبل الميلاد، واستقرار المسيحية باعتبارها ديانة لأغلب شعوب المنطقة فى القرن الرابع بعد الميلاد، وحتى ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى، سنفاجأ بالأعداد. لن أذكر لكم هنا إلا مثلاً واحدا، ففى باريس سنة ١٨١١، صدر قرار رسمى من بلدية العاصمة الفرنسية، بأن أصل اسم باريس هو مصرى قديم، مشتق من اسم الإلهة إيزيس، ويعنى منزل إيزيس (بر إيزيس)! وأنه فى المكان الذى تقع فيه كنيسة سان چيرمان دو بريه، كانت هناك فى العصر اليونانى الرومانى بقايا معبد مكرّس لإيزيس.

كان نابوليون الأول بعد أن أصبح إمبراطوراً على فرنسا، قد اعتمد على دراسات قامت بها لجان متخصصة، فى إصدار مرسوم إمبراطورى بأن يصبح رمز مدينة باريس، هو الإلهة إيزيس جالسة على مقدّمة سفينة. لكن للأسف تغير الوضع عندما سقط نابوليون، وعادت الأسرة الملكية، فأصدر لويس الثامن عشر سنة ١٨١٨، مرسوماً ملكيًا بالعودة إلى الرمز القديم لمدينة باريس.

انظر مقال: معبد فيلا رقم (١١٣).

كل أهل مصر متدينون، ولا مكان بينهم للعلمانيين، فمصر كلها تنتسب إلى الله، والأغلبيـــة العظمـــى من الشـــعب المصـــرى، أى كل أولئك المولـــودين فى عـــائلات مسلمة، يستندون فى حياتهم إلى القرآن. وخلال النصف الأول من القرن العشرين، شهدت مصر الكثير من الصراعات المختلفة بين وطنيين وقوميين، ثم خلال عصـــر عبد الناصر فى الخمسينيات والستينيات، دارت الأحلام حول تحقيق الوحدة العربية الكبرى، ثم شهد عصر السادات بداية تحوّل الإسلام إلى مرجعية وحيدة للشعب المصرى، وهى مرجعية دائمة وغير قابلة للنقاش، حتى لو تولدت داخلها أساليب سلوكية متباينة.

إن المادة الثانية من الدستور المصرى (الذى كان قد تم تعديله سنة ١٩٨٠)، تقول إن الإسلام هو دين الدولة، وإن مبادئ الشريعة الإسلامية، هى المصدر الرئيسى لقوانين الدولة. إن كل إصلاح دستورى لاحق، لا بد وأن يظل محافظًا على محتوى هذه المادة الثانية من الدستور. إن المطالبين بحقوق المرأة مثلاً، يحاولون أن يحتاطوا حتى تظل مطالباتهم تلك، مستندة إلى تقاليد الإسلام، وإلى حقوق المرأة فى الإسلام، مثلما تفعل مجموعة السبعة التى تقودها منى ذو الفقار، وهى محامية تعمل هى وزوجها فى مكتبهما للمحاماة بالقاهرة.

إن أعمدة الإسلام الخمسة هى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والخمس صلوات اليومية، وصوم شهر رمضان، والزكاة، والحج إلى بيت الله فى مكة. فيما يتعلق بالزكاة مثلاً، يتعيّن من حيث المبدأ على كل مسلم قادر، أن يزكى عن ماله كل سنة بمبلغ يعادل ٢,٥ فى المائة من ثروته، يعطيه إلى الفقراء. وبدلا من الزكاة المالية، يقوم البعض بتقديم الملابس والطعام إلى الفقراء. لهذا فإن المساجد

والمستشفيات ومؤسسات الأعمال الخيرية، تتلقى كل عام ما قيمته حوالى عشرة مليارات من الجنيهات المصرية، وهذه الجهات هى المسئولة عن إعادة توزيعها على الفقراء.

هناك لجنة تجمع بين علماء الأزهر وكبار الشيوخ، اقترحت أن تكون الزكاة إجبارية، عن طريق مؤسسة عامة تقوم بجمع الزكاة، والإشراف على طرق صرفها. لكن هذا الاقتراح لم يحصل أبداً على الموافقة عند طرحه على مجلس الشعب، فلا الفقراء يوافقون عليه، لأنهم يخشون أن يفقدوا المساعدة المنتظمة، التى يحصلون عليها فعلاً من الأغنياء دون حاجة إلى هذه المؤسسة، ولا حتى الأغنياء الذين يفضلون أن تظل الزكاة مسألة اختيارية. ثم يتساءل البعض وماذا بعد؟ هل سيصبح الحج هو الآخر يومًا ما إجباريًا؟ أما الأقباط فهم من جهتهم لا يفهمون لماذا ينبغى عليهم هم أيضًا دفع الزكاة؟ يقال لهم (أنتم مواطنون مثل غيركم وتستفيدون من الخدمات الاجتماعية)، لكنهم يردّون بأن كنيستهم تجعلهم يدفعون، ليس فقط ٢,٥ فى المائة، بل ١٠ فى المائة.

والتأثير الحالى للإسلام على القوانين فى مصر، ليس هو كل شىء، فإن الإسلام يترك تأثيره الواضح على كل نواحى الحياة اليومية لكل المصريين، سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين، أو كانوا من الأتقياء أو لم يكونوا. فى الواقع أنا لا أعرف كيف أسمّى هذه الموجة؟ أسلمة أم تأسلم أم أصولية إسلامية؟ لكن الواضح هو قوة تأثيرها ليس فقط على مصر، وإنما أيضًا على غيرها من الشعوب العربية والإسلامية. وهذه هى بعض ملاحظات أجنبى مثلى فى زيارته إلى مصر.

إن اسم الله أصبح أكثر وروداً بشكل تلقائى، على ألسنة كل البشر فى كل الظروف، أكثر مما كان عليه الحال فى الماضى القريب. ثم إن إذاعة الصلوات خمس مرات فى اليوم بمكبّرات الصوت، من أعلى مآذن آلاف المساجد، تدخل فى حياة كل

شخص مصرى. هذه الصلوات مسموح لها حتى بقطع الإرسال التلفزيونى المباشر. ومسألة إذاعة التلاوة القرآنية فى كل وسائل المواصلات المصرية، طول الوقت وعلى كل خطوط النقل العام والخاص وسيارات الأجرة.

هناك كذلك مسألة تزايد عدد المساجد فى كل مكان، والتى لا يمكن تفسيرها فقط على ضوء الإعفاء الذى يحصل عليه العقار، من بعض الضرائب العقارية، فى حالة بناء مسجد أو مصلى فى طابقه الأرضى. ثم إن الاحتفال بشهر رمضان، وهو مناسبة دينية سنوية استثنائية، يدخل فى حياة كل سكان مصر، بصرف النظر عن دينهم. ولو تحدّثنا عن الموالد والأعياد الدينية، فإنها عادة ما تعيد تشكيل منظر الحياة فى المدن. ثم مسألة انتشار الحجاب بين الفتيات والسيدات، من كل الطبقات الاجتماعية.

وقد زادت مظاهر التدين خاصة بين النساء، فبالإضافة إلى زيادة عدد المرشدات الروحيات والمبشرات والداعيات، هناك ظاهرة الصالونات الإسلامية، حيث تقام اجتماعات دورية تقتصر على نساء الطبقة المتوسطة العالية، حيث تقوم بعض النساء بشرح بعض المسائل الدينية. وبفضل الشاشة الصغيرة، وانتشار القنوات الفضائية، اشتهر عدد من هؤلاء الواعظات، وأصبحن أقرب إلى نجمات تلفزيونيات، وهنّ يتحدّثن عن كل التفاصيل الصغيرة الخاصة بالحياة فى المجتمعات الإسلامية، مثل طريقة ارتداء الملابس، والأسلوب الأمثل للتحدّث مع الأزواج.

إن هذه الخلطة الحالية بين العودة إلى التقاليد والشرائع، وبين الرفض لكل الاتجاهات الغربية الحديثة، فى المجتمع المصرى المعاصر، تبدو متناقضة، وذلك لأن مصر هى حالياً واحدة من أكثر الدول الإسلامية استعمالاً للتكنولوجيا الحديثة، القادمة من الدول الغربية، مثل التليفون المحمول والأطباق الفضائية التلفزيونية وأجهزة الكومبيوتر. إن هذه المخترعات الحديثة، وكل التطور الحادث فى أساليب الحياة بسببها، يقلق عدداً كبيراً من المؤمنين، الذين ينتظرون ويتوقعون الإرشادات المحدّدة

من طرف الأجهزة الدينية، فيما يتعلق بذلك التطور، خاصة كلما جدّ جديد، وبالتالى فإن تلك الأجهزة تصدر شهرياً الفتاوى الجديدة، التى تردّ على استفسارات المؤمنين. (الفتوى هى رأى شرعى فى مسألة لها صلة بالدين، مستمدة من نصوص القرآن الكريم أو من السنة النبوية الشريفة).

يبلغ العدد الإجمالى للفتاوى الصادرة من الأجهزة المعنية خلال القرن العشرين، حوالى ستين ألف فتوى، وبعض هذه الفتاوى لا يصدر عن الأجهزة والسلطات الدينية الرسمية، بل عن بعض الشيوخ الذين يحددون للسائلين الفرق بين الحلال والحرام. فى الوقت الحالى (٢٠٠١)، تمكن أحد الدعاة الشباب من لفت الانتباه إليه، وهو عمرو خالد (من مواليد ١٩٦٧)، حيث يعظ كل يوم سبت فى مسجد المغفرة، وهو لا يقبل أن نطلق عليه لفظ (شيخ) لأنه يفضل لفظ (أستاذ). هو محاسب سابق، درس المسائل الدينية، وعرف كيف يتجه بأحاديثه إلى الشباب من جيله، بلغة عصرية جذابة. يتخاطف الشباب الشرائط المسجلة عليها خطبه ومحاضراته، ثم إنه يظهر عدة مرات فى الأسبوع على شاشات التلفزيونات العربية، كما أن له موقع على شبكة الإنترنت يمكن للشباب أن يتصل به عليه.

انظر المقالات: الأزهر رقم (١٢) / الفاطميون رقم (٤٨) / إن شاء الله رقم (٦٥) / المآذن رقم (٨٩) / الموالد رقم (٩٥) / الحجاج رقم (١١٠) / رمضان رقم (١٢٠) / الحجاب رقم (١٤٣).

٦٩ - الأصوليون الإسلاميون / Islamistes

يمكن اعتبار أن مصر هى مهد الأصولية الإسلامية الحديثة وذلك لأنها شهدت مولد جمعية الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨ التى رفعت شعار (القرآن هو دستورنا)،

وهو ما كان مؤسسها حسن البنا يؤكد عليه، بدعوته المجتمع المصرى، إلى إعادة تنظيم نفسه بشكل جذرى، تمهيداً لإقامة الدولة الإسلامية. استمرت الحركة فى طريقها، ولم يقضِ عليها اغتيال قائدها ومؤسسها، ولا حتى الاضطهاد العنيف الذى واجه به نظام عبد الناصر أعضاءها. إن الإخوان المسلمين الذين يظهرون الآن كما لو أنهم الفرع المعتدل من الأصولية الإسلامية، رأوا كيف أن الحركات التى ولدت فى كنفهم قد تخطتهم، مثل حركة الجهاد الإسلامى، أو حركة الجماعة الإسلامية، بالإضافة إلى أولئك المجاهدين خارج الوطن، الذين ذهبوا إلى أفغانستان للانضمام إلى بن لادن.

حدث التصعيد بالتدريج عبر مراحل، ففى الستينيات ظهر مُنظِّر وموجِّه جديد، هو سيد قطب، الذى كان يحبِّذ الانفصال التام عن النظام السياسى السائد وقتها، إذ إنه كان يعتبر قادة البلاد (عبد الناصر ورجاله) مجموعة من الكفار، ويدرِّب رجاله وأتباعه على ضرب النظام الكافر، على طريقة حرب النبى محمد عليه الصلاة والسلام مع كفار مكة. قبضت عليه شرطة عبد الناصر، وحكم عليه بالإعدام شنقًا سنة ١٩٦٦ .

الرجل الثالث فى تاريخ الأصولية الإسلامية، الذى يتبنى نظرية سيد قطب، ويذهب بها إلى حدّها الأقصى، هو شكرى مصطفى، وهو مهندس ظهر فى أوائل السبعينيات، باعتباره زعيمًا لإحدى الجماعات الأصولية الجديدة، وكان يؤمن بأن المسلمين الوحيدين الجديرين بهذا الاسم، هم فقط أعضاء جماعته. عندما قرروا مقاطعة هذا المجتمع الكافر الضال، ذهبوا للعيش معًا فى شقق مشتركة فى الأحياء الشعبية الجديدة، أو فى كهوف سفوح بعض المناطق الجبلية فى صعيد مصر. تم القبض على شكرى مصطفى سنة ١٩٧٨، بعد أن كان قد خطف الشيخ الذهبى، فى شقة بمنطقة الهرم. حوكم وأعدم فى نفس العام.

أما أنور السادات فقد غيّر سياسته تمامًا تجاه الإخوان المسلمين، عندما اعتقد أنه يستطيع أن يعتمد عليهم فى محاربة الشيوعيين، وأن هذه هى الطريقة لتجنب

معارضتهم للصلح مع إسرائيل. كانت لعبة خطرة، وحسابات خاطئة، دفع هو شخصيًا ثمنها حياته، حين تعرض للاغتيال على يد جماعة متطرفة سنة ١٩٨١ . ورغم أن الحادث لم يؤثر على الاستقرار فى البلاد، إلا أن العنف أصبح ملمحًا أساسيًا فى الصورة.

بدأت مجموعات سرية فى استهداف فئات مختلفة، مثل ضباط الشرطة والمفكرين والأقباط والسياح. اغتيل المفكر فرج فودة يوم ٨ يونيو ١٩٩٢، أمام باب منزله. إلا أن هذا الإرهاب ارتد على مرتكبيه، عندما تسببوا فى مجزرة بشرية يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٩٧، أمام الدير البحرى فى غرب الأقصر، أدّت إلى عودة الشرطة إلى التضييق عليهم فى كل مكان، كما أنهم فقدوا بعد تلك الحادثة تأييد الجزء الأكبر من الأغلبية الشعبية التى كانت لهم.

تستعمل السلطات المصرية طريقة الجزرة المعلقة فى طرف العصا، فالعصا هى أنها قامت بواحدة من أكبر عمليات التمشيط والتنظيف، فى حى إمبابة الشعبى بالقاهرة، حيث كانت إحدى الجماعات الإسلامية قد أعلنت الحى جمهورية إسلامية. تم التنفيذ بقوات من الشرطة والجيش بلغ قوامها ١٤ ألفًا من الجنود والضباط، فى ديسمبر ١٩٩٢، بعد ذلك جاءت الحكومة إلى الحى، بالكثير من خيراتها وخدماتها الاجتماعية والصحية والتموينية، ولم تبخل الحكومة هذه المرة على الأهالى بأى شىء.

صحيح أن مصر ليست الجزائر، وذلك لأن مصر لم تعش ما عاشته الجزائر؛ حيث تحوّل الصراع بين السلطات الجزائرية والإسلاميين إلى ما يشبه الحرب الأهلية. إن وضع مصر مختلف عن وضع الجزائر، التى ما زالت منذ استقلالها سنة ١٩٦٢، تبحث عن هويتها [عربية إسلامية/أمازيجية صحراوية/غربية فرنسية]. أما مصر بلد الفراعنة، فهو بلد عجوز جداً، ويتمتع ببنية صلبة قوية، حيث تقوم الدولة المدنية فيه على

أساس متين، مع اتساع نفوذ السلطات الدينية المقربة إلى السلطات المدنية. إنه مجتمع مستقر جيدا على قواعده الثابتة، وهى القواعد التى تتمتع بتجانس ثقافى، تندمج فيه الأقلية المسيحية.

أما برنامج الأصوليين الإسلاميين، فهو يتلخص فى كلمات قليلة، (تطبيق شرائع القرآن ولا شىء غير شرائع القرآن)، وذلك لأن الدولة الإسلامية التى يريدون إقامتها، لا تحتاج إلى أية قوانين أخرى عدا قوانين القرآن، ثم تعاليم الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، المحفوظة منذ أربعة عشر قرنًا، والتى كانت وما زالت وستظل كافية للإجابة على أسئلة الأمس واليوم والغد. إن أولئك الذين سيذهبون للبحث عن إجابات على الأسئلة، فى أى مكان آخر عدا القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، هم كفرة سيصيبهم العقاب الذى حدده الله لهم فى شريعته.

إن عمل المتأسلمين (أو الأصوليين الدينيين) لا يقتصر على بعض المجموعات التى تفضل استعمال العنف لحل مشاكلها، فإن من بينهم كذلك من يؤسس جمعيات للعمل الخيرى، وقد ظهرت حسناته تلك فى مساعدة المحتاجين وإغاثة المنكوبين، بعد زلزال أكتوبر ١٩٩٢، ولكنهم كذلك استغلوا المناسبة ليذكروا للناس، أن هذا الزلزال هو نوع من العقاب الإلهى. وقد نجح الإخوان المسلمون فى أن يصبحوا مجموعة المعارضة الرئيسية فى مجلس الشعب، عدا أنهم موجودون بقوة فى كل النقابات المهنية، وقد يبدو أحيانًا أن الجيش هو الجهاز المصرى الوحيد الذى يخلو منهم.

إلا أن بعض أساليب الإسلاميين لتحييد معارضيهم تجعلنى أرتجف خوفًا، ففى سنة ١٩٩٥ تم تطليق الأستاذ الجامعى نصر حامد أبو زيد، من زوجته الأستاذة الجامعية بحكم قضائى بعد اتهامه بالهرطقة، وبحجة أن الزوجة المسلمة لا يمكن أن تبقى زوجة لرجل كافر. فضل الزوجان استئناف حياتهما فى المنفى الاختيارى بأوروبا، بعد أن تحولت القضية إلى فضيحة.

إن المتشدد الإسلامى غير مسموح له بأن يقول (ألو) فى التليفون، بل ينبغى عليه أن يقول (السلام عليكم)، ويرفض التحيات المعتادة مثل (صباح الخير)، ويفضل عليها (السلام عليكم)، وذلك حتى يرد عليه محدّثه المؤمن (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته) دون إطالة فى الرد. وهكذا أصبحت هذه التحيات التى كانت تقتصر فى الماضى على فئة محدودة من الشعب، هى العلامة التى يتعرف بها المؤمنون على غيرهم من المؤمنين، أو على غيرهم من الكافرين الذين يختلفون عنهم ولا يوافقونهم الرأى، فيعمد المؤمنون إلى إقصاء أولئك الكافرين. وبعد أن كانت الدولة قد تركت للأصوليين الحبل على الغارب، فى التلفزيون وفى التعليم وفى الحياة الثقافية بوجه عام، تحاول الدولة الآن أن تعيد سيطرتها على كل شىء، حتى المساجد التى تعين لها أئمة، تم إعدادهم لمقاومة التطرف الدينى.

لم يتمكن الأصوليون حتى الآن من الوصول إلى السلطة، وهم عاجزون حتى الآن عن اقتراح مشروع برنامج صالح للتطبيق فى كل المجالات، على جميع أفراد المجتمع المصرى، خاصة فيما يتعلق بنموذج للتنمية الاقتصادية قابل للتنفيذ، وهذه المشكلة الاقتصادية تبقى بلا شك إحدى نقاط الضعف الرئيسية للمشروع الأصولى.

انظر مقال: السادات رقم (١٢٤).

٧٠ - الإيطاليون / Italiens

منذ مدة طويلة قبل توحيد ماتزينى لإيطاليا [سنة ١٨٤٩]، عاش فى مصر تجار إيطاليون من جنوا والبندقية. لكن الهجرة المنظمة الكثيفة من إيطاليا إلى مصر لم تبدأ إلا فى سنة ١٨٢٩، حين تبدأ الإسكندرية بالتدريج فى استقبال اللاجئين السياسيين من حركة الكاربونارى الثورية، وكذلك بعض الفوضويين، ثم بدأ ظهور الأشخاص العاديين الباحثين عن عمل. سنة ١٨٨٢عندما قامت سلطات الاحتلال الإنجليزى، بعمل أول إحصاء للسكان فى الإسكندرية، كان عدد الإيطاليين حوالى ١٨ ألفًا، وسيصبح عددهم ثلاثة أضعاف هذا الرقم فى بداية الحرب العالمية الثانية.

مارس الإيطاليون فى مصر مهنا مختلفة، ولكنهم برعوا فى الطباعة، وفى صناعة الموبيليا من خشب الأبنوس ومن الرخام، وامتلكوا شركات صغيرة، وأنشأ بعض الآباء الرهبان من طائفة السالزيان، مدرسة الدون بوسكو الشهيرة، والتى ساهمت فى الإعداد المهنى للصناع المحليين. كذلك كان فى الجالية الإيطالية عدد كبير من الأطباء والمهندسين المعماريين والمحامين، وقد أقام نصف عدد الإيطاليين المصريين فى مدينة الإسكندرية، ويمكننا هنا أن نذكر اسم أحد أهم شعراء القرن العشرين من بين الإيطاليين المولودين فى الإسكندرية، وهو جوزيبى أونجاريتى (١٨٨٨/١٩٧٠).

أدّى حريق دار السجلات المدنية فى إحدى المدن الإيطالية (ليفورن)، إلى أن عدداً كبيراً من غير الإيطاليين، من بين الأجانب الموجودين فى مصر أوفى إيطاليا، إدّعوا أنهم إيطاليون، ليحصلوا بذلك على جوازات سفر إيطالية، رغم أن بعضهم لم يكن حتى يتحدّث اللغة الإيطالية، وهكذا فإن بعض الإيطاليين فى مصر لم يكونوا حقًا إيطاليين. ظهرت بعض الصحف باللغة الإيطالية مثل الميساجيرو إيتاليانو (الرسالة الإيطالية) سنة ١٨٧٨، والإمبارسيال (أى المحايد النزيه) سنة ١٨٩١، وكانا يؤيّدان مطالب الوطنيين المصريين، بضرورة حصول مصر على استقلالها.

فى ذلك الوقت كانت هناك أوجه شبه عديدة بين مصر وإيطاليا، منها مثلاً أن بهما نظامان ملكيان جديدان لم يستقرا بعد، فظهر نوع من التواطؤ بين مسئولى البلدين. وهكذا ذهب الملك فؤاد إلى إيطاليا لمتابعة دراسته فى الأكاديمية العسكرية بتورينو [شمال إيطاليا] عندما يعود إلى مصر باعتباره سلطانًا سنة ١٩١٧، سيحيط نفسه بمجموعة من المساعدين الإيطاليين، وهى السياسة التى سيستمر عليها ابنه فاروق من بعده. وهناك أثر معمارى ملفت للانتباه، يشهد على قوة العلاقة بين البلدين، وهو الأثر الذى كانت أهدته الجالية الإيطالية إلى بلدية الإسكندرية سنة ١٩٣٨ فى ذكرى

الخديوى إسماعيل، وهو نفسه الذى سيحوّله جمال عبد الناصر لاحقا، إلى النصب التذكارى للجندى المجهول ويقع على ساحل البحر، عند ميدان المنشية.

ثم جاءت الفاشية بأقدامها الغليظة، لتعكر صفو حياة الإيطاليين فى الإسكندرية، حيث كانوا يعيشون فى انسجام تام مع المصريين. ففى بداية الحرب العالمية الثانية، جاء بعض المسئولين لمحاولة تجنيد الشباب الإيطالى من مواطنى إيطاليا المغتربين. وقد نجح موسولينى فى هدم كل ما بناه الإيطاليون فى مصر. مثلاً أصدر موسولينى، على غرار ما فعله حليفه هتلر فى ألمانيا، وفى نفس التوقيت سنة ١٩٣٨، فى قمة هيجان القوميات الأوروبية فى إيطاليا وألمانيا، بعض القوانين العنصرية المعادية للسامية، وأراد تطبيقها على الجالية الإيطالية فى مصر، دون أن يعرف أن نصف إيطاليى مصر كانوا يهوداً.

بدت هذه القوانين العنصرية عبثية، وأدت إلى مناظر مقيتة بغيضة ساخرة، مثل ما حدث أثناء زيارة المارشال بادوليو، الذى جاء إلى الإسكندرية بحجة التفتيش على القوات المحليّة المتطوّعة فى الجيش الإيطالى، للعمل فى ميليشيات جيش الدوتشى (موسولينى)، وعندما يكتشف قنصل إيطاليا أن هذه القوات لا توجد إلا على الورق، يعالج الموقف بسرعة، مستعيناً بكومبارس يعملون فى أفلام سينمائية، كان أغلبهم من الشباب اليهودى الذى يعانى من البطالة.

تم تدريبهم بسرعة على الهتاف التقليدى (فيفا إيطاليا)، ثم ألبسوا القمصان السوداء الخاصة بالفرق الفاشية، ولإتقان العمل أصدر لهم القنصل جوازات سفر إيطالية. نجحت الخطة تماماً ولكن عندما أدرك الشباب الكومبارس، أنهم معرّضون فعلاً للترحيل إلى الحبشة للعمل ضمن جيوش الفاشية، من أجل صالح وطنهم الجديد إيطاليا، رفضوا السفر وسلموا القنصل جوازات السفر. فيما بعد سيتم اعتبارهم أبطالاً رفضوا الانصياع إلى أوامر الدوتشى.

كانت الحرب العالمية الثانية عذاباً متصلاً لهذه الجالية المنقسمة على نفسها، إذ قامت السلطات البريطانية بالقبض على كل الرجال الإيطاليين، من سن ١٨ إلى سن ٦٠، وحجزتهم فى معسكرات الجيش البريطانى، حتى نجحت بريطانيا فى إيقاف زحف جيش المحور بقيادة رومل، بعد خسارته لموقعة العلمين غرب الإسكندرية سنة ١٩٤٢ بنهاية الحرب سنة ١٩٤٥ سيجد إيطاليو مصر، أن من الصعب عليهم العودة إلى حياتهم العادية، التى كانوا يعيشونها قبل الحرب، لقد فقدوا جنتهم الموعودة. أغلب أفراد هذه الجالية تركوا مصر فى ذلك الوقت عائدين إلى إيطاليا، تاركين خلفهم ثرواتهم وانجازاتهم.

إلا أن الكثير من المبانى العامة والخاصة فى مصر حتى الآن، ما زالت تحمل توقيعات العديد من المهندسين المعماريين الموهوبين من الطليان، انظروا إلى مبنى متحف الفن الإسلامى فى القاهرة، ستجدون عليه توقيع المعمارى ألفونسو مانيسكالكو. انظروا إلى مسجد المرسى أبى العبّاس فى الإسكندرية، ستجدون عليه توقيع المعمارى ماريو روسى، الذى كان عندئذ كبير مهندسى مصلحة الأوقاف المصرية. وكذلك هناك توقيعات مختلفة للمعماريين فيتوريو دل بورجو/ وجوزيبى ماتزا/ وإرنستو فيروتشى ، و....إنهم فقط مجرّد بعض الأمثلة.

أما اللغة الإيطالية، فقد تركت أثرها واضحًا على العامية المصرية فى عشرات الكلمات، ولن أذكر هنا إلا بعض الأمثلة، لوكانده (فندق) وجونلا (ملابس نسائية) وروبابيكيا (أشياء قديمة للبيع)، وهذه الكلمة الأخيرة هى أيضًا عنوان إحدى القصص القصيرة، فى مجموعة قصص قصيرة لنجيب محفوظ، صدرت سنة ١٩٧١ .

انظر مقال داليدا رقم (٣١).

٧١ - اليسوعيون / Jésuites

كنت محظوظًا عندما تابعت دراستى الثانوية فى مدرسة العائلة المقدّسة بالفجالة، لأنها كانت أفضل مدرسة للبنين بالقاهرة فى ذلك الوقت، وكان الدخول إليها صعبًا. لم يكن النظام القاسى السائد بها يمنع من انفتاحها على العالم، وتحت إدارة اليسوعيين (الجيزويت) الذين تخلوا تمامًا عن جهودهم التبشيرية ودعواهم الدينية، كان التلميذ المسلم يجلس إلى جوار التلميذ المسيحى، يتعلمان معًا كيف يتعرف كل منهما على الآخر، وكيف يحترم كل منهما ديانة الآخر.

لقد استعملت الزمن الماضى (كان)، رغم أن المدرسة لا تزال موجودة فى نفس مبانيها القديمة، وفى نفس مكانها بحى الفجالة، ليس بعيدًا عن ميدان باب الحديد، حيث محطة القطارات الرئيسية بالقاهرة. إن مبانيها الرمادية اللون، وممراتها الواسعة، وكنيستها، وأفنيتها المخصصة لفسحة التلاميذ، ما زالت كلها معتنى بها وفى حالة جيدة. إنه من النادر أثناء رحلاتى إلى مصر ألا أتوقف بها لأزورها، لتحية بعض الأصدقاء، ولنبدأ بالأب المدير نبيل غبريال، الذى يمر طول الوقت داخل المدرسة ويلاحظ كل شىء، ويعمل كذلك فى المكتبة الثمينة، التى كان قد أسسها كتابا كتابا منذ عشرات السنين، الأب موريس مارتن، المعروف من كل باحثى الماجستير والدكتوراه.

ما زال الكل يبذل أقصى ما فى وسعه، لإدخال أبنائه فى مدرسة العائلة المقدّسة، حتى لو أن مستوى التدريس بها قد انخفض، مثلما انخفض كل شىء آخر فى كل مكان. بالإضافة إلى منافسة العديد من المدارس التى تقدّم نفس النوع من التعليم، مثل ليسيه القنصلية الفرنسية بالمعادى، وبعض المؤسسات الأخرى التابعة لإنجلترا وألمانيا. فى مدرسة العائلة المقدّسة تدرّس العلوم المختلفة باللغة الفرنسية، وإن كان هذا لا يمنع

من الاهتمام بتدريس اللغة العربية بشكل مثالى. بالإضافة إلى إمكانية دراسة مبادئ اللغتين اليونانية واللاتينية.

كان اليسوعيون قد جاءوا إلى مصر على مرحلتين، فى القرنين السادس عشر والثامن عشر، وذلك ليعيدوا - حسب قولهم وقتها - الأقباط المنشقين عن الكنيسة الكاثوليكية إلى الطريق القويم. يعودون إلى مصر مرة ثالثة سنة ١٨٧٩ ليستقروا فيها، بهدف إنشاء كنيسة قبطية كاثوليكية مرتبطة بروما. افتتحوا أولاً مدرسة دينية مجانية صغيرة فى القاهرة، ثم بعدها مباشرة افتتحوا مدرسة مدنية بمصاريف لتمويل المدرسة الدينية. هذه المدرسة المدنية التى لم يكونوا يخططون لها فى البداية، هى التى صنعت السمعة الطيبة فى مصر للآباء اليسوعيين. كانت المدرسة قد بنيت فى واحد من أفضل أحياء القاهرة فى ذلك الوقت، حىّ الفجالة.

اصطدم مشروع اليسوعيين التعليمى، بمعارضة طائفتى الفرنسيسكان والفرير (الإخوة)، وهما طائفتان دينيتان أخريان، كانتا قد سبقتا اليسوعيين إلى الإقامة والاستقرار فى القاهرة، وقدّرا أن منافسة اليسوعيين ستكون فى غير صالحهما، مما أدّى إلى تدخل الفاتيكان بين الجمعيات المتنازعة، لإعادة توزيع المهام وإحلال السلام. إن هذه المنافسة التى وقعت بين تلك المؤسسات الكاثوليكية، كانت أقل خطراً بكثير من الحرب التى أعلنها الكاثوليك على الإرساليات البروتستانتية فى مصر الوسطى. كان الصراع والتنازع بين اليسوعيين الفرنسيين، والبروتستانت الإنجليز والأمريكيين، حول موضوع انتزاع واجتذاب أكبر عدد من الأقباط، الذين لم يكونوا يعرفون إلى أية جهة يصح الانتماء. وقد خبت تلك الصراعات مع الحرب العالمية الثانية، ثم اختفت بعدها بالتدريج.

سنة ١٩٢٩ وبمناسبة الاحتفال بالعيد الخمسينى لتأسيس المدرسة، وتحت إشراف جمعية أصدقاء المدرسة من قدامى تلاميذها، كان على رأس المحتفلين سعيد ذو الفقار باشا، كبير ياوران الملك فؤاد، الذى قال أثناء خطبته الاحتفالية (إن تجمّعنا

هنا أيها السادة يعتبر واحداً من أفضل التجمّعات المصرية)، وكان من بين قدامى التلاميذ ذلك اليوم، عدد من وزراء حكومة مصر، ونواب البرلمان المصرى، وكبار موظفى الدولة، ومحامين من ذوى الشهرة.

إبّان أزمة حرب السويس سنة ١٩٥٦ تنجو مدرسة العائلة المقدسة من التأميم والتمصير، بنقل تبعية المدرسة من الحكومة الفرنسية إلى حكومة الفاتيكان، وهو ما حدث كذلك لعدد آخر من المؤسسات الدينية الكاثوليكية. هذا لم يمنع التدخل المتزايد من طرف وزارة التربية والتعليم المصرية، وبالتالى فقد غادر اليسوعيون الفرنسيون البلاد، وتركوا أماكنهم فى إدارة المدرسة إلى مجموعة من اليسوعيين المصريين. إلا أن استمرار تدهور العلاقات بين القاهرة وباريس، أدى إلى حادث مؤسف فى يناير سنة ١٩٥٩ هو مصادرة المبانى التابعة للمدرسة لصالح الحكومة المصرية.

وبفضل وجود العديد من أبناء كبار رجال الدولة بين تلاميذ المدرسة، مثل ابن نائب رئيس الجمهورية، وأبناء وزيرى الشؤون الاجتماعية والثقافة، حدث انقسام فى موقف الحكومة، فرفعت الأقفال من على أبواب المدرسة، بعد فترة إغلاق دامت بضعة أسابيع، واستعادت المدرسة نشاطها المعتاد. بعد بضعة سنوات، تتزوج ابنة عبد الناصر الكبرى من أحد خريجى المدرسة، ويرسلان ابنهما إلى نفس المدرسة.

انظر مقال: الفرانكوفونية رقم (٥٦).

٧٢ - يوميات نائب في الأرياف/ Journal d'un substitut de campagne

يبدو القاضى عند وصوله بالقطار من القاهرة، كما لو كان راغبًا فى العودة بنفس القطار فى نفس اللحظة إلى القاهرة، لكنه يخرج من القطار ويضع يده فى جيبه، ليخرج منه بعض النقود المعدنية، ويعطيها لحاجب المحكمة الذى كان فى انتظاره على

رصيف القطار، طالبًا منه أن يشترى له كالمعتاد، لحمًا من لحوم الأرياف الجيدة، وكذلك البيض والزبد والجبن. (ضع كل شيء فى السلال جيداً، واحضرها لى إلى المحطة حيث تنتظرنى كالمعتاد، قبل أن آخذ قطار الساعة الحادية عشرة صباحًا).

دخل القاضى إلى قاعة المحكمة بخطوة سريعة، ملقيًا بمعطف السفريات على الكرسى، وهو المعطف الذى يحمى به ملابسه من تراب الأرياف، واضعا بسرعة شريط الوسام الأحمر حول كتفه، ثم ابتلع واقفًا فنجان القهوة الذى قدّموه إليه، ثمْ هجم على قاعة الجلسات. انتهى القاضى من قضايا المخالفات فى طرفة عين، وانتقل فوراً إلى قضايا الجنح، بما فيها من متهمين وشهود من كل صنف ولون، كانوا يمرون أمامه فى شريط متصل، لتسقط عليهم الأحكام والإدانات متتابعة، مثل طلقات مدفع أوتوماتيكى. (شهر حبس اسحبه يا عسكرى، اللى بعده). فجأة ينظر القاضى فى ساعته وينتفض واقفًا، ثم يغادر القاعة فلم يعد متبقيًا إلا سبع دقائق، على قطار العودة إلى القاهرة.

تمتلىء روايات توفيق الحكيم بمناظر من هذا القبيل، وكلها روايات مثيرة للاهتمام الواحدة مثل الأخرى، بما فيها من قصص شخصية جداً عاشها بنفسه، وحكى لنا بروح إنسان تصعلك وتشرّد الجانب المضحك فى الإدارة المصرية، ثم إنه فى نفس الوقت يفضح بطريقة متقنة جداً، عجرفة وخيلاء موظفى الحكومة، وحجم الظلم الواقع على الفقراء. إن عمله الروائى الذى ظهر سنة ١٩٤٠ فى مصر تحت عنوان (يوميات نائب فى الأرياف)، ترجم فى فرنسا فى سلسلة (أرض البشر) لدار نشر (بلون)، واعتبر فور ظهوره، أحد الأعمال المهمة فى تاريخ الأدب العربى.

البيروقراطية [سلطة المكتبيين] المخيفة، وظلم وطغيان وإهانة طول الوقت، من طرف الرؤساء تجاه مرؤوسيهم. فالوزير يرعب مدير المديرية [المحافظ حاليًا]، والمدير يرهب المأمور، والمأمور يضطهد العمدة، والعمدة يعامل الفلاح التعيس كما لو كان

بهيمة من البهائم. كل الظلم يقع على الفلاح، الذى لا يجد من ينصفه من القضاة الظالمين، الذين يبدو لنا كما لو أن هدفهم الوحيد، هو فقط التخلص فى أسرع وقت ممكن من نتائج التحقيقات. ولا تهتم إحصائيات المكاتب إلا بعدد القضايا التى تمكن القاضى من الانتهاء منها فى أقصر وقت، وهى الدليل الوحيد على نشاط القاضى وهمته. وهو نفس المبدأ، أى مبدأ الكم لا الكيف، الذى يجعلنا المؤلف نعتقد أنه المبدأ الوحيد المطبّق فى مجالات أخرى، مثل الأمن العام أو تسيير عجلة الإدارة.

إن توفيق الحكيم (١٩٠٢/١٩٨٧) يحوّل تجارب حياته إلى أعمال روائية، مثل (يوميات نائب فى الأرياف) التى يروى لنا فيها تجاربه الشخصية، كنائب قضائى فى أرياف الدلتا، بعد أن كان قد حصل على شهادة مدرسة الحقوق المصرية، وسافر إلى فرنسا لقضاء أربعة أعوام فى باريس، تمكن خلالها حبه للمسرح من السيطرة التامة على حياته. يمكننا أن نرى هذا فى تحوّل بعض مشاهد رواياته إلى مناظر مسرحية كوميدية من النوع الفارس.

انظروا مثلاً إلى هذا النص [من كتاب عدالة وفن/الفصل المعنون مصيفون فى السلاسل] الذى استوحاه المؤلف من الفترة، التى تم تكليفه خلالها بالعمل طوال شهر يوليو فى مدينة فارسكور التى كانت فى ذلك الوقت من الثلاثينيات مجرّد قرية صغيرة ضائعة، فيقرر سيادة النائب (المؤلف)، أن يستقر فى مدينة رأس البر الساحلية، التى تقع على بعد بضعة عشرات الكيلومترات من فارسكور.

(انتهى بى الأمر إلى أن صرت لا أذهب إلى فارسكور إلا يوم الجلسة فقط، أى مرة واحدة كل أسبوع... وقد فرح بذلك موظفو النيابة والمحكمة، فقد كثر ترددهم على رأس البر بحجة عرض وارد القضايا على حضرتى، ولم تبق عقبة فى سبيل متعتى بالصيف وإقامتى الكاملة فى المصيف، إلا قضايا التلبّس والمحابيس، أى القضايا التى لابد لى فيها من استجواب المقبوض عليهم من المتهمين، وانتهى بى الأمر إلى أن صرت أستدعى هؤلاء إلى رأس البر لاستجوابهم، فيأتون من السجن فرحين مع حراسهم

يستنشقون هواء البحر. سرت الإشاعة بين المسجونين والعسكر ورجال الضبط، وكثر حديثهم عن سعادة وكيل النيابة، الذى يحضر المحابيس إلى المصيف، فتنافسوا وتزاحموا وكثرت طلبات الاستجواب.

أصبحت أستيقظ كل صباح على صف طويل من مجرمين فى الحبال، يجرّهم طابور من العساكر، فما أكاد أخرج من العشة، أى الحجرة، بالفوطة والمايوه وبرنس الحمام، حتى أتلقى تعظيم سلام من الجنود والمتهمين، وهم فى نشاط من هواء البحر، وبشر متهلل يطفح من وجوههم، فأقول للعسكر: إيه كل دول حافظوا عليهم ليهربوا منكم. فيصيح بى صوت من بين المتهمين المقيدين فى حبال الليف: نهرب ليه؟ ربنا يخليك يا سعادة البيه، حد يهرب من الجنة! فأقول لهم وكأنى أخاطب نفسى: صدقتم... اتمتعوا بالهوا المنعش اتمتعوا. وإذا بى أسمع صوت أحدهم يقول: جعنا يا سعادة البيه الهوا جوّعنا...

فأقول: ما شاء الله انتوا جايين تغيروا هوا؟ ولكنى أعترف أن منظرهم أثر فى نفسى، ومنظر سعادتهم ملأنى عطفًا عليهم، ونسيت أنهم مجرمون ومتهمون، ولم أر فيهم إلا تعساء مثلى، حرموا طويلاً نسيم الراحة، وفرحوا أخيرًا كالأطفال بهواء البحر... دفعت إلى الحراس بعشرة قروش وقلت: خدوا اشتروا عيش وحلاوة طحينية، لحضرات المجرمين المصيفين.

وكانت نتيجة هذه العاطفة الإنسانية من جانب سعادة النائب، زيادة مروّعة فى إحصائيات الجنح والجرائم، فى تلك الفترة من انتدابى، فقد نزل أهالى المركز بعضهم فى بعض ضربًا ولطما وقذفًا، رغبة فى الحبس، وطمعًا فى التصييف على نفقة الحكومة، ولأول مرة أرى قرارات إفراجى عن المتهمين، تقابل بالاحتجاج الشديد، والطعن فى نزاهة النيابة العمومية، فلا أكاد أقول للحراس: افرجوا عن هذا المتهم. حتى يصيح المتهم وهو يملأ رئتيه من هواء رأس البر: ده ظلم يا بيه! أنا لسه مقبوض علىّ النهاردة!)

فى سنة ١٩٧٨ عندما كتب توفيق الحكيم مقدمة جديدة، لنفس هذا الكتاب عند إعادة طبعه فى فرنسا، أقرّ بطريقة مؤلمة، أنه رغم مرور ٢٥ عامًا على قيام الثورة المصرية فى يوليو ١٩٥٢، وسقوط النظام الملكى، إلا أن شيئًا لم يتغير فى أعماق الريف المصرى. ثم لخص فى جمل قصيرة موقفه من المسألة قائلاً (إن النائب الذى هو المؤلف نفسه، عندما أدرك أنه كان عاجزًا عن معالجة العيوب والمساوىء المحيطة به، اكتفى راضيًا بأن يعيش تجاربه تلك كفنان).

٧٣ - يهود مصر / Juifs

أشعر بالحسرة لأنى لم أتعرف على جاك حسونة فى وقت مبكر، هو محلل نفسى محترم، وفى نفس الوقت مؤرخ للجالية اليهودية فى مصر، ومنشد فى معابدها بفرنسا. كان رجلاً دافىء المشاعر، يحاول دائمًا أن يتخطى كل الحدود. وحتى أسابيع قليلة قبل وفاته، ورغم المرض الذى منعه من الحركة، إلا فى شقته وباستعمال كرسى متحرّك، كان لا يزال يحكى لنا قصصًا مضحكة، من أعماق الريف المصرى حيث ولد، وفى لحظة تالية كان يصمت فجأة فى منتصف جملة، لا يعرف كيف يتمّها، ثم يعتذر عن هذا العطب الذى أصاب ذاكرته وأتلف مخه.

أقيمت مراسم احتفالية مثيرة للأشجان، فى ذكرى وفاته يوم ٨ مارس سنة ٢٠٠٠، فى المركز الثقافى المصرى بشارع سان ميشيل فى باريس. كنا عددًا من البشر، نتحدّث عنه أمام قاعة محتشدة بالجمهور، بمبادرة من الكاتب والصحفى المصرى أحمد يوسف، ولضيق المكان ظل عدد من الناس على الرصيف لا يستطيعون الدخول. كان وجود على ماهر السيد، سفير مصر فى فرنسا فى الصف الأول فى القاعة يؤكد على ما كان جاك حسونة يكرره طول حياته، ويذكره بإلحاح فى كتاباته، وهو أن هناك يهودا انتموا إلى مصر منذ بداية التاريخ.

نحن لا نعرف عن نبى الله موسى، إلا ما ذكر عنه فى الكتب المقدسة، وبالتالى فنحن نعرف أن أكبر أنبياء الديانة اليهودية وُلِدَ فى مصر، وعندما أمر الفرعون بقتل أطفال اليهود الذكور، حاولت أمه إنقاذه بوضعه فى سلة مصنوعة من الأسل (نبات عشبى) ووضعت السلة فى النيل، لتطفو فوق مياهه وتسير مع تياره، حتى وجدته ابنة الفرعون، ثم تبنته وربته ليصير أميراً من بين أمراء البيت الملكى. وفى سن النضج تتعرض حياة موسى لهزة قوية، عندما يقتل رجلاً مصرياً كان يعتدى بالضرب على رجل يهودى، هكذا وجد موسى نفسه مضطراً للهروب من مصر، واللجوء إلى صحراء سيناء، حيث تزوج وأصبح راعياً لقطيع ماشية والد زوجته.

حتى حدث ذات يوم أن ظهر له الرب فى شكل نار فى وسط شجرة عليقة، وتحدث إليه آمرا إياه بالعودة إلى أرض مصر، لتخليص مواطنيه من العبودية. ينفذ موسى أوامر الرب، الذى يصيب شعب مصر بعشر ضربات، فى حين كان بنو إسرائيل يتخذون طريق (الخروج) من أرض مصر. تنفتح مياه البحر الأحمر أمامهم لتتركهم يعبرون، ثم ينغلق الطريق أمام جنود فرعون، الذين كانوا يطاردون اليهود، فيموت الجنود غرقاً. عندما يصل النبى موسى إلى جبل سيناء، يتلقى من الرب الشريعة الموسوية، ثم يقود شعبه عبر المزيد من المغامرات والمخاطر، للوصول فى النهاية إلى أرض الميعاد.

ومع كل ذلك، فليست هناك وثيقة مصرية واحدة، تشير أقل إشارة إلى قصة النبى موسى وخروج شعب إسرائيل، وهو ما قد يسمح لنا بتصور وجود احتمالات مختلفة. يراد لقصة الخروج أن تتزامن تاريخياً مع عصر رمسيس الثانى أو عصر ابنه مرنبتاح من الأسرة التاسعة عشرة فى الدولة الحديثة (القرن الثالث عشر قبل الميلاد). الاعتراض على ذلك هو أن أول ذكر لوجود الشعب اليهودى داخل مصر، كان فى القرن السادس قبل الميلاد، حين أقاموا واحدة من مستعمراتهم، على جزء من جزيرة إلفانتين فى نيل أسوان.

عند إعمار الإسكندرية فى القرن الثالث ق. م، وجد عدد كبير من المهاجرين اليهود مكانًا لهم فيها، حيث عاشوا فى انسجام مع المجتمع البطلمى، وحيث مارسوا مهنًا مختلفة منها بعض المهن اليدوية الحرفية، وكعمال زراعيين، وكجنود فى الجيش. والدليل الأكيد على تأقلمهم مع مجتمعهم الجديد، هو أن صلواتهم كانت فى ذلك الوقت فى الإسكندرية، تتلى باللغة اليونانية، لا باللغة العبرية.

لكن العصر الرومانى كان أقل ملاءمة لهم وكرمًا معهم؛ ذلك حيث إن مبدأ المواطنة الرومانية، لم يكن يسمح بنفس الحقوق لمن هم ليسوا رومانيين، وبالتالى فقد اليهود الكثير من حقوقهم، مما جعلهم يلجأون إلى العنف للدفاع عن أنفسهم، أحيانًا حتى باستعمال السلاح. اختفت الجالية اليهودية تقريبًا تمامًا من الإسكندرية الرومانية (بين القرنين الأول والثالث الميلاديين)، ولم تظهر بعد ذلك إلا فى العصر البيزنطى (بين القرنين الرابع والسابع الميلاديين) حين بدأ اليهود يتعرّضون للاضطهاد على يد المسيحيين البيزنطيين.

أما بعد الفتح العربى لمصر، فقد كانت مصائر اليهود مختلفة بين فترة وأخرى، وقد أمكننا مؤخرًا العثور على كنز من الوثائق، بفضل اكتشاف خزانة (جنيزة) المعبد اليهودى بالقاهرة، حيث كان قد تم وضع عدد يقدّر بحوالى ٢٥٠ ألف ورقة مختلفة، بين نصوص دينية، وعقود زواج، وإيصالات إيجارات مساكن أو أراضٍ، بالإضافة إلى رسائل عامة وشخصية، تعود كلها إلى الفترة بين القرنين العاشر والثالث عشر الميلاديين، أمكننا من خلالها التعرّف على تفاصيل دقيقة لحياتهم.

نستطيع أن نعرف مثلاً أنهم فى العصر الفاطمى، كانوا من طبقة الأغنياء المحترمين، حين كان إجمالى يهود مصر يقدّر عددهم بحوالى ١٥ ألفًا. استفاد يهود ذلك العصر سنة ١١٦٥، بوصول شخصية يهودية استثنائية إلى القاهرة، قادمة من

الأندلس، هو نسيم بن ميمون، الذى كان قد ولد فى قرطبة، والذى أصبح فى نفس الوقت طبيبًا وفيلسوفًا ولاهوتيًا، وسيكتب لاحقًا فى مصر كتابه المهم (مرشد الضالين).

يأتى لاجئون آخرون من إسبانيا، لتزيد الجالية اليهودية فى مصر ثراء، بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، خلال العصر العثمانى. وقد استقبلت مصر فى نفس ذلك الوقت مهاجرين آخرين قادمين من أقاليم أخرى، تقع داخل حدود الإمبراطورية العثمانية، مثل تركيا والبلقان وفلسطين. وقد حصل اليهود فى بعض الأوقات على وظائف مهمة فى السلك الإدارى، داخل قطاعات الجمارك والضرائب.

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ظهرت فى مصر شخصية يهودية مدهشة، تبين كيف أن اليهود كانوا مندمجين تمامًا فى الحياة على الطريقة المصرية، هو يعقوب صنّوع الذى أنشأ أول جريدة عربية يومية ساخرة سنة ١٨٧٧، اسمها (أبو نضارة زرقا). وحيث إنه كان شخصًا يحب إثارة الجدل، فقد وجّه فى جريدته هجومًا ونقدًا عنيفًا للخديوى إسماعيل، حتى إنه فيما بعد ونتيجة لذلك، اضطر إلى قبول المنفى الاختيارى فى باريس، حيث استأنف طبع جريدته العنيفة الملتهبة. يتعاون بعد ذلك مع المصلح الشهير، الشيخ محمد عبده، فى طبع ونشر جريدة سرية ذات نفوذ واسع.

تستقبل الجالية اليهودية فى مصر مهاجرين من بلاد المغرب العربى، وكذلك من إقليم الألزاس [شرق فرنسا]، ثم يأتى بعد ذلك روسيون وألمانيون ونمساويون، وذلك عندما كانت الجالية فى عصرها الذهبى فى مصر، أى فى الفترة ما بين الحربين العالميتين، وكان أعضاؤها البالغ عددهم ٧٥ ألفًا، يلعبون أدوارًا مهمة فى مجالات

مـخـتلفـة. كـانوا مـثـلاً يملكون عـدداً من أهم المحـلات التـجـارية الكبـرى (شـيكوريل/شـمـلا/بنزايون/هانو/جـاتينيـو) وكـان من بينهم رجـال صناعـة (رولو/سـوارس)، ورجـال بـنوك (كـورييل/مـوصـيـرى)، وأصـحـاب ملكيـات زراعيـة كبيرة (سموحة/زاكس/توربيل) ناهيك عـن صـحفيين ومحامـين مـن الطراز الأول.

كان من بين أفراد الطائفة، يوسف باشا قطاوى، الذى شغل أولا منصب وزير المواصلات، ثم منصب وزير المالية، وكانت زوجته هى كبيرة وصيفات القصر الملكى. فى حين كان الحبر الأعظم للطائفة، حاييم ناحوم أفندى، عضواً بمجلس الشيوخ، وعضواً بمجمع اللغة العربية. كان للجالية دائمًا من يمثلها فى البرلمان، فى صورة نائبين أو ثلاثة نواب منتخبين، وقد تميّزت الجالية بتنوع ضخم فى أعضائها، من الناحيتين الاجتماعية واللغوية.

فإذا كان يهود الطبقة الوسطى البورجوازية، قد اتجهوا [مثلما فعل مصريو الطبقة الوسطى] عاطفيًا وثقافيًا إلى الغرب، وكان من بينهم أعمدة للفرنكوفونية فى مصر، فإن يهود الطبقة الدنيا من المجتمع اليهودى العمّالى، سكنوا حارات مثل حارة اليهود، الواقعة بالقرب من الجامع الأزهر فى القاهرة، وعاشوا بمساعدة المعونات الخيرية، ولم يعرفوا إلا اللغة العربية. كان ثلث عدد أفراد الطائفة اليهودية فى مصر، من الأجانب الذين يحملون جوازات سفر أوروبية، وثلث آخر من المولودين فى مصر، والحاصلين على الجنسية المصرية، أما الثلث الأخير فكان من المشردين عديمى الجنسية، الذين لم يتمكنوا فى ذلك الوقت من الحصول على الجنسية المصرية، مع أنها كانت تحق لهم.

كان إنشاء دولة إسرائيل وبالا على اليهود المصريين، بما كان لهذا من تبعات سلبية مخيفة عليهم. فبعد حرب ١٩٤٨ تم القبض على كل من افترض فيهم التعاطف

مع الصهيونية، وصودرت أملاكهم. حدثت على الفور موجة هجرة أو طرد، فيغادر شخص مثل هنرى كورييل مصر مطروداً، وهو أحد مؤسسى الحركات الشيوعية الأولى فى مصر. ثم جاءت حرب السويس سنة ١٩٥٦، فطرد عددٌ آخر من اليهود الذين كانوا يحملون جوازات سفر أوروبية، بعد مصادرة أملاكهم، ويقدر عددهم بحوالى ثمانية آلاف. وسيتبعهم يهود كثيرون إلى المنفى.

وكانت حرب ١٩٦٧ هى الضربة القاضية الموجهة إلى البقية الباقية من يهود مصر. قبض على كل رجال الطائفة الباقين فى مصر، وتعرضوا للعنف والإهانة، خلال أسابيع طويلة ثم أجبروا على مغادرة مصر بصفة نهائية. حالياً لم يعد باقياً فى مصر إلا بعض الشيوخ، وكان من بينهم شحاتة هارون الذى ظل فى القاهرة حتى مات فى الثانية والثمانين فى مارس ٢٠٠١ وهو أحد الاستثناءات القليلة. كان شحاتة ماركسياً منذ البداية، ويهودياً مناهضاً للصهيونية، وقد قبض عليه عدة مرات بسبب الشيوعية.

شجّع توقيع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل سنة ١٩٧٨ بعض اليهود على العودة إلى مصر، ولكن فقط باعتبارهم سياح عابرين، إذ إنهم يدركون أن الرأى العام ضدهم ومع الفلسطينيين، ففى كل مرة تتوتر الأوضاع فى الضفة الغربية أو فى غزة، تلتهب المشاعر المصرية، وتعود إسرائيل لتصبح العدو الأوحد. اليوم لا يزال فى مصر بعض المعابد اليهودية، ولكن بدون يهود، فطائفة الإسكندرية التى كانت يوماً ما ذات حضور قوى، أصبحت اليوم تجد صعوبة، فى جمع عشرة ذكور فوق سن الثالثة عشرة، حتى يمكن حسب الشريعة، إقامة الطقوس. كان الخروج الثانى لشعب إسرائيل موفقاً جداً.

انظر مقال : الإيطاليون رقم (٧٠).

٧٤ – معبد الكرنك / Karnak

شىء محيّر جداً للعقول والأبصار. أكبر تجمّع للآثار فى مصر. يشغل حيزًا يصل إلى حوالى ١٠٠ هكتارًا (حوالى ٢٥٠ فدانًا). يزدحم بالمعابد المختلفة الأحجام والأشكال وبالمقاصير والصروح، وبقواعد ارتكاز السفن المقدسة قبل الإبحار. هذا هو الكرنك. فمنذ حوالى أربعين قرنًا من الزمان، بدأ سيزوستريس الأول (سن أو سرت) من الأسرة ١٢ الدولة الوسطى فى بنائه، وخصصه لعبادة الإله آمون رع. ثم جاء كل الملوك الفراعنة اللاحقين يريدون أن يضيفوا إليه أحجارهم، فتركوا لنا كل هذه المبانى، والتى أضيفت إليها العلامات التى تركها الزمن، ليصنع كل ذلك من الكرنك متحفًا لا نظير له، متحفا مفتوحاً أمام الجميع فى الهواء الطلق.

مثل كل الزوّار الآخرين، حملتنى قدمى إلى بهو الأعمدة الكبير، حيث شعرت بالانسحاق أمام هذه الأعمدة العملاقة، شعرت كأنى نملة صغيرة وسط غابة من أشجار البلوط، إنى أجرؤ بالكاد على كتابة كلمة (غابة)، فطالما استعملت هذه الكلمة حتى ابتذلت، فنحن نجدها فى كل كتابات زوار هذه القاعة (البهو)، وبكل لغات الأرض، ومنذ أجيال طويلة، ولكن كيف يمكننا وصف هذا المكان بشكل أفضل؟ وهو المكان الذى يتخطى كل مقاييس الجمال.

قاعة الأعمدة الكبرى، هى معبد ملايين السنين، هكذا توصف، والمقصود أنها مكان للعبادة الاحتفالية. كانت هذه القاعة بشكل ما، هى ممر الدخول إلى معبد آمون الكبير. هناك نص يصف هذه القاعة بأنها (القصر المقدس الكبير لرمسيس مصدر فرح آمون). رغم أن الملك سيتى الأول هو الذى بدأ فى بنائها حوالى ١٣٠٠ ق. م.، إلا أن ابنه رمسيس الثانى هو الذى أتم البناء وادعاها لنفسه، بوضع خراطيشه الملكية فوق تلك التى كانت تحمل اسم والده. إن مقاييس القاعة فعلاً فرعونية ١٠٣ متر طولاً، و٥٤ متر عرضاً.

حسب المصطلح اليونانى القديم الذى يصف هذه القاعة، وهى كلمة هيبوستيل، فإن أحجار السقف تقوم على صفوف من الأعمدة. وقد سقطت أحجار السقف منذ القدم، ولم يعد هناك أثر لها، وهكذا فقدت القاعة توازنها بفقد أحد عناصرها المهمة، السقف. إن الأعمدة البالغ عددها ١٣٤ عموداً، لم تكن قادرة على أن تحافظ على وضعها واقفة، إلا بفضل كتل السقف الحجرية التى تحافظ على توازنها، وذلك لأنه لم تكن لهذه الأعمدة أساسات قوية عميقة. إذا أردتم تشبيهًا من العصر الحديث، فإن بناء هذه القاعة يشبه الموائد المعاصرة، التى تتكون من قوائم رأسية (أرجل المائدة)، التى يتم تثبيتها فى سطح المائدة، تمامًا كما تم تثبيت الأعمدة الرأسية، فى سقف القاعة.

كان سطح قاعة الأعمدة يتكون من مستويين، المستوى الأوسط المرتفع إلى ٢٢ مترًا، والمستويين الجانبيين الأقل ارتفاعًا إلى ١٥ مترًا. تقاس هذه الارتفاعات من مستوى أرضية القاعة. يرتكز سطح (أو سقف) المستوى الأوسط المرتفع، على صفين من الأعمدة، ستة أعمدة إلى يمين الممر الأوسط وستة أعمدة إلى يساره، هذا الصفان يحصران فيما بينهما الممر الأوسط، الذى يخترق القاعة فى خط مستقيم، من باب الصرح الثانى إلى باب الصرح الثالث، هذه الأعمدة لها تيجان على شكل زهرات بردى متفتحة. [لأنها معرّضة للشمس والهواء طول الوقت مما يساعد على تفتحها].

أما المستويان المنخفضان الجانبيان، اللذان يقعان على جانبى الممر الأوسط، فيتكوّن كل منهما من ٦١ عموداً، أى بإجمالى ١٢٢ عموداً، ولكل هذه الأعمدة تيجان على شكل براعم أزهار البردى التى لم تتفتح بعد، [لأنها محصورة فى منطقة لا تحصل فيها على القدر الكافى من الشمس والهواء اللازمين للتفتح]. لم يعد باقيا على بدن هذه الأعمدة وعلى تيجانها، إلا بعض الألوان الباهتة، إلا أننا نعرف أنه فى الزمن القديم، وحتى أوائل القرن التاسع عشر، كانت ألوان هذه القاعة جذابة جداً ومتنوعة، منها الأحمر والأخضر والأصفر، وهى تعبّر عن نباتات الوادى والدلتا من بردى ولوتس.

أما كتل أحجار السقف، فكانت فى زرقة مياه البحر العميقة، بنجمات ذهبية، وطيور كواسر مشرّعة الأجنحة، للطيران وللحماية.

هذا السقف الذى سقطت أغلب أحجاره، حلت محله سماء مصر الزرقاء، الصافية الخالية من أى سحب، وهكذا يعم الضياء فى جوانب القاعة، فتفقد بعض غموضها وسحرها القديم. إن أشعة الشمس التى تسقط فى شكل حزم ضوئية، بين فتحات السقف وبين أعمدة القاعة، تجعلنا نشعر وكأننا نشارك فى لعبة تلعبها الشمس مع الأعمدة، لعبة الأضواء والظلال.

لا يستطيع زائر هذه القاعة أن يرى كل أطرافها فى نفس الوقت، فكل عمود من هذه الأعمدة، يخفى خلفه عموداً آخر، أو كل شجرة فى هذه الغابة تخفى خلفها شجرة أخرى. خلال السنوات ١٨٥٠/١٨٦٠ جاء إلى مصر المصوّر الفوتوغرافى الإنجليزى فرنسيس فيرث، الذى نجح فى ملاحظة والتقاط ملامح وجه مصر فى صوره الفوتوغرافية، إلا أنه أمام هذه القاعة كان قد أعلن عن عجزه. قال (لست فخوراً جداً بالصور التى التقطتها لها، إذ إنها لا تعبّر إطلاقًا عن حقيقة موضوع الصورة، أى عن حقيقة هذه القاعة، وذلك لأن هذه الأعمدة ضخمة جداً ومتقاربة جداً بعضها إلى بعض بطريقة غريبة، مما يجعل تصوير الأجزاء الداخلية لهذه القاعة أمرًا مستحيلاً) ثم أضاف (كان قد تولّد لدىّ إحساس بالقوة والرهبة يخترق روحى عندما وقفت فى المنتصف).

أراد المؤسس سيتى الأول، أن تخلد هذه القاعة اسمه إلى الأبد، بأن تظل خالدة حتى نهاية الدهر، لهذا كان قد استعمل أحجارا رملية من مصر العليا، على قدر كبير من الصلابة. هناك نص على أحد جدرانها يقول فيه الرب آمون للبنّاء سيتى الأول (أعدك أن تظل قاعتك هذه، مستقرة فى مكانها راسخة القواعد والبنيان، مثل السماء الراسخة على أعمدتها، وأن تكون مدة حكمك طويلة بقدر مدة بقاء الشمس). للأسف فإن المياه الجوفية المحمّلة بالأملاح، ترتفع بفعل الخاصة الشعرية من باطن الأرض،

لتصل إلى مسام أحجار الجدران والأعمدة فتؤدّى إلى تآكلها. كان هذا قد حدث مرات عديدة منذ الأزمنة القديمة، مما كان يجعل ترميمها ضروريًا. هذا بالإضافة إلى هزات أرضية قوية، خلخلت أساسات الأعمدة. وقد أساء البشر هم أيضًا إلى القاعة.

كانت المعابد المصرية قد أهملت تماما، منذ القرن الرابع الميلادى، بعد تحوّل كل سكان مصر إلى المسيحية، وتحولت أجزاء من هذه المعابد إلى كنائس أو أديرة. أما المؤسف فهو تحوّل هذه القاعة التى كانت ذات يوم مقدّسة، إلى مقلب لقمامة المدينة، وتحوّل أطراف المعبد إلى محجر، يأتى الناس إليه لانتزاع الكتل الحجرية اللازمة لهم لبناء منازلهم، أو لنقلها إلى الجيارات ثم تحويلها إلى جير، وإعادة تشكيلها فى القوالب المطلوبة، وفى أحجام صغيرة، تسمح باستعمالها، مما حوّل مدينة آمون المقدّسة إلى حطام هائل ورديم.

يوجين فرومونتان [أديب فرنسى]، زار الكرنك سنة ١٨٦٩ وكتب بأسلوبه التلغرافى، بعض الجمل القصيرة التى عبّرت عن الكارثة (وصلت إلى الكرنك، بواسطة طريق تحف به كباش مشوّهة، ثم الصرح الغربى الذى ما زال مدخلاً جميلاً، وإلى يمين الصرح ما زالت الأسوار المحيطة بالمعبد قائمة، وأما إلى اليسار فالأسوار مهدّمة. إن منظر المعبد غير عادى، فأبعاده هائلة، أتساءل كيف يمكن أن تقاس تلك الأبعاد؟ أعتقد أنه ليس هناك ما يفوق هذا المعبد فى ضخامته وسموّه، ولكن كل ما يوجد حوله هو فى حالة انهيار تام، فى شكل كتلة ضخمة من الرديم، تظهر بعض وحداتها الحجرية من تحت الأنقاض، وتتخلل الكتلة ثقوب تملؤها المياه، تبدو من خلالها بعض شرائح من أبدان أعمدة).

منذ منتصف القرن التاسع عشر، بدأت أعمال الترميم فى الكرنك، قامت بها مصلحة الآثار المصرية [عندما كان ماريبت على رأسها من ١٨٥٠ إلى ١٨٨٠]، إلا أن تكليف جورج لوجران (وهو أحد أعضاء البعثة الفرنسية للآثار بمصر، وكذلك هو تلميذ

قديم للرسام الفرنسى الشهير جيروم) بعمليات الترميم داخل الكرنك سنة ١٨٩٥، يعتبر البداية الحقيقية لإعادة إحياء هذا المعبد. اندمج لوجران تمامًا فى العمل، ووهب له نفسه بالكامل، لدرجة أن حياته كلها أصبحت متوقفة على هذا العمل، ومرتبطة بهذا المعبد، وبالتحديد بقاعة الأعمدة فيه.

كان يُرى بسترته الرمادية وقبعته الخفيفة، كأنه يقود جيشًا مكونًا من عماله، الذين كانوا يعملون بشكل قريب الشبه من طريقة عمل أجدادهم الفراعنة. كان لوجران مهتمًا بالجانب الإنسانى لعماله، لدرجة أنه اهتم بدراسة نصوص الأغانى التى كانوا يغنونها أثناء العمل، ودراسة ما بها من معتقدات شعبية أو أسطورية.

كان قد قرر أنه لإعادة هذه الأعمدة العملاقة إلى وضعها الأصلى العمودى القائم، ينبغى استعمال نفس الأساليب التى كان الفراعنة يستعملونها فى الزمن القديم، وذلك ببناء مدارج أو ممرات منحدرة ضخمة من الرمال والأتربة [المدرج هو طريق يرتفع بزاوية ميل تختلف حسب طوله، إذ يبدأ من مستوى أرضية المعبد، وينتهى عند مستوى قمة العمود]، مع استعمال بعض تكنولوجيا العصر فى صورة البكرات والروافع والحبال، متنازلا عما كان متاحًا من وسائل تكنولوجية أخرى، مثل توليد الطاقة الحركية باستعمال الآلات الكهربائية.

فى ٣ أكتوبر ١٨٩٩، وأثناء وجود لوجران فى القاهرة، حدثت فى المعبد قرقعة مثل صوت الرعد، قادمة من جهة قاعة الأعمدة الكبرى، لقد سقط عمود، ثم تبعه عمود ثان وعمود ثالث، كما لو كنا فى لعبة عملاقة من ألعاب البولينج [أو الدومينو]، ليصبح إجمالى الأعمدة التى فقدت اتزانها أحد عشر عمودًا، وقد سقط عمودان منها بعنف، على ظهر الصرح الثانى فتشقق. يعود لوجران سريعًا إلى الموقع لتقدير حجم التلفيات. بعد بضعة أسابيع يعود من جديد إلى استئناف العمل فى مهمته، متخذًا أولا بعض الاحتياطات، لحماية الأثر من المياه الجوفية.

وقد عرفت الآلهة كيف تكافئه على قوة إرادته، ففى أثناء عمله فى إزاحة المياه الجوفية، متتبعا إياها فى أجزاء المعبد المختلفة، وأمام الواجهة الشمالية للصرح السابع، وفى حفرة كبيرة تقع على عمق متر ونصف تحت مستوى سطح الأرض، وجد كنزًا ١٥٠٠٠ قطعة أثرية، خمس عشرة ألفًا من القطع الأثرية [سميت فيما بعد باسم خبيئة الكرنك] وجد من بينها ٨٠٠ تمثالاً كان قد تم وضعها فى باطن أرض المعبد، لتترك مكانها لقطع أخرى جديدة. [كان الملك الجديد يزيح عادة تماثيل الملك القديم]. نقلت هذه الكنوز إلى القاهرة وقد ملأت عربات قطار بأكمله، وذهبت إلى مجموعة معروضات متحفها القومى.

استمر لوجران فى أداء مهمته، بدون أى كلل أو ملل، حتى يوم وفاته فى أغسطس ١٩١٧، وقد حل محله أحد مواطنيه، وهو موريس بييه حتى سنة ١٩٢٤، ثم فرنسى آخر هو هنرى شفرييه حتى سنة ١٩٥٤ . اليوم يقوم المركز المصرى الفرنسى فى الكرنك بعمل مزدوج، فهو فى نفس الوقت حقل للتنقيب عن الآثار، ومعمل أبحاث ومتحف، حيث يقوم حاليًا (٢٠٠١) الأثرى الفرنسى فرنسوا لارشيه بقيادة فريق العمل. نراه ببنطاله الكاكى القصير وقبعة راعى البقر، يشرح بصوت هادىء العملية التى قام بها مع فريقه، بإعادة بناء مقصورة حتشبسوت الحمراء الجميلة قطعة قطعة. فإذا كان هذا الفريق قد نجح فى عمله ذاك، كما سبق وأن نجح فريق لوجران فى إقامة الأعمدة، فإن العمل الباقى فى الكرنك، يمكن أن يشغل عدداً لا حصر له من الفرق، التى تتكون من مهندسين معماريين، وعلماء آثار مصرية، وتقنيين وعمال يدويين، على الأقل خلال قرن قادم من الزمان.

٧٥ - رياح الخماسين / Khamsin

هناك طبقة كثيفة من السحب تغطى السماء، طبقة شبيهة بنتف القطن، ثم تنقل الرياح ذرات دقيقة من الغبار والرمال، فترتفع درجة حرارة الجو، وينخفض الضغط

الجوى فى مقاييس الضغط الجوى (البارومترات). هذه هى الخماسين موصوفة بطريقة علمية. إنها تلك الرياح القادمة من الجنوب، خلال شهرى مارس وأبريل، والتى يمكنها أن تهبّ بقوة شديدة، لتسبّب مشاكل كثيرة وتلفيات. مثلاً يمكن لهذه الرياح أن تلغى العديد من رحلات الطيران، فمن الأفضل أن ندع الرياح تمر بسلام.

تقول الموسوعات العلمية إن سبب تسميتها بالخماسين هو أنها تهبّ لمدة خمسين يومًا. وقد وجدت التعريف التالى فى دليل سياحى قديم ممتاز، هو دليل بيديكر طبعة سنة ١٨٩٥، إذ يقول (إن هذه الرياح الجنوبية الغربية غير المنتظمة، هى رياح جافة عنيفة ساخنة، تكون حرارتها فى المتوسط بين ٣٨ درجة مئوية و٤١ درجة مئوية، وتسمى خماسين لأنها تسود الأجواء المصرية خلال الخمسين يومًا التى تسبق الانقلاب الصيفى فى ٢١ يونيو).

أما ماكسيم دى كامب الذى كان قد جاء إلى مصر سنة ١٨٥٠، مع صديقه الأديب الفرنسى جوستاف فلوبير، فقد كتب قائلاً (إنها محيط من الأتربة، تحمله أعاصير من الرياح، فتصبح السماء ذات لون رمادى شاحب، وتظهر الشمس بدون أشعتها، خلف ذلك الحجاب الداكن الذى يغلفها، كما لو كانت قرصًا مستديرًا، أو درعًا من الفضة غير المصقولة). أما فلوبير فكان قد قلّص جسمه، وجمع أطرافه حوله، وأمسك بقوة بسرج جمله خوفًا من الوقوع، وقد رأى فى العاصفة (أنها تتقدّم مقتربة كما لو كانت دخان حريق، ثم إن الرمال التى تجرفها معها، تقرقش تحت الأسنان، وتخترق صناديقنا الحديدية، وتتلف تموينا الذى كان بداخلها). وذكر أنه قد وجد بعض حبيبات الرمل فى ساعته، التى يحتفظ بها فى جيب صدريته.

لم أستطع أن أقاوم الرغبة فى وضع وصف (الخماسين) المبتكر جداً، الذى أورده لورانس دوريل، فى الجزء المعنون (جوستين)، من روايته المعروفة باسم (رباعية

الإسكندرية): (المدينة انطوت على نفسها، وأحكمت إغلاق نوافذها ومنافذها، كما يحدث عند اقتراب الأعاصير، يبدأ كل شيء بلفحات قليلة من الهواء، ثم بعض رخات من المطر، ثم يحل فجأة إظلام تام، كأنه جاء ليمحو الضوء من السماء، والآن تكون الرمال فى سبيلها إلى اقتحام كل شيء، داخل ظلام الحجرات المغلقة النوافذ، تقتحم كل شيء دون أن نتمكن من رؤيتها أو لمسها. فيما بعد ستظهر لنا، كما لو كان بفعل ساحر، فوق الملابس المضغوط بعضها إلى جوار بعض معلقة منذ زمن طويل، فى الدواليب وخزانات الملابس، حتى الكتب المغلقة داخل المكتبة فإنها تتخلل صفحاتها، ثم تظهر متراكمة على سطح الصور والتابلوهات المعلقة على جدران المنازل، وعلى ملاعق الشاى داخل الأدراج، وفى أقفال الأبواب فتَعوق عمل المفاتيح، وحتى تحت أظافر الأصابع.

ينتحب الهواء ويرتعش، ويجفف أغشية الجسم المخاطية فى الأنف والفم، ويجعل الدماء تحتقن فى العيون، ومن وقت لآخر تسقط الريح عمودياً من السماء، فتطرقع فى المدينة مثل ضربة سوط، فتصيب كل شيء بالدوار، حتى إنه قد يبدو لنا أن الأشجار والمآذن والمبانى الضخمة، والناس أنفسهم، قد وقعوا داخل دوّامة هائلة لإعصار عملاق، فارتفعوا من المدينة، ليجدوا أنفسهم مع هذا الإعصار قد وصلوا إلى رمال الصحراء، من حيث جاءوا، عائدين هكذا إلى العدم والفناء الهائل، المنحوت فى الكثبان الرملية، والوديان اللامتناهية).

لا يجهل أى مصرى التأثير المثير للأعصاب الذى تخلفه رياح الخماسين، ولكنكم قد لا تعلمون أن لها جانبها الإيجابى، فعالم المصريات الأثرى الدكتور أحمد فخرى، يدين لها باكتشاف رائع، وذلك أنه أثناء عمله سنة ١٩٤٧، فى حفائر واحة الداخلة، قامت الرياح العنيفة بشكل غير عادى، بإزاحة الرمال عن مدينة القصر، التى كانت مدفونة تحت الرمال منذ خمسة قرون.

٧٦ - خواجة / Khawaga

إنها كلمة قديمة من أصل فارسى دخلت فى اللغة العربية، وكانت فى الماضى تستعمل فى القرى التى يوجد بها مسيحيون، للإشارة إلى مساعد الكاهن القبطى، الذى كان يساعد أطفال القرية فى تعلم القراءة، ويساعد أهالى القرية فى قراءة وكتابة خطاباتهم. وحتى منتصف القرن العشرين، كان يمكن لهذه الكلمة أن تستبدل فى الأرياف بكلمة أستاذ، وكانت تحمل غالبًا معانى الاحترام والاعتبار والمراعاة، إلا أنها أحيانًا للأسف، وحسب الملابسات والظروف، كانت تعنى السخرية من الشخص الموجهة إليه، لأن الخواجة رجل لا يمكن اعتباره مصريًا تمامًا، فهو فى الأصل مساعد الكاهن القبطى.

استخدمت هذه الكلمة كذلك ولمدة طويلة فى وصف الأوروبيين، ولوصف غير المسلمين بشكل عام، خاصة من أفراد الطبقة العليا، أو حتى المتوسطة بشرط الإقامة فى المدن، حتى لو كانوا من المصريين الأقباط، ودخلت فى زمرتهم جنسيات أخرى، كانت قد حصلت على حق الإقامة فى مصر، من مسيحيين من أصول سورية لبنانية، ومن اليونانيين والأرمن واليهود.

كان من الطبيعى أن أشعر بالعطف على هؤلاء الخواجات، أولم أكن أنا واحداً منهم؟ إذ كنت أحمل اسم عائلة لا يمكن السيطرة على نطقه بسهولة، برنينه الذى يبدو أوروبيًا غربيًا. والنساء لهن أيضًا الحق فى حمل هذا اللقب، فالخواجة تصبح الخواجاية. إلا أننا فى حضور السيدة، نلقبها (مدام) أو (ست)، مثل أية امرأة أخرى من الطبقتين المتوسطة والعالية، ولكن فى غيابها نستعمل لقب (الخواجاية).

وحتى وقت قريب، كان يمكن أن تحل محل لقب (خواجة)، ألقاب من نوع (بك) أو (بيه) أو (باشا)، وهى ألقاب كانت ذات سطوة ونفوذ، وتخصص فقط للأشخاص المتميّزين، ولم يكن هناك فرق بين حسن باشا (المسلم) وزنانيرى باشا (اليهودى)، أو

بين مصرى من والدين مصريين، ومصرى بالتجنّس. ورغم إلغاء الألقاب مع ثورة ١٩٥٢، إلا أن هذه الألقاب ما زالت تستعمل، فالآن ليس هناك ما يمنع من استعمال ألقاب مثل (يا سعادة البيه) أو (يا باشا) واضحة صريحة، مع شخص نريد أن نتملقه، أو أن نحصل منه على خدمة ما.

٧٧ - الخديوى / Khédive

هى كلمة فارسية تعنى (السيد)، جرسها له وقع طيب على الأذن. هل تعلمون أن عدداً كبيراً من مقاهى باريس ومحلات التبغ بها، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، كان قد اختار هذه الكلمة اسما له، وما زال بعضها يحمل هذا الاسم حتى الآن، (مقهى الخديوى) (تبغ الخديوى)، وذلك لما للطابع الصوتى لهذه الكلمة من وقع غير مألوف، كان يثير فضول الغربيين.

عندما كانت مصر إقليماً فى الإمبراطورية العثمانية، استطاعت أن تحصل على وضع متميز، وعلى قدر من الاستقلالية النسبية عن الباب العالى، منذ بداية عصر محمد على، الذى استطاع أن يحصل لنفسه على لقب (والى مصر)، الذى يترجمه الأوروبيون إلى (نائب السلطنة)، ولكن إسماعيل باشا لم يكن مكتفيًا بهذا، إذ طالب بلقب أكثر فخامة، مثل لقب (عزيز مصر) الذى كان يعجبه. رفضت الآستانة، أولاً لأن كلمة (العزيز) هى أحد أسماء الله الحسنى، ثانيًا لأن اسم سلطان الآستانة شخصيًا هو (عبد العزيز)، فهل يمكن للتابع (إسماعيل) أن يحصل على لقب يصبح به فوق مستوى سلطانه؟

بعد مناقشات طويلة، وكذلك بعد دفع مبلغ كبير من المال، وافقت الآستانة سنة ١٨٦٧ على أن يحصل إسماعيل على لقب (الخديوى)، وكذلك على حق توريث عرش مصر لأولاده من بعده، فى الوقت الذى كان فيه شديد التأثر بكل ما هو فرنسى، مثلاً

فى ذلك الوقت فى باريس، كان المعمارى البارون (أوسمان)، يجدد العاصمة الفرنسية، بشق الشوارع العريضة، فحاول إسماعيل أن يقتفى خطاه، وأن ينسخ مشروعاته الباريسية فى القاهرة. هكذا اندفع الخديوى أوروبى النزعة متعدد اللغات، الذى تقع النساء صريعات فى هواه، فى مشروعات ضخمة لتحويل القاهرة إلى باريس جديدة، حتى إنه قال (لم تعد مصر بلداً أفريقياً، بل هى جزء من أوروبا).

كان افتتاح قناة السويس فى نوفمبر ١٨٦٩ هو قمة مجد إسماعيل، التى سيبدأ بعدها الفصل الخاص بالانهيار، الذى سيصل به بعد عشر سنوات أى سنة ١٨٧٩، إلى قبول التنازل عن العرش، بعد أن كان قد أفرغ خزانة مصر، فى الإنفاق على مشروعات كبيرة، كلفت مبالغ طائلة. كان الخديوى توفيق ابنه الذى ورث عرشه، ذا شخصية ضعيفة مسالمة متواضعة، وبالتالى أصبح شريكاً مثالياً للإنجليز الذين احتلوا مصر فى العام الثالث من حكمه، أى فى سنة ١٨٨٢ .

ستكون لدى الإنجليز بعض المشاكل مع الخديوى عباس حلمى الثانى (١٨٩٢/١٩١٤)، ولكنهم ينجحون بسرعة فى إجهاض كل محاولات عباس فى الحصول على استقلال البلاد. وبسبب عدم قدرته على حرية التصرف داخل بلده، لكثرة تدخل المندوب السامى البريطانى اللورد كرومر فى قراراته، أعلن عباس رفضه لهذا الوضع، وتنازله عن كل سلطاته الشكلية، واكتفى بمجرد الإقامة فى القصور الملكية، ففقد القوميون المصريون الأمل الذى بدا لهم فيه.

سينتهى تاريخ لقب الخديوى فى مصر، مع بداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، حين أعلنت تركيا تحالفها العسكرى مع ألمانيا، فأعلنت إنجلترا أن مصر لم تعد إقليماً عثمانياً بل محمية بريطانية، وأزاحت عباس حلمى عن العرش، ووضعت بدلا منه حسين كامل الذى أعطته لقب السلطان، وهو نفس اللقب الذى سيحمله فؤاد الأول من ١٩١٧ إلى ١٩٢٢، حين يتغير لقب حاكم مصر من سلطان إلى ملك.

٧٨ - لين (إدوارد وليام) Lane (Edward William)

لم يكن هناك ما يدلّ على أن هذا الرسّام اللندنى سيصبح يومًا ما أحد أهم أفراد حركة الاستشراق فى القرن التاسع عشر. إن السبب على ما يبدو، هو فقط أن إدوارد كان قد استمتع جدًا بمتابعة دروس اللغة العربية فى لندن، قبل أن يقرر السفر إلى القاهرة سنة ١٨٢٥، وكان فى الرابعة والعشرين من عمره. يقيم فى مصر بضع سنوات، ثم يعود إلى إنجلترا، ثم يعود إلى مصر من جديد لبضع سنوات، ثم يطبع فى لندن سنة ١٨٣٦، كتابه المشهور (أخلاق وعادات المصريين المحدثين). يقول لين (عشت كما يعيشون).

فى القاهرة يتخذ لين الملابس الشرقية، ويدّعى أن اسمه منصور، ويدخن النرجيلة (الشيشة) مع المصريين، ويمتنع عن أكل لحم الخنزير، وعن احتساء الخمور، وعندما يتناول طعامه مع أصدقائه المصريين فإنه يأكل مثلهم؛ أى باستعمال يديه لا باستعمال الشوكة والسكين. هذا الانغماس فى المجتمع المحلى، سيتيح له النظر من الداخل، وهو ما لم يتح لأى أوروبى قبله. يقدّم لنا كتابه فكرة جيدة عن تفاصيل العادات اليومية، فى حياة المصريين، منذ لحظة الميلاد وحتى لحظة الموت، فى فصول متتالية تتميّز بالدقة المتناهية.

كان لين قد اقترب من المصريين عن طريق الاهتمام بديانتهم، وحاول أن يجعله المسلمون واحدًا منهم، وانتقد بشدة الأقباط. لكن انجذابه نحو الإسلام لم يمنعه من أن يذكر فى كتابه أنه لم يكن مؤمنًا. هذا هو ما قاله فى كتابه المطبوع بالإنجليزية فى لندن، ووجّه فيه الحديث إلى الأوروبيين، كأنه أراد أن يطمئنهم عليه.

ثم إن طريقته فى تحليل المجتمع المصرى، بالتركيز على الموضوعات الأكثر إثارة للاهتمام، مثل السحر والاعتقاد فى الخرافات والدراويش، والحواة الذين يستعملون العزف على المزمار فى إخراج الثعابين. إن طريقة عرضه لهذه الموضوعات، تشير إلى

أنه كان يتخذ موقفًا مسبقًا من كل هذا، كأنه يريد الاحتفاظ لنفسه بمسافة من كل هذا، وهو ما يدل على أنه ليس شرقيًا أصيلاً وإنما هو مستشرق.

كان إدوارد سعيد، وهو أستاذ جامعى أمريكى من أصل فلسطينى، قد قال ذات يوم ساخرًا فى كتابه عن الاستشراق (الطبعة الفرنسية/ لدى سوى/ سنة ١٩٩٨)، (إن لين يفتح بطن المصريين ليعرض على الناس أحشاءهم، ثم يعيد خياطة الجروح، بعد توجيه قدر من اللوم والتوبيخ إليهم).

إن الرسوم الموجودة فى كتاب لين هى من عمله، وهو ما يضيف إلى العمل المزيد من الفتنة والجاذبية والإثارة والتشويق، فهذه الوجوه الموجودة فى رسوم الكتاب، هى لأشخاص هادئين مسالمين، ولكنها ليست لأشخاص بعينهم. إن لين يقدّم فى هذا الكتاب صورة مجتمع جامد لا يقبل التغيير، ولكنه مجتمع مطمئن، يسهل عليك أن تحبه، وأن تتعلق به.

٧٩ - اللغة العربية / Langue Arabe

كنت أتحدّث مع الوزير المصرى، ثم سألته بقدر من الفضول (بأية لغة دار الحوار بينك وبين نظيرك المغربى؟)، قال (تحدثنا بالعربية خمس دقائق، ثم تحوّلنا إلى الفرنسية). هناك كما نعرف جميعًا لغتان عربيتان، الأولى هى الكلاسيكية الفصحى التى يقرأ بها القرآن الكريم، ويستعملها رجال الدين والشعراء وبعض العلماء، وكل المثقفين الذين يريدون أن يضفوا شكلاً محترمًا على أحاديثهم، وهى اللغة التى يفهمها كل عربى مثقف، والثانية هى العربية العامية الشفهية بتراكيبها النحوية البسيطة، وهى اللغة التى تختلف بين بلد عربى وآخر.

فليس من السهل على المصرى أن يفهم كل ما يقوله الجزائرى، أو المغربى أو حتى العراقى، طبعًا ليس هناك ما يمنع من استعمال الفصحى، بشرط التمكن من قواعدها

المعقدة إلى حد ما، ولكن فى مناقشة علمية مثل تلك التى دارت بين الوزيرين المصرى والمغربى، فإن أسهل الحلول هو استعمال الفرنسية أو الإنجليزية. ومع ذلك فإن لمصر ميزة كبيرة عن باقى الدول العربية، وهى أن عاميتها مألوفة للملايين فى كل البلاد العربية، من جدّة إلى طنجة، بفضل الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية والأغانى.

قد يكون رأيى متحيّزا وغير موضوعي، ولكنى أجد أن العامية المصرية، هى أحلى العاميات العربية، وأخفها وقعًا على الأذن، فاسمحوا لى أن أفضلها على كل ما عداها. إن أكثر ما يجعلها مختلفة، هو أن أغلب سكان مصر وهم سكان الدلتا، لا يعطشون الجيم، على خلاف الصعايدة سكان جنوب مصر وكل الشعوب العربية. أما فيما يتعلق بنطق المصريين لعاميتهم، فهم فى منطقة وسط بين اللبنانيين الذين يطيلون مقاطعهم الصوتية، والمغاربة الذين يأكلون نصف الحروف الساكنة.

وقد لاحظت أن بعض المغنيين فى البلاد العربية، يحاولون الوصول إلى أكبر عدد من الجمهور لأغانيهم باستعمال العامية المصرية، ثم هناك مخرجون مغربيون استعانوا بممثلين مصريين فى أفلامهم لنفس السبب، فى حين أن المخرج الجزائرى (الأخضر حامينا) وجد نفسه مضطراً إلى إضافة ترجمة باللغة العربية الفصحى، إلى فيلمه (رياح الأوراس) الناطق بالعامية الجزائرية، وذلك حتى يتمكن الجمهور العربى من فهمه فى البلاد العربية المختلفة.

ولكن حتى داخل مصر نفسها، توجد لهجات مختلفة من منطقة إلى أخرى، فتتغير صوتيات اللغة أو طريقة نطقها أو بعض مفرداتها أو بعض تراكيب قواعدها، فمثلا كلمة (سوق) العربية الفصحى، تنطق (سوء) فى الدلتا، وتنطق (سوج) فى الصعيد. مثل آخر يتعلق بطريقة التركيز على نطق مقطع معين داخل الكلمة، فكلمة (مكتبة) تصبح فى الدلتا أقرب إلى (مكتابة)، أما فى الصعيد فهى أقرب إلى (ماكتبة). ولكن لهجة أهل القاهرة تفرض نفسها فى كل مكان فى مصر بالتدريج، بفضل السينما

والراديو والتلفزيون، وبفضل نفوذ أهل العاصمة. لهجة أهل القاهرة هى لهجة دائمة التطوّر، فتدخل فيها أحيانًا بعض الكلمات الأجنبية، مثل كلمة (كانسل) الإنجليزية، التى دخلت إلى الحياة اليومية، وتعنى (إلغاء).

أما الصراع القديم بين العامية والفصحى، فهو لم ينته بعد، فالمدافعون عن الفصحى يستدعون النصوص القرآنية، والتقاليد القديمة، ووحدة العالم العربى، والمدافعون عن العامية يشيرون إلى جانبها الطبيعى التلقائى، وإلى قدرة كل المصريين على فهمها. فى الواقع إن اللغتين تتطوّران، وتمارسان نوعًا من التأثير المتبادل بينهما، وتقرض كل منهما الأخرى بعض الكلمات، فالفصحى تميل إلى المزيد من البساطة، فى حين تتبنى العامية، بعضًا من مفردات الفصحى وأساليبها الأدبية.

إن أستاذ الجامعة لا يستعمل نفس المفردات، التى يستعملها العامل الذى ينقل الحقائب على ظهره. تدرك الإعلانات التلفزيونية حقيقة هذه الفروق، فتوجّه رسائلها بأساليب مختلفة، وفقًا لنوعية الجمهور الذى يتوجه إليه الإعلان. هل صحيح أن الإعلانات الموجّهة إلى الرجال غالبًا ما تكون بالفصحى، والموجّهة إلى النساء غالبًا ما تكون بالعامية؟ إن كان هذا صحيحًا فى الماضى، فإن الفروق الثقافية بين الجنسين تتضاءل حاليًا.

٨٠ – الأدب / Littérature

كان ينبغى أولاً أن يحصل نجيب محفوظ على جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٨٨، حتى يبدأ الجمهور الغربى فى الاهتمام بالأدب المصرى، ولكن ما زال [سنة ٢٠٠١] مؤلف الثلاثية هو الوحيد المعروف بين جمهور عريض، رغم أن عدد المؤلفات العربية المترجمة إلى الفرنسية، يتزايد عامًا بعد عام. وكان المصريون، مثل غيرهم من الشعوب العربية، قد وصلوا متأخرين جدًا إلى قالب الرواية. فخلال قرون طويلة عاش الأدب

العربى، تحت الرقابة المستمرة للقانون؛ حيث لم يكن للأدب الحق فى وصف الحقيقة، أو فى التعبير عن المشاعر المنفردة، ولكن كان عليه فقط، الاهتمام بالعالم وباللغة حسب تعاليم القرآن.

كان ذلك المناخ الأقرب إلى الأفكار المجرّدة وإلى المثاليات، أكثر تلاؤمًا مع الإنتاج الشعرى، الذى برع فيه العرب وخضعوا فيه تمامًا للمقاييس الشعرية. أما الروايات والقصص القصيرة فى الأدب العربى القديم، فلم يكن مقصوداً بها إلا التسلية والترفيه عن المستمعين ، وستظل مجهولة الصاحب، ومرتبطة أكثر بالملاحم الشعبية وبالأدب الشعبى. ولكن تحت تأثير الاتصال بالغرب فى نهاية القرن التاسع عشر، جاءت أخيراً النهضة الأدبية، التى أدّت إلى تجديد اللغة، بحيث تصبح مسايرة للعصر ومتطلباته، وإلى تبسيط التراكيب النحوية، وإلى الاهتمام بشكل خاص بالتعبير النثرى.

فى تلك الأجواء الجديدة، تمكن المصرى محمد حسين هيكل، من طبع أول رواية عربية حديثة سنة ١٩١٤، هى رواية (زينب)، ولكن تحت اسم مزيف. هيكل هو تلميذ لروسو، وسيكون فى مستقبل أيامه رئيسًا لمجلس الشيوخ المصرى، ولكنه فى هذه الرواية، يتعرّض بطريقة جذابة، لموضوع الحياة فى الريف المصرى، وهو موضوع جديد لم يلفت انتباه أحد قبله، ولذلك فهو يعالجه أحيانًا بقدر من الرومانسية، وأحيانًا أخرى بقدر من الميلودرامية.

وقد تعمّد المبدعون الروائيون الأوائل، أن يكونوا على حذر شديد فيما يتعلق بالأخلاقيات الحميدة السائدة فى المجتمع، حتى لا يعطوا الانطباع بتجاوزها، وبالتالى فقد استعملوا فى رواياتهم الأولى أقل قدر ممكن من الخيال، وذلك حتى تكون رواياتهم، فى خدمة قيم المجتمع وأخلاقياته الحميدة، ولتحبيذ التربية القويمة، وانتصار الخير على الشر.

أما القصة القصيرة، والتى لم تكن تعتبر حقًا من الأنواع الأدبية، فقد تمتعت مبكرًا بقدر أكبر من الحرية. فمنذ ١٩٢٥ يتميّز محمود تيمور فى هذا المجال، بقدرته على المزج بين الحس الفكاهى والمواقف المأساوية، وبدون أن يحمّل نفسه أعباء أخلاقية ثقيلة، يتمكن هذا المنتمى إلى الطبقة الأرستقراطية، من التعبير عن كل طبقات الشعب، فى قصصه القصيرة، كما لو أنه كان يقدّم لقرّائه، معرضًا ممتعًا لصور شخصيات مختلفة من المجتمع المصرى والواقع المصرى.

وسريعًا جدًا يطرح سؤال اللغة نفسه. هل تناسب اللغة الفصحى هذا الغوص فى واقع المجتمع؟ ألا ينبغى استعمال العامية حتى لو أنها لم تكن قد استعملت مكتوبة من قبل؟ تجرأ بعض المؤلفين وخطوا الخطوة الأولى، مستعملين العامية فى القصة القصيرة، والفصحى فى مقالاتهم الصحفية. وهناك آخرون حاولوا أن يصلوا إلى حل وسط، ألا وهو أن يكون الوصف والسرد داخل القصة بالفصحى، على أن يكون الحوار بالعامية. بالتدريج امتزج الاتجاهان، أحيانًا حتى لدى نفس المؤلف، وفى نفس القصة، بل حتى أحيانًا فى نفس الجملة، حيث يمكننا أن نرى كلمة فصحى إلى جوار كلمة عامية.

فى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، يظهر عملاقان جديدان فى الأدب المصرى، هما طه حسين وتوفيق الحكيم. يحكى لنا طه حسين فى روايته (الأيّام)، كما لم يفعل أحدٌ قبله أبدًا فى الأدب العربى، حتى ذلك الوقت. أما توفيق الحكيم فيقدّم لنا فى (يوميّات نائب فى الأرياف) رؤية جذابة آسرة للتقاليد والأخلاق المصرية. وحيث إن كلاً منهما كان قد تأثر بالثقافة الفرنسية، فسيكون لكلٍ منهما صراعاته مع علماء الأزهر.

ثم جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢ لتفتح الباب أمام الواقعية الاشتراكية، مما أدّى إلى ظهور أعمال أدبية، فى هذا الاتجاه الأدبى، وأهمها رواية (الأرض) لعبد الرحمن الشرقاوى سنة ١٩٥٤، وهى لم تترجم بعد إلى الفرنسية، ويحاول فيها المؤلف أن

يصوّر مقاومة الفلاح المصرى لاستغلال الإقطاعيين. هناك كذلك أعمال يوسف إدريس، التى يظهر فيها بوضوح كل الهامشيين المضطهدين، وهو يعتبر رائد القصة القصيرة فى مصر، بالإضافة إلى أن عمله المسرحى (الفرافير)، كان قد ترك علامة بارزة فى تاريخ المسرح المصرى.

ثم كانت هزيمة يونيو ١٩٦٧ العسكرية أمام إسرائيل، بمثابة زلزال عميق الأثر على الأدب المصرى، فظهر جيل جديد من الكتاب، تحركّه أيديولوجيات [مواقف مبدئية وآراء وطرق تفكير مختلفة]. الموقف النفسى الذى يجمع بين أفراد هذا الجيل، هو إحساسهم بخيانة السلطة السياسية للشعب، وقصورها عن تحقيق أحلامه، وكذلك إحساسهم بتحكم القيم المادية. إن السخرية والاستهزاء والعنف والغرائبية الجنسية، هى بعض ملامح هذا الأدب الجديد، والتى تشغل حيّزًا كبيرًا فى إنتاجه.

وقد ظهرت وسط هذا الجيل أديبات، كنّ يتميّزن غالبًا بالعنف فى انفعالاتهنّ، مثل سلوى بكر، فى مجموعتها القصصية (عجين الفلاحة) الصادرة فى مصر سنة ١٩٩٢ من دار (سيناء) للنشر بالقاهرة، ثم نشرت بالفرنسية تحت عنوان (قصص يصعب تصديقها) سنة ١٩٩٨، ونشرتها دار (لامارتان) فى باريس، للمترجمة كريستيان نخلة. ومن بين الأدباء الآخرين المترجمين إلى الفرنسية، يمكننا أن نذكر إدوار الخرّاط، الذى كتب نثرا وكأنه ينشد قصائد شعر، فى مدح الإسكندرية مدينة مسقط رأسه، فى عمله المعنون (الإسكندرية ترابها زعفران) مستعملاً لغة ثرية بمفرداتها وصورها.

هناك كذلك جمال الغيطانى، الذى يشغل مكانة خاصة فى الأدب المصرى الحديث بصفته روائيًا ممتازًا، بالإضافة إلى كونه كذلك رئيس تحرير جريدة (أخبار الأدب) الأسبوعية. يلجأ الغيطانى أحيانًا إلى الصور التاريخية، كما فعل فى (الزينى بركات) مثلا، حتى يتمكن من انتقاد استغلال أولى الأمر المبالغ فيه للسلطة، أو يلجأ إلى الأساطير الشعبية، مثلما فعل فى (حارة الزعفرانى)، لينتقد الجهل والخرافة، وهى

الرواية التى تحكى عن شيخ شرير، استطاع بأعماله السحرية، أن يربط كل رجال الحيّ الذى يسكنه، ويصيبهم بالعجز الجنسى.

وفى رواية (ذات) يشير صنع الله إبراهيم بقلمه المعبّر، إلى ارتباك المجتمع المصرى، أو يصف بشكل مروّع الحياة داخل السجون المصرية، كما فى روايته (شرف)، وهى نفس السجون التى كان صنع الله نفسه ضحية لها، فى بداية شبابه نتيجة لانضمامه إلى أحد التنظيمات الشيوعية. أما فى أعمال إبراهيم عبد المجيد، فإن البسطاء من عامة الشعب يجدون لهم مكانًا بارزًا، وتدور أحداث أغلب رواياته الممتعة، فى مدينة الإسكندرية مسقط رأسه. بينما تدور أحداث روايات محمد البساطى غالبًا، فى منطقة قناة السويس، ولنذكر من بين أعماله روايته المثيرة (بيوت وراء الأشجار)، التى تحكى بمنتهى الدقة، قصة جريمة لن تتم تتعلق بمسألة الشرف. وقد ترجمت إلى الفرنسية كذلك بعض أعمال نبيل نعوم، التى تستلهم تراث الصوفية، وبورخيس وكاواباتا.

وتأتى الأجيال اللاحقة من شباب الأدباء المصريين، لتمسك بالشعلة وتذهب إلى مسافات أبعد، لتصف فى جو عام من الإحساس بالخديعة وفقدان الأمل، الحياة اليومية فى مصر الحالية. إن شهرتهم نسبية فهم لا يبيعون من الكتاب الواحد إلا بضعة مئات من النسخ، مع وجود بعض الاستثناءات القليلة النادرة، إلا أن أفضل المبيعات حاليًا هى للكتب الدينية. كما أن الكتاب الحاليين ينبغى عليهم أن يكسبوا ودّ الرقابة، التى لم تعد كما كانت سابقا مجرد رقابة بوليسية، فهى الآن رقابة مزدوجة، بوليسية ودينية أخلاقية.

أصبح الرقباء الآن كتيبة تتكوّن من مئات الأشخاص، فإن منع الكتاب من التداول يمكن أن يأتى، من نقاد أدبيين، أو علماء دينيين مستقلين، أو آباء لطلبة جامعيين، وحتى آباء لتلاميذ مدارس، أو من مسئولى مكتبات، أو من نوّاب فى مجلس الشعب، ولهذا فإن الرواية الأولى لسمير غريب وهى بعنوان (الصقار) التى كانت قد لفتت

الانتباه جداً، سحبت بعد ذلك سنة ١٩٩٧ من الأسواق، بسبب محرر في الأهرام، رأى أن هذه السيرة الذاتية شبه الروائية تتطاول على القيم الأساسية في المجتمع، لمجرّد أنها تحكي عن علاقة غرامية، بين مهندس مصري شاب وطالبة فرنسية.

انظر مقالات: طه حسين رقم (٦٤)/ نجيب محفوظ رقم (٨٢)/ يوميات نائب في الأرياف رقم (٧٢).

٨١ - معلهش (ما عليه شيء) / Maalesh

كم مليون مرة في اليوم تنطق هذه الكلمة في مصر؟ عندما تقال فهي تعني أن الأمر المقصود ليس مهماً، إنها تعبّر عن طريقة في الحياة وأسلوب في الوجود. إنها تتكون من ثلاثة أجزاء (ما) (عليه) (شيء)، وهي ليست في حاجة إلى ضمائر أو أفعال، وهي لا تتغير بالرفع أو بالنصب أو بالجر، ولكنها حمّالة معاني، ثم إنها قبل كل شيء، تعبر عن نسبية الأشياء، ويمكننا أن نرى فيها تأثير النفوذ الديني، فليس هناك ما يهم هنا في هذه الدنيا، لأن كل ما يهم هو هناك في السماء.

إن معنى الكلمة يتغير طبقًا للظروف والملابسات، فهي قد تعني أننا نسامح من نقولها له، أو أننا على الأقل نبحث عن طمأنته. كأننا نقول له (فلننس هذا الموضوع الذي يضايقك). هي كلمة يمكنها أن تعزّي شخصاً، وتشجّع الآخر، وتنهي صراعاً بين شخصين.

لكن نطقها بطريقة مختلفة، مع إضافة أداة نفي قبلها، (لأ معلهش)، يمكنها أن تعبّر عن السخرية، وإذا أضفنا بعض المرارة، يمكنها أن تعني (شكراً لا أريد).أما إذا قيلت بحيوية وقوة أثناء المناقشة، فهي تبدو كما لو كانت صفعة على الوجه، وهي في هذه الحالة قد تعني (سيكون الأمر هكذا بطريقتي أنا، ولن يكون أبدا بأي طريقة

أخـرى). هنا هـى طريقـة يفـرض بهـا أحـدهـم رأيه على الآخـرين، بقـدر من التـسلط والاستبداد.

إلا أن الكلمة فى أغلب الأحوال، هى مزيج من خيبة الأمل، ومن الاستسلام للقدر، الذى يميّز المصريين، (معلهش هى كده) فى انتظار مرور العاصفة. لكن يمكننا كذلك أن نرى أنها أسـاس المرونة الشـرقـيـة، وعـلامـة للتـسـامح والحكمـة، ودليل أكيـد على حضارة عريقة وثقافة. فكل الأمور فعلاً ليست مهمة إلى هذه الدرجة.

(معلهش) كان كذلك هو الاسم الذى اختير لمجلة ساخرة، صدرت فى الإسكندرية، باللغة الفرنسية، فى الفترة ما بين الحربين العالميتين. وهى كذلك عنوان كتاب لجان كوكتو [فنان وشاعر فرنسى] صدر سنة ١٩٤٩، بعد أن كان قد قام برحلة إلى مصر، وأثار جدلا كبيرا ومنع من البيع والتداول فى مصر، وكان المصريون قد اعتبروه مهينا. هكذا قص علينا أحمد يوسف [كاتب صحفى مصرى مقيم فى فرنسا]، فى كتابه (كوكتو المصرى) الصادر فى باريس سنة ٢٠٠١، لدى دار نشر (روشيه) بباريس. مما يذكر أن الشاعر كوكتو كان قد انتقد كذلك بواسطة معاصريه من الكتاب الفرنسيين، خاصة (ايتامبل)، الذى كان قد هاجمه فى مقال بجريدة (العصور الحديثة) الفرنسية، اتخذ له عنوانًا مكتوبًا بالحروف الفرنسية اللاتينية (لا موش ماليش). واستمر الجدل... معلهش

٨٢ – نجيب محفوظ / Mahfouz (Naguib)

فوجىء نجيب محفوظ، أثناء نومه فى تعسيلة بعد الظهر، فى يوم من أيام أكتوبر ١٩٨٨، بفوزه بجائزة نوبل. كان قد بلغ ذلك العام السادسة والسبعين من العمر، ولم يكن يتوقع إطلاقًا أنه بين يوم وليلة سيصبح كبير عائلة الأدباء المصريين، وبشكل أوسع حامل راية الأدب العربى. تساءل (ألم يكن طه حسين أو توفيق الحكيم أو عباس

العقاد أجدر منى بنيلها؟). وجد نجيب أنه من الممكن الاستغناء عن الرحلة إلى ستوكهولم لاستلام الجائزة، وذلك لأنه يفضل البقاء فى منزله، والابتعاد عن زخارف الدنيا، فأرسل ابنتيه بدلا منه، وقرأ الأديب الأصغر سنًا (محمد سلماوى)، كلمته الموجهة إلى مسئولى الجائزة.

كان محفوظ يميل دائمًا إلى الحياة الرتيبة المستكينة، لذلك كان يكتفى بالسفر فقط فى خيالاته، وبالتالى فهو لم يغادر مصر طوال حياته إلا ثلاث مرات، كان فيها مضطرًا ومدفوعًا إلى السفر. من الملاحظ أن كل أحداث رواياته تدور فى أحياء القاهرة القديمة حيث ولد، باستثناء روايتين اثنتين تدور أحداثهما فى الإسكندرية، هما (ميرامار) وجزئيًا فى (السمان والخريف). أما بقية أقاليم مصر فهى شبه غائبة عن أعماله.

ولكن هذا لم يمنع محفوظ من الانفتاح بشكل مدهش على كل ما يأتى من الخارج، بعد أن كان قد تأثر كثيرًا بعدد من كبار المؤلفين الأوروبيين، من شيكسبير إلى بروست، الذين كان قد التهم الترجمات العربية لأعمالهم فى شبابه. وهو يرى أنه ليس لمصر أن تخشى من أية تأثيرات أجنبية أو أى غزو ثقافى أجنبى، فهى راسخة بشكل كاف، وعميقة الجذور فى تقاليدها. ثم يسأل (ألم تستوعب وتحتضن وتتمثل، عبر قرون طويلة كل الغزاة الأجانب الذين ادّعوا أو اعتقدوا أنهم يحتلونها؟).

إن انفتاح نجيب محفوظ، يتمثل فى اهتمامه بالحرية بشكل عام، وبحرية الخلق الفنى بشكل خاص، وهو ما كاد أن يكلفه حياته فى ١٤ أكتوبر ١٩٩٤، حين طعنه شاب متطرّف بسكين فى رقبته. بعد هذا الاعتداء لم يسترد محفوظ صحته إلا بصعوبة، وهو الذى كان يعانى قبلاً من ضعف شديد فى السمع والبصر، ومع ذلك فقد ظل محتفظًا بالمبادىء التى يؤمن بها، وعادت إليه روح الدعابة القاهرية، التى كانت دائمًا تفتن زائريه.

كتب دانيال روندو (قبل أن أقابل محفوظ فى القاهرة، كنت أجد أنه فى صورته الفوتوغرافية، قريب الشبه من راى تشارلز [مغنى زنجى أمريكى غير مبصر]، فهو مثله يرتدى نظارات سوداء كما لو كان غير مبصر، وبنفس شعر الرأس القصير، وبنفس الابتسامة العريضة الدائمة على الوجه، إلا أننى فى لحظة دخولى حجرة مكتبه، فى الطابق السادس من مبنى جريدة الأهرام بالقاهرة، اكتشفت رجلاً مختلفًا، رجلاً غارقًا فى أفكاره، جالسًا واضعًا يديه مفرودتين على ركبتيه، مرتديًا بذلة زرقاء محكمة حول جسمه، تحتها قميص أبيض أزراره كلها مغلقة، حتى الزرار الأخير حول الرقبة، وبدون ربطة عنق، أقرب فى الشكل إلى مورافيا [أديب إيطالى] المتواضع منه إلى نجم الغناء البلوز [نوع من الغناء الخاص بالجنس الأسود فى أمريكا] الزنجى الأمريكى). هذه الفقرة من كتاب للمؤلف بعنوان (الإسكندرية)، دار نشر (النيل) بباريس ١٩٩٧ .

بفضل جائزة نوبل عرف العالم مؤلفاته، خاصة ثلاثية (بين القصرين/قصر الشوق/السكريّة) وهى التى تضع فى بؤرة اهتمامها، أسرة بورجوازية مصرية من الطبقة الوسطى المرتفعة تعيش فى أحد الأحياء الشعبية بالقاهرة، فى فترة ما بين الحربين العالميتين، حيث تتواجه وتتصارع التقاليد القديمة مع مدنية العصر الحديث، بينما تلعب الأحداث السياسية بأقدار البلاد. الأب (السيد أحمد عبد الجوّاد) يستبد بالرأى تمامًا بين أفراد أسرته، حيث نراه داخل المنزل، متقشفًا متصلبًا عنيدًا، فى حين أنه يتغيّر تمامًا بمجرّد خروجه من منزله، فيصبح متحدّثًا لبقًا محبًا للدعابة، راغبًا فى النساء وفى الخمور الجيدة. إنه مثل (يانوس) [إله رومانى مزدوج الوجه] من صنع محفوظ، الذى استطاع أن يخلق شخصية تعتبر نموذجًا أصليًا، لصورة الرجل المزدوج الشخصية، فيستعمل هذا الاسم (السيد عبد الجوّاد) حاليًا فى مصر، للدلالة على مزدوجى الشخصية.

إن هذا المؤلف غزير الإنتاج، إذ أنتج حوالى ثلاثين رواية، وست أعمال مسرحية، وأكثر من مائتى قصة قصيرة، وهو يستمر على التوالى فى اكتشاف مناطق جديدة مختلفة من المجتمع المصرى. فى البداية كان قد استلهم العصر الفرعونى، فى ثلاث روايات تاريخية، ثم تفوّق تمامًا فى الرواية الواقعية، صانعًا من حوارى القاهرة عوالم متكاملة، ثم يُدخل العالم كله إلى حارته، عندما يكتب الرواية الرمزية، فنرى شخصيات رمزية مستوحاة من التوراة والقرآن، تعجّ بها رواية (أولاد حارتنا) سنة ١٩٥٩، وهو ما أدّى به إلى متاعب جمّة مع السلطات الدينية. فى بداية الستينيات يتجه محفوظ إلى الرواية الفلسفية، ثم رواية التأملات الروحية، بل إنه حتى يحاول فى الرواية الخيالية.

إن قدرات محفوظ الإبداعية تتجلى كذلك، فى الشكل الروائى الذى يختاره لأعماله، وفى محاولاته لتطويع اللغة، فهو إذ يستعمل الفصحى والعامية، يحاول كذلك أن يستثمر مفردات النثر العربى القديم، التى يمكن أن تكون ذات علاقة بالعامية. إن الأكثر إعجابا به يرون فيه مبدعًا للغة عربية جديدة.

٨٣ – المماليك / Mamloukes

مملوك بالعربية تعنى العبد الذى يشترى ويباع، ولكن تاريخيًا هم العبيد الذين كانوا قد أعتقوا ثم وصلوا إلى قمة السلطة فى مصر. إنه ليس التناقض الوحيد فيما يتعلق بموضوع هؤلاء البشر، القادمين من أماكن بعيدة، والذين يرتبطون فى ذاكرتنا بصور شديدة التباين، فمن ناحية هناك العنف وانعدام النظام بل والفوضى، ومن ناحية أخرى هناك النظام والكفاءة والإبداع الفنى. هل يمكن أن نجد الإجابة على هذا التناقض، فى حقيقة أن الضَياع الذى جاءوا منه، وعدم وجود ذريّة لأغلبهم [لأنهم أغوات]، سمح لهم بكل التجاوزات الممكنة.

تركت الدولة المملوكية، أكبر عددٍ من الآثار في مصر عامة، وفي القاهرة خاصة، وذلك بمقارنتها بغيرها من الدول الإسلامية، التي تتابعت على حكم مصر العباسية/ الطولونية/ الفاطمية/ الأيوبية. لكن ينبغي القول إن فترة حكم دولة المماليك، استمرت من ١٢٥٠ إلى ١٥١٧ وحتى بعد الغزو العثماني لمصر احتفظ أمراء المماليك بنفوذهم، طوال فترة حكم الإمبراطورية العثمانية.

إن سبب مجيئهم إلى مصر في المقام الأول هو أن آخر سلاطين الأيوبيين (الصالح نجم الدين) كان قد جلبهم صغار السن من أسواق العبيد في تركيا ليربيهم ويستعين بهم في حماية مصر من التهديد المغولي. كانوا في الأصل غالبًا مسيحيين ثمّ تحوّلوا إلى الإسلام، وتدرّبوا في المهن العسكرية. وقد انتصر هؤلاء المماليك، في موقعتين حربيتين مهمتين، خلال فترة وجيزة تصل بالكاد إلى عشر سنوات، الأولى هي إلحاق هزيمة قاسية بالحملة الصليبية السابعة، التي جاء على رأسها لويس التاسع ملك فرنسا إلى مصر سنة ١٢٤٩ . والثانية هي النجاح في صدّ الهجوم المغولي على الحدود المصرية سنة ١٢٦٠ . لكن في زحام تلك الأحداث، تخلص العبيد السابقون من السلطان نجم الدين سنة ١٢٥٠ ليحكموا مصر بدلا منه.

سُمِّيَ العصر المملوكي الأول بعصر المماليك البحرية، لأنهم أقاموا في ثكنات عسكرية تقع في جزيرة منيل الروضة وسط بحر النيل. أحد أهم سلاطينهم هو بيبرس (١٢٧٧/١٢٦٠) الذي استطاع أن يكوّن إمبراطورية، بعد أن استولى على الأراضي بين مصر وسوريا. وقد أوحى بانتصاراته تلك إلى التراث الشعبي المصري، ملحمة حملت اسمه ولقبه، ملحمة (الظاهر بيبرس) التي تقع في ستين جزءًا، تحول بطلها إلى أسطورة شعبية.

عادة ما يساق المماليك الصغار إلى منزل أحد أمراء المماليك، وفي نهاية مدة تربيتهم وتدريبهم العسكري، يعتقون ويحصلون على مناصب مهمة في الدولة، وفيما بعد قد يصبح أحدهم أميرًا بدوره، وقد يصير أحد الأمراء سلطانًا. كان المبدأ هو إذا

أنجب أحد الأمراء أو السلاطين ذكوراً، لا يحق لهم أن يخلفوه على العرش أو حتى فى الإمارة، لأن المناصب تعطى فقط لمن ولد فى الأسر والعبودية ثم أعتق ككل المماليك، ولكن طبعًا كانت هناك استثناءات مثل عائلة السلطان قلاوون، الذى أورث عرشه إلى ابنه الناصر محمد الذى حكم مصر على فترات خلال مدة طويلة، تصل إلى حوالى نصف قرن (١٢٩٤/١٣٤٠) وهى فترة اضطراب كبير ومعارك دموية عديدة، ومع ذلك فقد تمكن بعض أولاد الناصر بعد موته، من الوصول إلى عرش مصر.

تنتهى الأسرة البحرية سنة ١٣٨٢ بعد أن استولى برقوق على العرش، وهو من أصول قوقازية [منطقة جبلية بين البحرين الأسود وقزوين] مثل أغلب مماليك نهاية القرن الرابع عشر، المماليك البرجية، وقد سميت تلك الأسرة بهذا الاسم، لأنهم أقاموا فى أبراج قلعة صلاح الدين. أغلب أولئك المماليك كانوا يشترون كباراً فى السن، ولذلك لم يكن من السهل اندماجهم فى بيئتهم الجديدة، وبالتالى كانوا يميلون إلى التمرّد. فى نفس السنة ١٣٨٢ وصل إلى القاهرة العلامة والرحالة والمؤرخ ابن خلدون، فكتب عنها منبهراً الفقرة التالية:

(القاهرة هى عاصمة العالم، حديقة الكون، مكان تجمّع الأمم، خليّة نمل بشرية، موقع حصين من مواقع الإسلام، ومصدر قوته وسلطانه، ترتفع فيها قصور لا حصر لها، وفى كل مكان تزدهر المدارس والخنقاوات، ويلمع فيها العلماء مثل النجوم الزاهرة، وتمتد المدينة على ضفاف النيل، نهر الجنة الذى يستقبل مياهه من السماء، والذى يقضى جريانه على عطش البشر، ويوفر لهم الرخاء والثراء، عبرت شوارعها وأسواقها، مع جموع البشر المندفعة، إلى حيث توجد كل أنواع البضائع).

إن أحد أهم سلاطين المماليك البرجية، هو السلطان قايتباى (١٤٦٨/١٤٩٦)، الذى يحكم بيد من حديد، وينشغل بالبناء والتشييد، فيترك لنا بعضاً من عجائب وتحف المعمار المملوكى، بين مساجد ومدارس وحصون ووكالات تجارية. إلا أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨، كان أكبر كارثة اقتصادية حلت بمصر

المملوكية، إذ فقدت مصر كل المكوس التى كانت تحصل عليها، من مرور البضائع القادمة من الهند فى طريقها إلى أوروبا. وهكذا أدت هذه الصعوبات الاقتصادية، بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية بسبب تمرد البرجية، إلى سقوط مصر سنة ١٥١٧ فى قبضة العثمانيين.

يستمر المماليك فى ممارسة نفوذهم باعتبارهم شركاء فى السلطة مع الدولة العثمانية، رغم وجود جنود إنكشارية أتراك، للسيطرة على البلاد. ستعرف مصر فترات اضطراب، تتقاتل خلالها الفرق المتناحرة، وسينجح على بك الكبير سنة ١٧٦٠ فى التخلص من منافسيه والانفراد بالسلطة، ولكن تعود البلاد من بعده إلى السقوط فى الفوضى. فى يوليو ١٧٩٨ يتغلب بونابارت بسهولة على فلول المماليك، محطماً فرسانهم الذين كانوا يبثون الرعب سابقًا، وذلك فى المعركة التى عرفت باسم (موقعة الأهرامات) ثم استولى على قصورهم الفخمة.

يعود بونابارت إلى فرنسا ببعض المماليك، وكان أكثرهم إخلاصا له يدعى رستم، وسيغير اسمه إلى روستان فيما بعد، وقد كوّن منهم فرقة عسكرية خاصة أوكلت إلى (ميرا) مهمة العناية بها والنظر فى شؤونها، وقد خصصت لهم ثكنات فى (مولان)، قبل أن يدمجوا فى فرقة أخرى أكبر، سميت صيّادو الشرق، وسيتميّز مماليك الإمبراطور نابوليون الأول [هو نابوليون بونابارت نفسه بعد أن عيّن نفسه إمبراطوراً وألغى لقب بونابارت]، باعتبارهم مقاتلين بارعين، خاصة فى معركتى أوسترليتز وإيلو، لذلك أصبحت لهم شعبية كبيرة فى فرنسا، لدرجة ظهور موضة الإعجاب بكل ما هو مملوكى، بعد أن كانت قد ظهرت موضة الجنون بكل ما هو مصرى قديم.

أما المماليك الذين كانوا قد بقوا فى القاهرة، فقد تحوّلوا إلى ضحايا مذبحة القلعة التى كان محمد على الحاكم الجديد للبلاد قد أعدها لهم يوم ١ مارس سنة ١٨١١، بعد أن دعاهم إلى الاحتفال بمناسبة تنصيب ابنه طوسون قائداً عامًا للجيوش المصرية فى الجزيرة العربية، وبحجة حثهم على اللحاق به فى موكبه المتجه إلى هناك.

لبّى الدعوة أربعة وعشرون من أمراء المماليك، الذين حضروا إلى القلعة فى ملابس التشريفة، ومعهم أربعمائة من رجالهم، فاستقبلهم محمد على بحفاوة بالغة، وقدم لهم القهوة.

قادهم بعد ذلك إلى الموكب المزعوم، الذى بدأ السير بالمرور داخل القلعة، فى طريق ملتو ينحدر نحو المدينة، ومحاط على الجانبين بأسوار عالية، بها فتحات ضيقة انطلقت منها النيران فجأة، إنها (المذبحة). تقول الشائعات إن مملوكًا واحداً تمكن من الهرب. هذه هى النهاية الدامية المثيرة، لفصل من التاريخ المصرى دام حوالى ستة قرون.

٨٤ - الزواج / Mariage

فى مصر الزواج إجبار لا اختيار. فى مصر غالبا لا يمكنك اختيار شريك حياتك، وإنما أنت مضطر ومجبر على قبول شخص بعينه. فى مصر لا يمكنك أن تبقى بلا زواج، فأنت مضطر أن تتزوج يومًا ما، إذ إن البقاء فى حالة العزوبية شىء نادر جداً ومثير للشكوك. ثم يجب أن تكون هناك القدرة المالية، على تحمل مصاريف الزواج، والتى تقع على عاتق الرجل المتقدّم للزواج، فى صورة مهر يقدّمه إلى الشابة التى سيتزوجها، تحدد قيمته وطرق سداده فى عقد الزواج.

ثم هناك حفلتا الخطوبة والزفاف اللتان تكلفان عادة مبالغ طائلة، مما يقود العائلتين إلى حافة الإفلاس، فالمهم هنا هو استعراض الثراء، فتحرص العائلات الثرية على الاحتفال بهاتين المناسبتين فى الفنادق الكبرى، بشكل ينبغى أن يفوق كل توقعات ضيوفهم. أما العائلات المتواضعة ماديًا، فتدّخر من مالها لسنوات طويلة، ثم تقترض بعض الأموال الإضافية، حتى يتمكن الآباء من تزويج الأبناء بالشكل اللائق.

وحيث إن الأحوال الاقتصادية للمصريين مضطربة بشكل عام، فقد عملت الدولة على تنظيم بعض حفلات العرس الجماعي، كانت أول حفلة منها سنة ١٩٩٦، في ملعب لكرة القدم، حيث تم عقد قران ٢٤٠٠ شاباً وشابة، تم اختيارهم من بين مرشحين أكثر عدداً، وقد حضروا إلى الحفل مع أصدقائهم وأقاربهم، ولم يتكلف أيٌ منهم جنيهاً واحداً، وقد تبرّع بعض المغنيين المشهورين بالغناء في الحفل مجاناً. ولم يتوقف نصيب المحظوظين عند هذا الحد، بل قدّمت لهم بعض الشركات هدايا مجانية، من الأجهزة الكهربائية الخاصة بالاستعمال المنزلي، والأثواب للشابات، ودعوات مجانية لزيارة بعض مصففي الشعر. ولكن يبدو أن هذا الاحتفال لم يتكرر كثيراً فيما بعد.

إن تأخّر متوسّط سن الزواج في مصر، يعود إلى أسباب عديدة، منها صعوبة الحصول على عمل وصعوبة الحصول على سكن، وهذا المتوسط في الوقت الحالي (٢٠٠١) هو ٢٢ سنة للفتيات و٢٩ سنة للفتيان. وإن كان هذا لا يمنع بعض العائلات الريفية من تزويج بناتهن في سن مبكر جداً، أي قبل بلوغ السن القانوني في مصر وهو ١٦ سنة للفتاة. هنّ يتزوّجن ثم يجدن أنفسهنّ في خلال عام أمّهات. هناك أيضاً مشكلة خطيرة، وهي الإتجار في الفتيات المراهقات، بتزويجهن من أثرياء عرب متقدّمين في السن، وقادمين من بلاد أخرى.

من التقاليد التي كانت معروفة في مصر على نطاق واسع، هو أن على الفتاة في ليلة العرس (الدخلة)، عليها أن تثبت لعريسها أنها لا تزال عذراء. كان الإثبات أو الدليل على ذلك، هو أن يخرج منديل ملطخ بالدم الأحمر من حجرة العريسين، ثم يعرض بزهو على الأقارب والمعارف. أصبح هذا من التقاليد البائدة. لكن يحدث أحياناً في الوقت الحالي أن تطلب أم العريس مثلاً، اصطحاب خطيبة ابنها قبل عقد الزواج، إلى طبيبة أمراض نساء وولادة، لتفحصها وتعطيها شهادة عذرية.

إلا أنه من الملاحظ أن فرق السن بين الزوجين، يكون أحياناً كبيراً إلى درجة أن يلعب الزوج في هذه الحالات دور السيد الآمر الناهي المستبد. حسب استقصاء أعدّه

المجلس القـومى للأسـرة سنة ١٩٩٧ على عـيّنة من السـيـدات المتـزوجـات بين سن الخـامسة عشرة وسن التـاسعة والأربعين، اعترف ثلثهنّ بأن أزواجـهنّ يضـربوهنّ، أو ضربوهنّ على الأقل مرة واحدة، المؤلم هو أن ثلثى سيدات هذه العينة، يجدن أنه من الطبيعى أن يضرب الرجل زوجته، إذا رفضت مثلا أن تمارس معه حقوقه الزوجية، أو حتى إذا ردّت عليه بطريقة سخيفة.

ويستمر عدم المساواة بين الجنسين، بسبب تميّز وضع الذكر فى المجتمع، أولاً من حيث قدرته على تطليق زوجته بسهولة، ثانيًا من حيث قدرته على الاحتفاظ بأكثر من زوجة. ولكن تنبغى الإشارة إلى تراجع ممارسة تعدد الزوجات فى مصر، وإن كان هذا لا يمنع الرجال القادرين ماديًا، من تغيير زوجاتهم. أما الوضع الذى تظهر فيه تمامًا وبوضوح، مسألة عدم المساواة بين الجنسين، فهى حالة الخيانة الزوجية، فإذا قتلت الزوجة زوجها الخائن، تدان بجريمة قتل، أما إذا انعكس الوضع وقتل الرجل زوجته الخائنة، فإنه يحصل على البراءة لدفاعه عن شرفه.

إن قانون الأحوال الشخصية الجديد، الصادر فى فبراير سنة ٢٠٠٠، أدى بعض الشىء إلى تحسين أوضاع النساء. لقد أصبح للمرأة الآن الحق فى طلب الطلاق بدون موافقة الزوج، بشرط أن تتنازل له عن نفقتها. ما زال القانون يشترط موافقة الزوج لتحصل الزوجة على جواز سفر، لكنها تستطيع فى حالة رفضه أن تقاضيه. بهذا الخصوص هناك قصة طريفة وقعت فى نهاية السبعينيات، فى مطار القاهرة، عندما كانت وزيرة الشؤون الاجتماعية قد استقرت على مقعدها فى الطائرة، إذ حضر إليها قائد الطائرة يطلب منها محرجًا مغادرة الطائرة، لعدم موافقة زوجها على سفرها فى مهمة خارج البلاد.

انظر مقالات: ختان البنات رقم (٤٦)/ الحركة النسائية رقم (٥١)/ الخرافات الشعبية رقم (١٣٤).

٨٥ - مارييت (أوجست) / Mariette (Auguste)

سنة ١٨٥٠ يصل شاب فى التاسعة والعشرين من عمره اسمه مارييت إلى الإسكندرية، إنه من مدينة فرنسية صغيرة اسمها بولونيه سير مار. إنه أحد مجانين مصر القديمة. كان متحف اللوفر الباريسى قد كلفه بمهمة، شراء وجمع أكبر قدر ممكن من المخطوطات القبطية، من الأديرة القبطية. عندما وجد أن أبواب تلك الأديرة قد أغلقت فى وجهه، تساءل هل يعود إلى فرنسا؟ يقرر أولاً الذهاب إلى أعلى قلعة صلاح الدين، لإلقاء نظرة على مدينة القاهرة، التى وقع فى هواها منذ النظرة الأولى، انظروا ماذا كتب:

(هدوء غريب يسود المدينة/ ضباب كثيف قد سقط عليها/ إنه يغطى كل المنازل حتى الأسطح/ كأنه بحر عميق/ بزغت منه ثلاثمائة مئذنة/ مثل صوارى أسطول غارق تحت الماء/ وبعيداً إلى الجنوب/ يمكننا أن نرى أشجار النخيل/ التى تتشبّث بجذورها فى أطلال منف/ وفى الغرب تغرق الأهرامات/ رغم ثباتها ووثوقها/ فى ذهب ونار شمس الغروب/ كم كان المنظر عظيماً/ تشرّبته كل خلايا جسدى/ بشكل عنيف بدا لى مؤلما/ إذ إن حلم حياتى يتجسّد أمامى/ إنه هناك فى متناول يدى/ حيث عالم كامل من الجبّانات وشواهد القبور والكتابات والتماثيل).

قرر مارييت البقاء فى مصر، ليفاجأ بأن أحد نصوص سترابون [جغرافى ورحّالة يونانى زار مصر فى القرن الأول للميلاد]، يقفز أمام عينيه ويشغل تفكيره، وهو النص الذى يصف جبّانة منف فيقول (السيرابيوم(*) الذى بنى وسط الرمال الكثيفة، وهو لعبادة الإله سيرابيس [الذى يظهر فى صورة زيوس لليونانيين، وفى صورة العجل أبيس للمصريين]، انتهى إلى أن أصبح مغطى تماماً بالتلال الرملية، وعندما زرت الموقع كانت تماثيل أبى الهول المؤدية إلى المعبد، قد اندفنت فى الرمال، بعضها إلى مستوى الرأس، وبعضها إلى مستوى منتصف الجسم فقط).

يندفع مارييت إلى قرية تقع بالقرب من موقع السيرابيوم، ويبدأ أولاً باستئجار ثلاثين عاملاً يدويًا، ثم ثانيًا بشراء أدوات الحفر، ثم ثالثًا يبدأ عملية مسح وتمشيط لموقع سقارة، فيستخرج أثناء المسح الأولى ١٤ تمثالاً لأبى الهول! وبالتدريج تظهر ملامح مجمّع جنائزى ضخم، معابد وتوابيت حجرية ومومياوات وحلىّ رائعة الجمال. فى العام التالى يكتشف وجود ممر تحت الأرض، ويشاهد ظاهرة غريبة وصفها فى مذكراته قائلاً (عند فتح المدخل الشمالى للممر الأرضى، خرج عمود ضخم من الدخان الأزرق، باندفاع وصخب وجلبة. كما لو كنا عند فوهة بركان، واتجه العمود بعد ذلك مباشرة نحو السماء، وظل خروجه متصلا لمدة لا تقل عن أربع ساعات، وهو الهواء الفاسد الذى كان محبوسًا تحت الأرض منذ الأزمنة القديمة).

كنا فى سنة ١٨٥١، فى حكم عباس حلمى الأول ولم تكن عمليات البحث عن الآثار قد نظمت بعد تحت إشراف الحكومة المصرية، وبالتالى فقد كان هناك العديد من الأوروبيين، الذين يعملون فى العديد من المواقع لحسابهم الخاص، ثم يعودون إلى بلادهم بكل ما يعثرون عليه، كأنه مال بلا صاحب. هكذا تمكن مارييت من إرسال مئات الصناديق إلى فرنسا، علنا أو فى الخفاء لا فرق، فى الإجمالى أرسل نحو ستة آلاف قطعة أثرية، مكتشفة فقط فى سقارة، وهى حتى الآن فى اللوفر تسر خاطر زائرى قسمه المصرى.

سنة ١٨٥٨ يغير مارييت اتجاهه تمامًا فى الحياة، عندما يعهد إليه سعيد باشا نائب السلطان العثمانى، بمنصب مدير الآثار المصرية القديمة، بعد أن كان الباشا قد أدرك حاجة البلاد إلى تنظيم المسألة، فأصبح مارييت بمنصبه الجديد، أكثر المدافعين شراسة وعنادًا، عن التراث الوطنى المصرى. ولنضرب على ذلك مثلاً واحداً، فعندما نظمت بلدية باريس، معرضها الدولى لسنة ١٨٦٧، زارت الإمبراطورة أوجينى، زوجة إمبراطور فرنسا نابوليون الثالث، الجناح المصرى، ثم أبدت رغبتها فى الاحتفاظ

ببعض الحلىّ القديمة، مجموعة مجوهرات آخ حوتب، فاعترض ماربيت بشدة، مع ما كان فى ذلك من خطر على مستقبله المهنى.

وقد نجح أيضًا فى تحقيق أحد أهم أحلام حياته، وهو إقامة متحف للآثار المصرية فى القاهرة، ولكن طبعًا كانت البداية متواضعة، فلم تشغل المعروضات أكثر من ست غرف سيئة الإضاءة، فى أحد مخازن البضائع بمنطقة بولاق، حيث كانت الثعابين والعقارب أحيانًا تفاجىء الزوار. وكان ماربيت يقيم فى منزل قريب من المتحف، مع أفراد عائلته كثيرة العدد، وحديقة حيوان مصغرة ملحقة بالمنزل، حيث احتفظ ببعض القرود وبغزالة وجمل. حصل ماربيت على لقب باشا، وهو يواصل حفائره الأثرية فى كل مكان، بين مصر العليا والسفلى.

إن قدراته الحدسية وبديهته الحاضرة وقوة ملاحظته، بالإضافة إلى طبعه المتذمّر صعب الإرضاء، كان لكل هذا تأثيره القوى على معاونيه. ثيودول ديفيريا يحكى لنا موقفًا شاهده بنفسه، أثناء إزالة الأتربة عن معبد أبيدوس [العرابة المدفونة/البلينا/سوهاج]، يقول (بحضوره الذهنى المعتاد أثناء العمل، أشار ماربيت بيده إلى عمال الحفر، ليحدد لهم المكان الذى ينبغى البحث فيه عن سور المعبد المدفون تحت الأرض، ولدهشة الجميع فإن بعض الضربات بالفؤوس كانت كافية، ليظهر السور بكل ما عليه من نقوش بالحفر الغائر، وكتابات على قدر كبير من الأهمية.

جاء إلى ماربيت على الفور، رجل عجوز من أهل المنطقة، ليسأله عن عمره، وهل هو -أى ماربيت- عجوز إلى هذا الحد حتى يتذكر وجود السور فى هذا المكان، وأضاف إنه يعيش هنا منذ طفولته ولم يغادر المكان طوال حياته، ولم يسمع أبدًا بوجود سور هنا. أجاب ماربيت بدون تردد أن عمره ثلاثة آلاف عام، فرد الرجل العجوز قائلاً لا بد أنك قديس لتبدو شابًا هكذا رغم سنك الهائل. وظل هذا الرجل يأتى كل يوم ليتأمل ماربيت، الذى استمرأ اللعبة، فكان كلما رأى العجوز، يقوم بتحريك عصاه فى الهواء فى اتجاهات محددة، كما لو أنه كان ساحرا يمارس بعض المعجزات).

إلا أن ماربيت تعرّض لمشكلات عديدة على المستوى الشخصى، منها الأمراض المتتالية التى أنهكته، والأحزان العائلية التى أمضته، بالإضافة إلى المشكلات المالية، ليموت فى سن التاسعة والخمسين سنة ١٨٨١ . وبعد جنازة رسمية مهيبة دفن أمام متحفه فى بولاق. ثم عندما انتقل المتحف إلى مقره الجديد بميدان الإسماعيلية (التحرير)، نقلت مقبرة ماربيت إلى حديقة المتحف الجديد، بالقرب من المدخل، مع تمثال له من البرونز يصوّره فى سن النضج. بعده يأتى عالم مصريات فرنسى آخر على رأس إدارة الآثار المصرية، هو ماسبيرو، وتظل هذه الإدارة فى أيدى فرنسية حتى ثورة ١٩٥٢، وكان آخر مدير لها هو الأب الشنوانى (الكاهن) إتيان دريوتون.

انظر مقالات: عايدة رقم (٤)/ سقارة رقم (١٢٧).

٨٦ - مزاج / Mazag

لأول مرة يعترض الناشر على عنوان واحدة من رواياتى، أردت أن أكتب كلمة (مزاج) بحروف فرنسية، قال (إن الكلمة لا تعنى أى شىء للقارئ الفرنسى) ومع ذلك فقد صممّت وحصلت على ما أردت، متحمّلاً ما فى ذلك من مخاطر. كم من مرّة سمعت هذه العبارة فى طفولتى (مزاجى كده)؟ كانت تقال من شخص يريد أن يبرر نزوة عابرة، ويقولها باستمتاع خاص، أو تقال عندما يريد القائل ألا يفعل أى شىء، وإنما يريد فقط أن يستمتع بحالة من السلبية اللذيذة، (هذا يرضينى، أنا مبسوط كده).

هناك كلمة أخرى قريبة فى المعنى من كلمة (مزاج) وهى كلمة (كيف)، وقد رأى الأب هنرى عيروط، أن كلمة (كيف) تعبّر عن أحد الملامح الرئيسية فى شخصية الفلاح المصرى. كتب (إنها كلمة عميقة المعنى، رحراحة واسعة، نجد بداخلها رغبة الفلاح فى راحة طويلة، أى مثلاً أن ينام ثم يستيقظ ثم يعود إلى النوم من جديد دون فعل أى

شىء، ألا يقول أى شىء، أو حتى ألا يفكر فى أى شىء. هل تعلم الفلاح ذلك الطبع من الأرض التى يفلحها؟ إنه ينتظر بدون نشاط واضح، كما تفعل الأرض عندما تعمل فى صمت وسرية قبل أن يظهر النبات على سطحها.

إنه صبر من نوع فريد، أن ينام الإنسان بينما تظل روحه متيقظة، مثلما تفعل الأرض، أو يغرق تماماً فى أحلام يقظة، أو فى دندنة موسيقية تهدهد روحه، حركة مستمرة متذبذبة ذهاباً وإياباً بين الحقل والمنزل فى انتظار الطرح. ثم إن فى فلسفته تلك نوع من التباطؤ، قد يكون مفيداً فى تخفيف وقع الصدمات على البشر. التكاسل والتباطؤ والانتظار، هذا هو (كيف) الفلاح، هذا هو موقف الفلاح الأساسى تجاه الحياة، هذا هو أسلوبه نصف الواعى لتقليل عذاباته فى الحياة). من كتاب (الفلاح) لهنرى عيروط، الذى ترجم إلى الفرنسية بعنوان (فلاحو مصر)، وطبع فى فرنسا سنة ١٩٥٢ .

إذا حاولت ترجمة معنى الكلمة لشخص فرنسى، فسأكون مضطراً إلى استعمال كلمتين فرنسيتين، الأولى هى النزوة التى يتلذذ بها صاحبها، والثانية هى الميل إلى الدعابة. وقد يمكن تفسير الكلمة بالعبارة التالية (حيث إن طبيعتى الخاصة وشخصيتى قد استقرت ملامحها على شكلها الحالى، فإنى أجد متعتى الخاصة فى فعل كذا وكذا من الأشياء). إذن فإن المزاج هو شىء شخصى جداً، قد يكون غير معقول أو مقبول من الآخرين، ولا يعرف صاحب المزاج كيف يفسّر هذا الشىء للآخرين، وقد لا يجد حتى الدافع أو الرغبة فى تفسيره لهم.

إلا أن بعض الأمزجة قد تؤدّى بأصحابها إلى مواقف صعبة وخطيرة، مثل مزاج تدخين الحشيش، وحالة الانتشاء التى يكون عليها الشخص بعد تدخينه الحشيش. أو مثلاً بعض التصرفات التى قد تدل على وجود شذوذ ما فى الشخصية، مثل أن يجد الشخص لذة فى تعذيب الحيوانات عديمة الحيلة. لكن المزاج الحقيقى قد يكون فى

أشياء بسيطة، مثل الاستمتاع بنسمة منعشة في ليلة صيفية ناعمة، إذن فإن الكلمة لا تقتصر فقط على المعانى السلبية، بل قد تكون أحيانًا إيجابية.

وكلٌ منا له مزاجه الخاص، الذى يعبّر عنه فى نشاطه الخاص، فأنا مثلا أجد مزاجى الخاص فى الكتابة وفى الحكى، وكان مزاج بازيل بطرخانى (الشخصية الرئيسية فى روايتى المذكورة أعلاه) مزاجًا معقدًا إلى حد ما، يتمثل فى تقديم خدمات بدون مقابل، أو استقبال خدمات بدون مقابل، أى أن مزاجه هو فى الحالتين، أن يكون أحيانًا دائنًا، أو أن يكون أحيانًا مدينا، فقط من أجل نسج علاقات إنسانية مع البشر.

انظر مقال: شيشة رقم (٢٢).

٨٧ – مظبوط / Mazbout

إن المكتب الواسع لأحد أثرياء الريف ليس إلا صالة استقبال، يرحّب فيها طول النهار بضيوفه الذين يتتابع وصولهم من أصحاب مصالح يلحون فى السؤال أو من مقرّظين متهافتين مسّاحى جوخ. أصناف على كل لون من ألوان البشر، يأخذون أماكنهم على الأرائك، ويتبادلون المجاملات مع صاحب المكان. كان يجب علىّ أن أتسلح بالصبر حتى أتمكن فى النهاية من طرح سؤالى. ثم جاء الخدم، يحمل كل منهم على يده صينية، يسألون الضيوف (شاى؟ قهوة؟).

يقدّم الشاى فى أكواب زجاجية صغيرة، ويشربه الجميع دائمًا بنفس الطريقة، أى ساخنا جدًا إلى درجة الغليان، وأسود اللون مثل الحبر، على أن تكون مضافة إليه كميات خرافية من السكر. أما القهوة فوضعها مختلف، فهى تعدّ حسب ذوق الزبون. القهوة التركى تعدّ فى كنكة نحاسية، بذراع طويل خشبى، وعنق ضيق، ويمكن أن تشرب على ألوان مختلفة وفقا لكمية السكر، فهى إما سادة (أى بدون سكر)، أو على الريحة (أى بسكر خفيف)، أو زيادة (سكر كثير)، أو مظبوط (أى سكر متوسط). وهذا

التقسيم يدلكم على أن إعداد القهوة، ليست مسألة اعتباطية، وإنما هى مسألة تقوم على علم محسوب بدقة، لا يقبل البين بين.

أنا أفضل القهوة بدون سكر، وهى القهوة التى يشربها المصريون فقط عندما يذهبون للعزاء فى وفاة شخص، أما أنا فأشربها هكذا لأنها أفضل طريقة لتذوق المشروب. وكانت القهوة تشرب فى مصر بدون سكر، حتى نهاية القرن الثامن عشر، لدرجة أن المصريين كانوا يسخرون من أعضاء الحملة الفرنسية، الذين يضيفون السكر إلى القهوة. أما المصريون فكانوا يكتفون بتناول شىء من الفطائر المحلاة بالسكر مع القهوة السادة، أو خلاصة عصائر الفاكهة المبرّدة [طبعا هو يتحدّث عن طبقة مرفهة من مصريى ذلك الوقت]. وكان المسلمون الأتقياء الذين يذهبون إلى صلاة الفجر فى المساجد، يشربون فنجان القهوة قبل مغادرة منازلهم.

إلا أن الموقف من القهوة لم يكن دائمًا هكذا، إذ إن هذا المشروب عند ظهوره فى مصر لأول مرة، كان علماء الأزهر قد منعوا تناوله، عنداً فى الصوفية الذين قرّظوا هذا المشروب، وحبّذوا تناوله، ليصبح الإنسان أكثر انتباهًا إلى متطلبات العبادة. كان هذا قبل الغزو العثمانى، الذى تغير الوضع كثيراً معه، إذ انتشرت عادة احتساء القهوة فى مقاهى القاهرة، منذ القرن السادس عشر، وكانت تسمى فى ذلك الوقت (ماء الأتراك الأسود). كان طريق قوافل البن يمر بمصر بين اليمن وأوروبا، أولاً قادمًا من البحر الأحمر إلى ميناء السويس، ومنه عبر الطرق البرية إلى موانىء البحر المتوسط.

يقول إدوارد وليام لين فى كتابه (أخلاق وعادات المصريين المحدثين)، الصادر سنة ١٨٣٦، إن القهوة كانت معطرة، كما يحدث أحيانًا حتى الآن، إذ تضاف إليها حبوب المستكة، أما الأغنياء فيضيفون العنبر، كما يشير إلى طريقة تحضير القهوة، التى ما زالت مستعملة حتى الآن:

(يغلى الماء أولا، ثم يضاف إليه مسحوق القهوة المحمّصة حديثًا، ثم يقلب فى الماء، ثم تعاد الكنكة لتوضع على النار، حتى يبدأ المزيج بداخلها فى الارتفاع حتى فوّهتها، ثم تسكب القهوة فى الفناجين بطريقة فنية تسمح لكل فنجان بالاحتفاظ بالسطح السميك [الوش]، وهو طبقة كثيفة من القهوة، تشبه القشدة فى حالة غليان اللبن، وهو روح القهوة كما يقولون، وفى الواقع إن السر فى تكوين وش القهوة، هى حركة معينة من يد الساقى، لا يكتسبها إلا المحترفون. إن أكثر من يهتم بهذه الطبقة الكثيفة من القهوة، التى تترسّب فى قعر الفنجان، هنّ قارئات الفنجان).

٨٨ - البحر المتوسّط / Méditerranée

بالنسبة لى كان شاطىء البحر دائمًا هو شاطىء البحر المتوسّط، رغم ما للبحر الأحمر من شعبية حاليًا. كانت جنّة طفولتى تسمّى الدخيلة. كنا حوالى خمس عشرة أسرة، تتجمع كل صيف على أطراف الدخيلة، التى كانت تقع فى ذلك الوقت على بعد حوالى ١٠ كيلومترات إلى الغرب من الإسكندرية.

لم نكن نرغب أبدًا فى مغادرة ذلك المكان للذهاب إلى أى مكان آخر، ولم يكن لتلك القرية ميزة خاصة، سوى بعدها عن العمران، كنا خلال ثلاثة أشهر نعيش معزولين تمامًا عن العالم، مكتفين من هذه الدنيا بالبحر أمامنا والصحراء خلفنا. كان آباؤنا الذين يعملون فى القاهرة يتركوننا طوال الأسبوع، ولا يعودون إلينا إلا فى يومى عطلة نهاية الأسبوع، أما خلال بقية أيام الأسبوع، فالمكان يتحوّل إلى جمهورية النساء والأطفال، نعيش على إيقاع الشمس، ونحتل الأماكن المجاورة على الشاطىء والصخور.

فى بعض أيام الآحاد، كنا نذهب لقضاء النهار على شاطىء العجمى، الذى كان يقع إلى الغرب من الدخيلة، فتقف سيارات آبائنا على الطريق الأسفلت، ثم من هناك

إلى شاطىء البحر، كان ينبغى علينا اختراق حقول مهجورة من شجيرات التين البرية، على الأقدام وذلك لأن إطارات سيارات الآباء، لا تستطيع أن تجازف بعبور الحقول، حتى لا تنغرز فى الرمال البيضاء الناعمة التى اشتهر بها العجمى، والتى قيل لنا عنها أنها أجمل رمال فى العالم، وأنها صاحبة الفضل فى أن يكون لمياه العجمى، هذا اللون اللازوردى الرائع.

اثنان من مواطنى الإسكندرية هما السويسرى رودولف بليس، والمالطى فيليب بيانكى، هما أول من بنى شاليهات على شاطىء العجمى المهجور، الذى يقع عند أطراف العالم المأهول، ثم لحق بهما بعد ذلك أصدقاؤهما فى سنوات تالية، ليبنى كلٌ منهم فيللا صغيرة بشرفات، ذات أبواب خشبية بألوان مختلفة، زرقاء وحمراء وصفراء وخضراء.

ثم بدأ العجمى فى مصر منذ أوائل الستينيات، يصبح أقرب إلى شاطىء سان تروبيه فى جنوب فرنسا [حيث يقضى نجوم السينما والغناء الفرنسيين إجازاتهم الصيفية، منذ أن اعتادت بريجيت باردو الذهاب إلى هناك فى أواخر الخمسينيات]، خاصة العجمى بيانكى، حيث الفيللات ذات الأسوار العالية التى تحتوى حمامات سباحة بداخل حدائقها، والحوريات المستحمّات يتجولن بمايوهات بيكينى، وأماكن السهر والرقص واللهو حتى الصباح، لمجتمع مرفه منغلق على ذاته.

اليوم لم أعد أجرؤ على عبور الدخيلة، التى تحوّلت إلى منطقة صناعية متوحّشة، بمداخن تفحّ العدم فى الهواء. لم أعد أميّز أى شىء له أية صلة بطفولتى. خسارة. أما العجمى فقد تحوّل إلى حىّ شعبى، إلى غابة من العمارات المرتفعة البشعة الشنيعة، حيث تتزاحم خلال شهور الصيف آلاف العائلات المصرية، فى وسط ضجيج هائل من أبواق السيارات والزحام المرورى.

وخلال سنوات مراهقتى فى أواخر الخمسينيات، كنت قد عسكرت مع أصدقائى فى خيام تحت النخيل، على شاطىء مرسى مطروح، فى مكان يقع على خليج فردوسى، بمياه بحر شفافة، فى مقابل الكهف الذى أقام فيه القائد الألمانى رومل قبيل معركة العلمين، وليس بعيداً عنا كان هناك حمام كليوباترا الشهير، حيث كانت آخر ملكات البطالمة، كما يعتقد، قد اعتادت المجىء للترفيه عن نفسها (مع أحد عشاقها؟)، وهو يبدو كما لو كان حمام سباحة خاص، تم إعداده فى مياه البحر، ثم حفروا حوله صخور المكان. كنا نتجوّل داخل مدينة مطروح فى كاريتات صغيرة (عربات خشبية بعجلات خشبية) تجرّها الحمير، لنذهب إلى بقال يونانى عجوز يبيع لنا سندوتشات الجبن الأبيض بالزيتون.

كانت مرسى مطروح خلال وقت ما، قد قبلت قيام قاعدة بحرية سوفييتية إلى جوارها، كانت تلك فكرة جيدة، ولكن الغزاة الحاليين الذين يأتون كل عام لدكّ المدينة هم المصطافون اللاهون العابثون. إن المدينة تنهار مثل غيرها من المدن المصرية، رغم ظهور عشرة فنادق جديدة إلى جوار فندقيها الجميلين العتيقين، الليدو والبوسيت، إلا أنها تصخب طول الليل وتلعب أضواؤها الكهربائية. لحسن الحظ ما زالت رمال شواطىء مطروح على حالها لم يتغير لونها، وما زال الخليج لازورديا رغم كل المصائب التى يتحملها.

الآن أصبح الساحل الشمالى كله، من الإسكندرية إلى العلمين، بامتداد حوالى ١٠٠ كيلومتراً، مشغولا بالقرى السياحية، التى تكاثرت مثل الفطريات، التى تنمو بسرعة ولكن بطريقة عشوائية، صحيح أن بعضها يتميز بالرشاقة والجمال، ولكن لم يعد بالإمكان الوصول إلى شاطىء البحر إلا لسكان هذه القرى، لم يعد هناك أى شاطىء يمكن الدخول إليه مجاناً. الشاطىء الوحيد الذى لا يزال يحتفظ ببعض سحر الماضى، هو الشاطىء المحيط بفندق سيدى عبد الرحمن، وما زال يحتفظ بقدر مناسب من النظافة ونقاء الهواء، أعتقد أنه أنظف شواطىء مصر على البحر المتوسط.

٨٩ – مآذن القاهرة / Minarets du Caire

الساعة الآن هى الخامسة بعد الظهر، وأنا فى مسجد أحمد بن طولون، حيث تجرى بعض عمليات الترميم، وقد أطال العمّال فترة قيلولتهم، ولم يكن بالمسجد أى سيّاح أو رجال من أهل المنطقة للصلاة فيه، كان العمال منهكين، وشعرت بأنهم فى حالة من الاسترخاء، بسبب حرارة الشمس التى تسحق فناء المسجد الجامع. كنت بمنتهى البساطة قد دخلت للتو من باب المسجد المفتوح باتساع، لأتأمل بإعجاب هذه التحفة المعمارية الإسلامية، وهى المجموعة المعمارية الوحيدة من القرن التاسع الميلادى التى ما زالت فى حالة حفظ جيدة.

كان الحارس المعمّم يجلس على الأرض إلى جوار الحائط، مربّعًا عاقداً ساقيه، بمجرد أن رآنى أشار بيده بما يفهم منه أن المسجد قد أغلق أبوابه، وأن الموعد قد تأخر على الزيارة. إن ورقة نقدية فئة جنيه مصرى واحد، جعلت رأى الحارس ينحرف ١٨٠ درجة! صعدت أثناء الزيارة إلى مئذنة المسجد الفريدة، والوحيدة من نوعها [باستثناء مئذنة جامع سامراء بالعراق]، فأنت تصعد المئذنة باستعمال سلالم خارجية، تدور حول بدن المئذنة من الخارج بشكل حلزونى.

وطبقًا لرواية شعبية أسطورية أو خرافية يردّدها العامة، أن مهندس ابن طولون المعمارى، كان مضطراً للرضوخ إلى إحدى نزوات السلطان، الذى كان قد طلب من المعمارى بناء المئذنة طبقًا للشكل غير المنتظم لورقة كان السلطان قد ألقى بها على أرض المسجد فى غضب، عندما كان المعمارى قد سأله رأيه فى الشكل الذى يريد أن تكون عليه مئذنة جامعه.

إن درجات السلم الحلزونى المؤدّى إلى قمة المئذنة، قد تحوّل لونها إلى السواد من طول استعمالها، مما أثار عاطفتى الانفعالية بشكل غير عادى. هذه الدرجات تقودك أولاً إلى نهاية الجزء المربّع من البدن، ثم ترتفع معك إلى طابق يدور بدنه الأسطوانى

مع السلم الحلزوني. من قمّة المئذنة، كان منظر القاهرة آسراً ساحراً خلاباً، فهو ليس مثل منظرها من القلعة، حيث نكون أكثر بعداً وارتفاعاً، هنا يبدو الأمر كما لو كنا في شرفة مرتفعة، نطل على كل شرفات القاهرة [مسجد ابن طولون تحيط به المنازل بخلاف القلعة الواقعة خارج القاهرة].

أول ما نراه هي مآذن المساجد الأخرى، وهي على كل الأشكال ومن كل العصور، طولوني وأيوبي ومملوكي بحري وعثماني، تشكيلة لا توجد في أية مدينة أخرى من مدن العالم الإسلامي. الكثير من هذه المآذن يتكوّن من قاعدة مكعّبة، يعلوها بدن مثمّن الأضلاع، يعلوه طابق مستدير، والقمة عادة ما تكون بصلية الشكل، أو تكون جسماً مستديراً كرويّ الشكل. ثم هناك تنويعات مختلفة على هذا اللحن الأساسي، مثلاً في فرج بن برقوق، تنتهي المئذنة بالبدن المثمّن الأضلاع، وفي السلطان حسن توجد فوق القاعدة المكعبة، عدة طوابق من الأبدان المثمّنة الأضلاع، والإمام الشافعي تنتهي قمته لا بهلال نحاسي بل بمركب.

عندما جاء بيار لوتي إلى القاهرة سنة ١٩٠٠، وصفها بأنها مدينة المساجد، (في كل مكان ترتفع هذه المآذن إلى السماء بأبدانها المزينة بنقوش الأرابسك(*) الجميلة [مزيج من الأشكال الهندسية والحروف الكتابية والعناصر النباتية المجرّدة]، المحفورة حفراً بارزاً أو غائراً، في تنويعات لا نهاية لها. وللأبدان شرفات صغيرة ترتكز أسقفها على أعمدة صغيرة، وهذه الأبدان تتخللها غالباً النوافذ حتى إننا يمكن أحياناً أن نرى ضوء الشمس، وهو يمرّ خلال بدن المئذنة من جهة إلى أخرى.

إن عددها كبير جداً، فمنها ما يظهر على البعد عند خط الأفق، ومنها ما يعلو رأسك مباشرة، وتقف جميعها وكأنها تشير إلى السماء، وكلها بلون رمادي قد يتحوّل إلى اللون الوردي، وقد تجد أحياناً على أبدان أقدمها، قطع خشبية تبرز من البدن، لتأتي الطيور وتقف عليها، وتنتظر إلى خط الأفق حيث رمال الصحراء).

يمكننا أن نتخيّل هنا، أننا قد عثرنا على إحدى لوحات الرسام الاستشراقى الفرنسى چيروم، وهى اللوحة التى تعود إلى سنة ١٨٦٦، وتسمى لوحة (المؤذّن). وفيها نرى شيخًا معممًا رشيق القوام، بذقن صغير مدبب، يقف على شرفة خشبية صغيرة فى قمّة مئذنة مسجده، واضعًا يديه على حافة الشرفة، متجهًا بنظره إلى السماء، ويبدو أنه كان ينطق بالآذان.

فى بداية الإسلام كانت الدعوة إلى الصلاة، تنطلق من الأماكن المرتفعة، فى مدن الإسلام الأولى، أو من شرفات المنازل، ولم تظهر المآذن إلا لاحقا. والكلمة الفرنسية (منارة)، مشتقة من الكلمة العربية التى تعنى (مصدر نور)، وذلك لأن المسلمين كانوا يضعون أعلى المئذنة شعلة نار، يستدل بها المؤمنون على مكان وجود المسجد، فى ظلام المدن قبل اختراع الكهرباء. وفى بعض المساجد توجد مئذنتان أو أكثر، الأزهر مثلاً لديه خمس مآذن. ثم إن ارتفاعات هذه المآذن تختلف جداً، فمئذنتا جامع محمد على بالقلعة مثلا، ترتفعان إلى ٨٢ متراً، فوق مستوى سطح أرضية الجامع.

عندما نخترق أحياء القاهرة الشعبية القديمة، فنحن نعود قرنًا أو قرنين من الزمان إلى الخلف، وعندما نجد أثناء تجوالنا مساجد صغيرة، يمكننا بسهولة أن نتخيل مؤذن الزمن القديم، الذى كان يصعد إلى قمة مئذنة مسجده خمس مرات فى اليوم، ليطلق صيحاته التى كانت تذكر الناس بمواقيت الصلاة. إن لحن الآذان البسيط ينسجم تمامًا مع بيئته الطبيعية. وقد ظهرت بين المؤذنين الكثير من الأصوات الجميلة، التى حصلت على التمرين الكافى من خلال تلاوة الآذان، الذى كان يسعد كل سكان الحىّ، وأحيانًا حتى سكان الأحياء المجاورة. (الله أكبر الله أكبر/ أشهد أن لا إله إلا الله/ أشهد أن محمداً رسول الله/ حىّ على الفلاح/ حىّ على الصلاة).

وكان المؤذن يُختار عادة من بين فاقدى البصر، حتى لا يفاجىء النساء فى شرفاتهنّ بنظراته الذكورية، إلا أن هذا الاحتياط لم يعد ضروريًا الآن، لأن المؤذنين لم يعودوا يصعدون إلى قمم مآذنهم، بل لم يعد حتى لوجودهم ضرورة، فإن الشرائط

المسجلة بأصوات المؤذنين المعروفين، يمكن أن تذاع فى مكبّرات الصوت. واقع الحال إن أصوات المؤذنين قديما بدون مكبّرات الصوت، كانت أكثر تأثيراً فى نفوس المنصتين إليها، وأجمل وقعًا على آذانهم. إن التداخل الحالى بين أصوات مكبرات الصوت، لا يؤدّى إلا إلى ضوضاء مؤذية للأذن.

كنت فى الدقى ذات يوم حيث وجدت عشرة مكبرات صوت فى مسجد واحد، موجّهة إلى عشر جهات مختلفة فى محيط المسجد. عرفت أن سكان المنطقة كانوا قد طالبوا باختصار العدد إلى اثنين أو أربعة، لأن المشكلة هى تداخل الأصوات مع مكبرات الصوت القادمة من مساجد أخرى، ومع اختلاف توقيت بداية الآذان ولو ببضعة ثوان، تكون النتيجة هى عدم فهم أيٍ من العبارات المنطوقة.

وقد اشتكى كذلك طلبة المنطقة، من استمرار إذاعة التلاوة بالمكبّرات الصوتية، لمدد طويلة أثناء مواسم الامتحانات، مطالبين بعدم استعمال المكبرات إلا للآذان خمس مرات فى اليوم، بالإضافة إلى صلاة الجمعة. لكن واقع الحال أن المساجد تفعل ما تريد، فالمكبرات تستعمل لكل أنواع الخطب الدينية، ولكل الإعلانات الخاصة بأنشطة المساجد، طول اليوم وكل أيام الأسبوع. قد تكون الأحوال أفضل بعيداً عن المدن، فما زال ساكنو الأرياف يستمتعون فى بعض الأحيان، بصوت المؤذن على الطريقة القديمة، أى بدون مكبّرات صوت.

٩٠ – محمد على / Mohammed Ali

كان يتفاخر بأنه من مواليد نفس البلد الذى ولد فيه الإسكندر الأكبر (مقدونيا)، ومن مواليد نفس العام الذى ولد فيه نابوليون بونابارت (١٧٦٩). رغم أن هذا التاريخ يثير حاليًا قدراً من الشك فيما يتعلق بمولد بونابارت. فى واقع الأمر لم يكن محمد على محتاجًا إلى التعلق ببونابارت لدخول التاريخ، يكفيه أن مدة حكمه لمصر (٤٤ عامًا)،

وهو البلد الذى تبناه، تفوق مدة حكم بونابارت والإسكندر معًا. ويكفيه أنه أسس أسرة حاكمة، ظلت على عرش مصر قرنًا ونصف قرن من الزمان.

بدأ محمد على حياته تاجرًا للتبغ، ثم أصبح ضابطًا فى الجيش العثمانى، وبهذه الصفة وصل إلى مصر فى ربيع ١٨٠١ قائدًا ثانيًا لفرقة عسكرية من الجنود الألبان. كانت تلك القوات قد جاءت إلى مصر، وهى ولاية عثمانية، للتعاون مع الإنجليز فى طرد الفرنسيين منها. ولكن كانت النتيجة وقوع البلاد فى فوضى عارمة، فقد حاول المماليك بالقوة العودة إلى السلطة. إلا أن محمد على الذى حصل على ترقية فى رتبته، تمكن من ملاعبتهم وتضليلهم بمهارة.

وقد ظهر أمام الشعب المصرى بمظهر المنقذ، حتى أن علماء وأعيان القاهرة اختاروه ليكون حاكمًا لمصر فى يوليو ١٨٠٥، نائبًا عن السلطان العثمانى، الذى وجد نفسه أمام الأمر الواقع، مضطرًا إلى القبول، فإن أحدًا لم ينتظر موافقته أو رفضه. وقد وجد محمد على نفسه هكذا مدعومًا بالحركة الشعبية. وقد انتظر حتى سنة ١٨١١ ليتخلص من المماليك، ويستقر بصفة نهائية على قمة السلطة، فيسود النظام فى البلاد ويستتب الأمن. سنة ١٨١٢، يستجيب لدعوة الباب العالى فى الآستانة، ويذهب لمحاربة الوهابيين فى الجزيرة العربية، حيث تمكن من الاستيلاء على مكة والمدينة. فيما بعد يقرر غزو السودان لحسابه الخاص. هكذا ولدت الإمبراطورية المصرية الحديثة.

قدّم الباشا وظائف عديدة للأوروبيين، من ضباط وأطباء ومهندسين، رغبة منه فى إنشاء دولة حديثة، وتكوين جيش قوى، وتنفيذ مشروعات ضخمة. كما أنه كلف مجموعات خاصة من أهل البلاد، بالعمل فى بعض المهام الخاصة، فالأتراك مثلاً أداروا أجهزة الدولة والجيش، والأرمن شغلوا وظائف السياسة الخارجية والترجمة، والأقباط عملوا فى الحسابات المالية، وعلماء الأزهر المحليين أشرفوا على الأنشطة الدينية.

من ضمن المشروعات الضخمة التى بدأ محمد على فوراً بالعمل فيها، مشروع إحاطة وادى النيل والدلتا بشبكة من الطرق البرية والقنوات المائية. بدأ أيضًا فى إرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا، وإنشاء المطبعة القومية فى بولاق. العجيب هو أن هذا الرجل لم يكن يعرف القراءة والكتابة، وأن اللغة الوحيدة التى كان يتكلمها هى التركية، وأنه لن يتعلم قراءتها إلا فى سن الخمسين. ورغم هذا فإنه كان شديد التأثير فى الأوروبيين، وكان عادة ما يترك لديهم انطباعًا طيبًا، فيما يتعلق بإرادته وذكائه ولباقته ومواهبه الدبلوماسية.

وقد أشاد به فيكتور هيجو إشادة ملفتة للانتباه فى مقدمة كتابه (الشرقيات)، إذ قال (إن الهمجية الآسيوية القديمة ليست خالية تمامًا من الرجال المتفوقين، إلى الحد الذى كانت حضارتنا الأوروبية تعتقده، لنتذكر أن تلك الهمجية هى التى قدّمت لنا العملاق الوحيد فى هذا القرن، الوحيد الذى يمكن وضعه على قدم المساواة مع بونابارت، وهو من اعتقدنا أنه بلا نظير. إن محمد على باشا هذا التركى التترى، هو بالمقارنة مع بونابارت، مثل النمر إلى الأسد، أو الصقر إلى النسر).

إن دعوة الأوروبيين إلى مصر، لم تكن تعنى تقليد أوروبا، ففى حين كانت أوروبا تستكشف مزايا نظام الاقتصاد الحرّ، كان حاكم مصر يختار نظام السيطرة المطلقة للدولة، ثم تحول إلى فرعون حقيقى، فأصبح هو المالك الوحيد لكل الأراضى الزراعية فى مصر، ليتحكم فى الزراعة المكثفة للمنتجات الجديدة، مثل القطن طويل التيلة، وقصب السكر وشجر التوت. ثم تبدأ الصناعة المحلية فى ظل سياسة حماية ضد المنتجات الأجنبية، بفرض حواجز جمركية.

فى يونيو ١٨٣٣ قال الباشا لأحد محدّثيه الفرنسيين، وهو بوالكونت (إن التجار الفرنسيين يشتكون ويقولون إنه ينبغى علىّ أن أترك التجارة حرة، وإننى سأنتهى بهم إلى الإفلاس بسبب سياساتى الاحتكارية، ولكنى ما زلت أتذكر كيف أنه عند مجيئى إلى مصر قبل حوالى ثلاثين عامًا، لم يكن فى الإسكندرية كلها إلا ثلاثة تجار

أوروبيين، على قدر كبير من حقارة المظهر، اليوم يعيش العديد من التجار الأوروبيين فى رخاء اقتصادى، حتى إن الإسكندرية أصبحت تشبه المدن الأوروبية، فلديهم منازلهم الجميلة التى تبدو على قدر كبير من الفخامة، ولديهم خيولهم الجيدة).

إلا أن الفلاحين المصريين الذين يمثلون أغلبية الشعب المصرى، لم تتحسّن أوضاعهم، فحيث إنهم كانوا صالحين للسخرة والاستغلال، كانت السلطات تنتزعهم من حقولهم، ليعملوا إجبارياً فى مشروعات حفر الترع وتعبيد الطرق، أو ليرسلوا إجبارياً إلى جبهة القتال، فكان الفلاحون يتحايلون على هذا الوضع، بفقء عين، أو قطع أصبع سبابة، حتى يصبحوا غير صالحين للتجنيد، وذلك لأن الحروب كانت مستمرة، إذ بدأ الباشا أولاً بمحاربة اليونان، باسم سلطان الآستانة، ثم انقلب الباشا على السلطان، وأخذ سوريا من الإمبراطورية العثمانية.

فى باريس كان محمد على يبدو كحليف جيد، إلا أنه فى لندن كان يثير القلق. فحتى يحتفظ البريطانيون بطرق مواصلاتهم إلى مستعمراتهم الآسيوية، هم فى حاجة إلى إمبراطورية عثمانية ضعيفة، لكنها محتفظة بكيانها، وهكذا استنتج الإنجليز، أنه يجب إذن إيقاف نائب السلطنة الشره، قبل أن يُفقد المنطقة توازنها. فرضت إنجلترا على محمد على سنة ١٨٤٠، معاهدة يُخلى بمقتضاها الجزيرة العربية وسوريا من جيوشه، ويختزل جيشه إلى ثمانية عشر ألف جندى، فى مقابل أن يصبح عرش مصر إرثًا لأولاده من بعده.

بعد تكاثر ضغوط القوى الأوروبية عليه، يضطر إلى إسقاط الحواجز الجمركية، وإغلاق أغلب مصانعه، وإنهاء أغلب احتكاراته لتتحوّل مصر بعد ذلك إلى مجرد مورّد للمواد الخام، مثل القطن طويل التيلة، إلى مصانع النسيج فى بريطانيا. فى نهاية حياته يصل إلى مرحلة الشيخوخة، ويتشكك فى كل المحيطين به بمن فيهم أولاده. يموت فى أغسطس ١٨٤٩ فى عمر الثمانين.

جاء من بعده حفيده عباس، ليحكم بطريقة مختلفة تمامًا، إذ كان أصوليًا إسلاميًا، بدون أدنى رغبة فى الانفتاح على العالم. تنطوى مصر على نفسها لمدة حوالى عشر سنوات، لكنها ستعود بعد ذلك إلى اتخاذ طريق المدنية، ومهما كانت ميول خلفائه، فإنهم سيشيرون إلى أنهم ينتمون إليه. ثم إن المسألة تتعدى مجرد تكوين أسرة حاكمة على عرش مصر، أو وجود مكوّنات الدولة الحديثة، إلى مسألة تتعلق ببداية إحساس الشعب المصرى بوجود هوية قومية فى طور التكوين. إنه ذلك الأجنبى التركى الألبانى، الذى أصبح أحد أهم حكام مصر فى التاريخ الحديث.

انظر مقالات: مماليك رقم (٨٣)/ طهطاوى رقم (١٣٧).

٩١ - الرهبان / Moines

كنت فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرى عندما زرت لأول مرة أحد أديرة وادى النطرون، بعد أن كنا قد قطعنا مسافة متعبة على الأقدام، وتظل فى ذاكرتى عن هذه الزيارة صورة واحدة، هى صورة قلعة حصينة تحيط بها رمال الصحراء من كل جانب. كان السور المحيط بالدير يرتفع إلى عشرة أمتار، ومن المعروف أن هذا السور فى الزمن القديم، كان ضروريًا لحماية سكان الدير من غزوات بدو الصحراء. فيما مضى كان دخول زوّار الدير، ومستلزمات الحياة اليومية إليه، يتمّ عن طريق باب قلّاب يفتح ويغلق رأسيًا، بواسطة تقنية الجنزير الذى يدور حول بكرة، حتى يكون فتحه عنوة من الخارج صعبًا جدًا بل مستحيلاً.

أما فى حالة نجاح الغزاة فى اقتحام هذا الباب، كان رهبان الدير يلجئون إلى حصن الدير، ليختبئوا فيه، وهو حصن مربع أو مستدير المقطع، يقوم فى مكان ما داخل الدير فى مواجهة أحد أبنيته، ويكون الدخول إليه والخروج منه، عن طريق كوبرى

يصل بين نافذة فى بدن هذا الحصن، وبين مكان مرتفع فى المبنى المواجه له، بحيث يتم رفع الكوبرى بعد المرور عليه، بنفس طريقة الجنزير والبكرة.

فى الوقت الحالى لم يعد هناك بدو فى الصحراء، ولكن الغزو الوحيد المتكرر يوميًا، هو غزو مئات الزوار، الذى يصلون إلى الأديرة فى سيارات أتوبيس ممتلئة عن آخرها، وهم ليسوا فقط من السياح الأجانب، بل هم غالبًا من المسيحيين أقباط مصر، الذين يشعرون بالتقديس نحو الرهبان، ويندفعون نحو الأديرة فى كل المناسبات الكبيرة، فتستقبلهم الأديرة فاتحة أمامهم أبوابها، رغم ضوضائهم وإزعاجهم. إن الأديرة التى كان مقدّرًا لها أن تكون جزرًا منعزلة وسط صحراء هادئة تدفع ثمن نجاحها.

إن أصل كلمة راهب الفرنسية (إرميت)، تأتى من الكلمة اليونانية (إيريموس)، التى تعنى الصحراء، وهكذا فإن الكلمة الفرنسية تعنى (الصحراوى) أو (ساكن الصحراء)، وذلك لأن كل الرهبان الأوائل، الذين ظهروا بين القرنين الثالث والرابع الميلاديين، لم يكونوا يقيمون فى أديرة، بل كانوا يتجوّلون فى الصحراء وينامون فى كهوفها. هل كان ذهاب أولئك الرهبان المصريين الأوائل إلى الصحراء هو بتأثير من معتقدات مصر القديمة؟ هناك ما يدلّ على أن بعض المتوحّدين منذ خمسة عشر قرنا قبل المسيحية، كانوا قد سكنوا جبّانة طيبة ليتفرّغوا لحياة التأمل.

وقد شغلت الصحراء مكانًا مهمًا كذلك، فى كلٍ من الكتابين المقدّسين لليهودية وللمسيحية، للبحث عن العزلة والصلاة ولقاء الرب، [موسى فى جبل سيناء، وعيسى أربعين يومًا فى الصحراء قبل بداية تبشيره]. إن الصحراء هى مكان للمعاناة، وللصراع ضد الشهوات، وللتوبة من الخطايا والتطهر.

إن الحياة الديرية (أى داخل الأديرة) ستتطوّر بالتدريج، ففى البداية حاول بعض الرجال، وبعض النساء، تطبيق كلمات يسوع المسيح حرفيًا، عندما قال لأحد الأغنياء

(اذهب وبع كل ما تملك وتعال اتبعنى)، فباعوا كل ما يملكون، وغادروا المدن للذهاب إلى الصحراء، ليعيشوا عزلة مطلقة فى العراء، وكانوا ينامون فى الكهوف الصخرية الطبيعية [فى صحراء مصر الشرقية]، أو يشغلون بعض المقابر الفرعونية. إنهم لم يكونوا يهربون من الاضطهادات، بل كانوا يهربون من الحياة المريحة.

ورغم تحوّل الدولة الرومانية البيزنطية من الممارسات الوثنية إلى المسيحية، استمرّت الزيادة فى أعداد رهبان الصحراء، وأصبح هناك نوعان من الشهداء، هؤلاء الذين كانوا يضحّون بحياتهم فى زمن الاضطهادات، من أجل إيمانهم المسيحى، ويسمّون الشهداء الحمر (لإراقة دمائهم)، وأولئك الذين أصبحوا الآن فى زمن الدولة البيزنطية * المسيحية، يضحّون بالحياة السهلة فى المدن، ويذهبون عامدين إلى حياة الصحراء الخشنة المتقشفة، ويسمّون الشهداء البيض.

إن أكثر آباء الصحراء هؤلاء شهرة، هو القديس الأب أنطونيوس (٢٥١/٣٥٦)، وقد عاش مائة وخمسة أعوام، منها حوالى ثمانين عامًا متوحّدًا، فى الصحراء الشرقية بالقرب من البحر الأحمر. ولكن سرعان ما لحق به بعض مريديه، لكى يستقروا هم أيضًا فى الصحراء غير بعيدين عنه لكى يظهر بينهم بعد ذلك بقليل نوع من الحياة المشتركة، التى ستجذب باستمرار المزيد من الشباب المسيحى، الساعى إلى الرهبنة.

ففى منطقة وادى النطرون، التى تقع إلى الغرب من دلتا النيل، يبدأون أولاً بالعشرات، ثم بعد ذلك بالمئات فى الوصول إلى المكان لبناء الحجرات الصغيرة بالطين، وكل مجموعة منهم تتعمّد بناء حجراتها، بالقرب من كهف يعيش فيه راهب قديم. تلك الحجرات الطينية الصغيرة، يسمّيها رهبان ذلك العصر (القلالى) والمفرد (قلية) دائمًا بكسر القاف. فى هذا التوقيت تظهر كذلك الكلمة الأوروبية (موان/مونك)، للدلالة على كلمة (راهب) العربية، والكلمة الأوروبية مأخوذة من الكلمة اللاتينية

(موناكوس) التى تختصر إلى (مونو) وتعنى أعزب أو إنسانا يعيش وحده، وذلك لأن أول الشروط المطلوبة من الراهب هى العزوبية.

بعد تجمّع عدد من الرهبان الشباب فى قلاياتهم، حول كهف الراهب العجوز، بدؤوا يميلون إلى بناء مكان، فى موقع متوسط بينهم، يستطيعون أن يتلاقوا فيه، وليصبح هذا البناء كنيسة. وبدأت الاجتماعات بمرة واحدة فى الأسبوع، غالبًا صباح الأحد للاحتفال بالقدّاس. ثم ظهرت حاجتهم إلى المزيد من الحياة المشتركة، فظهر إلى جوار الكنيسة مبنى آخر، يجتمعون فيه مرة واحدة مساء كل يوم، لتناول وجبة طعام واحدة معًا، وسمّيت هذه الوجبة (أجبية) من اليونانية (أجابوس) بمعنى (محبّة).

وجدنا كتابات معاصرة لذلك الوقت المبكر، فى تاريخ الرهبنة والديرية المصرية، تصف الحياة داخل الأديرة الأولى فتقول (إنهم يعيشون بعيدين إلى حد ما الواحد عن الآخر، وذلك حتى لا يتمكن أيٌ منهم من رؤية الآخر أو سماعه، فى المكان الذى يعيش فيه الآخر، ولهذا كانوا يعيشون فى هدوء تام، بحيث يكون كلٌ منهم داخل قلايته وحده، فقط مع نفسه).

ثم دخلت الديرية مرحلة أخرى مع القديس باخوم (٢٨٦/٣٤٨)، الذى أسس فى الصعيد بالقرب من نجع حمّادى، أول مؤسسة ديريّة فى العالم بالمعنى الحديث المتعارف عليه حاليًا لهذه الكلمة. إن المسألة تتعلق ببناء دير، يحيط به سور خارجى مرتفع، يذكرنا بالأسوار المرتفعة التى كانت تحيط بالمعابد المصرية فى الزمن القديم، وبداخل الأسوار يوجد بين ثلاثين وأربعين راهبًا، يعيش كل منهم فى قلاية منفصلة، لا يوجد بها سرير، وإنما مقعد يمكن للراهب أن يريح جسمه عليه دون أن يذهب فى النوم، كما لو أنه لا حق له فى الاستغراق فى النوم، طالما أنه يظل دائمًا مستعدًا لسماع كلمة الله.

بداخل الأسوار توجد كذلك مجموعة من المبانى العامة، مثل الكنيسة وقاعة الاجتماعات والمطعم والمطبخ، وحتى مكان لرعاية المرضى. على رأس الدير يوجد مرشد روحى ومساعدان له، يختص أحدهما بالشؤون المالية. ولصياغة قواعد الإقامة داخل الدير، استعان باخوم بنصوص من الكتاب المقدّس، أى من التوراة والإنجيل، ولكنه كذلك على ما يبدو استلهم بعض الكتابات المصرية القديمة، فى صورة الوصايا التى تنهى المؤمن عن بعض الممارسات الخاطئة. فيما بعد قامت مريم أخت باخوم، بتطبيق نفس مبادئه على أديرة خصصت للنساء. ثم عندما نُفِىَ القديس أثناسيوس (٢٩٩/٣٧٣) أسقف الإسكندرية السابق إلى أوروبا، نقل معه إليها مبادىء حياة الرهبنة، فانتشرت الأديرة فى أوروبا.

وعندما أصبحت مصر خاضعة للعرب المسلمين، تغيرت مصائر الأديرة، فأغلقت أبواب العديد منها، وأهملت لتسقط بعد ذلك حوائطها، وتتحوّل إلى حطام ورديم. تتحسّن الظروف مع نهاية القرن التاسع عشر. ويبدأ عصر النهضة الحالى مع نهاية الحرب العالمية الثانية. يتمّ ترميم وتجديد الأديرة القديمة، ويعود الشباب المسيحى إلى اختيار الرهبنة باعتبارها طريق فى الحياة. إن أحد أفضل أمثلة النهضة الحالية، هو ما حدث فى دير الأنبا مقار بوادى النطرون الذى زاد عدد رهبانه خمسة أضعاف خلال الثلاثين عاماً الأخيرة من القرن العشرين، ليصل الإجمالى إلى حوالى مائة.

كل الرهبان الجدد ينبغى أن يكونوا قد أنهوا دراستهم الجامعية، وأدّوا الخدمة العسكرية، ومارسوا لبعض الوقت عدداً من المهن المختلفة. ويتوزّع يومهم داخل الدير بين صلوات متعددة، بالإضافة إلى بعض المهام الأخرى، فمنهم من يزرع الأرض حول الدير، ومنهم من يربّى الماشية، ومنهم من يطبع مجلة دورية، وكلهم يتعلمون اللغات الأجنبية، خاصة اللغة اليونانية القديمة. وهناك حرية كبيرة مسموح بها للرهبان،

ليتمكن كل راهب من تنظيم وقته بالطريقة التى تناسبه. حتى فى حضور الطقوس الدينية، أصبح نظام الأديرة الآن فى مصر، يسمح بقدر كبير من المرونة.

ومع مرور الزمن عبر القرون، اندمج النظامان الأنطونيوسى والباخومى، فى نظام واحد، أصبح هو المطبّق الآن فى الأديرة القبطية، وهو وسط بين العزلة المطلوبة للنمو الروحى للراهب، وبين الحياة الاجتماعية المشتركة مع غيره من الرهبان. وهو ما يسمح مثلاً للراهب إذا أراد، أن يعتزل الحياة المشتركة فى الدير، ويعتزل الآخرين ويظل فى قلايته أسبوعاً كاملاً على أن يشارك فقط فى صلوات يوم الأحد.

بعض الرهبان يمكنهم حتى الذهاب إلى أماكن عزلة خارج الدير، فى الصحراء المحيطة به، وعلى بعد بضعة كيلومترات منه. البابا شنودة الثالث البابا الحالى للكنيسة القبطية، كان من رهبان وادى النطرون، حيث سكن بضعة سنوات وحده فى كهف صغير خارج الدير، كانت مساحته متراً مربعًا واحداً. كل الأساقفة الأقباط هم من قدامى الرهبان، وتعقد عادة لقاءات سنوية متعددة بينهم، وبين رهبان نفس الأديرة التى كانوا ينتمون إليها، فى الأديرة ذاتها.

تبدو الأديرة الآن كما لو كانت معاهد لحفظ التقاليد الكنسية واللغة والفنون القبطية، وتستعمل علوم الحاسب الآلى لهذه الأغراض، والرهبان الذين يهتمون بهذه الموضوعات، هم أنفسهم الذين يقومون الليل للصلاة، بعددها المحسوب من السجدات والركعات المختلفة، فى ذكرى عذاب يسوع المسيح فى نهاية حياته.

وما زال الرهبان يرتدون نفس الرداء، منذ القرون الأولى للميلاد، وهو جلباب طويل باللون الأسود، واللون طبعًا هو علامة على موت الرغبات الدنيوية وعلى الزهد فى الحياة. وغطاء رأس هو الآخر باللون الأسود، وهو وسط بين أغطية رأس الجنود، وأغطية رأس الأطفال حديثى الولادة، وقد يكون معناه أن على الراهب أن يحتفظ بروح

الطفل، حتى يدخل ضمن جنود ملكوت الله، أو أنه مكلف بخوض غمار حرب روحية دائمة ضد نزواته. ثم على كل ناحية من ناحيتىْ غطاء الرأس ستة صلبان صغيرة مطرّزة والمجموع البالغ اثنى عشر صليباً، يدل على عدد حواريى المسيح، إلا أن هناك صليب ثالث عشر على القفا، حيث يوجد المُخّيخ للتذكير بأن كل الأفكار يجب أن تمر أولا تحت علامة الصليب.

يوجد فى مصر الآن اثنا عشر ديراً مأهولا، وهناك الكثير من الشباب الراغب فى الانضمام إلى قائمة الرهبان، من بين العزاب والأرامل والمطلقين، الذين يجب أن يمروا أولاً بسنوات من الإعداد، يجرِّبون خلالها للتأكد من حقيقة وجدّية رغباتهم، من حيث الزهد فى المتع الدنيوية، ومن حيث العفة والطاعة. فى نفس الوقت هناك مؤسسات تقوم بنفس الدور بالنسبة للفتيات والسيدات. والعصر الحالى هو عصر ازدهار، إذ يصل عدد رهبان الأديرة إلى حوالى خمسمائة راهب.

إن أنطونيوس وباخوم مع غيرهما من آباء الصحراء، قد ساهموا فى مولد مسيحية جديدة، هى مسيحية رهبان الصحراء. إن رهبنة الصحراء يزداد تأثيرها على الجيل الحالى من مسيحيى مصر، وعلى كل أنشطة الكنيسة القبطية. يظهر هذا التأثير مثلا فى طول مدة قدّاس الأحد، التى تصل أحياناً إلى ثلاث ساعات، تشبّها بما يحدث فى الأديرة، أو مثلاً فى تعدّد فترات الصوم، التى تصل إلى حوالى ٢١٠ يوماً فى العام. إن الرهبان هم القاعدة الصلبة التى ترتكز عليها الكنيسة، وهم فخرها ومصدر رجائها.

انظر مقالات: الأقباط رقم (٢٨)/ الصحراء رقم (٣٤).

٩٢ - المومياوات / Momies

كيف يمكن ألا نرتبك أمام أولئك الأشخاص، أنصاف الأحياء أنصاف الأموات؟ كان بيير بلون (رحّالة فرنسى من القرن السادس عشر)، قد وصفها بأنها (أجسام

مجففة ومحفوظة لإعادة الاستعمال). بعبور هذه المومياوات كل تلك القرون، فإنها تجعل نقاط ارتكازنا الزمنية مشوّشة. أما فيما يتعلق بعدد الأعمال الفنية التى خصصت للمومياوات، أو استلهمت منها، فلا يمكن حصره. فمنذ (محادثة قصيرة مع مومياء) لإدجار آلان بو سنة ١٨٤٥، ثم (قصة مومياء) لثيوفيل جوتييه سنة ١٨٥٧، استثمرت كلٌ من السينما والرسوم المتحركة، قصص المومياوات إلى أقصى حد ممكن.

صحيح أنه يمكن القول أن المصريين القدماء كانوا دائمى التفكير فى الموت إلى درجة اعتلال الذائقة والمزاج العام لديهم، بسبب تأثير إلحاح فكرة الموت. ولكن صحيح كذلك أن هذه الظاهرة لم تكن حبّا فى الموت، بل حبا فى الحياة، كان هذا هو السبب فى محاولتهم الإبقاء على موتاهم خالدين أبد الدهر. فلم يحدث أن بذل أى شعب من شعوب العالم القديم، جهداً مساوياً أو قريبًا من جهد المصريين ، فيما يتعلق بهذا الشأن. محاولة التغلب على العدم، وعلى تحلل الأجسام. إذ كان يجب عليهم الاحتفاظ بأجسامهم مكتملة، وفى حالة جيدة، حتى يتمكنوا من مواصلة الحياة الآخرة، بنفس هذه الأجسام.

كانت حرفة التحنيط قد ظهرت فى مصر القديمة حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م، واستمرّت فى تحسين أساليبها حتى وصلت إلى مرحلة الإتقان حوالى سنة ١٠٠٠ ق.م، وقد وصفها هيرودوت [مؤرخ يونانى جاء إلى مصر سنة ٤٥٠ ق.م]، بتفاصيل دقيقة جداً:

(أولا كانوا يستخرجون مادة المخ بملقاط حديدى من فتحتى الأنف، ثم يحقنون عبر نفس الفتحتين مادة مذيبة، تسمح بالتخلص مما قد يكون متبقيا من نسيج المخ داخل الجمجمة، بعد ذلك يقومون بعمل قطع طولى فى جدار البطن، بواسطة حجر حاد قاطع يجلبونه من إثيوبيا، تستخرج من هذا القطع الطولى أحشاء المتوفى، ثم يتم تنظيف داخل تجويف البطن قدر الإمكان، ثم يسكبون داخل التجويف نبيذ البلح، ثم

يرش فوقه رذاذ المواد العطرية، ثم يملؤون باقى التجويف بالمر والبلسم المدعوك، ثم يغلقون فتحة جدار البطن بالخيوط).

توضع الأحشاء فى الأوانى الكانوبية [نسبة إلى المدينة التى كانت تصنع الأوانى وهى كانوب/ رشيد الحالية]، وعلى غطاء كل آنية من هذه الأوانى الأربعة، نجد رأسًا من رؤوس أولاد حورس الأربعة، المكلفين بحراسة الأحشاء. ثم يرفع من الجثمان كل ما يمكن أن يتحلل، ثم نجفف الجثمان تماماً بوضع ملح النطرون عليه، ثم وبطريقة طقسية محددة بدقة، نبدأ فى لف كل جزء من أجزاء الجثمان، بلفائف من الكتان الأبيض النقى، ومن الملاحظ أن طول هذه اللفائف قد يصل فى بعض المومياوات إلى مئات الأمتار.

توضع هذه المومياء [الجثمان المفرّغ من أحشائه والمجفف والملفوف بالكتان]، بعد ذلك فى تابوت حجرى أو خشبى، ولكن بطريقة يمكن أن تسمح للمتوفى، عندما يعود إلى الحياة، أو عندما تعود الحياة إليه، برفع الغطاء والخروج من التابوت. إن المقبرة التى سيوضع بداخلها هذا التابوت، تتميّز بقدر كبير من جفاف الصحراء، مما سيساعد على حفظ محتويات التابوت فى حالة جيدة، بفضل عدم وجود الرطوبة التى تعمل على تحلل الجثث.

تصوّر جدران المقبرة عالم الأرض الجميل، الذى كان المتوفى يعيش فيه قبل وفاته، مما يؤنس وحدته. هذا بالإضافة إلى وجود بعض المواد الغذائية، وبعض المشروبات، ضمن أمتعة المتوفى، يمكن له أن يقتات بها عند عودته إلى الحياة. ثم نجد أيضًا داخل المقبرة، ملابس شتوية وأخرى صيفية، وأغطية رأس وأمواس حلاقة وألواح كتابة، دون نسيان الأوشابتى [تماثيل المجيبين] الذين من المفترض أن يحلوا محل المتوفى، فى القيام ببعض المهام الشاقة فى العالم الآخر. فى زمن الدولة الحديثة، كانت هذه التماثيل الصغيرة تصنع من الخشب أو الحجر أو البرونز أو الخزف، وتمتلىء بها

صناديق، ضمن أمتعة المتوفى، ويمكن أن نعدّ فى بعض هذه الصناديق المئات من تماثيل الأوشابتى، بمعدّل تمثال لكل يوم من أيام السنة.

إن المتوفى فى حاجة دائمة إلى الأحياء، ويرجوهم بل يلحّ عليهم أن يضعوا فى مقبرته التقدمات من كل صنف، ويمكن للمتوفى أن يكافىء الأحياء إن هم استجابوا له، أو أن ينتقم منهم إن هم نسوه. على أى الأحوال من المؤكد أن المتوفى يمارس نوعًا من النفوذ والسيطرة على مجتمع الأحياء. إن مومياء المتوفى المصرى المحنّطة، تسعى دائمًا إلى العودة إلى الحياة من جديد بأن تولد من جديد، الولادة الثانية، على غرار ما حدث لأوزوريس، كما توضح هذه الفقرة من كتاب الموتى:

(سلامًا لك أبى أوزوريس/ أعدك أن أمتلك جسدى إلى الأبد/ أنا لم أتلف أى شىء فيه/ أنا لن أتحلل لن أتحلل أبدا/ أنا لن أكون أبدا فريسة لديدان الفناء/ أنا موجود أنا حىّ أنا قوى/ لقد استيقظت فى سلام فلم أجد أى تلف فى أحشائى/ ولا أى تلف فى عينى/ ولم تنقطع رقبتى عن عنقى/ إن جسدى سيظل موجوداً دائمًا/ لن يصل أبدًا إلى العدم والفناء).

فى العصر المصرى القديم، كانت ممارسة التحنيط، تقتصر على جثث أقلية محدودة جداً، من الأشخاص القادرين على دفع تكاليفها الغالية الثمن، أو من جثث الشخصيات المهمة. أما فى العصر البطلمى فقد اتسعت ممارستها جداً، لتصبح شاملة لكل سكان مصر، وتصبح بالتالى صناعة مهمة فى البلاد، لها وكالات ووكلاء، وتوظف لديها العديد من الأشخاص، الذين يتكفّلون بالقيام بكل الإجراءات، بما فى ذلك طقوس الجنازة ومراسم الدفن.

تمّت الإساءة إلى كل المومياوات منذ عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، لأن نباشى القبور واللصوص، كانوا قد مزقوا مومياوات الملوك بحثًا عن مقتنياتهم الملكية، فجمعت كل المومياوات الملكية، من مقابرها الواقعة فى وادى الملوك، ونقلت إلى مكان واحد تسهل

حمايتها فيه، تحت الأرض في نفس منطقة وادى الملوك، في مقبرة أمن حوتب الثانى. بعد ذلك بكثير ستظهر في أوروبا القرون الوسطى، تجارة رائجة هي تجارة مسحوق المومياوات أو عجينة المومياوات، بعد أن كان مدّعو الطب والتطبيب، قد أشاعوا أن لهذه المساحيق والمعاجين، قدرات عجيبة في شفاء بعض الأمراض.

كان الفضول لدى الأوروبيين قد بلغ ذروته، فكانت مومياوات بأكملها تباع للأثرياء الذين كانوا يقومون لاحقا بدعوة أصدقائهم لحضور حفلات فكّ الأربطة الكتانية من حول جسد المومياء. وقد ترك لنا الأخوان (جونكور) في جريدتهم وصفًا لواحدة من هذه الحفلات، يدلّ على مدى الهوس لدى الجمهور الأوروبي بمثل هذه العروض. حدث ذلك سنة ١٨٦٧ في باريس، في أثناء انعقاد معرضها الدولي في ذلك العام. وقد كان من بين الحضور عدد من أدباء فرنسا المعروفين، من أمثال ماكسيم دي كامب/ وثيوفيل جوتييه/ وألكساندر دوماس الابن.

(كانت المومياء التي سنقوم بفكّ الأربطة من حولها، موضوعة فوق مائدة أمامنا، وكنا جميعا وقوفا حولها، كان بعض الرجال يرتدون البذلة الرسمية الردنجوت، وكنا جميعا نتعجّل بداية العرض، وقد بدت لنا الشرائط الكتانية حول الجسم الضامر كما لو كانت بلا نهاية، إنها امرأة عاشت منذ ٤٠٠٠ عام. وحتى يتمكن المساعدون من الانتهاء من فكّ الأربطة، في أقصر وقت ممكن، أوقفوا المومياء على قدميها، فأصدرت صوتًا أقرب إلى صوت اصطدام القطع الخشبية بأرضية الحجرة. وكان المساعدون مستمرين في إدارة المومياء بين أيديهم وأذرعهم، كما لو كانوا يمارسون معها رقصة مجنونة).

ولأسباب قد تكون علمية، ولكنها من المؤكد ليست أدبية، استمرّت هذه العروض، وشملت كذلك مومياوات الحيوانات، مثل الكلاب والقطط والقرود، وهي الحيوانات التي كانت تحنّط وتوضع في المقابر إلى جوار مومياوات أصحابها. وبفضل حفظ بعض هذه الحيوانات بالتحنيط، أمكننا دراسة بعض الحيوانات المنقرضة، أو دراسة التطور

الحادث لبعض الأنواع الحيوانية، عبر آلاف السنين. ومنذ اختراع أشعة إكس سنة ١٨٩٥ أصبحت المومياوات البشرية تثير المزيد من الاهتمام فى أوروبا وأمريكا. فبدون فكّ الأربطة المحيطة بالمومياء، تسمح صور الأشعة بدراسة كسور العظام، التى يحتمل أنها كانت السبب فى وفاة أولئك الأشخاص منذ ٤٠٠٠ عام.

وتوجد فى متاحف أوروبا حاليًا، حوالى ١٣٠ مومياء تم تصويرها كلها بأشعة إكس بواسطة بيتر جراى، فى نهاية ستينيات القرن العشرين. أضافت التكنولوجيا بعد ذلك تقنيات جديدة، مثل المسح بالأشعة (سكانر) ومثل استعمال الكربون ١٤ المشع، فى دراسة عمر المادة البيولوجية، ودراسة عمر المومياوات، ثم مع التقدّم فى وسائل الطب الشرعى فى دراسة الجثث، زادت معلوماتنا الدقيقة عن المصريين القدماء، خاصة فيما يتعلق بأمراضهم وبطرق التغذية لديهم.

وفى الوقت الحالى يقوم فريق فرنسى، بعمل دراسة لجينات الجثث [عناصر نقل الصفات الوراثية فى الخلايا]، فى واحدة من جبّانات العصر القديم، فى موقع على بعد ٦٠ كيلومترًا من الأقصر. يتمّ تحويل نسيج المخ الجاف إلى مسحوق، لاستخراج أحماض نواة الخلايا البشرية [الدى إن إيه]. تم اكتشاف العديد من حالات درن العظام فى جثث عمرها ٥٧٠٠ سنة.

إلا أن اكتشافًا آخر أدّى إلى قدر من الارتباك، وهو أن البكتيريا المتسببة فى الدرن القديم، تختلف عن البكتيريا المسببة لنفس هذا المرض فى العصر الحالى، [تتحول البكتريا فى طفرات لتواجه وسائل الإنسان فى مقاومتها]. فى مقابل ذلك فقد اكتشف نفس الفريق، أن أمراض التهابات العضلات والعظام الروماتيزمية فى الزمن القديم، لا يختلف شكلها إطلاقًا عن الشكل الذى نعرفها به حاليًا.

انظر مقال: رمسيس الثانى رقم (١٢١).

٩٣ – حسنى مبارك / Moubarak (Hosni)

إنه الرئيس الذى ظلّ على قمة السلطة فى مصر، أطول مدة حكم منذ عصر محمد على. أصبح مبارك رئيسًا للجمهورية سنة ١٩٨١، بعد اغتيال أنور السادات، وقد تمّت إعادة انتخابه للمرة الرابعة سنة ١٩٩٩ لمدة ست سنوات [وللمرة الخامسة سنة ٢٠٠٥]. إن لمبارك سلطة شبه مطلقة، بالإضافة إلى طموحات عائلية يلصقها به معارضوه، وينفيها هو عن نفسه. لكن يحق لنا أن نتساءل لماذا وضع ابنه الأصغر جمال فى كواليس السلطة؟ ولماذا لم يقدّم للشعب نائبًا للرئيس كما فعل سابقاه (ناصر والسادات)؟ .

إن مبارك رجل هادئ، قدماه ثابتتان على الأرض، رغم أنه كان متفوقًا فى التحليق فى السماء. كان والده موظفًا حكوميًا بسيطًا، أما الضابط حسنى مبارك فقد صنع مجده فى سلاح الطيران المصرى. ورغم ذهابه ثلاث مرات فى دورات تدريبية إلى الاتحاد السوفييتى السابق، إلا أن النظام الشيوعى لم يرق له البتة. لكنه تعلم اللغة الروسية إلى جانب اللغة الإنجليزية التى يجيدها. كان قد اكتسب ثقة رؤسائه، ولفت الانتباه إلى كفاءاته، منذ عهد عبد الناصر، فعين قائدًا فى عدة قواعد جوية، وكان حاضرًا يوم ٥ يونيو ١٩٦٧، عندما حطم الطيران الإسرائيلى الطائرات المصرية. كلفه عبد الناصر بمهمة إعادة بناء القوات الجوية، ثم عينه بعد عامين قائدًا عامًا لها.

إن مبارك هو أحد أهم عوامل الانتصار الذى تحقق على إسرائيل، خلال معارك أكتوبر سنة ١٩٧٣ كانت الطائرات المصرية هذه المرة هى التى أمسكت بزمام المبادرة، أى أنها كانت البادئة بالضربة الأولى، مما سمح للقوات البرية بعبور قناة السويس. بعدها تحوّل مبارك إلى بطل شعبى. وبعد عامين عينه السادات نائبًا له. وقد ظل إلى جواره ست سنوات، حتى جاء ذلك اليوم الحزين، يوم الاحتفال بنصر أكتوبر سنة ١٩٨١، وجاءت رصاصات الإرهاب، أثناء العرض العسكرى، لتقتل السادات وينجو

مبارك بأعجوبة. وقد استمر مبارك يحارب الإرهاب طوال كل تلك السنوات الماضية، من فترات رئاسته المتتالية، إلا أن موجة المدّ الإسلامى تستمر فى اكتساب المزيد من الأرض داخل مصر.

فى بداية حكم مبارك اعتقد البعض أنه سيعدل عن الطريق الذى سار فيه السادات عن الصلح مع إسرائيل والانفتاح الاقتصادى، ولكنه احتفظ بعلاقته مع إسرائيل، وإن كان هذا لم يمنعه من النجاح بمهارة، فى إعادة العلاقات بين مصر وكل الدول العربية، وهى العلاقات التى كانت قد قطعت بعد توقيع اتفاقية الصلح مع إسرائيل. ثم بدأ فى لعب دور الوسيط بين الإسرائيليين والفلسطينيين، بقدر كبير من الحكمة، فاحترم العرب محاولاته، ونظر إليه الغرب بالتقدير.

استمر مبارك كذلك فى اتخاذ سياسة سلفه، الخاصة بمحاولة تحرير الاقتصاد المصرى من تبعيته للدولة، فاستمر فى خصخصة القطاع العام الصناعى، وفى محاولة جذب رؤوس الأموال الأجنبية للاستثمار فى مصر. وقد رحّب قطاع رجال الأعمال بالخصخصة، أما الشعب فقد بدأت طبقاته الفقيرة فى المعاناة، من تبعات غياب نظام واضح وواقعى للضمان الاجتماعى وللتأمينات الاجتماعية.

وكما كان السادات يفخر بزوجته جيهان، وبالصورة التى كانت لها فى المجتمع، فإن حسنى مبارك يمكن أن يشعر بنفس الشىء تجاه زوجته سوزان، التى حصلت على دبلوم دراسات عليا من الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وتستمر فى لعب دورها باعتبارها امرأة أولى عصرية وإيجابية ونشيطة، فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية التى تشرف عليها.

٩٤ – المشربية / Moucharabieh

أثار هذا العنصر الزخرفى المعمارى، وما زال يثير، خيالاتنا، أكثر من أى عنصر آخر من عناصر العمارة الإسلامية. كان العديد من الرحّالة الأوروبيين قد ذكروا فى

يوميات رحلاتهم، كيف أنهم كانوا ينظرون إلى هذه الأغلفة الخشبية لنوافذ المنازل، لمحاولة الوقوع ولو بالصدفة، على ظلّ امرأة واحدة خلف المشربية. فى كتاب (نهارات قصيرة فى مصر) للمؤلف أرتور رونيه الصادر فى فرنسا سنة ١٨٦٥، نجد هذا الوصف.

(المشربية هى شرفة معلقة بين الأرض والسماء، تبرز عن سمت المعمار، مرتكزة على حوامل حجرية مزخرفة، ومغلقة بعناية بهذه الشباك المصنوعة بفن رفيع، من القطع الخشبية الصغيرة).

ثم يضيف (إن الحارات ضيقة جداً، لدرجة أن بروز المشربيات من كل من ناحيتىْ الحارة، يجعلها تقريبًا تتلامس، مما يسمح لساكنى هذه الدور، بالتحدّث بعضهم إلى بعض، عبر الحارة بصوت منخفض).

يأخذ سحر الشرق رونيه إلى المزيد من الخيالات (تنتقل الأخبار الفورية، بين طرفىْ المدينة، عبر هذه الطرق السرية، هل يمكن أن ترتكب هنا جريمة خيانة لأسرار الدولة؟ فترتفع أقدار بعض الناس، وتنتهى حياة بعضهم الآخر؟ أحيانًا يحدث، فى صمت هذه الحارة، أن ترتعش خلسة آلة إيقاع، تخصّ حريم المنزل، بصوت شخللة قادم من أحد جانبى الحارة، لا أدرى، ولكن الصوت قادم من واحدة من تلك المشربيات البارزة، أو بالأصح واحد من تلك الأقفاص الهوائية النسائية).

ثم يسرح مع المزيد من الخيالات حول النساء (إنهنّ يتبادلن دائمًا الهمسات، وكأنهنّ يتحدّثن معلقات على المارة من الرجال، ويراقبن ردود أفعال الرجال إزائهنّ، ويتجسسن عليهم، عبر المائة عين التى لهنّ فى فتحات المشربيات. قد تلاحظ الأذن أثناء المرور فى الحارة، بعض الصخب الذى ينفلت من جماحه، فيظهر فى صورة ضحكات أو تنهدات أو مجرد تثاؤب، ثم تعود النساء من جديد إلى كبت مشاعرهنّ، لتتحسرن على حياتهنّ الخاملة. لكن يستمر فضولهنّ حول ما يدور فى الشارع، تراقبنه صامتات عبر قضبان سجنهنّ).

إن الهدف الأساسى من وجود المشربيات، هو الحفاظ على خصوصية كل أهل المنزل، من رجال ونساء وشيوخ وأطفال، والهدف الثانى هو محاولة التحكم فى درجة حرارة الجو، ففى بلد مثل مصر حيث يكون الصيف أحياناً حاراً جداً، ينبغى العثور على طريقة للتحكم فى كمية الشمس، التى تدخل إلى البيوت، ولزيادة حجم الهواء المتاح داخل البيوت.

ثم إن كلمة (مشربية) مشتقة من كلمة (شرب)، وهذا ليس غريباً؛ حيث إن العادة المتبعة هى وضع القلل الفخارية على حافة النوافذ المغلقة بالمشربيات، ليسمح تيار الهواء المار عبر المشربيات بتبريد الماء. وبالتالى كان سكان المنزل يأتون إلى مكان المشربيات لشرب الماء.

أما من حيث الصنعة الفنية، فإن المشربية تصنع من قطع خشبية صغيرة، بأشكال مختلفة منها المكعّبة والكروية، ومنها الأشكال المستطيلة أو النجمية، ليتم تجميعها معا فى شكل وحدات هندسية متكررة، يمكن تشبيهها بالحصيرة أو بالغربال، بل حتى يمكن تشبيهها فى بعض نماذجها، بنسيج الدانتلا الرقيق.

وتعود أول نماذج المشربيات إلى العصر الفاطمى، لكن فقط فى المبانى الدينية، أما فى العصر المملوكى، بداية من منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، فقد امتد استعمالها إلى المبانى الدنيوية. إن هذه الدنتلا الخشبية الرقيقة قد ميّزت عدداً من أحياء القاهرة القديمة. فى بعض الأحيان كانت المشربيات تشغل كل واجهة المبنى.

يبدو أن كل منازل مصر فى وقت ما، كانت تحتوى على مشربيات، إلا أنها للأسف أصبحت موضة قديمة، منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر، بعد أن وقعت العمارة المصرية، تحت تأثير وسيطرة نفوذ العمارة القادمة من أوروبا. تدهورت أحوال المشربيات وغطتها الأتربة، وأصبحت مثل الشاهد الأخير على عصر انقضى، عصر جميل كان يتمتع بالهدوء، حيث لم تكن هناك لا أبواق سيارات ولا عوادم سيارات.

هذا لم يمنع بعض فنانى الديكورات الداخلية فى الوقت الحالى، من العودة إلى المشربيات، لكن بعد أن كان رجال الصنعة المتخصصين القدامى، قد اختفوا من الوجود منذ سنوات بعيدة. وقد ظهر أخيراً جيل جديد، يحاول أن يستعمل نفس الأساليب القديمة، بدون الاعتماد على آلات تقطيع الأخشاب، وإنما باستعمال أصابع اليدين والقدمين.

٩٥ - مولد / Mouled

وجمع الكلمة هو (موالد) ولكن لا صلة لها بعدد المواليد فى مصر. المقصود هنا هو الاحتفال بذكرى مولد إحدى الشخصيات الدينية المبجلة المقدّسة، من الرجال أو من النساء. بداية من ذكرى مولد النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)، التى تعتبر عيداً قومياً. إن مصر تزخر بالشخصيات المقدّسة، بين أولياء الله الصالحين والصالحات، لذلك فيمكنك فى مصر أن تحصى حوالى ٣٠٠ مولداً.

مثلا فى مدينة طنطا التى تقع فى منتصف دلتا النيل، لدينا مولد السيد أحمد البدوى(*)، وهو ناسك صوفى من القرن الثالث عشر الميلادى، قدم من المغرب، ويحج إلى مولده سنوياً حوالى مليونين من المصريين لزيارة ضريحه، فى منتصف شهر أغسطس. وقد ذكرت العديد من المصادر القديمة، أن زيارة ضريحه قادرة أحياناً على شفاء الأمراض المستعصية.

هذه الموالد تمتد خلالها الاحتفالات غالبًا لمدة أسبوع، أو على الأقل لمدة بضعة أيام يكون أهمها هو اليوم الأخير، ويقبل الفقراء على حضورها، لأن الأغنياء قد يقومون خلالها، بتوزيع الأطعمة أو النقود، كما أنه يمكنهم هناك الإنصات إلى تلاوة القرآن الكريم، ثم مشاهدة موكب الخليفة والأتباع، بالإضافة إلى حضور حلقات الذكر التى يقوم فيها رجال الطرق الصوفية، بترديد نفس العبارات التى يرد فيها ذكر اسم

الله آلاف المرات، خلال الليالى الطويلة بدون كلل أو ملل، ويصاحبون هذه العبارات بنوع من الرقص الاهتزازى، يشبه إلى حد ما رقص الدراويش، الذين يهزون أجسامهم أثناء دورانهم فى نفس المكان حول أنفسهم، للوصول إلى حالة من الورع التام والوجد والذهول.

ولكن المولد هو كذلك حفل كبير، به ألعاب وتسال مختلفة الأشكال والألوان، مثل المراجيح للأطفال، ومنصات إطلاق البنادق الرش للمراهقين، بالإضافة إلى الألعاب النارية، وحلبة السيارات الكهربائية الصغيرة التى تتصادم فيما بينها. كما أن الأطفال يحصلون على الحلاوة، العروسة للفتيات والحصان للفتيان بألوانها الزاهية، والكبار كذلك يتناولون كميات كبيرة من الحلويات المختلفة التى تباع فى علب ورقية حسب الوزن.

ويكون المنظر العام للمولد هو أن تتكاثر الخيام القماشية الضخمة، بألوان فنون الخيامية المشهورة، حول ضريح الشيخ أو الشيخة، وترتفع الأضواء الكهربائية الملونة على مآذن المساجد، وتستمر مكبّرات الصوت طول الوقت، فى إذاعة التلاوة القرآنية، والإنشاد الدينى، والموسيقى والإعلانات. وينتشر فى الموالد عدد كبير من أصحاب المهن المختلفة، الذين يجوبون مصر طول العام، من شمالها إلى جنوبها، للمشاركة فى الاحتفال بأكبر عدد من الموالد السنوية، وهم من الجنسين، بين راقصين وموسيقيين ومغنيين ومنشدين، ناهيك عن الحواة والسحرة، وبعض الحلاقين الصحيين لممارسة عمليات خلع الأسنان، أو عمليات الختان.

إن مولد السيدة زينب فى القاهرة، هو أحد أهم موالد المدينة، أولاً لأنها بنت بنت النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)، ثانيًا لأن مسجدها يقع فى قلب أحد أحياء القاهرة الأكثر شعبية والذى يحمل اسمها. يختلط فى هذا المولد مئات الآلاف من البشر، فى حالة من الهياج التام وفوران العواطف والحماس الشديد لمدة أسبوعين.

ولكن ... فى وسط الأغنيات والصيحات والضحكات والتزاحم والتصاق الأجسام، يحلو الجو تمامًا ويخلو للنشالين وللراغبين فى الاحتكاك بأجساد النساء. إن بعض العائلات التى تسكن هذا الحى لا تستطيع تحمّل هذه الضوضاء الصاخبة نهاراً وليلاً لمدة أسبوعين، فتغادر شققها وتذهب فى لجوء مؤقت إلى شقق بعض الأقارب فى أحياء أخرى.

تختلف مصر عن بقية الدول العربية، بطريقتها تلك فى الاحتفال بالموالد، ففى المملكة السعودية مثلاً يكون الاحتفال بالمولد النبوى، بشكل أكثر اعتدالاً. إن هذه الموالد تشهد بما كان للفاطميين من تأثير على المصريين، وهو التأثير الذى ما زال مسيطراً على عقلهم الجمعى، فقد حكم الفاطميون مصر حوالى قرنين من الزمان. لكن الشىء الغريب فعلاً، هو وجود بعض المعتقدات المصرية الفرعونية فى مظاهر بعض الاحتفالات الدينية الإسلامية.

اسمعوا هذه القصة الغريبة، ففى الأقصر عندما يقام الاحتفال السنوى بمولد أبى الحجاج الأقصرى، شيخ المدينة، تسير المواكب فى اتجاه مسجده القائم فى وسط المدينة، وهى تحمل ثلاثة مراكب على أكتاف الرجال المسلمين المؤمنين الذين يحتفلون بأبى الحجاج. الغريب هو أن هذا نفسه كان يحدث مرة كل عام عند احتفال المصريين القدماء، بثالوث طيبة آمون وموت وخنصو، خلال الموكب السنوى لعيد الأوبت، بحمل مراكبهم الثلاثة على أكتاف الرجال، بامتداد طريق كباش بطول ثلاثة كيلومترات، بين معبدى الكرنك والأقصر. حاول بعض المسلمين معارضة هذه العادات، وذهب بعضهم إلى تسميتها بالوثنية، وإلى المطالبة بإلغاء المواكب، إلا أن أحداً لم يلتفت إليهم.

المسيحيون كذلك يحتفلون بقديسيهم بنفس الطريقة، إن الاحتفال بعيد صعود العذراء إلى السماء، والذى يسمّيه المسيحيون مولد السيدة العذراء، يحتفل فيه بتقديم ذبائح حيوانية، ويتميّز بالإفراط بشكل عام فى تناول الأطعمة، وبالألعاب الجماعية

الاحتفالية. بالإضافة إلى ٦٠ مولداً آخر للمسيحيين سنوياً، وهى المناسبات التى تدفع جموع من الحجاج المسيحيين، إلى مقابر عصر الشهداء المسيحيين، الذين استشهدوا خلال العصر الرومانى الوثنى، [مثل الشهيد القديس مار جرجس].

كما أن المسيحيين يحجون سنوياً إلى الأديرة، وإلى الأماكن التى اشتهرت فى التاريخ القبطى، على أنها من الأماكن التى استقرت فيها العائلة المقدّسة أثناء وجودها فى مصر، هرباً من فلسطين. وقد أضيفت أخيراً إلى قائمة الاحتفالات السنوية، أعياد ظهور السيدة العذراء فى كنائسها المختلفة.

٩٦ - المتاحف / Musées

إن تراث مصر الحضارى ليس فقط داخل مصر، فهناك جزء كبير منه موجود خارج مصر، ومنتشر فى جميع أنحاء الكرة الأرضية، فليس هناك متحف فى العالم لا يحتوى تحفا مصرية. مئات آلاف التحف المصرية، من أشياء الحياة اليومية البسيطة، إلى التماثيل الضخمة التى عبرت البحار إلى كل بقاع الأرض. ثم إن هناك بالإضافة إلى المتاحف الكثير من المجموعات الخاصة التى يمتلكها أفراد، تمكن أصحابها الأصليون من الحصول عليها بطرقهم الخاصة، واستمرت تلك الأوضاع حتى نهاية القرن التاسع عشر.

لكن كل المجموعات الكبيرة تخص المتاحف، ففى اللوفر بباريس ٥٥ ألف قطعة مصرية، وهناك مجموعات لا تقل ضخامة، فى متاحف شبيهة، مثل المتحف البريطانى فى لندن، ومتاحف برلين وتورينو [فى إيطاليا]، والمتروبوليتان فى نيويورك، وفى غيرها من المدن الأوروبية والأمريكية، بل حتى وصلت مجموعات من التحف المصرية إلى أستراليا واليابان.

يمكن للفرنسيين أن يشعروا بالخجل والخزى، عندما يتذكرون قصة الفرنسى بريس دافن، الذى جاء إلى مصر سنة ١٨٤٣، وذهب إلى زيارة الكرنك، حيث خاف أن تسبقه البعثة الألمانية فى الحصول على قوائم الأجداد المحفورة أسمائهم على الحجر، فأمر مساعديه بقطع تلك الكتل الحجرية ووضعها فى ٢٧ صندوقًا خشبيًا كتب عليها أنها (عينات من التاريخ الطبيعى لمصر) وأرسلها سرًا إلى متحف اللوفر.

ولكن يمكن للفرنسيين كذلك أن يغلقوا باب الماضى، وأن يفتحوا صفحة جديدة ناصعة البياض مليئة بالإيجابيات، فبرغم كل شىء، إن هذه الأفعال هى التى سمحت بإنقاذ عدد من كنوز مصر القديمة كانت معرّضة فى مواقعها إلى الإتلاف المتعمّد بسبب الجهل أو الجشع، فى حين أنها فى متاحف أوروبا لا تزال فى حالة حفظ جيدة، حيث تحظى باهتمام بالغ، مثل الاهتمام بالمحافظة على درجة الحرارة المناسبة لها، وحمايتها من التحلل أو من التعرّض للتلف.

ثم إن متاحف البلاد الأجنبية هى دعاية رائعة لمصر، ودعوة مفتوحة للذهاب إلى مصر. يجب أن يرى الشخص ليفهم، كيف أن أطفال المدارس الأوروبية، يذهبون إلى المتاحف، حيث يلقنون بذرة حب مصر وجرعة الحماس لحضارتها ولتاريخها، وسيذهب جزء كبير منهم إلى مصر لاحقًا، عند بلوغ سن القدرة على السفر، بل قد يصبح بعضهم، من بين علماء المصريات البارزين يومًا ما. لو أن مصر لا تمتلك أضعاف أضعاف ما هو معروض من آثارها فى أوروبا وأمريكا، لكان من غير المقبول حرمانها من تلك الآثار المعروضة فى المتاحف الأجنبية، فى العالم أجمع.

لكن مصر تغصّ بالآثار. إن متحف القاهرة وحده به ١٤٠ ألف قطعة، معروضة فى حوالى ١٠٠ قاعة، ناهيك عن الموجود منها فى مخازن المتحف التى لا يجد لها إداريو المتحف المكان الكافى لعرضها. إن الزائر الحالى لمتحف القاهرة يتشتت انتباهه تمامًا، من كثرة عدد التحف الفنية، التى يجدها فى كل ركن ينظر إليه من أركان المتحف المظلمة.

إن التجارة فى القطع الأصلية، أصبحت ممنوعة منذ مدة طويلة، وتطاردها شرطة الآثار، ثم إن القوانين التى تنظم خروج تلك القطع من مصر، تحدد أن للبعثات الأثرية الأجنبية العاملة فى مصر الحق فى الحصول على ١٠ بالمائة من مجموع القطع التى تعثر عليها البعثة عند عودتها إلى بلادها الأجنبية، بشرط أن تكون قطعا مكررة، أى أن تحصل مصر على نسخ منها. ولإثراء مجموعاتها تلجأ المتاحف حاليًا، إلى شراء المجموعات الخاصة، التى كانت بعض العائلات الأوروبية أو الأمريكية الثرية، تحتفظ بها من تركات تعود إلى القرن التاسع عشر.

وكل متحف من متاحف العالم التى توجد بها أقسام للمصريات، يتميّز عن غيره من المتاحف بشىء ما، ففى المتحف البريطانى أحب الأبواب المفتوحة، حيث يمكنك الدخول مجانا، وحيث إن القاعات المصرية تقع قريبة جداً من المدخل، فأنت تمر فى لحظات قليلة، من الأرصفة اللندنية إلى عالم المومياوات.

أحب اللوفر بعد التجديدات، حيث يذكرنى لونه الأصفر الجديد بلون الصحراء، وحيث نجح أسلوب إعادة توزيع معروضات القسم المصرى، بحيث تعبر كل قاعة فيه عن موضوع مختلف عبر العصور المتتالية [لا بجمع معروضات كل عصر على حدة كما كان الحال]، أحب بشكل خاص القاعات التى تعرض بطريقة مبهرة وقائع الحياة اليومية فى مصر القديمة، ثم ذلك الممر المزدوج الذى يعرض التوابيت قائمة على حافتها [لا بالشكل القديم حين كانت تعرض مثل صناديق موضوعة على الأرض]، يا لها من فكرة جريئة، جعلتنى أتذكر على الفور مغامرات تان تان [تمتم] فى مصر.

تعجبنى ألوان متحف تورينو الرمادية القديمة، حيث ما زالت المعروضات تعرض بنفس طريقة عرضها فى القرن التاسع عشر، وتعجبنى هناك بشكل خاص، مقبرة المعمارى خع وزوجته ميريت، التى اكتشفها كاباريللى سنة ١٩٠٦، فى منطقة دير المدينة غرب الأقصر، وتعرض متصلة الأجزاء غير مفككة، أى على الحالة التى كانت

عليها لحظة اكتشافها، بأثاثها الجنائزى داخلها، وبتموين الطعام الذى قدّم إلى المتوفى، ومن المفترض أن يستهلكه عند عودته إلى الحياة، مثل الخبز والبلح وقطع اللحم المجفف المملح...، صحيح أنها أقل جمالا من مجموعة توت عنخ آمون، لكنها أقرب إلى نبض الحياة، وبالتالى هى أكثر إثارة للمشاعر.

انظر مقال: القناصل تجار الآثار رقم (٢٧).

٩٧ - الموسيقى / Musique

كتب الفرنسى أوجين دانجلار سنة ١٨٦٧ فى إحدى رسائله التى طبعها بعد ذلك فى كتاب بعنوان (رسائل من مصر) قائلاً (ليس هناك ما هو أكثر رتابة وإملالا من الموسيقى المصرية، إنها مسخ مشوّه بلا أى شخصية أو أية معنى، أنا لا أرى فيها إلا خليطا مضطربا بلا أية هوية، حيث تذوب الأصوات ويتداخل بعضها مع بعضها الآخر، وحيث يظل الإيقاع هو نفسه بدون أى تغيير، خلال المقطوعة كلها، وليس فى الناتج من كل هذا أى تناسق أو تجانس، ويحدث أحيانًا أن يضيف المغنى المنفرد صغير السن، الذى قد لا يتعدى عمره الخامسة عشرة، بعض الحليات والزخارف الغنائية، أو أن يعزف أحد الموسيقيين تعاقبا سريعا لنغمات متدحرجة فى مقطع واحد، وهو ما يدعو إلى السخرية، ولكن هذا هو ما يعجب الجمهور الذى يصرخ: الله الله).

إن أغلب الرحالة الأوروبيين فى القرن التاسع عشر، يشاطرون دانجلار الرأى، فى أن الموسيقى المصرية تخدش آذانهم، بأصواتها الشاذة وبأدائها لربع التون. فى ذلك الوقت المبكر، تبدو الموسيقى كأكبر مثال على سوء التفاهم بين المصريين والغربيين، رغم آهات الإعجاب التى يطلقها جمهور المستمعين (آه آه الله الله). فى أوروبا يصمت الجمهور صمتًا تامًا أثناء الاستماع إلى حفل موسيقى، أما فى مصر فإن صمت الجمهور هو الدليل الأكيد على عدم الإعجاب. فى مصر يُعتقد أن الموسيقى

الجيدة، هى تلك التى تثير مشاعر الجمهور، وهو ما يسمونه الطرب؛ وهو شىء قريب من الانتشاء التام.

إن فنانى القرن التاسع عشر، من الذين يغنون فى قصور العائلة الخديوية، أو فى مسارح داخل المقاهى، كانت تصاحبهم فرق موسيقية صغيرة العدد جداً، لعزف الآلات التقليدية، العود (مثل العود الأوروبى ولكن بذراع أقصر وصوت أغلظ)، والقانون (آلة وترية تشد أوتارها على مائدة شبه مستطيلة الشكل، توضع أمام العازف على أرجل، أو يضعها العازف على ركبتيه)، والربابة (وهى تشبه آلة الكمان ولكن بوتر واحد أو وترين، وصندوق صوتها غالباً هو ثمرة جوز هند كبيرة مفرغة ومغطاة بطبقة جلدية)، والناى (الذى يشبه الفلوت ولكن عوده من الغاب أو البوص وبه فقط ستة ثقوب)، والأرغول (وهو ناى مزدوج وأطول قليلاً).

إن بعض هذه الآلات يشبه تماماً تلك التى كانت مستعملة فى مصر القديمة، والمصوّرة بالحفر الغائر على أحجار المعابد والمقابر. لكن هذا لا يعنى أن الموسيقى الحالية، هى امتداد لموسيقى قومية مصرية قديمة، عمرها آلاف السنين. الوريثتان الوحيدتان لبعض ذلك التراث القديم، هما أولاً الموسيقى الشعبية فى بعض أرياف صعيد مصر، وثانياً الألحان الطقسية للكنيسة القبطية. مع ملاحظة اختفاء آلات الهارب والقيثارة التى كان القدماء يستعملونها. أما الموسيقى المصرية المعاصرة فقد تكوّنت بتأثير نفوذ موسيقى قوى قادم من جهة تركيا وإيران.

عندما ظهرت الأسطوانة الموسيقية، فى نهاية الحرب العالمية الأولى، استفادت منها ثلاثة أنواع من الموسيقى، أولاً الموسيقى الشعبية الفولكلورية التى يعزفها موسيقيون مجهولون، ثانياً موسيقى رقص العوالم التى تعزف فى القصور، ثالثاً الطقطوقة أو الأغنية الخفيفة، وهو نوع جديد لم يكن معروفاً من قبل، وقد كانت كلماتها أحياناً جريئة جداً، بل إنها كانت أحياناً فاجرة. فى نفس ذلك الوقت ظهرت الصالات، التى تلعب فيها الاستعراضات الموسيقية الغنائية الراقصة، مما شجع الملحنين مثل

سـيـد درويش، علـى تأليف الأوبريتـات ذات اللون الوطنـى، والتى كـانت تعـجـب الجمهور جداً.

خـلال السنوات ١٩٣٠/١٩٤٠ حـدث تغيـير مـهم، هو ظـهور الأفـلام السـينمائيـة الغنائية، مع ظهور عمالقة الغناء المصرى الحديث. محمد عبد الوهاب (١٨٩٧/١٩٩١)، فرغم أنه لم يكن إلا أحد أبناء مؤذن بسيط، وأنه بدأ حياته بتلاوة القرآن الكريم، فإنه أحب الموسيقى الغربية وتأثر بها، واستطاع أن يفرض ذوقه الغربى على الموسيقى المصرية، بفضل موهبته الكبيرة. ازداد حجم الأوركسترا، واستقبل آلات جديدة، مثل دخول العديد من آلات الكمان، وارتفع مستوى الطقطوقة، سواء من ناحية اللحن أو من ناحيـة الكلمـات، مع الاتجـاه إلى استـعمـال لحن جديد مـع كل مقطع جديد، بدلا من التكرار والإملال.

يتمايل الجمهور طرباً مع كل ارتجالات المغنى اللحنية، التى يدخلها على الأغنية فى شكل جمل موسيقية قصيرة، جديدة على اللحن. كما يُظهر العازف براعته، فى ملاحقة المغنى وفى الإيحاء إليه بالمزيد من الارتجالات. مثلا أم كلثوم، التى تقدّم فنـاً هو حـاصل جمع القديم والجديد، وتبرع فى الأغانى الطويلة، التى قد تصل مدة غناء كل منهـا إلى سـاعـة كـاملة. تعـاونت أم كلثوم مع عـبـد الوهاب، وأخــذت منه بعــض ألحـانه التى قـد تصل إلى حـوالى ألف لحن. وقـد اسـتـمـر عـبـد الوهاب فى الغناء فى السينما وفى الإذاعة، ثم عرفته الأجيال الجديدة عندما شـاهدت أفلامه على شـاشـات التليفزيون.

وقد فرضت الأغنية المصرية نفسـها على شعوب كل البلاد العربية، بفضل الإذاعة والسينما، فلعب نجوم الغناء أدوار الفتى الأول فى السينما حتى لو كانت أجسامهم لا تتـمـتـع بالرشـاقـة اللازمـة، وهـى حـالة فـريد الأطرش (١٩١٥/١٩٧٤) وهـو درزى من أصول سورية، جاء إلى مصر مع أمه وأخته المغنية اللاحقة أسمهان. كانت أغانى فريد

العاطفية تثير أشجان الجماهير العربية، مثلما فعل بعد ذلك عبد الحليم حافظ (١٩٢٩/١٩٧٧)، وهو فرانك سيناترا المصرى. إنهم سيغادرون الدنيا كلهم تقريبا فى نفس الوقت، مما أدى إلى خلو ساحة الغناء المصرى.

ظهرت بعد ذلك تأثيرات غربية، فى شكل دخول آلات جديدة إلى الفرق الموسيقية، مثل الأورج والجيتار الكهربائيين، وآلات تخليق الأصوات الإلكترونية، وآلات الإيقاع، وظهر ما يسمى بالأغنية الشبابية، وهى الأغنية القصيرة التى لا يبذل فيها جهد كبير، شبيهة بأغنية الراى فى المغرب العربى. يعتبر عمرو دياب من أفضل نجوم هذا الاتجاه، وأحسنهم وضعًا فى سباق الأغنيات، وهو يحاول أن يصل إلى العالمية بالتجريب فى أساليب غنائية مختلفة. وهناك كذلك هانى شاكر ومحمد منير وغادة رجب الذين يتميّزون بحلاوة الصوت وبالأغانى المبتكرة.

جاء مغنيون شعبيون بأصوات قوية، من الأحياء الشعبية المتواضعة على أطراف المدن الكبرى، وهى مناطق نصف ريفية نصف حضرية، وتتميز أغانيهم بنبرة ساخرة، وبرغبة فى الإثارة والاستفزاز وجرح الآذان الرقيقة. كانت البداية مع أحمد عدوية الذى تعمّد أن يختار موضوعات عادية، وأحيانًا تافهة، لكلمات أغانيه، وفيها تلميحات ولعب بالكلمات، أقرب إلى الاتجاهات العبثية فى الشعر الحديث. ثم سقطت الأغنية الشعبية فى الاستسهال بألحان مكررة وكلمات حزينة.

لم تكن الموسيقى المصرية أبدًا على هذا القدر من التنوّع التى هى عليه الآن، فهناك مثلاً ما قدّمه الشيخ إمام (١٩١٨/١٩٩٥)، وهو الراوى الحكاء الملتزم بقضايا بلده الذى باع من شرائطه مئات الآلاف من النسخ، رغم منع الدولة له. وهناك نجم حقيقى للأغنية الشعبية، الشيخ ياسين، الذى يظهر على المسرح بجلباب أسود وعمامة بيضاء وكوفية من الحرير، ويحتوى برنامجه على الأغانى التى لا تتعالى على الحب الفانى.

وفى سياق آخر، ما زال المنشدون الصوفيون يسعدون الجمهور بإنشادهم، كلما استعان بهم الناس فى المناسبات المختلفة، مثل الزواج والطهارة والموالد والجنازات، وهم يرتلون آيات القرآن الكريم ويردّدون أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين. وهناك الفرق الموسيقية التى تجوب الأرياف، أو فرق الموسيقى والأغانى التقليدية التى تثبت وجودها داخل مصر وخارجها، مثل فرقة أسوان النوبية الراقصة وفرقة موسيقى النيل فى الأقصر المتخصصة فى العزف على الربابة، وأريد أن أقدّم إشادة خاصة بفرقة (جنوب) ويعازف الأرغول مصطفى عبد العزيز، وهى فرقة تستثمر كل تراث الألحان والإيقاعات المصرية، فى الصعيد والنوبة، بالإضافة إلى محاولتهم اكتشاف إيقاعات جديدة بالتعاون مع موسيقيين أجانب روك وتكنو وچنچل.

وبعد الترومبيت والساكسوفون (آلات نفخ نحاسية) والأكورديون (المعدّل ليعزف موسيقى الربع تون) أضيفت إلى الفرق المصرية آلات أخرى. ومع ذلك فإن الإيقاع الغالب هنا هو إيقاع الطبلة (أو الدربكة) وهى عبارة عن آنية من الطين المحروق قمعية الشكل مغطاة بجلد ماعز ويضعها العازف تحت ذراعه أو بين فخذيه، ثم يضرب جلد الماعز بأطراف أصابعه. حتى بدون هذه الآلة اكتشفت أن مجموعات الشباب المصرى، تستطيع أن تخترع أو أن تبتكر طرقا تلقائية جديدة لعزف الإيقاع والغناء عليه.

انظر مقالات: سينما رقم (٢٣)/ أم كلثوم رقم (١٠٥).

٩٨ – جمال عبد الناصر / Nasser (Gamal Abdel)

بعد مرور أكثر من ثلاثين عامًا على وفاته، ما زالت صوره الفوتوغرافية معلقة على جدران بعض المحلات، فإن مصر لم تنس ذلك الذى قدّم لها الكثير من الأمجاد

والأحلام. لكنه تسبب أيضًا فى خيبات أمل وأوهام عديدة، فإذا كان هناك من يقدّره إلى حد التقديس، فإن هناك من يكرهه إلى حد الاحتقار. الشىء المؤكد هو أنه ما زال حاضرًا. كيف أستطيع أن أنسى العواطف الملتهبة التى تمكنت من الجماهير الواقفة فى انتظار وصول الموكب الرئاسى؟ .

كان الجنود واقفين يتصببون عرقا على امتداد الطريق، قبل مرور الموكب بساعات طويلة، بأغطية رؤوسهم الثقيلة التى لم تكن تحميهم من الشمس بقدر ما كانت تزيد من إحساسهم بها، فى هذا الجو الحار. ثم يمر بعض قادة الدراجات البخارية (الموتوسيكل) وبعض السيارات العسكرية من وقت لآخر، كما لو كانوا يقيسون نبض الجماهير. يظهر ضابط عظيم على الأسفلت وهو يقود دراجته البخارية، ثم يظهر خلفه ضابط آخر أعظم منه.

ثم يظهر صفّان من قادة الدراجات البخارية بملابسهم العسكرية المبرقشة، يقودون فى ثنائيات دراجاتهم المعدنية اللامعة، من الماركة الأمريكية المشهورة (هارلى دافيدسون). تهتف الجماهير (ناصر/ ناصر/ ناصر) فتظهر السيارة الكاديلاك السوداء المكشوفة، فيزداد الهياج الشعبى، ويصرخ الناس فى اللحظة التى يرونه فيها، هناك أمامهم فى قلب بقعة الضوء، واقفًا شامخًا متألقًا مبتسمًا محييًا بحركة من يده، تلك العناقيد البشرية المعلقة على الشرفات.

كان ناصر بطلاً تلهب خطبه الحماسية، بالعامية المصرية الدارجة مشاعر الجماهير الغفيرة، ثم لم يعد فى حاجة إلى كلام فبمجرد رؤية الجماهير له كانت تفيض مشاعرهم الحماسية. كل مصرى وجد نفسه فى ناصر ابن البلد، وقد تعدّت شعبيته حدود وطنه مصر إلى الشعوب العربية. لأول مرة فى تاريخ مصر منذ الفراعنة يحكم مصر مواطن مصرى صميم مائة بالمائة، رجل خرج من رحم هذا الشعب وهذه الأرض.

ولد جمال فى الإسكندرية يوم ١٥ يناير سنة ١٩١٨ لأسرة بسيطة، إذ كان والده موظفًا فى البريد، ترجع أصوله إلى قرية بنى مرّ من أعمال أسيوط فى صعيد مصر. درس الحقوق وشارك فى مظاهرات الطلبة بإيجابية، ثم دخل الكلية الحربية حيث فرض وجوده بفضل ذكائه. شارك فى الحرب الإسرائيلية العربية الأولى سنة ١٩٤٨ وعاد منها جريحًا، ورغم الحكايات التى تناقلها زملاؤه، عن شجاعته أثناء الحرب، إلا أنه كان يشعر بالمهانة، بسبب خسارة هذه الحرب، التى كان يعزيها إلى فساد النظام الملكى الحاكم، وهو ما سيقود جمال إلى محاولة إيجاد طريقة للخلاص من هذا النظام.

كان فى الرابعة والثلاثين من عمره، عندما قام هو وزملاؤه من الضباط الأحرار بقلب نظام الحكم الملكى، وطرد الملك فاروق، والاستيلاء على السلطة فى يوليو سنة ١٩٥٢ . إلا أن ناصر الذى كان المحرك والعقل المدبّر لحركة الضباط الأحرار شبه السرية، يترك مكان الصدارة للواء محمد نجيب، الذى تميّز لديهم بقدر كبير من الشعبية وحسن السمعة. وكانوا قد أيقظوه من نومه ليلة ٢٣/٢٢ يوليو، ليضعوه على رأس الحركة، ثم على قمة السلطة.

فى الشهور الأولى كانت أضواء آلات التصوير الفوتوغرافى قد أخطأت الهدف، عندما ركزت على اللواء نجيب، وتجاهلت ذلك الذى كان يقف فى الصف خلفه، الكولونيل (العقيد) ناصر. لم يروه ولم يعرفوه، بقوامه الطويل الرشيق، وبنيته الجسمانية القوية، وبشاربه الرفيع، وقد ظهرت فى لحظة ما على فكيه فى تلك الأيام السعيدة ابتسامة الطيور الجوارح الكواسر. هناك قلم استطاع أن يكون أكثر تعبيرًا عن تلك اللحظة من تلك الصور الفوتوغرافية، وهو الصحفى الفرنسى چان لاكوتير، فى كتاب بعنوان (ناصر) طبعه فى باريس لدى دار نشر (سوى) سنة ١٩٧١ بعد وفاة ناصر.

(نظرة سوداء بانعكاسات خضراء مختبئة تحت الجفنين، بكتفين منحنيين قليلا إلى الأمام، والقبعة العسكرية البنية اللون، لا تخفى الأنف الكبير الذى يبدو كسيف شرقى معقوف حاد الطرفين، والفكان القويان اللذان يوحيان بالرغبة الحادة الملحّة فى الوصول إلى السلطة، وخطواته الطويلة الثقيلة تشبه خطوة حيوانات الغابة المفترسة، التى تدور حول ضحيتها).

بعد عشرين شهراً كان عبد الناصر قد أزاح نجيب من طريقه بصفة نهائية، لأن نجيب كان يفضل عودة الجيش إلى ثكناته، وتأسيس ديمقراطية الحكم بواسطة حكام مدنيين! تخلص عبد الناصر من ردائه العسكرى، وبدأ فى ارتداء البذلات وأربطة العنق، وبعد أن أصبح (الريّس) حصل مرات متتالية على ٩٩,٩ بالمائة من الأصوات. (عن أى حكام مدنيين ديمقراطيين كان نجيب يتحدّث؟).

قام عبد الناصر باتخاذ إجراءات أولية، من نوع الإصلاح الزراعى، وحل الأحزاب السياسية، ثم فيما بعد تجميد إيجارات المساكن، وهو ما أوضح نوعية الاتجاه الذى ينوى هذا النظام السير فيه. ورغم العلاقات الطيبة مع الاتحاد السوفييتى، إلا أنه ضغط بعنف على النشطاء الشيوعيين الذين سيجدون أنفسهم فى نفس معسكرات التجميع [الكلمة التى استعملتها النازية لمعسكرات اليهود فى الحرب العالمية الثانية]، مع زملاء من الأخوان المسلمين.

أما على المسرح الدولى، فقد أكد عبد الناصر وجوده مع نظيريه نهرو وتيتو، كأحد زعماء قادة عدم الانحياز، ولكن ضربة حظ ستؤدّى به إلى زعامة العالم العربى بين يوم وليلة بعد أزمة سنة ١٩٥٦ . كان التأميم غير المتوقع للشركة العالمية لقناة السويس البحرية، قد حفّز إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على الدخول فى تحالف عسكرى والاعتداء على مصر، وقد تدخلت القوتان العظميان الجديدتان، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى لإيقاف العدوان الثلاثى بعد أسبوع من بدايته (٢٩/١٠-٥/١١/١٩٥٦).

من هذه الهزيمة العسكرية، صنع عبد الناصر نصراً سياسيًا ضخمًا، فلم تعد الجماهير العربية من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى تهتف إلا بحياته. أدّى هذا الهوس والزهو المتعاظم سنة ١٩٥٨ أن اقترح السوريون الانضمام مع المصريين فى بلد واحد، يكون اسمه الجديد هو الجمهورية العربية المتحدة، فتفقد مصر اسمها الذى كان لها طوال ألف عام. هذه الوحدة كانت مشروعًا كارثيًا انتهى بالطلاق بعد ثلاث سنوات.

وليجعل ناصر جماهيره تنسى هذا الفشل، يندفع بعيداً فى سياساته الداخلية نفسها، المزيد من قوانين الإصلاح الزراعى، لينته تماماً من ملاك الإقطاعيات الزراعية من العصر البائد، والمزيد من التأميمات المتعجّلة للكثير من المشروعات الصناعية والتجارية، والمزيد من السيطرة البوليسية على الشعب، فالشرطة تضيّق الخناق على الكل. أصبح المواطنون يتشككون فى وجود ميكروفونات تصنت داخل منازلهم حتى داخل حجرات النوم. وبعد أن كانت البلاد قد شهدت ترحيل اليهود بعد ١٩٤٨، والإنجليز والفرنسيين بعد ١٩٥٦، ها هى تشاهد رحيل كل الباقين من يونانيين وإيطاليين. لقد حانت ساعة تطبيق الاشتراكية العلمية، والتنمية الصناعية، ومشروع السد العالى، بمساعدة الأخوة السوفييت.

أما فى العالم العربى، فقد شارك عبد الناصر فى مؤامرات إدانة البعض، ومساندة البعض الآخر، ثم إذا به يرسل قواته المسلحة إلى اليمن لمساندة ثورته الشعبية، ضد نظام حكم الإمام ورؤساء القبائل. فى الواقع كانت اليمن تعيش حرباً أهلية، لا ناقة لمصر فيها ولا جمل. وقد دفع الجيش المصرى ثمن هذا التدخل العسكرى غاليًا، ليس الجيش وحده، وإنما مصر كلها، وذلك لأن الميزانية العسكرية لسنة ١٩٦٥ كانت تمثل ١٢ بالمائة من الناتج القومى العام.

بعد بضعة سنوات سيكتب توفيق الحكيم هذا التعليق، الذى يوحى بما هو أبعد من كلماته (من المؤكد أنه كانت فى سياسة عبد الناصر أخطاء كان ينبغى لها أن تجد

من يعارضها، ولكنه كان قد نجح غى إغراقنا داخل أحلام يقظتنا، أحلام فاتنة خلابة من نوع أن بلدنا قد أصبح قوة صناعية ضخمة، وأنه يسبق كل البلاد النامية الأخرى فى مجال الإصلاح الزراعى، وأن جيشنا هو أقوى قوّة ضاربة فى الشرق الأوسط، هذه القوة التى كنا نحبها، ولذلك تحولّنا إلى متواطئين معه، حتى فى تلك الأوقات التى كنا نشعر فيها، أن أخطاءه الفادحة كانت واضحة تمام الوضوح).

إن صراع عبد الناصر مع إسرائيل شهد الكثير من أخطاء الرجل، الناتجة عن التحدّى وعن عدم الحذر والاندفاع. فى ربيع ١٩٦٧ كان الرأى العام الغربى مقتنعاً، أن بإمكان القوة العسكرية المصرية، محو إسرائيل من على خريطة المنطقة، وكانت إسرائيل هى الآخذة بزمام المبادرة العسكرية يوم ٥ يونيو، وتمكنت خلال بضعة ساعات من تحطيم سلاح الطيران المصرى، ثم استولت على سيناء المصرية وهضبة الجولان السورية، والضفة الغربية لنهر الأردن، بالإضافة إلى القدس الشرقية التى ضمتها إلى القدس الغربية.

انهار ناصر تماماً وقدّم استقالته. هل كانت هذه خطة ماكرة من طرفه للبقاء فى السلطة؟ ذهبت جموع الشعب إلى منزله ترجوه أن يبقى. كتبت (الجمهورية) الجريدة اليومية قائلة (إن خسارة الحرب أولاً ثم خسارة عبد الناصر ثانياً هى شىء لا يحتمل). بقى عبد الناصر فى منصبه لكن شيئا لم يعد كما كان. انهارت مصر. لم تبدأ حرب الاستنزاف إلا سنة ١٩٦٩، فكانت مصر تقوم بعمليات عسكرية ضد القوات الإسرائيلية فى سيناء، تردّ عليها إسرائيل بضربات قاسية فى العمق المصرى [مدرسة بحر البقر]. وكان العالم العربى قد انقسم على ذاته كما لم يحدث له من قبل.

وقعت صراعات مريرة بين الأردنيين والفلسطينيين فى سبتمبر ١٩٧٠ [أيلول الأسود]، ونجح عبد الناصر بمجهود خارق فى الوصول إلى توقيع اتفاقية وقف إطلاق

نار بين الملك حسين وياسر عرفات، عند اجتماعهما فى القاهرة يوم ٢٧ سبتمبر. مات عبد الناصر فى اليوم التالى خائر القوى. شهدت جنازته مظاهر يأس تام واكتئاب عام، لم تشهد له البلاد نظيراً من قبل، ونزل ملايين البشر إلى الشوارع حتى كاد رؤساء الدول المشاركون فى المراسم أن يموتوا مختنقين. أما صندوق كفن الرئيس، فقد فقدت قوات الجيش السيطرة على انتقاله إلى أكتاف الجماهير، لقد صادرته الجماهير وحملته على أكتافها حتى المسجد.

بعد سنوات من موت عبد الناصر، بدت مصر كما لو كانت تمحو كل العهد الناصرى، إذ لم يدّخر السادات وسعًا فى سبيل محو جمال، ولم يدّخر الكلمات التى كانت تعبّر عن كم كان جمال مخطئًا، عندما قاد البلاد إلى الهزيمة العسكرية، وكيف أنه كمّم المعارضة، وخنق كل المبادرات الفردية. ظهر المعبود من جديد بمناسبة الاحتفال بمرور ٤٠ عامًا على تأميم قناة السويس، فيلم (ناصر ٥٦) الذى يتلاعب بعض الشىء ببعض الحقائق التاريخية، ولكنه أرضى الجماهير التى تدافعت إلى قاعات العرض لمشاهدته، الفيلم الأبيض والأسود جعل الناس يبكون على الزمن الماضى.

الزمن الذى شهد بدايات تحسّن أوضاع المرأة المصرية، وشهد مجانية حقيقية للتعليم، وشهد موجة بناء المصانع، عدا الإنجازات فى مجالات الخدمات الاجتماعية، والإنتاج المكثف فى الآداب والفنون والسينما والموسيقى، ... ولننس لبعض الوقت الوجه الآخر من العملة. أما من الناحية السياسية فلم يعد هناك إلا حطام للناصرية، بعد انقسام مجموعات الناصريين، الذين يكتشفون الآن أن مجرد وجودهم على الساحة السياسية، أصبح شيئًا صعبًا جدًا، ويزداد صعوبة كل يوم. الوحيد الباقى هو عبد الناصر فى صوره، صورة المجد الباقى من الزمن القديم.

٩٩ - نفرتارى / Néfertari

عند قيامى برحلة إلى الأقصر، كانت معنا فى المجموعة السياحية ممثلة فرنسية، عند خروجها من مقبرة نفرتارى لاحظت أنها كانت تبكى. لم تكن تلك الدموع فى ذلك اليوم دموعًا سينمائية. إن الانفعال العاطفى الذى تمكن منها كان يمكن فهمه. يجب أن يكون الإنسان مصفحًا، إذا أراد أن يظل باردًا حياديًا فى مكان كهذا.

إن أول ما صدمنا فى هذه المقبرة، التى تعتبر درّة وادى الملكات فى الأقصر، هو طزاجة الألوان، لدرجة أننا شعرنا كما لو أن الفنان كان قد انتهى للتو من عمله فى تلوين الجدران. قيل لنا أنه حسب التقاليد المتبعة فى أعمال الترميم الأثرى، لا يمكن أن يضاف جرام واحد من الألوان الحديثة إلى الألوان الأصلية القديمة، لذلك فقد اكتفى الفنيون الإيطاليون الذين عملوا فى تجديد المقبرة، بإزاحة الأتربة المتراكمة خلال قرون طويلة، فظهرت تحتها الألوان الأصلية.

كانت نفرتارى مدللة، فمن بين الزوجات العديدات لرمسيس الثانى، حصلت هى على أفضل نصيب، إذ بنى لها المعبد الصغير فى أبى سمبل، ثم من أجل إقامتها فى عالم الخلود، حصلت على هذه المقبرة غير العادية، التى اكتشفها سنة ١٩٠٦ عالم المصريات الإيطالى إرنستو كاباريلى. نحن لا نعرف كم كان سنها فى نهاية حياتها، كانوا يسمّونها (حبيبة موت) [موت هو اسم زوجة آمون]، وكذلك يسمّونها (أحلاهنّ)، وهما من الأسماء التى أطلقت عليها، فمن موميائها لم يتم العثور إلا على الركبتين، لأن المقبرة كانت قد نهبت منذ العصور القديمة، وعند اكتشافها لم يجدوا فيها إلا بعض البقايا، مثل أجزاء محطمة من بعض قطع الحلىّ، وكذلك زوج من الصنادل.

ننزل أولاً ١٨ درجة سلم، لنجد فى الحجرة الأولى المربعة أريكتين لوضع القرابين عليهما، ولكننا لم نحضر قرابين معنا، وإنما جئنا كمتطفلين، ثم سلم آخر يقود إلى

قاعة الذهب المحتوية على المدفن؛ حيث يرمز سقف القاعة إلى القبة السماوية، المرتكزة على أربعة أعمدة، تشغل أبدانها الزخارف. إن رحلة المتوفاة إلى العالم الآخر، تبدأ حين يدعوها أنوبيس رئيس المحنطين أن تقترب، قائلاً (تعال نحوى يا زوجة الملك العظيمة، ملكة الشمال والجنوب نفرتارى، حبيبة موت، المبررة المبرأة أمام أوزوريس، الإله العظيم رئيس مملكة الغرب، تعال نحوى وسأعطيك مكاناً بين أولئك الموجودين فى الأرض المقدّسة، وستظهرين بمجد عظيم فى السماء مثل أبيك رع).

تقدّم نفرتارى بعد ذلك نفسها للإله بتاح، ومعها بعض القرابين له فى شكل أقمشة، ثم أمام توت (تحوت/جحوتى) الذى تريد أن يعيرها اللوح الذى يكتب عليه لتستفيد من طاقاته السحرية، ثم تتلو جزءا من كتاب الموتى، لتصل بعده إلى مملكة أوزوريس، ولا يتبقى إلا أن تلحق بمملكة الشمس، لتغير شكلها وتندمج مع قرص الشمس رع، لتولد من جديد فى فجر اليوم التالى. إن كل جدران المقبرة تصور تتابع هذه المراحل، دائمًا الملكة فى صحبة العديد من الأرباب والربات، وتظهر أحيانًا فى شكل عصفور برأس بشرى، وتظهر واقفة أو جالسة أو راكعة على ركبتيها، فى وضع عبادة أمام الثور والسبع بقرات السماويات. على السقف ثعبان ضخم، باللونين الأصفر والأخضر، يفرد جناحيه يحمى بهما خرطوش الملكة وبداخله اسمها.

هناك بعض التفاصيل ذات المعنى، إذ إن لون بشرة الملكة، ليس هو اللون الأصفر الخاص ببشرة النساء حسب القواعد المتبعة فى فن الرسم المصرى القديم، ولكنها مرسومة بلون بشرة وردىّ قرمزىّ، وهى طريقة لإظهار معدنها الملكى وأهميتها الخاصة.

كانت المقبرة مهددة بسبب تسرب المياه الجوفية، وبسبب بعض التحركات الأرضية، فسقطت أجزاء من طبقة الجص الموجودة على الجدران. عند الترميم كان ينبغى إزالة طبقة الملاط الرفيعة، بواسطة أدوات تشبه الأدوات الجراحية، ثم تخليصها

من محتواها الملحى وتقويتها وإعادتها إلى مكانها، مع إضافة مواد راتنجية بالحقن فى الشقوق. احتاج فريق الترميم إلى ثلاث سنوات لإجراء هذه الجراحات، ثم إلى سنتين بعد ذلك لمراقبة المقبرة المريضة، وقد دفعت مؤسسة بول جيتى [مليونير أمريكى] فاتورة تكاليف فريق الترميم، ستة ملايين دولار أمريكى.

أعيد فتح المقبرة سنة ١٩٩٥ للزيارة ولكن بشروط، وهى ألا يتعدّى عدد الزوار رقم ١٥٠ زائرًا يوميًا، وبالتالى فإن الدخول إلى المقبرة حاليًا، يكون إما بشراء تذكرة غالية الثمن [بأولوية وقوف السياح أنفسهم فى طابور الحجز فى الصباح الباكر، وكل سائح منهم معه ثمن التذكرة بالعملة المصرية فى يده، ولا يسمح له إلا بشراء تذكرة واحدة]، أو بالحصول على تصريح خاص من السلطات المعنية [لكبار الزوار بالخصم من الكوته]. هناك بعض علماء الآثار الذين ينصحون بألا يتعدّى العدد اليومى زائرين اثنين فقط، لأن هذا حسب رأيهم هو الحد الأقصى لطاقة المقبرة، فى تحمّل التأثير السلبى لشهيق وزفير البشر.

انظر مقال: أبو سمبل رقم (٢).

١٠٠ - النيل / Nil

لم ينتظر المصريون وصول هيرودوت [سنة ٤٥٠ ق.م] ليعرفوا أن بلدهم مصر هى هبة النيل، فهم يعرفون أن الملك النهر قد خلق بلدهم، وأن مصر بدون النيل كانت ستتحوّل إلى أرض صحراوية، ليس هذا فقط بل إن النيل تدخل فى تشكيل المصريين أنفسهم، لأن الذى يجرى فى أوردتهم ليس الدم ولكن ماء النيل. وفى مواجهة صانع خيرات متقلب المزاج، إما أن تتحالف معه وتحاول أن ترضيه، أو أن تحاربه، وهكذا اجتمعت صفوف المصريين منذ قديم الزمان فى أمة واحدة، لاضطرارهم إلى العمل

معًا، من أجل السيطرة على النهر. هذا هو ما سجله إميل لودفيج فى كتابه الرائع، (النيل، حياة نهر) المطبوع سنة ١٩٣٦:

(لقد تمّ تكوين هذا الشعب وتطويره بواسطة اثنين من آلهة الطبيعة فعبدهما، فهذا الشعب يدين للشمس بحبه للحياة، وباعتداله فى طباعه، ويدين للنيل بتعلم روح الانضباط والامتثال. هذه الدولة التى تكوّنت هنا صنعت من الفرعون إلهًا، ومن العمل ضرورة، ومن التحكم فى القوى المائية للنهر فنًا، ومن العقل ووضوح الرؤية مبدأ. فى هذا البلد يبدو كما لو أن الشمس قد قامت بتجفيف الرغبة فى التمرد، وكما لو أن النيل بالحسابات الرقمية التى فرضها على المصريين قد حطم لديهم الحسّ الفلسفى. إن الخوف من النيل قد حولهم إلى أتقياء اجتماعيين محافظين).

فى الزمن القديم كان الفيضان فى منتصف فصل الصيف، هو علامة بداية السنة الجديدة. كان الفيضان يمحو الحدود بين الأقاليم، ويعيد إلى مصر وحدتها وتكاتفها. فى ذلك الوقت المبكر، لم يجد المصريون تفسيراً لجريان النهر بهذه القوة، إلا أن يقولوا أنه سوائل الحياة فى جسد أوزوريس، وقد عادت إليه الروح [المحيِّر فى شخصية أوزوريس أنه كان فى نفس الوقت إلهًا للموت وللعودة إلى الحياة، إلهًا للخضرة والنمو]، وأحيانًا قالوا بطريقة أكثر تأثيراً فى العواطف، إن الفيضان هو دموع إيزيس التى تسكبها على جثة زوجها المتوفى لتعيد إليه الحياة. عندما كان الفيضان يتأخر فى المجىء، كان المصريون لحثه على المجىء يلقون فى مياه النيل القرابين لإرضائه مثل بعض أنواع الأطعمة، خاصة حيوانات الأضاحى وبعض التمائم والتعاويذ وأحيانًا عرائس صغيرة كألعاب الأطفال.

هكذا كانوا يحفّزون (حابى) على الحضور، وهو فى الأصل أحد آلهة الكون، ثم أُدمج مع المياه الأزلية، التى غمرت الكون كله فى بداية الخليقة. ثم فى مرحلة لاحقة، كان النيل تجسيداً للخصوبة، فصوروه على الجدران فى شكل كائن ثنائى الجنس، قادر على الاكتفاء بذاته، لأنه قادر على الإخصاب الذاتى، ببطن منتفخ مثل امرأة

حامل، وبأثداء ممتلئة متدلية، وببقية الجسم أقرب إلى الذكر. كانت للنيل فى عيون المصريين مكانة مهمة جداً، حتى إنهم كانوا يرونه ثلاثة أنهار مختلفة، لا نهراً واحداً فقط لا غير، الأول هو النهر الذى يعيشون على ضفافه طول الوقت، والثانى فى السماء تعبره الآلهة على مراكبهم المقدّسة، والثالث فى العالم الآخر، تبحر على مياهه مراكب إله الشمس، ليضىء الطريق أمام الموتى، فى ظلام أعماق الأرض.

عندما جاء لويس التاسع، فى حملته الصليبية الكارثية على مصر، فى القرن الثالث عشر [سنة ١٢٤٩] كان بصحبته المؤرخ المشهور چوانفيل، الذى شهد بما للنيل من طبع سحرى، فيما حكاه لمواطنيه الفرنسيين، بعد عودته إلى فرنسا من تلك الحملة الفاشلة، إذ قال (يختلف النيل عن كل الأنهر الأخرى، فإن فيضانه جالب الخير لا يمكن أن يأتى إلا بإرادة الله، إن ذلك المجرى يهبط من جبل كبير، حيث تعيش السباع والثعابين والأفيال. فى المساء يلقى المصريون بشباكهم فى مياه النهر، ويتركونها فيه طول الليل، وعندما يعودن صباحا، يجدون شباكهم وقد امتلأت بالخيرات، التى تباع بالوزن فى الأسواق، الزنجبيل والراوند والقرفة وخشب الصبر، ويقولون إن تلك الخيرات تأتى من الجنة الأرضية).

لن يتم اكتشاف منابع النيل إلا فى القرن التاسع عشر، فى شرق أفريقيا عند بحيرات فيكتوريا وتنجانيقا. هذا النهر العملاق البالغ طوله ٦٦٠٠ كيلومتراً، يولد فى الرطوبة الاستوائية، ثم ينهى مجراه فى واحدة من أكثر مناطق الأرض جفافًا، ويصنع منها حديقة. لنعد إلى الاقتباس من إميل لودفيج.

(كل ما يحققه النيل من إنجازات، فى طريقه قبل الوصول إلى مصر، جدير بعالم الأساطير والمعجزات، فهو ينبع من بحيرة عملاقة، ثم يتسكع بين المستنقعات، ثم يترك ليواجه مصيره وحده فى مناطق الصحراء والأعشاب، ثم تقف فى طريقه كتل ضخمة من أحجار الجرانيت، إنه يذكرنا بأبطال الأساطير، الذين ينجون بأنفسهم، من كل

المغامرات الصعبة، وكل المآسى التى تواجههم فى طرقهم، وذلك لأن مصائرهم محددة سلفًا، مصائر مرتبطة بتحقيق مهمة ما عند اكتمال الطريق، وهكذا عندما يصل إلى الحدود المصرية، لا يكون مضطراً إلى خوض المزيد من الصراعات، فتبدأ قوته المبدعة فى تحقيق المهمة التى جاء من أجلها، مهمة خلق مصر).

بعد عبور أسوان يكون النيل قد عبر ست مناطق جنادل وشلالات، ليبدأ فوراً بمجرد دخول أسوان فى التحوّل إلى نهر هادىء مسالم، مثل طباع المصريين، ويتلوّى يمينًا ويساراً بتكاسل، مثل طباع المصريين، متجهًا إلى الشمال، وليس هناك أى رافد يصب فيه بطول ١٢٥٠ كيلومتراً حتى نهاية مجراه. ينقسم فى شمال القاهرة إلى فرعين، يقذفان فيما بعد الماء الذى يحملانه إلى البحر المتوسط. تصبح الدلتا بهما قريبة الشبه بزهرة لوتس متفتحة، تتفرع داخلها ألف قناة وترعة، وعدد لا نهاية له من الجداول المائية الصغيرة. إن الدلتا هى قلب مصر ورئتها ومخزن حبوبها.

اهتم الكثير من الكتاب والشعراء، بل وحتى من الرحالة البسطاء، بوصف هذا النهر، الذى قد يصل اتساعه فى بعض مناطقه، ما يجعله يبدو كما لو كان بحراً، وهو السبب الذى من أجله يسميه المصريون بحراً فى بعض المناطق. لكنه فى بعض المناطق الأخرى يكون من الضحالة، إلى درجة أن يبدو كما لو كان نهراً من الطمى والغرين. كتب الأديب الفرنسى فرومونتان سنة ١٨٦٩ (إن النيل يشبه حقلاً محروثًا تربته حمراء اللون، وأحيانًا تكون مياهه أقرب إلى لون الشوكولاته البنى الداكن).

أما شارل ديدييه فيقول (إنه يغير شكله خلال ساعات النهار، ثم مع هبوط الليل يصبح أقرب شبها بملاءة كفن طويلة، منثورة عليها قطرات دمع فضية، ثم قبل بزوغ الشمس يكون لونه رمادياً لؤلئياً، ثم مع أول أضواء النهار يتحول إلى اللون الوردى، ثم فى الصباح إلى لون السماء الأزرق الداكن، وعند الظهر إلى اللون اللبنى الباهت، أما عند الغروب فكأن النيران قد اشتعلت فى الماء).

إنه نهر متقلب وغير ثابت، فأحيانًا يكون مرتفعًا جدًا، ثم ينخفض فى العام التالى إلى أقصى درجة، ولهذا فهو يسبب أحيانًا فيضانات مدمرة، أو مواسم جفاف مخيفة. خلال آلاف السنين عاش المصريون على إيقاع فيضاناته السنوية، التى لم يتوقفوا عامًا واحدًا عن انتظارها. المؤرخ بلين يلخص هذه الدراما (المأساة) فى أرقام (عندما يكون ارتفاع النهر ١٢ ذراعًا فهى المجاعة، ١٣ ذراعًا هو الاكتفاء، ١٤ ذراعًا هو الرخاء، ١٥ ذراعًا هو الأمان [العام القادم]، ١٦ ذراعًا الوفرة [لأعوام قادمة]، [١٧ذراعًا الخطر، ١٨ ذراعًا الفيضان].

ولقياس مستوى الماء أقيمت مقاييس النيل، بامتداد مجرى النهر، أكبرها هو الموجود بجزيرة الروضة بالقاهرة، الذى تم بناؤه فى العهد العباسى، وهو دليل حى على مدى الاهتمام بهذه المسألة. يمكننا أن نجد فيه كل القياسات، التى سجلت فى كل الأعوام المتتالية، منذ العصر العباسى وحتى السد العالى.

عند الوصول إلى ارتفاع ١٦ ذراعًا، كانت تقام الاحتفالات، فمن قمم المآذن يستمر ترتيل القرآن طوال الليل عرفانًا برحمة الله، ويذهب السلطان إلى مقياس الروضة ليضمّخه ويدهنه بالمواد العطرية، ثم يركب فلوكة ويذهب إلى منطقة فم الخليج (القريبة من الروضة)، ليضرب الماء بصولجانه ثلاث مرات، إيذانًا بكسر السد عند فم الخليج، فيندفع الماء متدفقًا وسط صياح وهتاف الشعب، ليملأ القناة التى كانت تسير بامتداد القاهرة، ويصل إلى بحيرة الأزبكية ليملأها هى كذلك، وقد استمرت تلك الاحتفالات السنوية، حتى نهاية القرن التاسع عشر. [ردمت القناة وتحولت إلى شارع الخليج، وهو حاليًا شارع بورسعيد].

وكان من المعتاد قبل أول ضربة فأس لكسر سدّ فمّ الخليج أن يلقى فى النيل بكتلة من الطين الصلصال على شكل عروس، وهى الرمز الذى ظل باقيًا من التقليد القديم الذى من المحتمل معه أنه كان يلقى بعروس حية فى الماء لإرضاء الإله النهر، وكضحية

لمباركة الفيضان [؟]. من الملاحظ أن مراسم كسر السد، كانت تشهد وجود ممثلين لكل الطوائف، من المسلمين والمسيحيين واليهود.

وفقا لما جاء في لوحات كتاب وصف مصر، وهى من عمل فنانى الحملة الفرنسية سنة ١٨٠٠، فإن فيضان النيل فى نهاية فصل الصيف يغير شكل مصر، ويغير شكل مناظرها الطبيعية، فتظهر بركة الأزبكية مثلاً فى قلب القاهرة، وقد تحولت إلى بحيرة، وبالتالى يتحول حى الأزبكية ليصبح قريب الشبه بمدينة البندقية الإيطالية، كما تبين تلك الرسومات وجود بعض المنازل العائمة، طافية فوق سطح الماء.

ومنذ ردم الخليج والقناة التى كانت تصل بين فم الخليج وبركة الأزبكية، لم يعد سكان القاهرة يشاهدون هذه المناظر. وإن استمر الفيضان فى إغراق أجزاء من محيط القاهرة، حتى بناء السد العالى سنة ١٩٧٠، حين انتهت هذه الظاهرة تمامًا. أصبح النهر مدجّنا عاقلاً، ولم يعد الناس يصلون له أو يقدّمون التمائم.

انظر مقال: الفلايك رقم (٥٠).

١٠١ - النوبة / Nubie

مسكينة النوبة فهى أولاً قد ظلمتها الطبيعة، ثم ثانيًا إن المشروعات الضخمة التى أقامتها مصر فى القرن العشرين للسيطرة على النيل، انتهت إلى محو النوبة المصرية (الشمالية) من على الخريطة، وهى تلك التى تقع بين الجندل الأول فى أسوان، والجندل الثانى فى وادى حلفا، وهكذا لم يعد متبقيا إلا النوبة السودانية (الجنوبية)، إلى الجنوب من وادى حلفا، بين الجندلين الثانى والرابع. طوبوغرافيًا هى هضبة جافة، يخترقها النهر ولكنه لا يصل إلى أرضها، بسبب ارتفاع ضفتيها وحدّة حوافهما، بما لم يسمح إطلاقًا بوجود أى إمكانية لزراعة الهضبة. بالإضافة إلى أن وجود الجنادل، منع أهل النوبة من استخدام النهر فى الملاحة.

أما في الزمن القديم، فقد كانت لهذه المنطقة على الأقل، ثروتها من مناجم الذهب، بالإضافة إلى أهميتها الجغرافية، باعتبارها بوابة لأفريقيا للقادم من مصر، وكانت دائماً تثير رغبات الفراعنة، فغزاها فراعنة الدولة الوسطى حتى الجندل الثانى، وفراعنة الدولة الحديثة حتى الجندل الرابع. إلا أن الوضع ينعكس منذ ٧٥٠ ق.م، فتقوم النوبة السودانية باحتلال مصر لمدة قرن من الزمان [الأسرة ٢٥] ومنذ ذلك الوقت والنوبة الشمالية تابعة لمصر، رغم أن أغلب المصريين استهانوا بها، بل حتى شعروا نحوها بالاحتقار.

وبفضل ماضيهم العريق، وموقعهم الجغرافى المتميّز، يحتفظ النوبيون الحاليون بعزة النفس والإحساس بالكرامة، وهو ما قد يتحوّل فى بعض الأحيان إلى إحساس مركّب بالتفوّق على المصريين، أو حتى فلنقل مركّب (عقدة) التفوّق العنصرى، أليسوا من أعالى *النيل*؟ ألم يكن *النهر* يمرّ *أولا* ببلادهم قبل *أن* يستأنف طريقه *إلى* مصر؟ ولكنهم يبالغون عندما يقنعون أنفسهم بأن الحضارة قد بدأت عندهم أولاً، ثم انتقلت إلى مصر، كما تفعل مياه النيل التى تنتقل من عندهم إلى مصر.

وحيث إنهم يتمتعون بطول القامة والرشاقة [والبشرة الداكنة]، فإنهم يرون أن أولئك الذين تصورهم المعابد المصرية القديمة على جدرانها، لم يكونوا مصريين بل هم نوبيون، ويرون كذلك أن لغتهم النوبية قريبة الشبه باللغة المصرية القديمة. والغريب أنهم كانوا آخر من تحوّل فى مصر إلى الإسلام، وبالتالى فإنهم استمروا يحتفظون بقدر كبير من التقاليد المسيحية، مثل طقس تغطيس المواليد الجدد فى الماء، وهو ما يذكرنا بطقس المعمودية لدى المسيحيين.

تم بناء خزّان أسوان الأول سنة ١٩٠٢، ثم تمّت تعليته فى مناسبتين تاليتين، مما أدّى إلى إغراق أجزاء متزايدة من أراضى النوبة، واختزال الأراضى الصالحة للزراعة، وكان سكان تلك المناطق مضطرين إما إلى سكنى مناطق أخرى أكثر ارتفاعًا عن مستوى النهر أو الهجرة إلى القاهرة، حيث لم تتوفر لهم مجالات عمل أفضل من

الخدمة فى البيوت والمطاعم، أو العمل كبوابين للعمارات. أما السد العالى الذى بنى بين ١٩٦٠ و١٩٧٠، فقد كان الضربة القاضية التى وجهت إليهم.

هذه المرة تم إغراق كل القرى النوبية بشكل دائم ونهائى، تحت أعماق تصل إلى عشرات الأمتار من مياه النيل. لم يعد هناك إلا بحيرة ضخمة، تشغل مساحة تزيد على ٥٠٠٠ كيلومترًا مربعًا، ليس عليها إلا بعض المراكب السياحية، التى تقوم بعمل رحلات منتظمة بين أسوان وأبو سمبل، بالإضافة إلى مراكب بعض الصيادين الضائعة فى تلك المنطقة الشاسعة فى هذا الكفن المائى. كان من الممكن تسمية هذه البحيرة باسم النوبة، ولكنهم أطلقوا عليها اسم ناصر.

تمّ تهجير أهالى النوبة [سنة ١٩٦٤] وأعيد تسكينهم بالقرب من كوم أومبو، حيث تقع القرى الجديدة، بنفس ترتيب القرى النوبية القديمة جغرافيًا، لكنها بالطبع أكثر تزاحمًا عما كانت عليه الأحوال قديمًا، كما احتفظت القرى بنفس أسمائها القديمة، ولم يضف إلى اسم كل منها إلا صفة (الجديدة) مثلا قرية (كلابشة الجديدة).

وعندما أطلق بعض المدافعين صيحاتهم (إنقذوا آثار النوبة) مثلما فعلت مثلاً عالمة المصريات الفرنسية كريستيان دوروش نوبل كور تحرّك المجتمع الدولى. كان السد العالى يهدد أربعة عشر أثرًا، من المعابد الواقعة فى منطقة النوبة، أشهرها معابد أبو سمبل وفيلة، تم تقطيعها ونقلها إلى أماكن أكثر ارتفاعًا وسط النيل (معبد فيلة) أو على ضفتيه (أبو سمبل) كما أن هناك بقايا معابد صغيرة أقل حجمًا بكثير (دندور/أبو عودة)، قدّمت كهدايا إلى بعض متاحف العالم، فى نيويورك وتورينو وليدن والخرطوم.

كانت أعمال الحفر الأثرى لاكتشاف كنوز المنطقة، التى جرت بين عامى ١٩٦٠ و١٩٦٤ قبل إتمام بناء جسم السد العالى، أعمالا لم يسبق لها مثيل فى تاريخ علم الآثار، لكن من الملاحظ، أن إمكانيات هائلة قد أتيحت لإنقاذ المعابد، وإمكانيات

متواضعة لإنقاذ البشر. لقد دفع النوبيون، ثمن الخدمة التى كانوا مجبرين على تقديمها إلى مصر غاليًا جداً. هل سينجحون فى إحياء النوبة القديمة وإعادة بنائها على مرتفعات أبو سمبل؟ هناك تبنى المنازل من جديد بنفس الطريقة النوبية القديمة، أى بقباب وأفنية داخلية، ثم تقوم الفتيات بإضافة رسوماتهنّ من الطيور والزهور بالجير الأبيض على الحوائط الخارجية للمنازل.

انظر مقالات: أبو سمبل رقم ٢ / أسوان رقم ١١ / فيلة رقم ١١٣

١٠٢ - المسلات / Obélisques

أمام مدخل معبد الأقصر كانت توجد مسلتان اثنتان، ففرقنا بينهما خلال السنوات ١٨٣٠ و١٨٣٦ إذ قدّم محمد على إحداهما هدية إلى فرنسا، وهى تلك التى وجدت نفسها بعد ذلك فى قلب ميدان الكونكورد بباريس، أما الثانية فقد ظلت واقفة وحيدة فى الأقصر، فى مكانها القديم. إن هذا التفريق الجائر الظالم بين المسلتين الشقيقتين ألهم تيوفيل جوتييه كتابة مشاعر الحنين والاشتياق التى تشعر بها كلٌ منهما تجاه الأخرى، وهى قصيدة رومانسية من ٣٦ مقطعًا، يتكون كل مقطع فيها من أربع شطرات:

إذ تندب المنفية رغم إرادتها حظها فتقول (فى وسط هذا الميدان أشعر بالملل/ أنا تلك المسلة الموضوعة فى غير موضعها/ إن الثلج والضباب المتجمّد والمطر/ هم كلهم السبب فى الصدأ الذى أصاب وجهى) هذا هو أحد المقاطع الستة والثلاثين. أما تلك الباقية فى مكانها، فهى أيضًا غير سعيدة فتقول (أسهر طول الليل أحرس وحدى هذا المعبد/ هذا القصر الكبير المدمّر الحرب/ فى هذه الوحدة الأبدية/ فى مواجهة الفراغات الشاسعة) وفى مقطع آخر تقول (كم كنت أودّ مثل أختى/ أن أكون قد نقلت

إلى باريس العظيمة/ إلى جوار أختى حتى نتسلى معًا/ وفى وسط الميدان نقف ثابتتين).

إن مسلة الكونكورد فى قلب باريس، أقل تأثيراً فى نفسى من أختها التوأم، لا شك أن مسلة باريس مظلومة، بسبب هذا السيل العارم من السيارات التى تدور حولها نهارا وليلا، ثم إننا لا نستطيع بسبب وضعها فى وسط الميدان أن نقترب منها، أما الأخرى فإن الاقتراب منها، خاصة عند غروب الشمس، وقد أصبحت الإضاءة الطبيعية خفيفة ضعيفة عند نهاية النهار، هى واحدة من أمتع لحظاتى فى الأقصر.

كم من فن وذكاء ومجهود كان مطلوباً لإقامة هذه المسلات؟ لاحظوا أن كل مسلة تتكون من كتلة واحدة من الحجر، غالبًا الجرانيت، وقد نحتت فيه بطريقة خاصة جداً، بشكل شبيه بالإبرة؛ أى قاعدة عريضة وقمة مخروطية مدببة، ثم إنها تقف منتصبة نحو السماء. قطعًا لم تكن هذه المسلات مجرد حلية على صدر المعبد. فإذا كان القدماء قد اهتموا بها كل هذا الاهتمام، فذلك لأنهم كانوا يثقون أنها تلعب دوراً مزدوجًا، فمن ناحية هى تجتذب أشعة الشمس خالقة الكون بطرفها المدبب، ثم من ناحية أخرى هى تربط الأرض بالكون السماوى.

حفرت كتابات على كل وجه من الأوجه الأربعة لهذه الكتلة الصخرية، كتابات تسمى تكريسية؛ أى أن المسلة مصنوعة خصيصاً لهذا المكان، ومكرّسة له، أما القمة المدببة فيمكننا أن نرى فيها هرمًا صغيراً، هريمًا، كان يتلألأ فى ضوء الشمس، لأنه كان مغطى بطبقة من مزيج من معدنين كريمين هما الذهب والإلكتروم، هذا المزيج كان معروفًا باسم الجسد المقدّس.

إن أقدم مسلة معروفة مصنوعة من كتلة حجرية واحدة، هى تلك الموجودة فى هليوبوليس بالقرب من القاهرة، ويبلغ عمرها ٣٩ قرنًا وطولها ٢٠ متراً. أما تلك التى

تحمل اسم الملكة حتشبسوت فى معبد الكرنك فتبلغ ٣٠ مترًا طولاً ويقدّر وزنها بحوالى ٣٢٠ طنًا. إلا أن أكبر المسلات حجمًا على الإطلاق فهى تلك التى لم يتم فصلها أبداً عن الجبل المنحوتة فيه، وتركت هناك غير مكتملة، وتعرف باسم مسلة أسوان الناقصة. يبدو أنها قد تركت فى مكانها بسبب ظهور شقوق فى جسمها أثناء انتزاعها من الجبل، وكان مقدّراً لها أن تبلغ ٤٢ متراً طولاً و١١٦٨ طنًا وزنًا.

تمكن علماء المصريات من تحديد الأسلوب المبتكر، الذى كان القدماء قد اخترعوه بخصوص مسألة المسلات، فإن نحت الحجر لم يكن يتم بواسطة آلات قاطعة، وإنما بواسطة خبطات متتالية عنيفة، تحدث ذبذبات عنيفة كانت كافية لتفكيك بللورات الجرانيت. ثم تجرّ هذه الكتلة حتى النيل بوضعها على قمة ممر منحدر، يمكن زحلقة الكتلة عليه بفعل وزنها، ولتسهيل الانزلاق يحوّل سطح المنحدر إلى سطح لزج بإضافة الليمون السائل. فى النيل كانت المسلة تحمل على مركب ضخم، تجرّه مجموعة أخرى من المراكب الأصغر حجمًا، المندفعة فى الماء بقوة التجديف.

عند الوصول إلى جهة المقصد، كانت المسلة تجر من جديد على مجموعة من الدروب والممرات المنحدرة، حتى النقطة التى يراد لها أن تقام فيها؛ حيث تدور عملية فنية معقدة، تخص مسألة إقامة المسلة عموديًا. توضع المسلة ممددة أفقيا فوق كتلة رملية مكعبة الشكل، داخل صندوق خشبى ضخم جداً بحيث يسع الكتلة الرملية والمسلة داخله، ونبدأ فى تفريغ الرمل تدريجيًا من الصندوق، من فتحة فى أحد جوانبه، بحيث تميل المسلة بالتدريج من الوضع الأفقى إلى الوضع الرأسى، ويكون الموضع النهائى الذى ترتكز عليه المسلة واقفة، هو نفس الموضع الذى يراد تنصيبها فيه، فوق قاعدة كانت قد أعدت لها مسبقًا. مع ملاحظة أن حفظ توازن المسلة والتحكم فيها وتوجيهها، كان يتم أيضًا باستعمال مجموعة من الحبال المتينة المربوطة إليها.

هذه الطريقة الفريدة كانت ابتكاراً بشريًا، فى الوقت الذى لم نكن قد عرفنا فيه بعد لا الروافع ولا حتى العجل والبكرات. لا يمكن مقارنة ذلك بالطرق المستعملة فى

أوقات لاحقة، لنقل مسلات أخرى عبر البحر المتوسط، ففى الوقت الحالى تعيش أغلب مسلات مصر فى المنفى، فتوجد مسلة فى كل من باريس ولندن ونيويورك، أما روما وحدها ففيها ثلاث عشرة مسلة، أكثر من مصر التى لا توجد بها حاليًا إلا ست مسلات.

فى الزمن القديم كانت كل تلك المسلات قد نهبت، سُرِق من كل منها الهريم الذهبى الصغير الذى كان يعلو قمتها، بواسطة اللصوص المحليين، وكذلك بواسطة المحتلين الأجانب، وقد عاد إلى مسلة باريس هريمها. ففى ١٤ مايو ١٩٩٨ كنا بضعة عشرات متلاصقين نحتمى من المطر بمظلاتنا، وقد تجمعنا لحضور المناسبة. جاء سفير مصر على ماهر السيد، ومعه عالمة المصريات دوروش نوبلكور، ثم جاء الراعى الرسمى للاحتفال بيير برچيه صاحب محلات الموضة إيف سان لوران.

ثم ركب الثلاثة كابينة صغيرة ارتفعت بهم كهربائيًا إلى قمة المسلة الهرمية، المنحوتة من نفس كتلة المسلة الجرانيتية، وترتفع ٣,٦ مترًا فوق نهاية بدن المسلة المربع المقطع، لحضور عملية تغطية القمة الهرمية بطبقة من البرونز تعلوها تسع طبقات من الطلاء الذهبى. وهكذا حصلت اليتيمة القادمة من الأقصر على أفضل حللها، ولم أعتد بعد عليها بهذا الشكل الجديد.

١٠٣ - الاحتلال البريطانى / Occupation britannique

سنة ١٨٨٢ قال الإنجليز (نحن لا نحتل مصر، إن وجودنا فيها مؤقت، الغرض الوحيد منه هو تثبيت سلطة الخديوى توفيق، وضمان أمن المقيمين الأجانب). إن الوجود المؤقت سيستمر سبعين عامًا، بحجج مختلفة فى كل مرة. ففى سنة ١٩١٤ مثلا، بعد دخول تركيا فى تحالف عسكرى مع ألمانيا، أعلنت إنجلترا أن مصر محمية

بريطانية حتى نهاية الحرب. ثم سنة ١٩٢٢ ورغم أن مصر قد أصبحت رسميًا مملكة مستقلة فى هذا التاريخ، لإرضاء مشاعر الوطنيين الملتهبة، إلا أن القوات الإنجليزية استمرت موجودة بحجة حماية الأقليات.

بعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦، تقبل إنجلترا أن تسحب قواتها المسلحة إلى منطقة قناة السويس، بحجة حماية مصالحها فيها. إلا أن هذه القوات تعود من جديد إلى القاهرة سنة ١٩٣٩ مع بداية الحرب العالمية الثانية، ثم تعود إلى السيطرة التامة على القطر كله. إن الجلاء الحقيقى عن مصر لا يبدأ إلا فى خريف ١٩٥٤، ليغادر آخر جندى إنجليزى مصر سنة ١٩٥٦ . كانت هناك محاولة للعودة إلى احتلال القناة بالتدخل العسكرى من جديد، بعد تأميم القناة [29/10-5/11/1956] ولكن تم إجهاضها. وقد تركت إنجلترا فى مصر، ذكرى احتلال مخادع مخاتل متعال شرير.

إن الرجل الذى يرمز أكثر من غيره إلى هذا النوع من الاحتلال هو إيفلين بارينج، الذى سيعرف فيما بعد باسم اللورد كرومر. كان والده من رجال البنوك فى قلب لندن، أما هو فقد بدأ حياته العملية فى الجيش البريطانى، حيث لم يبق طويلاً، إذ انتقل منه إلى شئون المستعمرات فى الهند، حيث تمكن من لفت الأنظار إلى شخصيته وكفاءته، فحصل على لقب (نائب نائب الملك). جاء سنة ١٨٨٣ إلى القاهرة، بصفته المندوب السامى البريطانى والقنصل العام لبلاده، حيث سيصبح الحاكم الحقيقى لمصر لمدة سبعة عشر عاماً.

كانت لكرومر قدرة خاصة على إدراك اتجاهات الرأى العام، ليس المقصود هنا طبعا الرأى العام المصرى، فهذا لم يكن يعنيه البتة، وإنما الرأى العام الأوروبى، وخاصة البريطانى، فكل ما قام به فى مصر من محاولات إصلاح أو خدمات، تم وضعه بمهارة فى تقارير، كانت تطبع سنويًا تحت عنوان (الوضع فى مصر) يوضح فيها كيف أن الأمن فى مصر مستتب، وأن النظام مستقر، وكيف أن على رأس كل وزير مصرى هناك مستشار بريطانى، هو الذى يتكفل باتخاذ القرارات المهمة، وكيف أن الزراعة

تتطوّر بفضل إنشاء عدد من خزانات المياه على النيل، وبالتالى تنتج مصر المزيد من القطن، الذى لا يباع إلا إلى مصانع النسيج الإنجليزية فى مانشستر.

فى كتابه (مصر الحديثة)، يقدّم عرضا لفترة حكمه فى مصر، يشير فيه بفخر إلى إنجازاته، ويقول فيه إنه نجح فى القضاء على ثلاثة من مصادر البلاء فى البلاد، هى العمل بالسخرة واستعمال الكرباج والفساد. قد يكون محقًا فيما يتعلق بالسخرة، على الأقل فيما يخص الأعمال المدنية، فإنه حتى نهاية فترة حكمه، كانت السخرة لا تزال مطبقة فى مجال تجنيد الفلاحين فى الجيش المصرى، وإرسالهم ضمن القوات إلى السودان. أما فيما يتعلق بالفساد فهو لم يذكر الحقيقة كلها. بالاضافة إلى أن الكرباج سيأخذ المزيد من الوقت حتى يختفى.

صحيح أن جمع الضرائب أصبح نظامًا متماسكًا مضبوطًا، ضمن غيره من المسائل العامة فى البلاد، وهناك كذلك حقيقة أن الفلاح المصرى كان قد أصبح فى وضع أفضل فى مواجهة بطش الإقطاعيين وكبار الأعيان. ولكن الإنجليز لا يوجهون إلى التعليم إلا قدرًا ضئيلاً من الاهتمام، وكان هدفهم الواضح هو الإبقاء على الشعب المصرى، فى حالة الجهل التى كان يعيش فيها. فى ذلك الوقت ذهب أبناء صفوة المجتمع المصرى يتعلمون فى المدارس الفرنسية، وبالتالى كان الاحتلال الإنجليزى يضيق بتلك الأقليات الأجنبية الموجودة فى مصر، التى كانت تقف أحيانًا حاجزًا بينه وبين الانفراد بالشعب المصرى.

ورغم أن عدد الإنجليز المدنيين المقيمين فى مصر، كان أقل بكثير من أعداد مثلائهم من الجنسيات الأوروبية الأخرى من أعضاء الجاليات اليونانية والإيطالية، ولكن كانت جغرافية مصر تساعد المحتل على إحكام قبضته على البلاد، بواسطة عدد قليل من الموظفين والجنود البريطانيين. وقد أدّى عنف الاحتلال البريطانى، إلى وقوع مواجهات عنيفة بينه وبين الشعب المصرى، فى حوادث متعددة منها مثلاً تلك التى وقعت فى دنشواى سنة ١٩٠٦ .

فى تلك القرية من قرى الدلتا، جاء ضابط بريطانى مع بعض زملائه لاصطياد الحمام، ثم مات بطريقة غير واضحة، بعد أن كان قد دخل فى شجار أو صدام مع بعض الفلاحين. أقام الاحتلال محاكمة سريعة متعجلة، أصدرت أحكاماً قاسية جداً. الإعدام شنقا لأربعة من الفلاحين أمام أهل القرية، وجلد آخرين. هذه المأساة تثير فى المصريين قدراً من الإحساس بالعار، مما يدفع بعض القادة الوطنيين مثل مصطفى كامل إلى المطالبة بجلاء القوات البريطانية، وهو الجلاء الذى لن يتحقق إلا بعد هذا التاريخ بنصف قرن.

انظر مقالات: فاروق رقم (٤٧)/ الفرانكوفونية رقم (٥٦)/ الخديوى رقم (٧٧)/ زغلول رقم (١٤٤).

١٠٤ - الطيور / Oiseaux

إن وجود أبراج الحمام فى بعض القرى المصرية، يعطيها مظهراً شبيهاً بالقرى المحصنة المحاطة بالأسوار، على أساس أن تلك الأبراج هى ليست للحمام بل للمراقبة والحراسة. تلك الأبراج المثقوبة الجوانب قد ترتفع إلى عشرة أمتار. معمارياً هى تتكون من قدور فخارية ومواسير من الطين المحروق، فى بناء من الملاط، وهو خليط من الرمل والجير، يضاف إليه الطين المجفف. عند غروب الشمس نشاهد الآلاف من تلك الطيور وهى تعود إلى أعشاشها، بعد أن تكون قد التقطت قوتها ورزق يومها من الحقول، ويتقبل الفلاحون وجود هذه الطيور فى الحقول، لأن إفرازاتها تشكل نوعاً من السماد الطبيعى للأرض.

لكن من يبنى هذه الأبراج ويربى هذا الحمام، يكون هدفه الأول هو إعداد هذا الحمام للأكل، مشوى أو محشى بالأرز والبصل والتوابل، وفى الصعيد يحشون الحمام بالفريك، وهو نوع من القمح الأخضر المحمّص المجروش، إن هذه الأكلة هى متعة من

متع المطبخ المصرى. هكذا كان القدماء يأكلون الحمام، منذ أربعة آلاف عام، ففى زمن الدولة القديمة كانوا يصطادونه باستعمال قطعة من الخشب المعقوف، إذا رميت فى الهواء بطريقة معينة تحتاج بعض التدريب، يمكنها أن تصيب الهدف الطائر، وتعود بمسار نصف دائرى إلى موقع القذف، وقد عرف أهل أستراليا البدائيون استعمال هذه الآلة، وتسمى البومرانج.

وكانت شباك الصيد تستعمل فى اصطياد أنواع مختلفة من الطيور، فهناك عدا الحمام، السمّان والبطّ والدجاج البرى. ويدلنا النحت الغائر فى مقابر مصر الفرعونية على وجود هذه الممارسات. تلك اللوحات الحائطية تعج صخبًا بأنواع الطيور المختلفة المتعدّدة الألوان التى تعشش فوق أشجار السنط، أو فوق أحراش البردى.

يقال إن طائر العنقاء الخرافى، الذى يشبه لون ريشه الرماد المحترق، كان يخرج من مياه النيل، كل صباح عند شروق الشمس، وأنه هكذا أصبح أحد رموز إله الشمس. ويقال كذلك إن المصرى القديم كان يرمز إلى السماء ببعض الطيور الأخرى، مثل الصقر حورس بجناحيه المشرعين المفرودين يطير بهما مرتفعًا فوق الأرض.أما إلهة الحماية نخبت، فقد اختارت أن تتجسد فى شكل أنثى النسر، وإله الحكمة تحوت، اختار أن يتجسد فى شكل طائر أبيض من فصيلة أبى منجل.

إن علماء أحياء الحيوان والنبات الذين جاؤوا مع حملة بونابارت، لم يستطيعوا العثور فى الطبيعة المصرية، على كل الحيوانات والنباتات المصورة فوق جدران المصريين القدماء، ولكن الأصناف المتبقية كانت كافية لقتلها بحثًا ودراسة ورسمًا. سافينيى وزملاؤه تركوا لنا لوحات جميلة بالألوان، عن البومة وعن نسر طيبة، وعن الزقزاق (الزقزوق) أبو الروس، الذى يشبه طائر البلشون الأبيض، ويظهر مثله قبيل المطر.

كما أن سماء مصر ما زالت مزدحمة بالطيور، مثل أبى منجل، ذى الريش الأسمر الذهبى، والحدأة السوداء، وطائر السنونو الخطاف ذى البطن الأحمر، والبلابل ذات الأصوات الشبيهة بصوت آلة الناى، بدون أن ننسى مالك الحزين الأبيض، الذى كان يسمى سابقا حارس البقر، وهو الذى يتغذى بالتقاط الحشرات المؤذية من على ظهور البقر والجاموس، والغراب البنى اللون الذى يتردد على مواقع حفائر الآثار، والبجع الأبيض أبو جراب، والذى لا يرى فى مصر إلا فى الربيع أو فى الخريف [فى ذهابه إلى أوروبا وعودته منها]، خاصة فى مناطق جنوب مصر حول أبو سمبل.

لم يخطىء المصريون القدماء عندما اهتموا جديًا بالطيور، ثم إنهم يعزون إلى هذه الطيور التى لا يمكن التنبؤ بتصرفاتها، الدور الرئيسى فى تأسيس ثلاث مدن مصرية: الإسكندرية والفسطاط والقاهرة. يحكى لنا المؤرخ اليونانى بلوتارك، أن الإسكندر الأكبر سنة ٣٣١ ق.م، كان واقفا فى موقع على شاطىء البحر المتوسط، ثم انحنى على الأرض ليرسم خريطة للمدينة التى يريد إنشاءها فى هذا الموقع، والتى من المقرر أن تحمل اسمه، وعندما لم يجد طباشير استعمل الدقيق الأبيض، إن رسم تخطيط المدينة الذى ابتكره الإسكندر يشبه عباءة مقدونية، وقد كان سعيداً به جداً، ولكن فجأة ترتفع عن البحيرة، مجموعة ضخمة من الطيور المتنوعة الكبيرة الحجم، حتى أنها غطت السماء كسحابة كبيرة، ثم هبطت فوق رسم الإسكندر وأكلت كل الدقيق. اضطرب المقدونى لكن العرافين طمأنوه أن هبوط الطيور بهذا الشكل هو علامة خير ورخاء.

بعد عشرة قرون يغزو العرب مصر، ويعسكر القائد عمرو بن العاص فى خيمته بالقرب من العاصمة القديمة منف (ممفيس)، ويستعد للزحف على العاصمة (الإسكندرية). وحسب الأسطورة فإنه عند رفع الخيام، لاحظ أن حمامتين قد صنعتا لنفسهما عشًا أعلى خيمته، فأمر بأن تترك الخيمة فى مكانها، لحين عودته من

الإسكندرية، وقد أصبحت الخيمة (الفسطاط) مركز العاصمة الجديدة التى نشأت حولها وحملت اسمها.

وعندما غزا الفاطميون مصر بدورهم سنة ٩٦٩ ميلادية، قادمين من شمال أفريقيا قرروا بناء مدينة جديدة إلى الشمال الشرقى من الفسطاط. لتحديد الموقع المبدئى لحدود المدينة وموقع السور الذى سيحيط بها، أقيمت ألواح سميكة من خشب السنديان، وربطت بالحبال بعضها إلى بعض، وعلقت عليها الأجراس، وقد تركت مسألة تحديد التوقيت المناسب لبدء الحفر والبناء إلى المنجّمين الذين كانوا يراقبون كوكب المريخ. لكن بينما كان هؤلاء العلماء يتجادلون، جاءت الطيور لتقف على الحبال وتهز الأجراس، فبدأ العمال فوراً فى البناء، معتقدين أن دق الأجراس هو الإشارة المنتظرة. وحيث إن المريخ كان فى ذلك الوقت يسمّى النجم القاهر [مارس إله الحرب عند الإغريق]، وكان فى تلك اللحظة فى قمّة تألقه فى السماء، قرر العلماء أن العاصمة الجديدة لن تحمل اسم (المنصورية) كما كان مقدّرا لها، ولكنها القاهرة، التى حوّرها الأوروبيون إلى كايرو ولوكار.

١٠٥ – أم كلثوم / Oum Kalsoum

كانوا يسمونها (الست) وفى الواقع كانت هى السيدة الأولى فى مصر، من كان يستطيع أن يحييها دون أن يقبّل يدها؟ وقد كانت مكرّمة مدللة فى زمن الملكية، ثم كذلك فى زمن الجمهورية لا فرق. كان تنصيبها ملكة على الأغنية لا علاقة له بالأمزجة المتغيرة والصرعات (الموضات)، ولا علاقة له حتى بتغير الأنظمة. وحيث إن عبارة (نجمة الأغنية العربية) لم تعبر كما ينبغى عن شعور الناس نحوها، فقد ابتكر لها معجبوها توصيفًا مناسبًا لها فى عبارات (كوكب الشرق)/ (بلبل العرب)/ (هرم مصر

الرابع). وقد عبَرَ صوتها الذى لا مثيل له، كل الحدود السياسية بين الدول العربية، من بغداد إلى الدار البيضاء، وفى كل مكان ذهبت إليه استقبلوها كما لو كانت ملكة أو رئيسة جمهورية، ويقال إنها أكثر من استطاع توحيد الشعوب العربية.

ولدت هذه الساحرة فى إحدى قرى الدلتا حوالى سنة ١٩٠٤ بدأت بتلاوة القرآن مع فرقة صغيرة كوّنها أبوها، الذى كان يجعلها تتنكر فى ملابس الصبيان، وهكذا ذهبت الطفلة أم كلثوم مع هذه الفرقة، فى جولاتها داخل ريف الدلتا، لإحياء كافة أنواع المناسبات ومن بينها الأفراح. إلى أن جاءتها الصدفة بحضور أحد كبار الموسيقيين فى القاهرة لأحد هذه الأفراح وهو الشيخ أبو العلا محمد الذى لاحظها على الفور وهى تغنى أمامه ولم يكن عمرها يتعدّى السادسة عشرة. أخذها معه إلى القاهرة هى وأسرتها ليستقروا فيها، حيث بدأ فى تعليمها بحزم شديد الأساليب اللازمة لإتقان الغناء، وإجادة اللغة العربية وقد كانت الفتاة تلميذة نجيبة.

عندما يسقط الشاعر أحمد رامى صريع هواها، يؤلف لها أكثر من مائة أغنية، لتصبح أم كلثوم فى وقت قصير أعظم مغنية مصرية فى زمنها، بل فى القرن العشرين كله، ولتحمل أغنياتها توقيع شعراء عظماء مثل أحمد شوقى (أمير الشعراء). أما فيما يتعلق بموسيقى وألحان أغنياتها فهى تدين بالكثير للملحن المجدّد محمد القصبجى، وهو أحد أساطين العزف على العود، وقد كوّن لها فيما بعد فرقة موسيقية خاصة بها، وأوجد لها مسرحا لتغنى عليه، وأضاف الكثير إلى برنامجها الغنائى الذى كان قد اقتصر لمدة طويلة على الغناء الدينى.

تصل أم كلثوم إلى الجمهور العريض بداية من سنة ١٩٣٥ أولاً بفضل الإذاعة المصرية، ثانياً بفضل صناعة الأسطوانات، ثالثًا بفضل فيلم سينمائى أنتج سنة ١٩٣٦ لعبت دور البطولة فيه وهو فيلم (وداد) الذى كان إطاراً سينمائياً وضعت داخله بعض أجمل أغنياتها. هذا النجاح الضخم تبعته نجاحات أخرى. أصبحت تلك الفتاة القروية، التى كانت تتنقل بين القرى على ظهر الحمار، تتنقل الآن فى العاصمة فى سيارة

كاديلاك، ولكن لأنها كانت معتادة على حياة التقشف، فقد كرّست كل وقتها وجهدها لفنها، لمسألة الإعداد الدقيق لأغنياتها.

أما قصص المغرمين بها، فقد أصبحت أحاديث الصحف اليومية، إلا أنها لم تتزوّج إلا فى سن الثالثة والخمسين، فى سرية تامة من أحد الأطباء. هى لم تكن نموذجًا للجمال، ولكنها أثارت مشاعر الافتتان بها لدى الكثيرين، بسبب حنجرتها الدافئة التى تتلون، أحيانًا حزينة باكية شاكية، ودائمًا تلهب المشاعر وتخترق الحجب، مما كان يشعر جمهورها بالانتشاء دون خمر. خلال الستينيات كان يوم الخميس الأول من كل شهر هو اليوم الذى يجتمع فيه ملايين العرب، ليلتصقوا بأجهزة الراديو وينصتوا إلى حفلها الشهرى.

كانت تتمتع بشخصية قوية، وقد رفضت لمدة طويلة التعاون مع ملحن مثل محمد عبد الوهاب، رغم أنه هو الآخر كان أحد عمالقة الموسيقى المصرية المعاصرة، وكان قد تأثر فى فترة من حياته بالموسيقى الغربية، ثم وافقت أخيراً بعد أن جاءها الطلب من عبد الناصر شخصياً. بدأ تعاونهما معا بأغنية (إنت عمرى) ثم جاءت بعد هذه الأغنية تسع أغنيات أخرى. تحوّلت أم كلثوم فى نهاية عمرها إلى أسطورة حية.

كانت معتادة على الصعود إلى خشبة المسرح الذى تغنى عليه فى ثوب طويل، ومنديل من الموسلين فى يدها [من نسيج الموصل الشفاف]، واضعة على عينيها نظارات سوداء لحمايتهما من الإضاءة القوية، بسبب ضعف فيهما من مرض سابق. وكانت ذات موهبة فائقة على الابتكار والارتجال اللحنى، إذ كان يمكنها أن تعيد تلحين بعض مقاطع أغانيها أمام جمهورها، حتى أن بعض أغانيها كانت تستمر لمدد قد تصل إلى ساعة ونصف.

وكان معجبوها يقولون إنها يمكنها أن تعيد غناء نفس الكلمات، بنفس اللحن عدة مرات، ومع ذلك تكون كل مرة مختلفة. وقد تغيّر أحيانًا حتى بعض الكلمات، ما بين

إعادة وأخرى، كأن هذه الكلمات الجديدة قد هربت من بين شفتيها دون إرادتها، فيتساءل الجمهور إن كانت تقصد بهذا التغيير توجيه رسالة معينة إلى شخص ما؟ مما كان يضيف إلى الكثافة الشعورية للأغانى.

لا يمكن أن نتذوق كلمات أغانى أم كلثوم إلا إذا كنا نجيد العربية، خذوا مثلا أغنية (إنت عمرى) للشاعر أحمد شفيق كامل، حيث تخاطب سومة حبيبها، وتدعوه بلا كلل أو ملل، كان الجمهور يتوحد مع الحبيب ويتخيل أن سومة تناديه هو، (يا أغلى من أيامى/ يا أحلى من أحلامى/ خدنى لحنانك خدنى/ عن الوجود وابعدنى/ بعيد بعيد وحدينا/ عا لحب تصحى أيامنا/ وعا لشوق تنام ليالينا) ثم تقول (صالحتنى بأيامى/ صالحت بيك الزمن/ نستنى بيك آلامى/ ونسيت معاك الشجن).

بعد هزيمة مصر العسكرية أمام إسرائيل فى ١٩٦٧، تأخذ أم كلثوم عصاها وترحل إلى خارج البلاد، للدفاع عن القضية العربية، ولجمع الأموال اللازمة للمجهود الحربى. ذهبت إلى باريس، وغنت فى مسرح الأوليمبيا، وتحوّل الجمهور فى الصالة إلى حالة من الوجد. كان الكل قد جاؤوا خصيصًا لها من كل الدول الأوروبية، وقد صنع الجمهور من حفلتها تلك أحد أكبر انتصاراتها. بعد الحفل حين قارنوها بميراى ماتيو، قال برتو فرحى فى جريدة لوبوان (يجب أن نميّز بين جبل الأوليمب وأحد آلهة جبل الأوليمب).

عانت أم كلثوم فى السنوات الأخيرة من حياتها من آلام متزايدة فى الكلى، وماتت يوم ٣ فبراير ١٩٧٥ بنزيف فى المخ، فى المستشفى العسكرى بالمعادى. وقد شارك مئات الآلاف من الجماهير فى تشييع جنازتها، وقد أخذ جنون الموقف ذلك الحشد المتألم، فقاد الجثمان إلى أحد المساجد. فى القاهرة أقيم متحف لمقتنياتها، ثم سكت عملة ذهبية عليها منظر جانبى لوجهها. إلا أن هناك أحيانًا بعض المبالغات، التى تجنح إلى تصوير بعض الأشخاص بعد موتهم، وكأنهم كانوا فوق مستوى البشر، غير قابلين

للخطأ، هذا هو ما فعله مسلسل من ٢٧ حلقة أذاعه التلفزيون المصرى، بمناسبة مرور ربع قرن على رحيلها.

تستمر أم كلثوم حتى الآن فى إثارة خفقات القلوب، بأغنيات لا تتنازل عن مكانها على عرش الغناء، لا زالت تشغل المكان الأول فى قوائم المبيعات. والغريب أننا نجد أحيانًا بعض ألحان أغانيها فى إنشاد الصوفيين، أو الحكائين الشعبيين، وأحيانًا ليس فقط اللحن بل كذلك مقاطع كلامية مع تغيير كلمة أو اثنتين فى تسابيح إلهية ومدائح نبوية، ونجد بعض المقدمات الموسيقية لأغانيها فى بعض المقطوعات الشعبية. إنها فقط العودة إلى المنبع، حيث إن عددا من ملحنى أغنيات أم كلثوم كانوا يستمدّون الإلهام من الموسيقى الفولكلورية الشعبية. إن هذه النجمة الآفلة، ما زالت تعيش فى العقول والقلوب، كما لم يحدث من قبل.

انظر مقال: الموسيقى رقم (٩٧).

١٠٦ - الخبز / Pain

كل شىء يبدأ بالخبز، وأحيانًا حتى كل شىء ينتهى به، فهو أساس التغذية. إن الكلمة الدالة عليه فى العامية المصرية، ليست كتلك المستعملة فى عاميات باقى الدول العربية، إن الكلمة فى مصر هى (العيش) وتعنى (الحياة)، ومن الصعب أن نجد طريقة أفضل من استعمال كلمة عيش لتوضيح الدور الحيوى الذى يلعبه الخبز فى حياة المصريين. إذا لاحظ عابر سبيل، وجود قطعة خبز على الأرض، فإنه يلتقطها بطريقة تلقائية، ويحركها نحو فمه كأنه يقبلها ويطلب المغفرة من الله. وفى الأوساط الشعبية ما زال الناس يقسمون به وهم يلمسونه أو يمسكونه بأيديهم، كما لو أنهم يقسمون برأس الأب أو الأم. كان وضع الخبز مشابهًا تمامًا فى مصر القديمة.

وقتها كانوا يصنعونه من دقيق الشعير أو القمح، وكانت الأرغفة مستديرة الشكل أو بيضاوية، وأحيانًا كانت تتخذ شكلاً مخروطيًا. وبين الخبز والكعك تم حصر حوالى أربعين صنفًا مختلفًا، فى عصر الدولة الحديثة (من القرن ١٦ إلى القرن ١١ ق.م)، وكان الخبّاز شخصية مهمة فى الحياة اليومية. وحتى القرن التاسع عشر الميلادى، كان الناس فى مصر، خاصة العائلات الثرية، يمتلكون أفرانًا داخل المنازل، مع الاستعانة ببعض النسوة المحترفات اللائى يتنقلن بين المنازل لعجن الدقيق وخبزه. كان الاعتقاد السائد هو أن خبز الأسواق لا يأكله إلا الفقراء.

أما الآن فمن النادر جداً فى المدن المصرية، أن تجد من يخبز داخل المنزل، ولكننا ما زلنا نجد حتى فى الخبز بعض التمييز الاجتماعى، فالخبز البلدى الذى تنتجه آلاف المخابز هو لعامة الشعب، والخبز الشامى المصنوع من الذرة أو القمح هو لبعض المرفّهين، وأنواع الخبز الأفرنجي والفينو المختلفة، يفضلها أصحاب الأفواه الرقيقة.

إن رغيف الخبز البلدى اللذيذ هو قرص دائرى أسمر اللون، يبلغ قطره حوالى ٢٠ سنتيمتراً، ويتكوّن من طبقتين متصلتين عند حوافهما الدائرية، ولكن بدون لباب بينهما، ويصنع من دقيق القمح المحلى، وهو يحتوى على قليل من الجلوتين الممزوج بالحلبة والنخالة، وحسب ذوق المشترى، فهو يمكن أن يباع على درجة كبيرة من الاستواء ويسمّى ملدّن وهو مثل البسكويت، أو أن يكون أقل استواء ويسمى طرى.

وينبغى ألا ننسى العيش الشمسى المشهور فى الصعيد، وهو بدون خميرة ومرشوش بالنخالة، وسبب تسميته أنه يترك يتخمر فى حرارة الشمس. هناك كذلك العيش البتاو، وقد يكون الأصل فى الكلمة (بيتا) وتعنى نصيب الفرد من الخبز داخل مجتمعات دينية، ونجده فى مصر الوسطى، ويصنع من دقيق الذرة والحلبة، ويشبه

فطائر الكريب الفرنسية الرقيقة، ويمكن الاحتفاظ به لشهور طويلة، ثم يبل فى الماء ويؤكل.

إن الثمن التافه جداً لرغيف الخبز فى مصر هو صاحب الفضل فى أن أحداً لا يموت جوعا فى هذا البلد، فالخبز يستفيد من أكبر نسبة دعم حكومى تقدمه وزارة التموين، بالمقارنة بغيره من أصناف الطعام الضرورى. وعندما حاولت الحكومة الاستجابة لطلبات صندوق النقد الدولى سنة ١٩٧٧ برفع الدعم عن الخبز، أدّى ذلك القرار إلى تمرّد دموى، والرجوع عن قرار رفع الدعم. إن نقص الخبز فى المنازل هو وسواس الفقراء وهو ما يدل عليه وقوف الناس فى الطوابير أمام المخابز منذ الصباح الباكر، فى بعض القرى والمدن، حيث تحدث نقاشات حادة ونزاعات، وذلك بسبب أن كميات الدقيق المدعوم ليست دائماً كافية.

ليست هناك وجبة مصرية واحدة يمكن تخيل تناولها بدون خبز، فيمكننا دائماً حشو الخبز بالفول أو بالعدس، أو حتى أحياناً بالأرز أو بالبطاطس. إن رغيف الخبز البلدى يستعمل أحياناً كطبق يؤكل عليه الطعام، نتناول الطعام فوقه، وأحياناً أخرى يستعمل كملعقة نتناول الطعام بها، ويتم هذا بحركة تقليدية، وهى أن تأخذ قطعة من الخبز، وتثنيها بين أصابعك، ثم تغرف بها من الطبق، وتسمى هذه الطريقة بالعامية (تغميس) وهى من ضمن متع وملذات الأكل على الطريقة المصرية.

١٠٧ - نخل البلح / Palmier

النخلة ليست بالضبط شجرة، وإنما هى أقرب إلى فصيلة النباتات العشبية، حتى جذعها هو ليس بالضبط جذعا، وذلك لأنه ليست له قشرة، وبالتالى فهو لا ينمو عرضياً مع السنين، وإنما هو يكتفى بالنمو فقط فى الطول والارتفاع ليتعدّى أحياناً العشرين متراً. إن مقاومة جذع النخلة للرياح مذهلة، وقد يحدث أحياناً أن ينحنى هذا الجذع مع

الرياح، حتى يصل إلى مستوى الأرض، ثم عندما يهدأ الجو يعود إلى الانتصاب مستقيماً.

فى واحة سيوة وحدها يوجد حوالى ٢٥٠ ألف نخلة بلح، فى حين أن عدد النخيل المحيط بمنطقة رشيد قد يصل إلى حوالى مليون نخلة بلح، وليست هناك قرية مصرية واحدة لا توجد بها تجمّعات للنخيل التى تلعب أحيانًا فقط دور مظلة تصدّ ضوء الشمس لتسقطه على الأرض متفرقًا. إن نخل البلح فى حاجة إلى ضوء الشمس هذا، وإلى الحرارة والهواء الجاف، وكذلك إلى المياه الجوفية، ولهذا فإن وادى النيل والواحات فى الصحراء الغربية لمصر، يناسب جوها تماماً نمو هذا النخيل، ولهذا فإن مصر هى منتج البلح رقم واحد فى دول حوض البحر المتوسط.

بلح من أنواع مختلفة منها الزغلول الأحمر/ والرملى الأسود/ والأمهات الأصفر المُسَكَّر/ وبلح بنت عيشة الأسود المستدير/ والسمّانى الذى تصنع منه المربات/ والحواشى الذى يحوّل إلى عجينة وتحشى به الفطائر. ولكن لنخل البلح ألف فائدة أخرى، إذ إن الأغصان والألياف والأوراق كلها مفيدة فى صنع العديد من الأشياء، مثل الحبال/ والمقشات/ والسلال/ والموائد/ والكراسى/ وصناديق الملابس، وعندما كنا أطفالاً كنا نصنع منها الأقواس والسهام لزوم اللعب.

إن ذكر نخل واحد يمكنه أن يخصّب خمسين أنثى، ولكن يجب أن نساعده فى أداء مهمته وعدم الاعتماد فقط على الهواء فى نقل حبوب اللقاح، فالهواء متقلب. يصعد رجل جذع النخلة، وهو يحيط خصره مع جذع النخلة بنفس الحبل، مستعملاً ذراعيه وساقيه فى ارتقاء الجذع، فينقل الحبوب من الذكر إلى الإناث، فى أغلفتها البنية اللون. فى بعض المزارع الحديثة قد تستعمل كبائن ترفع كهربائيًا إلى مستوى قمة النخلة لسرعة نقل المخصّب والتعجيل فى أداء المهمة.

يحث القرآن الكريم في أحد نصوصه على الاعتناء بنخيل البلح، فإن الله قد خلقه من نفس الطين الذى خلق منه سيدنا آدم. أما الدليل على اهتمام المصريين القدماء بنخيل البلح فهو استعمالهم له كعنصر زخرفى فى تيجان أعمدتهم، وهو ما يجعلنا نرى فى العمود الحجرى جذع نخلة، مثل الموجود منها فى مجموعة أوناس الهرمية [سقارة/ أسرة ٥]. وغالبًا ما يظهر إلى جوار نخيل البلح، فى الرسومات والمنحوتات، على جدران المعابد والمقابر المصرية، نوع آخر هو نخيل الدوم.

وهو نوع من النخيل ينقسم فيه الجذع الأصلى إلى فرعين، ثم من جديد ينقسم كل فرع منهما إلى فرعين. وقد وجدنا داخل مقابر بعض الفراعنة، ثماراً تشبه ثمار الدوم التى نعرفها حالياً، وهى ثمار كروية الشكل، يميل لونها إلى الاصفرار، وبها نواة ضخمة الحجم جداً بالنسبة إلى حجم الثمرة.

كان المصوّر الفوتوغرافى الإنجليزى فرنسيس فريث، قد قال ذات مرة (ليس هناك ما هو أصعب على الرسام من إظهار جمال تكوين النخلة، أو قبح تكوين الجمل)، وذلك بعد أن كان قد قطع كل الأقاليم المصرية، جيئة وذهاباً خلال العشر سنوات الأولى من اختراع التصوير الفوتوغرافى (١٨٥٠/ ١٨٦٠). حقًا إنه ينبغى قدر كبير من المهارة والدراسة الدقيقة حتى نعطى هذا التاج من أوراق النخيل حقه، فهو نموذج للتناسق التام رغم عدم الانتظام، فكل الأوراق، وكذلك كل الوريقات، فى نفس الوقت متشابهة ومختلفة، فكلها تميل برشاقة من نفس المحور الرأسى إلى جهة الخارج، ولكن لا توجد اثنتان تميلان بنفس الطريقة، فكل ورقة تميل برهافة، مع وضع جاراتها فى الاعتبار. إن هذه التيجان النباتية يجب أن ترسم بنفس الدقة التى كانت معروفة فى العصر السابق على عصر فنان النهضة رافاييل، أما الجذع فكل بتلة يجب أن ترسم بدقة على حدة، كما لو كنا نتعامل مع زهرة رقيقة.

١٠٨ - البردى / Papyrus

شغل البردى مكاناً مهماً فى العصر الفرعونى، ثم اختفى تماماً من مصر خلال ما لا يقل عن عشرة قرون، ثم عاد إلى مصر من جديد فى ستينيات القرن العشرين. نرى هذا النبات المائى الآن، بجذعه الناعم المثلث المقطع، المنتهى بقمّة زهرية على شكل مظلة أو خيمة، حيث تكون الأزهار كلها معلقة فى الهواء، رغم انطلاقها كلها من نقطة واحدة، فيما يشبه خصلة الشعر.

كان البردى هو رمز مصر السفلى (الدلتا)، لأنه كان يكثر فى أحراشها ومستنقعاتها، متواجداً فى شكل باقات قد يصل ارتفاعها إلى ستة أمتار. وحسب المعتقدات القديمة، كان يلعب دوراً فى مساعدة الموتى على تلمّس طريقهم داخل الأحراش، وعبورها بحثًا عن ميلادهم الجديد، وفى حمايتهم من الأشرار والجن والحيوانات الخطرة، حتى إنهم كانوا يقولون إن حفيف أوراق هذا النبات عند اهتزازها بسبب مرور المتوفى، كان صوتًا تحبه وادچيت مما قد يسمح بطلب شفاعتها. [وادچيت مع أختها نخبت كانتا حاميتين للموتى].

بالإضافة إلى أنه من الناحية العملية، كانت جذوع هذا النبات مفيدة، فى صناعة الحبال/ والسلال/ والحصائر/ والصنادل/ وبعض المراكب الخفيفة، ثم إن بقايا النبات كانت تحرق وتستعمل كوقود، فى حين إن الجزء الطرى من جذع النبات، كان المصرى القديم يأكله كصنف من الخضروات. إلا أن أهم ما استعمل هذا النبات من أجله هو أن يكون أول مادة يمكن أن يكتب عليها قبل أن يكتشف استعمال جلود الحيوانات المجففة أو أن يخترع الصينيون الورق.

كانوا يتخلصون أولاً من قشرة الجذع، ثم يقطع الجذع طولياً إلى شرائح طولية، توضع فى الماء لبضعة أيام حتى تتخلص من محتوياتها السكرية غير المرغوب فيها، ثم توضع هذه الشرائح بعضها إلى جوار بعض من اليمين إلى اليسار، بحيث يعلو طرف

الورقة الأولى الأيسر، فوق طرف الورقة الثانية الأيمن، ثم طرف الورقة الثانية الأيسر، فوق طرف الورقة الثالثة الأيمن، وهو ما يمكن تسميته بالتشابك أو التراكب أو التداخل، فيسمح الصمغ الطبيعى الموجود فى الأوراق بالتصاقها، خاصة بعد وضعها تحت أثقال لبضعة أيام، فتندمج تماماً الألياف فى الأجزاء التى يعلو بعضها بعضاً.

وجدنا على هذه الأوراق مسودّات القضايا والحكايات والأناشيد الدينية والنصوص الطقسية. وبفضل مناخ مصر الصحراوى الجاف، وعدم وجود أمطار، أمكن الاحتفاظ ببعض هذه اللفائف (الملفات)، فى حالة حفظ جيدة إلى يومنا هذا. أطول البرديات الموجودة حالياً فى العالم، هى تلك الموجودة فى المتحف البريطانى بلندن، والتى يبلغ طولها مفرودة حوالى ٤١ متراً. ولكن يفقد ورق البردى عرشه، منذ وصول الورقة الأولى التى اخترعها الصينيون، ثم عندما تتحول مصر إلى المسيحية، فلا تعود للبردى أية وظيفة دينية، يختفى تماماً من الطبيعة المصرية، ويستعمل المصريون القش والجلد فى صناعة السلال والصنادل.

كان الدكتور حسن رجب سفير مصر السابق فى الصين سنة ١٩٦٢ فى السودان، قد تمكن من رفع فسائل بعض نباتات البردى، وأعاد غرسها فى قطعة أرض بالقرب من القاهرة. هذا الدبلوماسى/ المهندس سابقاً/ والأب المؤسس لحزب البيئة المصرى لاحقاً، وبعد أن كرّس سنوات عديدة من عمره للأبحاث، تمكن بمبادرة فردية، من معرفة الطريقة - الموصوفة أعلاه - التى سمحت للمصريين القدماء، بصناعة لفائف البردى من جذوع نبات البردى. الآن هناك مؤسسات للبردى تشرح للسائحين هذه الطريقة. وهكذا عاد المصريون المعاصرون إلى استعمال طريقة أسلافهم فى الكتابة والرسم على ورق البردى. تكون النتيجة أحياناً قطعاً فنية جميلة جداً.

انظر مقال: الكاتب المصرى رقم (١٢٩).

١٠٩ – التراث القومى المصرى / Patrimoine

إن (أسماء البكرى) هى صاحبة (أكثر الكاميرات السينمائية دقة وقدرة على التعبير)، هذه العبارة الأخيرة تنطبق أكثر ما تنطبق عليها هى لا على أى سينمائى آخر، هذه السينمائية الصريحة، التى تملك ناصية فن صناعة الأعداء، وذلك بسبب أنها تمتلك وسيلة كشف وفضح وإدانة، الاعتداء الدائم والعنيف على التراث القومى المصرى. كانت قد أقامت الدنيا وأقعدتها سنة ٢٠٠٠ حتى يتم الإبقاء على الآثار الغارقة فى الماء، فى البحر أمام الإسكندرية، أنتجت لنا فيلمًا تسجيليًا قصيراً بطول عشرين دقيقة، عن الحالة المزرية التى توجد عليها، بعض أحياء القاهرة الإسلامية فى المنطقة حول قلعة صلاح الدين.

بفضل هذا الفيلم تم إعلان حالة الطوارئ على كل الجبهات، ففى هذه المرة ليست الآثار الفرعونية والبطلمية فقط هى المهدّدة، بل هناك كنوز من عصور متتالية، قبطية/ فاطمية/ مملوكية/ عثمانية، بالإضافة إلى العديد من الإنشاءات المعمارية الأحدث زمنا والتى تعود إلى العصر الذهبى للكوزموبوليتانية(*) المصرية.

لم تتمكن الآثار القديمة من البقاء فى حالة حفظ جيدة، إلا لأنها كانت طول الوقت مدفونة تحت الرمال، ولكن تغيرت أحوالها منذ الكشف عنها وإخراجها من تحت الرمال، ثم تعرضها للهواء الملوث واعتداء عناصر الطبيعة. ليس هذا فقط بل كانت الآثار المصرية ضحية أعمال البشر غير المنطقية، مثل الحالة التى كادت أهرامات الجيزة أن تتعرض لها، بعد أن تمدّدت القاهرة حتى وصلت إلى سفح هضبة الأهرامات، تلك الجواهر المتلألئة فى تراث الإنسانية، ولكن الحمد لله تم اتخاذ الاحتياطات اللازمة. وهناك خطوة جديدة ستتخذ، وهى بناء سور يحيط بمنطقة الهضبة كلها، لن يسمح باجتيازه إلا للسيارات العاملة بالكهرباء [لتجنب اهتزاز المحركات].

إن لمس قطعة الآثار الحجرية باليد مرة واحدة لا يضيرها، ولكن عندما يلمس نفس القطعة ملايين السائحين، فإن الكارثة مؤكدة على المدى القصير أو الطويل. ولا تنسوا احتكاك أجسام ملايين السياح بأحجار الآثار، والغازات الكربونية الناتجة عن عملية التنفس، داخل المقابر الفرعونية المغلقة، والذبذبات الصوتية أيضًا التى تتجمَع داخل الأماكن المغلقة، لا تنسوا أن مقبرة توت عنخ آمون بوادى الملوك تستقبل يوميًا ما لا يقل عن ٥٠٠ سائح، إنه متوسطها اليومى أثناء الموسم السياحى.

فى أبريل سنة ٢٠٠٠ وفى أثناء انعقاد المؤتمر الدولى الثامن لعلم المصريات بالقاهرة، أعلن زاهى حوَاس، مدير منطقة آثار هضبة الجيزة، عن الإغلاق التام والنهائى لعدد من المواقع، مقابل أن تقوم مصر بعمل نماذج مجسّمة لهذه المواقع. لكن هذا الاقتراح لم يلق أى ترحيب، لأن السياح لن يأتوا إلى مصر لمشاهدة النماذج. ألا ترون أن هناك قدراً من التناقض فى موقف علماء الآثار الأجانب الذين تنفق دولهم أموالاً ضخمة على ترميم نفس هذه الآثار، ثم يعارضون فى مسألة قد تسمح بالحفاظ عليها، إنها مخاتلة واضحة.

بدأت هيئة الآثار المصرية فى الاهتمام جديًا بمنطقة مصر القديمة [الكنائس]، ومنطقة القاهرة الإسلامية [شارع المعز]، ولكن المشكلة هى أن ترميم الآثار فى مناطق آهلة بالسكان، بل ذات كثافة سكانية عالية، يستدعى أولاً تقوية البنية التحتية، مثل شبكات المياه والصرف الصحى، وهو ما يرفع التكلفة الإجمالية. ذلك لأن المسألة ليست تحويل المدينة إلى متحف، ولكن المسألة هى أن يتمكن سكان تلك المناطق السياحية، من الاستمرار فى الحياة فى مناطقهم، والاحتفاظ بأنشطتهم الحياتية بدون تغيير.

هناك عمليات مثيرة للاهتمام جرت فى بعض الأحياء، مثلما حدث فى الدرب الأصفر [من شارع المعز لدين الله الفاطمى]، حيث تمّ إشراك السكان فى عمليات الترميم، واقتضى الأمر منع دخول السيارات التى تدور بالمحركات فى بعض الشوارع،

وكذلك هدم إنشاءات تعدّت على حرم الآثار، وإحلال الحجر والخشب محل الأسمنت والألومنيوم. ولإنقاذ التراث القاهرى والحفاظ عليه، نحتاج إلى رؤوس أموال وإلى خبرة أجنبية، وهكذا استطاع المعمارى الفرنسى برنار مورى، بحرص بالغ، وبمعاونة العديد من الجمعيات الفرنسية أن يرمم ويجدد الأثر الرائع لبيت الهرّاوى بالقرب من الجامع الأزهر.

ثم كرّس نفسه بعد ذلك لترميم بيت السنّارى فى حىّ السيدة زينب وهو منزل يعود إنشاؤه إلى سنة ١٧٩٤، وشغله بعض علماء الحملة الفرنسية. كان المنزل فى حالة سيئة جداً، بسبب غزو المياه الجوفية لجدرانه، وقد وصل الماء إلى أسقفه الخشبية المشغولة بالزخارف المنحوتة. تمّ صرف المياه بمساعدة مهندسى مترو القاهرة الفرنسيين، ثم تفكيك الواجهة تمامًا بعد ذلك، لتغيير الكتل الحجرية المتآكلة بسبب الرطوبة.

كان إنجاز المشغولات الخشبية كلها من جديد، عمل أكثر من رائع، بواسطة فنيين مصريين، مع فنان فرنسى (من مجموعة كومبانيون دو فرانس) [التى يتربى فيها الفنانون الفرنسيون بنفس أساليب التربية الفنية القديمة التى تعود أحيانًا إلى القرون الوسطى]، كما تمت الاستعانة برسومات للواجهة من كتاب (وصف مصر)، لمعرفة طريقة إعادة تشكيل الخشب الدقيق فى الشرفة المطلة على فناء الدار.

أما فى مصر القديمة، فقد تغير تماماً وجه الحى كله، بفضل ترميمات وتجديدات على مستوى مرتفع جداً تقودها بذكاء المهندسة المصرية منى زكريا. لم يُكْتَفَ فقط بترميم الكنائس الموجودة بالحى، والجبانة الجميلة إلى جوارها، بل تمّ كذلك إنشاء محطة لسيارات النقل العام، وسوق مخصص للإنتاج الحِرَفى مبنى كله بالكتل الحجرية. حتى السلم المؤدّى إلى محطة المترو، تحول إلى مبنى رشيق، رغم كونه من الأسمنت.

ولكن مع ذلك هناك لسوء الحظ وجوه أخرى للمسألة، فقد تمّ فى بعض الآثار، تكليف بعض المقاولين، بعمل بعض الترميمات، وهم ليس لديهم أدنى فكرة عن العمل الموكل إليهم. مثلاً فى جامع ابن طولون، كان أحد المقاولين ينوى تبليط الفناء الداخلى للمسجد، الممتد على مساحة ٩٠٠ متراً مربعًا، رغم أن هذا الفناء فى الأصل التاريخى له، لم يكن أبداً مبلطًا، منذ بنائه فى القرن التاسع الميلادى. بالإضافة إلى أن أسمنت بورتلاند الذى حقنت به جدران المسجد، كانت اليونسكو قد منعت استعماله منذ سنوات طويلة، لأنه يتلف الأحجار الأصلية.

وحتى سنة ١٩٨٣ كانت القوانين المصرية لا تحمى إلا الأبنية السابقة على زمن الخديوى توفيق (١٨٧٩)، وهو ما يعنى أن الكثير من المبانى التالية لهذا التاريخ كانت قد هدمت، وحلت محلها أبراج الأسمنت المسلح السكنية. ثم هناك عنصر سلبى آخر، ألا وهو تجميد إيجارات المساكن بقانون صدر سنة ١٩٦٢، وما زال مطبقا حتى الآن لحماية المستأجرين، رغم ما له من نتائج كارثية على المبانى، فقد أهمل أغلب أصحاب العمارات السكنية صيانتها، خلال عشرات السنوات، ثم بدأوا يبحثون عن طريقة لهدمها للاستفادة من الارتفاع الخرافى فى أسعار الأراضى. حتى منزل أم كلثوم الذى كان ينبغى له طبعًا أن يتحوّل إلى متحف، حل محله مبنى ضخم يعرض شققه ومكاتبه للإيجار.

ثم إن الإسكندرية أسوأ حالاً من القاهرة، ولكن الحمد لله هناك مقاتلين أبطالا، مثل المعمارى محمد عوض، الذى يحارب البولدوزرات بيديه الخاليتين من السلاح، وقد نجح بمعاونة آخرين، فى إنقاذ بعض المبانى القديمة، بعد أن تمكن من إدخالها فى قوائم تصنيف المبانى التاريخية.

انظر مقالات: إسكندرية رقم (٦)/ أسوان رقم (١١)/ هليوبوليس رقم (٦١)/ البحر المتوسط رقم (٨٨)/ السياح رقم (١٤٠).

١١٠ - الحجاج / Pèlerins

إنها رقصة باليه بأثواب بيضاء فى مطار القاهرة الدولى، إنهم حجاج يشعّون نوراً وضياء، متجهين إلى واحدة من الطائرات التى خصصتها لهم مصر للطيران، يصطحبون معهم عائلاتهم وأصدقاءهم، حتى إنهم يبلغون أحياناً بضعة عشرات من الأصدقاء والأقارب للحاج الواحد، ولا يبخلون عليه بكل طاقتهم فى نصحه وتشجيعه وتوديعه، غارقين فى دموع ونحيب.

فى مكة يدور الحجاج سبع مرات حول الكعبة، ثم يسعون سبع مرات بين المرتفعات الصخرية المقدّسة، ويصلون إلى الله وسط جموع حاشدة هائلة، طالبين غفران خطاياهم. عند عودتهم إلى بلادهم سيحصل كل منهم، من هؤلاء المختارين المحظوظين والمحظوظات، على لقب حاج أو حاجة، وهو أكثر الألقاب احتراماً. على كل مسلم مؤمن أداء فريضة الحج إلى مكة، ولو مرة واحدة فى العمر، بشرط أن يمتلك المال اللازم للقيام بهذه الرحلة، فيقوم البعض بالادخار خلال سنوات لجمع المال اللازم لأداء هذه الفريضة.

ويمكن للبعض الآخر أن يقترض المال للقيام بالرحلة، وفى هذه الحالة فبدلاً من الذهاب بالطائرة، يكون الذهاب عن طريق السويس ثم بالمركب إلى جدة. كل هؤلاء عندما يبدؤون فى التوجّه إلى المكان الذى سيسافرون منه، يكونون قد ارتدوا مسبقًا، ملابسهم البيضاء غير المخيطة، حسب شروط الشريعة الإسلامية، خاصة لو أنهم سيتجهون مباشرة إلى مكة المكرّمة دون المرور بالمدينة المنوّرة.

أما أقل الحجاج ثراء، فهم أولئك الذين يستعملون الحافلات المزينة بالرايات البيضاء، عبر طرق صحراوية، يصل طولها إلى حوالى ٢٠٠٠ كيلومتراً، آخذين معهم مؤنهم الغذائية. خلال تلك الرحلة سيتناوبون الجلوس إلى جوار سائق الحافلة الوحيد،

ويحكون له قصصا مسلية لمنعه من النوم. بعض الحجاج يكسبون رحلتهم تلك إلى مكة، بواسطة النجاح فى إحدى المسابقات التى ينظمها التلفزيون المصرى خلال شهر رمضان.

تقدّم المملكة العربية السعودية حوالى ٦٦٠٠٠ ألف تأشيرة سنوية للحج إلى المصريين، وتتولى وزارات ومؤسسات مصرية عديدة مهمة توزيعها. إن النصيب المحدد مسبقًا لكل دولة، بنظام الكوتة، فى حق المرور بالأراضى المقدّسة، قد يؤدّى أحيانًا إلى عمليات شدّ وجذب، على قدر من الحساسية. فمثلاً لكل نائب فى مجلس الشعب المصرى ثمانية أماكن، يقدّمها إلى ناخبيه، الذين يريد مكافأتهم على نجاحه فى الانتخابات أو الذين يمكن أن يكونوا مفيدين فى حالة إعادة الانتخابات، كما توجد سوق سوداء لبيع التأشيرات.

خلال قرون طويلة، كانت مصر تقدّم سنويًا كسوة الكعبة المشرّفة التى تصنع حاليًا فى مكة نفسها. إن هذا الديباج الأسود المقصّب بخيوط من حرير، والمطرّز بخيوط من ذهب كان يتولى إعداده فنيّون من القاهرة، ثم كان ينقل بأبهة وتكريم مع القافلة المصرية المكوّنة من آلاف الحجاج. كانت مناسبات رحيل القافلة من القاهرة، وعودة القافلة إلى القاهرة، تعطى للمصريين الفرصة لاحتفالات عظيمة.

كان الأديب الفرنسى جيرار دو نرفال يقيم فى القاهرة سنة ١٨٤٣، عندما حضر استقبال عودة قافلة من الحجاج ، الذين كانوا قد دفنوا بعض رفاقهم الموتى خلال طريق العودة، فكتب (كانوا مثل أمة من البشر، تأتى مشيًا ثم تلتحم فى أمة أخرى من البشر، ليصيرا معًا شعبًا هائلاً، مع تنافس فرقة مرعبة من كل الموسيقيين القاهرين، فى إظهار مشاعرهم فى كمية هائلة من الصخب، الصادر من نافخى الأبواق وعازفى الدفوف، المستقرين فوق جمالهم وهجينهم.

حوالى منتصف النهار جاءت أصوات المدافع من قلعة الجبل، ووسط الهتافات والتهليل والأبواق وطلقات المدافع، أعلنوا عن وصول المحمل، الذى أرى بوادره على مرمى البصر، إنه المحمل المقدّس الذى يعود بكسوة العام الماضى، الثوب المذهّب الذى كانت ترتديه الكعبة، فيأتى تتابع مكوّن من سبعة أو ثمانية جمال، برؤوسهم المزيّنة بالريش، وأجسامهم المغطاة بسروج مصنوعة من سجاجيد، وهى الزينة التى تجعل الجمل قريب الشبه بالسمندل [وهى نوع من السحالى ذات الجلد المبرقش]. ومن وقت لآخر يتوقف المحمل، فتنحنى الجموع واضعين جباههم على أياديهم).

عند عودة الحجاج يكون هناك احتمال كبير لانتقال بعض الأوبئة معهم، وهو ما يستدعى الكشف الطبى الدقيق، حتى بعد ذلك وعند وصول الحجاج إلى منازلهم، يظلون خمسة عشر يومًا تحت الملاحظة. وتكون هناك مفاجآت طيبة فى انتظار حجاج الأرياف، إذ غالبًا ما ينتهز أقاربهم فرصة سفرهم فى الحج، لدهان منزل الحاج باللون الأبيض، وتزيين الواجهات ببعض الرسومات الصغيرة متعددة الألوان، تصوّر رحلتهم بالطائرة أو بالمركب، مع آيات قرآنية مكتوبة بخط عربى جميل، وبعض الزهور والطيور، وأحيانًا أسد، أو بعض مناظر من الحياة اليومية.

لهذه الرسومات الجدارية أغراض دينية، رغم أنها غير متفقة تمامًا مع روح الإسلام، وتعاليمه التى تمنع تصوير الكائنات الحية، ولكن مصر ما زالت تحتفظ بتقاليد عمرها آلاف السنين، وهى غير مستعدة أن تتخلى عنها.

المسيحيون هم كذلك مدعوون إلى الذهاب إلى القدس، ليحصلوا هم أيضًا لا على لقب حاج، بل على لقب (مقدّس)، وهو بالنسبة إليهم يساوى لقب حاج ولا يقل شرفًا عنه، ولكن كنيسة مصر تمنع هذا الحج، طالما لم تعد السلطات الإسرائيلية، إلى الكنيسة المصرية، دير السلطان، الذى يتبع الكنيسة المصرية منذ عصر صلاح الدين.

١١١ - فرعون / Pharaon

كانت لهذه الكلمة قوة مدهشة، ثم أصبحت رمزا لحضارة، ومع ذلك فإن هذه الكلمة لم تستعمل في مصر، إلا خلال الألف الأخير من الأعوام قبل الميلاد، أى بعد أن كان العصر الفرعوني قد وصل تقريبًا إلى نهايته، فحتى سنة ١٠٠٠ ق. م، كان المصريون يدعون حاكمهم بألفاظ مثل عظمة الملك أو السيد الملك.

إن كلمة فرعون تتكون في اللغة المصرية القديمة من كلمتين، هما (بر) التى تحولت إلى (فر) وتعنى المنزل، و(عا) التى تحولت إلى (عون) وتعنى الكبير، والمقصود بالكلمة هو القصر الملكي أو سكان القصر الملكي، كما نفعل حاليًا عندما نقول قصر باكنجهام أو قصر الإليزيه أو البيت الأبيض. بدأ استعمال الكلمة (برعا) منذ نهاية عصر الدولة الحديثة في مناسبات خاصة دلالة على حاكم مصر.

على أى الأحوال لم يكن الفرعون يخشى أن يخطيء الناس فيخلطون بينه وبين شخص آخر على جدران المعابد، وذلك حيث إنه كان دائمًا يمثل في حجم يبلغ عشرة أضعاف أحجام الآخرين. هناك كذلك إشارات أخرى كثيرة إلى شخصيته، مثل التاج الأحمر للدلتا، والتاج الأبيض للصعيد، والأفضل أن يحمل التاجين معًا على رأسه (التاج المزدوج ويسمى بشنت) وهناك الكوبرا التى تقف منتصبة على جبهته (اليورايوس) واللحية المزيفة والتنورة ذات الذيل التى يرتديها.

إن الفرعون هو صاحب الكلمة المطلقة في مصر كلها، هو بلا نظير، هو يمتلك مصر كلها بل حتى العالم أجمع، إنه يجمع بين يديه كل السلطات، الإدارية والقضائية والدينية والحربية. ثم إنه قبل كل شيء الإله المتجسّد، وريث الإله حورس وخليفته، وقد حدث أحيانًا أن قدّم الفرعون الصلوات والقرابين إلى تماثيله، وإلى صورته على جدران المعابد، [كإله وإنسان في نفس الوقت]. إن المهمة الأولى للفرعون هي حماية النظام الكوني، ولهذا فإن فراغ السلطة، أى فراغ كرسي العرش، من هذه الزاوية كان مخيفًا،

فبدون فرعون كانت الشكوك تعصف بالناس، إلى حد تخيل احتمال عدم بزوغ الشمس، فى صباح اليوم التالى أو حتى الشك فى مجىء فيضان النيل فى موعده السنوى، طالما بقى عرش البلاد خاليا بدون فرعون.

كان للفرعون أن يتزوج عدة نساء، وبعض زوجاته كنّ من بين أنصاف أخواته، أو حتى من بين بناته. إن غياب الوارث الذكر، أتى فى مرات قليلة ببعض النساء إلى العرش، ولكن هذه الأوضاع لم تكن تستمر لمدة طويلة، وغالبًا ما كانت تنتهى بشكل سيء. لكن الملكة حتشبسوت تستحق منا اهتمامًا خاصًا. هى كانت فى نفس الوقت عمّة وحماة تحوتمس الثالث، وقد استقرت لها الأمور فى حكم فردى، سيتحوّل بالتدريج إلى حكم مشترك مع زوج ابنتها. عندما توّجت هذه المرأة الطموحة على عرش مصر سنة ١٤٧١ ق.م، اتخذت لنفسها كل رموز وشعارات الفرعون، ومنها اللحية المزيفة.

وقد أعدّت لنفسها معبداً جنائزيًا هو المعروف حاليًا باسم الدير البحرى، فى البر الغربى بالأقصر، بالإضافة إلى المقصورة الحمراء بمعبد الكرنك، حيث أمرت بحفر هذا النص عليها (إنه أبى آمون سيد الآلهة/ الذى ثبّت ابنته الكبيرة بسحرها لتصبح حاميتى/ لتصبح حية الكوبرا على جبهتى/ وقد رفعنى إلى مرتبة حاكمة الضفتين/ كان آمون العظيم قد أعطى نبوءة عندما قال/ عندما قدّمنى كسيدة الشعب/ على وجه الأرض كلها/ إنه وضعنى فى المقدمة أمام ساكن القصر/ فى حضرة التسعة آلهة من هليوبوليس مؤسسى العالم/ لقد توّجنى بنفسه بيديه/ لذلك حصلت على التربية اللازمة/ حتى أصبح أنا نفسى حورس بذراعه القوى/ ثم أجلسنى على منصة حورس اليوبيلية الاحتفالية/ فى حضرة كل رجال البلاط).

إن وثائق العصور الفرعونية تبخل علينا بالتفاصيل الخاصة بكل فرعون، لأن صورته التى ينبغى لها أن تكون داخل إطار الكمال المطلق، تترك شخصيته الحقيقية مجهولة فى الظل، فنحن لا نعرف إن كان منقرع قد تعرض لنوبات غضب، أو إن كان

سيزوستريس الثالث قد أحبّ التنزّه فى المساء فى شرفات قصره. نحن حتى لا نعرف عدد الفراعنة، ولا مدة حكم كل منهم، وهى مسألة تدعو إلى الارتباك.

يعتمد علماء المصريات على كتاب مانيتون، وهو كاهن ومؤرّخ من زمن البطالمة، فى تحديد عدد الأسرات بثلاثين. إلا أن المشكلة هى أن كل حاكم يبدأ سنوات حكمه بالسنة صفر، كان كل حاكم يؤرخ لمدة حكمه هو وحده، دون حساب سنوات حكم الفراعنة السابقين عليه، فيقال مثلا (السنة الثالثة من حكم الفرعون فلان، أو السنة الرابعة من حكم الفرعون علان)، كما لو أن خلق العالم يبدأ من حكم كل فرعون منهم على حدة.

من هو أول فرعون؟ يبدو أن الإجابة هى مينا، وهو كذلك مؤسس مدينة منف (ممفيس) حوالى سنة ٣٠٠٠/ ٢٩٥٠ ق.م، هل هو فعلا شخصية حقيقية؟ لن يضع أى عالم مصريات منهم يده فى النار ويقسم أنها الحقيقة، فكلهم غير متأكدين. إن اكتشاف حكام أقوياء قبل مينا، حكموا حكمًا مستقلاً على بعض مناطق مصر أدّى إلى مراجعة التقويم الزمنى الكلى لعصر الأسرات المصرية، وذلك بوضع (الأسرة صفر) فى بداية التقويم.

أما فيما يتعلق بآخر الفراعنة، هل ينبغى التوقف عند الغزو الفارسى، الأسرة ٢٧ قمبيز وداريوس؟ هل نتوقف عند البطالمة الذين غرقوا هم أيضًا فى الطاحونة الفرعونية، وادعوا أنهم فراعنة؟ ثم ألم يعط هذا اللقب فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى، إلى محمد على مؤسس مصر الحديثة؟ ألا يحق هذا اللقب أيضًا لكل من عبد الناصر والسادات؟ ثم لماذا التوقف عندهما؟ إن الكلمة فى صيغة الجمع (الفراعنة)، تجمع حولها المصريين، لكونها اللقب الذى يحمله الفريق القومى المصرى لكرة القدم.

انظر مقالات: إخناتون رقم (٥)/ أهرامات رقم (١١٨)/ رمسيس الثانى رقم (١٢١)/ توت عنخ آمون رقم (١٤١).

١١٢ - فنار الإسكندرية / Phare d'Alexandrie

قد يكون أمراً مقبولاً أن تختفى مكتبة الإسكندرية، وتتحول إلى رماد ودخان دون أن تترك أى أثر، أما اختفاء فنار الإسكندرية فلا، هو ليس أمراً مقبولاً. كيف يمكن تخيل أن هذا البناء المهول، إحدى عجائب العالم القديم السبع قد اختفى؟ إن البدء فى بناء هذه الشمس الثانية كان سنة ٢٩٧ ق. م، وستستمر عمليات البناء خمسة عشر عاماً. إنه لم يكن أول برج مضىء فى العالم الإغريقى، ولكنه بدون شك كان أكبر هذه الأبراج وأكثرها طموحاً. إنه الفنار الذى سيعطى اسمه لكل فنارات العالم، وذلك لأن اسم الجزيرة التى أنشىء عليها أمام الإسكندرية (فاروس)، سيصبح فى كل اللغات الكلمة التى تعنى البرج الذى يرشد السفن، أى الفناروس، ثم الفنار.

كان هذا الشاطىء خطراً، لذلك كانت السفن فى احتياج إلى هذا الضوء الذى يرشدها على بعد كبير، لتجنب الارتطام بالصخور والتحطّم عند سطح الماء. وحيث إن طبيعة أرض مدينة الإسكندرية مسطحة، لا جبال فيها ولا مرتفعات يمكن أن يوضع الفنار عليها ليصل ضوؤه إلى أبعد مكان ممكن، لهذا تحتم أن تكون قاعدة الفنار المبنية بالحجارة مرتفعة جداً قدر الإمكان، مما يسمح لاحقًا لشعلة الفنار أن تكون على ارتفاع ١٣٥ متراً.

ولكن على ما يبدو فإن المسألة لم تكن متعلقة فقط بإرشاد السفن، بل كذلك كانت هناك الرغبة فى خلق أقوى أثر ممكن فى نفوس الرائين والتأثير فيهم، وقد لاحظ هذه المسألة المؤلف البريطانى، إى إم فورستر فى كتابه (فنارات ومصابيح لاجتذاب السمك) المطبوع سنة ١٩٢٣ . (صحيح أن وجود الفنار كان ضرورياً، ولكننا نتساءل إن لم يكن بناؤوه قد استولت عليهم رغبة جنونية مقدّسة، فى تزيين عبقريتهم الهندسية، مستعينين بأجنحة الشعر، محاولين بهذه الطريقة أن يقدّموا إلى العالم، عجيبة جديدة من عجائبه، إنهم على كل حال ينجحون.

تتحد العلوم والفنون لتعلن الاحتفال بانتصارها، وبنفس الطريقة التى ربط بها العالم اليونانى بين الإلهة أثينا والبارتينون، وسيربط العالم المسيحى بين القديس بطرس ومدينة روما، سيرتبط الفنار فى أذهان معاصريه بمدينة الإسكندرية. لم يحدث أبداً فى تاريخ العمارة، أن أصبح لأحد المبانى المدنية، كل هذا الإجلال والتوقير والتبجيل، وأن تصبح لجزيرة مثل فاروس كل هذه القيمة المعنوية، إذ كان الفنار يغازل الخيال، أثناء قيامه بإرشاد السفن، وبعد وقت طويل من انطفاء أضوائه، ستظل ذكرى توهجه تبرق فى نفوس البشر).

وحتى نترك الفنار يقدّم نفسه إلى القارئ، يجب علينا أن نقارن بين النصوص المتناقضة، لبعض الرحالة الإغريق والرومان والعرب، حتى نتحقق بأنفسنا من المعلومات. كما أنه يصح أن نستعين بفحص بعض قطع العملات المعدنية. يبدو أن الفنار كان مبنياً بالحجر الجيرى الأبيض، وبجرانيت من أسوان، ثم تمت إحاطته بسور قوى لحمايته من الأمواج، وكان يتكون من ثلاثة مستويات يعلو أحدها الآخر، ذات أبعاد تتناقص مع ارتفاع البناء، فهناك طابق أول مربع المقطع قائم الزوايا، يعلوه طابق ثان مثمّن المقطع، ثم يرتفع فوق الكل الطابق الثالث الأسطوانى البدن، وقد وضع أعلاه تمثال زيوس كبير آلهة الإغريق. إن بعض مآذن القاهرة تذكرنا بهذا التركيب الثلاثى.

أما النار المشتعلة فى قمة الفنار، فكانت ترى أثناء الليل على بعد ٥٠ كيلومتراً، وكانت مواد الاحتراق اللازمة لهذه النار، تحمل على ظهور الدواب من الحمير والبغال، التى تسلك ممراً حلزونياً داخل بدن الفنار، بدون درجات سلم. ولإرشاد البحارة فى أوقات انعدام الرؤية بسبب كثافة الضباب أو السحب، كانوا ينفخون فى أبواق ضخمة مصنوعة من البرونز، موجودة عند زوايا شرفة الطابق الأول.

يذكر الكثيرون من رحالة الزمن القديم، وجود نص محفور على بدن الفنار، ويعتقد أنه كان يشير إلى إهداء الأثر، إلى المعمارى سوستراتوس الكنيدى، لا إلى الملك، وهو

شيء غريب. بمتابعة البحث، ندرك أن المعمارى كان قد لجأ إلى حيلة لتخليد ذكراه هو شخصيًا، ولمحو اسم الملك البطلمى وزوجته وهما الاسمان اللذان لم يكونوا محفورين على الحجر، وإنما كانا فقط مكتوبين على طبقة من الجير الأبيض. سقطت هذه الطبقة الجيرية مع الوقت، فظهر تحتها اسم المعمارى المنحوت فى الحجر، ليظل فى مكانه قرونًا طويلة.

حظى سوستراتوس كذلك بشرف الحصول على قطعة أدبية من الشاعر المقدونى (بوسيديب دى بيللا) التى يوجّه فيها الشاعر حديثه إلى بروتيه عجوز البحر، الذى كان طبقا للأساطير اليونانية يسكن جزيرة فاروس (يا حارس الإغريق/ يا عجوز فاروس/ أيها السيد بروتيه/ إن سوسترات ابن ديكسيفانوس الكنيدى/ هو الذى أقامه فى مصر/ إن المسألة ليست مجرد موقع مراقبة مرتفع على الجزيرة/

كانت المشكلة هى أن الخليج الذى يستقبل السفن/ يمتد بنفس المستوى الأفقى للبحر الواقع أمامه/ وهكذا فإن وقوف الفنار بهذا الشكل المستقيم المنتصب/ يقطع السماء ليُرى فى وضح النهار من على مسافات بعيدة/ أما أثناء الليل فإن النوتية يلمحون/ بسرعة فى وسط البحار/ النار المشتعلة فى قمته/ ويستطيعون أن يقودوا سفنهم/ مباشرة إلى قرن الثور/ وأبدا لن يفقد الطريق/ ذلك الذى يبحر فى منطقة زيوس وفى حماه/ إن زيوس هو دائمًا المنقذ).

بداية من القرن الرابع الميلادى، يتأثر الفنار بعدد من الهزات الأرضية، وبالتالى كان من الواجب تقويته أو إعادة بناء أجزاء منه، وهكذا أضاف أحمد بن طولون زاوية للصلاة أثناء واحدة من ترميمات القرن التاسع الميلادى، ستكون فى وقتها أعلى مساجد العالم ارتفاعًا عن الأرض. ولكن طبقًا لوصف ابن بطوطة الذى يزور الموقع سنة ١٣٤٩ ميلادية، يبدو أن الفنار قد أصبح ركامًا من الأحجار المهدّمة، ولم يعد من الممكن الوصول إلى بابه. وفى الربع الأخير من القرن الخامس عشر، استفاد السلطان

قايتباى من ركام الأحجار هذا ليبنى قلعته التى هى الآن واحدة من أهم مزارات مدينة الإسكندرية.

وفى مياه البحر وليس بعيداً عن تلك القلعة، عثر عالم المصريات الفرنسى چان إيف امبرور، مع فريق من الباحثين والغواصين، على كتل حجرية عديدة، كانت من المؤكد ضمن بدن الفنار، وقد اشتمل هذا الكنز أيضًا على أجزاء حجرية محطمة، لتمثالين ضخمين، لفرعون بطلمى، ولزوجته المنحوتة فى شكل إيزيس، من المؤكد أنهما كانا يقفان عند قاعدة هذا (المصباح السحرى).

١١٣ - معبد فيلا / Philae

على بعد حوالى ١٠ كيلومتراً إلى الجنوب من أسوان، وبين صخور الجندل الأول، تخرج فيلا من الماء مثل سراب. إنها جزيرة مأهولة، بها الكثير من الآثار ومن الخضرة تتناقض بشدة مع المنظر الشبيه بتضاريس القمر الجبلية الصخرية الموجودة حولها وعليها تتناثر المعابد والصروح فى كل الاتجاهات، كما لو كانت قد وضعت بطريقة عشوائية. هذه الفوضى محببة ومفهومة، لو تمكننا من إدراك النسق العام لترتيب وتوزيع الآثار على الجزيرة.

إن أقدم الإنشاءات الحالية الموجودة على الجزيرة، تعود إلى زمن الفرعون نقتانبو الأول من الأسرة ٣٠ والذى كان حكمه قد امتدّ من ٣٧٨ إلى ٣٦٠ ق.م، وقد أضاف إليه فيما بعد كل الفراعنة من البطالمة والرومان، وسيكون هذا المعبد هو آخر معاقل الوثنية فى مصر، وسيكرّس لعبادة إيزيس وسيبقى على قيد الحياة حتى بعد قرارات ثيودوسيوس (٣٩٢/٠٣٩٦ ميلادية) التى حرّمت عبادة الأوثان فى الإمبراطورية البيزنطية.

سيظل هذا المعبد حتى القرن الخامس الميلادى، يستقبل الحجاج القادمين من النوبة، خصيصًا لزيارة الإلهة إيزيس. وقد تعايشت الديانة الجديدة (المسيحية) مع الديانة القديمة، لفترة من الزمن، حوّل خلالها المسيحيون أجزاء من المعابد القديمة إلى كنائس، خاصة تلك الأجزاء السابقة مباشرة على منطقة قدس أقداس المعبد (الهيكل).

سنة ١٧٩٩ وصل فيفان دينان مع جنود حملة بونابارت إلى جزيرة فيلا، ليقع على الفور فى هوى جوسق الإمبراطور الرومانى تراجان، ويكتب (إذا أردتم يومًا ما نقل أحد المعابد من أفريقيا، فليكن هو هذا الجوسق، فبالإضافة إلى سهولة نقله لصغر حجمه، فهو سيقدّم شهادة ملموسة، على بساطة ونبل العمارة المصرية، وسيصبح مثلاً واضحًا على حقيقة أن طابع المبنى لا ضخامته هو ما يصنع جماله وعظمته).

قبيل النزول على الجزيرة، كان بعض جنود الحملة قد أطلقوا بعض طلقات المدافع، فحاول بعض سكان الجزيرة المقاومة. إنهم لم يكونوا إلا أنصاف عراة، يسكنون أكواخًا من الطين المجفف، يقول دينان (لم أتخيّل أن تصدر مثل هذه التصرفات الفظة الحمقاء، من أمثال هؤلاء التعساء، فى مثل هذا المكان المسالم الهادىء، فقد غرق أولاً بعض أولئك الذين قذفوا بأنفسهم فى الماء، خاصة من الأمهات مع أطفالهن، أما الباقيات على البر فقد قمن بتشويه أوجه أطفالهن، مخافة أذى المعتدين).

سيصل بعد ذلك علماء وفنانو الحملة الفرنسية إلى الجزيرة، بعد أن يكون دينان قد رحل، وسيتركون أثرهم على قطعة حجر من أحجار المعبد الكبير، حيث كتبوا بحروف كبيرة (فى العام السادس من الجمهورية [كان إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية فى ١٧٩٢]، وفى الثالث عشر من شهر ميسيدور [غيروا أسماء شهور السنة، ومن المعروف أن تاريخ إنزال القوات الفرنسية فى الإسكندرية هو الأول من يوليو]، نزل جيش فرنسى بقيادة بونابارت إلى الإسكندرية، وبعد عشرين يومًا هزم المماليك فى

موقعة الأهرام، فتتبعهم الجنرال ديزيه على رأس جيش، حتى وصل إلى ما بعد جنادل أسوان، فى اليوم الثالث عشر من شهر فنتوز من العام السابع [ديزيه يصل إلى فيلا فى ٢١ فبراير ١٧٩٩]، ثم تأتى أسماء قادة الجيش فى قائمة طويلة تنتهى بورود اسم الحفار الذى حفر النص على الحجر، وتاريخ الانتهاء من عمله ٣ مارس ١٧٩٩ .

فيما بعد سيقوم سياح إنجليز بمحو اسم بونابارت من على الحجر، ثم يعيده إلى مكانه الأمير نابوليون (وريث عرش فرنسا) [نصّب بونابارت نفسه إمبراطوراً باسم نابوليون الأول]، رغم أن هذا الأمير لم يكن مهتماً بالآثار المصرية، وقد ألف مجموعة من المنتخبات الأدبية، التى لا تستحق إلا أن تظهر فى سجلات الحماقة، إذ قال فيها (يمكن أن نذيب كل كنوز مصر القديمة فى كتلة واحدة، بدون أن نخرج منها بقطعة واحدة يمكن أن تقارن بتمثال فينوس للنحات ميلو، أو بمعبد تيزيه).

من الغريب أن شامبوليون لم يحب فيلا، بعد أن كان قد عسكر بضعة أيام سنة ١٨٢٨ أمام جوسق تراجان، إذ كتب فى مذكراته (منحوتات همجية. إن أجزاء المبانى المزخرفة تحت الحكم الرومانى تدل على انعدام تام فى الذوق الفنى). يجوز أن السبب فى تعكر مزاجه، هو إصابته بنوبة نقرس، أدت إلى أنه كان يتنقل فى الجزيرة محمولاً على نقالة، إنه الأثرى الوحيد الذى لم يذكر شيئًا كبيراً عن المكان وموقع الجزيرة.

إن الشاب المصاحب لشامبوليون فى زيارته للجزيرة، وهو نستور لوت، لم يجد الكلمات الكافية واللازمة للتعبير عن إعجابه (إن النهر ينساب وهو يجأر، ومن رحم الماء تخرج إلى الوجود جزيرة، مغطاة بالآثار القديمة، وبأشجار نخيل البلح والميموزا والسنط المستحية، إنها جزيرة فيلابيه، حيث يوجد تجمّع غريب لكل أشكال الآثار المهدّمة، ترصعها بقع خضراء من الشجيرات، إنه من غير الطبيعى وجود كل هذه النباتات الجميلة هنا، إنها معجزة أخرى لهذا المكان، مثل معجزات وجود الآثار ووجود الإنسان، فى هذه المنطقة الحارقة الحرارة).

سيتعلق مصير الجزيرة ببناء خزانين فى أسوان، الأول هو الخزان القديم، الذى يعود بناؤه إلى سنة ١٩٠٢ والذى أدّى إلى إغراق لؤلؤة المعابد المصرية (فيلا)، خلال شهور طويلة كل عام، حين لم يكن يتبقى فوق سطح الماء سوى قمـــم الصـــروح، مما لم يكن يسمح بزيارة المعبد إلا فقط خلال شهور الصيف، رغم شدة حـرارة الجو، وذلك عندما تفتح عيـون الخزان، لريّ الأرض الزراعية، فينخفض مستوى الماء المخزون.

فإذا كان لهذا الحمّام السنوى فضل تخليص المعبد من الملح المترسّب على جدرانه والذى يهدد سلامة المبنى، فإن هذا ليس بالتعويض الكافى عن فقد نقوش الجدران ألوانها الرائعة عاماً بعد عام. لم تكن صرخات التنبيه التى أطلقها جاستون ماسبيرو، المدير الفرنسى للآثار المصرية، قد وجدت لها أى صدى لدى المجتمع الدولى [بسبب نفوذ ومصالح إنجلترا]، ولكن صرخة ماسبيرو وجدت صداها لدى بيير لوتى، فكتب بقلمه اللاذع (موت معبد فيلا)، حيث يصف بموهبة أدبية قوية، زيارة قام بها إلى المعبد خلال فصل شتاء، فى جو قارس البرودة:

(دخلنا إلى المعبد بمركبنا، إلى ميناء غريب جداً، ميناء سوداوى حزين كئيب فى روعته العتيقة، خاصة فى لحظة الغسق تلك بعد غروب الشمس وبداية دخول الليل، مع هبة من ريح ثلجية أرسلتها إلينا الصحراء بلا رحمة، ولكن كم هو جميل جوسق فيلا وسط هذا الضياع، الذى حتما يسبق الانهيار التام، ثم هناك ذلك المنظر الداعى هو الآخر إلى الإحساس بالأسى، حين لا نرى من النخيل الغارق إلا تيجانه. إنها رحلة إلى نهاية العالم على ما يبدو، فى هذه الفينيسيا المهجورة، التى حتما ستنهار ثم تغرق وتنسى).

من الغريب أن الخزان الثانى، وهو سد أسوان العالى، الذى سيفتتح سنة ١٩٧١ هو الذى سيؤدّى إلى إنقاذ فيلا، فهذه المرة تتحرك اليونسكو، وتقوم بدراسة خطط مختلفة لانتشال جزيرة إيزيس من المياه، واحدة منها كانت معقدة جداً، وتخيلت

إمكانية إحاطة الجزيرة تماماً بحزام من السدود، ولكنهم اختاروا أن تفكّ أحجار المعبد واحدا واحدا، ليعاد بناؤها فى مكان آمن، على جزيرة أخرى هى أجيلكا، وتبعد ٣٠٠ متراً إلى شمال الموقع الأصلى، وتتميز بكونها من الجرانيت، وتتخذ نفس الاتجاهات الجغرافية مثل فيلا، ومع ذلك كان ينبغى إعادة تشكيل أجيلكا لزيادة اتساع زاويتين من زواياها، فيصبح لها مثل جزيرة فيلا شكل العصفور، المتجّه بمنقاره نحو النوبة. تستمر عمليات الإنقاذ بنجاح تام من ١٩٧٢ إلى ١٩٨٠ لتستحق لؤلؤة مصر اسمها من جديد.

انظر: إيزيس رقم (٦٧).

١١٤ - حجر رشيد / Pierre de Rosette

كم كان مصير هذا الحجر غريباً؟ حجر مصرى اكتشفه الفرنسيون وامتلكه الإنجليز، إنه حجر مكسور وغير مكتمل، ولا يمكن لأحد أن يعتبره قطعة فنية، وفى الواقع فهو لا صلة له بالروائع التى قدّمتها لنا مصر القديمة، إنه مجرّد قطعة حجر مكسورة، تبدو كما لو كانت بلا أية فائدة، لكن فى الواقع فإن قيمتها لا تقدّر بمال، ولو أردنا ذات يوم بيعها إلى جامع تحف أمريكى أو يابانى ثرى، لتهوّر كل منهما للحصول عليها مهما كلفه ذلك من أفعال الجنون.

تمّ اكتشاف هذا الحجر القديم عن طريق الصدفة، فلم يكن أحد يبحث عنه، ولم يكن أحد حتى يعلم بوجوده، ومن ناحية أخرى فلو كنا حتى نعلم بوجوده، لما ذهبنا للبحث عنه، فى تحصينات عربية من القرن الخامس عشر الميلادى. إن الحصن المقصود يقع بين مدينة رشيد وساحل البحر المتوسط، وعلى الضفة الغربية لفرع رشيد، أطلق جنود بونابارت عليه اسم قلعة چوليان، عندما كانوا يحاولون إعادته إلى حالة تسمح باستعماله، فى نفس الوقت كان العثمانيون قد وصلوا إلى مصر، لمحاولة

إخراج الفرنسيين منها، وحطت سفنهم فى موقع قريب من رشيد. نحن فى شـــهر يوليو ١٧٩٩ .

بالصدفة وفى أثناء العمل فى تقوية أساسات الحصن، عثر ضابط فرنسى شاب اسمه فرنسوا بوشار ورجاله على هذا الحجر، مجرد كتلة من الجرانيت الأسود بارتفاع حوالى متر وعرض ٧٢ سنتيمتراً وسمك ٢٧ سنتيمتراً ويزن ٧٢٠ كيلوجراماً. هناك نص غير مكتمل موجود على واجهته، فلم يعثر أبدا على جزئه العلوى الناقص، بالإضافة إلى نص آخر فى الجانب الأسفل إلى اليمين. فى الواقع فإن الواجهة المصقولة من الحجر، كتب عليها بالحفر الغائر، فى ثلاث فقرات متتالية، ثلاثة نصوص، مكتوبة بثلاثة أنواع مختلفة من الحروف. الكتابة بالحروف الإغريقية كانت هى الفقرة الثالثة والأخيرة إلى أسفل الواجهة المصقولة.

أما الفقرة الأولى فكانت مكتوبة بعلامات هيروغليفية، والفقرة الثانية كانت مكتوبة بعلامات لم تكن قد عرفت بعد، وستسمى لاحقا العلامات الديموطيقية، وهى طريقة كتابة سريعة تسمح باختزال أو بتبسيط العلامات الهيروغليفية. نعرف أن الفقرة الثالثة مكتوبة باليونانية القديمة، وندرك أن النص يتعلق بمرسوم دينى، يسجّل امتنان كهنة معبد إلى أحد الملوك البطالمة فى القرن الثانى ق.م، وفى نهاية هذا النص الوثيقة، نكتشف أن هذا الامتنان، كان ينبغى الإعلان عنه فى كل المعابد المصرية، باليونانية والهيروغليفية والديموطيقية. ندرك أنها المرة الأولى التى نحصل فيها على وثيقة مكتوبة بثلاث لغات، أو بالأحرى بلغتين اليونانية القديمة والمصرية القديمة، وقد كتبت المصرية بطريقتين مختلفتين.

عندما شاهد ضباط الحملة وعلماؤها هذا الحجر، أدركوا على الفور قيمة الكنز الذى بين أيديهم، ربما يوجد به مفتاح لغز الكتابة المصرية القديمة، كما نشرت الجريدة اليومية للحملة الفرنسية (لوكورييه). حصل كل عالم مستشرق على نسخة من نص حجر رشيد، على أكبر قدر ممكن من الدقة فى النقل، وانكب كلٌ منهم على العمل فى

محاولة إنجاز المهمة. إنهم يحاولون مقارنة النص اليونانى مع النص الديموطيقى، بسبب أن النص الهيروغليفى كان فاقداً للجزء الأكبر من الأربعة عشر سطراً الأخيرة منه. بدؤوا بأسماء الأشخاص الموجودين فى النص اليونانى.

كانت المحاولات الأولى كلها لتطبيق أفكار تقديرية متكلفة متعسفة، مثلاً البحث عن مجموعات العلامات الديموطيقية التى تتكرر مع نفس الحروف اليونانية. للأسف لم يكن النص الديموطيقى ترجمة حرفية للنص اليونانى. على أى الأحوال، لم يكن لدى هذه المجموعة الأولى من العلماء، المعارف الكافية اللازمة للاضطلاع بهذه المهمة.

وضع الحجر فى ركن من أركان أحد قصور القاهرة، فى انتظار فرصة أفضل. ثم نقل إلى الإسكندرية تمهيداً لنقله إلى فرنسا. لكن الإنجليز الذين تحطّ مراكبهم على شواطئ الإسكندرية فى ربيع ١٨٠١، استولوا عليه، رغم احتجاج الفرنسيين، ونقلوه إلى لندن، ليدخل المتحف البريطانى سنة ١٨٠٢، حيث وضعوا إلى جواره لوحة صغيرة مكتوباً عليها (استولى الجيش البريطانى على هذا الحجر فى مصر).

عكفت الجامعات الأوروبية كلها على محاولة فك اللغز، ومع وجود النوايا العلمية الطيبة، إلا أن الأمر بدا كأنه سباق سيشارك فيه عدد من أفضل العقول المعاصرة. عندما حصل شامبوليون على لوحة مطبوعة من اللوح الأصلى واستعان بكل مجموعات الوثائق التى كانت فى حوزته، نجح فى فهم الحقيقة الجوهرية فى حل اللغز، وهى أن العلامات الهيروغليفية كانت أحياناً ذات قيمة صوتية، أى منطوقة، وأحياناً أخرى تكون قيمتها تصويرية، أى غير منطوقة.

ويميل تبسيط الأمور إلى تصوير مسألة حل اللغز، على أنها مجرّد لقاء بين رجل وحجر، إلا أن المسألة لم تكن بسيطة، وليس لأن شامبوليون تمكن من قراءة نص حجر رشيد، فقد تمكن بذلك من فك الشفرة، إن المسألة احتاجت وثائق أخرى ومصادر

أخرى عديدة وعمل شاق، للوصول إلى هذه النتيجة. لكن نص الحجر كان تحدياً رائعًا، ومحركًا ومحفزًا على العمل، كان نقطة انطلاق لواحدة من أكثر المغامرات العلمية تشويقًا على مر العصور. لم يغادر الحجر لندن إلا مرة واحدة سنة ١٩٧٢، ليعرض فى اللوفر لمدة بضعة أسابيع، بمناسبة العيد المائة والخمسين لفك شفرة العلامات الهيروغليفية، وعاد بعد ذلك فوراً إلى المتحف البريطانى الذى ما زال يحتفظ به، ويغار عليه كأنه رفات أحد القديسين.

إن واحدة من أكثر نسخ الحجر ابتكارا، هى تلك التى تحتفظ بها مدينة فيجاك مسقط رأس شامبوليون، من عمل فنان أمريكى هو (جوزيف كوسوت). إن النسخة تغطى كل مساحة أرضية ميدان صغير للمشاة طوله ١١ متراً وعرضه ٨,٥ متراً، وإلى جوار الميدان حديقة على الطراز المصرى القديم. إن المادة المستعملة فى أرضية الميدان هى من الجرانيت الأسود، القادم من زيمبابوى، وتعطى لسطح النص الكثير من البريق، وهو نفس السطح الذى يسمح لكل فقرة من فقرات النص الثلاث، أن تكون على مستوى أرضية مختلف عن مستوى أرضية الفقرتين الآخريين، مستفيداً بوجود ميل طبيعى فى أرضية الميدان. إن هذا المكان الجميل يسمى ميدان الكتابات.

انظر مقالات: شامبوليون رقم (٢١)/ هيروغليفى رقم (٦٢)/ علماء بونابارت رقم (١٢٨).

١١٥ - الذوق والأخلاق / Politesse

رغم أن ألقاب البك والباشا قد ألغتها الثورة سنة ١٩٥٢، إلا أنها لا تزال موجودة فى اللغة المتداولة، فصاحب المتجر لا يتردد فى تقديم لقب (يا باشا) إلى أى ضابط يمر فى شارعه، وفى التلفزيون نجد أن الفلاح يخاطب المذيع، الذى جاء إلى القرية لإجراء حوار معه، قائلاً له (يا باشا). وهناك ألقاب أخرى أقل استعمالا مثل لقب (يا باش مهندس)، وهو يعطى لكل رجل يبدو فى نظر العامة مثقفًا، وإن حل محله أحيانًا

لقب (يا دكتور). ومن المألوف استعمال عبارات (يا حاج) و(يا حاجة) للأشخاص المتقدّمين فى السن، حتى لو أنهم لم يكونوا قد ذهبوا بعد إلى مكة، فهى عبارة لا تكلف شيئًا، ولكنها تدلّ على الاحترام الذى نكنه لهم.

يمكنك أن تستدل على كل شىء عن طريق اللغة المستعملة، إلا إن المصرى الحقيقى يعرف كيف يتلاعب بالعبارات إلى ما لا نهاية، العبارات الدالة على الاحترام والتوقير والذوق، وهو ما يوقع الأجنبى فى حيرة، فالمصريون مثلا لا يكتفون بعبارة (صباح الخير) فالعبارة تستدعى عبارات أخرى، (صباح النور) (صباح الفل) (صباح الورد)، وهذا النوع من العبارات هو أساس كل العلاقات والروابط، فالاستجابة إلى دعوة لتناول وجبة مع صديق تستدعى (دايمًا) فيرد الداعى إلى الوجبة (دامت حياتك) [يبدو أن المؤلف لا يعرف هنيًا]. لكن الأجنبى لا يعرف أنه لا ينبغى أن يقول (دايمًا) عندما يقدّم له فنجان قهوة سادة فى مناسبة عزاء، فهذا يعنى أنك تتمنى لهم دوام الحزن والحداد.

فى خضم هذه الطقوس، يمكنك أحيانًا أن تتظاهر باقتراح شىء مثل (تعال لتناول الطعام معنا) أو التظاهر برفض سعر سلعة أو خدمة معينة (لا أرجوك)، إلا أن هذه العبارات وحدها لا تكفى، إذ ينبغى التأكيد بالقسم (والله العظيم)، فيتأكد المدعو أن الدعوة ليست شكلية. أحيانًا يكون فرط الأدب داعيًا إلى الشك، لاعتقاد الناس أن الهجوم المباغت بالعبارات اللطيفة، يمكن أن يكون مخادعًا، فعلى أذن المستمع فى تلك الحالة أن تميّز بين النبرة الخاصة بالصوت فى حالة الادعاء، ومن ثمّ الاحتياط للعدائية. أحيانًا تكون هذه المقدمات الكلامية الطويلة للحديث، هى طريقة لحل صراع ما أو استراتيجية لكسب الوقت لحين رؤية الهدف والتقدّم نحوه.

إن كلمة (أدب) المستعملة عنوانًا لهذا المقال، يمكن أن يقصد بها الذوق وحسن الأخلاق فى التعامل مع الناس، ولكن يمكن أن يقصد بها كذلك فن استعمال الكلمات فى الكتابة الأدبية. أليس هناك إيحاء ما من هذا الازدواج؟ أى إن الأخلاق الحميدة قد

تحتاج إلى بعض الصنعة والاصطناع، مثلما هو الحال مع الكتابة الأدبية. كتب چورچ حنين، وهو أديب وشاعر مصرى عاش فى فرنسا، وألف كتبه بالفرنسية، عبارة واحدة يمكنها أن تلخص ما أريد قوله، قال (إن الفصاحة اللغوية فى العالم العربى هى شراب الآلهة وماء الحياة، بالإضافة إلى كونها أسلوبًا للتمويه والتدليس).

١١٦ - وجوه الفيّوم / Portraits du Fayoum

لا يمكننا أن نتجاهل بسهولة هذه الوجوه، بهذه النظرات الكثيفة المتجهة إلينا، والتى تبدو عليها ملامح الحزن أو الدهشة. إن ارتباط هذه الوجوه بالفيوم هو اتفاق مبدئى عام، وذلك لأن أغلب هذه اللوحات الشخصية جاءت من إقليم الفيوم، حيث اكتشفت فى نهاية القرن التاسع عشر، فى تلك الواحة المتسعة الواقعة إلى الجنوب الغربى من القاهرة. لكن واقع الأمر، إن المئات من تلك اللوحات، المبعثرة فى متاحف العالم، كانت قد اكتشفت فى أماكن أخرى فى مصر، وليس فى الفيوم وحدها.

إن تلك اللوحات تصوّر اللقاء الذى تم بين ثلاث حضارات وثلاث ثقافات، المصرية واليونانية والرومانية. كانت تلك اللوحات توضع مع مومياوات أصحابها، طبقا للتقاليد الجنائزية المصرية القديمة، ولكنها مرسومة بواسطة فنانين إغريق، بين القرنين الأول والثالث الميلاديين، فى الوقت الذى كانت مصر قد تحوّلت فيه إلى ولاية رومانية. كانت التقاليد تحتّم أن توضع صورة وجه الشخص المتوفى، مثبّتة فوق الجزء الخاص برأسه فى موميائه.

هذه الصورة كانت إما أن تكون مرسومة على لوح خشب رقيق، يربط حول رأس المومياء بلفائف، أو أن تكون مرسومة على قطعة من نسيج الكتان، تخاط جوانبها فى نسيج الكفن. وفى بعض الأحيان كان الفنان يرسم وجه المتوفى، مباشرة على نسيج

الكفن المحيط بالجسد المحنط. وقد استعمل الرسامون الألوان الشمعية، المخلوطة بشمع عسل النحل، وقد لجأوا أحيانًا إلى استعمال الألوان المائية، مع إضافة الصمغ العربى أو الراتنج، وهى مواد تذوب فى الماء.

ومن بين الألف لوحة تقريبا من لوحات وجوه الفيوم المعروفة حاليا، هناك بعض اللوحات التى يمكن اعتبارها تحفًا فنية، رغم أن أسماء رسّاميها تظل دائمًا مجهولة. كان من عادة المصريين القدماء، تمثيل الوجوه بالنحت البارز أو الغائر على الجدران، وهى مصوّرة من وضعية جانبية (بروفيل)، أما أغلب وجوه الفيوم فهى فى وضعية المواجهة [ترى الأذنين الاثنين] وبعضها فى وضعية الثلاثة أرباع [ترى فقط أحد الأذنين].

إن أغلب الوجوه تمثل شبابًا، ونحن لا نعرف حتى الآن ما الذى كان يحدث بالضبط؟ هل كان هؤلاء المتوفون قد ماتوا شبابًا، أم أنهم كانوا قد تقدّموا فى السن، واستعان الرسام ببعض الخيال حتى يعودوا شبابًا؟ [كما فعل المصرى القديم]. ثم هل كانوا يختارون أن يجلسوا أمام الرسام لرسمهم، وهم ما زالوا أحياء، أم أن الوجوه كانت ترسم فقط بعد الموت؟ على أى حال إنهم يبدون أحياء بشكل مذهل. هناك نصّ جنائزى عثر عليه فى مصر، يعبّر جيدا عن هذه الرغبة، فى أن تكون وجوه الفيوم متألقة بالحيوية:

(أيها الأجنبى الغريب/ انظر ها هو ذا رجل قد تمتع ببركات عديدة/ إنه الحكيم يوبريبيوس حبيب الملوك/ إن من أقام له هذا الشاهد هو ابنته/ وهى تقول فيه/ لقد دفعت الدين الذى أدين به نحو المتوفى/ دفعت ثمن تربيتى وتعليمى/ ورغم أن الرسام لم يعط لوحته القدرة على الكلام/ فإنه يمكنك أن تقسم على أنك تسمع صوت يوبريبيوس/ فلو أن الرجال اقتربوا يومًا ما من صورة وجهه/ فإنهم سيميلون عليه بآذانهم/ ويسمعونه قائلاً أنا يوبريبيوس).

إن وجوه الفيوم ذات العيون الواسعة، على خلفيات داكنة اللون أو ملوّنة ومذهّبة، تذكرّنا بالأيقونات البيزنطية، فى واقع الأمر إن وجوه الفيوم تسبقها زمنيًا وتعلن عنها، كأنها المرحلة الانتقالية بين الفن الوثنى السابق، والفن المسيحى اللاحق. فى الوقت الحالى نحن نرى هذه الوجوه منفصلة عن مومياواتها، فإذا بها أكثر تأثيرًا فى النفوس، لأن أصحابها لا يمثلون ملوكًا أو أبطالاً، بل يمثلون أشخاصًا مجهولين، فى ملابسهم اليومية المعتادة. إن هؤلاء الرجال والنساء يبدون، كما لو كانوا معاصرين لنا، بسبب شدّة وضوح الناحية الإنسانية فى وجوههم.

١١٧ - جريدة البروجريه (التقدّم) المصرية/Progrès égyptien (Le)

يجب أن تصنّف هذه الجريدة كأثر تاريخى، إذ إنها آخر جريدة فرنسية ما زالت تصدر من القاهرة بعد اختفاء جريدة لوجورنال ديجيبت (جريدة مصر اليومية) سنة ١٩٩٤ . يقال إنه ذات يوم كانت هناك ١٥ جريدة يومية تصدر باللغة الفرنسية فى مصر خلال فترة ما بين الحربين العالميتين، أكثر فترات إزدهار الثقافة الفرنسية فى مصر. كان أحد أعمامى يعمل محررًا فى جريدة البروجريه، فى أوائل خمسينيات القرن العشرين، عندما أرسلته الجريدة فى رحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، تخيّلوا الانبهار التام لهذا الشاب الذى لم يكن قد غادر مصر أبدًا قبل ذلك، وإذا به يسافر فجأة ليستكشف أمريكا.

فيما بعد جمعت تقاريره الصحفية المنشورة بالجريدة، ونشرت فى ملزمة مصوّرة مستقلة وزعت مع الجريدة، وهكذا تمكنت من التهامها قراءة عدة مرات، وأصبحت هذه الملزمة منافسًا لألبومى المفضّل لبطلى تان تان (تم تم). وذات يوم أخذنى عمى من يدى لزيارة المعبد الذى يعمل فيه، بمكاتب جريدة البروجريه فى شارع جلال

بالقاهرة، حيث اكتشفت مكاتب رمادية اللون تغصّ بنماذج كبيرة الحجم من الآلات الكاتبة. أعتقد أن ذلك اليوم هو الذى قررت فيه أن أهب حياتى لمهنة الصحافة.

كانت الإسكندرية خلال السنوات (١٨٦٨/١٨٧٠) قد عرفت جريدة بنفس الاسم لو بروجريه، ولكنها كانت أسبوعية، وكان يمتلكها ويحررها بعض الفرنسيين، وقد تهوّر مراسلها فى القاهرة ذات يوم وهاجم الخديوى إسماعيل بوقاحة منقطعة النظير، فتمّ إيقافها عدة مرات، ثم انتهى الأمر بهذه الجريدة الفظة إلى الاختفاء. أما الجريدة الحالية، لو بروجريه اجيبسيان، فقد صدرت لأول مرة فى القاهرة سنة ١٨٩٣، وأصدرها رجل يونانى أقام فى الإسكندرية ثم جاء إلى القاهرة واسمه أتيوكليس كيرياكوبولو، وهو المدير السابق لجريدة (فنار البوسفور) التى كانت تصدر فى إسطمبول.

الغريب فى الأمر هو أن البروجريه كانت فى البداية تميل إلى الإنجليز، وتنطق بلسان حالهم وبوجهات نظرهم، مما جعل ممثلى فرنسا فى القاهرة يحتقرونها. كانت الشركة الشرقية للإعلان تصدر (الجريدة اليومية عن أخبار البورصة المصرية) بالفرنسية فى فترة بعد الظهر، ثم اشترت البروجريه وغيّرت صورتها. سنة ١٩٤١ دخلتها مجموعة من الصحفيين الديجوليين، فتحوّلت الجريدة خلال العشر سنوات التالية، من خمولها القديم إلى التحفيز الدائم لجمهورها الذى تزايد مع الوقت وأصبح يقرأها من أول إلى آخر صفحة.

إن تأميم الشركة الشرقية للإعلان بعد ثورة ١٩٥٢، أدّى إلى دخول البروجريه، فى مجموعة الجرائد التابعة لدار التحرير للطبع والنشر، وهناك فقدت الجريدة حرية التعبير، وبالتدريج فقدت طبعاً جزء كبيراً من قرائها، ولكنها ما زالت مستمرّة بشجاعة فى الصدور صباح كل يوم، بعدد صفحات قليل وفريق عمل مختزل.

في بعض أيام الأحد الشتوية، كانت عائلاتنا تتجمّع تحت خيامها، على بعد بضعة كيلومترات من أهرامات الجيـزة لقضاء وقت مرح ممتع وتناول وجبة طعـام خفيفة، في قلب الصحراء، ثم بعد الغذاء نذهب مشيًا إلى أحـد التلال القريبة، أو كنا نلعب فوق الحصىّ الساخن. بعد ذلك بقليل وكنت في الحادية عشرة أو في الثانية عشرة، كان لدىّ حظ الصعود إلى قمّة الهرم الأكبر، حين قرر قادة فرقتنـا الكشـفية، في حالة من حالات غياب الوعـى الجمـيلة، أن تسلق الهـرم قد أصـبح ضـرورة حتمية، وهي الممارسة التي أصبحت ممنوعة حاليًا (٢٠٠١) بسبب ما فيها من مجازفة.

تلاقينا إذن ظهر أحد الأيام بدون أي جدل أو مناقشة ووقفنا في طابور (هندى)، حيث تتابعنا متلاصقين أحدنا وراء الآخر، وعند أقدام الهـرم قام مرشـد محلي يرتدي جلبابا بفتح الطريق أمامنا، لإرشادنا عبر أفضل طرق الصعـود، ولم يكـن علينا بعـد ذلك إلا أن نتبعه، دون أن ينظر أحدنا خلفه، حتى المنصة التي حلت محـل القمّة الغائبة والتي شاهدنا منها بانبهار تام، القاهرة كلها والصحراء حتى مرمى البصر.

كان بونابارت سنة ١٧٩٨، قد رفض تسلق الهرم، مكتفيًا بالتشجيع الصوتي، للضباط والعلماء الذين حاولوا التسلق. أول من وصل إلى القمة ذلك اليوم، هو عالم الرياضيات جاسبار مونج، رغم سنوات عمره الاثنتين والخمسين، ثم هبط لاهثًا متصببًا عرقًا بزمزمية الماء على كتفه. فيما بعد سيكتب كل رحّالة القرن التاسع عشر، واصفين هذا التسلق بكل تفاصيله ودقائقه، وكيف أن البدو سكان الهضبة، كانوا يجذبون بأيديهم الماهرة الخفيفة، النسوة الأجنبيات اللائي كنّ يتعثرن في أثوابهنّ الفضفاضة.

كتاب الدليل السياحى بيديكر نسخة ١٩٠٨، يشرح الطريقة بدقة: (تبدأ أيها السائح الرحّال تسلقك الهرم/ يساعدك اثنان من البدو/ يجذبك كلٌ منهما من إحدى يديك/ وإذا رغبت يمكن إضافة بدوى ثالث/ مستعد لدفعك من مؤخرتك إلى أعلى/ بدون أية إضافات/ وإذ يبلغ ارتفاع كل درجة من درجات الهرم متراً تقريبًا/ يحاول المساعدون الأقوياء النشطاء مساعدتك أيها السائح فى الصعود/ بدفعك من أسفل وهم دونك/ أو بجذبك إلى أعلى وهم فوقك/ وبمساندتك فى كل الأحوال/ ولا يتركون لك لحظة راحة واحدة حتى بلوغ القمّة/ وهو ما يمكن تحقيقه فى عشر أو خمس عشرة دقيقة/ ولكن فى حالات الارتفاع الحاد فى درجات الحرارة/ ننصح بمضاعفة المدة الزمنية).

إن أهرام خوفو بكتلته الساحقة يتخطى كل ما يمكن تصوّره فى الأحلام، فالمرء لا يعرف أمام هذا الجبل من الحجر البالغ من العمر ستة وأربعين قرنًا، إن كان ينبغى أن يشعر بالإعجاب، أو أن يندهش أمام هذا العمل المجنون، لذلك الفرعون من الدولة القديمة، الذى استنفر جيشًا من آلاف الرجال، لمدة زمنية طويلة، ليهدى لنفسه قبراً على قدر جنون العظمة الذى كان يعانى منه. يعيد شاتوبريان [أديب فرنسى] الأشياء إلى موضعها فى كتابه (خط سير الرحلة من باريس إلى أورشليم) قائلاً:

(أعرف أن الفلسفة يمكنها أن تئن وتتوجع، أو أن تبتسم، عندما تعرف أن أكبر أثر حجما أخرجته يد البشر هو مقبرة. ولكن لماذا لا نرى فى هرم خوفو إلا كومة من الأحجار بداخلها هيكل عظمى؟ إن الإنسان لم يبن أبداً هذا القبر، بسبب إحساسه بالعدم أو بالفناء، بل بسبب إحساسه الغريزى بالخلود ورغبته فى البقاء خالداً، لأن هذا القبر ليس أبداً العلامة التى تعلن عن نهاية حياة، بل العلامة التى تعلن عن بداية حياة لا نهاية لها، إنه بوابة إلى الخلود، بنيت على تخوم الأبدية).

وخلافًا للظواهر، فإن هرم خوفو لا ينتهى بقمة مدببة، وإنما بمنصّة مسطحة، مساحتها حوالى عشرة أمتار مربّعة، كان الرحّالة الأوائل يتناولون وجباتهم الخفيفة

عليها، بعد أن يتأكدوا من حفر أسمائهم على الأحجار، وقد انشغل أحد علماء المصريات الفرنسيين هو جورج جويون، فى زمن بداية الحرب العالمية الثانية، بتسجيل كل الأسماء والكتابات المحفورة على أحجار منصة القمة، ولهذا الغرض فقد تسلق الهرم مائة مرة وهو بدون شك الرقم القياسى للأوروبيين.

هرم خوفو هو آخر عجيبة من عجائب العالم القديم لا زالت واقفة على قدميها. مساحة الأرض التى يشغلها حوالى ٥ هكتار [الهكتار ١٠٠٠٠ متراً مربعًا]، وخلال حوالى ٤٠٠٠ آلاف عام حتى تاريخ بناء كاتدرائيات القرون الوسطى فى أوروبا، لم يصل أى إنجاز معمارى على وجه الأرض، إلى الارتفاع الذى وصل إليه هرم خوفو، ١٤٧ متراً. وبعمل بعض الحسابات الخاصة، أمكن تخيّل استعمال كتلة أحجار هرم خوفو [٢.٥ مليون حجر]، فى بناء سور بارتفاع مترين وسمك ٣٠ سنتيمتراً، يلف حول كل حدود فرنسا الجغرافية. إلا أن ما يدعو فعلاً إلى الإعجاب، هو معرفة أن قاعدته أفقية تمامًا بدون أى انبعاج، وأن زواياه الأربع قوائم تمامًا بدون أى زيغ، وأن أوجهه الأربعة تتجه ناحية الجهات الأصلية الأربع بدون أى انحراف.

ولم يتوقف البشر أبدا عن التساؤل عن طبيعة هذا العمل الفريد من نوعه، فى الوقت الذى لم يكن أحد يعرف استعمال العجلات أو السقالات، كيف يمكن تخيل طريقة نقل هذه الكتل الحجرية التى يبلغ وزن الواحدة منها بين طنين وثلاثة أطنان؟ كان قد جيء بها من محاجر مختلفة عن طريق المراكب فى النيل، حتى موقع هضبة الجيزة، ثم سحبت وجُرّت بواسطة القوة العضلية لمئات العمال [والثيران]، ولكن كيف تمكنوا من رفعها ووضعها الواحدة فوق الأخرى للوصول إلى القمة؟ لم يزل باب الجدل مفتوحًا منذ الأزمنة القديمة.

إن الإنشاءات المعمارية داخل كتلة الهرم الحجرية، معقدة وغامضة، رغم قلتها وضيقها، فعلى عكس الشكل الخارجى للهرم، بما فيه من بساطة وضخامة، يبدو داخل الهرم متناقضاً ومثيراً، حيث تمتزج العلوم المادية الملموسة بالعلوم التحتية الغامضة،

التى تعالج مسائل القوى الخفية والتنجيم. نحن نعرف الآن على وجه الدقة، أن هذه الأهرامات المقامة على حافة الصحراء، كانت مقابر لملوك وملكات، خلال ما لا يقل عن ألف عام (٢٧٥٠ ق.م/١٦٠٠/ ق.م)، ولم تكن أبداً مخازن الغلال التى بناها النبى يوسف، خلال سنوات الرخاء، كإجراء وقائى ضد سنوات المجاعة، كما كان الرحالة والحجاج المسيحيون يعتقدون حتى القرن السادس عشر الميلادى.

إن الهرم لم يكن إلا جزء من مجمّع جنائزى، يشتمل على معابد وممرات صاعدة وسور يحيط بالمجمّع، كذلك يشتمل على مراكب خشبية حقيقية أو حجرية رمزية، تدفن أمام الهرم فى حفرات داخل الأرض تتخذ شكل المركب، وكانت تلك المراكب تبقى فى حفراتها حتى تأتى اللحظة التى يبدأ فيها الفرعون المتوفى رحلته إلى العالم الآخر، فيخرج المركب من حفرتها ليستعملها فى الرحلة، التى يلحق خلالها بأبيه إله الشمس رع فى السماء، وذلك وفق معتقدات القدماء. إن أكثر الأهرامات تعبيراً عن هذه الحقيقة الأخيرة، حقيقة الصعود إلى السماء، هو هرم سقارة المدرّج، وهو أول الأهرامات وأقدمها جميعًا، هو للفرعون زوسر، وقد بناه له العبقرى إيمحوتب. أليس كافيًا لصعود الملك إلى السماء وجلوسه بين غيره من الآلهة، أن يجد أمامه هذا الهرم، بدرجاته العملاقة الست؟

فيما بعد كانت تضاف إلى الأهرامات طبقات تكسية (كسوة)، مما كان يعطى الأهرامات شكلاً خارجيًا ناعم الملمس، وأكثر تجريداً من فكرة السلم الصاعد إلى السماء، ولكن أدّى فقدان طبقات التكسية، إلى عودة درجات السلم إلى الظهور، وقد قرضت الرياح تلك الأحجار الخارجية وأهلكها الزمن، على عكس كتل أحجار الأجزاء الداخلية من الأهرامات التى ما زالت على نفس تماسكها القديم متداخلة بعضها فى بعض متينة بأسطح لامعة كما لو كنت تنظر فى مرآة.

بعد زيارتين أو عشر زيارات أو حتى عشرين زيارة، تظل دائمًا رؤية الأهرامات صادمة، تثير لدى الزائر دائمًا نفس المشاعر، إذ لا يمكننا أن نملّ من رؤية الأهرامات،

كتب تيوفيل جوتييه [أديب فرنسي] (إنها هنا منذ زمن طويل جداً، باقية في مكانها، رغم أن نجوم السماء نفسها تغير أماكنها، أما الأهرامات فلا، وذلك لأن أقدامها مغروسة في الماضي التليد، ويمكننا أن نرى خلفها، الضوء المنبعث من أيام الإنسان الأولى على هذا الكوكب).

١١٩ - رباعية الإسكندرية / Quatuor d'Alexandrie

كنت بلا شك صغيراً جداً، عندما قرأت لأول مرة (جوستين) و(بالتازار) و(مونتوليف) و(كليا)، فيما بعد وخلال سنوات طويلة، كنت أمنع نفسي من إعادة قراءتها خوفاً من أن يمنعني هذا العمل الأدبي شديد التأثير، ويثبّط همّتي، في أن أكتب أنا أيضاً بدوري عن مصر. إن تلك الروايات الأربع لداريل تتمتع بوضعية استثنائية في الغرب، بحيث أصبح من المستحيل أن تتكلم عن الإسكندرية دون الإشارة إليها. حتى أولئك الذين لم يقرأوا الرباعية، ولن يرهقوا أنفسهم يوماً ما بمغامرة الدخول إلى متاهتها يشعرون بأنهم مضطرون إلى ذكرها.

أما المصريون فإنهم لا يشاركون الغربيين نفس الرأي، في عمل ذلك الروائي البريطاني، بل إنهم غالباً حتى ما ينتقدونه بشدة، إذ يقولون إنه قد خلق في روايته، مدينة لم تكن موجودة في الواقع، مدينة فجور ودعارة وتحلل وانهيار، فالكاتب المصري إدوار الخراط يؤكد أن داريل لم يعرف لا الإسكندرية ولا الإسكندريين، ولكن مع ذلك ووفقا للخراط (فقد تمكن داريل من خلق عمل أدبي متقن شهي مؤلم مؤثر، ولكنه ليس إلا نتاج مخيّلته، فالرواية هي أسطورة غرائبية تخرج عن المألوف، ذات جمال سابق التصنيع معدّ سلفاً، أما من حيث الشخصيات، فكلهم أجانب أو أنصاف مصريين أو من يمكن أن نطلق عليهم اسم أشكال مجازية بسيطة لمصريين).

ذات يوم وصلت إلى داريل رسالة بريدية غاضبة من سائح أمريكى يطلب منه فيها تعويضًا ماديًا، إذ يقول إنه بحث فى الإسكندرية دون جدوى عن الأوصاف التى وضعها داريل فى روايته، ويؤكد أن إسكندرية العمل الروائى هى بالكامل من اختراع المؤلف. ورغم توضيح داريل فى بداية (چوستين)، وهو الجزء الأول من الرباعية، (أن كل الشخصيات مختلقه، والوحيدة الحقيقية هى مدينة الإسكندرية)، فإنه أرسل ردًا إلى السائح الأمريكى قال فيه (إن المدن بشكل عام، وليس فقط الإسكندرية، تصبح عالمًا خاصا بك، بل تصبح كونًا خاصًا بك، فقط عندما تحب أحد سكانها). نحن نعرف أن داريل، الذى أحب امرأتين على الأقل فى الإسكندرية، يحقّ له أن يخلق عالمه الخاص به.

ولد لورانس داريل، مؤلف رباعية الإسكندرية، فى الهند سنة ١٩١٢ لأب إنجليزى وأم أيرلندية، وستظل جبال الهملايا التى عرفها فى طفولته هى الفردوس بالنسبة إليه. فى المقابل فإنه فيما بعد سيحتقر إنجلترا (تلك الجزيرة الصغيرة الدنيئة الشحيحة، التى أفقدتنى ذاتى) وسيهرب منها دائمًا، ليقضى أغلب حياته حول حوض البحر المتوسط. وحيث إنه كان قد هجر الدراسة مبكرًا فى حياته، فقد اضطر إلى العمل فى مهن صغيرة متعدّدة. (موظف فى مكتب عقارى/ عازف بيانو فى بار/ مصوّر فوتوغرافى/ وأحيانًا مجرّد شيّال).

يكتب أولى رواياته فى سن الثالثة والعشرين، ثم يصبح صديقًا لهنرى ميلر، وحين يكتشف اليونان يستقر فى كورفو، ثم فى أثينا، إلا أن اقتراب القوات النازية من المدينة سنة ١٩٤١، يجعله يهرب إلى مصر مصطحبًا زوجته الأولى. يعمل فى خدمة الصحافة البريطانية، فى القاهرة أولاً ثم فى الإسكندرية. لم يطل زواجه الأول، إذ تركته زوجته مصطحبة ابنتهما إلى فلسطين. يلقى داريل باللوم على القدر. لورانس داريل (لارى)، هو رجل قصير القامة، يميل إلى الامتلاء وبعيون زرقاء، يحتفظ له أصدقاء تلك الفترة بصورة رجل مرح ضحوك، مستعد دائمًا أن يفرغ فى جوفه زجاجة من الخمر الجيد.

فى حديث له مع صحيفة النيويورك تايمز سنة ١٩٧٣، قال (فى الإسكندرية وجدت طريقى عبر كفافى الذى ساعدنى على إدراك عظمة المدينة). كفافى شاعر يونانى عاش فى الإسكندرية، وقد تواجد فيما بعد فى طول الرباعية وعرضها، بمواصفات تدلّ على محبة المؤلف له وتعاطفه معه، (شاعر المدينة) (الشاعر السكندرى) (الشاعر البطولى العجوز) (الرجل العجوز).

لم تعد مصر ترضى داريل، كما أنه ظل عاشقًا مجنونًا متيّمًا بحب اليونان، فيغادر مصر سنة ١٩٤٥ للعيش فى جزيرة رودس اليونانية، مصطحبًا معه زوجته الثانية، إيفا كوهين، وهى يهودية من الإسكندرية، ثم ينتقلان إلى الأرجنتين، ثم إلى يوغوسلافيا، ثم إلى قبرص، حيث يتقابل مع فتاة سكندرية أخرى، هى كلود فانسندن التى تصبح زوجته الثالثة وهى حفيدة لبارون ميناسك. معها يبدأ فى استعادة ذكريات سنوات الحرب ويبدأ فى كتابة (چوستين).

تهزّ أحداث ١٩٥٦ الجزيرة، وتضطره إلى الرحيل، ليجد نفسه بالصدفة البحتة فى مدينة سوميار الفرنسية الصغيرة، من إقليم لانجدوك [جنوب فرنسا على ساحل البحر المتوسط]، التى تذكره باليونان، فيقرر أن يعيش فيها أكثر من ثلاثين عامًا حتى وفاته سنة ١٩٩٠ هى سوميار التى تشهد كتابة الجزء الأكبر من الرباعية، بالإضافة إلى أعمال روائية وشعرية أخرى. قال صديقه فريدريك جاك تمبل (كان يكتب الرباعية وهو يحلم باليونان). بعد كتابة (چوستين) سنة ١٩٥٧ و(بالتازار) سنة ١٩٥٨ وهما العملان اللذان يجعلان منه كاتبًا شهيراً، يستأنف كتابة (مونتوليف) سنة ١٩٥٨ و(كليا) سنة ١٩٦٠ .

لا يمكن تلخيص الرباعية، لأنه ينبغى أن نرى فيها طبعا ما هو أكثر من مجرّد علاقات بين رجال ونساء، علاقات وروابط تُنسج ثم تتفكك، إنها سلاسل متتالية من علاقات بين عشاق ذوى تركيبات جنسية معقّدة ومركّبة، لماذا ترتبط چوستين يهودية الإسكندرية واسمها مأخوذ من الماركيز دو صاد بنسيم رجل الأعمال القبطى، رغم

بحثها اليائس عن ابنتها الصغيرة المفقودة؟ ثم أليس هناك تشابه بين ارتباط مونتوليف بليلى من ناحية، وبين العلاقة التى تربط مصر بإنجلترا دولة الاحتلال؟ وكذلك هناك بالتازار الذى يمارس القبالة [علوم سحرية مرتبطة بالتوراة]، ويعلق أهمية كبيرة على مفتاح مفقود، هل هو يمتلك كل مفاتيح المدينة؟

إن المدينة هى التى تلعب دور الشخصية الرئيسية فى العمل، بالإشارات المستمرة إلى الأزمنة القديمة، وهو ما لاحظته الناقدة كورين ألكسندر جاردنر (إن الإسكندرية هى امرأة، مثل كليوباترا فى العصر القديم، وقد وقفت بقامة منتصبة وسط النص، لتعترض على صورتها الممتلئة والمتشبّعة بالأنوثة والتى تظهر بها فى الرواية، مثل داعرة عذراء أو أم عاشقة، بجسد متكامل ولكن بنفسية ممزقة مفتتة، كما هى حال كل نساء الرواية). الفقرة مأخوذة من كتاب للناقدة، بعنوان (رباعية الإسكندرية بين الكتابة والتشظى)/مطبوع فى دار نشر بيتر لانج/ سنة ١٩٨٥ .

لقد بنى داريل رباعيته بطريقة خاصة جداً، إذ إن المسألة لا تتعلق بأربع روايات تتوالى، ولكنها عرض لوجهات النظر المختلفة فيما يتعلق بنفس المسائل، التى تتطوّر خلال النص، لا مع تغيّر الأزمان ولكن مع تغيّر الأماكن. فمنذ الصفحات الأولى لجوستين، يجد المؤلف لذة فى تضليل القارىء للتخلص منه، فتتداخل أزمنة عديدة فى لعبة المرايا تلك حتى إن الراوى نفسه يضل الطريق. إن دارلى (وهو تحوير مقصود من اسم داريل للمزيد من التضليل)، يبحث عن كل شىء فى نفس الوقت، يبحث عن ذكرياته الضائعة، ويحاول أن يفهم ما يدور حوله، ويحاول أن يؤلف كتابات ثم يترك مخطوطه تحت رحمة إحدى شخصياته الروائية، وهو بالتازار الذى لا يتفق مع المؤلف فى تفسيراته.

ولتبسيط الأشياء، نجد أن هناك اختلاطاً لأصوات رواة عديدين، ولنجد أنفسنا فى الواقع أمام أربعة كتاب، دارلى/ أرنوطى/ بيرسفاردن/ وكيتس، وقد أحب الثلاثة الأوائل نفس المرأة. يصف داريل شخوصه قائلاً (إنهم مثل عرائس الماريونيت الخشبية

[هى عرائس نحركها بالخيوط من أعلى كما فى مسرح العرائس]، التى نجعلها تدور لنراها من زوايا مختلفة، إن شخوص الرواية هم بشكل ما شخوص/ مرايا، أو بتعبير أفضل شخوص/ كريستالية من البللور الزجاجى، وهم بدورانهم حول أنفسهم، يظهرون لك أوجههم المتعددة مثل الكريستال، لتنقى أوجه الآخرين من الشوائب، أو لتشوهها أو لتخفيها تماماً عن العيون، كما تفعل المرايا) وهو ما جاء فى حوار داريل مع الصحفى الفرنسى چيرار لوبا، فى مجلة (أنترتيان) [أى مقابلات]، سنة ١٩٧٣ .

إن الجزء الثالث (مونتوليف)، هو الجزء الوحيد من الرباعية، الذى يمتلك خطة بناء روائى تقليدية كلاسيكية، إنه الجزء الذى يسمح بقدر من السهولة، بالدخول إلى عالم هذه الرباعية المعقد المركب، وهو الجزء الذى أفضله شخصياً. إلا أن المؤلف قد يعطى الانطباع بأنه يحتقر المصريين، مثلا هناك أسماء معروفة جداً مثل سليمان باشا أو محرّم بيه، يتم تحوير كتابتها إلى سلينام باشا و محرّن بيه بشكل يجعلها مصدراً للسخرية. ثم إن الطربوش الذى كان غطاء الرأس الوطنى التقليدى فى زمن الرباعية، يوصف طول الوقت بأنه (قصرية زرع). وطبقاً لما جاء على لسان أحد شخوص (مونتوليف)، قال (إن محفّز الروح المصرية هو الكرباج). وفى نفس هذا الجزء من الرواية يقول القبطى نسيم (نحن الجاليات الأجنبية)، كما لو أن أقباط مصر المتفرنجين لا يمكن اعتبارهم مصريين.

عند تقليب الصفحات يمكنك أن تجد فجأة، وصفاً جميلاً لمدينة الإسكندرية، تظهر به المدينة كما لو كانت أكثر حقيقية من الواقع، فلدى داريل القلم الذى يحوّل بحيرة مريوط مثلا، إلى مكان استثنائى رائع. ولكنه وبطول الرواية يربط الجنس والموت برباط قوى، فنحن لا نرى إلا أجساماً مريضة أو مجروحة أو مشوّهة، وأمثلة التشويه عديدة منها أن بالتازار يفقد أسنانه أثناء انتظار قصّ أطراف أكمام قميصه، ونسيم يفقد إصبعاً وعيناً، وكليا تفقد يداً، ونيروز مشوّه منذ مولده بسبب شفته الأرنبية، وليزا

عمياء، وليلى شوهها مرض الزهرى، وسميرة بلا أنف... وإلى كل تلك المآسى، يمكن إضافة الفتيات الصغيرات المفقودات، وبيوت دعارة الأطفال، والأكاذيب والأوهام، وحتى غضب عناصر الطبيعة.

إن أولئك الذين عرفوا الطابع الجميل لإسكندرية ذلك الوقت، والتعايش المرح للجنسيات المختلفة، وحرارة العواطف، وعدم انشغال البال بالهموم، يمكنهم أن يضلوا الطريق فى إسكندرية الرباعية، فإننا إما أن نتمكن من دخول عالم الرباعية، أو لا نتمكن من الدخول، لا حل وسط. إن العالم الروائى لإسكندرية داريل، هو التحالف بين المشاعر الحسية التى تفيض عن الحد، والنسك الذهنى. وكما يصفها هو نفسه (إنها فوضى الحواس والجسد، إنها الحمّى، إنها الحب الذى يباع ويشترى، ثم إنها التصوّف).

فمنذ السطور الأولى لجوستين يعطيك المؤلف النغمة الأساسية للحن الذى ستضبط عليه كل آلات الأوركسترا نغماتها، يعطيك المؤلف هذه النغمة عبر مجموعة من العبارات، مجموعة من الألعاب النارية والصواريخ (خمسة أجناس بشرية/ خمس لغات/ دستة أديان/ خمسة أساطيل بحرية تتقاطع طرقها فى شحوم مياه الميناء/ أكثر من خمسة أعضاء جنسية/ وليست هناك إلا اللغة اليونانية الديموطيقية التى يبدو أنها يمكن أن تميّز بينهم).

انظر مقال: الإسكندرية رقم (٦).

١٢٠ - رمضان / Ramadan

تناقض قديم (إن شهر الصوم هو الشهر الذى يزيد فيه استهلاك الطعام). إنه أفضل المواسم للتجّار، الذين يعدّون له عدّته قبل موعده بأسابيع طويلة. تحاول

السلطات المصرية كل عام، أن تتخذ الإجراءات الكفيلة بالتحكّم فى الأسعار، إلا أن زيادة الاستهلاك تعود إلى الطابع الاحتفالى للشهر، وتعود إلى محاولة الصائمين تناول أكبر كمية ممكنة من الطعام، قبل بزوغ الفجر، وذلك حرصًا منهم على الحصول على الطاقة اللازمة لإنجاز أعمالهم طوال اليوم، وتعود كذلك إلى موائد الرحمة المجانية، التى تنتشر فى كل مكان بمبادرة من الأغنياء، الراغبين فى ممارسة واجباتهم الدينية، أو بحثًا عن الشهرة والشعبية.

كل يوم طوال شهر كامل، منذ شروق الشمس حتى غروبها، ينبغى على المسلمين ألا يأكلوا، وألا يشربوا، وألا يدخنوا السجائر، وألا يمارسوا العملية الجنسية. يمكن إعفاء الأطفال والمرضى والشيوخ والمسافرين والنساء أثناء الدورة الشهرية، ولكن رغم الإعفاء تختار العديد من تلك الفئات استمرار الصيام. فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ بين مصر وإسرائيل رفض جنود الجيش المصرى تناول الغذاء رغم السماح الخاص الصادر من السلطات الدينية لرجال الجيش.

يحدد القرآن الكريم، أنه يمكن للصائمين تناول الطعام والشراب، طالما أنهم لم يميّزوا بعد الخيط الأبيض من الخيط الأسود وقت الفجر، ثم عليهم بعد ذلك استئناف الصيام حتى الغروب التالى. فى الماضى كان الصائمون فى القاهرة، ينتظرون إطلاق مدفع الإفطار من القلعة، لتناول وجبة الإفطار، أما اليوم ورغم استمرار عادة إطلاق المدفع، فإن الناس يعتمدون على إعلان موعد الإفطار فى الإذاعة والتلفزيون. أما فيما يتعلق بوجبة السحور قبيل الفجر، فلم يعد الناس يستطيعون الاعتماد على المسحّراتية، الذين كانوا يتنقلون بين البيوت ويدقون على الأبواب، لإيقاظ كل السكان منادين كلا منهم باسمه.

ولكن هناك تقاليد أخرى ما زالت مستمرة، مثل عادة إهداء الأطفال مصابيح، ذات زجاج متعدّد الألوان، وتحمل اسمًا جميلاً هو (فوانيس). كنا فى الماضى نجد

منها فى الأسواق مصابيح بسيطة، مزودة بمكان لوضع الشمعة، ولكن المصابيح الحديثة المصنوعة فى آسيا، هى غالبا بأضواء إلكترونية تضىء وتنطفىء وحدها، ويمكنك أن تجد فى المصابيح الأغلى ثمنًا، موسيقى فيلم (تايتانيك) مسجلة عليها أو أغنية (الماكارينا). يأتى رمضان أحيانًا فى فصل الصيف، مما يسمح باحتفالات ليلية مرحة، وبامتداد السهرات. ومع ذلك فإن نهار الصيف بدون ماء يكون شاقًا جداً، حتى لو خفضنا للعاملين ساعات العمل اليومية. أما الطلاب الذين يحل موعد امتحاناتهم، خلال شهر رمضان، فلا أعرف كيف يتحايلون على الموقف.

يعتبر تناول الطعام والشراب والتدخين علنًا خلال نهار شهر رمضان نوعًا من الاستفزاز، ثم إن المسيحيين يمتنعون، كنوع من الاحترام لمواطنيهم المسلمين، فكل أشكال الحياة فى مصر تتبدل خلال شهر الصيام. تقيم الفنادق الكبرى خيامًا رمضانية، وتعرض فيها الموسيقى والغناء التقليديين، وتنظم أندية كرة القدم لقاءات ليلية للهواة، فى حين تنشغل القنوات التلفزيونية بإعداد برامجها الخاصة بهذه المناسبة. إن مسلسلات رمضان التلفزيونية، تحطم كل الأرقام القياسية فى عدد المشاهدين، ولهذا يتنافس صغار الفنانين على الظهور فيها.

ومن الملاحظ أنه فى ساعة الإفطار يحلّ هدوء غير عادى على الشوارع المصرية، ولكن هذه الساعة هى أيضًا ساعة القيادة الخطرة للسيارات، عندما يعبر قائدو السيارات التقاطعات المهمة دون انتظار، فى سبيل اللحاق بالإفطار، وبمجرد الانتهاء من الوجبة تعود الحياة والحركة فى الشوارع إلى ما كانت عليه. فتتحول المدن المصرية خلال شهر كامل إلى مدن للتجوّل الليلى، فبعد الإفطار مع أفراد العائلة أو مع الأصدقاء ينقضى الوقت إما مع الألعاب وبرامج المنوّعات التلفزيونية من كل صنف، أو مع الخطب الدينية فى المساجد، ويظل الأكثر تقوى فى انتظار الفجر على سجادة الصلاة.

١٢١ - رمسيس الثانى / Ramsés

يقف تمثال عملاق لرمسيس الثانى فى قلب ميدان محطة السكك الحديد الرئيسية بالقاهرة، تخنقه غازات عوادم السيارات [الكتاب من سنة ٢٠٠١]. ومن بين كل ملوك مصر القديمة، هو الوحيد الذى أطلق اسمه على شارع وميدان رئيسى بالقاهرة. وقد كان هذا الملك قد تخطى بمراحل كل الحواجز التى قد تسمح لأى ملك آخر بأن يقارن به، أى أن رمسيس الثانى ملك خارج نطاق المقارنة. فهو أكثر من مجرد الملك الشمس [لقب لويس ١٦]، إنه الفرعون كما ينبغى أن يكون، وهو أبلغ رموز الحضارة المصرية القديمة.

إن تميّزه يرجع أولاً إلى طول مدة حكمه، خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد، أكثر من ٦٧ سنة، إذ لم يحدث فى طول تاريخ مصر أن حكمها حاكم لمدة أطول من تلك المدة. ولم يكن رمسيس قد انتظر طقوس رسامته ملكًا فى سن الخامسة والعشرين، ليبدأ فى حكم مصر، إذ إن أباه سيتى الأول المتميّز بالذكاء وحسن الإدراك، كان قد أشركه معه فى الحكم، خلال سنواته الأخيرة على العرش. كانت لرمسيس خلال هذا العمر الطويل ست زوجات رسميات، من بينهن ثلاث زوجات من بناته، كما أنه كان أبًا لما لا يقل عن مائة طفل ملكى. ثم إن طابعه الاستثنائى ينعكس كذلك على منجزاته المعمارية العملاقة، مثل المبانى رائعة الجمال فى أبو سمبل والرامسيوم، والإضافات التى أدخلها على معابد أخرى لتوسيعها فى أبيدوس والأقصر والكرنك. وبسبب رغبته فى أن تحمل كل أبنية مصر اسمه هو لا اسم أحد غيره، لم يكن يأنف من إدّعاء بعض أعمال غيره لنفسه.

إن أعظم فراعنة مصر كان أحمر الشعر، وهو لو تعلمون لون ملعون فى مصر القديمة، لأنه لون الإله (ست) الذى كان المصريون يعتبرونه إلهًا للشر، رغم أنه أصبح

الراعى الرسمى لأسرة الرعامسة، ومنه اتخذ أبوه اسم (سيتى) أى المنتسب إلى (ست). هناك افتراض، مجرد افتراض، أن رمسيس أراد أن يصنع كل هذه الإنجازات العظيمة، ليجعل الشعب المصرى ينسى، أنه هو وعائلته، ينتمون إلى ذلك الإله السىء السمعة.

ربما كان رمسيس الثانى هو رائد علوم الاتصالات والتأثير فى الجمهور، كما نسميها فى العصور الحديثة، انظروا ماذا فعل مثالاً على ذلك بعد موقعة قادش الشهيرة ضد الحيثيين، أو بدقة أكثر الطريقة التى وصف بها هذه المعركة بعد عودته منها. ففى العام الخامس من حكمه، سافر رمسيس الثانى إلى شمال سوريا لمحاربة الحيثيين وحلفائهم، وطبقًا للنصوص الرسمية التى تروى ما جرى، وهى نفس النصوص المحفورة حفراً غائراً على جدران العديد من المعابد، يُذكر أن رمسيس فى لحظة ما، وجد نفسه فى موقف حرج فى ميدان القتال، وكان على ضفاف نهر الأورانتوس، لا يحيط به إلا حرسه الخاص، فى حين كان فى مواجهة عشرات الألوف من جنود الأعداء، ويقال إن رمسيس فى هذه اللحظة، استغاث بآمون طالبًا نجدته مذكراً إياه بكل استحقاقاته ومزاياه:

(آمون أبى ماذا يحدث إذن؟/ أهكذا يصح أن ينسى الأب ابنه؟/ ألم أرفع على شرف اسمك عدداً لا حصر له من المبانى؟/ ألم أملأ معابدك بالأسرى؟/ إنه من أجلك أنت بنيت معبد ملايين السنين/ وقد قدّمت لك عطايا حقيقية من كل ما أملك/ وكرّست كل البلاد الأجنبية لخدمة قرابينك/ وقدمت لك عشرات الآلاف من الأبقار/ وكل أنواع النباتات العطرية ذات الروائح الجميلة/ وقدّمت كل شىء جميل قربانًا لك على مذبحك/ وقد رفعت لك صروحًا ضخمة/ ورفعت أنا بنفسى عليها صوارى الأعلام والرايات/ وجلبت لك مسلات من جزيرة إلفانتين/ وقد كنت أنا أيضًا من نقل لك أحجار الجرانيت/ وأرسل السفن من أجلك لتبحر على مياه الأخضر الكبير/ لأجلب لك الجزية من البلاد الهمجية الأجنبية/ سيندهش الناس إذا حلت مصيبة/ بذلك الذى ينحنى

أمام إرادتك/ فلتفعل عكس ذلك/ فلتفعل الخير لمن يبجلك/ وسيخدمك بمحبة من كل قلبه).

تقول النصوص أن آمون قد أنصت إلى ابنه حبيبه، واستجاب لرجاء والتماس رمسيس الثاني، الذى يحكى بعد ذلك إلى رعيّته ما حدث له من معجزات:

(من جديد أصبح قلبى قويًا/ وأضحى صدرى سعيدًا/ ورأيت أن الألفين وخمسمائة عجلة حربية التابعة للأعداء/ التى كنت فى وسطها تمامًا وحدى تمامًا/ قد انهارت تمامًا أمام جيادى/ ولم يعد بإمكان أحد من أعدائى/ أن يرفع يده ضدّى/ وقد جعلتهم يغطسون فى الماء كما تغطس التماسيح/ وبذرت الموت فى جموعهم كما أردت).

فى الواقع تم تجنب الكارثة وإنقاذ الفرعون فى آخر لحظة، من الموقف الصعب الذى وجد نفسه فيه بفضل جزء من جيشه وصل فجأة إلى أرض المعركة. ومن هذه المعركة التى يمكن اعتبارها أقرب إلى الهزيمة، لأن قادش ستظل تحت سيطرة الحيثيين، يصنع رمسيس الثانى نصرًا كبيرًا، يحتفل به احتفالات لا نهاية لها. يكتب على مسلة معبد الأقصر الموجودة حاليًا فى ميدان الكونكورد بباريس (إن رؤساء كل البلاد الأجنبية هم تحت نعليك) الكلام موجّه إلى رمسيس نفسه، الذى لم يعد الشعب يتعامل معه كابن الإله، ولكنه أصبح هو نفسه إلهًا وتجسيدًا للآلهة.

فى العام الواحد والعشرين من حكمه، وبعد حروب عديدة، يقرر الفرعون الشمس أن يوقّع اتفاقية سلام مع الملك الحيثى هاتوسيلى الثالث [تذكره المصادر العربية باسم مواتاليش]. ويعتبر نص توقيع هذه الاتفاقية نصًا تاريخيًا لسببين، أولاً لأنه أول معاهدة سلام توقع فى تاريخ البشرية، ثانيًا لأن رمسيس يتزوّج من الابنة الكبرى لعدوه السابق، فتدخل مصر فى مرحلة سلام وازدهار حتى نهاية حكم رمسيس الثانى. كان من الممكن للتاريخ أن يتوقف هنا، إلا أن قصة رمسيس الثانى تستمر، وذلك لأنه

لم يتمكن من بناء مقبرة غير قابلة للانتهاك، رغم ما فى ذلك من تناقض لكونه أعظم بنّاء فى مصر القديمة.

نجح بعض لصوص المقابر فى اقتحام مقبرته خلال عصور تالية، وأساؤوا إلى موميائه التى ستنقل لاحقًا إلى مقبرة والده سيتى الأول، حيث تتعرض لانتهاك جديد، فتنقل من جديد، هذه المرة إلى خبيئة أسفل الدير البحرى، حيث يكتشف ما تبقى منها، يوم ٦ يوليو ١٨٨١ لتنقل إلى متحف الآثار بالقاهرة. وقد أدّى عرض المومياء فى المتحف إلى المزيد من التدهور فى حالتها، فقد هاجمها فطر غامض، وبدأت فى التآكل بدرجة خطيرة.

وبعد مرور قرن تقريبًا على اكتشافها، كان ينبغى اتخاذ قرار دقيق عاجل، يتعلق بضرورة إرسالها إلى باريس للاعتناء بها. يسافر رمسيس بالطائرة يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٧٦ فى صندوق خاص مصنوع من مادة البلكسى جلاس التى لا تنفذ خلالها الأشعة فوق البنفسجية. يطير الفرعون فوق الأهرامات ثم يصل إلى باريس، حيث يستقبل استقبالاً رسميًا، يخصّ رؤساء الدول، بفرقة من حرس الجمهورية الفرنسية فى مطار بورجيه.

استعملت من أجله كل التقنيات الحديثة، من مناظير ضوئية إلى قياسات ضوئية، إلى أشعّات مقطعية، لدراسة المومياء من كل الجوانب، ثم لعلاجها بالإشعاع، بحيث تصبح فى مأمن من غزو الفطريات بصفة نهائية. وقد اكتُشِف أن هذا الرجل العجوز النحيف صاحب الأنف الشبيهة بأنوف حكام فرنسا من عائلة البوربون، كان فى لحظة موته يعانى من الآلام الروماتزمية ومن عرج خفيف ومن تجمّع صديدى تحت الأسنان. عادت المومياء إلى متحف القاهرة بعد سبعة أشهر، وقد تمّ شفاؤها.

انظر مقالات: أبوسمبل رقم (٢)/ مومياوات رقم (٩٢)/ فرعون رقم (١١١).

مصر ليست بلداً فقيراً، فهي رسميًا تنتمي إلى مجموعة البلاد ذات الدخل المتوسط، وهو حوالي ١٤٠٠ دولار للفرد في العام، ولكن ما قيمة الدخل المتوسّط إذا كان الظلم الاجتماعي صارخًا، وعدم المساواة واضحة؟ وإذا كانت الفجوة تزداد اتساعًا خلال السنوات الأخيرة؟ صحيح أن لا أحد يموت جوعًا في مصر بفضل الدعم الحكومي للسلع الأساسية، الخبز مثلاً، وعلى الأخص كذلك بفضل التماسك الأسرى والتعاضد الاجتماعي، وهو ما يسمح بتجنب المآسي التي يمكن أن نراها في بلاد أخرى.

إن الحياة على الهامش في مصر ليس لها معنى، فحتى الشحّاذ لا يترك وحده، بل ينضم إلى المجتمع. حسب الإحصائيات فإن ٨٪ من المصريين يصنَّفون على أنهم فقراء جداً، حتى إنهم لا يستطيعون الحصول على حاجاتهم الغذائية. هذه هي الفئة التي تعتمد على فاعلي الخير، إنهم يتحايلون على الحياة ويتصرفون بأي شكل، حتى إنه يمكنهم مثلا جمع الخضروات والفواكه التالفة من الأسواق.

كان النظام الناصري قد قام بتجميد الإيجارات، وبتحديد الملكيات الزراعية، وبمصادرة أملاك الأكثر ثراء، وبخلق فرص عمل عديدة في القطاع العام. إن الفشل الاقتصادي لهذا النظام لم يمنعه من النجاح في تحسين أوضاع الفلاح، وكذلك أوضاع العامل المهني المتواضع. إلا أن أنور السادات قام بتحويل الدفة ١٨٠ درجة، خلال الأعوام ١٩٧١/١٩٨٠ بما أسماه سياسة الانفتاح الاقتصادي، المستوحاة من الأنظمة الاقتصادية الحرة، فألغت الدولة الدعم، وبعض أنظمة الضمان الاجتماعي ثم أعطت الضوء الأخضر للمبادرات الفردية.

فحدث أن ارتفعت أرقام التضخّم، لتؤدّي إلى إثراء البعض وإفقار البعض الآخر، وإلى اختلال نظام التوازن الاجتماعي، ورأينا في ذلك الوقت ظهور طبقة الأثرياء

الجدد، وأُطلق عليهم لفظ (الانفتاحيين) الساخر. إلا أن التحول إلى السوق الحرّ أصبح أكثر وضوحًا منذ ١٩٩١، عندما وافق حسني مبارك على توصيات صندوق النقد الدولي، إذ إن المسألة هذه المرة تتعلق بإعادة هيكلة حقيقية.

تتحوّل مصر من سيطرة الدولة المركزية، إلى اقتصاديات السوق الحر، وذلك بخصخصة العديد من المؤسسات العامة، وإعادة نظام سوق الأوراق المالية. بالتالي تم اعتبار مصر تلميذًا جيدًا لصندوق النقد الدولي، وقد نجحت مصر فعلاً خلال سنوات معدودة في تقليل حجم التضخّم السنوي، وحجم العجز في الميزانية العامة، مع تسجيل معدّلات نمو اقتصادي، تتفوّق بوضوح على معدّلات النمو السكاني.

إلا أن الخصخصة لم تمنع الدولة من الاحتفاظ بالإشراف على بعض المؤسسات، ولكن هذا أدّى إلى إثراء حفنة من رجال الأعمال، الذين تمكنوا بمهارة من البقاء على الحافة بين النظامين، الاقتصاد الحرّ والاقتصاد الموجّه. ثم إن خصخصة الشركات تؤدّي بوجه عام إلى تقليل كبير في أعداد العاملين بها من موظفين وعمّال.

إن شركة مثل (إيديال) المعروفة في طول البلاد وعرضها، بإنتاج الأجهزة الكهربائية المنزلية، انخفض عدد موظفيها وعمالها إلى الثلث، منذ أن ذهبت إلى أيدي مستثمرين ومساهمين من القطاع الخاص. وبالتوازي مع هذا النظام الجديد، تمّ اختزال أعداد العاملين في قطاع الدولة العام، مما نتج عنه زيادة كبيرة في أعداد العاطلين عن العمل، إذ لا يعرف أحد العدد بدقة، فهي حسابات شبه مستحيلة، لو وضعنا في الاعتبار عدد الأنشطة غير المعلن عنها، وعدد الوظائف المختلفة التي يشغلها شخص واحد.

ثم وجه آخر للمشكلة. فإلى جوار المستشفيات الفاخرة، المزوّدة بأحدث الوسائل التكنولوجية توجد مستشفيات الحكومة، التي غالبًا لا يمكن وصفها، فالمرضى يتولد لديهم الانطباع بأنهم حيوانات تجارب، في حين أن بعض الممرضات، هنّ لسن إلا

تلميذات صغيرات في مدارس التمريض، قد لا يصل عمر الواحدة منهنّ إلى أربعة عشر عامًا. إن المجانية في مغارات اللصوص تلك [أطلق المؤلف على المستشفيات، الاسم الموجود في رواية أحدب نوتردام لفيكتور هيجو، الذى كان يطلق على ميدان في باريس يتجمّع فيه القتلة واللصوص] هي مجانية نسبية، لأن على المريض أحيانًا أن يدفع ثمن أدويته، وثمن الفحوصات المعملية التي تطلب منه. يفضّل أشخاص كثيرون عدم الاستعانة على الإطلاق مهما كانت الظروف بهذا النوع من المستشفيات.

ثم إن مرض البلهارسيا(*) يستمر في الفتك بالريف المصري، رغم أن حملة الحكومة التي أعلنت الحرب على هذا المرض، كانت بغرض استئصاله تمامًا قبل حلول العام ٢٠٠٠، ولكن الكثير من القرى التي ما زالت محرومة من شبكات المياه النقية والصرف الصحّي ما زال سكانها مضطرين إلى اللجوء إلى مياه الترع الملوّثة. ويقدر عدد المصريين المصابين بهذا المرض في الوقت الحالي حوالي مليونًا ونصف المليون [وهو تقدّم كبير بالمقارنة بالأرقام السابقة]، وتظهر أعراض هذا المرض، على أجهزة الجسم المختلفة، الكبد والطحال والأمعاء والمثانة البولية.

فإذا كان الفقر يظهر بوضوح في الريف، فإنه يظهر كذلك في بعض الأحياء العشوائية الواقعة على أطراف بعض المدن الكبيرة، حيث يعيش السكان وسط أكوام من القمامة لا يتم جمعها، ومياه المجاري الطافحة في الشوارع، وهم معرضون طول الوقت لانقطاع المياه والتيار الكهربائي. ورغم أن التعليم الإلزامي مجاني، ففي كل سنة يتسرّب منه مليونان من الأطفال من إجمالي ١٧ مليون تلميذ في هذه المرحلة، غالبًا بسبب أن أولى أمرهم لا يستطيعون تدبير المال اللازم للزي المدرسي أو لبعض المصروفات الإجبارية الأخرى، فيمتنع الأطفال عن الذهاب إلى المدرسة.

أما الأغنياء فإنهم يستعرضون ثرواتهم بزهو وخيلاء وتفاخر، ويمكن بسهولة عمل الحسابات اللازمة لإدراك، أن بعض سيارات المرسيدس من الفئات المميّزة التي تسير في شوارع القاهرة، يبلغ ثمنها ما يساوي مرتب موظف مصري متوسّط الدخل لمدة

مائة عام. ثم احتفالات زفاف أبناء الأغنياء هى الأخرى تعتبر مناسبات صرف باذخ لا مثيل له. أما منازل الأغنياء الفاخرة فهى كالقلاع التى يقف أمامها حرّاس مسلحون، كما لو كنا فى أمريكا. ومع الوقت تزداد الفجوة بين الأغنياء والفقراء ليس فقط على المستوى الاقتصادى، بل كذلك فيما يتعلق بنظام الأسرة وطريقة ارتداء الملابس، وتناول الطعام.

وبين الأغنياء والفقراء يتسع وجود الطبقة الوسطى التى لم تكن سنة ١٩٥٢ تمثل إلا ٢٠ ٪ من السكان، ويقدّر الخبراء حاليًا أنها تمثل على الأقل نصف الشعب المصرى. ووفقًا لما يقوله خبراء علم الاجتماع، فإن الطبقة الوسطى الدنيا هى التى تظهر فيها فى العصر الاستهلاكى الحالى، أكثر حالات اليأس والإحباط، فحتى مع تحسن القدرات الشرائية لهذه الطبقة، يظل أفرادها يشعرون بالظلم، أمام فتارين العرض فى المحلات الفاخرة، وأمام إعلانات التلفزيون المستمرة طول اليوم.

انظر مقالات: البيئة رقم (٤٥)/ التعليم رقم (٦٦)/ الزواج رقم (٨٤)/ الخبز رقم (١٠٦).

١٢٣ - داڤيد روبرتس / Roberts (David)

لا يمكن أن تهرب من داڤيد روبرتس، فأنت تجده فى كل مكان تذهب إليه، على أغلفة الكتب والكارت بوستال واللوحات، فهم منذ ١٥٠ عامًا لم يتوقفوا أبدا عن طبع أعماله، ثم إعادة طبع أعماله، وهكذا دواليك.. طالما أنها تعجب الناس ويشترونها. هذه الأعمال كانت فى الأصل لوحات ليتوجرافية [تنفذ بالطباعة على الحجر]، وكان روبرتس حتى فى زمنه، يعتبر واحداً من أفضل رسّامى المنشآت المعمارية فى العالم. إلا أن لوحاته ورسوماته الأكواريل [بالألوان المائية] عن مصر فى منتصف القرن التاسع عشر، يزداد تأثيرها علينا لأنها تصور مصر التى لم تعد موجودة، مصر التى

كان يرتدى أهلها العمامة ولم تكن قد اكتشفت بعد، لأن علم الآثار كان فى بداياته يتلعثم.

دافيد (١٧٩٦/١٨٦٤) ولد فى قرية بالقرب من أدنبرة [بأسكتلندا]، وهو ابن لصانع أحذية، بدأ اهتمامه بالفن منذ سن صغيرة جداً، حين صمم ديكورات مسرحية، ولكن مارست الآفاق البعيدة عليه سحراً لا يقاوم، فذهب أولاً لرسم كاتدرائية روان فى نورماندى [شمال فرنسا]، ثم كنيسة سان جرمان دوبريه فى باريس، إنها مرحلته القوطية gothic [قبل عصر النهضة]، وستليها بعد ذلك رحلة إلى إسبانيا، ثم تأتى الأراضى المقدسة فى فلسطين ثم مصر.

يهبط الأسكتلندى روبرتس ميناء الإسكندرية فى ٢٤ سبتمبر ١٨٣٨، ويستأجر فلوكة وعدداً من البحارة، يقودونه على مراحل إلى أن يصل إلى أبى سمبل، وتستغرق الرحلة أحد عشر شهراً، يرسم خلالها ٢٧٢ لوحة، بالإضافة إلى ثلاث كراسات من الرسومات السريعة (الكروكى). فى نفس ذلك العام يتوصّل جاك داجر إلى اختراع أول آلة فوتوغرافية، ويصل فى نفس العام إلى مصر، مسلحًا بجيش من مساعديه الفنيين، ويصحبته بعض الرسامين ومنهم هوراس فرنيه، ويحاولون رسم وتصوير كل ما هو موجود فى مصر، خاصة الآثار الفرعونية.

إلا أن ميزة لوحات دافيد روبرتس، ليست فقط دقتها وشاعريتها، وإنما أيضًا أنها ترينا الآثار المصرية بشكل لم يعد ممكنًا أن نراها به، فمثلاً فى قاعة الأعمدة الكبرى بمعبد الكرنك، نرى الأعمدة وهى لا تزال محطمة إلى أجزاء ومبعثرة على الأرض، وفى معبد الأقصر نرى فوق سطحه عدداً لا حصر له من أبراج الحمام، ومعبد دندرة كان إلى ثلاثة أرباع ارتفاعه مدفونًا تحت مستوى الرمال، وفى معبد فيلا نرى الروعة التى كانت عليها ألوانه. يقع الأسكتلندى فى غرام معبد إدفو، فيكتب فى كراسة يومياته (إنه أجمل معابد مصر، وعندما تتم إزاحة الرمال عنه سيكون أكثر معابد مصر اكتمالا). بعد ٣٠ عاماً ستتحقق نبوءته إلى أقصى حد.

إن رسم روبرتس الجميل، بشخوصه الصغيرة الجالسة بسلام وهدوء فوق الرمال داخل المعبد، وعلى بعد أمتار قليلة من سقف المعبد [بلغ ارتفاع تراكم الرمال داخل المعبد عشرة أمتار]، تزداد قيمته لأنه أصبح من الماضي. إن مصر الإسلامية هي كذلك توحي إليه بالكثير من رسوماته بقدر ما فعلت معه مصر الفرعونية. إن رسوماته للمساجد من الداخل، خاصة لمسجد السلطان حسن بالقاهرة، حيث تمكن من الدخول بعد الحصول على تصريح خاص، هي وثائق تاريخية ذات قيمة كبيرة. أراهن على أن رسومات روبرتس ستظل تطبع ويعاد طبعها بعد ١٥٠ سنة من الآن.

١٢٤ - أنور السادات / Sadate (Anouar el-)

لم يكن أحدٌ أبداً يراهن عليه، ولا حتى بقرش صاغ واحد، هذا المغامر السابق الذي أصبح أحد سادة العصر الناصري، فقد ظهر أنور السادات في البدايات كأنه أحد عناصر الديكور، فنحن ننسى أنه كان وزيراً وسكرتيراً عامًا للحزب الوحيد، ورئيسًا لمجلس الأمة، نحن ننسى حتى أنه كان نائبًا لرئيس الجمهورية. إن موت عبد الناصر في سبتمبر ١٩٧٠ دفع بالسادات إلى المكان الأول، وهنا بدأت المفاجآت.

ولد أنور السادات في إحدى قرى الدلتا سنة ١٩١٨ لأب كان موظفًا في المستشفيات الحكومية ولأم سودانية هي التي أعطته بشرته الداكنة. التحق بالدراسة في الكلية الحربية، ولكنه يُستبعد بسبب أنشطته السرية. إذ يتحالف مع الأخوان المسلمين، ثم يتودّد إلى الألمان، في أثناء الحرب العالمية الثانية، بل إنه حتى يشارك في أحد الاغتيالات السياسية ويقبض عليه مرتان ثم يهرب من السجن ليختفي مدة طويلة، قبل أن يتمكن من العودة إلى الجيش، بفضل مساندة طبيب الملك. يدخل السادات في

تنظيم الضباط الأحرار، فى الوقت الذى كانوا يعدّون فيه خطة للتخلص من الملكية. إنه هو الذى يعلن فى الإذاعة المصرية، للشعب المصرى المذهول، انتهاء العهد الملكى وقلب نظام حكم فاروق يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

بعد ثمانية عشر عامًا يتولى السادات حكم مصر خلفًا لعبد الناصر العملاق الذى أجلّه العرب، ولكن حطمته الهزيمة فى حرب الأيام الستة. إن الرئيس الجديد يعمل كل ما فى وسعه لمحو إنجازات عبد الناصر فى مصر، بطريقة الخطوة خطوة، وفى مجالين أساسين هما السياسة الخارجية والاقتصاد، فى كلمة واحدة إنه الانفتاح. كان السادات مفتونًا بأمريكا ومقتنعًا بأن ما من حاكم لدولة من دول العالم الثالث، يستطيع البقاء فى منصبه دون مساندة العم سام. سنة ١٩٧٢ يتخلص من ٢٠ ألفًا من الخبراء السوفييت يعيدهم إلى أوطانهم ولكن دون قطع العلاقات مع موسكو، فهو فى حاجة إلى سلاح لحربه مع إسرائيل.

تلك الحرب تنطلق فجأة فى أكتوبر ١٩٧٣ بالتحالف مع سوريا، ولا تنتهى بانتصار تام ولكنها تسمح باسترداد قناة السويس وبالحفاظ على شرف الوطن، وبالبدء فى مفاوضات السلام مع إسرائيل. إن رحلة أنور السادات إلى القدس بين ١٩ و٢١ نوفمبر ١٩٧٧ أدخلته إلى كتب التاريخ، وستحتفظ تلفزيونات العالم كله بخطبته فى الكنيست. سيتم توقيع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل سنة ١٩٧٨، فى كامب دافيد تحت إشراف الولايات المتحدة. فى العام التالى ١٩٧٩ يقتسم أنور السادات ومناحم بيجين جائزة نوبل للسلام، التى تكلفه مقاطعة العالم العربى له. وبعد أن أصبح محبوبًا فى الغرب كانت تبدو عليه أحيانًا ملامح السخرية من العرب.

يستمر السادات فى سياسته الخاصة بالانفتاح الاقتصادى، ويعيد الأملاك المصادرة [منذ الخمسينات والستينيات] إلى أصحابها، الذين يسعدون بذلك جدًا. تظهر

طبقة من الأثرياء الجدد، تستفيد تماماً من إجراءات تحرير الاقتصاد، وفي انتظار سياسة الخصخصة التي ستأتي لاحقا. ولكن للأسف فإن الانفتاح على المستوى السياسي، لم يكن حقيقيًا، فلم يكن تعدّد الأحزاب حقيقيًا ولم تكن حرية الصحافة حقيقية فبعد أن تخلص السادات من معارضيه تحول إلى الاستبداد برأيه. ويصل به الأمر حتى إلى إيقاف نشاط بابا الأقباط، لاعتباره عاصياً عنيداً.

تنشر الصحافة الغربية الكثير من التقارير عن هذا الرئيس الذى كانوا يعتبرونه جذابًا ودوداً، والذى يحب الأحاديث اللطيفة، ويمارس حياته بقدر من الحرية فى الخفاء، فهم يصوّرونه مثلاً فى حمام السباحة الخاص به، ثم يصوّرونه ببنطال قصير (شورت) وقبعة من القش على قارب بمحرك، ويصوّرونه فى قرينه مرتدياً جلباباً بلدياً، متّخذاً سمت الفلاح الماكر الأريب، مدخنًا الشيشة أو الغليون الإنجليزى (البايب). إلا أن أحب أزيائه إلى قلبه، هو زىّ المارشالية العسكرى بلونيه الأزرق والرمادى، وبأكتافه العريضة وحزام وسطه الضيق. وهو لا يتردّد إطلاقًا فى وضع زوجته الجميلة الذكيّة جيهان فى مقدّمة الصورة، فتستثمر نشاطها فى زيارات عديدة لمؤسسات خيرية، وفى رحلات خارجية، وفى خطب ولقاءات مع وسائل الإعلام.

أما مع الإسلاميين فقد لعب السادات دور الساحر المبتدىء الذى يخرج العفريت من العلبة. فيما بعد يصبح الإسلاميون من ألد أعدائه. يقولون إن الظلم الاجتماعى، وعدم المساواة بين المواطنين وفساد الإدارة هى الأسباب التى أدّت بهم إلى اغتياله، يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١، فى أثناء العرض العسكرى. كانت صدمة للعالم أجمع، إلا أنهم فى مصر يسرعون بدفنه كأنهم يتخلصون منه، كما لو أن الأحد عشر عامًا فى السلطة، والخطوات الجريئة التى غيّر بها البلد، لم تكن كافية لكى يحصل على محبة شعبه. إلا أنه كفرعون حقيقى، كان من حقه على الأقل، الحصول على قبر تذكارى هرمى الشكل فخم جداً فى انتظار أن ينصفه التاريخ يومًا ما.

١٢٥ - أتباع سان سيمون / Saints simoniens

إن مغامرة السان سيمونيين فى مصر لا تشبه مغامرة أى أشخاص آخرين، لا من قبلهم ولا من بعدهم، إذ إنها فريدة من نوعها. كانوا فى نفس الوقت متحمّسين منفعلين ومضحكين هزليين، كانوا أعجب أشخاص زاروا مصر وأبعدهم عن الواقع، طوال القرن التاسع عشر. إنهم يصلون إلى الإسكندرية فى مجموعات صغيرة، من أبريل إلى أكتوبر سنة ١٨٣٣ وهم يرتدون أزياء غريبة، وتحيط بهم مظاهر عجيبة، بشعورهم الطويلة، وصدريّات ملابسهم المزقة المصبوغة بالألوان، وبنطالاتهم الملتصقة بأجسامهم. قالوا إنهم جاؤوا لعقد قران الشرق والغرب، وأن زعيمهم بروسبير أنفانتان الذى يلقبونه بالأب، عرف عن طريق رؤيا علوية، أنه فى مصر سيقابل امرأة متحررة ستلقب بالأم، وأنهما معًا سيديران (الجمعية الدولية للشعوب).

إن هذا الشخص لم يكن محنونًا بالقدر الذى كان يبدو به فى عيون الآخرين، وكان قد تخرّج من كلية الهندسة، ثم تتلمذ على يد الكونت سان سيمون، الذى كان يدعو إلى الأفكار الاشتراكية عن طريق تنمية المجتمعات صناعيًا. من بين أحلام ومشروعات السان سيمونيين، شق برزخ السويس، بقناة تصل بين البحرين الأحمر والمتوسط، وقد عبّر أنفانتان عن هذا المشروع، بكلمات فصيحة ولكن مبالغ فيها إلى حد ما، بالإضافة إلى غموضها الشديد:

(إن علينا أن نصنع بين مصر القديمة وأرض يهوذا، أحد الطريقين الجديدين من أوروبا إلى الهند والصين، وفيما بعد يمكننا حفر الطريق الآخر عند بنما، هنا سيجعلنا الطريق الجديد نمرّ وأحد قدمينا فى النيل بينما القدم الأخرى فى أورشليم، وذراعنا الأيمن فى مكة بينما ذراعنا الآخر فى روما مستندًا على باريس، إن السويس ستكون مركز حياتنا العملية، فيها سنقوم بالعمل الذى ينتظره العالم منا، ليعترف بأننا ذكور جدعان) .

لم يكن محمد على مستعداً بعد، للقيام بمثل هذا المشروع الضخم فى برزخ السويس، إذ إنه يريد بدلاً من ذلك أن ينشغل ببناء قناطر على النيل، ويدعو السان سيمونيين إلى الانضمام إلى مشروع القناطر الذى كان يشرف عليه فى ذلك الوقت مواطنهم الفرنسى لويس لينان دو بلفور. يخيب أمل أنفانتان ولكنه لا يفقد حماسه، ويقررون تأجيل مشروعهم الأصلى، وتلبية دعوة الباشا، ولكنهم يقترحون عليه مراعاة وتنظيم الجانب الإنسانى للعمّال فى مشروع القناطر. يقترحون كذلك إقامة مدرسة لعلوم الهندسة المدنية، ومجلس استشارى أعلى للتعليم العام.

من بين السان سيمونيين، كان هناك المهندسون والأطباء والفنانون، وأيضاً العديد من النساء اللائى كان لمظهرهن المتحرر أن يقلق أفراد الجالية الفرنسية الصغيرة بالقاهرة، وجود هؤلاء النسوة المتحررات يدعونا إلى التساؤل، إن لم يكن البحث عن المتع الحسّية لدى السان سيمونيين أكثر أهمية من البحث عن التنمية الصناعية؟ ولكنهم فى واقع الأمر كانوا قد اندمجوا تدريجيًا فى مجتمع البلد الذى أحبوه، وقد تأثرت طريقة ارتدائهم للثياب بالملابس العثمانية. ولاهتمامهم بالعدالة الاجتماعية، فقد كانوا من بين أوائل الأوروبيين المهتمين بمصير الشعب المصرى.

كتب فيليب رينيه أحد أكثر العارفين بأحوال (ملحمة/ مغامرة) السان سيمونيين، الملاحظات التالية (إن مغامرة السان سيمونيين فى مصر، تعيد إلى الأذهان فكرة المدينة الفاضلة، اليوتوبيا(*)، وذلك لأن هؤلاء المهندسين الذين كانوا قد فشلوا، فى إقناع محمد على بحفر قناة من برزخ السويس، كانوا ينجحون عادة فى إعداد مشاريعهم من النواحى التقنية، ويؤمنون تمامًا بإمكانية تنفيذها، ورغم أن أغلب مشاريعهم لم تنفذ إلا أنه كانت لديهم القدرة على التوقّع والتنبؤ، لأنهم كانت لديهم القدرة على التخيّل والابتكار التى طالما قلّل أوجست كونت من شأنها، وكان سان سيمون يدافع عنها، مسمياً إياها بالقدرة العاطفية. كان للسان سيمونيين ومحمد على

أشياء مشتركة، فبعيداً عن الاختلاف الدينى، كانت لديهم ثقة بلا حدود فى قدرات البشر على التحكم فى الطبيعة وامتلاكها، واقتناع تام بضرورة أن تقوم المجتمعات كلها بهذا من أجل زيادة الإنتاج). من كتاب (السان سيمونيين فى مصر) المطبوع فى باريس سنة ١٩٨٩ .

يفتك وباء طاعون مروّع بسكان مصر سنة ١٨٣٥، فيهرب أنفانتان من القاهرة مثلما فعل محمد على إلى جنوب البلاد باحثًا عن ملجأ يختبىء فيه، حيث يعيش لمدّة بضعة أشهر حياة لاهية عابثة، لا يبحث فيها إلا عن الملذات الحسية. فى المقابل فقد تقدّم عدد من الأطباء السان سيمونيين بشجاعة، نحو المصابين بالطاعون، ليكونوا فى خدمتهم، وسيفقد العديد منهم حياته بفعلته تلك. سوزان فوالكان هى سان سيمونية شابة تكتب فى (مذكرات فتاة من الشعب)، كلاماً يجعلنا نشفق عليها، وهى قبل المجىء إلى مصر كانت عاملة فى مصنع نسيج، ثم ظلت أثناء الوباء فى القاهرة، ووصفت تلك اللحظات المؤلمة التى عاشتها إلى جوار أحد الأطباء وهو الدكتور ديساب، وإلى جوار ابنته هانم تقول :

(إن الأيام التى لم نكن نستقبل فيها مرضى بالمنزل، كان الطبيب الحنون يأخذنى معه إلى المنازل، لزيارة النساء القبطيات والأرمينيات، وحتى بعض حريم الأتراك فى منازلهن، إذ كان سنه المتقدّم ولحيته الطويلة التى تصل إلى مستوى حزام وسطه، هو ما يسمح له بالمرور، آه كم فعلنا نحن الثلاثة من أجل هذا البلد، ثم آه كيف أننى لم أستطع إنقاذ هذا الرجل الجليل وابنته). مات الطبيب وابنته فى الوباء، ولم يكن أمام سوزان إلا أن تتنكر فى زى رجل، لتلحق بطبيب فرنسى آخر فى مستشفى الأزبكية، هو كلوت بيك.

يتوقف العمل فى مشروع القناطر الخيرية، فيتخذ أنفانتان قراره بالعودة إلى فرنسا، حيث يصل يوم ٣١ أكتوبر ١٨٣٦ بعد أكثر من ثلاث سنوات فى مصر. فى

فرنسا يؤسس جمعية علمية، لدراسة مشروع حفر قناة السويس، ولكنهم يقترحون مشروعًا معقدًا وصعب التنفيذ. فيما بعد سيدّعى أنفانتان أن مشروع ديليسبس مسروق منه. أما المهندس شارل لامبار فقد بقى فى مصر، وهو أكثر كفاءة من أنفانتان، وقد نجح فى إنشاء مدرسة الهندسة وكذلك المرصد الفلكى بالقاهرة فحصل على لقب بيك ثم على لقب باشا على التوالى.

هناك سان سيمونيون آخرون سيلعبون أدوارًا مهمة، فى الإنشاءات العسكرية والمدنية، مثل الطرق والكبارى والسكك الحديدية. وآخرون سيساهمون فى الطب والزراعة، من بين هؤلاء هناك إسماعيل أوربان وهو من أصول مختلطة فرنسية غينية [كاريبى]، سيتحوّل إلى الإسلام وسيلعب دورًا مميّزًا فيما بعد باعتباره مستشارًا للحكومة الفرنسية فى الجزائر.

والموسيقى الشاب عازف البيانو، فيليسيان دافيد، الذى أحضر معه إلى مصر آلة بيانو معدنية من النوع الذى يمكن اصطحابه فى الرحلات، وقدّم حفلات موسيقية فى مصر، واهتم كذلك باكتشاف الطبيعة الصوتية للموسيقى المحلية. عندما عاد إلى فرنسا، ألف سنة ١٨٤٤ قصيدا سيمفونيا بعنوان (الصحراء)، يوحى بطريق تسير فيه قافلة، كاشفًا طريقة إنشاد المؤذنين، للمرة الأولى أمام الأوروبيين، وقد نجح هذا العمل السيمفونى نجاحًا كبيرًا، إذ اكتشف الجمهور غرائبية شرقية جديدة، مما ولد بعد ذلك اهتمامًا بالموسيقى الشرقية لدى الموسيقيين الأوروبيين.

حتى داخل مصر، كان لبعض السان سيمونيين نفوذًا أكيدًا على بعض كبار موظفى العصر من المصريين، لكن يصعب تحديده أو قياسه. هل يبالغ السان سيمونيون، عندما يصوّرون رحلتهم إلى مصر على أنها الحملة الثقافية الفرنسية بعد أن قاد بونابارت الحملة العسكرية؟

الماء فى مصر لا يسقط من السماء، وإنما يجب أن نذهب لإحضاره من النيل، بواسطة نظام معقد من الترع والقنوات المائية، وقد نضطر إلى رفع الماء من مستوى منخفض إلى مستوى مرتفع، وهكذا اخترع الفلاح المصرى القديم آلات الرفع تلك منذ آلاف السنين. فإذا لم يكن الماء عميقًا يمكن استعمال الطنبور، وهى نفس الآلة التى أطلق عليها اليونانيون القدماء اسم (أسطوانة أرشميدس اللولبية).

إنها أسطوانة خشبية داخلها محور حديدى لولبى بطول محور الأسطوانة، وتدار بالمانيفللا [مقبض يدور بحركة يدوية دائرية]، ومع كل دورة يغطس حلزون المحور فى القناة المائية ليستقبل الماء، ثم ليدفعه عبر خندق صغير يمتد بطول الأسطوانة، ليصل به إلى الجزء المرتفع من الأسطوانة، ثم ليخرج منها إلى الأرض عند المستوى المرتفع.

أما إذا كان الفرق فى المستوى بين الماء والأرض أكثر من متر، يمكننا استعمال الشادوف، وهى آلة بسيطة كانت موجودة هى كذلك على زمن الفراعنة، تتكون من عصا طويلة متينة تقف عموديًا، مثبتة عليها عصا أخرى بشكل أفقى، ليكون الناتج أقرب شبهًا بالميزان، نضع فى أحد طرفى العصا الأفقية ثقلاً، ونضع فى الطرف الآخر حبلاً ودلوًا، يجذب الحبل لغمر الدلو فى الماء، ثم يرفع الدلو بما فيه من ماء بواسطة الثقل، ويمكن استعمال ثلاثة شواديف يعلو أحدها الآخر، لرفع الماء عبر ثلاثة مستويات، بإجمالى فرق ارتفاع ثلاثة أمتار.

أما الساقية وهى من الفعل يسقى، فهى المعروفة فى بلاد أخرى بالنورية، ولا يمكن الاستغناء عنها إذا كان الفرق فى المستوى هو ثلاثة أمتار أو أكثر، وقد عرفها الإنسان منذ العصر الرومانى، ويمكن إدارتها باستعمال حيوان أو اثنين، بشرط أن يظل معصوب العينين، مثل البقر أو الجاموس أو الجمال أو الحمير. يدير الحيوان عجلة

أفقية معلقة فى رقبته، هذه العجلة توجد على محيطها أسنان، وهى أثناء دورانها تتشابك مع أسنان عجلة أخرى رأسية، فتدور الثانية رأسيًا مع دوران الأولى أفقيا، وتكون العجلة الرأسية مزوّدة بقواديس (المفرد قادوس أى دلو)، تمتلىء بالماء من المستوى المنخفض، لينداق منها عند المستوى المرتفع.

بهذه الطريقة يمكن ريّ نصف هكتار (٥٠٠٠ متر مربّع) فى ٢٤ ساعة، بشرط تغيير الحيوان بانتظام، ويكفى شخص واحد، وهو غالبا ما يكون طفلاً أو رجلاً عجوزًا، لحث الحيوان على الدوران، ولمراقبة القواديس والحبال والأجزاء الخشبية، وحتى فى حالة عدم وجود شخص للمراقبة، يمكن للفلاح عن بعد التأكد من استمرار دوران الساقية، بتعليق علب نحاسية قديمة، تصطدم بها العجلة عند الدوران. لقد استلهم عدد كبير من الشعراء أعمالاً لهم من أنين الساقية أثناء دورانها.

وحتى وقت قريب كان الفلاح يستعمل الساقية أيضًا للاستدلال على الوقت من النهار، بفكرة الساعة الشمسية، بوضع قطع خشبية رأسية حول الإطار الدائرى للعجلة الأفقية، ودوران الظل الناتج عنها عند سقوط الشمس عليها. انظروا إليها جيداً واستمعوا إليها، فهى لن تظل موجودة لفترة أخرى طويلة، فبعد عشرين قرنًا من الخدمة المخلصة، تختفى تلك الآلات الرافعة واحدة بعد الأخرى. وقد استغنى الفلاح المصرى فعلاً عن عدد كبير من السواقى، منذ أن بدأ سد أسوان العالى عمله فى تخزين المياه وفى توفير الكهرباء التى يدير بها الفلاح المحرّكات الكهربائية، رغم غبائها وإزعاجها لنا فهى تقوم بالعمل المطلوب.

١٢٧ - سقارة / Saqqara

كانوا يسمّونها وادى المومياوات، إلا أن شامبوليون عند زيارته لها سنة ١٨٢٨، لم ير فيها إلا واديًا للأطلال المهدّمة، كتب (أهرامات منهارة، مقابر منهوبة، عظام بشرية

وجماجم، بقايا فخّار، إن هذا الموقع لا يمثل أية أهمية، وهو غير جدير بالبحث والدراسة)، لم يكن حذراً بالقدر الكافى فيما كتبه ثم اتجّه إلى رحلته فى مصر العليا. يجب أن ننتظر حفائر الإنجليزى بيرينج سنة ١٨٣٧، ثم حفائر الألمانى البروسى ليبسيوس سنة ١٨٤٢، ثم على الأخص حفائر الفرنسى مارييت سنة ١٨٥١ قبل أن يبدأ موقع سقارة الواقع على بعد حوالى ٣٠ كيلومتراً إلى الجنوب من القاهرة فى الكشف عن عجائبه.

بدوره جاء الإنجليزى فرنسيس فيرث متنقلاً من اكتشاف إلى آخر، ليقع فى غرام سقارة فى الأعوام ١٩٢٠/١٩٣٠، ليلحق به معمارى فرنسى شاب، هو چان فيليب لوير، وهو الذى سيكرّس سبعين عامًا من عمره لسقارة، هذا الموقع الأثرى غير العادى. أقام لوير فى منزل صغير على نفس هضبة سقارة، تحوّل الآن هو الآخر إلى مزار سياحى. عندما وصل لوير بدأ على الفور، وبدون كلل أو ملل، فى استجواب العبقرى المصرى القديم إيم حوتب المهندس المعمارى للمجمّع الجنائزى الرئيسى، ثم يقوم لوير بإعادة بناء كل شىء حجراً حجراً، من السور المحيط بالمجمّع، إلى المقاصير والممرات... لم يعثر على مقبرة إيم حوتب ولكن ظله يحوم حول المكان.

حوالى سنة ٢٧٠٠ ق.م، فى بداية الأسرة الثالثة، كان هذا الموهوب إيم حوتب، معمارياً وطبيبًا وكاهنًا أكبر فى هليوبوليس، ومعاونًا رئيسيًا للفرعون زوسر مؤسس الأسرة. إن عبقرية إيم حوتب تتضح فى اختراعه لطراز جنائزى جديد، هو الشكل الهرمى، بالإضافة إلى استعمال القطع الحجرية الموحّدة الشكل فى البناء [لأول مرة فى التاريخ البشرى]، وفيما بعد ستعزى إليه كذلك أعمال شفاء أمراض اعتبرت من المعجزات، مما يبرر اعتباره قدّيسًا، ثم حتى اعتباره إلهًا للطب تكرّس لعبادته مقصورة فى معبد فيلا. وقد اعتبر إيم حوتب كذلك كبيراً للكتبة المصريين، وتخليداً لذكراه كان من عادة من يمارس مهنة الكاتب المصرى أن يترك بضعة قطرات من الحبر تسيل من المحابر، قبل الشروع فى الكتابة.

كانت سقارة قد أصبحت جبّانة العاصمة منف (ممفيس)، وهى واحدة من أهم مدن العصور القديمة، ولهذا السبب فمن المؤكد أن مقابر جبّانة سقارة كثيرة جداً. بعض المقابر لبشر وبعضها الآخر لحيوانات، فى ممرات تحت الأرض تمتد أحياناً لمئات الأمتار، حيث وجدنا مثلاً مومياوات لثيران ولطيور أبى منجل ولصقور وثعابين وقطط، إنها جبّانة حيوانات ضخمة جداً، كما لو كانت جبّانة حديقة حيوانات.

إن هذه الهضبة الصحراوية الساحرة الغريبة التى تحمل اسم (سقارة(*))، قد اشتق اسمها من تحوير طفيف فى الكلمة العربية (صخر)، يمكنكم تخيّل حجم انبهار سكان المنطقة فى العصور القديمة، أمام هذه الصخرة المرتفعة عن مستوى الوادى تحتها، الذى كانت تغمره مياه الفيضان عدة شهور فى السنة، وقد استمر هذا الوضع حتى الوقت الذى تمكن فيه الإنسان من السيطرة على مياه النيل.

لم ينس چان فيليب لوير أبداً يومه الأول فى هذا الموقع سنة ١٩٢٦، كتب (كان السطح المائى الأزرق يغمر الوادى ويمتد حتى خط الأفق، تحدّه من الغرب قرية سقارة فقط وحدها بحدائق نخيلها، ثم يأتى بعدها الشريط الذهبى الملوّن لرمال الصحراء الليبية التى تظهر على مرتفعاتها بعض الأهرامات، ومنها هرم زوسر المدرّج، لنجد أنفسنا محاطين تماماً بالماء، كما لو أننا تماماً فى منتصف مرآة ضخمة تعكس عدداً من الألوان المتدرّجة، ولم يكن يظهر فوق سطح هذه المياه الهادئة الصافية إلا قمم أشجار النخيل والتمر هندى والسنط، وتمر بينها بسلام مركب الصيادين الصغيرة أو مراكب لأشخاص عابرين).

للفرنسيين وحدهم الآن أربعة مواقع للحفائر فى سقارة، موقع البوباسطيين [أسرة ٢٢]، وموقع الملك زوسر [أسرة ٣]، وموقع الملك بيبى الأول [أسرة ٦]، ثم موقع خاص بمتحف اللوفر، ولا يمر عام دون أن تقوم إحدى هذه المجموعات البحثية، بأحد

الإنجـازات الرائعة، كـأن تحـقق اكتشـافًا جـديدًا خـلابًا. إن البـقـايا المتناثرة فى هذه المنطقـة التى تشـــغل حيّزا زمنيًا يمتد من الدولة القديمـــة إلى العصـــر القبطى، لم تكشف الســـتار بعد عـــن كل خبـــاياها، ففـــى هذه المساحة التى قد تصـل إلى حوالى عشرة كيلومترات مربعة، قد تقودنا أى ضربة فأس إلى اكتشـاف فردوس أرضى.

انظر مقال مارييت رقم (٨٥).

١٢٨ - علماء بونابارت / Savants de Bonaparte

٢٠ مجلدًا من النصوص + ١٠٠٠ لوحة فنية تدعو إلى الإعجاب = ما يتبقى بشكل مجرد تمامًا، وإيجابى تمامًا، من الحملة الفرنسية التى قادها بونابارت على مصر. إن إنجاز الحملة لوصف مصر، هو تحفة فنية فى فنون التأليف والتحرير، وهو ما خلّد تلك المغامرة المدهشة التى عاشها حوالى ١٦٠ مدنيًا من العلماء والفنانين المصاحبين لجيش الشرق من يوليو ١٧٩٨ إلى سبتمبر ١٨٠١ .

كان هدف بونابارت قبل كل شىء هو أن تكون الحملة عسكرية تسبق الإنجليز فى الاستيلاء على مصر، بحيث يصبح الوجود العسكرى الفرنسى هو السبب فى صرف نظر الإنجليز عن احتلال مصر. كانت فرنسا قد خرجت بالكاد من ثورتها [1789]، وكانت تدّعى أمام العالم أجمع أنها المدافعة عن حقوق الإنسان فى كل مكان، ثم سمحت لنفسها بالقيام بهذا العمل الاستعمارى، لهذا ظهرت عبارات مثل (أنها بعثة تنويرية حضارية)، ليست لاحتلال مصر بل (لتحرير المصريين من طغيان المماليك)، واطلاع المصريين على (مزايا المعارف العلمية). وهكذا اقتنع الجميع أنها بعثة علمية لاكتشاف بلد غامض مثير.

كان بونابارت يعتبر نفسه عالما، ورغم كونه أكثر جنرالات الجمهورية مجداً [الجمهورية الفرنسية الأولى بعد القضاء على ملك لويس ١٦]، إلا أنه كان حريصاً على أن ينتخب عضواً فى المجمع العلمى الفرنسى ليشغل المقعد الذى كان يشغله العالم كارنو، وليس هناك ما جعله فخورا بنفسه أكثر من عضويته للمجمع العلمى الفرنسى، ولذلك رغب فى أن يخلق نظيراً له فى القاهرة.

فى إيطاليا وبعد انتصاره فى معركة آركول، استدعى بونابارت اثنين من العلماء المعروفين العالم الرياضى جاسبار مونج والعالم الكيميائى كلود لوى برتوليه لاختيار غنائم حرب من الأقاليم المفتوحة فى إيطاليا. فى ربيع ١٧٩٨ كلف هذين الاثنين اللذين لم يكونا يفترقان، بتجنيد أعضاء جمعية ستكون خاصة بالعلوم والفنون، وستصاحب جيشاً جديداً فى حملة إلى خارج البلاد، إلا أن الجهة التى سيقصدونها ظلت سراً، ولم يعرف لاحقا بمقصد الجيش إلا بعض الجنرالات، بالإضافة إلى هذين العالمين. كانت حكومة الإدارة (الديريكتوار) قد قررت محاربة إنجلترا لا على أرضها وإنما فى مصر. وعندما كانوا مستمرين فى إعداد جيش الشرق كان الاسم الذى يطلقونه عليه هو (جيش إنجلترا).

بمجرد انتشار خبر قيام بونابارت بحملة جديدة تدافع الناس للالتحاق بها، إنها جاذبية المغامرة والعطش إلى اكتشاف آفاق جديدة، والافتتان بهذا الجنرال صاحب الشعبية الكبيرة أو ببساطة بسبب الطموح. اندفع مهندسون وعلماء طبيعة وفلكيون وجغرافيون وأطباء وفنانون للوقوف فى الصف. كان متوسط أعمارهم هو ٢٥ سنة، وكان من بين من سجلوا أسماءهم أساتذة بمدرسة الهندسة العليا، وتلاميذ حاليون وتلاميذ سابقون، بالإضافة إلى شخصيات مشهورة أو ستصبح لاحقا مشهورة، دولوميو/ جيفروا سانت هيلار/ سافينى/ كونتيه/ نوويه/ فورييه/ فنتــور دى بارادى/ فيفان دينان ...فى المقابل فقد رفض كوفييه/ لابلاس/ والرسام دافيد مغادرة باريس.

إن جمعية العلوم والفنون لن تسافر فارغة الأيدى، لأن بونابارت يطلب من معاونيه أن يجمعوا له مكتبة مكوّنة من عدّة مئات من المجلدات، بالإضافة إلى المواد اللازمة للطباعة بثلاث لغات ومعمل فيزياء وكيمياء ومرصد فلكى وكل المعدّات اللازمة لصناعة المناطيد. سيسافر العلماء والفنانون على عدد من المراكب المختلفة، ولكنهم سيظلون لبضعة أسابيع يشتركون معًا فى نفس الأحاسيس الحماسية، رغم عذاب القلق والشك، وكذلك الأسطول البريطانى الذى يطاردهم.

إن الخطوات الأولى على أرض الفراعنة كانت صعبة جدًا على الجميع، من مدنيين وعسكريين، لكن بعد الانتصار فى موقعة الأهرامات ودخول بونابارت القاهرة، بدأت الجمعية العلمية فى العمل بحماس وشغف، إذ تم إنشاء المعهد العلمى بالقاهرة يوم ٢٢ أغسطس ١٧٩٨ ليشغل عدة منازل مريحة هجرها أصحابها من البكوات المماليك. كان المعهد يتكوّن من ٣٦ عضوًا، موزّعين على أربع مجموعات، علماء رياضيات/ علماء فيزياء/ علماء اقتصاد سياسى/ مجموعة الأدباء والفنانين، ثم أضيف بعض كبار الضباط إلى الأعضاء، وعيّن مونج كأول رئيس للمجمع، وبونابارت باعتباره نائبًا له.

لم يكن الجنرال يحضر هذه الجلسات صامتًا متفرّجًا، بل كان يشارك بنشاط فى المجمع الذى كان ينتظر منه الكثير، فبداية من الجلسة الأولى طرح على زملائه ستة أسئلة محدّدة:

١ - كيف يمكن زيادة كفاءة الأفران لسرعة إنضاج خبز الجيش؟

٢ - هل يمكن استعمال مادة أخرى بدلا من الجنجل (حشيشة الدينار) فى صناعة الجعة (البيرة)؟

٣ - هل هناك وسيلة لتصفية وتنقية وتبريد ماء النيل؟

٤ - هل من الأفضل أن تبنى فى القاهرة طواحين الماء أم طواحين الهواء؟

٥ - بأى مصادر طبيعية فى البيئة المحلية يمكن صناعة البارود؟

٦ - كيف يمكن تحسين نظم القضاء والتعليم فى مصر؟

وعلى الفور تم تكوين ست مجموعات عمل لبحث هذه المسائل والوصول فيها إلى نتائج، وفى كل مرة كان بونابارت يعود بالمزيد من الأسئلة، وهى كلها ذات طابع عملى واقعى مثل السابقة، وهو ما يؤكد أن المجمع العلمى كان يشارك فى تسهيل مهمة احتلال مصر. ولم يكن العلماء يكتفون بهذه المهمات النفعية، فمونج يقدّم لزملائه دراسة عن السراب، وبرتوليه يقدّم عرضًا لموضوع طريقة التكوّن الطبيعى لأملاح الصوديوم فى بحيرات النطرون، أما سانت هيلار الذى كان قد أقام حديقة حيوانات فى حديقة المجمع، فكان يقدّم أبحاثًا فى موضوعات جدّ مختلفة، مثل جناح النعامة/ تمساح النيل/ الألياف العضلية/ أو موضوع عن وجود بذرة الجنسين معا فى خلايا التكاثر الخاصة بكل الحيوانات.

لم تكن مصر ولا العالم العربى فى ذلك الوقت بلادًا تعيش التقدّم العلمى، فقد زال العصر الذى كان فيه العرب يشرحون العلم للعالم أجمع، فمصر سنة ١٧٩٨ تشبه بلدا يعيش فى العصور الوسطى، بلدا كان فى سبات عميق خلال بضعة قرون، يمكن أن يفقد توازنه بسبب شعوب قادمة من الفضاء الخارجى. إن بونابارت يستعمل المطبعة فى نشر تعليماته على مواطنيه، وتقديم نشرات دعائية باللغة العربية إلى المصريين. هذه المطبعة تخلب لبّ المصريين، رغم أنهم لم تكن تبدو عليهم دائمًا علامات الفضول العلمى الذى توقعه الفرنسيون منهم، فإن تجارب الكيمياء ومناطيد الهواء تتركهم ذاهلين كقطع من الرخام.

أعلن بونابارت لدى وصوله أنه صديق للمسلمين وأنه معجب بالنبى محمد (عليه الصلاة والسلام). كان هذا أمر لا مفر منه إذا أراد جذب اهتمام العلماء المصريين علماء الأزهر. إلا أن العلاقات بين الفرنسيين والشعب المصرى كانت محمّلة بسوء الفهم، فعندما قامت ثورة القاهرة الأولى فى أكتوبر ١٧٩٨، كان منزل الجنرال كافاريللى هو من أوائل المنازل التى هاجمها الثوّار وسرقوه بما فيه من آلات علمية ثمينة. وقد قتل وجرح عددٌ كبيرٌ من أفراد البعثة العلمية، وآخرون نجوا من الموت فى آخر لحظة بعد أن قاوموا المهاجمين بالأسلحة فى أيديهم.

ورغم أن العلماء قاتلوا إلى جوار الجنود والضباط، فى مناسبات عديدة، إلا أن أولئك الأواخر كانوا دائمى السخرية من العلماء، لأن أفراد الجيش لم يكونوا يفهمون ماذا يفعل العلماء فى مصر، ويميلون إلى أن يعزوا إليهم كل المآسى التى تحدث للفرنسيين فى مصر. من القصص التى تروى، أنه ذات مرة أعلنت حالة الطوارئ، وأعطيت الأوامر إلى الفرقة العسكرية بتكوين المربع [أسلوب تكتيكى دفاعى يسمح بصد هجوم قادم من أى اتجاه]، فقال الضابط ساخراً (الحمير والعلماء إلى داخل المربع).

كان فيفان دينان يصاحب وحدات القائد ديزيه فى الصعيد، ويلعب أحياناً دور الكشّاف المستطلع، وسيلحق به فى الصعيد اثنان من المهندسين الشبّان، متخرّجان فى مدرسة الهندسة العليا، وهما بروسبير جولوا وإدوار دوفيلييه، فى مهمة خاصة بعمل دراسات حول القوى المائية، ولكنهما سيبديان حماساً لعلم الآثار، وحيث إنهما كانا قد حصلا على إعداد كاف فى إعداد الرسومات المعمارية، فإنهما سيقومان بعمل لوحات رائعة الجمال، إذ لم يحدث أبداً من قبل أن رسمت هذه الآثار بهذه الدقة، وفيما بعد سيلحق بالثلاثة فى الصعيد، العديد من أعضاء البعثة من الفنانين، ليقوم الجميع بنقل المئات من العلامات الهيروغليفية من على جدران المعابد حتى بدون فهم معناها.

بعد فشل حملته على سوريا، يعود بونابارت إلى فرنسا حيث يناديه مصيره، ولكنه يرحل فى الخفاء آخذاً معه عدداً من كبار الضباط، بالإضافة إلى مونج وبرتوليه ودينان، فيشعر بقية علماء الحملة الذين تركهم خلفه فى مصر بالخيانة والخديعة، فقد تركهم وحدهم أولئك الذين كانوا قد كلفوهم فى الأصل بالمهمة، لكنهم مع ذلك استأنفوا ما كانوا فيه من أعمال، تحت حماية القائد العام الجديد الجنرال كليبر.

يقوم البعض بعمل قياسات لأهرامات الجيزة، ويحدّد آخرون الموقع المؤكد لمدينة منف (ممفيس)، عاصمة الدولة القديمة، بينما ينشغل البعض الآخر بأول عمليات اكتشاف، لسلاسل مرتفعات الصحراء الليبية (الغربية)، وذلك بعد أن كان قد تمّ التخلى رسمياً عن المشروع الواحد الذى كان مقدّراً له أن يجمع كل هؤلاء العلماء معًا فى عمل واحد.

يوم ١٤ يونيو ١٨٠٠ يقوم شاب سورى من حلب باغتيال كليبر، وهى صدمة جديدة قاسية على الفرنسيين الذين يشعرون بطريقة متزايدة باليأس من هذا البلد. القائد الجديد چاك مينو يتحوّل إلى الإسلام ويتخذ اسماً جديداً هو عبدالله مينو ويعتقد أنه يمكن أن يظل فى مصر، ويعتقد أن مصر يمكن أن تصبح مستعمرة فرنسية، ويحاول أن يجنّد العلماء فى مشروعه الاستعمارى، وذلك بتكليفهم بمهام علمية محددة كما كان يفعل بونابارت.

لكن أيام بقاء الفرنسيين فى مصر أصبحت معدودة، بسبب هجوم عسكرى بريطانى عثمانى مشترك عليهم، ولم يعد هناك أى أمل، ولم يعد الكثيرون من أفراد الحملة يفكرون إلا فى العودة إلى فرنسا، وقد نجح بعض الباقين فى القاهرة فى التفاوض مع السلطات بخصوص مسألة الرحيل، واختار البعض الآخر أن يذهب إلى الإسكندرية، حيث واجهوا صلابة رأى وسوء تصرف مينو.

أراد رجال الأسطول الإنجليزى الاستيلاء على كل ما كان فى حوزة الفرنسيين من مقتنيات ووثائق، فأخذت سانت هيلار نوبة غضب، وأنذر الإنجليز باسم زملائه أنه يفضل أن يحرق كل حصاد الحملة العلمى على أن يسلّمه لهم، محمّلا إيّاهم فى تلك الحالة مسئولية إحراق مكتبة ثانية للإسكندرية، لا تقل أهمية عن المكتبة الأولى التى كانت قد أحرقت فى الزمن القديم. وفى النهاية لا يحصل الغزاة الإنجليز الغاشمون، إلا على بعض القطع الضخمة، ومن بينها حجر رشيد الشهير. فإذا كانت المغامرة قد انتهت فيما يتعلق بجيش الشرق، فإنها ما زالت تحتوى فصلاً جديداً إضافياً وثميناً جداً لعلماء الحملة وفنانيها.

بعد وقت قليل من عودتهم إلى فرنسا تتشكّل لجنة إعداد لإصدار العمل المنتظر، وهو موسوعة (وصف مصر) الذى تتكفل الحكومة الفرنسية بكل نفقاته. وبمناسبة طبع هذا العمل ستصل صناعة الورق إلى حد الإتقان ويلجأ الفنيّون من جديد إلى عبقرية نيكولاس كونتيه، مخترع القلم الرصاص، القلم الذى صنع المعجزات فى لوحات رحلة وادى النيل. وصلت العديد من عمليات الطبع والإخراج الفنى لهذا العمل إلى حد الاتقان التام، وقد ظهرت هذه الجودة العالية خاصة فى طبع اللوحات.

تبدأ أجزاء موسوعة وصف مصر فى الظهور سنة ١٨٠٩، بعد أن تمّ تقسيمها إلى ثلاثة موضوعات رئيسية، وهى مصر القديمة/ مصر الحديثة/ والتاريخ الطبيعى. إن الموسوعة تستعرض كل الموضوعات من الآثار إلى الحشرات، مروراً بالمهن المختلفة التى يمارسها أفراد الشعب. كانت خريطة جغرافية مصر، بمقياس رسم واحد إلى مائة ألف، على درجة عالية من الدقة حتى إن نابوليون قرر منع نشرها مؤقتا لأسباب أمنية.

لكن وصف مصر لم يكن خاليًا من الأخطاء، وذلك لأن علماء وفنانى الحملة اعتقدوا أن المعابد المصرية القديمة هى قصور الفراعنة، ولأن تكوين العلماء الأكاديمى

لم يمكنهم من رؤية الحقائق كاملة، ولكن رغم كل شيء فإن هذا العمل الضخم يدعو إلى الإعجاب، فحتى وقت ظهور (وصف مصر)، لم يكن أى بلد آخر فى العالم كله، قد حظى بمثل هذه الدراسة الدقيقة عن كل ما يخصه، ثم إن (وصف مصر) يمكن اعتباره جنين علم المصريات، ذلك العلم الذى كان ما زال فى علم الغيب وفى طور التكوين الجنينى، وهو العلم الذى سيولد طفلاً مكتملاً بعد بضعة سنوات، على يد شامبوليون بعد فك أسرار الهيروغليفية.

انظر مقال: حجر رشيد رقم (١١٤).

١٢٩ - الكاتب المصرى / Scribe

إن عينيه الألباستر المطعّمتين بالبللور، تخترقان الواقف أمامه، فكيف يمكننا ألا نتأثر به؟ أنا أتحدّث عن تمثال الكاتب المصرى الجالس القرفصاء بمتحف اللوفر. إن هذا الشخص العارى الصدر، بلفافة البردى المفرودة على ركبتيه، يعتبر نموذج الذكاء والحكمة، وهو أهم ما فى الحضارة المصرية. إنه لا يعطى الانطباع بأنه كان بيروقراطياً متمسّكاً بالشكليات والروتين، وإنما هو يعطى الانطباع بالسيادة والسلطة، وهو ما يشير إليه التناقض الموجود بين الامتلاء الخفيف لجسمه، وبين كتفيه الرياضيين.

كانت طبقة الكتبة مميّزة، فى مجتمع بلغت فيه نسبة الأميّة ٩٥٪، ولم تصبح هذه الوظيفة متاحة لأفراد كل الطبقات إلا منذ زمن الدولة الحديثة، لأنها قبل ذلك كانت مقصورة على أفراد العائلة الملكية، وعلى عائلات رجال البلاط الملكى. وكان أطفال المدارس يتعلمون مبكراً جداً مزايا هذه المهنة (اصنع من نفسك كاتباً/ فتصبح أطرافك ليّنة/ وتصبح يداك ناعمتين/ وتخرج من منزلك كل صباح مرتدياً ملابس بيضاء/

وتكون مكرّمًا أينما حللت/ ويحييك رجال البلاط)، هكذا تقول البردية المعروفة باسم تشستر بيتى ٤ من الأسرة ١٩ .

وفى نص آخر مشهور باسم (هجاء المهن)، يقرأه الشاب الذى تم اختياره لمهنة الكاتب، ليتعرّف بنفسه على عيوب المهن والأنشطة اليدوية الأخرى (لقد شاهدت الحدّاد أثناء عمله/ أمام فوّهة الفرن/ إن أصابعه تتشقق كما لو كان تمساحًا/ حقا إن منظره منفّر/ ويدعو إلى الاشمئزاز أكثر من منظر بيض السمك/ ثم إن النجّار الذى يستعمل أدوات صقل الخشب/ يرهق نفسه أكثر مما لو كان فلاحًا يحرث الحقل/ أما صانع الفخار فهو يتمرّغ فى الطين مثل الخنزير/ ولن يتم إنضاج أوانيه إلا بعد أن تتصلب ملابسه بسبب الطين). أما الكاتب فهو رئيس نفسه، ولا رئيس لديه، هكذا يقرر النص ببلاغة، ولكنه يتجاهل مسألة أن الكاتب موظف هو أيضًا، ويقبض مرتبه فى مكتب الإدارة.

يمتلك الكاتب عدّة خاصة به، تتكوّن من علبة خشبية تنتقل معه إلى مكان عمله، وبالعلبة لوح خشبى صغير به محبرتان، إحداهما للصبغة الحمراء (المغرّة)، والأخرى للّون الأسود (فحم الخشب)، ثم إناء صغير للماء، ومجموعة من العصىّ الصغيرة هى أغصان نباتات عشبية تستعمل كأقلام كتابة، كذلك هناك مكشطة للمحو ولفائف بردى. وللانتماء إلى هذه المهنة، لا تكفى معرفة القراءة والكتابة، بل ينبغى كذلك معرفة طريقة حساب الأرقام. لأن العمل قد يتضمّن وزن الحبوب أو وزن الذهب، أو إحصاء عدد من الحيوانات الداجنة، أو الإشراف على عدد ضربات العصىّ التى ينالها أحد المدانين فى أحد الأحكام.

كانت هناك تخصصات عديدة داخل المهنة، مثلاً كان يوجد كتبة لمخازن الغلال (الأجران)، وكتبة (للحقول)، وكتبة (للجيش)، وكتبة (لمراسم الجنازات) ... إلى آخره. والمهنة أبعد ما تكون عن أن تختزل إلى مجرّد نقش فوق ورق بردى، فإن من بين الكتبة

كان هناك المترجمون، والمثقفون على مستوى رفيع من الثقافة. يكفى أن نعرف أن الإله الذى كان على رأس هذه المهنة هو تحوت (جحوتى) إله الكتابة، المتمتع بنفوذ كبير أسبغه على طائفته، والدليل على ذلك هو وجود نصوص من العالم الآخر، تحكى كيف أن بعض المتوفين كانوا أمام محكمة الآخرة، يشيرون بفخر شديد إلى أنهم كتبة، تخليداً لذكرى إجادتهم الكتابة.

١٣٠ - عمر الشريف / Sharif (Omar)

إلياس ميشيل شلهوب يمكن أن يتفاخر بأنه كان، ولمدة عشرات السنوات، المصرى الأكثر شعبية فى الغرب. ولد فى القاهرة سنة ١٩٣٢ فى أسرة من أصول سورية لبنانية، كان والده تاجراً للأخشاب بالجملة، ويريد أن يجعل منه رجل أعمال، فعهد به إلى واحدة من أفضل المؤسسات التعليمية فى ذلك الوقت، وهى كلية فيكتوريا بالإسكندرية، حيث تعلم ثلاث لغات، وسيتعلم أربع لغات أخرى فيما بعد، وكان فى المدرسة قد قدّم بعض المسرحيات باللغة الفرنسية مع زملائه.

سنة ١٩٥٤ ترتبك حياته تماماً، عندما يمثل دوراً فى أحد أفلام يوسف شاهين، هو فيلم (صراع فى الوادى) مع فاتن حمامة التى كانت من أجمل ممثلات السينما المصرية فى ذلك الوقت، فيقع فى الحب من أول نظرة، ويتحوّل إلى الإسلام حتى يتمكن من أن يتزوّجها، ويكون اسمه الجديد هو عمر الشريف. ينتهى الزواج بالطلاق بعد عشر سنوات، ولكن خلال تلك السنوات يكون قد لعب دور الفتى الأول فى العديد من الأفلام المصرية، ليست كلها على نفس القدر من الجودة، وإن كان أفضلها بلا شك هو (بداية ونهاية) لصلاح أبو سيف.

سنة ١٩٦١ ترتبك حياته مرة أخرى، عندما يعرض عليه المخرج دافيد لين، دور المرافق العربى للورانس فى فيلم (لورانس والعرب)، وقد نجح الفيلم نجاحًا مدويًا، ليصنع من عمر الشريف نجمًا سينمائيًا عالميًا. بدأ الكل فى طلب هذا الفتى الموهوب، الذى تتناسب صفاته الجسمانية مع أدوار متعددة، فمثل دور أمير نمساوى فى (ماير لينج)، ودور ضابط نازى فى (ليلة الجنرالات)، ودور شى جيفارا فى فيلم عنه، ولكنه بلغ قمته الفنية فى فيلم (دكتور زيفاجو) سنة ١٩٦٥ .

كانت هناك اتهامات تلاحقه، مثل تهمة السخرية من العرب فى فيلم (لورانس)، كما اتهم بالتعاون مع الأعداء، عندما لعب دور البطولة أمام الممثلة اليهودية باربارا سترايسند فى سنة ١٩٦٧ فى وقت الهزيمة. كان عمر قد غادر مصر سنة ١٩٦٤، على زمن عبد الناصر، ولم يعد إليها إلا سنة ١٩٧٧ على زمن أنور السادات، مع احتفاظه طول الوقت بقدم فى فرنسا، ليتمكن من العودة إليها وقتما يريد، حيث تشغله أنشطة عديدة، منها أنه كان بطلاً دوليًا فى لعبة البريدج، وكوّن فريقا باسمه لهذه اللعبة، تنقل بين الدول لحضور البطولات، ومنها أنه مولع بالخيول، وقد امتلك إسطبلاً لخيول السباق، وطالما قدّم النصائح لهواة المراهنة على سباق الخيل.

إن كل الناس تحبّه وتقدّر صراحته وتواضعه وصوته المؤثّر، ورغم أن صورته فى الغرب تهتز مع الوقت بعض الشىء، إلا أنه يظل أكثر الممثلين العرب شهرة خارج العالم العربى. فى نوفمبر ١٩٩٧ بعد مذبحة الدير البحرى فى الأقصر، لم تفكر السلطات المصرية فى شخص آخر تدعوه، ليوجّه رسالة رسمية إلى العالم المفزوع، فنرى أمام آلات التصوير رجلاً يدعو إلى الطمأنينة بصوته الحنون، ويشعر رأسه وشاربه الرماديين، وقد ارتدى نظارات طبية بدت عيناه خلفهما أكبر حجمًا. إنه حقًا الرجل الذى يصلح لكل الأدوار.

انظر مقال السينما رقم (٢٣).

١٣١ - فندق شبرد / Shepheard's

ترددَتْ أحلامي وخيالاتي كثيراً على فندق شبرد، عندما كنت أكتب روايتي (الطربوش)، من خلال الصور والوثائق التي عثرت عليها في الأرشيف. كان هذا الفندق الأسطوري قد اختفى في ظروف درامية عنيفة وحزينة، بعد أن كان الجدّ الأكبر لكل الفنادق الفاخرة في مصر، مينا هاوس الهرم، هليوبوليس بالاس مصر الجديدة، ونتر بالاس الأقصر، وأولد كاتاراكت أسوان.

وصل صمويل شبرد إلى القاهرة سنة ١٨٤١ . ورغم أنه ابن مزارع إنجليزي ولا يفقه أي شيء في الفندقة، فقد بدأ في مساعدة أحد مواطنيه في إدارة الفندق الذي يمتلكه، وكان يسمى (الفندق البريطاني)، ويقوم نشاطه الأساسي على تنظيم عمليات وصول الركاب الأوروبيين القادمين إلى القاهرة في طريقهم إلى الهند عبر ميناء السويس. سنة ١٨٤٥ يتغير اسم الفندق إلى (فندق شبرد).

في البداية كان هذا الفندق في ميدان أزبك [العتبة الخضراء حاليًا]، وعندما ازدهرت أحواله انتقل إلى مبنى جديد، يقع على بعد خطوتين من حديقة الأزبكية، هو القصر القديم للأميرة زينب [ابنة محمد علي]، وهو نفس القصر الذي كان بونابارت قد استعمله كمقر لقيادته، واغتيل فيه كليبر [وكان قبل ذلك للأمير المملوكي الألفي بك]. فيما بعد سيذهب النزلاء إلى الحديقة الجميلة التي تمرح فيها الغزلان، لمشاهدة شجرة الجمّيز التي اختبأ خلفها قاتل كليبر.

اشتهر الفندق بشرفته الرشيقة العريضة المطلة على الشارع، يحرسها تمثالان حجريان صغيران من تماثيل أبي الهول، هذه الشرفة هي نقطة استطلاع ومراقبة لا مثيل لها، جلس فيها تيوفيل جوتييه سنة ١٨٦٩، لمراقبة القاهرة كلها تمر تحت ناظريه، بعد أن تعرّض لكسر غبي في عظمة الترقوة، أجبره على البقاء بدون حركة. إن الفصل الأخير من كتابه (الشرق)، يحمل عنوان (ما يمكننا رؤيته من شرفة فندق شبرد). هناك

زائر فرنسى آخر، هو شارل بلان، ألف كتاباً بعنوان (رحلات إلى مصر العليا) طبع سنة ١٨٧٦، كتب فيه (إن المبنى ذاته لا يوحى بالثقة، إنه مثل دير متسع، حيث السلالم والدهاليز تقبع فى الظلام، وتكاد أن تكون بلا أية إضاءة، وحجراته تشبه خلوات الأديرة).

مع مرور السنين يتوسّع فندق شبرد ويتطوّر، فيدخل مثلاً الإضاءة الكهربائية، كما أن قاعته الشهيرة (موريش هول) التى تعلوها قبّة ضخمة، أضيفت إليها نقوش من طراز الأرابسك ومشربيات وسجاجيد عجمية، ورخام وردى اللون. كان من المعتاد أن حفل العشاء الراقص فى هذه القاعة، هو الافتتاح الرسمى لموسم القاهرة الشتوى. عندما جاء البارون البلجيكى إدوار أمبان سنة ١٩٠٦، للإشراف على بناء ضاحية هليوبوليس، أقام فى هذا الفندق، وأسس فيه مقراً اجتماعياً (نادى)، لشركة القطارات الكهربائية بالقاهرة (للترام والمترو)، ولشركة (واحة هليوبوليس)، وقد ظل المقر الإدارى فى بروكسل، وهى الحيلة التى لجأ إليها البارون، للتهرب من دفع الضرائب فى بلجيكا.

مع مرور السنوات امتلأت كراسات التوقيعات الشرفية بأسماء ملوك وملكات وضيوف ونزلاء مشهورين، ونجد فيها ضمن آخرين توقيع (ستانلى) الذى استفاد من توقفه فى القاهرة بين رحلتين استكشافيتين لأفريقيا السوداء، للإقامة فى شبرد وكتابة نص (مذكرات أمين باشا). وفى سنة ١٩٣٨ كتب بول موران نغمته النشاز فى كتابه (البحر المتوسّط بحر المفاجآت)، قال:

(بعد قضاء فترة الصباح فى متحف الآثار، أحب أن أستريح فى ظلال حديقة فندق شبرد، وقبعتى على ركبتى، وكأس چين فى يدى. إن فندق شبرد الإنجليزى العجوز مرتفع الثمن وغير مريح، فديكوراته التى تشبه ألف ليلة وليلة لم تعد تعجب حتى أولئك الذين يصنعون فى هولى وود أفلاماً مثل فيلم (قسمت)، ثم إن هذا الفندق

يدير ظهره للنيل وللطبيعة، ويفضّل النظر إلى الشارع، كأى عجوز شرقى يحترم نفسه.

يعجبنى أن أرى الحاوى العجوز جائلاً فى الحديقة بين الكراسى المريحة، فهو يخفى سمكات حيّة بين صدره وقميصه، ليدهش بها الإنجليزيات الشابات مرتديات سراويل الخيل، والسياح القادمين من شمال أوروبا المهتمّين جداً بنظاراتهم المقرّبة، وبالترموس المعلق على أكتافهم، والضبّاط الإنجليز فى رداء لعبة البولو، ورجال البنوك الأمريكيين المتقدّمين فى السن الذين بعد أن أتخموا بقصص أبى الهول والعلامات الهيروغليفية ينكبّون الآن على قراءة أخبار أسواق المال كما لو أنهم كانوا على ضفاف أكثر الأنهار إنعاشا.

هناك أطفال حليقو الرؤوس تماماً يدورون بين الموائد، يبيعون بذور بعض النباتات البقولية الخضراء، مثل الفول الحراتى والملانة والترمس، ولكنها ذابلة ومتجعّدة، وهناك حمّارة يعرضون عليك الحشيش، أو رأس فرعون حجرية مسروقة من حفائر الجنوب، يضعونها بسرية وحذر أسفل ملابسهم).

تقع المأساة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢، حين تقع القاهرة فريسة فى أيدى متمرّدين يتربّصون بالمؤسسات الأجنبية، فيدخل بعضهم إلى شبرد ويستولون على كل ما تقع عليه أيديهم، من أثاث وسجّاد وستائر وتابلوهات، ثم يضعون هذا كله فى بهو قاعة المدخل الرئيسى ليصنعوا منه محرقة هائلة، فتنهار القبّة الكبيرة، ويهرب النزلاء كيفما استطاعوا، فتقذف امرأة بنفسها إلى الشارع من الطابق الثالث، بعد أن كانت قد تملّكتها نوبة خوف هستيرية. عندما يصل أخيراً رجال المطافىء، يتلف لهم المتمرّدون خراطيم المياه.

فى المساء لم يكن متبقياً من هذا الفندق إلا الركام والرماد، ولكن خزائنه ظلت آمنة إلا واحدة التهمتها النيران، واحدة من إجمالى ثلاث عشرة خزانة، هى تلك التى

كانت تحتوى على ذاكرة الفندق الشرفية، كراسات توقيعات كبار النزلاء. سنة ١٩٥٧ أعيد افتتاح الفندق بنفس الاسم، ليشغل هذه المرة تسعة طوابق تقع على ضفاف النيل مزوّدة بتكييف الهواء المركزى. فيما بعد يعثر فى نيويورك على إحدى كراسات الشرف التى كانت فى حوزة أحد مديرى الفندق السابقين، وهو فريدى الويرت، كان قد أخذها معه عند مغادرته لمصر فى بداية الحرب العالمية الثانية. إنها كل ما يتبقى من شبرد القديم.

١٣٢ – العطش / Soif

جوّ حار جاف ومطبخ يستعمل التوابل بكثرة، هما السبب فى حاجة المصريين الدائمة إلى إرواء عطشهم، فالناس هنا لا يشربون (كأسا) فقط عندما يعطشون، كما يفعل أناس آخرون فى بلاد أخرى. فى البداية كان هناك (الزير) وهو إناء ضخم من الفخار اعتاد الناس على وضعه عند مداخل المنازل، حتى يمكن للمارين فى الشارع شرب الماء مجانًا. فى ذلك الزمن القديم كانت فى القاهرة مبان جميلة من طابقين أرضى وعلوى تعود إلى العصر المملوكى تسمّى (أسبلة) والمفرد (سبيل).

وهو نبع ماء عمومى، وكان الطابق العلوى يخصص لمدرسة أولية لتعليم القرآن (كُتّاب) لصبية هم غالبا من الأيتام، أما نبع الماء فكان بالطابق الأرضى، خلف نافذة كبيرة مسيّجة بالحديد، حيث يقف رجل ينشغل طول الوقت بملء القلل الفخارية والأوانى النحاسية بالماء وإعادتها إلى المارة. رغم أن كلمة (سبيل) بالعربية تعنى (طريق) فقد أصبحت هذه الكلمة تستعمل أيضًا للدلالة على الزكاة التى يمكن أن تقدّم إلى أى عابر سبيل. هناك لازمة موسيقية تصاحب بعض الأغانى الشعبية، وتقول (عطشان يا صبايا دلونى على السبيل) تذكرنا بتلك العادة القديمة المتعلقة بوجود أسبلة فى الشوارع.

لم أولد مبكراً بالقدر الكافى حتى أعرف (السقائين) حاملى القرب الممتلئة بالماء، إلا أنهم يظهرون فى الرسومات التى تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر، وهم يحنون أجسامهم كما لو أن الظهر قد انقسم إلى جزأين، تحت ثقل القربة المصنوعة من جلد الماعز المرفوعة على ظهورهم. لكنى فى المقابل عشت عصر (القلة)، المصنوعة من الطين المحروق والموجودة فى كل منزل وفى كل محل.

هذه القلة كانت تستطيع أن تحتفظ بالماء بارداً بطريقة تدعو إلى الإعجاب، وللشرب منها لا نحتاج إلى أكواب، فكل شخص يعرف كيف يرفع القلة ليشرب منها، بعد أن يميلها قليلاً أمام فمه، ولكن دون أن تمسّها شفتاه. إنها لم تختف أبداً من البيوت المصرية، رغم أن كل القادرين على الشراء زوّدوا منازلهم بالثلاجات الكهربائية ووضعوا فيها الماء المعدنى المعبّأ فى الزجاجات البلاستيكية التى تباع الآن فى أركان الشوارع.

عندما كنت طفلاً، كان الماء الذى نشربه على مائدة الغذاء هو ماء الصنبور، وفى مصر الجديدة حيث كنا نقيم، كان ماء الصنبور يأتى من نبع فى طبقة كلسية تحت الأرض، وعندما كنا نذهب إلى القاهرة، كنا نشعر على الفور بالفرق فى طعم مائها الذى كان يحصل عليه أهلها من النيل، وذلك لأن ماء النيل كان أفضل من الماء الذى كنا نشربه، لأنه كان أقل ملوحة وله طعم خاص به لا يمكن أن ينسى.

من أجمل مناظر القاهرة الحالية، منظر بائع العرقسوس، الذى ما زال يجوب الشوارع يبيع العرقسوس والتمر هندى والخرّوب، حاملاً على صدره تلك القنينة الزجاجية الضخمة والتى تحيط بها الأكواب الصغيرة على رف خاص حول جسم القنينة. يبدو لى أن هؤلاء الباعة هم الشيء الوحيد الباقى على قيد الحياة من ذكريات الزمن القديم حتى أنهم ما زالوا يستعملون آلة إيقاع موسيقية، تتكون من قرصين

نحاسيين صغيرين يصدران صوتًا مميّزًا جداً عند طرقهما معًا بين الأصابع، وهو أسلوبهم فى جذب المشاة إلى مشروباتهم. ثم إن لدى هؤلاء الباعة طريقة مسرحية لسكب مشروباتهم من ارتفاع كبير حتى تتكون رغوة فى الأكواب الصغيرة. لم أجد فى نفسى أبدا الرغبة فى المخاطرة باحتساء مشروباتهم، وذلك بسبب شكّى فى نظافة الأكواب والماء المستعمل.

ليس هناك ما يعدل عصائر الفاكهة، الأغلى سعراً بالتأكيد، والتى تعصر أمام الزبون فى المحلات، وفقًا لطلبه وحسب فواكه الموسم المتاحة، المانجو (آه من التيمور) والجوافة والرمّان، وقبلهم كلهم عصير القصب الذى كنا ونحن أطفال، نفضل أن نأكله قضما بالأسنان مباشرة من الأعواد. أما فيما يتعلق بالكركديه المتوفّر فى الصعيد، فيلقى استحسانا من السياح. إن هذا السائل الأحمر المأخوذ من منقوع زهرة شجيرة الكركديه (واسمها العلمى إيبيسكوس)، يمكن أن يشرب ساخنًا أو بارداً حسب الحاجة.

إن المصريين يستهلكون كميات كبيرة من المياه الغازية التى تحتوى على نسبة كبيرة من السكر، سواء المصنوعة محليًا أو المستوردة، مع ملاحظة أن شربها باردة جداً يمكن أن يروى ظمأ العطشان فى التو، ولكن تأثير الإرواء لا يدوم طويلاً، ثم إنها عادة ما تصاحب تناول الوجبات فى مجتمع يمنع المشروبات الكحولية.

يتمتع فقط غير المسلمين بحرية احتساء البيرة ستللا الخفيفة الشعبية، التى خصصت لها مقالاً كاملاً فى هذا الكتاب. وسيستمر بلد الفراعنة فى إنتاج النبيذ، الأبيض (بطالمة/ كليوباترا) لا بأس به، أما الأحمر (عمر الخيام/ مريوط) فهو مستمر فى الدفاع عن نفسه بشرف، رغم أنه لا يمكن أن يرقى إطلاقًا إلى أنواع الأنبذة القديمة التى تحدّث عنها بلين وسترابون.

١٣٣ - أبو الهول / Sphinx

منذ ٤٥٠٠ سنة يقف هذا التمثال الضخم، المنحوت فى ربوة صخرية من الحجر الجيرى، ليوقع كل من يقترب منه فى مزيج من الدهشة والانبهار. فإذا كانت مصر القديمة قد امتلأت بهذه الكائنات المهجّنة، وبها كل هذا العدد من الآلهة البشر برؤوس كلاب وبقر وصقور، فإن أبا الهول هو الوحيد من نوعه، برأس بشرية وجسد ليث. ثم إن أبا الهول يسحقهم جميعا بحجمه، إنه يبلغ ٧٢ متراً طولاً و ٢٠ متراً ارتفاعاً.

انتبهوا فإنه يمكن أن يخيّب ظننا فيه، كل المسألة تتوقف على الزاوية التى ننظر بها إليه، أنا شخصياً أحب أن انظر إليه فى المواجهة ومن على بعد، عندما يكون واقعاً فى محور واحد مع هرم خفرع، فهو قبل كل شىء ينتمى إلى مجموعة خفرع الهرمية، ويعتبر امتداداً لها، فلندع بيير لوتى يتحدّث:

(أتذكر ذهابى فى ليلة شتوية، أطلب الإذن بزيارة أبى الهول، تحت ضوء القمر المكتمل بدراً، بالقرب من أشباح الأهرامات الثلاثة الواقعة على خط الأفق، فى ضوء ذلك القمر، بدا أبو الهول وردىّ اللون، مثل لون رمال الصحراء المحيطة به، بدا أولاً فى شكل كتلة حجرية غير محدّدة الملامح، صخرة ذات شكل مضطرب، قد تبدو من خلالها بعض الملامح الخارجية لجسم حيوان رابض.

ثم فجأة وجدت نفسى أمام وجهه، الذى بدا لى قاسياً كأنه حيوان محنّط، خاصة فى هذا الضوء القمرى البارد، وجهه الكبير الغامض كان هناك إلى أعلى، موضوعاً بشكل مثير على خلفية من السماء، ناظراً إلى ما كان ينظر إليه منذ قرون لا حصر لها، إلى خط الأفق الخالى. هذا الوجه الضخم قد تبدو عليه ملامح ابتسامة ساخرة، رغم التشوّهات التى أصابته عبر العصور، بأنف أفطس كأنف الموتى. ولكن تدريجياً يبدأ المنظر كله فى الإيحاء بفتنة مرعبة، إذ تصبح فجأة عاشقا له، كما لو أنه قد نوّمك

مغناطيسياً، بنظرته تلك الثابتة الموجّهة إليك، حتى تخيلت أن أطرافى قد شلت، ولم أعد قادراً على الحركة، صامتا صمت العدم والفناء).

نحت أبو الهول فى ربوة من الحجر الجيرى، ليصبح أحد عناصر المجموعة الجنائزية الهرمية للملك خفرع، وهو يجسّد صورة هذا الفرعون الإله، بوضعه غطاء الرأس الملكى واللحية المستعارة. فى نهاية الأسرة الرابعة هُجِرَت هذه الجبّانة على هضبة الجيزة لمدة حوالى خمسة قرون، وتركت الرمال تغزوها وتغمرها، ثم فجأة دبّت فيها الحياة من جديد، عندما حاول بعض ملوك الدولة الحديثة إجراء بعض عمليات الترميم بها، ثم تحوّلت إلى منطقة مكرّسة لعبادة أبى الهول الذى سيلقب من الآن فصاعد حور إم آخت [أى حورس فى الأفق]، وهكذا تحول تمثال أبى الهول إلى إله.

إن أكثر من تحمّس لترميم أبى الهول، هو تحوتمس الرابع (حوالى ١٤٠٠ ق.م)، ثم أقام نصباً تذكارياً بين قدمى أبى الهول الأماميتين عرف باسم (نصب الحلم)، وقد حفرت عليه القصة التالية: كان الأمير الشاب تحوتمس الرابع قد خرج إلى الصيد فى وادى الغزلان القريب، ثم نام من التعب عند أقدام التمثال الذى تحدّث إليه أثناء نومه، طالباً منه أن يحرّره من الرمال، وفى المقابل يعده بتاج مصر العليا والسفلى.

أثناء حملة بونابارت سنة ١٧٩٨ كانت الرأس وحدها هى التى تظهر فوق الرمال، أما باقى الجسم فكان مدفوناً، مع ملاحظة أنه كان قد فقد أنفه مسبّقاً، عندما وقع ضحية طلقة مدفع، أو قد يكون سقوط الأنف من التآكل بسبب نحر الطبيعة. نجد رسماً لفيفان دينان، يظهر فيه أبو الهول ونصف جسمه تحت الرمال، مع ظهور ثلاثة أشخاص، يصعدون سلماً للوصول إلى قمّة الرأس. إلا أن عمليات إزاحة الرمال المتتالية لم تكن على هوى بول موران الذى كتب:

(لقد حفرنا الأرض تحت أقدام أبى الهول منذ عامين، لقد قام العلماء بالعمل الذى يقوم به مقلّمو الأظافر فى صالونات التجميل، بدون أية نتيجة عدا أننا اكتشفنا تحت القدمين قواعد بناء قبيحة المنظر من الطوب الأحمر، تعود إلى العصر الرومانى. كان أبو الهول أكثر جمالاً، عندما كان مدفونًا حتى عنقه تحت الرمال، رغم أنه كان يختنق، وكانت إجابته على أسئلتنا الأزلية التى يوحى لنا بها تقف فى حلقه).

وبعد أن تحرّر من الرمال، أصبح أكثر عرضة للتلف، بسبب كثرة الاعتداءات المختلفة عليه، من تفاوت فى درجات الحرارة والرطوبة إلى تلوّث الهواء إلى الذبذبات التى تتسبب فيها وسائل النقل الجويّة والبريّة. وحدث أن ازدادت التلفيات فى أبى الهول سنة ١٩٨٧ بسبب عمليات ترميم غير مدروسة جيداً. وهكذا كان ينبغى البدء مرة أخرى بعد سنوات قليلة، فى عمليات ترميم تلتزم باستعمال مواد بناء أصلية فقط لا غير، مثل الحجر الجيرى والملاط. وبعد أن استردّ حارس الجبّانة صحته، عادت إليه نظرته، وليظل من جديد فى صمته التليد، ربما لبضعة آلاف أخرى من السنين.

انظر مقال الأهرامات رقم (١١٨).

١٣٤ - الخرافات / Superstitions

فى هليوبوليس كانت خادمتنا العجوز تحتقر الغسّالة التى كانت تأتى مرة واحدة فى الأسبوع لتغسل، أمام أحواض ضخمة من الماء الساخن. وذات يوم بسبب حركة خاطئة، انقلب سخان الماء الذى يدور بالبترول واندلعت النار، فاندفعت الخادمة العجوز لإنقاذ الغسّالة، والحمد لله تجنبنا مأساة. وبعد هدوء المشاعر هنأنا الخادمة على سرعة رد فعلها، فاندهشت بعض الشىء وقالت إنها لم تخاطر بحياتها وتفعل هذا إلا لمنع العفاريت من العودة إلى المنزل! إنها دائمًا نفس العفاريت السرمدية، كما لو أن

الشيطان يكلّفهم بالاهتمام بشكل خاص بتعذيب المصريين، خاصة أثناء الليل طبعًا، وحبذا لو كان هذا حول مناطق المدافن.

إن المسألة قد تكون حساسة جداً وشخصية، فإن الكثير من الناس يعتقدون جازمين أن لهم قرائن، قادرين على اضطهادهم، أو جلب الضرر إليهم وأذيّتهم بالأعمال السحرية. إذن كيف يمكن الفكاك من روح شريرة؟ إن الناس السذّج البسطاء يخضعون لحفلات الزار، بشرط أن يكونوا قادرين على دفع تكاليفها المرتفعة الثمن، وهى ليست عملية استخراج شياطين بالمعنى المفهوم، ولكنها طريقة لتهدئة النفوس، والتصالح مع نواياها الحسنة وجوانبها الطيبة. إن عملاء حفلات الزار غالبًا من النساء، وعادة ما تكون قائدة الحفل امرأة [الكوديا]، وهى توهم الزبونة بأنها قادرة على التعرّف على تلك الكائنات المخيفة والتفاهم معها ومراضاتها حتى تنصرف.

ومن أجل تحقيق هذا الغرض، تجعل الكوديا الأشخاص الملبوسين بالأرواح الشريرة، يرقصون وهم يدورون حول مائدة يحترق عليها البخور، على إيقاع موسيقى تزداد مع الدوران صخبًا، وتتكون من آلات مختلفة منها الناى والطبول وآلات إيقاع، للوصول إلى حالة من الوجد والارتعاد، قد تؤدّى بهؤلاء الأشخاص الملبوسين إلى الصراخ والنباح والضرب. ثم إن حفل زار واحد غير كاف، بل ينبغى دائمًا أن يعود الملبوس ليدفع المزيد من النقود من أجل حفل جديد.

تمائم وأحجبة وتعاويذ، وفأل حسن وفأل سيّء، وشياطين وجان و(أعمال) سحرية، إن الاعتقاد فى الخرافات يعبر القرون، من مصر القديمة إلى مصر اليوم، مشيراً بشكل مقلق إلى أن شيئًا لم يتغيّر، فمصر هى هى مهما تغير ناسها وتغيّرت دياناتها، طالما ظل هذا الخليط من المعتقدات والممارسات منتشراً، فى بلد يجعل التعليم إجباريًا، ويحصل عدد من أفراده على جائزة نوبل. مصر القديمة كانت تخصّ السحر بمكانة

مميّزة، خاصة السحر الدفاعى، لحماية الفرد من الأمراض وحوادث الطريق والهزائم العسكرية، ولكن كذلك من ألف روح شرير وجن منحرف ضال، موجودين هنا على الأرض وكذلك فى العالم الآخر.

إن الاعتقاد فى أن تسمية الشخص أو الشىء تمكّنك من الاستحواذ عليه، وأن للإساءة إليه يكفى جداً أن تكون لديك صورته، هى معتقدات مصرية قديمة، ما زلنا نجدها مثلاً فى الوشم على الجلد، وهو ما قد يكون أحياناً للزينة، ولكنه يمكن أيضاً أن يعبّر عن الانتماءات العرقية أو عن المعتقدات الدينية، مثل وشم الصليب على الرسغ الأيمن لبعض الأقباط، الذى قد تكون له معان سحرية. يرسم المصريون وشم نحلة على الذراع أو على الفخذ للوقاية من الروماتيزم، ووشم ثلاثة عصافير صغيرة على الصدغ تسمح بتجنّب أمراض العيون، ومن هنا جاءت التعبيرات الساخرة من عينة (داقق عصافير)، لإدانة سخف وغباء الشخص الذى أكلت العصافير دماغه.

إن الخوف من العين الحاسدة منتشر جداً فى كل الأوساط، وللحماية منها ينبغى تجنّب قول أن الطفل جميل، ويجب أن نعطيه عند مولده، هدية فى شكل حلية عبارة عن يد ذات خمسة أصابع، ادرء العين الشريرة، أو خرزة زرقاء، أو عين حورس [حارس] تعلق عند مدخل المنزل، لتحييد حسد عابرى السبيل. وفى أماكن إقامة المنشآت المعمارية الجديدة، جرت العادة على التضحية بخروف فى بداية العمل، ويجب أن يذبح الحيوان أمام جمهور من الناس، وعلى العمال تلطيخ أياديهم بالدم، ثم وضعها مفرودة بأصابعها الخمسة على أساسات البناء، ويعتقد الناس أن مصيبة يمكن أن تحل بالمقاول الذى يرفض هذا الطقس.

ولا تزال الزوجات الشابات فى الأرياف، يمارسن الوصفة القديمة الخاصة بمنع الحمل، وهى بلع نواة البلح، أو حبّة نبات الخروع، ومن المفترض أن كل نواة تبلع، تضمن عدم الإنجاب لمدة عام. ولكن العدو الأكبر لهؤلاء الشابات ليس هو كثرة

الإنجاب وإنما هو بلا أدنى شك العقم، ويعتقد أن دفن مشيمة طفل حديث الولادة، تحت عتبة باب المنزل، تضمن للمقيمة فى المنزل الحصول على طفل جديد فى غضون عام. ويقال أيضاً إن الخوف يمكن أن يجلب الخصوبة، وذلك لأنه ينشّط الدورة الدموية. فى صعيد مصر وحتى وقت قريب، كانت المرأة تذهب إلى شريط السكة الحديد، لتضع جسمها على القضبان، ولا تقوم من مكانها إلا والقطار على بعد لحظات منها.

وفى الصراع مع العقم، تعزى فضائل خاصة للآثار المصرية القديمة، فالدوران سبع مرات حول هرم خوفو بالجيزة، هى إحدى الطرق الكلاسيكية. وقد تدفع الفلاحة الفقيرة ثمن تذكرة دخول المتحف المصرى، فقط للمس التماثيل. عند اكتشاف سيرابيوم سقارة خلال السنوات ١٨٥٠/١٨٦٠، سجّل مارييت فى كراسته:

(اليوم فى حوالى منتصف النهار، وفى أثناء تناول العمّال لوجبة الغذاء، خرجت من خيمتى بشكل ارتجالى، فوجدت حوالى خمس عشرة امرأة من أعمار مختلفة، قادمات من القرى المجاورة، وهنّ يقفن بانتظام حول تمثال العجل أبيس، ثم رأيت واحدة منهنّ وقد صعدت فوق ظهر الحيوان، لتبق فى مكانها لحظات، كما لو كانت على ظهر حصان، ثم نزلت تاركة مكانها لواحدة أخرى، وهكذا حتى مررن جميعهنّ بنفس الفعل، كلٌ فى دورها).

فى نفس ذلك العصر كانت توجد نافورة مسحورة بالقرب من قلعة الجبل [صلاح الدين]، اشتهرت بأن ماءها يطفىء فى لحظة واحدة نار العواطف المشتعلة، وكان العشاق اليائسون من الجنسين يتردّدون على المكان، ولم تكن المسألة هنا تتعلق، إلا بوجود حجر فرعونى قديم، لونه أسود وعليه نقوش هيروغليفية محفورة، مع أشكال للإلهين أوزوريس وأنوبيس.

ثم تختلط الخرافات بالتقاليد الراسخة فى أحد الطقوس المنتشرة جداً وهو (السبوع) الذى يحتفل فيه بالطفل حديث الولادة، فى اليوم السابع من مولده. وهناك تقليد تمارسه بعض العائلات، ويتعلق بكتابة سبعة أسماء على سبع ورقات توضع تحت سبع شموع مضاءة، ويتخذ الطفل الاسم المكتوب على الورقة، الموضوعة تحت الشمعة التى تظل مشتعلة بعد انطفاء الأخريات.

١٣٥ - شجرة الجمّيز / Sycomore

تتميّز شجرة الجمّيز المصرية بخشب شديد الصلابة، وبقشرة جذع تميل إلى البياض، وبالتالى فهى ليست مثل تلك الموجودة عندنا فى أوروبا. تعطى هذه الشجرة المصرية ثماراً تشبه التين، ولكنها صغيرة الحجم جداً، بما يتناقض مع حجم الشجرة الهائل، ويسمّونها شجرة (تين الفرعون). أحبتها نوت إلهة السماء لأن أفرعها قوية، حتى إن هذه الشجرة تصبح أحد رموز الإلهة، مثلما نرى فى مقبرة تحوتمس الثالث بوادى الملوك، حيث تظهر الإلهة نوت فى شكل شجرة جمّيز لها ثديين ترضع بهما الفرعون المتوفى.

فى فن التصوير المصرى القديم كانت الجمّيزة هى الشجرة التى رسمت أكبر عدد من المرات، أكثر من كل ما عداها من شجر، ينبغى القول أنها تنبت فى كل مكان بمصر، حتى حواف الصحراء، إن اسمها (نهت) فى اللغة المصرية القديمة، أصبحت كلمة تعنى (شجرة تزرع لأول مرة)، وبالتالى كان هذا الاسم يعطى لكل الأشجار التى تزرع لأول مرة فى مصر القديمة، فشجرة التين مثلاً عندما زرعت لأول مرة فى مصر، سميت (نهت التين) بالمصرية القديمة، أى (جمّيزة التين) باللغة العربية، وشجرة البلسان مثلاً عندما زرعت فى مصر لأول مرة، وهى من فصيلة النباتات البخورية، سميت (نهت البخور) أو (جمّيزة البخور) وهكذا.

عند هروب العائلة المقدّسة إلى مصر، يُعتقد أنهم كانوا قد استراحوا قليلاً فى ظل شجرة جمّيز، تقع فى المنطقة المعروفة حاليًا باسم المطرية فى ضواحى القاهرة، وتسمّى الشجرة حاليًا شجرة العذراء، ويبلغ محيط جذعها أكثر من سبعة أمتار، وقد استمرّت خلال القرون الأخيرة تجذب المزيد من الحجاج القادمين من العالم أجمع، وكان أولئك الحجّاج فى الزمن القديم، يشترون من الرهبان قطعًا من لحاء الشجرة أو يحفرون أسماءهم على جذعها أو يعلقون شواهد تذكارية أو نذور على أفرعها. بشكل عام هناك اعتقاد بأن لشجرة الجمّيز قدرات غير محدودة، ومن العادات المتّبعة تعليق أشياء مختلفة على أفرعها، قطع قماش أو تمائم أو خصلات شعر، وقد يغرز البعض مسامير فى جذعها لحث القديسين على العمل.

حتى نهاية القرن التاسع عشر، كان الطريق عند الخروج من القاهرة وفى الاتجاه إلى شبرا، مشهوراً بأشجار الجمّيز العملاقة التى كانت تحف بالطريق على جانبيه، مما كان يجعل الطريق يبدو كما لو كان مغطى بقبة، بسبب أفرع الأشجار القادمة من جانبى الطريق، لتلتقى تقريبًا عند منتصف المسافة بين جانبى الطريق، وكان هذا المكان هو أفضل الأماكن للقاء الأحبة، عند غروب الشمس. وقد أوحت جمّيزة فرعون بالكثير إلى عدد من الشعراء، فبعد الحرب العالمية الثانية، كتب محمد ذو الفقار:

(الجمّيز شجرة عجوز/ مثل الحب ومثل الموت فكلاهما عجوز/ إنها الظل الذى يلجأ إليه الفقراء/ إنها القبة التى تحمى العبيد من الضرب بالعصىّ ومن الثيران/ تحميهم من البؤس ومن الألم/ إن أفرعك أيتها الشجرة الداكنة بلا زهور تنمو مثل الندم/ أنتِ شجرة ولا للمزيد!).

١٣٦ - السوريون / Syriens

كانت عائلتي تدخل في نطاق هذه الفئة من السوريين واللبنانيين الذين يجمع بينهم اسم واحد هو (الشوام)، وظل هذا الاسم لصيقًا بهم حتى بعد أن أصبحت مصر وطنهم منذ أجيال عديدة، حتى هم أنفسهم كانوا يستعملون نفس الاسم (الشوام) للتعريف بأنفسهم، كما لو أنه لم يكن مقدّرًا لهم أبدًا، أن يندمجوا تمامًا في المجتمع المصرى. ومع ذلك فإن الأقليات لا تلعب عادة دورًا بأهمية الدور الذى لعبه شوام مصر.

منذ بداية القرن الثامن عشر، جاء مسيحيون من حلب ودمشق وبيروت وجبل لبنان، ليشغلوا وظائف مهمة فى الجمارك المصرية، كانوا غالبًا من طائفة الروم الكاثوليك، ولكن كان من بينهم كذلك يوجد أفراد من الطائفتين الأخريين الروم الأرثوذكس والمارون. تجد الحملة الفرنسية من بينهم حلفاء على قدر من النشاط، وهم الذين سيُتَّهمون لاحقا بالتعاون مع الأعداء، وهكذا فإن أكثرهم ارتباطًا بالحملة سيرحلون مع الحملة بعد هزيمتها سنة ١٨٠١، ليستقرّوا فى مارسيليا. كان العضو الشرقى الوحيد فى المجمع العلمى المصرى الذى أسّسه بونابارت فى مصر، هو راهب من الروم الكاثوليك اسمه (الدوم رافاييل).

يعتمد الإنجليز بدورهم على الشوام عندما يحتلون مصر سنة ١٨٨٢، إذ إن الإدارة الجديدة فى احتياج إلى هؤلاء الوسطاء متعددى اللغات، الذين عملوا أيضًا مع الرحالة الغربيين، باعتبارهم مترجمين ومرشدين سياحيين. كان السوريون يميلون إلى فرنسا، التى كانت تعتبرهم فى حمايتها، وهكذا أصبحوا يمثلون الجزء الأكبر من تلاميذ المدارس الفرنسية فى مصر.

يمكننا أن نستدل بإحصاء واحد على حجم نفوذ السوريين الثقافى فى مصر، ففيما بين ١٨٧٣ و١٩٠٧ كانوا قد أسّسوا وحدهم ٩٧ جريدة ومجلة، أى حوالى ١٥٪

من حجم الصحافة التى ظهرت فى مصر فى نفس الفترة، رغم أنهم فى ذلك العام ١٩٠٧، لم تكن نسبتهم تتعدّى ٠,٣ ٪ من الحجم الكلى للسكان، إذ إن عددهم كان حوالى ٣٤ ألفًا، فى حين كان تعداد الشعب المصرى حوالى ١١ مليونًا. وردت هذه الأرقام فى كتاب مؤثر عن السوريين للمؤلف توماس فيليب بعنوان (السوريون فى مصر) وقد ظهر سنة ١٩٨٥ فى دار نشر فرانز شتاينر/ شتوتجارت/ ألمانيا.

يلعب الشوام دورًا محوريًا فى النهضة الثقافية فى مصر، فى نهاية القرن التاسع عشر، فنحن ندين لهم بتأسيس الجرائد اليومية الرئيسية باللغة العربية فى مصر، وهم كذلك متميّزون فى إنتاج العديد من المطبوعات باللغة الفرنسية.

كان چاك تاجر أحد أعمامى شابًا نابهًا ومؤرخًا أسّس سنة ١٩٤٨ سلسلة (كراسات التاريخ المصرى)، ثم مات فى زهرة العمر.

ومن بين أسماء الكُتّاب الفرنكوفونيين فإن أول اسم يخطر على ذهنى هو أندريه شديد، التى خصصت العديد من رواياتها وأشعارها لمصر، حيث عاشت حتى سن الثامنة عشرة، ثم ذهبت إلى باريس لتستقر فيها. فى روايتها (تمرّ الفصول مرورًا عابرًا)/ دار فلاماريون/ سنة ١٩٩٦، تشير بطريقة رائعة إلى هذه الثقافة المزدوجة، بين نهرى النيل والسين.

وفى أوائل القرن العشرين اعتبر السورى چورچ أبيض الرائد الأول للمسرح المحلى، فى حين حصل نجيب الريحانى على شعبية هائلة فى الكوميديا الشعبية، حتى وفاته سنة ١٩٤٩ . هناك أيضًا المخرجان هنرى بركات ويوسف شاهين، والممثل عمر الشريف.

قليلاً ما يتدخل السوريون فى الحياة السياسية المصرية، رغم أنه كان من بينهم العديد من الباشوات والوزراء فى عصر الملكية. لكن فى المقابل هم يتألقون فى الصناعة والتجارة. المحلات الكبرى صيدناوى هى أحد رموز هذا النجاح، وقصر

السكاكينى فى القاهرة. ووفقًا لكتاب توماس فيليب المشار إليه أعلاه، شغل الشوام مواقع مهمة، فى إدارة الشركات التى كانت ذات قيمة فى البورصة المصرية، بما يساوى عشرين ضعفًا لحجم المساهمة المصرية، واضعين فى الاعتبار نسبة عدد الشوام إلى العدد الكلى لسكان مصر.

كانت حركة التأميمات فى أوائل الستينيات، هى نهاية هذا العصر الذهبى، حين ترك مصر عدد كبير من الشوام، ذاهبين إلى لبنان وكندا وأوروبا، وأحيانًا إلى أمريكا ولكن أولئك الذين بقوا استمروا فى نشاطهم المعتاد. إن واحداً من أكبر إنجازات الشوام فى مصر، يعزى إلى الأب اليسوعى هنرى عيروط. كان أبوه مقاولاً ثريًا من طائفة الروم الكاثوليك، وقد ارتبط اسمه ببناء ضاحية هليوبوليس، أما هنرى اليسوعى فقد اهتم بمصير الفلاح المصرى، فخصّص له رسالته فى الدكتوراه، ثم أسّس سنة ١٩٤٠ (اتحاد المدارس المجانية لقرى صعيد مصر) الذى سيصبح لاحقًا (اتحاد الصعيد للتعليم والتنمية)، وينجح فى تقديم تعليم مجانى لعشرات الآلاف من أطفال الصعيد، ويساعد على تنمية وتحسين أوضاع الكثير من القرى.

انظر مقالات: جريدة الأهرام رقم (٣)/ الفرنكوفونية رقم (٥٦)/ عمر الشريف رقم (١٣٠).

١٣٧ - رفاعة رافع الطهطاوى / Tahtaoui (Rifaa al-)

فى يوم ١٥ مايو ١٨٢٦ يهبط شيخ معمّم ملتح فى الخامسة والعشرين من عمره ميناء مارسيليا، لقد جاء ليكون مصاحبًا لثلاثة وأربعين شابًا مصريًا حاصلين على منح دراسية فى فرنسا. يذهله كل شىء، أذرع النساء العارية، العربات التى تجرها الخيول، الوجبات التى لا تؤكل إلا بالشوكة، الحفلات الراقصة والمسارح، والأوراق التى يطبعونها كل يوم ويسمّونها صحفًا. إن رفاعة الطهطاوى المولود بطهطا فى صعيد

مصر، جاء إلى فرنسا بصفته إماماً ومرشداً لطلاب أول بعثة دراسية مصرية يرسلها محمد على.

كان أستاذه الشيخ حسن العطار، أحد أكثر شيوخ الأزهر استنارة، هو الذى اختاره للسفر، محفزا إيّاه على كتابة يوميات رحلته. وقد لفت هذا الإمام الصغير فوراً انتباه فرنسوا چومار، المدير التعليمى للبعثة، والذى كان سابقًا مهندساً وجغرافيًا ضمن علماء حملة بونابارت على مصر، فقرر أنه بدلا من حصر اهتمام الإمام الشاب فى دراسة واحدة، فإنه سيقدّم له تكويناً موسوعياً. كانت النتيجة أن انطلق رفاعة بكل طاقته، فى دراسة اللغة الفرنسية وفى التهام جبال الكتب، وبسرعة كان قد تفوّق على كل الطلاب الموكل إليه الإشراف عليهم.

يتردّد طهطاوى على كل المستشرقين الباريسيين، مثل سيلفستر دو ساسى الأستاذ بكلية فرنسا، فينبهر بمدى إتقان العالم الفرنسى للغة العربية، ويكتشف أن إتقانها لا يقتصر على المسلمين، ويكتشف أن المعارف لا تقتصر فقط على العلوم الدينية. يقول الدكتور أنور لوقا، كاتب سيرة الطهطاوى ومترجم أعماله من العربية إلى الفرنسية، أن الأزهرى بدأ يتعلم معنى النسبية.

مظاهر كثيرة فى المجتمع الفرنسى أثارت اهتمام الطهطاوى الشاب، لنبدأ مثلاً بظاهرة غياب الإحالة المرجعية إلى الكتب السماوية، وهو ما شعر نحوه رفاعة بالاحتقار، وسيظل متمسكاً بإسلامه حتى أطراف أصابعه. لكن الحرية والديمقراطية تؤثران فيه، ألم يترك الملك شارل العاشر مكانه للملك لويس فيليب فى ثلاثة أيام فقط؟ تغيرت نظرة الإمام الشاب إلى العالم، فإن ذلك الشخص الذى يعود إلى مصر بعد غياب دام خمس سنوات، ليس هو نفس ذلك الشاب المسلم، وإنما هو المواطن المصرى الشاعر بوطنيته والمدرك لعظمة بلاده. سيكون رفاعة أول عربى يقدر على التمييز بين مصطلحى الوطن (مصر) والأمّة (الجماعة الإسلامية).

فى تلك الفترة كان تاريخ فراعنة مصر ينال كل التقدير فى فرنسا، وهو نفس الوقت الذى كان شامبوليون قد تمكن فيه من فكّ شفرة الكتابة الهيروغليفية، ومن إرساء قواعد علم المصريّات. يقول أنور لوقا (إن إحياء مصر القديمة، يمثل نمواً تلقائيًا فى شخصية رفاعة الثقافية، فعندما يدرك كم كان غموض المجتمعات الإسلامية فى العصور الوسطى محيّراً، ويدرك فى نفس الوقت أن أصوله فرعونية، يشعر بأنه كان دائمًا الفاعل والمفعول به وكذلك الشخص الموجّهة إليه الرسالة).

ستطبع رحلة الطهطاوى إلى باريس بالعربية تحت عنوان (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز)، ومعنى العنوان هو (الذهب الذى عثر عليه فى باريس بعد تصفيته وتنقيته)، كتب المقدّمة الشيخ العطار، وترجم الكتاب سريعًا إلى التركية، وقام محمد على بتوزيعه مجانًا على كل موظفى الحكومة وتلاميذ المدارس. إنه النص الأول فى هذا النوع الأدبى الذى يتاح فى مصر، وبه الكثير مما يدعو إلى اندهاش القرّاء.

ففيه كل أشكال العجائب والطرائف، وتأملات جديدة فى فكرة الحضارة والديمقراطية، وطريقة مبتكرة فى استعمال اللغة. يقول رفاعة فى كتابه (فى الفرنسية، يركز من يعرض لمسألة حسابية على استعمال الأرقام، إذ إنه هنا ليس فى حاجة إلى الكلمات أو إلى تفسير معانى الكلمات، أو إلى تحليل تركيب الجمل، وفك ألغاز الأشكال البلاغية، كما يحدث فى اللغة العربية).

يفتتح رفاعة مدرسة الألسن فى القاهرة، حيث يتولى رعاية العديد من الطلاب، ثم توكل إليه مهمة إدارة الجريدة الرسمية، التى أصبحت تحرر بالعربية، بعد أن كانت لا تحرر إلا بالتركية، فيبتكر رفاعة كلمات جديدة يستوحيها من اللغة الفرنسية ليشير إلى حقائق جديدة، ويحفّز غيره من المفكّرين على سلوك نفس الطريق، فى أفرعهم العلمية المختلفة.

نحن ندين له ضمن أشياء أخرى، بأول مذكرة للدفاع عن التراث القومى المصرى، قدّمها سنة ١٨٣٥ إلى محمد على، قال فيها (على كل شخص يكتشف قطعة أثرية مصرية قديمة، أن يأتى بها إلى فناء مدرسة الألسن ويتركها هناك). لن يلتفت أحد إلى هذا النداء فى ذلك الوقت، ولكن هذه الفكرة هى الجنين الذى سيتمخّض لاحقا عن أول متحف للآثار المصرية. [بجهد مارييت سنة ١٨٥٨].

يحارب رفاعة طوال حياته من أجل هدفين، هما تحسين التعليم العام، وتطوير وضع المرأة، فتواجهه معارضة قوية تصل إلى حد نفيه إلى السودان [بعد موت محمد على]. يموت رفاعة سنة ١٨٧٣ فى الوقت الذى كان فيه على مبارك قد أصبح وزيراً للتعليم، وهو كذلك عضو سابق من أعضاء بعثة دراسية أخرى إلى فرنسا، وقد اهتم بمواصلة العمل على تحقيق الهدفين اللذين انشغل بهما رفاعة. حقًا إن البذور التى بذرها طفل طهطا فى أرض مصر، لن تتوقف أبداً عن النمو والإثمار.

انظر مقال: الفرنكوفونية رقم (٥٦).

١٣٨ – الطربوش / Tarbouche

تعلم المصريون مثل الأوروبيين أن يعيشوا برؤوس عارية، وهكذا اختفى الطربوش فى أوائل خمسينيات القرن العشرين، تقريباً فى نفس توقيت اختفاء القبعة فى أوروبا، ولكن لا يمكن مقارنة قبعات أوروبا، سواء أكانت من القش الأصفر أو من القش الملوّن أو من القماش، بالوضع الذى كان للطربوش فى مصر كغطاء رأس قومى لمدة لا تقل عن قرن من الزمان.

كان الطربوش يصنع من اللباد الأحمر، ثم يزوّد بعُرْف من الخيوط السوداء. فى الواقع كان يشبه قصرية زرع مقلوبة على الرأس، وبدون أى شك لم يكن هذا الطربوش مناسباً للبيئة المصرية، فهو يحرم فروة الرأس من التنفس فتذرف عرقًا غزيراً، ولكن

إحساس الفخر والكرامة بوضعه على الرأس كان أقوى، فوضعه الرجال من كل الفئات على رؤوسهم. كان إبراهيم باشا الابن الأكبر لمحمد على هو الذى أدخل الطربوش إلى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر، ليحل محل العمامة القماشية ثقيلة الوزن، التى كانت تعوق الحركة.

وحيث إن الطربوش كان قد اعتبر علامة على التحضّر والتمدّن، فقد حاربه علماء الأزهر وقت وصوله إلى مصر، ولكن حدث بسرعة تحوّل فى الرأى، بعد أن وجد له المختصّون تشريعًا مناسبًا من الناحية الدينية، وهو أن المسلم يمكنه أن يصلى محتفظًا بالطربوش فوق رأسه، لأن وجود الطربوش لن يمنع المصلى من لمس الأرض بجبهته عند السجود، أما ارتداء القبعة الأوروبية فيتعارض مع فعل السجود.

فى البداية كان الطربوش صغير الحجم، إلا أنه سيصل إلى أقصى حجم له فى أوائل الاحتلال الإنجليزى حوالى سنة ١٨٩٠ وقد تعوّد المصريون كيّه بانتظام، على قوالب من النحاس أو الفضة، ليحتفظ بقوامه. كما أن استعمال قالب من القش كان يزيد الطربوش متانة. حتى بداية الحرب العالمية الأولى، كان صنّاع الطرابيش النمساويون هم المسيطرون على السوق المصرى، وهم منتجو أجود الأصناف.

كان كل الرجال يضعون الطرابيش على رؤوسهم، فى كل الوظائف العامة، وفى القضاء والشرطة والجيش، من أكثر الموظفين تواضعًا إلى الملك نفسه، لدرجة أن الموظفين والضباط البريطانيين كانوا هم أيضًا يستعملونه ليتقربوا إلى المصريين، أو ليتمصّروا ويتأقلموا مع الشكل العام. أما المصريون الراغبون فى التفرنج، فيمكنهم أن يرتدوا البذلة كاملة، بشرط أن تكون رؤوسهم مغطاة بالطربوش، رمز الوطنية. وهكذا أمكن اعتبار الطربوش عنصرًا من عناصر التوحيد والمساواة بين أفراد الشعب المصرى، فى هذا البلد الذى تزيد فيه الفوارق الطبقية، وتعيش فيه الجنسيات المختلفة.

جاء قرار إلغائه سنة ١٩٥٢ مفاجئًا. كان الضباط الأحرار - الحكام الجدد - قد اتخذوا هذا القرار، على اعتبار أنه أحد رموز العهد البائد، التى يجب أن تختفى وألا يحل محلها شىء آخر. ظل بعض الرجال الشيوخ يستعملونه بعد ذلك، ولكن لم يعد أحد يصنعه فى مصر، إلا من أجل خدم الفنادق الكبرى، ومن أجل السياح الذين يحبون التقاليد الفولكلورية.

١٣٩ - توشكا / Tochka

إن لكل فرعون أهرامه، فكما أن لعبد الناصر السد العالى فى أسوان، فإن لمبارك مشروع توشكا يغيِّر به خريطة مصر. لا تتعلق المسألة هذه المرة باحتجاز مياه النيل، ولكن بتحويل جزء منها إلى الصحراء الغربية لكى تتحول بضعة مئات الآلاف من الهكتارات(*) من الأرض الصحراوية القاحلة إلى أرض صالحة للزراعة. حقًا إن المشروعين يرتبط أحدهما بالآخر، فنحن سنأخذ الماء من بحيرة ناصر لنروى به الأرض فى الوادى الجديد، بفضل محطة ضخ عملاقة، أقيمت فى منخفض توشكا إلى الشمال الغربى من أبى سمبل، تقوم بضخ الماء فى قناة مائية متعدِّدة الأفرع حفرت على مراحل، يمكنها أن تصل خلال عشرين عامًا إلى واحة الفرافرة.

لقد تغير السياق، فإذا كان السد العالى رمز الاشتراكية القومية الناصرية، لتعبئة القوى ضد الإمبريالية العالمية، فإن توشكا تعتمد على استثمارات القطاع الخاص، وهكذا تحمل القناة المائية، قناة وادى النيل الثانى كما يقولون بقدر من الفخر والخيلاء، اسم الشيخ زايد رئيس دولة الإمارات العربية [سنة ٢٠٠١]، والمساهم الرئيسى فى المشروع، ولهذا أيضًا فإن الأمير السعودى الوليد بن طلال، هو المقدَّر له أن يستصلح هذه الصحراء القاحلة، فى مساحة ١٨١ ألف هكتار [٤٠٠ألف فدان]، وهو ما يعتبر حاليًا أكبر مشروع عالمى فى مجال استصلاح الأرض الصحراوية.

لكن توشكا لا تحظى بموافقة الجميع، فهناك الخوف من الدخول فى صراعات حول ماء النيل، مع دول المنبع مثل إثيوبيا أو مع السودان، ثم هناك نقد لاذع للتكلفة الإجمالية للبنية التحتية، التى تكلفتها الحكومة المصرية. إن محطة الضخ وحدها تكلفت مليار ونصف المليار من الدولارات. يتساءل البعض كذلك عن إمكانية تأثر زراعات القصب فى الصعيد والأرز فى الدلتا، بكميات الماء المسحوبة من النيل لصالح مشروع توشكا.

أما فيما يتعلق بإمكانية تسكين ثلاثة ملايين مواطن مصرى فى هذا الوادى الجديد، فإنها تثير قدراً كبيراً من التشكك والريبة، فكم مزارع يقبل أن ينفى فى مكان بهذا البعد، وعلى هذه الدرجة من ارتفاع الحرارة؟ حتى الأرض هم لا يمتلكونها، وبالتالى فهم لا يستطيعون أن يرتبطوا بها. ثم إن الاستثمارات التى تستعمل التكنولوجيا الحديثة لا تستخدم إلا عدداً قليلاً من المزارعين. خلاصة القول هو أن هذا الوادى الثانى هو التحدّى الحقيقى، التحدّى الأعظم بقدر عظمة الصحراء.

انظر مقالات: الصحراء رقم (٣٤)/ النيل رقم (١٠٠).

١٤٠ - السيّاح / Touristes

ليس هناك ما لا يطيقه السياح إلا السياح الآخرين، إذ إن عشاق مصر ليس لديهم إلا سبباً واحداً للخوف، وهو أن يجدوا أنفسهم وسط الحشود عند مدخل أحد المعابد، أو داخل إحدى مقابر وادى الملوك. منذ مائة عام هاجم بيار لوتى بشدّة وكالة كوك للسفريات، منتقداً بشدة ثكناتها العسكرية العائمة التى تقتحم بغلظة مناظر الطبيعة الشاعرية الريفية فى مصر، كتب:

(تسمع فجأة ضوضاء محرّك كهربائى وصفارات تنبيه، وتنطلق سحب الدخان الأسود الحلزونية لتلوّث الهواء الذى كان حتى تلك اللحظة نقيًا، ها هى ذى المراكب

البخارية الحديثة، التى ما جاءت إلى مصر إلا لتشيع الفوضى بين فلائك الماضى، فتهزّها هزاً عنيفاً، بسبب موجات الماء المتولدة من مرور البخاريات، فعندما تقترب تلك الكربونيات نافثات الفحم ثلاثية الطوابق المخصصة للسياح، تُصدر ضوضاء مهولة وهى تمخر عباب الماء، وقد ازدحم سطحها العلوى بقبيحات المنظر والمتعجرفين والأغبياء).

طبعًا كل شىء نسبى، فإن إجمالى العدد السنوى لسياح مصر فى ذلك الوقت، لم يكن بأى حال يتعدّى الخمسة آلاف، أما اليوم فإن العدد هو خمسة ملايين سائح، أى ألف مرة أكثر مما كان عليه الحال منذ قرن من الزمان. يأتى ثلثا سياح مصر من أوروبا الغربية، وهناك أيضاً مجموعات يابانية، أو سياح من دولة الإمارات العربية، أو حتى من إسرائيل إذا سمحت الظروف. أما فيما يتعلق بالمصريين، فإنهم يتنقلون بين ربوع بلدهم مستفيدين من التسعيرة المخفضة خصيصاً لهم، فى الطائرات والفنادق والمتاحف.

هل العدد الحالى للسياح فوق طاقة مصر؟ فى الواقع هناك دول أصغر من مصر، ولكنها تسبق مصر فى عدد السياح، مثل تركيا وتونس، فمصر بمساحتها الجغرافية وثروتها الطبيعية والأثرية، يمكن أن تستقبل عدداً أكبر من السياح من العدد الحالى، خصوصًا بعد أن طوّرت كثيراً سياحة الشواطىء بامتداد سواحل البحر الأحمر، وتستمر فى البحث عن كيفية جذب فئات أخرى منهم، بتنمية مراكز العلاج بالماء (تالاسوثيرابى) وموانىء اليخوت وملاعب الجولف.

إن المشكلة هى أن السياح يتركزّون فى نفس الأماكن، فمثلاً كون مصر الوسطى مغلقة أمام الأجانب لأسباب أمنية، لا يساعد على تحسين الأوضاع، ثم إن آثاراً رائعة مثل معابد أبيدوس ودندرة، تخرج من برامج الرحلات المنظمة، وهكذا يتراكم السياح فى أماكن أخرى تعانى من زيادة عدد مرتاديها.

أصبحت السياحة إحدى دعائم الاقتصاد المصرى، فهى تمثل المصدر الأول للعملات الصعبة، أربعة مليارات من الدولارات لسنة ٢٠٠٤، وهى بالتالى أكثر أهمية من تحويلات المصريين العاملين بالخارج، ومن دخل عوائد التصدير وقناة السويس ويعتمد ملايين المصريين على دخلهم من العمل السياحى، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ويمكن لعملية اغتيال واحدة أن تؤثر على صناعة السياحة فى بلد بأكمله، وقد عاشت مصر هذه التجربة المؤلمة، بعد مذبحة الأقصر فى نوفمبر ١٩٩٧ التى أبعدت السياح عن وادى النيل لفترة من الزمن، وأدت إلى كارثة البطالة.

وبسبب تلك الحادثة، فكّر المواطن المصرى مصطفى الجندى، وهو رئيس جمعية أصحاب الفنادق فى الأقصر وأسوان، فى فكرة الربط المباشر بين الدخل السياحى والتنمية الريفية. كان زملاؤه فى تلك الظروف الكارثية مستعدّين لكل التضحيات، ولكل المشروعات الجريئة، فى سبيل استعادة العملاء الأجانب. كانت فكرته هى التبرّع بمبلغ رمزى من مكاسبهم، دولاراً واحداً عن كل نزيل فندق فى كل ليلة إقامة، وتكوين صندوق توضع فيه هذه المبالغ التى تستثمر فى التنمية الريفية.

هكذا يمكن للسياحة أن تصبح ليس فقط المصدر الأول للعملات الصعبة، بل تصبح كذلك طريقة لتحسين الأوضاع الحياتية للشعب المصرى، بطريقة ملموسة يشعر بفائدتها كل سكان مصر من البسطاء والفقراء، وبالتالى يحافظون عليها. إن المسألة ليست تبرّعات دولية أو أعمال خيرية دولية، وذلك لأن السائح يدفع المبلغ مقابل خدمة يحصل عليها، الجديد فى الفكرة هو فى استثمار جزء من الأموال فى التنمية الريفية.

تمّ فى باريس إنشاء مؤسسة باسم (السياحة للتنمية)، لتنظيم عملية تطبيق الفكرة، ومحاولة تطبيقها فى بلاد أخرى. كان من المنطق أن يبدأ التطبيق فى مصر، لأن أصحاب الفكرة مصريون. لكن وكالمعتاد (للأسف) اصطدم التطبيق بالكثير من

العقبات فى مصر، وبالكثير من المصالح الشخصية المتضاربة، وأثير العديد من الشكوك والشبهات والمعارضات. على الأقل أمكن تطبيق الفكرة فى بلاد أخرى، مما يسمح ربما بسياحة من نوع جديد، أما فى مصر فلم تنجح الفكرة أبداً، وأعيدت الأموال التى كانت قد تجمّعت فى الصندوق إلى أصحاب الفنادق فى الأقصر وأسوان.

١٤١ - توت عنخ آمون / Toutankhamon

ظل الأثرى الإنجليزى هوارد كارتر (١٨٧٤/١٩٣٩) لمدة خمسة عشر عاماً، يحفر بدون كلل أو ملل فى وادى الملوك بالبر الغربى فى الأقصر، بحثاً عن مقابر فرعونية. فى البداية كان يبحث بصفته مفتشاً فى مصلحة الآثار المصرية، ثم بعد ذلك لحسابه الخاص، أو بشكل أكثر دقة لحساب مواطنه وراعيه اللورد كارنافون، وهو جامع تحف ثرىّ، مولع بالسيارات وبخيول السباق، بالإضافة إلى ولعه بمصر القديمة.

كان كارتر قد اكتشف سابقاً عدة مقابر أقل أهمية، إلا أن طول المدة التى قضاها فى البحث دون نتيجة جعل كارنافون يقول له (أنت لن تعثر بعد ذلك أبداً على أى شىء له قيمة). إلا أن كارتر كان عنيداً، وعندما عثر على بعض الأشياء المحطمة التى تحمل اسم الفرعون توت عنخ آمون (أسرة ١٨)، مثل كوب من الخزف الملوّن وعلبة خشبية وأوان فخارية، تعلق بالأمل الذى تولد لديه.

وفجأة فى يوم ٤ نوفمبر ١٩٢٢ حدثت المعجزة، إذ يكشف عمّاله ١٦ درجة سلم منحوتة فى صخور الوادى، وتؤدى إلى حائط خلفه مقبرة. يوقف كارتر الحفر، ويرسل برقية تلغرافية إلى راعيه، الذى يأتى جريا من إنجلترا. وفى يوم ٢٦ نوفمبر، وبعد المرور بدهليز طوله سبعة أمتار ويغطيه الرديم، يقتحم كارتر مقبرة توت عنخ آمون، يتبعه اللورد. كتب:

(فى البداية لم أتمكن من رؤية أى شىء، لأن الهواء الساخن الخارج من حجرة الدفن جعل لهب الشمعة يتراقص، ثم بمجرّد أن أصبحت عيناى قادرتين على التأقلم مع ظلام المكان، بدأت الأشكال تتراءى أمامى راسمة نفسها ببطء، فى شكل حيوانات غريبة وتماثيل، وكلها تبرق بالذهب، وخلال تلك الثوانى القليلة التى بدت لزملائى طويلة كما لو كانت بلا نهاية، لم أنبس بحرف واحد من شدّة المفاجأة، وعندما تساءل اللورد: هل ترى شيئًا؟ قلت: نعم لا أرى إلا عجائب. وشعرت باضطراب لا مثيل له، فحتى أكثر أحلامنا إفراطًا فى الأمل والخيال لم تكن تصل إلى هذا. قاعة كاملة ممتلئة عن آخرها بأشياء، كان بعضها مألوفًا لدينا، وبعضها الآخر غير معروف على الإطلاق، تتراكم بعضها فوق بعض بأعداد لا حصر لها).

كانت التماثيل لحيوانات منها أنوبيس برأس كلب، جسمه مغطى برداء من الكتان، هذا الأنوبيس يلقى نظرة على إنسان، لأول مرة منذ ٣٥٠٠ عام، ويبدو أنه كان جالسًا هنا لحراسة ما هو موجود فى الحجرة خلفه. استغرق إفراغ مغارة على بابا تلك من كنوزها ثلاث سنوات، ولا شك فى أن زوارا آخرين كانوا قد وضعوا أقدامهم داخلها، غالبًا فى الأزمان القديمة، هل كانوا لصوصًا يبحثون عن الذهب ثم قُبِض عليهم؟ هل جاءت السلطات القديمة لتعيد المسروقات إلى المقبرة، فكوّمتها كيفما اتفق، وسدّت فتحات المقبرة؟.

أعدّ كارتر مع فريق عمله قوائم دقيقة بكل تفاصيل أماكن وجود كل القطع داخل المقبرة، ثم جاءت العملية الصعبة وهى نقل هذه القطع واحدة واحدة بدون إتلافها، فبعض القطع كان متشققًا وبعضها الآخر كان لا يتحمّل حتى مجرّد اللمس، بعض الأنسجة مثلاً تحولت إلى تراب بمجرد لمسها. كان من الضرورى إذن علاج بعض هذه القطع الأكثر هشاشة، قبل تحريكها من مكانها الموجودة فيه داخل المقبرة. لم تكن هذه المسألة سهلة على الإطلاق. لذلك قرروا تصوير كل قطعة فوتوغرافيا ووصفها بدقة قبل تحريكها، ثم ترقيمها ولفّها وتعبئتها بحرص بالغ.

بعد الاكتشاف بخمسة أشهر قرصت بعوضة اللورد كارنافون فى وادى الملوك، فتلوّث الجرح ونقل المصاب بصورة عاجلة إلى مستشفى بالقاهرة، حيث مات فى وقت قصير، وهو ما اعتبره البعض دليلاً على صدق أسطورة (لعنة الفراعنة)، التى بدأت قبل ذلك بحادث موت عصفور كارتر الكنارى الأصفر! ولم يمنع اختفاء الراعى أن يستأنف كارتر عمله.

إن الحجرة الأمامية للمقبرة تقود إلى حجرة خلفية، ينبغى تفريغها هى أيضًا من محتوياتها. يوم ١٧ أكتوبر ١٩٢٥ دخل كارتر أخيرًا إلى حجرة الكنز، حيث ألجمته من جديد مشاعر الانبهار التام. إن جسم الفرعون موجود داخل ثلاثة توابيت أحدها داخل الآخر، الكبير الحجم بداخله المتوسط، والمتوسط بداخله الصغير. كان التابوت الصغير من الذهب الخالص، وكذلك كان القناع الرائع الذى يمثل وجه الفرعون ويغطيه.

لأول مرة نحصل على مقبرة ملكية لفرعون من الدولة الحديثة، كاملة المحتويات مع كل ما كان الملك المتوفى يأخذه معه فى العالم الآخر. لفت هذا الاكتشاف انتباه واهتمام العالم كله، وأعاد جنون مصر القديمة إلى سابق عهده، ولكن فى أشكال جديدة غير متوقعة. فى باريس مثلاً يقدّم كارتييه صانع المجوهرات، أدوات تجميل للنساء مستوحاة من مجموعة توت عنخ آمون، من الذهب المرصّع بالأحجار الكريمة، فى حين ابتكر مصممو الأزياء خطوطًا مستوحاة من الملابس المصرية، وأطلق أصحاب وكالات الرحلات البحرية على سفنهم الجديدة ذات الديكورات الفرعونية، أسماء لعلماء المصريات مثل الشامبوليون والمارييت باشا، ويصبح علم المصريات علمًا شعبيًا.

يتسبب كنز توت عنخ آمون فى جدل شديد، بل فى قضية ترفعها هيئة الآثار المصرية على هوارد كارتر، فهى لا تريد أن تتنازل له أو لورثة اللورد كارانافون عن قطعة واحدة، وبالتالى فإن كل قطع المجموعة الجنائزية لتوت عنخ آمون، وعددها ٢٠٩٩

قطعة، نقلت إلى متحف القاهرة، ولم يحصل ورثة اللورد إلا على حقوق النشر العلمى للاكتشاف. ولا زالت المجموعة بأكملها موجودة فى المتحف المصرى بالقاهرة، القناع الجنائزى/ النعوش الضخمة الأربعة/ العجلات الحربية/ الأسِرَّة الملكية الثلاثة/ الكراسى/ الصناديق/ الأوانى/ الدروع/ التمائم/ الحلىّ، إن هذه المجموعة الكنز تستحق متحفًا خاصًا بها وحدها.

لكن يظل توت عنخ آمون لغزًا غامضًا، فرغم أننا نعرف أنه اعتلى عرش مصر سنة ١٣٥٤ ق.م، وهو فى سن العاشرة، خلفًا لأخناتون صاحب البدع الدينية (والهرطقات)، فإننا لا نعرف ما الذى حدث بالضبط حتى يهجر عاصمة سلفه فى العمارنة، ويعود إلى العاصمة القديمة فى طيبة، وتعود إلى منف أهميتها كعاصمة دينية، ويعود الكهنوت بكل طوائفه إلى سابق مجده، ويعود اللاهوت التقليدى القديم، وتعود عبادة آلهة متعدّدين.

مدة حكم عشر سنوات تنتهى بموت مبكر للفرعون! ويأتى من بعده خليفته (حور إم حب) الذى يعمل على محو كل أثر للملك السابق، ويعزى إلى نفسه عودة الأمور إلى سابق عهدها. كان حور إم حب من أصول بسيطة، ولكنه تميّز بقدرة كبيرة على العمل. نتساءل إن كان قد تخلص من توت بالاغتيال؟ هناك كسر صغير فى جمجمة توت جعل المتخصصين يعتقدون فى هذه المسألة. ثم مسألة صلته بإخناتون هى الأخرى تثير الكثير من الأسئلة، هل كان ابنا له كما اعتقدنا لفترة طويلة؟ هل كان أخًا له؟

إننا قد نعرف الحقيقة بواسطة فحص جينات الخلايا، وقد اقترح اليابانيون القيام به، ولكنهم قوبلوا بالرفض من طرف السلطات المصرية لأسباب غامضة. أمن قومى؟ قد تغيّر السلطات المصرية رأيها يومًا ما، فإن اللغز مستمر ولن يتوقف عن إثارة المزيد من الجدل.

كيف يمكن إزالة الاحتقان عن القاهرة؟ كيف يمكن منع تآكل الأرض الزراعية بسبب نمو الأحياء العشوائية على أطراف المدن؟ كيف يمكن إعادة استيعاب سكان المناطق غير الصالحة للسكن؟ الإجابة التى تقدّمها الإدارة المصرية هى بناء مدن جديدة فى الصحراء. لقد بدأت المشروعات الطموحة سنة ١٩٧٤، والآن سنة ٢٠٠١ هناك حوالى ٢٠ مدينة خرجت إلى النور وسط الصحراء، وهناك مشروعات لعدد ٤٠ مدينة أخرى حتى سنة ٢٠١٧ .

من وجهة نظر الإنتاج الصناعى، يمكن القول إن هذه المدن قد حققت نجاحًا ملحوظًا، وذلك لأنه يوجد بها فعلاً حوالى ٢٠٠ مصنع فى الوقت الحالى فى قلب الصحراء، تنتج حوالى نصف صادرات البلاد. لكن فيما يتعلق بالناحية السكانية، فليس هناك ما يدعو إلى التفاخر، إذ إن أغلبية المساكن ما زالت خالية من السكان بشكل يدعو إلى اليأس، فبدلاً من السكن فى مساكن المدن الجديدة، يفضّل العمّال فى المصانع قطع عشرات الكيلومترات على الطرق ذهابًا وإيابًا كل يوم، بين مساكنهم القديمة وأماكن عملهم الجديدة.

ومن غير المقبول أن يقال إن هذه الظاهرة هى بسبب عدم رغبة المصريين فى التغيير، فإن هذا الحُكم متعجّل، فقبل ذلك ينبغى أن نوجّه إلى رجال الإدارة الاتهام بعدم التنسيق بين مخططى المدن، وبغياب التعاون بين الوزارات المختلفة. كانت المدن تبدأ ببناء المساكن ثم يأتى بعد ذلك البحث عن المستثمرين الصناعيين، والمفروض أن يحدث العكس، ثم إن أولئك الذين قبلوا السكن فى المدن الجديدة يشتكون من انعدام الخدمات فى وسائل النقل العام وفى الخدمات اليومية الحياتية، وأحيانًا حتى يشتكون من نقص فرص العمل المناسبة لإمكانياتهم الفنية.

ورغم أن تلك المساكن تتمتع بالهدوء وبنقاء الهواء لو قارناها بالمدن القديمة، إلا أنها تشبه المكعّبات الإسمنتية، الواقفة صفوفًا فى وسط الصحراء، وغير المتكيّفة مع المناخ الحار، وليس بها كذلك ما للمدن القديمة من طابع دافىء حميم. إن أول مدينتين جديدتين وهما مدينتا السادات والعاشر من رمضان، كانتا قد زرعتا فى قلب الصحراء بعيداً عن القاهرة إلى حد ما، مما أدّى إلى فشلهما فى اجتذاب السكان، وبالتالى فقد غيّرت السلطات العامة سياساتها، فمدينة ٦ أكتوبر تقع على بعد أقل من ٤٠ كيلومتراً فقط من مركز القاهرة.

وقد انطلقت مدينة ٦ أكتوبر عمرانيًا، منذ أن بنيت فيها الشقق ذات المستوى الاقتصادى المرتفع والنوادى التى بها ملاعب للجولف، مع بناء المجموعات السكنية التى تحمل أسماء غير متوقعة مثل بيفرلى هيلز أو دريم بارك، لكن المخاطرة الوحيدة هى أن تصبح ٦ أكتوبر مجرد امتداد للقاهرة. إن تحديد المسافة المناسبة للابتعاد أو للاقتراب من القاهرة مسألة صعبة جداً، بالإضافة إلى أن هناك الكثير من العمل المطلوب، حتى تتحوّل الصحراء إلى منطقة جذب لسكان الوادى. إلا أن اللعبة ليست خاسرة تماما، إذا تذكرنا فقط كيف أن فكرة إنشاء ضاحية هليوبوليس فى بداية القرن العشرين كانت قد بدت فكرة مجنونة.

انظر مقال هليوبوليس رقم (٦١).

١٤٣ - الحجاب / Voile

لقد دخلت مصر الألفية الثالثة وهى محجّبة. حقًا إن الحجاب الإسلامى ليس إلا قطعة من القماش ذات النسيج الخفيف، وهو لا يغطى إلا شعر الرأس، بعكس الملاءة الريفية السوداء الطويلة، أو النقاب القديم الذى كان يغطى الوجه، لكن مع ذلك ... سنة ١٩٢٧ عند عودة هدى شعراوى من المؤتمر النسائى الدولى المنعقد فى روما، نزلت من

القطار فى محطة القاهرة مرتدية السواد، وفجأة رفعت الحجاب وألقته على الأرض. كانت تلك هى أول مرة ترى فيها مصر الحديثة امرأة غير محجّبة.

كان هذا الفعل على درجة كبيرة من الشجاعة، كما حكت فيما بعد سيزا نبراوى، وهى زميلة هدى شعراوى، قالت (كان يمكن للمتطرفين أن يرجموها، ولكن أحداً لم يعترض، فبعد أن خلعت الحجاب اخترقت جمع المتظاهرين بخطوة هادئة، وقد سالت دموع الانفعال على وجهها الشاحب الجميل. فى اليوم التالى ذهب إليها بعض العلماء يرجونها أن تعيد الحجاب، فردت عليهم بأن ضميرها يمنعها من ذلك).

عمل مأثور آخر حدث عند زيارة ثريا ملكة أفغانستان للقاهرة، والنص من جديد لسيزا نبراوى (كان الملك فؤاد يخشى أن تكشف الملكة نازلى وجهها، فأرسل إليها قماشًا من الموسلين السميك وقد علق عليه قطعة من الحلىّ، فغادرت الملكة القصر متدثّرة بالقماش، وكنا نحن عضوات الاتحاد النسائى، قد سبقناها إلى محطة قطارات القاهرة لنكون فى استقبالها، وكنا محجبات بأمر من جلالة الملك، ولكن فى لحظة خروج الملك من سيارته، نزعنا كلنا بحركة واحدة أحجبتنا عن وجوهنا، وحتى يسامحنا على هذا التمرّد قذفناه بالزهور).

سنة ١٩٢٨ يقام فى القاهرة للمثال الشهير محمود مختار تمثال (نهضة مصر)، وهو يصوّر امرأة تقف خلف أبى الهول، وقد رفعت الحجاب عن وجهها بشكل رمزى. ازداد بالتدريج عدد النساء المصريات رافعات الحجاب، وقد اعتبر هذا الفعل رمزاً لتحرير المرأة، ولن نرى الملاءة السوداء بعد ذلك إلا فى الأرياف أو فى الأوساط الشعبية.

إلا أنه منذ نهاية السبعينيات حدثت ردّة إلى الخلف، وتراجع فى موقف المرأة، مع ظهور الحجاب الإسلامى القادم من إيران، الذى ترتديه بالتدريج النساء من كل الأعمار، بضغط من الذكور، الذين يعتبره بعضهم وفقًا لتفسير النصوص القرآنية

والأحاديث النبوية، تطبيقا لوصية دينية إلى المرأة بتغطية شعر الرأس، بما فى ذلك الكتفين والذراعين، حتى تتجنّب إثارة غرائز الرجل.

أما البعض الآخر فيرى أن للحجاب مزايا عملية عديدة، منها أنه يمنع الأتربة من الوصول إلى شعر الرأس، ومنها توفير النقود التى تدفع فى صالونات الحلاقة، ومنها عدم التعرّض للمرأة بسوء فى الشارع، ومنها القدرة على الخروج مع زوجها إلى الأماكن العامة. وهكذا يرى هذا البعض أنه بدلا من القول بأن الحجاب يعوق حركة النساء، فالحقيقة هى العكس فهو يسهل حركتهنّ. إن التقليد أو الخوف من السمعة السيئة أدّيا إلى انتشار الحجاب الإيرانى فى أوساط عديدة، حتى إن بعض النساء القبطيات بدأن فى ارتدائه.

ومع ذلك فهناك حالة من التعايش السلمى بين المحجبات وغير المحجبات، فليس من غير المعتاد رؤية فتاتين تسيران معًا فى الشارع وأذرعهما متشابكة، إحداهما محجبة والأخرى غير محجبة. وقد نجح المخرج السينمائى يسرى نصر الله فى التعبير عن هذه المشكلة من كل جوانبها، فى فيلمه الرائع نصف التسجيلى نصف الروائى (صبيان وبنات) سنة ١٩٩٥، وقد ترجم الاسم فى الفرنسية إلى (فيما يتعلق بالصبيان والبنات والحجاب).

فإذا كانت هناك سيدات من قيادات المجتمع قد استطعن أن يقاومن الحجاب، مثل السيدة سوزان مبارك زوجة رئيس الجمهورية، فإن الأوساط الفنية تجد صعوبة فى التغلب عليه، فقد قررت بعض الممثلات والمغنيات، بل حتى بعض الراقصات، (ألا يعشن بعد فى الخطيئة)، ويقال إن بعضهن قد حصلن على مبالغ مالية من أمراء الخليج، أو من الدوائر الإسلامية، مقابل الاعتزال. ومن بين هؤلاء الفنانات التائبات، هدى سلطان التى لعبت أدوارها الأخيرة بالحجاب، وشادية التى اختفت تمامًا من الوسط الفنى بعد الحجاب، وشمس البارودى التى تتمنى لو تتمكن من حرق كل أفلامها القديمة.

ولكن تجد الأنوثة لنفسها طرقًا أخرى، وكما يحدث غالبًا فى مصر يمكن الالتفاف حول القوانين والتحايل عليها، فتترك الفتاة خصلات من شعرها تظهر من تحت الحجاب، أو أن تضع الحجاب ولكنها ترتدى أيضًا البنطلون، كما أن هناك مجلات الأزياء التى ترشد الفتيات إلى المحلات التى يجدن فيها تشكيلة كبيرة من الأثواب الطويلة، أو الملابس الرياضية. كما أن هناك أنواعًا من الأحجبة الممتازة المصنوعة من الحرير، ذات ألوان مبهجة، يمكن أن تشتريها أكثرهن ثراء، اللائى رغم تغطية شعورهن، فإنهنّ لا يبخلن على زينة وجوههنّ.

وليس هناك أى تناقض فى أن هؤلاء الأمهات المحجبات الصغيرات، رغم مقاطعتهنّ للأسلوب الغربى فى ارتداء الملابس، فهنّ يتحدّثن إلى أولادهنّ بالإنجليزية أو بالفرنسية. وإذ يعتاد المصريون على رؤية الحجاب، يفقد إلى حد ما معناه الدينى، ليصبح مجرد عادة متعلقة بارتداء الثياب، حتى لا نقول موضة. وحيث إن الحجاب أصبح شيئًا عاديًا تحوّل الجدل الآن إلى النقاب، وهو الغطاء الذى لا يكشف من وجه المرأة إلا عينيها. إن هذا النقاب هو الذى يمكن أن يصبح عائقًا أمام التواصل، وقد مُنع فى المدارس والجامعات المصرية سنة ١٩٩٤، ورفضت ساحات القضاء لجوء بعض العائلات المسلمة إليها. إن ارتداء بعض المتزمّتات للنقاب يبدو أقرب إلى الإثارة والمزايدة الدينية.

انظر مقال: الحركة النسائية رقم (٥١).

١٤٤ - زغلول / Zaghloul (Saad)

(فى المنزل الذى تربّيت فيه، كان اسم سعد زغلول يُذكر كما لو كان اسما لأحد الآلهة)، هكذا قال نجيب محفوظ. عدد كبير من أبناء نفس الجيل قد يقولون نفس

الشيء، فحتى اليوم ليس هناك بين كل الوطنيين المصريين المخلصين، من يحصل مثله على هذا القدر من إجماع الآراء.

قبل سعد زغلول كان هناك اثنان من زعماء الوطنية المصرية وأبطال الاستقلال، شغلا واجهة المنظر ولكن ليس بنفس القدر من النجاح، الأول هو أحمد عرابى الفلاح الذى أصبح ضابطًا فى الجيش، ثم وزيرًا للحرب، وقد فقد مصداقيته بعد دخول الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢ . والثانى هو مصطفى كامل، المحامى الذى مات فى زهرة العمر سنة ١٩٠٨، دون أن يكون قد حصل على الوقت الكافى لصنع أى شىء. إنهما يبدوان أحيانًا كاثنين من الهواة، غير القادرين على قيادة ثورة شعبية.

أما سعد زغلول فهو من معدن آخر. ولد سنة ١٨٥٦ وبعد تاريخ طويل فى الحياة العامة يصل فى سن الستين إلى زعامة الحركة الشعبية، ويثبت أنه رجل الدولة وبطل الاستقلال، وليس مجرد زعيم أحد الأحزاب السياسية. إن المشوار الذى قطعه خلال حياته يبدو غريبًا على ابن أحد أعيان ريف الدلتا ملاك الأرض الزراعية. بدأ حياته بداية تقليدية جدًا، بحفظ القرآن فى كتاب القرية، ثم الذهاب إلى المدرسة الأزهرية فى المدينة القريبة، ثم إلى جامعة الأزهر فى القاهرة. كان لقاؤه وهو طالب فى الأزهر، باثنين من كبار مصلحى عصره، له أكبر الأثر فى حياته، فأصبح تلميذًا مخلصًا وتابعًا أمينًا لهما، الأول هو جمال الدين الأفغانى، والثانى هو محمد عبده.

حصل على وظيفة محام فى مكتب بالجيزة، ثم قبضت عليه السلطات البريطانية فى يونيو ١٨٨٣، بتهمة اشتراكه فى أنشطة وطنية مخرّبة. أُفرج عنه بعد أربعة أشهر. بدأ فى التردد على صالون الأميرة نازلى، وهى التى ستكون فى المستقبل زوجة الملك فؤاد وأم الملك فاروق، وهناك تعرّف على شخصيات عامة ساعدته فى الحصول على منصب نائب رئيس محكمة استئناف الجيزة. ذهب لقضاء فترات متتالية فى أوروبا، فتعلم الفرنسية والألمانية، ثم حصل على دبلوم فى القانون من جامعة باريس، ثم بفضل

ثراء عائلته تمكن من الحصول على لقب باشا. تزوّج من ابنة مصطفى فهمى رئيس الوزراء، الذى كان مشهوراً بطباعه المسالمة وبمهادنته للإنجليز على طول الخط.

فى وزارة ١٩٠٦ يصبح سعد زغلول وزيراً للتعليم، ثم سنة ١٩١٠ وزيراً للحقوق [الحقانية]. أثناء الحرب العالمية الأولى يحاول سعد باشا إقناع زملائه الوطنيين بعدم مهاجمة بريطانيا، وانتظار نهاية الحرب، وبمجرد إعلان الهدنة فى نوفمبر ١٩١٨، يذهب سعد باشا فى وفد هو واثنان من زملائه إلى المندوب السامى البريطانى للمطالبة باستقلال مصر، هذا (الوفد) يعطى اسمه لاحقا للحزب السياسى الأكثر شعبية فى تاريخ مصر. لا يرد الإنجليز على مطالب سعد وزملائه إلا يوم ٨ مارس ١٩١٩، وذلك بنفى سعد وزملائه إلى جزيرة مالطا.

منذ اليوم التالى تندلع نيران الثورة فى مصر، وتشتعل مصر كلها بالمظاهرات والإضرابات والاغتيالات، واجتمع شمل المسلمين والأقباط فى الكفاح جنبًا إلى جنب من أجل نفس الهدف، قال سعد (اليوم لم يعد هناك القبطى والمسلم، لم يعد هناك إلا المصرى). عاد الوفديون المنفيون إلى مصر، ليسافروا إلى باريس لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح فى فرساى، ولكن أحداً لا ينصت، بل يعود الاحتلال إلى نفى سعد هذه المرة إلى جزيرة سيشيل [فى المحيط الهندى إلى الشرق من أفريقيا]، ثم إلى جبل طارق. لن يعود سعد ورفاقه إلى مصر إلا فى مارس ١٩٢٣، عندما تكون قد حصلت على الاستقلال الإسمى [دستور ١٩٢٢] وتحوّلت إلى ملكية.

تستقبله مصر ببهجة وفرح على أنه زعيم الأمة المصرية. لم يكن هناك من يستطيع تمثيل مصر أفضل من هذا المحامى، صاحب القوام الطويل بأكتافه العريضة مثل فلاحى مصر، وصاحب هذا الشارب الكثيف، وهذا المزيج من الطيبة والدهاء مثل فلاحى مصر. وبدلا من أن يكون لحزب الوفد برنامجه السياسى، فقد قدّم للشعب

المصرى هذا الرجل الذى فاز فى انتخابات ١٩٢٤ بأغلبية ساحقة، وأصبح رئيسًا للوزراء. لكنه بعد بضعة أشهر يضطر إلى تقديم استقالته، بسبب حادثة اغتيال (لى ستاك) سردار الجيش الإنجليزى، القائد الأعلى للقوات البريطانية وللجيش المصرى، مما أعاد فتح جميع الملفات القديمة. قال سعد بمرارة (إن الرصاصة التى قتلت السردار كانت تقصد قتلى).

يرأس سعد باشا بعد ذلك مجلس النوّاب حتى وفاته فى أغسطس ١٩٢٧، فتنزل مصر كلها إلى الشارع لتبكى الرجل الذى وهب نفسه لها. تحمل أرملته صفية هانم زغلول من بعده لقب (أمّ المصريين)، وتستمر حتى موتها سنة ١٩٤٧ فى وضع الأطباق والملاعق الخاصة بالباشا، فى المكان الذى اعتاد الجلوس فيه على مائدة الطعام. دُفن الباشا مؤقتا فى مقابر الإمام الشافعى، فى انتظار أن يتمكن من شغل الضريح الذى كان يُعد له فى قلب القاهرة.

وثار جدل: هل يصح أن يبنى له الضريح على الطراز الإسلامى؟ أم على الطراز الفرعونى؟ كان هذا السؤال موضوع جدل عنيف، ثم انتهى بهم الأمر إلى اختيار الحل الوسط، وهو أن تكون تيجان الأعمدة على شكل زهرة البردى، وأن تكون الجدران الخارجية مائلة [مثل صروح واجهة المعابد الفرعونية]، وكذلك التابوت أقرب إلى الشكل الفرعونى، أما العناصر المعمارية والزخرفية الأخرى فهى أقرب إلى الطراز المملوكى.

لكن حدث بمجرد الانتهاء من تجهيز الضريح، أن نقلت إليه مومياوات مصرية كانت معروضة فى المتحف المصرى! كانت الحكومة الموجودة فى السلطة وهى حكومة مضادة لحزب الوفد، قد برّرت تصرفها بضرورة أن تقدّم إلى هؤلاء الملوك القدامى ما يستحقونه من احترام! كان ينبغى انتظار عودة أصدقاء سعد زغلول إلى السلطة، ليشغل الجثمان الضريح المعدّ له.

إن فلاحى مصر لم ينسوا سعد أبداً، بطل الاستقلال، فبعد سنوات عديدة من موته، سجّل أحد الرحّالة أثناء عبوره فى منطقة ريفية، استماعه إلى هذه العبارة التى قيلت لشخص ذاهب إلى القاهرة (لا تنسى أن تحيى نيابة عنا سعد باشا). ويعتقد بعض الفلاحين أن اسمه كان مكتوبا على بعض وريقات شجر القطن. يرضينى أن أنهى كتابى هذا بمقال عن سعد باشا، هذا المصرى المطربش الذى كانت له نقاط ضعفه وتناقضاته، ولكنه عرف كيف يجمع حول شخصه، كل المصريين، رغم اختلافهم فى الطبقة الاجتماعية والفئة العمرية والدين.

ثبت بمصطلحات وأسماء أعلام وأماكن:

– أرابسك /arabesque: هو أسلوب فى الزخرفة العربية، نشأ بالتدريج خلال قرون ازدهار الدولة العباسية، مستعملاً بعض العناصر النباتية المجرّدة مثل أوراق الشجر باعتبارها عناصر زخرفية، تضاف إليها بعض الأشكال الهندسية كالمربع والدائرة، ثم فيما بعد أضيف عنصر الخط العربى، ليصبح هذا المزيج دالاً على العرب، ومن هنا جاءت التسمية فى بداية عصر النهضة الأوروبية، للإشارة إلى طراز زخرفى عربى.

– أرثوذكس: /orthodox المعنى الحرفى للكلمة هو العقيدة (ذكسا) المستقيمة (أرثو)، ومن كلمة (ذكسا) جاءت كلمات أخرى فى اللغات الأوروبية مثل (دوكترين) أى عقيدة، وكلمة (داكت) بمعنى قناة فى خط مستقيم، ولكن المصطلح أطلق على عقيدة الكنيسة الشرقية منذ انفصالها عن الكنيسة الغربية فى القرن الخامس الميلادى، وأتباع الكنيسة الأرثوذكسية هم أغلبية مسيحيى أوروبا الشرقية وروسيا واليونان وأرمينيا ومصر.

– أيقونة /icon: هى كلمة يونانية تعنى صورة، وقد استعملت هذه الصور المرسومة على الأخشاب أو الأنسجة أو الورق، منذ القرون الأولى للمسيحية، للتعريف بأفراد العائلة المقدّسة، وبموضوعات الكتاب المقدّس، وأشهر هذه الأيقونات فى العالم هى تلك التى تصور المسيح الطفل بين ذراعى أمه، وفى مصر هناك أيقونة القديس جرجس على ظهر حصانه وقد انتصر على التنين، بعد أن ضربه بالحربة فى رأسه (المقصود بالتنين الشيطان أو الإمبراطور الرومانى الوثنى).

– أوستراكا /ostraca: هى كلمة يونانية تعنى أجزاء محطّمة من الفخار أو الحجر (يمكن أن نعتبر أن كلمة شقافة هى المرادف العربى لها) وقد أعيد استعمالها باعتبارها مادة للكتابة عليها، فى عصور الفقر حين لم يكن متاحاً شراء واستعمال

الورق. خلال القرن العشرين اكتشف علماء الآثار أن هذه الأوستراكا تعتبر مصدراً ثرياً جداً للمعلومات عن الحياة فى العصور القديمة، مثلا شقافة مساكن عمّال الدولة الحديثة فى منطقة دير المدينة غرب الأقصر.

- أوشابتى /ushabti: الكلمة مصرية قديمة وتعنى (المجيبين)، أى أولئك الذين يجيبون على نداءات الفرعون المتوفى عندما كان يدعوهم، وهو فى العالم الآخر، إلى خدمته وحراسته وتقديم الطعام له. وهى تماثيل صغيرة من الخشب أو الحجر أو الخزف، كانت توضع مع الأثاث الجنائزى للمتوفى داخل المقبرة.

- بازيليكا /basilica: طراز معمارى ظهر فى العصور القديمة، واستعملته كنائس أوروبا بكثرة منذ العصر البيزنطى، وفيه يتكوّن المبنى من ممر أوسط مستقيم، يقع بين مدخل المبنى (باب الكنيسة)، والمذبح أو (قدس الأقداس) فى عمق الجدار المواجه للمدخل، ويكون هناك على كل من الجانبين الأيمن والأيسر صف أعمدة، تفصل ما بين الممر الأوسط والجناحين. فى كنائس مصر يخصص الجناح الأيمن للنساء والأيسر للرجال.

- بانتيون /pantheon: كلمة يونانية تتكون من مقطعين هما (بان) بمعنى (كل) و(تيون) بمعنى الآلهة، وقد أطلقت على مجمّع الآلهة فى جبل الأوليمب، الذى كان على رأسه الإله زيوس، ثم استعملت الكلمة فى وصف مجمّعات الآلهة فى الحضارات المختلفة. البانتيون فى باريس مثلا يجمع رفات كل الأدباء والفنانين الفرنسيين العظام من أمثال فيكتور هيجو.

- بروتستانت /protestant: هو مذهب دينى مسيحى، ينتشر فى أمريكا وإنجلترا وألمانيا، وقد ظهر فى أوائل القرن السادس عشر، باعتبارها حركة احتجاجية على فساد رجال الكهنوت، قام بها اثنان من المصلحين الدينيين هما مارتن لوثر وكالفين.

- بقشيش: كلمة من أصل فارسى ومعناها (عطية) أو (هبة)، مشتقة من كلمة باقشندة وتعنى (يعطى)، وغالبًا ستكون قد وصلت إلى مصر مع الإنجليز القادمين من الهند.

- البطالمة اللاچيد /ptolemaos/lagos: هى أسرة مقدونية حكمت مصر لمدة ثلاثة قرون، من ٣٢٣ ق. م. تاريخ وفاة الإسكندر الأكبر، وإلى ٤٠ ق. م. تاريخ سقوط حكم كليوباترا ودخول الإمبراطور الرومانى أوكتافيوس مصر. وقد سمّيت بهذا الاسم المزدوج نسبة إلى أحد قادة الإسكندر، الذى حكم مصر ومن بعده أولاده وأحفاده، وهو بطلميوس بن لاجوس (اللاچيدى).

- بطلميوس الأول (سوتير) : حمل كل من البطالمة الخمسة عشر الذين حكموا مصر لقبًا، إلى جوار اسمه ورقمه فى تسلسل أفراد الأسرة، وكان لقب بطلميوس الأول هو (سوتير) ويعنى المخلص، نسبة إلى أنه عندما جاء مع الإسكندر فى جيشه، خلص الشعب المصرى من الاحتلال الفارسى.

- بطرياركية /patriarch: هى كلمة يونانية تتكون من مقطعين هما (باتر) وتعنى الأب، وكلمة (أركيا) وتعنى حكم أو سلطة، والكلمة المركّبة تعنى حكم أو سلطة الرجال الآباء، وهى الكلمة التى تطلق على النظام المتبع فى الكنائس بشكل عام، فباطريارك الأقباط الأرثوذكس هو البابا شنودة الثالث.

- بلهارسيا /bilharziose: هو اسم طفيل فى شكل دودة صغيرة الحجم، لا يتعدى طولها عُشر ملليمتر، تغزو جسم الإنسان عن طريق اختراق جلده، عندما يستحم فى ماء ملوّث أو يشرب ماءًا ملوثًا، وتذهب بالدورة الدموية إلى الجهاز الهضمى ومنه إلى الكبد، أو إلى الجهاز البولى ومنه إلى المثانة البولية، وتنتهى حياة هذا المريض فى غضون سنوات قليلة بسرطان الكبد أو المثانة. حتى منتصف القرن العشرين كان

نصف عدد سكان أرياف مصر مصابين بهـذا المرض، وقد تحسّنت الأوضاع كثيراً في الوقت الحالي. وقد أخذ المرض اسمه من اسم مكتشف الطفيل وهو تيودور بلهارس.

– بورجوازية /bourgeoisie: هي طبقة اجتماعية يتميّز أفرادها بالثراء النسبي وبسكنى المدن، وقد ظهرت التسمية في أوروبا في العصور الوسطى، قبل عصر النهضة، عندما سكن التجار وأصحاب المهن والحرف، داخل أسوار المدن المحصّنة بالأبراج. وكلمة برج (بورج) هي من أصل عربي، وانتقلت إلى أوروبا مع الحروب الصليبية، وما زال هذا المقطع (بورج) موجوداً بكثرة في أسماء مدن أوروبية حالية: بطرس بورج/ هام بورج/ ستراس بورج/ لوكسم بورج/ سالز بورج/ ...

– بيروقراطية/ bureaucratie: هي كلمة تتكون من مقطعين (بيرو) بمعنى مكتب، و(قراط) بمعنى حكم، والمقصود بها تحكم الموظفين المكتبيين في مقاليد الأمور، والنظام في مصر قريب من ذلك.

– بيزنطة/ Byzance: هي مدينة قديمة جداً، تحوّلت في أوائل القرن الرابع الميلادي إلى عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية، وحملت اسم القسطنطينية نسبة إلى اسم الإمبراطور مؤسس الدولة، التي ستعرف لاحقا باسم الإمبراطورية البيزنطية إحدى القوى الكبرى في العالم، حتى تسقط في يد العثمانيين سنة ١٤٥٣، فتتحوّل إلى عاصمة للخلافة الإسلامية، وتحمل اسم الآستانة ثم حاليًا إسطمبول.

– خلقيدونيا/ كالسيدوان : هي مدينة من مدن آسيا الصغرى (تركيا حاليًا)، عقدت فيها مجامع مسيحية مقدّسة لمناقشة مسائل لاهوتية، خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين.

– دولة قديمة (في تاريخ مصر): هي الأسرات من رقم ٣ إلى رقم ٦، بين القرنين ٢٨ و٢٤ ق. م، وأشهر ملوكها زوسر/ خوفو/ خفرع/ منقرع/ أوناس/ أوسركاف/ بيبي.

– دولة وسطى (فى تاريخ مصر): هى الأسرتان ١٢/ ١٣، خلال القرنين ٢٠/١٩ ق. م، ويحمل كل ملوكها إما اسم أمنمحات أو اسم سنوسرت.

– دولة حديثة (فى تاريخ مصر): هى الأسرات من رقم ١٨ إلى رقم ٢٠، بين القرنين ١٦ و١١ ق. م، وأشهر ملوكها أحمس/ تحوتمس/ أمنحوتب/ أخناتون/ توت عنخ آمون/ سيتى/ رمسيس/ مرنبتاح.

– سقارة : هى جبّانة مدينة (منف) عاصمة الدولة القديمة، ويعتقد أن اسمها مشتق من اسم (سوكر) إله العالم الآخر فى مصر القديمة، وقد تكون للتسمية علاقة بظهور أشكال هرمية فى بلاد ما بين الرافدين فى نفس هذا الوقت عرفت باسم سيقورات.

– سيّد البدوى: يحتفل بمولده فى مسجده الجامع بمدينة طنطا، خلال الأسبوع الأول من شهر أكتوبر، وهو صوفى بدوى قدم من المغرب وأقام فى طنطا.

– سيرابيوم/ serapeium: هى مثل كل الكلمات اليونانية التى تنتهى بالمقطع (يوم) تدل على مكان، فالمستشفى هو مكان الصحة (ساناتور يوم)، وللتربية الرياضية (جيمناز يوم)، وهكذا فإن هذه الكلمة تدل على مكان سيرابيس، فكل معابد سيرابيس عرفت بهذا الاسم. هو الإله الذى اجتمع لعبادته اليونانيون مع المصريين، ويعتقد أن اسمه يتكون من الاسمين المندمجين لأوزيريس مع أبيس.

– العصر المتأخر (فى تاريخ مصر): هو مجموع الأسرات العشر الأخيرة من رقم ٢١ إلى رقم ٣٠، والتى تتوافق مع القرون من رقم ١١ إلى رقم ٤ ق. م، وهى الفترة التى أصبحت فيها مصر ضعيفة غير قادرة على صد الغزوات الأجنبية، ليبية/ نوبية/ فارسية/ آشورية.

– فلوبير/ Flaubert: من أدباء منتصف القرن التاسع عشر فى فرنسا، نصحه الأطباء بالذهاب إلى مصر هربًا من برودة جو شمال فرنسا حيث يعيش، وذلك لدفء وجفاف جو مصر شتاءً، فجاء سنة ١٨٤٩، ليقضى أغلب الوقت فى الصعيد.

– كاثوليك/ catholic: هو اسم كنيسة أوروبا التى تتبع بابا روما، وأكثر مسيحيى العالم من أعضائها.

– كاليفورنيا : هو اسم الولاية الأمريكية التى تقع أقصى غرب الولايات المتحدة، على ساحل المحيط الهادى، وكان ظهور الذهب فيها فى منتصف القرن التاسع عشر، السبب فى أنها أصبحت قريبة الشبه بالجنة الموعودة، وفى اجتذاب المهاجرين إليها وسرعة تعميرها.

– كوزمو بوليتانية /cosmopolitanism: مصطلح يستعمل بكثرة حاليًا، لأنه قريب الشبه من مصطلحات العولمة، والكلمة يونانية قديمة وتعنى القرية الكونية، فالمقطع (كوزمو) يعنى الكون، والمقطع (بوليت) أو (بوليس) يعنى مدينة، فهليوبوليس هى مثلا مدينة الشمس، وكلمة (بوليسى) بالإنجليزية تعنى سياسة أو قيادة جموع السكان فى المدينة. أفضل نماذج الكوزموبوليتانية فى مصر، هى مدينة الإسكندرية خلال النصف الأول من القرن العشرين، حين كان ربع سكانها من جنسيات غير مصرية من المسيحيين واليهود.

– لوتى (بيار) /Pierre Loti أديب فرنسى زار مصر فى أوائل القرن العشرين ولفت الانتباه إليها بما كتبه عنها، وقد أحال مؤلف القاموس إليه عدة مرات.

– ماكسيم دى كامب (دى كان) /Maxime Du Camp زميل رحلة فلوبير إلى مصر، وكان أهم ما أنجزه خلال الرحلة أقدم مجموعة صور فوتوغرافية عن مصر سنة ١٨٤٩ .

– مسكونى /oecumenic: إن إطلاق هذه الكلمة لوصف المجامع المسيحية لمناقشة قضايا خاصة باللاهوت، كان يدل على اشتراك أعضاء من العالم كله، من المسكونة كلها، فى الحضور والمناقشة.

– منظور /perspective: هو أسلوب فى الفنون التشكيلية لم يُكتشف إلا فى بداية عصر النهضة قرن ١٦، ويسمح بتصوير المناظر الطبيعية كما لو كانت كل الخطوط تنبع من نقطة واحدة، هى قمة مخروط رؤية المنظر الطبيعى.

– موريسك/موريش -mauresque/morish: هو أسلوب معمارى يمزج بين عناصر مختلفة من البيئة الإسلامية فى الأندلس، وعناصر من العمارة الأوروبية فى عصر النهضة، وقد انتشرت نماذج هذا الأسلوب فى جنوب إسبانيا، وفى جنوب شرق آسيا؛ حيث وصل البحارة الإسبان لاحقا، ومن أفضل نماذجه فى مصر عمارة مصر الجديدة (هليوبوليس) فى بداية القرن العشرين.

– موزيون / museum: هو مجموع ربات الفنون السبع فى الأساطير اليونانية، وهى الكلمة التى أخذت منها كل الكلمات الدالة على متاحف الفنون فى اللغات الأوروبية، وهى كذلك الكلمة المأخوذ منها كلمة موسيقى.

– مونوفيزيت / monophisite: هى الكلمة التى تستعمل فى وصف الكنيسة الأرثوذكسية، ومعناها مشتق من معنى الكلمتين اللتين تتكوّن منهما، (مونو) بمعنى واحد، و(فيزيت) بمعنى طبيعة، للدلالة على أن يسوع المسيح لم تكن له إلا طبيعة واحدة. وقد كانت هذه المشكلة هى سبب الانقسام الذى وقع فى القرن الخامس بين كنيسة مصر وكنيسة روما القائلة بمذهب الطبيعتين.

– نرفال / Nerval: هو أديب فرنسى له مؤلفات مختلفة لكن أهمها بالنسبة إلى موضوع هذا الكتاب، هو وصف رحلته إلى مصر ولبنان وتركيا، التى أسماها (رحلة إلى الشرق) وخصص لكل بلد أحد أجزاء الكتاب، وقد قام بهذه الرحلة سنة ١٨٤٣ .

– هبتاستادوم / heptastadium: هى كلمة أطلقت على الممر الذى بناه معمارى الإسكندرية، ليصل بين الشاطىء وجزيرة فاروس، والكلمة يونانية وتتكون من كلمتين،

الأولى هى (هبتا) ومعناها سبعة، والثانية هى (ستاديوم) وهى وحدة قياس طولها حوالى ١٧٠ مترًا، أى أن طول الممر المبنى فى الماء كان حوال ١٧٠ مترًا × ٧ .

– هكتار: وحدة قياس مساحة الأرض الزراعية المستعملة فى أوروبا، وتساوى عشرة آلاف مترًا مربعًا، ومن المعروف أن وحدة قياس مساحة الأرض الزراعية فى مصر هى الفدان وتساوى حوالى ٤٢٠٠ مترًا مربعًا، وقد استعملناها فى مصر منذ بداية العصر التركى.

– وجدتها /eureka: هى الكلمة التى أطلقها أرشميدس عند وصوله إلى حل مسألة الكثافة النوعية للمواد المختلفة، وقد استعملها المؤلف روبير سوليه فى لفظها اليونانى (أوريكا)، عندما توصّل شامبوليون إلى اكتشاف سر الكتابة المصرية القديمة.

– يوتوبيا / utopia: هى المدينة الفاضلة التى ظهرت فى الأدب العالمى مرات عديدة منذ أفلاطون فى جمهوريته، ثم توماس مور الإنجليزى فى القرن السادس عشر. وقد تحدث عنها مؤلف القاموس فى موضوع أتباع سان سيمون.

المؤلف فى سطور

- روبير سولية :

ولد فى مصر سنة ١٩٤٦ لأسرة لبنانية ، وتعلم فى مدارسها حتى نهاية المرحلة الثانوية سنة ١٩٦٢ حين أدى تأميم تجارة والده إلى هجرتهم من مصر .

التحق فى باريس بكلية الصحافة ومارس مهنة الصحافة من ١٩٦٦، حتى وصل إلى رئاسة تحرير جريدة لوموند ذائعة الصيت .

بدأ يعود بشكل دورى إلى مصر منذ ١٩٨٤ حين بدأ تأليف رواية السيرة الذاتية (الطربوش) ، ثم كتب عن مصر كذلك (مصر ولع فرنسى) ورواية (مملوكة) والكتاب الذى نحن بصدده (قاموس عاشق لمصر) .

المترجم فى سطور

– عادل أسعد الميرى:

– بكالوريوس طب من جامعة عين شمس عام ١٩٨٠م .

– دبلوم أدب فرنسى من السوربون ١٩٩٤م .

– دبلوم آثار مصرية من جامعة القاهرة ١٩٩٧م .

– دبلوم آثار إسلامية من جامعة القاهرة ١٩٩٩م .

– عمل طبيباً فى وزارة الصحة المصرية من ١٩٨٠م إلى ١٩٨٤م .

– ثم مرشداً سياحيًا باللغتين الإنجليزية والفرنسية من عام ١٩٨٥م إلى عام ٢٠٠٢م .

– ثم مدرسًا للغة العربية فى ليسيه قنصلية فرنسا بالمعادى بالقاهرة I.F.C من ٢٠٠٢م إلى ٢٠٠٥م .

– ثم مدرسًا للغة العربية فى قسم تدريس العربية المعاصرة D.E.A.C بقنصلية فرنسا بالقاهرة منذ ٢٠٠٦م وحتى الآن .

من كتبه المنشورة:

١ – القارئ الفضى عام ٢٠٠٤م .

٢ – القارئ الجالس القرفصاء عام ٢٠٠٥م .

٣ – تأملات جوال فى المدن والأحوال عام ٢٠٠٦م .

وكتب الثلاثة من مطبوعات مركز الحضارة العربية .

٤ – ثم كتاباً بعنوان (تسكع) عام ٢٠٠٨م من مطبوعات دار آفاق ، فى بعض أوضاع مصر مقارنة بالدول الأوروبية .

٥ – ثم السيرة الذاتية شبه الروائية (كل أحذيتى ضيقة) عام ٢٠١٠م من مطبوعات دار ميريت بالقاهرة .

٦ – بالإضافة إلى ترجمة كتاب (الفن المصرى) عام ٢٠٠٨م ، من الفرنسية إلى العربية بالاتفاق مع المؤسسة الفرنسية لاروس ، والمركز الثقافى الفرنسى بالمنيرة بالقاهرة ، والهيئة المصرية العامة للكتاب ، فى إطار التعاون المشترك فى المجال الثقافى بين مصر وفرنسا ، وهو من تأليف كرديستيان زيجلر .

التصحيح اللغوى : **لوتس على عمر**
الإشراف الفنى : **حسن كامل**



يشتمل هذا الكتاب على ١٤٤ مقالا عن مصر ذات موضوعات متنوعة؛ من توت عنخ آمون ورمسيس الثانى، إلى عبد الناصر وحسنى مبارك، ومن المشربيات ومآذن المساجد، إلى وجوه الفيوم وأديرة المسيحية، ومن نجيب محفوظ إلى عمر الشريف. كتبت كل المقالات من وجهة نظر شخصية، ولكنها بقدر الإمكان التزمت الموضوعية.

تصميم الغلاف: أحمد بلال